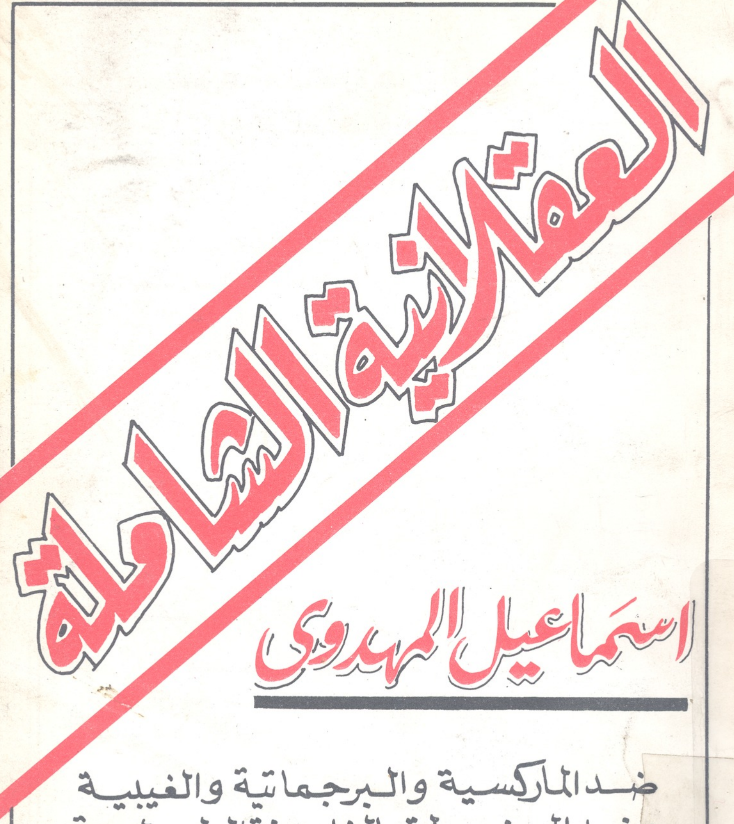


ضد الماركسية والبرجماتية والغيبية
وضد السفسطة والفلسفة الطفولية

الطبع والنشر للمؤلف
أكتوبر ١٩٩١

اسماعيل المهدوى

العقلانية الشاملة

ضد الماركسية والبرجماتية والغيبية
وضد السفسطة والفلسفة الطفولية

رقم الايداع فى دار الكتب ١٩٩١/٧٦٩٨

الطبع والنشر للمؤلف

العنوان : ٤ (أ) عمارات الشرق (شارع د . محمود ابراهيم) أمام الحديقة الدولية ، بمدينة نصر ، القاهرة . تليفون : ٦٠١٥٢٧

تنـــويـه

كنت قد رتبت نفسي على أن يصدر هذا الكتاب قبل منتصف العام على الأكثر. لكن هاأنذا أكتب هذه الصفحة وقد دخلنا في الشهور الأخيرة من العام!

ولا يتسع المجال للإشارة إلى وقائع ومحاولات منع صدور الكتاب أصلاً، أو على الأقل تعطيله وعرقلته، مع إغراقه في الأخطاء واللخبطة التي تطمس أفكاره. لكن يكفي أن أقول هنا، إنني اضطررت إلى التنقل بين ست مطابع جمع، ثلاث منها فقط اشتركت في جمع الكتاب: الأولى جمعت أكثر من نصفه خلال صعوبات واحتكاكات متواصلة ومتزايدة انتهت إلى قطع التعامل، والثانية زادت فيها ضغوط التوتر وتلبد المشاكل بدرجة لم تسمح باستكمال الصفحات الأخيرة!! وقد أشرت في بيان أصدرته في ١١ سبتمبر بخصوص هذا الكتاب، إلى بعض وقائع ما تعرضت له (حتى في عقر منزلي) من محاولات عدوانية مجهضة وفاشلة، تحركها وتغطيها مرافق الحكومة والجهات المكملة لها!! ومع ذلك، فها هي عملية طبع الكتاب تبدأ. ولن يختلف ما سيتعرض له بعد صدوره من حصار وتحجيز وتعمية، عما تعرض له قبل صدوره من مقاومة وعرقلة. لكن زيادة وتضاعف الشراسة لا يتيح للأنياب والمخالب المكسورة قدرات أكثر، رغم أنه يورطها في محاولات أكثر!

وعلى كل حال، فالمهم أن يفهم القارئ الكريم الظروف الصعبة لصدور الكتاب، فيسبغ عليه ما يستحق من تسامح وتعاطف واهتمام. وسوف يجد (خصوصاً في الملازم الأخيرة) الكثير من الأخطاء والتصحيحات اليدوية، مع الكثير من اللخبطات بل واللخبصات الاضطرارية!! فليغفر لنا ذلك. وليعتبرها معالم انتصار على الظروف الصعبة المظلمة التي تواجهها الثقافة والفكر الحر في مصر من مرافق الحكومة وذيول الحكومة وعصابة الأربعة أحزاب المكملة لها.

هذا، وكنت قد أصدرت خلال ٨٩-١٩٩٠ بعد الإفراج عني، كتب: «المبادئ الفلسفية الجديدة»، ثم «معنى الديمقراطية»، ثم «اشتراكية الاستثمارات الخاصة». وكان المفروض أن أستكمل ثلاثية الأيديولوجية (أو رباعية الأيديولوجية ومنهجها الفلسفي) بكتابي: «نظرية في فلسفة التاريخ». لكن كما أوضحت في بند ١٣ وغيره، لم أستطع حتى الآن تجهيزه للطبع، فضمّنت هذا الكتاب مؤقتاً بعض فصوله. وأرجو أن أصدره عندما تتحقق الظروف الدولية المنتظرة، القادرة على تحويل بلادنا المنكوبة من الظلام إلى النور.

محتويات الكتاب

✪ ✪ منطق العقلانية والتناقض (٧ فصول) :

✪ ✪ العقلانية واللاعقل فى مختلف المجالات (١٤ بندا) :

✱ الفهرس العام ، ثم عناوين وبيانات عن بعض الأعمال السابقة



منطق العقلانية والتناقض

الخطأ يمكن تصحيحه ، والكذب يمكن تفنيده والرد عليه ، لأنهما يخضعان للتحقيق المنطقى . لكن الغيبية (١) تعنى بتحصيل الحاصل رفض الحساب العقلانى . وبهذا المعنى نفسه ، نجد أن الغيبية تنفى طريق اللغة المنطقية ، ومن ثم لا تخضع للجدال والمحاجة المنطقية ، ولكن تصبح مجرد مادة للتحليل الفلسفى العلمى .

(١) الغيب والتغييب فى العربية هو عكس الشهادة أى الادراك المباشر . ومن هنا فالترجمة الافرنجية الدقيقة لكلمة الغيبية هى mysticism (التى تعنى أيضا التصوف ، لكن تعبر أصلا عن الأسرار المخفية غير القابلة للتحديد المنطقى – حيث الكلمة مشتقة من mystos و mutus / أخرس أو مغلق العينين والشفتين !!) . أما كلمة occultism ، فتعنى الغيبية السحرية ، أى تعبر عن شعوذات التخريف السحرى .

إهـــداء

شاءت الظروف أن تصل كتبي الثلاثة الأخيرة التي أصدرتها بعد الافراج عني ، إلى يد قارىء كريم وصديق جديد ، خارج الحدود في أقصى الأرض ، هو الأستاذ محمد رستم . واتصلت بيننا المراسلات الفكرية . ثم أثار في خطابه السابق تساؤلات ومناقشات فلسفية ، كان ردي عليها هو الفصول السبعة التالية .

ولهذا ، أعتقد أن من حقه عليّ ومن واجبي نحوه أن أجعل إهداءها إليه .

ومن ناحية أخرى ، رأيت أن أنتهز فرصة دفعها إلى المطبعة فأضيف إليها بعض الكتابات التي كنت قد كتبتها وراء الأسوار وأرسلتها إلى عدة جهات من قبل ، والتي تتعلق أيضا بموضوع العقلانية ومكملاتها الفلسفية ، وهذه هي التي تضمنتها بنود القسم الثاني من الكتاب .

١١ مارس ١٩٩١

الفصل الأول - معنى الفلسفة والمنطق

■ الموضوعات التى أثرتها فى خطابك، موضوعات هامة جدا- رغم أننى لم أكن أظن أنها تحتاج إلى مناقشة! وهى إماموضوعات تعبر عن خلافات أو تساؤلات ملحة، وإما موضوعات نتجت عن مغالطات ثقافية شائعة وسائدة، خططتها وفرضتها على الرأى العام الثقافى (العالمى وليس فقط العربى) مراكز وأجهزة مكافحة الفكر العقلانى وصناعة اللاعقل والتخليطية المخططة التى كتبت عنها كثيرا.

هذا وأرجو أن تسمح لى بأن أشير فى ردودى أحيانا إلى بعض صفحات كتبى الثلاثة الأخيرة الموجودة عندك، وذلك للمزيد من الاستكمال والتحديد.

ونبدأ بالموضوعات التى تحتاج إلى مناقشات أقل، ثم ننتقل منها إلى الموضوعات الأطول.

المعنى القديم للفلسفة

✪ مامعنى الفلسفة ؟

هذا الموضوع تناولته كثيرا فى كتبى الأخيرة (وخصوصا فى «خاتمة» كتاب الفلسفة» بعنوان «الفلسفة هى جوهر الثقافة» من ص ١٤٥، وفى المقال الأخير من ملحقات كتاب «الاشتراكية والاستثمارات الخاصة» بعنوان «دفاع عن الفلسفة والتخصص الفكرى» من ص ٢٤٤). لكن من المؤسف أن التشويش اللاهوتى القديم والتخليط اللاعقلى والدهمائى والتسفيل التجهيلى والتسطيحى فى بلادنا وفى العالم، جعل مثل هذا الموضوع الواضح يحتاج إلى توضيح!

على كل حال، كلمة «فلسفة» هى كلمة لاحقة ظهرت مؤخرا فى اليونان فى القرون المعروفة قبل الميلاد، التعبير عما كانت تعبر عنه كلمة أقدم هى «صوفيا» Sophia (وترجمتها المعروفة: الحكمة). وكانت هذه قد بدأ استعمالها أو استعمال مرادفاتها (مثل: سكن أى سلام- ومنها سكينتيا Scientia/ علم، وأيضا سكندار/ دار السلام)، منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فى بعض مدن سواحل البحر الأبيض. وكانت «صوفيا» تعنى أصلا صفاء أو سكينة العقل

القادر على الحكم الصائب، أى «صفاء» أو «صواب» النظر العقلى (والكلمتان المذكورتان مشتقتان من نفس أصل كلمة صوفيا/ سوفيا التى منها أيضا كلمة «الشوف»)[1].

ثم قام الكهنة وشبكاتهم اللاعقلية كالمعتاد بملاحقة تلك الكلمة الاستراتيجية، واستخدموا فى ذلك كالمعتاد أيضا، «حسنى النية» من السطحيين ومنخفضى الأذهان أو الجهلة، وليس فقط الدجّالين والحثالات. فوصلت الكلمة بالابتذال والتسفيل والتحوير التشويهى والتعكيسى، إلى معان مضادة! وكان أشهر هذه المعانى المضادة: «الحكمة» التخريفية واللاعقلية المسماة بالصوفية Sufism، و«حكمة» المغالطة والتضليل المسماة بالسفسطة Sophism. ولأنه بقيت رغم ذلك بعض الرواسب الحسنة فى المعنى القديم للحكمة، فقد اخترع الحكماء الجدد إذ ذاك منذ القرن السادس قبل الميلاد كلمة جديدة: تحافظ على أصولهم القديمة، مع تمييزهم عن «حكماء» التخريف والشعوذة وأيضا عن «حكماء» المغالطة والدجل اللفظى المذكورين أعلاه. وكانت الكلمة الجديدة هى: «حب الحكمة/ فيلوصوفيا».

ومن ذلك تجد أن **أصل معنى الفلسفة هو: البحث عن الحقيقة والتبصير بالحقيقة، بالاستخدام السليم والصحيح للعقل السليم والصحيح.** هذا هو المعنى الأصلى الواسع للفلسفة فى مجال البحث وفى مجال التعليم، منذ كانت تسمى باسم «الحكمة». وواضح أن البحث أو النظر فى الحقيقة لم يكن يتعلق بالخبرات والجزئيات التقنية الخاصة بالحرف أو المهن العملية، ولكن كان يتعلق بالأصول والمبادئ والكليات الفكرية: ابتداءً من أصول الأنهار والبحار والأمطار، إلى أصول الشعوب واللغات والتاريخ، إلى أصول الأرض والسماء والنجوم، إلى أصول الوجود كوجود والعدم كعدم، الخ، فضلا عن مبادئ وقواعد السلوك والأخلاق والنظام الاجتماعى. ولمكافحة الحكمة أو الفلسفة بهذا المعنى العقلانى الشامل، ظهرت وروّجت وفُرضت بالقهر الاجرامى، القصص والتخريفات الكهنوتية التى تعطى إجابات وهمية سحرية عن تلك التساؤلات والموضوعات الفلسفية.

---

(١) فى اللغات الفينيقية والسامية/ العبرية، نجد أن كلمة شوفيت وكلمة سافت /suffete/ saft shophet كانت تعنى القاضى أو ناصر العدالة. وكان اليهود يسمون فى بعض البلاد فى العصور الوسطى (ومنها مصر) باسم «شفت»! (لأن أصل معنى الهودية مشتق من الهدى أى العقلانية)! ومن ناحية أخرى، يجب ملاحظة جذر «سكن» فى اسم سكندنافيا مثلا، وليس فقط فى اسم اسكندرية التى أعيد بناؤها بعد ثلاثة آلاف عام منسوبة إلى الاسكندر المقدونى! وهنا مانجده أيضا فى اسم سكوت + لاند، وفى اسم أير + لاند (حيث eirene تعنى فى اليونانية السلام والسكينة)، وفى الاسم القديم للجزيرة البريطانية ألبيون كما سأذكر.

ومعنى ذلك أن الخرافات والتعاليم الدينية القديمة– وأولها وعلى رأسها الخرافات المصرية القديمة التى امتدت إلى شرق ثم شمال البحر الأبيض ثم بقية العالم– إنما رُوِّجت منذ البدء كبديل مزيف للأفكار والتفسيرات التى كان يصل إليها الحكماء أو الفلاسفة بالاجتهاد العقلانى ثم ينشرونها بالتعليم التفكيرى التبصيرى. فالفلسفة كانت منذ البدء هى البديل العقلانى للدين اللاعقلى (الذى تمركزت جذوره فى مصر الفرعونية). ولاحظ أن كلمة «دين» (وباليونانية ديون Deon) كانت هى أيضا تعنى فى الأصل واجب الضمير أو مذهب الالتزام الأخلاقى العقلانى، ثم انقلب معناها كما انقلب معنى صوفيا!

وفى العصور «الطبيعية» المذكورة، كان «الحكام» يُختارون من «الحكماء» (والكلمتان من أصل واحد– وهذا ماعبرت عنه ملاحظة أفلاطون المعروفة عن ضرورة أن يكون الحكام فلاسفة أو أن يكون الفلاسفة حكاما!). وهذه الحقيقة التاريخية واضحة فى اللغات السامية والفينيقية القديمة التى كانت تسمى الحكام Suffetes أو Shophet (ومن نفس الأصل ظهرت الكلمة الروسية المعروفة Soviet/ سوفييت). ورغم أن هذه الكلمة كانت ترادف ماسمى بعد ذلك باسم «مجلس الحكماء» أو «مجلس العقلاء» أو «الهداة المهديين»، الخ، إلا أنها ترجمت فى التحويرات الكهنوتية القديمة إلى معنى «القضاة» (انظر مثلا سفر «القضاة» الذين منهم شمشون!!)، كما ترجمت إلى معنى «اليهود»/ الهوديين! وبذلك انقلب معناها أيضا، حيث حل حكم الكهنة والقضاة الدينيين محل حكم الحكماء أو الهداة العقلانيين!

وعندما ظهرت الفلسفة والحكمه العقلانية مرة أخرى لدى اليونانيين فى تاريخهم القديم المعروف فى القرن السابع قبل الميلاد (بعد عصور الظلام والتعمية القديمة التى امتدت من الألف الثانى قبل الميلاد)، ظهرت فى هذه المرة أيضا كبديل للدين الشرقى الذى كان قد زحف وتخندق فى العالم اليونانى. وقد بدأت هذه المحاولات الفلسفية المعروفة، فيما يسمى «الفلسفة الايونية» (على السواحل الايونية شمال بحر إيجه). وكانت تسمى «مدرسة الطبيعيين الأوائل»– لأنهم كانوا يحاولون تفسير الطبيعة وتفسير مبادئ الوجود تفسيرا «طبيعيا» عقلانيا.

ومع ذلك، لم يلبث اللاعقل الدينى الزاحف من الشرق الفرعونى أن أخذ يغزو ويقتحم مجال هذه الفلسفة أيضا، حتى اختلط فيها العقل باللاعقل، واختلطت الفلسفة بمعناها الصحيح

باللاهوت أو بالدين المتفلسف. وفى مدرسة الاسكندرية البطلسية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، رجعت كلمة «حكمة» مرة أخرى- لكن بمعنى الخليط الفلسفى الدينى واليونانى الفرعونى! وفى العصر الاسلامى، ظهر مايسمى «إخوان الصفا» (= إخوان الحكمة) الذين قدموا خليطا ماسونيا من هذا النوع، يجمع أيضا بين قليل من الفلسفة وكثير من الأساطير الدينية الشرقية. وكلما زاد التدهور وزاد اللاعقل فى المجتمع البشرى، انخفضت نسبة العقل أو الفلسفة بالمعنى الصحيح فى هذا الخليط الفلسفى الدينى القديم والمتزايد فى الانحدار والتدهور.

ووصل الأمر فى قرننا العشرين هذا، إلى درجة أن مجلة «العربى» الكويتية (قبل تحرير/ تحريق الكويت!) كانت تسمى اللاهوتى أبوحامد الغزالى باسم «الفيلسوف الغزالى»-رغم أنه استمر طوال حياته يجاهر بالعداء للفلسفة ويفتى باعدام الفلاسفة منذ أصدر كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة»!! ومعنى ذلك أن الغزالى الذى ظهر منذ ألف عام، كان أكثر صدقا وأمانة فى عدائه للفلسفة ممن يدافعون عنه اليوم باسم الفلسفة!!

ماذا بقى للفلسفة ؟

● من ذلك تجد أن المعنى الأصلى الصحيح للفلسفة واضح، ويختلف عن المعنى اللاهوتى واللاعقلى المشوه المزيف أو المخلوط. **فالفلسفة لاتكون فلسفة إلا إذا كانت تؤمن بالعقل أولا وفوق كل شئ، وإذا كانت لاتستخدم فى بحثها إلا العقل فقط.** ومن ناحية أخرى، فالفلسفة التى رأينا أنها بدأت كبحث عقلانى فى مختلف الأصول والمبادئ والكليات الفكرية، لم تلبث أنواع أو مجالات البحث فيها أن انقسمت إلى فروع ثم إلى تخصصات. وبذلك ظهرت وتفرعت العلوم المختلفة، انطلاقا من الجذر العقلانى للفلسفة: ظهرت الجغرافيا والفلك والطب والفيزياء، الخ. وبالمزيد من التطور والتخصص، تحول كل فرع منها إلى شجرة مستقلة ذات فروع جديدة. ولهذا، كانوا يسمون الفلسفة «**أم العلوم**»، لأنها ولدت العلوم علماً بعد علم.

وبعد قرون وعصور من تفرع الفروع وتوالد الأشجار الجديدة، بقى للبحث الفلسفى حتى اليوم مجال الأصول والمبادئ والكليات الفكرية الأعم للوجود والطبيعة

والانسان (كمجتمع وكفرد وكعقل مفكر). وهذه هى التى لاتدخل فى اختصاصات العلوم، أو هى تلك التى تعلو على أبحاث العلوم المتخصصة- بما فى ذلك أصول العلوم. ولذلك أصبحت الفلسفة تسمى أيضا «علم العلوم».

لكن هذه الملاحظات تحتاج إلى مزيد من التدقيق.

فيجب عند تعريف «الفلسفة»، أن نميز بين عدة مستويات منها، أهمها مستويان:

أولا: الفلسفة كعلم. وهذا العلم- فى جانبه التقريرى- يدرس مختلف أنواع وتطورات المذاهب الفلسفية منذ أقدم العصور. وهو فى هذا ينقسم وفق مجالات الفلسفة، كما ينقسم وفق مراحل تاريخ الفلسفة، أو وفق مذاهبها واتجاهاتها، الخ. وواضح أن هذا علم متخصص، مثل أى علم متخصص. ثم إنه- فى جانبه الابداعى أو الاكتشافى- يعنى استخدام هذا التخصص الفلسفى فى البحث عن الحقيقة فى مجال الأصول والمبادئ والكليات الأعم المذكورة، ومنها أصول ومبادئ منهجيات العلم، مع البحث عما يمكن الوصول إليه من تنسيق وتكامل مذهبى شامل لمبادئ الوجود والطبيعة والانسان.

وثانيا، الفلسفة كوظيفة ذهنية تفكيرية. وهذه إحدى الوظائف التفكيرية العليا التى تصل إليها بالضرورة الميكانيزمات المرتفعة للادراك التفكيرى والخبرات الثقافية والتحصيلات الذهنية الأخرى. فالذهن البشرى الذى تتحرك مدركاته بالضرورة فى اتجاه تعميمى متصاعد Hierarchical (مثلا: من هذه البرتقالة إلى معنى الفاكهة إلى معنى النبات، الخ)، تتحرك تصوراته العامة أيضا فى اتجاه متصاعد إلى الكليات الأعم والأشمل، ومن ثم يصل بالضرورة إلى «تصورات عليا» عن مبادئ الوجود والطبيعة والانسان والحياة والسلوك والأخلاق، الخ. وهذه هى الفلسفة كوظيفة تفكيرية، يؤديها الذهن بدرجة أو بأخرى من الارادة أو اللاإرادة ومن الوعى أو اللاوعى.

وغنى عن البيان، أنه كلما كان تفكير الفرد ومجتمعه أرقى وأكثر منطقية وأعمق وعيا، كلما كانت فلسفته هذه أقل خطأً وتخليطا. ومع ذلك، فلا يمكن للفلسفة كوظيفة تلقائية، أن تصل إلى نتائج قريبة من الصواب، بدون مساعدة وإرشاد وتوجيه الفلسفة المتخصصة المذكورة

أعلاه. وإلا، فإن الفرد- كما يحدث للأغلبية- سيقع ضحية التصورات الدينية السحرية والغيبية، أو التصورات التخليطية والسفسطائية والقاصرة. وإذا تأملت تلك التصورات الغيبية أو المختلطة لدى معظم الناس- بما فيهم المتخصصون فى مجالات نظرية أو عملية أخرى غير فلسفية- ستجد أن الواحد منهم قد يكون عملاقا فى تخصصه، ولكن بفلسفة طفل- أى بفلسفة لاتكاد تختلف عن الفلسفة التى يتوارثها الدهمائى الجاهل عن عصور الظلام! وهذا يشبه تفكير الشخص المتخلف فى العصور القديمة، الذى كان يؤمن بأن من أوضح البديهيات التى لاتقبل الشك أنه يجب افتراض موجود ما (ولو مجرد ثور!) ترتكز عليه الأرض لكى لاتقع فى الفضاء!!

البذرة والشجرة

* تسأل بعد ذلك عن العلاقة بين الفلسفة والمعرفة والعقلانية.

وواضح كما قلت أن الفلسفة تتعلق بالأصول والمبادئ والتصورات الأعم، بينما المعرفة تشمل كل ما يمكن أن يصل إليه العقل ووسائل المعرفة. ومن هنا، فان «المعرفة» (بالمعنى الصحيح وليس بمعنى المعرفة «الغنوصية» أى المعرفة السحرية الخرافية المزعومة)، هى أقرب إلى «الثقافة» (وذلك أيضا بالمعنى العقلانى الصحيح وليس بمعنى «ثقافة» الشعوب بالبدائية أو «ثقافة» العمال والجماهير المتخلفة أو «ثقافة» الطفل كما أوضحت فى كتاب الفلسفة من ص ١٤٧). كل مافى الأمر أن المعرفة أو المعارف تشمل كل متحصلات التعليم والمعلومات والتفكير والعلوم، الخ، بينما الثقافة تقتصر على خلاصة المعارف وخلاصة تحصيلات التعليم والخبرة والتراث الاجتماعى. إنها- كما قال مفكر فرنسى لمّاح- مايبقى فى أذهاننا عندما ننسى ما تعلمناه.

والأدق أن نقول: إن الثقافة هى ماتستخلصه أذهاننا من جزئيات ماتعلمناه (سواء نسيناه أو بقى بعضه مستعملا فى سياقاته). ثم فوق هذه الخلاصات أو الاستخلاصات الثقافية، توجد التصورات الأعلى أو الكليات الأعم، وهى الفلسفة.

أما عن العلاقة بين الفلسفة والعقلانية، فهى علاقة واضحة فيما ذكرته عن الفلسفة وفيما سأذكره عن العقلانية. لكن يمكن أن نقول باختصار، إن العقلانية هى مذهب شمول

العقل. ومن ثم فهى التصور أو المبدأ الأول من تصورات ومبادئ الفلسفة والعلوم، أو الشرط الأول والأساس المنهجى الأول للفلسفة والعلوم. وهذا يعنى أن الفلسفة والعلوم أوسع طبعا من هذا الجوهر أو المبدأ أو الشرط الأول. وللتبسيط، يمكن أن نقول إن العقلانية هى «بذرة» **الفلسفة، والفلسفة هى جذور شجرة العلوم والمعرفة والثقافة التى تتقدم من الجذع إلى الفروع إلى الثمار.**

هذا طبعا عن الفلسفة الصحيحة التى يجب أن تكون عقلانية، وعن العلوم الحقيقية التى يجب أن تكون عقلانية، وعن المعارف والثقافات التبصيرية التى يجب أن تكون عقلانية. وإذن فهذه التحديدات لاعلاقة لها بألاعيب الدجل والنصب والاحتيال أو االتخليط «المغشوش» فى استعمالات اللغة، وخصوصا استعمالات المصطلحات والكلمات المفتاحية. من ذلك مثلا، أن الجهلة أو التجهيليين والسفسطائيين الذين يتمتعون بكل وسائل الترويج والتدعيم، يستعملون كثيرا كلمة «فلسفة» بمعنى لافلسفى، وكلمة «عقل» أو «عقلانية» بمعنى لاعقلى، وكلمة «علم» بمعنى لاعلمى، الخ الخ! لكن بديهى أن مثل هذه الاستعمالات التخليطية لاتدخل فيما قلناه وفيما سنقوله.

معنى المنطق

✪ ننتقل الآن إلى معنى المنطق.

● أبسط تعريف للمنطق، أنه قواعد الصواب، أو العلم المختص بقواعد الصواب.

وكما هو معروف، كان الفلاسفة منذ أرسطو يسمون المنطق بأسم «الأورجانون» أى الآلة أو الأداة- بمعنى آلة العلم، أو آلة العقل والتفكير السليم عموما. ولهذا كان بعض القدماء يرون أنه ليس فرعا من فروع الفلسفة، ولكنه آلة الفلسفة والعلوم. والحقيقة أن الآلة العامة للعلوم هى جزء أو فرع من علم العلوم أى الفلسفة. أما شيشرون، فكان يسميه «طب الذهن» medicina mentis، بمعنى أنه المختص بصحة وسلامة التفكير. ويسميه بعض الفلاسفة القدماء أيضا «القوانين»، لأنه يتعلق بقوانين العقل.

والخلاصة أنه يمكن تعريف المنطق بأنه مبادئ وقواعد الصواب، أو أيضا العلم الذى يبحث فى مبادئ وقواعد الصواب- بما فى ذلك البحث فى قواعد ومناهج البحث نفسها، وفى قواعد البحث تخصيصا فى هذا العلم أو ذاك.

والمنطق له مثل الفلسفة عدة مستويات، أهمها مستويان أو ثلاثة.

فأولا ، هناك المنطق كعلم متخصص. وهذا فرع من فروع علم الفلسفة التى تنقسم إلى:

أ– تاريخ الفلسفة ب– الفلسفة العامة: وهذه تشمل المذاهب الفلسفية، كما تتفرع منها ثلاثة فروع أخرى هى: مبحث أو فلسفة الوجود ontology. ومبحث أو فلسفة المعرفة epistemology. ومبحث أو فلسفة القيم المعيارية أو التقديرية axiology. وهذا الفرع ينقسم إلى فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال. والبعض يدخل فيه المنطق، امتداداً للثالوث القديم الخاص بالحق والخير والجمال! لكن هذا لامجال له هنا. فالمنطق كعلم يعتبر أقرب إلى الرياضيات منه إلى القيم التقديرية المذكورة، فضلا عن أنه يشكل القاعدة «الضرورية» للمنهج الفلسفى والعلمى عموما ولا يتعلق بالتقديرات الذاتية. ومن هنا يمكن أن نعتبر المنطق هو الفرع الثالث للفلسفة، أى أنه رقم جـ بعد أ، ب.

والحقيقة أن كلمة axiology نفسها كلمة غير دقيقة تفرض معنى مثيراً للخلاف (حيث أنها مشتقة من gr. axios أى جدير أو ذو قيمة)، مما يجعل البعض يضعون فى مقابلها كلمة deontology للتعبير عن الواجبات الالزامية بدلا من التقييمات التقديرية. وهذا يؤكد استحالة إدراج المنطق تحت ذلك الاسم! وعلى كل حال، فالمنطق كعلم ينقسم إلى علوم فرعية أخرى، منها منطق العلوم أو منطق البحث العلمى (ثم أخيرا منطق الكمبيوترز).

وثانيا ، هناك المنطق التفكيرى كوظيفة ذهنية راقية تحركها المعارف والتحديدات الثقافية، على أساس الميكانيزمات الذهنية للتحديد التصنيفى للأسماء والمسميات الادراكية والخارجية. وهذا المنطق الذهنى، هو الذى يصل إلى ذروته فى وظائف العقل الفكرى عند المفكرين المتخصصين.

وثالثا ، يمكن أن نضيف إلى ذلك أيضا مستوى آخر، نسميه **المنطق المادى للوجود** . والمقصود به نظام وقوانين وميكانيزمات الثبات والتغير والبقاء والعدم فى مختلف أنواع ومستويات الوجود والطبيعة والانسان. وقد كان اليونانيون القدماء يسمون منطق الوجود هذا باسم «نوس»/ العقل، أو باسم «نوموس»/ الناموس أو القانون العام. ولاحظ أننى لم أقل «المنطق الموضوعى» فى مقابل «المنطق الذاتى»، لأن المنطق الموضوعى هو المنطق الصحيح سواء كان فى الفكر أو فى الواقع المادى، بينما المنطق الذاتى هو المنطق غير الصحيح أو

الذى لم تتحقق صحته الموضوعية بعد. ذلك أن المخ والذهن ومراكز الادراك، هى أجزاء من الوجود أو الطبيعة. ولهذا يتحتم أن يكون المنطق الذهنى الصحيح جزءا من منطق الوجود، كما يتحتم أن يكون نظام وقوانين وميكانيزمات الوجود قابلة للادراك والاستيعاب بالمنطق الفكرى في عقل الانسان، بل وبعضها يدخل فى **المنطق الادراكى الحسّى (= منطق التربيطات الفسيولوجية الادراكية) فى ذهن الحيوان أيضا!**

■ وقبل أن أنتقل إلى نقطة العقلانية، ثم إلى موضوع العقل والذهن، وبعده إلى الموضوع الأطول الخاص بالتناقض، أكرر التنبيه إلى أننى أتناول الموضوعات هنا من وجهة النظر الفلسفية العقلانية الصحيحة، ومن ثم أستبعد المعانى والاتجاهات المشوهة والمبتذلة والمعكوسة لاعقليا أو المخلوطة.

الفصل الثانى - معنى العقلانية

مامعنى العقلانية ؟

✪ العقلانية rationalism مذهب فلسفى شامل، بل هو صميم وجوهر الفلسفة والعلوم بمعناها الصحيح وأساس منهجياتها. وخلاصة المذهب العقلانى، أن كل شئ يخضع للعقل. ومعنى ذلك- ببساطة- أن أى كائن أو ظاهرة من ظواهر الوجود بمختلف أنواعه ومستوياته، تكون قابلة للتحديد العقلانى والتفسير العقلانى. وهذا يشمل أىّ موجود أو ظاهرة أو حدث فى الطبيعة والواقع المادى عموما، أو فى مستويات النشاط الحى والحياة البشرية والمجتمع، أو فى نشاطات المخ والذهن والفكر، الخ. فقوانين الوجود هى قوانين العقل، أو قل إن قوانين العقل هى قوانين الوجود، لأن العقل هو النشاط الفكرى لقطعة حساسه من الوجود المادى هى المخ.

لاشئ غير العقل

وهكذا تجد أن العقلانية لاتعنى- كما يتصور البعض فيما ورد فى خطابك- أن «كل إنسان له عقل يفكر به مهما كان شأنه»! ناهيك عن أن تعنى أنه «لافرق بين إنسان وآخر من حيث العقلانية، لأن كل إنسان يفكر بالعقل»، وأن «الناس لايختلفون إلا فى طريقة التفكير حسب المعلومات والتجارب والمعارف»، الخ! لا. هذا التصور لاعلاقة له بالعقلانية. لماذا؟

الجواب يحتاج إلى تفاصيل، يمكن تقسيمها كما يلى:-

✵ **أولا**، رأيك يتناول موقف استخدام العقل، ولايتناول مشكلة خضوع كل ما هو موجود للتفكير العقلى، أى لايعبر عن قابلية كل شئ مهما كان للتحديد العقلى. ومعظم العقلانيين الدينيين يقولون باستخدام العقل، لكن ليس فى كل الموضوعات، بينما يرون مثلا «استحالة» استخدامه فى موضوعات الألوهية والروحانيات والمعجزات وما إلى ذلك من أمور- تعتبر عند العقلانيين بمقتضى هذا الرأى نفسه أسماء بدون مسميات منطقية، أو موضوعات

لاوجود لها منطقيا، طالما أنها باعتراف أصحابها لاتخضع للعقل والمنطق والتحديد والتفكير. ذلك أن العقلانية حين تقول إن كل شئ يخضع للعقل، تعنى بذلك أيضا أن أى شئ يزعم زاعم أنه لايخضع للعقل يكون بتحصيل الحاصل غير موجود. فالوجود يعنى الخضوع للتحديد الفكرى أو الادراكى. وهذا هو مبدأ الهوية فى الوجود والفكر. تماما كمن يستعمل كلمة لاتخضع للتحديد اللغوى- أى ليس لها معنى معروف لدى الناس، ثم لاتوجد فى القواميس، ثم إنه هو نفسه ينفى عنها أى معنى قابل للتحديد والتحليل والمناقشة. فمثل هذه الكلمة تكون بتحصيل الحاصل مرفوضة شكلا من أىّ كلام، لأنها بدون هوية لغوية عامة أو خاصة. ومغزى هذا المثال اللغوى يتضح جيدا بالنسبة للوجود، إذا تذكرت أن نظام أسماء اللغة يجب أن يماثل نظام مسميات الواقع، وأن «لوجوس» تعنى «الكلمة» وتعبر أيضا عن «المنطق»- حيث منطق الأسماء يجب أن يطابق منطق المسميات.

وبهذه المناسبة، يجب التمييز بين الموقف البرجماتى السفسطائى العادى إزاء مشكلة الدين والعقل، وبين موقف بعض الدينيين الذين ينتمون حقا إلى مايمكن تسميته العقلانية الدينية الناقصة. فاذا كانت بعض المجموعات الدينية يمكن أن تقول أو تتوهم أى أوهام مضللة أو منافقة عن العقل والعقلانية والدين، إلا أن معظم المتخصصين (كما هو واضح فى النصوص منذ عصر ماقبل الميلاد وفى مبدأ تكوين اللاهوت الكنسى) يرون استخدام العقل أداة للخرافة الكهنوتية وفى خدمة اللاعقل، بحجة أن تعاليم الدين تعلو على العقل.

لكن فى مقابل هؤلاء وأولئك، نجد أن الاتجاه العقلانى الناقص المذكور يتفق معنا على أن كل شئ خاضع للعقل فعلا، ومن ثم يرى أن تعاليم وتصورات الدين تخضع أيضا للعقل، وأن أىّ شئ يقوله الدين مخالفا للعقل يجب تأويله بما يتفق مع العقل. وأشهر فئة من هؤلاء العقلانيين الدينيين فى الاسلام، هم «المعتزلة» الذين ظهروا منذ القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى. وواضح تماما أن مذهبهم يعتبر فى التطبيق عقلانية غير تامة، لأنه يعترف بالكثير من الأصول والتعاليم التى يحاول تبريرها باسم العقل والمنطق. ولهذا كان أكثر مفكرى المعزلة شيوخا مؤمنين حقا، وكانوا يؤكدون أن إيمانهم عقلانى لأنه مجرد من خرافات كثيرة يؤمن بها الآخرون. وفى العصر الحديث، كان الشيخ محمد عبده والشيخ أحمد أمين فى مصر من أشهر الميالين إلى ذلك الاتجاه (بدون إعلان رسمى).

إلا أن أغلبية المتدينين وعلى رأسهم أهل السُّنَّة وخصوصا المتشددين، يعلنون الحرب على هذا الاتجاه، ولايسمحون به إلا مؤقتا عند الاضطرار إلى ركوب موجة العقلانية وتحويلها إلى الاتجاه الدينى، من أجل الانقضاض عليها بعد ذلك وتصفية من يركبونها أيضا فى أول فرصة. وهذا واضح فى أن الامام الغزالى وكل أئمة السنّة فى الماضى- وحتى أبن خلدون- أفتوا بتكفير وإعدام المعتزلة وأشباههم، جنبا إلى جنب مع إعدام الفلاسفة! والسبب واضح طبعا، هو أن تلك «العقلانية» التى تبدأ دينية وناقصة فلسفيا، لاتلبث دائما فى الجيل الثانى أو الجيلين التاليين أن تكتمل وتصبح لادينية! هذا ماحدث فى العصر العباسى، وأدى أولا إلى ظهور الفلسفة بدلا من علم الكلام (= علم اللاهوت)، ثم أدى إلى انتشار الالحاد سرا. وهذا ماحدث فى فرنسا مثلا فى القرن الثامن عشر: حيث كان ديكارت قد دعا فى القرن السابع عشر إلى إثبات الألوهية والدين عقلانيا، فجاء كل تلاميذه فى الجيل التالى عقلانيين ماديين ملاحدة! وهذا ماحدث أيضا فى جيلنا نحن بعد جيل محمد عبده وأحمد أمين!

ذلك أن العقلانية التى كانت تسمى فى العصور القديمة «شعلة بروميثيوس»، هى مثل النار التى تنتشر فتكتسح بالضرورة كل أنواع الخرافة واللاعقل. فاذا سُمح بها جزئيا ومؤقتا، فهذا يعنى أنهم يستعدون لتوجيه ضربة أكبر وأشد ضد العقل البشرى فى فترة لاحقة: لتحطيمه وتكميمه وتقييده، بحيث لايُستخدم إلا فى دور الدابة المطيعة التى تركبها الخرافة واللاعقل.

العقلانية بين العقل واللاعقل

وقبل أن انتقل إلى نقطة «ثانيا» فى هذا الرد، أقف هنا قليلا عند ما يتردد عن العلاقة بين العقل والدين.

ففى اللاهوت المسيحى، كانت «الهرطقة» (وأصلها اليونانى يعنى الاختيار، أى تقريبا الاجتهاد) جريمة عقوبتها الاعدام أو النفى. فاذا تذكرنا أيضا إجماع فقهاء المسلمين حتى عصر الشيخ محمد عبده على إعدام المعتزلة والمتفلسفين، وإذا تأملنا مرسوم التكفير الصريح (الذى نجد نصه عند الغزالى وابن خلدون وغيرهما) ضد استخدام العقل والفلسفة حتى فى محاولة إثبات المبادئ والأصول الأولى للأديان وليس فقط ضدها، نجد أن كل ماقاله أو يقوله رجال التبشير والدعاية الدينية فى الماضى أو الحاضر عن العقل أو عن العقلانية، لايعدو أن

يكون ركوباً للكلمات الرائجة أو الشعارات الجذابة، أى استهلاكا للأسماء دون مسمياتها، بل وفى عكس اتجاه مسمياتها.

وقد كان ابن حنبل والحنابلة هم أشد الجماعات التى استخدمت العنف ضد المعتزلة والمتفلسفين وكل من يسمون أصحاب «البدع» فى التفكير، ممن حاولوا التجديد أو التوفيق بين العقل والدين منذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى. ومع ذلك، عندما اتسعت هزائم المسلمين فى فترة الحروب الصليبية واكتساحات المغول والتتار، أصدر الشيخ الحنبلى المعروف ابن تيمية كتابين بعنوان: «درء تعارض العقل والنقل»، و«بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»!!

لكن- للحقيقة والتاريخ- يجب أن نلاحظ أنه هو وأمثاله ممن رددوا هذه الأسماء، لم يقصدوا طبعا «العقل» بالمعنى الفلسفى المنطقى، أى بمعنى مانسميه اليوم الفكر الحر أو العقل العلمى الحر! هذا لايحتاج إلى توضيح! وهم أنفسهم يعلنون ذلك ويفاخرون به ولاينكرونه (رغم عدم إعلانه فى العناوين والشعارات التى يقتصر عليها العامة أو الدهماء!). وإذا كان فقهاء الاسلام قد رفضوا العقل حتى بالمعنى الفلسفى الدينى الذى استعمله فلاسفة الاسلام (فى ثنائية «الحكمة والشريعة» للتعبير عن الايمان العقلى المدعم للايمان التقليدى الوراثى)، فانهم حين يستعملون ثنائية «العقل والنقل» أو «الرأى والنص» أو «الاجتهاد والتقليد»، إنما يقصدون بذلك أشياء أخرى تختلف نوعيا وجذريا عما يقصده العقلانيون والمتفلسفون- سواء كانوا من المتدينين أو من غير المتدينين!! إنهم يقصدون استخدام الرأى أو الاجتهاد- إذا سُمح بذلك أصلا- فى اختيار النص المناسب أو التقليد المناسب، أو فى «قياس» اللاحق حذو السابق تماما!!

ثم لاحظ أن الكلمة «القياس» عندهم لاتعنى القياس المنطقى المعروف Syllogism، أو الاستدلال المنطقى عموما، ولكن تعنى عندهم المماثلة analogy (أى بالتعبير القديم: المقايسة أو حذو النعل بالنعل!). فكل تجديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

وهكذا تجد أن الفرق شاسع جدا- بل وعكسى- بين هذه الأسماء عند رجال الدين وبين مسمياتها المعروفة فى الفلسفة والعلم والمنطق، بل وفى الاعلام المعاصر أحيانا. فهؤلاء الذين ينادون منهم بالاعتدال والتفكير وما إلى ذلك، إنما يقصدون استعمال العقل أو الرأى أو

الاجتهاد فى البحث داخل روايات الكتب الدينية التقليدية النقلية النصوصية عن بدائل تتمشى مع الظروف الجديدة. ومعنى ذلك أن الفرق بين من يسمونهم المعتدلين أو المجددين ومن يسمونهم المتشددين أو السلفيين، هو الفرق بين اتجاهين يستخدمان نفس القماش السلفى المقدس الذى يرفضان أى تجديد أو تغيير إزاءه وأى مساس بقداسته المطلقة، لكن يختلفان حول شكل أو تفصيلة اللباس الذى يكون من الأنسب أن يصنع منه فى هذا العصر أو ذاك، ومدى مايسمح بتأجيل استعماله وكذلك مايسمح باضافته إليه من مكملات ولوازم التفصيل، ومدى مايتقرر إبرازه من القديم أو الجديد، الخ.

ومرة أخرى أقول إذن إنه واضح أن العقل عندهم شئ مختلف تماما عما يقصده رجال الفكر المنطقى والفلسفة (الصحيحة لا المزيفة) والعلم (الصحيح لا المزيف). وعلى رأى المثل: كلٌّ يغنى على ليلاه!فالاسم «ليلى» واحد، لكن ليست ليلى التى أغنّى لها هى ليلى التى يغنّى لها هؤلاء أو أولئك. وقد يكون هذا الاختلاف نوعا من النفاق والحربائية أو التلوّن التضليلى، لكنه قديكون أيضا نوعا من الجهل والسطحية والضحالة الثقافية، وقد يكون كليهما معا! وهذا هو حال الاعلام المعاصر فى تناول هذه المشكلة.

ولهذا، لم أتعجب كثيرا عندما شاءت المصادفات وأنا أكتب هذه الصفحات، أن أقرأ إشارة إلى ذلك فى بعض الصحف (وخصوصا فى ركن يسمى «صندوق الدنيا» لأحد الاسلاميين الحكوميين المرتبطين أيضا بالسعودية وملحقاتها)، هى جعجعات مكررة واجترارات عمياء لاسم «العقل» و «العقلانية»، بحجة صدور كتاب إسلامى عن العقلانية المزعومة لصحفى آخر لايقل عن هذا جهالة وجعجعة وجرأة فى التشدق السطحى بالكلمات الفلسفية التى لايفهم مسمياتها، أو التى يلصق بها مسميات لاعقلية قديمة!! ولم أتعجب كثيرا عندما قرأت أيضا فى هذه الفترة لصحفى آخر يدّعى الثقافة– فى نفس تلك الصحيفة الأهرامية الحكومية التى تدّعى الرزانة– مقالا بعنوان كبير عن مجذوب متصوف صعيدى نوبى اسمه «ذو النون»، يسميه «فيلسوفاً» ويزعم أنه «من دعاة استخدام العقل»!!

وقد كان سقراط يكرر تقسيمة متوارثة فى التراث العقلانى القديم عن الجهل والجهلاء، هى أن الجاهل نوعان: جاهل بسيط، هو الجاهل الذى يعرف أويعى بأنه جاهل. وهذا معذور، فضلا عن أن وعيه بجهله يمكن أن يفيده كثيرا، وقد يدفعه إلى البحث عن المعرفة. وجاهل

مركّب أو مضاعف الجهل، هو الجاهل الذى لايعرف ولايعى بجهله. وهذا يضرب فى المشاكل خبط عشواء، فيدمر نفسه ويدمر غيره، كالغشيم الأعمى الذى يبرطع فى حقل ألغا دون أن يدرى أنه أعمى وأن هذا حقل ألغام! لكننى أود أن أضيف إلى التقسيم السقراط نوعا ثالثا، أو أن أقسم النوع الثانى إلى نوعين فرعيين، فأقول إن الجاهل المركّب أو المضاعف الجهل نوعان: جهول لكن ضعيف عاجز. وهذا يكفيك ضعفه وعجزه عن أذاه. وجهول مكابر عدوانى. وهذا يملك وسائل وأبواقا وسلطات لاتترك ملاذا للفكر الحر أو للحق العقلانى العلمى الصحيح، ولو فى كهف الباحث المعتزل!

لكن من حسن حظ بقايا العقلانيين فى عهدنا هذا، أن العقلانية الأممية أصبحت تملك الآن قدرات دولية كبرى ستحسم بها الحرب الأزلية بين العقل واللاعقل، بعد أن تنتهى مرحلة التمويه الحالية وعمليات استكشاف درجات ووسائل وألوان العداء الصريح أو المنافق للعقل والعقلانية: «لننزعنّ من كل شيعة أيّهم أشد على الرحمن عتيّا».

ونرجع الآن إلى النقطة الثانية فى الرد على رأيك عن العقلانية.

لامساواه فى العقل

* ثانيا، الرأى الذى تضمنه خطابك يعتبر فى الحقيقة رأيا دينيا أو ذا أصول دينية، ومن ثم يعتبر رأيا لاعقليا مرفوضا فى المذهب العقلانى. فحكاية أن أى إنسان مثل أى إنسان آخر يستطيع أن يفكر بالعقل، الخ، هى أسطورة دينية أو ذات أصول دينية، تشبه مايقال عن أن الجميع أولاد آدم وحواء، وأولاد تسعة، ومثل أسنان المشط، الخ! وهذا صحيح من حيث الحقوق الانسانية العامة، أو من حيث القوانين العامة، أو ما إلى ذلك، لكنه ليس على الاطلاق صحيحا فى موضوع العقل والفكر والعلم، الخ.

وللأسف أن الكثير من المذاهب الاجتماعية أو الاشتراكية المزيفة، بل وأيضا مذاهب أصول الشعوب وأصول اللغات، لاتزال تستخدم هذه الاسطورة الكهنوتية: باسم «العلمانية»، أو باسم بعض أحفاد آدم بدلا من الاسم المباشر لآدم نفسه (مثلا أسماء أبناء نوح حفيد آدم الذين يُنسب إليهم مايسمى الساميون والحاميون والآريون!!). وواضح أن هذه كلها أساطير يجب ألا تخرج عن إطار روايات الأديان القديمة، ويجب ألا تُفرض أو تُقحم على الثقافة تزييفا باسم العلم أو العلمانية.

وإذا كان من الواضح لكل ذى عينين أنه لاتوجد مساواة أو تماثل بين الناس- أو حتى بين الاخوة الأشقاء- فى قدرات وصفات البدن الذى هو أغلظ وجودا وأسهل تشكيلا (بدليل مانعرفه من إنجازات «علم تحسين النسل» eugenics وتطبيقه على البقر والكلاب والحيوانات الأخرى بدون تطبيقه حتى اليوم على البشر الذين هم أحوج إليه لأنهم أجدر بالنسل الأرقى!)، فيجب من باب أولى أن نعترف بعدم وجود مساواة أو تماثل بين الناس فى قدرات العقل والتفكير، التى هى أدق وجودا وأصعب تشكيلا، لاعتمادها فى الأساس الفسيولوجى فى المخ على مكونات ونشاطات تحت ذرية وأدنى من التحت ذرية، ولاعتمادها فى الاكتساب الذهنى الشخصى والاجتماعى على عوامل بالغة الدقة والتعقيد والتأثير.

ومعنى ذلك أن الحكايات الكهنوتية المتوارثة من العصور القديمة والوسطى (وأشهرها قصة «حى بن يقظان» التى ترجع أصولها إلى ضحايا التخريف الفرعونى فى مدرسة الاسكندرية البطلسية)، هى حكايات خرافية لاعقلية مرفوضة. فالفلسفة والعلم والمنطق ترفض كلها فكرة تلك القصة التى تزعم أن أى إنسان- حتى لو رضع من الذئاب وتربّى فى الغابة- يستطيع أن يستخدم عقله وتفكيره مثل أى إنسان عاقل للوصول إلى نفس النتائج!! وقد أثبتت الاكتشافات المتعددة المعروفة لبعض أطفال الغابات، أنهم يتحولون تماما إلى حيوانات ولايتخطون مستوى القردة، ثم لايمكن بعد ذلك أن يسترجعوا أى درجة ملحوظة من القدرات الانسانية!

إن الشخص البدائى حين يستخدم ذهنه، يصل إلى نتائج تختلف جذريا عن تلك التى يصل إليها من هو متطور عنه نسبيا، حتى الدهمائى أو العامل أو الفلاح! وهؤلاء الدهماء أو العامة حين يستخدمون أذهانهم- حتى لو كانوا متحضّرين- يصلون إلى نتائج تختلف جذريا عن تلك التى يصل إليها خاصة المفكرين! بل حتى المفكر المتفوق فى الفكر، إذا استخدم عقله فى موضوع لم يتخصص فيه علميا، فانه لايصل إلى نفس النتائج التى يصل إليها المفكر المتخصص. (انظر كتاب اشتراكية الاستثمارات الخاصة- المقال الأخير عن الفلسفة والتخصص الفكرى). ذلك أن فاقد الشئ لايعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه. فاذا كان العقلانى يعطى تفكيرا عقلانيا، فالدهمائى يعطى تصورات سطحية سوقية إن لم تكن لاعقلية، والبدائى أو شبه البدائى يعطى تصورات خرافية أو سحرية.

ثالثاً، أن العقل بالمعنى الصحيح الدقيق، لايوجد عند كل البشر الذين يسمونهم أبناء آدم وحواء! فالعقل reason، غير الذهن mind أو الفهم understanding– الذى يتوفر بدرجة أو بأخرى لدى معظم البشر، بل وقد يوجد لدى بعض الحيوانات المتطورة. وسأوضح تفاصيل ذلك فى إجابة أخرى. لكن يجب أن أشير هنا إلى أن نوعية واستعدادات ونشاطات (ومن ثم وظائف) المواد البيوكيميائية لمايسمى «المناطق» أو «المراكز» الفسيولوجية المختصة بالادراك ومكملاته فى المخ أو فى اللحاء الدماغى Cortex، تختلف وتتدرج قدراتها واستعداداتها الفسيولوجية ومن ثم الذهنية وفق **درجة تطور وارتقاء النشاط الادراكى «الوراثى» لأنواع الحيوانات العليا وللسلالات والمجموعات الوراثية فى كل نوع.**

هذا عن النوع أو السلالة–بغض النظر هنا عن موضوع التدرج والاختلاف فى القدرات والاستعدادات الفردية لكل شخص. وإذن، فاذا كان الأساس البيوكيميائى والفسيولوجى الدماغى للأجيال السابقة من الحيوانات، هو الذى يحدد أصلا مدى قدرات واستعدادات النشاط الادراكى للأجيال اللاحقة من الحيوانات– التى هى طبعا محصورة الادراك فى الاطار الحسى المباشر– فما بالك بالموقف بالنسبة للأساس الوراثى للادراك البشرى والذهن البشرى الذى يصل فى الدقة والارتقاء إلى مستوى العقل أى الفكر النظرى المجرد؟!

● إذا نحيت جانبا من محراب البحث العلمى حكاية الأب الأكبر والأوحد آدم، أو حكاية أحفاده أبناء نوح، ستجد أن جماعات البشر كانت ترجع فى مرحلة معينة إلى: (١) سلالات شبه قردية، انقرض أو تدهور بعضها إلى سلالات لم تواصل الارتقاء؛ بينما تطور وارتقى بعضها إلى: (٢) سلالات شبه بشرية؛ ثم انقرض أو تدهور بعضها، أو وصل إلى مستوى: (٣أ) السلالات البشرية البدائية primitive (وأقصد بذلك الجماعات البدائية المعروفة التى تجمدت حتى العصر الحديث)؛ بينما تطور وارتقى بعضها إلى: (٣ب) سلالات بشرية أولى primordial. وهذه هى التى برزت وتطورت وارتقت منها: (٤) السلالات البشرية المختلفة التى تطورت وتكونت منها: (٥) الجماعات والشعوب الرئيسية الأقدم فى العصور المعروفة فيما قبل التاريخ. أو على وجه التخصيص، **الجماعات والشعوب التى ظهرت وتصارعت فيما بين الألف العاشر والألف الخامس قبل الميلاد– ابتداءً من مناطق البحر الأبيض.**

لمحة عن مجهولات التاريخ القديم

● بخصوص الجماعات والشعوب الأقدم نقف هنا لالقاء نظرة سريعة عل بعض المجهولات التاريخية، التى طمستها وزيفتها التلفيقات الفرعونية والكهنوتية القديمة.

ذلك أن أسماء ومسميات تلك الشعوب الأقدم ثم أجيالها التالية، تعرضت بعد ذلك منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث لتغييرات شاملة وانقلابات عكسية أحيانا!

من ذلك مثلا، أن اسم «الليبيين» الذين تجدهم فى لوحة الفرعون نارمر فاتح الوجه البحرى وموحِّد التاجين المصريين، هو فى الحقيقة اسم يعبر عن بعض البحراويين المصريين البيض الأقرب إلى العقلانية (خصوصا فى غرب الدلتا فى رشيد وسكندار الأولى وتيمنحور/ دمنهور/ مدينة حور التى كان اسمها أيضا بهديت/ المهدية)- حيث أن الاسم اليونانى ليبيا أو لوبيا كان يرجع إلى أصل كلمة «لب»/ Liber، أى عقل أو كتاب. وهذا يرادف معنى كلمة حر/ حور/ أور[1].

---

(١) الترادف الواضح تاريخيا فى الاسم المصرى القديم لدمنهور بين المعنى العقلانى لكلمة حور (أى النظر العقلى الذى يرمز إليه الصقر أو العين) ولكلمة هودا/ هدى/ أوديون من ناحية، ثم الترادف الواضح فى الجذر اليونانى اللاتينى «لب» liber بين معنى الكتاب وأيضا معنى الحرية وأيضا معنى القلب أو النخاع أو لب الشجر، هى ترادفات تفسر لنا الكثير عن أصول الأسماء المشتقة من جذور هذه الكلمات. تأمل مثلا: قلب (بمعنى عقل فى العربية القديمة)، و Alba الأيطالية (التى حلت محلها روما) و Albania، و Alp، ومدينة Albi الفرنسية (التى اتهمت بالهرطقة) و Albion (الاسم القديم لبريطانيا حتى العصور الوسطى) و Album/ Albus بمعنى أبيض وأيضا بمعنى كتابة ودراسة وقائمة سجلات/ ألبوم وقائمة كبراء، الخ. وكذلك يهودا/ يودا/ هوديا/ Judex/ Juda (= Judge)، الخ. وكذلك إيونو/ عيونو/ أون (= عين شمس التى أصبحت مركز حور بعد دمنحور). وكذلك أور سالم (= أورشليم أو دار السلام)، وأوروبا/ أورال/ أورارتو التى حرفت إلى أراراط (= جبل نوح). فاذا تأملنا أيضا بعض مشتقات أصول كلمة أخرى معبرة عن النظر أو العقل فى اللغات البحراوية المصرية القديمة، هى رع/ را/ ره/ ratio/ رأى ورؤية وبراهما (ومعناها الهندوكى المعرفة) وبرهان أو ابرهة، الخ، نجد منها: بروم ثيوس (= السيد أو الرب برهم أى صاحب النظر العقلانى)، وروما، وراس/ رس/ روسا، وبروسا (= بو +روسا)، الخ. وهذا كله، هو سجل لغوى يعبر عن عمليات انتشار هجرات المنادين بمبدأ العقل اللبيب/ سكن العلم أو صفاء/ صوفيا الحكمة، فرارا من مطاردات وطوفانات زبانية وقطعان الرهبوت الكهنوتى، الذين كانوا يفرضون معان مقلوبة ومرعبة أو منفرة لهذه الجذور اللغوية الاستراتيجية، أو يحورونها ويستخدمونها تزييفا وتضليلا وتخريفا.

ومن ناحية أخرى، يجب التنبيه أيضا إلى أن كلمة قلب التى تنطق بالعامية ألب، ترجع إلى الكلمة المصرية الهيروغليفية ab أو ib مع إضافة أداة التعريف إليها.

وكذلك اسم «إتيوبيا» و «الاتيوبيين» الذى تجده فى نقوش ولوحات قديمة فى سومر وأشور فى أرض النهرين، كان يعبر عن مصر القديمة، اشتقاقا من «طوبيا»/ طيبة (وهذه كلمة كانت تعنى شعبيا المحروق أو شديد السمار، وكانت تعنى كهنوتيا المكان المقدس الذى يحرق فيه الطيب أو البخور). وقد استمر لون أغلبية المصريين بعد اختلاط الجنوب بالشمال لوناً شديد السمرة حتى العصور الوسطى- كما تؤكد حتى النصوص العربية القديمة ومنها أحاديث نبوية[1]. ثم تضاعفت واتسعت عمليات استيراد البيض، وخصوصا من الشام منذ عصر الهكسوس، ثم من شرق البحر الأبيض عموما، ثم من المماليك والجوارى من شرق أوروبا

---

(١) فى الحديث النبوى الثابت (فى الصفحات الأولى من سيرة ابن هشام مثلا)، يصف النبى المصريين منذ أربعة عشر قرنا بأنهم «أهل الذمة أهل المدرة السوداء (= الأرض السوداء/ كيمى أو شيمى أو خيمى) السُحم (جمع أسحم أى أسود البشرة) الجعاد (= ذوى الشعر الأكرت)». أما بخصوص جذر «تيب» المعبر عن الحرق أو عن السواد، فهو واضح فى كلمات: تبّ/ تبر/ طوب (= طين لبن محروق)/ طيب البخور، الخ. وأعتقد أن هذا أيضا أصل اسم tobac/ tabac الذى ينسب إلى غليون حرق التبغ. وكلمة «إتيوبيا» كانت تعنى أصلا فى اليونانية: «بلاد الوجوه المحروقة». وفى اللاتينية نجد مثلا: tabeo يصهر، و taberna/ عشة أو خيمة (للعبادة الاسرائية أحيانا)، و tabes مرض معدى من أوبئة مصر، و tabum وباء. وهذا ينبهنا إلى أصول كلمات: تاب/ توبة/ تابو أى لامساس أو صندوق/ تابوت المنوعات. وفى نصوص «العهد القديم»، نجد أن اسم إثيوبيا أو كوش أو النوبة، كان يشير إلى مناطق متغيرة المواقع جغرافيا، للتعبير أساسا عن سواد أو سمار البشرة! وقد استعمل المؤرخ جوزيفوس السكندرى (فى القرن الأول الميلادى) عن لسان الكاهن مانيتون (فى القرن الثالث ق. م) اسم Ethiopia بمعنى طيبة المصرية Thebae. وقارن هنا أيضا اسم «التبت» Tibet، التى كان اسمها المحلى القديم Bod أو Bhod / بود/ بهود/ هوديا.

ولأن زبانية الكهنوت المصرى كانوا يطمسون ويغيرون المسميات الجغرافية للأسماء القديمة التى كانت تشير إلى موقع مصر/ وكر الأفعى الفرعونية القديمة (مثل اسم أرض الله أو الأرض المقدسة أو طيبة الذى انتشر فى أكثر من مكان، واسم بلاد التنين، واسم إسرا/ سرا/ دار الأسر، واسم رَهَب Rahab (= رهبوت الهول والخوف)، فضلا عن طمس وتغيير اسم ميناء أطلا/ سكندار الذى انتقل إلى أطلس وإيطاليا والأطلسى وأطلنطا، الخ. فمن الواضح أن اسم Utopia (الذى اخترعوا له تخريجة لغوية تجعله يعنى اللامكان!)، إنما كان يعنى أصلا: إطيوبيا/ إتيوبيا/ طيبة/ مصرا! وهذا نفس ماحدث بالنسبة لاسم لب / ألب بالمعنى المذكور من قبل، حيث نجد فى اللاتينية كلمة alibi بمعنى "فى مكان آخر" أو "ليس هنا" !!

ووسط آسيا (من حوالى القرن الحادى عشر) ثم من الأتراك العثمانيين (من القرن السادس عشر)، فتغير لون المصريين كيفيا إلى اللون القمحى فى الغالب، أو الأبيض الداكن أحيانا.

وقد حدث مايشبه ذلك قديما مع الاسرائيين أو الاسرائيليين (= المسرائيليين أو المصريين) الذين كان من أسمائهم الأولى السمر/ السامرة/ سماريا[1]، حيث استخدموا سكان يهوذا البيضاء فى تغيير لونهم الأسمر الذى كان يكشف أصلهم المصرى، وذلك قبل تغيير تكوينهم البشرى خارج الشام أيضا، وفى أوروبا.

✪ لكن لماذا قلت هنا إن تاريخ الشعوب الأولى الأقدم يرتبط بالألف الخامس قبل الميلاد، وفى مناطق البحر الأبيض التى كانت قلب العالم القديم (والتى استمرت تقوم بهذا الدور بدرجة أو بأخرى حتى الحملة الفرنسية على مصر)؟

لأن هذه هى حدود التاريخ الذى استمرت فيه تلك الشعوب الأولى قبل انتصار ثم تدفق طوفان الفرعونية المصرية خارج مصر. وهذا يعنى تاريخ ماقبل الفرعونية، أى ماقبل تزايد واتساع عمليات الاختلاط والامتزاج السلالى التى حدثت بعد انتصار السود والمخلطين الكهنوتيين الفرعونيين على الدلتا المصرية والشمال البحراوى،وهى عمليات إبادة قطاعات كبيرة من البيض وإخصاء واستعباد بقاياهم وسبى نسائهم، ثم تصدير ميكانيزمات تسويد أو تسوئ النسل إلى مختلف بلاد العالم، كجزء من عمليات المطاردة الكهنوتية لشعلة بروميثيوس: شعلة العقل والمعرفة. ولهذا نجد أن الشعوب الأقدم الأولى فى أعماق أوروبا وآسيا، لم تلبث أن اكتسحها هذا الطوفان الزاحف أو المدفوع من الشرق الفرعونى.

ومعنى ذلك أنه منذ أواخر الألف الرابع ثم منذ الألف الثالث قبل الميلاد بشكل خاص، تضاعفت وانتشرت عمليات الاختلاط بين السلالات والشعوب فى مختلف بلاد العالم، نتيجة الهجرات أو التهجيرات المرتبطة بالفتوحات الكهنوتية أو المدفوعة كهنوتيا، والتى استمرت تنتقل من مكان إلى آخر من مناطق البحر الأبيض إلى ماحولها شرقا وغربا ثم جنوبا وشمالا،

---

(١) لاحظ أن هذا من أسماء مصر القديمة أيضا: تامرا/ ثامرا/ سامرا/ سماريا. والمقطع «تا»، هو أداة تعريف مصرية قديمة. أما الجذر / مارا/ مر/ mor، الخ، فمن الواضح أنه كان واسع الانتشار فى الاستخدام الجغرافى التضليلى، مع اتساع تربيطات الرعب والتنفير أو التجميل والتحبيب التى يعبر عنها هذا الجذر لدى الاتجاهات المختلفة فى مختلف اللغات!

فى اتجاه تغليب وتمكين السلالات الاكثر تخلفا والأقل عقلا وتفكيرا، أو تلك الفروع والشعوب المخلّطة التى تعتبر- بتعبير سفر التكوين- هى الأغبى والأقل فهما وإبصارا.

أما من حوالى الألف العاشر إلى الألف الخامس أو الرابع قبل الميلاد، فقد كانت الهجرات والتهجيرات والاختلاطات السلالية محكومة بالمبدأ الطبيعى الذى يجعل السيادة والانتصار للأقدر- وهذا يعنى عند البشر الأرقى فى الذهن والتفكير، حتى لو كان أقل نسبيا فى القدرة البدنية. وهكذا تجد أن أجهزة وشبكات الكهنة المزودة بوسائل التفوق التقنى (المسروقة أو المسلوبة أصلا من الأفراد الأرقى عقلا) استطاعت منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد أن تفرض على البشرية ميكانيزمات التدهور المضادة للارتقاء الطبيعى والمضادة للعقل والتفكير، ومن ثم أن تحرك عجلة التطور البشرى فى عكس الاتجاه المذكور الذى كان يدفع ميكانيزمات الانتخاب الطبيعى العقلانى rational natural selection.

وفى أواخر الألف الرابع وأوائل الثالث قبل الميلاد، كان ذلك يعتمد أساسا على «التسويد» بمعنى سيادة السود أو المخلّطين الشديدى السمار. ثم بعد ذلك، اتضح لأجهزة الاجرام الكهنوتى اللاعقلى أنه توجد أنواع من البقر والثيران البشرية البيضاء أشد غباء وحيوانية ممن استخدموهم من السود والسمر، ومن ثم بدأوا يضاعفون نسبة استخدام هؤلاء فى البلاد التى يكون القهر الأبيض فيها أسهل! وقد استمرت مثل تلك الاكتساحات البربرية فى أواخر العصور القديمة ثم فى العصور الوسطى كما هو معروف تاريخيا- رغم أنها لم تصل إذ ذاك إلى مستوى الابادة التامة لذكور بعض السلالات والشعوب كما كان يحدث حتى الألف الأول قبل الميلاد، وذلك لأنه لم تعد توجد فى سلالات وشعوب البشرية فى ذلك الوقت جماعة أو جماعات تمثل خطرا عقلانيا أو ثقافيا مباشرا ومعروفا، وإنما أصبحت مشكلة مكافحة العقل والتفكير مشكلة مبادلة نسبية، تتعلق بالأقل أو الأكثر فى العقل والتفكير بالنسبة للجماعات الأخرى!!

والمهم أنه لم تعد توجد سلالات بشرية أرقى ذهنيا كما كان الحال فى عصور ماقبل التاريخ وبداية العصور القديمة، بل ولم تعد توجد شعوب قديمة أرقى ذهنيا من الناحية

السلالية بدرجة كبيرة، كما كان البحراويون الأوائل فى شمال مصر ثم فى أجزاء من الشام واليونان حتى الألف الثالث أو ربما الثانى قبل الميلاد، وكما كان اليونانيون وأحفادهم فى إيطاليا بالنسبة للشعوب الأفريقية وأيضا بالنسبة لبعض الشعوب الآسيوية الأوروبية حتى القرون الأولى بعدالميلاد. وإنما أصبحت الفروق فى القدرات الجماعية للعقل والتفكير تتمثل اليوم فى الفروق بين الشعوب الحديثة — من حيث نوعية وكمية تراثها الفكرى العقلانى وتجاربها السياسية والاجتماعية منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، ثم بعد ذلك فى الظروف المعاصرة.

وهذا المنظور يوضح أن أوروبا عموما وبعض بلدان غرب أوروبا خصوصا، هى التى تملك اليوم ميراثا جماعيا أو اجتماعيا للعقل والتفكير أرقى مما تملكه البلدان الأخرى. أما فروق التوارث الفسيولوجى، فلم تعد قائمة إلا على المستوى الفردى، الذى ينتشر طبعا فى العالم كله وفى أى شعب تتوفر له درجة كافية من التطور.

الثقافة والوراثه

صحيح أن الثقافة العقلانية الموروثة اجتماعيا وقوميا تستطيع أن تصنع التفوق الشخصى فى قدرات العقل والتفكير، أى تستطيع أن تصنع الطبع العقلانى أو التطبع العقلانى (= فسيولوجيا واجتماعيا). لكنها ليست العامل الوحيد فى هذا المجال. فمن الممكن أن يوجد أشخاص فى شعب يتوارث ثقافة عقلانية متقدمة، ولكن ظروفهم المعيشية أو الشخصية أو قدراتهم الفسيولوجية الدماغية الفردية أو مايتعرضون له من عوامل الفساد الأخلاقى والتحطيم الذهنى والأسباب الأخرى، تحرمهم من الاستفادة الكبيرة من التقدم العقلانى الموروث فى ثقافة بلدهم (إذا كان لايزال متاحا!)، أو تجعل الواحد منهم مجرد حمار يحمل أسفارا صنعت فى بلده!

وفى مقابل ذلك، يمكن أن يوجد شخص فى مكان متوسط التطور لكن فى ظروف شخصية مواتية وبقدرات فسيولوجية دماغية متفوقة، ثم يتمكن من الوصول إلى الثقافة العقلانية المتقدمة لذلك البلد المشار إليه وينجح فى استيعابها وتمثلها، فيستفيد منها بذلك أكثر مما

يستفيد منها أبناء البلد أنفسهم، بل وقد يصبح أرقى منهم فى العقل والتفكير! وبدلا من أن يكون مثل الكثيرين اللاعقليين منهم كالحمار يحمل أسفارا، يصبح مفكرا عقلانيا يركب حمارا يحمل أسفارا! هذا طبعا على المستوى الفردى فقط. لكن لايخفى أن الأفراد إذا وصلوا إلى مصادر ومراكز القدرة الاجتماعية المحلية أو الأممية، يمكن أن يغيروا اتجاه مجتمعاتهم بل واتجاه البشرية.

● ومعنى ذلك أنه فى موضوع استخدام العقل والتفكير، ومن ثم فى موضوع الوصول إلى درجة كافية من العقلانية، يوجد نوعان اثنان من العوامل العديدة التى يجب أن تعمل معا وتتكامل معا لانتاج العقلانية المطلوبة:

١- النوع الأول وراثى. والوراثة هنا: أ- وراثة اجتماعية تتمثل فى ثقافة ولغة ومعارف وعلوم وتجارب وتقاليد المجتمع. ب- وراثة فسيولوجية، خصوصا تلك المتعلقة بقدرات واستعدادات مراكز الادراك والتفكير فى المخ ومكملاتها. وهذا يخص الفرد طبعا، رغم خضوعه للظروف الاجتماعية.

٢- النوع الثانى مكتسب. والاكتساب هنا: أ- الاكتساب الشخصى للفرد من أسرته ومن المحيطين به وبيئته الشخصية، ومن دراساته وتحصيلاته وتجاربه، الخ. ب- اكتساب الشخص من الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية المباشرة فى بلده- مع ملاحظة أن هذه هى التى يمكن أن تؤدى إلى وصوله أو عدم وصوله إلى الثقافة الموروثة اجتماعيا فى بلده أو فى بلد آخر أكثر تقدما.

الطبع والتطبع

وبالتعبير القديم، يمكن أن نقول إن **القدرة المتفوقة فى العقل والتفكير، هى أولا طبع وراثى، وثانيا تطبّع مكتسب شخصيا واجتماعيا.** والثانى ينبنى على الأول، ولا يتحقق إلا على أساس توفره كقاعدة للبناء العقلانى. لكن من ناحية أخرى، فان **اتصال (= استمرار) الاكتساب أو التطبع الشخصى والاجتماعى خلال أجيال متعددة، يمكن أن يؤدى إلى تكوين الأساس أو الطبع القابل للتوارث.** فالطبع لايهبط من السماء ولايقتصر على من تختارهم أوترضى عنهم السماء،

ولكنه اكتساب أو تطبّع رسخ وتطور خلال عدد كافٍ من الأجيال. ثم إن الطبع ليس شيئا ماديا حديديا لايفنى أو قدراً أبديا، ولكنه مجرد استعداد قد يتحقق وقد لايتحقق، أو مجرد بذرة قد تنبت ثم تنمو ثم تكتمل وقد لاتصل إلى شئ من ذلك. ثم إنه قد يتحقق ثم يتحطم.

وباختصار، فالطبع ليس إلا تطبّعا سابقا رسخ فسيولوجيا، والتطبّع ليس إلا طبعا لاحقا سيرسخ فسيولوجيا. وهذه الحلقة الحلزونية المتصاعدة، تشبه الشجرة التى لاتوجد إلا إذا: **أولا**– وجدت البذرة التى تتحول إلى جذور (وهذه هى مكونات الطبع أو الوراثة). **ثانيا**– إذا حدث النمو وظهر الجذع، ثم إذا تقدم النمو وظهرت الفروع ثم اكتمل النمو وظهرت الثمار (وهذه هى مكونات التطبع أو الاكتساب). **ثالثا**– إذا نضجت الثمار وتحول بعضها إلى بذور يمكن أن تنبت من جديد (وهذه هى مكونات الجيل الوارثى الجديد).

وكما قلت، فان التكوين المادى البيوكيميائى والفسيولوجى لمناطق الادراك التى تمارس وظائف العقل والتفكير فى المخ، يختلف كيفيا وكميا ومن ثم فى القدرات، وفق مدى توفر وارتقاء المكونات والتركيبة البنائية الوراثية لهذا التكوين المادى الناتج عن اتصال (= استمرار) ممارسة وظائف التفكير أو اللغة الرمزية عموما خلال عدد كافٍ من الأجيال. وهذا واضح مثلا فى تدرج وتصاعد كمية ونوعية «اللحاء» المختص بالادراك لدى الحيوانات العليا ثم القردة العليا ثم الانسان، وفق زيادة ممارساتها لنشاطات الادراك (= الادراك المباشر ثم الادراك الرمزى أو المجرد).

بل إن مثل هذا واضح حتى فى تدرج حجم الثدى (أو الضرع) بين إناث الحيوانات الكثيرة التناسل التى ترضع كثيرا، بعكس إناث الحيوانات الثديية الأخرى القليلة التناسل! **فهل وظائف العقل والتفكير أسهل وأتفه من أن تحتاج هى أيضا– وبالتالى تؤدى إلى– استعدادات أو قدرات فسيولوجية وراثية؟! وهل مناطق الادراك فى المخ أقل تأثرا بالوراثة من مناطق الرضاعة مثلا؟!**

إن الاستعدادات الفسيولوجية لمراكز **الادراك فى مخ العامل أو الفلاح** الذى كان آباؤه لعدة أجيال لا يشتغلون باللغة الرمزية المقروءة أو المكتوبة وبموضوعات التفكير، تكون بالضرورة استعدادات أدنى وأقل من الاستعدادات الفسيولوجية **للشخص الذى كان**

آباؤه لعدة أجيال يشتغلون بالقراءة والكتابة وبالموضوعات النظرية أو التفكيرية- ولو حتى من خلال التركيز على حفظ النصوص الدينية والروايات الأدبية التى هى من الناحية الفسيولوجية نشاطات لغوية رمزية تخص وظائف الادراك الرمزى المجرد. وهذه ليست مسائل سماوية أبدية طبعا. فمن الممكن خلال عدة أجيال من النشاط الثقافى الفكرى فى ذرية الشخص الأول أن يكتسب أحفاده القدرات الفسيولوجية المطلوبة. وكذلك الشخص الذى يتوارث القدرات الفسيولوجية للتفكير، يمكن أن تفقدها ذريته بعد جيلين مثلا من انعدام ممارستها؛ بل يمكن أن يفقدها هو نفسه بالتحطيم المباشر. وهذا هو الفرق بين سهولة وسرعة الهدم أو الفقدان، وصعوبة وبطء البناء أو الاكتساب. فالشخص غير المهيأ فسيولوجيا للنشاط الفكرى الراقى، لايستطيع أن يحقق لنفسه شخصيا اكتسابات نوعية أو جذرية فى قدرة الفكر الراقى مهما فعل. بل ونفس الأمر يستمر تقريبا أو بدرجة ما لدى أبنائه المباشرين.

● وهكذا ترى أن مخططات تسويد الشعوب الأشد تخلفا والأغبى أو الأقل تفكيرا، وتسويد البدو والرعاة والصيادين وأشباه البدائيين وأمثالهم، وتسويد الطبقات والفئات والطوائف المتخلّفة واللاعقلية على كل بلد، ثم تسويد الأفراد من مجاذيب الكهنة والمخرفين والفاسدين ذهنيا أو أخلاقيا على رأس أو قمة أهرامات التدهور واللاعقل، هى مخططات ألحقت بالقدرات الراقية للعقل البشرى وللبشرية كوارث وخسائر لايمكن تصورها، استمرت آلاف السنين. وهى التى نعانى اليوم من سمومها وأمراضها الخبيثة. ولو كانت البلاد الشيوعية قد طبقت حقا هذا التقليد الفرعونى القديم، والذى يجعل أغلبية العامة أو الدهماء المنخفضى التفكير هم الحكام- لكانت قضية العقلانية وارتقاء العقل البشرى قد انتهت إلى الأبد، بل لكانت البشرية نفسها قد تحولت إلى نوع حيوانى أدنى!

✻ هذا ماقصدته عندما تحدثت عن مجموع البشرية فى خطابى السابق، فقلت عبارة أثارت تساؤلك فى خطابك، فسألت عما أقصده عندما قلت: «**المجموع البشرى بالمعنى العقلانى الذى يجب أن يكون وليس بالمعنى العددى الليبرالى**». فأنت عندما تضع مثلا قوانين تحدد معانى الأمانة أو الفضيلة فى مجتمع ما، لاتحددها وفق الشائع لغويا

أو عرفيا (فهذه مهمة أخرى تخص أبحاث اللغة وأبحاث العادات الاجتماعية، الخ). كذلك فإنت لاتحددها «ليبراليا» وفق عدد الأمناء والفضلاء بالنسبة إلى عدد اللصوص ومقترفي الرذائل. وإنما تحدد القوانين الأخلاقية والتشريعية لهذه المعاني على أساس مايجب أن يكون من حيث العلم والمنطق.

وهكذا أيضا عندما تحدد مصالح وأهداف الارتقاء البشرى، تحدد ذلك على أساس النموذج الانسانى العقلانى الذى يقتضيه المنطق والعلم والفلسفة العلمية، وليس على أساس عدد العقلانيين والمفكرين الأحرار- الذين قد لايصلون إلى واحد من مليون من عدد المتخلفين وأشباه المتخلفين والحثالات والدهماء! وقد لايصلون إلى واحد من مليون من عدد من يسمونهم الناس العاديين أو المتوسطين، الذين يمكن أن يكونوا «ملوكا» و«مرشدين» فى ملكوت التدهور واللاعقل، يتربعون فوق رؤوس وأكتاف الأغلبية الهائلة ممن ذكرتهم، وفق المثل القائل: «رزق الهبل على المجانين»! أو: «الأعمش هو ملك العميان»!

الفصل الثالث- العقل والذهن

موضوع العقل والذهن

يمكن أن نصل إلى المزيد من التوضيح فى موضوع العقل والعقلانية، إذا تأملنا الفرق النوعى بين معنى العقل ومعنى الذهن.

فمعنى «الذهن» يختلف تماما عن معنى «العقل»، ليس فقط من حيث المسميات الموضوعية الصحيحة، بل وأيضا من حيث الأسماء اللغوية التى كانت تعبر منذ البدء عن اختلاف هذين المسميين.

اسم «الذهن» هو F. entendement/ E. mind، بينما اسم «العقل» هو raison/ reason (أو أيضا intellect). وهذا بغض النظر طبعا عن الترجمات المختلطة أو غير الدقيقة التى شاعت بل وأصبحت سائدة فى العقود الأخيرة- وخصوصا منذ انتقال برمجات وعمليات صناعة اللاعقل البرجوازية من المراكز الأنجلو أمريكية إلى المراكز الأمريكو إنجليزية منذ الخمسينات.

ولاحظ هنا أن الاسم Lat. nomen/ name غير المسمّى nominatus/ named، حيث الأول يعنى اللفظ الذى يطلق على الثانى- الذى قد يكون مجرد فكرة أو معنى، وقد يكون كيانا واقعيا أو شيئا ماديا. لكن التخليطية المخططة المقترنة بالتدهور البشرى، تؤدى دائما إلى الخلط بين الاسم والمسمى- خصوصا فى عصور الجهالة- إلى درجة أن الامام الشافعى مثلا له كلمة معروفة ضد المدافعين عن المنطق اللغوى هى: «إذا رأيت الرجل يقول إن الاسم غير المسمى، فاشهد عليه بالزندقة»! فالمبدأ الدينى القديم يقول: «من تمنطق فقد تزندق»!

ونأخذ أولا جانب المسمّى لكل كلمة من هاتين الكلمتين، ثم ننتقل إلى جانب الاسم أى الاستعمال اللغوى فى مختلف اللغات.

الذهن والعقل والنفس

● «**الذهن**» لايعني التفكير فقط (ناهيك عن التفكير النظرى الراقى)، لكنه يشمل كل القدرات والوظائف الادراكية والسلوكية المدركة للدماغ أو المخ brain– بما فى ذلك الذاكرة والمشاعر والرغبات، الخ. وبعبارة أخرى، الذهن هو استعدادات أو تحققات النشاط الادراكى السلوكى للدماغ– مثل المجرى المائى الذى ينتج مباشرة عن طلمبة رى، أو مثل الصورة التى ترسمها يد الفنان بفرشاة وألوان الرسم على لوحة ما، ومثل نبضات ومنتجات حركة القلب والدورة الدموية كنتيجة مباشرة للتكوين العضوى والتشريحى والوظيفى للقلب وما يتعرض له من مؤثرات ومنبهات. ولهذا يمكن أن نتحدث عن «ذهن» أو «ذهنية» mentality عند الحيوانات التى يوجد فى رأسها دماغ متطور، بينما لايجوز أن نتحدث عن «ذهن» حشرة مثلا بدون دماغ متطور. ومن ناحية أخرى، لايجوز علميا ومنطقيا أن نتحدث عن وجود «عقل» عند أى حيوان مهما كان.

● وفى مقابل «الذهن»، نجد أن «**العقل**» يعنى بالتحديد قدرات ووظائف التفكير اللغوى أو الرمزى المتطور. وهذا لايوجد طبعا إلا عند الانسان– بل وبشكل خاص عند الانسان المفكر. ولهذا، **فالعقل هو باختصار الفكر الراقى**. وكلمة rational مثل كلمة in-tellectual، يمكن أن تترجم أيضا بكلمة فكرى أو ثقافى فكرى. وفى اللغات الأوروبية الحديثة، نجد أن كلمة reason لاتزال تعنى أيضا «سبب»، **للتعبير عن هذه الوظيفة العقلية الجوهرية– الوظيفة الفكرية المميزة للأنسان العاقل– وهى وظيفة التعليل أو الربط المنطقى بين الأسباب والنتائج**. وبهذا المعنى، كان من أهم– وربما أهم– مبادئ الفلسفة، هو أن «**العقل فاصل الانسان عن الحيوان**».

وواضح مما سبق، أن **العقل هو جزء من أجزاء الذهن أو وظيفة من وظائفه– رغم أنه أرقى وأهم أجزاء ووظائف الذهن**. فهو كالعينين بالنسبة للجسم الحى، الذى يمتد من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وإلى جانب العقل، يشمل الذهن أيضا الوظائف السلوكية ذات الطابع الادراكى التى يمكن أن نسميها الوظائف «النفسية». وبين العقل والنفس، يشمل الذهن مجالات أو وظائف إدراكية أخرى متوسطة أو انتقالية: بين جانب التفكير الراقى وجانب الادراك السلوكى المباشر.

وقد كان الفلاسفة القدماء وحتى العصور الوسطى، يميزون نوعيا بين العقل والنفس (حيث يعتبرون النفس مشتركة بين الانسان المفكر والانسان الدهمائى بل والحيوان أيضا). وبعضهم كان يسمى «العقل» أحيانا بأسم «النفس العاقلة» أو «الناطقة» (بمعنى المنطقية وليس بمعنى الناطقة لغويا كما يتصور البعض). ويمكن أن تجد ذلك مثلا فى كتاب أبو حامد الغزالى «تهافت الفلاسفة»، وفى رد ابن رشد عليه بعنوان «تهافت التهافت».

والقدماء لم يكونوا يستعملون كلمة «ذهن»، لكن كانوا يستعملون بدلا منها كلمة أوسع تقريبا هى «نفس». وكانوا يقسمونها إلى مراتب نوعية متدرجة، هى:

١- «**القوى النباتية**» - أى الخاصة بالوظائف البيولوجية الأولية الموجودة عند النبات والحيوان والانسان. وهذا النوع من وظائف «النفس» عندهم، لايدخل طبعا فى وظائف الذهن، ولكن فى الوظائف غير الادراكية للمخ.

٢- «**القوى أو النفس الحيوانية**»: ويقسمونها إلى جانب «محرِّك» (= سلوكى) مثل القوى الشهوانية والغضبية، وجانب «مدرِك» (= إدراكى) هو المرتبط بالحواس والتخيل والادراكات المتوسطة. وهذه توجد بدرجة أو بأخرى عند الحيوان وعند الانسان.

٣- «**النفس العاقلة**» أو «**العقل**»: ولها عندهم جانب «**نظرى**» يعنى إدراك حقائق المعقولات أى الكليات المجردة» abstract universals، وجانب «**عملى**» يعني التدبير أو التخطيط الذى يتيح للعقل أن يحكم السلوك والجزئيات ليصنع الفضائل المفيدة ويمنع الرذائل الضارة.

تدهور المعانى

وفى بداية العصر الحديث، كان الفلاسفة الفرنسيون والانجليز يستعملون فى هذا المعنى العام كلمة «الذهن» أو «الفهم»— رغم أنها تترجم اليوم خطأ بكلمة «عقل»! صحيح أنهم كانوا يتجنبون كلمات «النفس الحيوانية» أو «إدراك العوام/ «العامة»، الخ، وذلك بسبب تصاعد دور «العامة» الدهمائيين (جنبا إلى جنب مع العامة المفكرين الذين لايعتبرون «عامة» إلا اجتماعيا فى مقابل الاقطاعيين والنبلاء الوارثين، بينما يعتبرون من الناحية الثقافية «خاصة» بالنسبة إلى منخفضى التفكير حتى لو كانوا

ملوكا!). وصحيح أن سيطرة الشعارات الدينية والديماجوجية عن المساواة المزعومة (كلنا اولاد تسعة، كلنا اولاد حوا وآدم، الخ)، جعلتهم يتجنبون الثنائيات القديمة عن «عقل» **الخاصة المفكرين** و «نفس» **العامة شبه الحيوانيين**. لكن حتى فى محاولاتهم لمنافقة الجماهير والرأى العام الدهمائى فى بداية العصر الحديث، لم يصلوا إلى درجة إلغاء هذه الفروق النوعية التى تدخل فى صميم المبادئ الفلسفية العقلانية. وإنما كانوا يتصرفون بطريقة أو بأخرى لارضاء العامة مع إرضاء الحقيقة الفلسفية أيضا!

من ذلك مثلا، كلمة ديكارت المعروفة فى القرن السابع عشر «الذهن L'entendement أعدل الأشياء توزّعا بين الناس». فهو هنا- أولا- لم يستعمل كلمة raison التى جعلها قصرا على الفلسفة والمشتغلين بالفلسفة والعلوم الراقية. ثم إنه- ثانيا- لم يقل إن الناس متساوين فى قدراتهم الذهنية، بل قال إنها موزعة بينهم توزيعا أعدل من توزيع الأشياء الأخرى. وهذا يذكرنا بمأثورة فولكلورية عقلانية تقول، إن «الله» وزع على الناس عقولهم فرضى كل شخص بعقله (أى تصور أنه حصل على درجة وافية من العقل ربما أفضل من الآخرين!)، ثم وزع عليهم الأرزاق فلم يرض أحد برزقه!

والحذر الذى أبداه فلاسفة القرون الحديثة السابقة على هذا القرن فى موضوع «العقل»، نجده واضحا أيضا عند الفيلسوف الانجليزى التنويرى جون لوك مثلا، الذى جاء بعد ديكارت واستعمل فى عنوان أهم كتبه كلمة مرادفة لكلمة ديكارت هى: Human Understanding.

ذلك أن **الكلمة الفرنسية** entendement **تعنى فى الانجليزية** :

١- understanding   ٢- mind.

وهكذا تجد أنهم كانوا منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث، لايستعملون بخصوص البشر عموما إلا كلمة «ذهن» أو «فهم»، فى مقابل كلمة «العقل» بالمعنى الفلسفى. وقد تدهورت وانحدرت دهمائيا معانى أو مسميات هذه الكلمات فى اللغات الأوروبية نفسها، لكن استمرت أسماء القرنين السابع عشر والثامن عشر شواهد على المعنى القديم الذى نسيه الناس بعد سقوط مراحل العقل الفلسفى والفكر الراقى! أما فى لغات العالم الثالث التى دخلت فى ميدان الثقافة الفلسفية متأخرة، فقد استخدموا ألفاظاً أو أسماءً أخرى للتعبير عن المسميات المتدهورة اللاحقة أى التى سادت فى المراحل المتأخرة. ومن ثم ظهر عندنا بوضوح فى اللغة

العربية مثلا، الفرق بين المسمى الذى كان مقصوداً فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبين المسمى التدهورى اللاحق الذى حل محله فى التخليطات الثقافية السائدة!

وعلى سبيل التوضيح أو التبسيط للفرق بين الاشتراك أو الالتباس فى الاسم والاشتراك أو الالتباس فى المسمى، أقول إن هذا يشبه مثلا استعمال كلمة «فتوة» فى اللغة المصرية خلال قرون عديدة قبل الانقلاب العسكرى الناصرى بمعنى استعراض القوة على الآخرين والتشاجر معهم وضربهم، ثم ظهور معنى آخر لكلمة «فُتُوة» بعد الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ (وفق الاستعمال العربى السورى ذى الشكل الفصيح!) وهو معنى تدريب طلبة المدارس الشبان على الروح العسكرية! فها هنا تجد الاسم واحداً تقريبا– أى اسما مشتركا– رغم أن المسميين مختلفين. فاذا جاء مترجم أجنبى وترجم كلمة «فتوة» من واقع معناها العسكرى اللاحق فى مصر ثم حاول تطبيق ترجمته هذه على معناها السابق القديم، تكون مفارقة التخليط هنا بين المعنيين أكثر وضوحا، ويكون التغير الذى حدث فى المعنى الأول أكثر وضوحا.

هذا هو الفرق– فى نوعية الاختلاط– بين استعمال اسم واحد يعبر عن معنى قديم ومعنى جديد، وبين استعمال اسم جديد للتعبير عن معنى قديم مختلف! ولهذا، نجد مثلا أن عالم الاجتماع الفرنسى ليفى بريل Levy- Bruhl استطاع أن يصدر عام ١٩٢٢ كتابه الهام جدا بعنوان la mentalité primitive حيث وصف فيه الذهنية البدائية بأنها «قبل منطقية» أو «سابقة على المنطق» prélogique وأنها غيبية mystique– وهذا يعنى أنها ذهنية لاعقلية ولا منطقية! ثم ظهرت المفارقة والتخليط اللغوى عندنا فى ترجمة ذلك الكتاب إلى العربية فى الخمسينات (بقلم أستاذ متخصص فى اللغات الشرقية وليس فى الفلسفة) **تحت عنوان: «العقلية البدائية»!! فهذا يعنى اعتبارها عقلية لاعقلية!** وواضح أن هذا تعبير لامنطقى متناقض ذاتيا (أى بدائى!) يشبه تعبير المربع المستطيل مثلا!!(١)

(١) يهمنى هنا أن ألفت نظر القارئ الكريم، إلى أن فقهاء التجهيل فيما يسمى «هيئة الكتاب» سحبوا من دار الكتب الكبرى بباب الخلق كل نسخ هذا الكتاب الهام جدا الذى ترجمه أستاذ معروف، بحجة تحويلها كلها إلى دار الهيئة التى توجد فى بقعة نائية فى رملة بولاق، والتى لاتسمح أصلا بالاستعارة الخارجية للكتب!! ومعنى ذلك عمليا منع قراءة هذا الكتاب الهام، أو حصرها فى الحالات الاستثنائية النادرة!!

أصول الأسماء

● هذه الملاحظات كلها تتعلق كما قلت بالمسميات. والمهم دائما هو المسميات لا الأسماء أو الألفاظ التى قد تختلف وتتغير وتتعدد فى اللغة الواحدة أو بين اللغات الكثيرة. ومع ذلك، فالأسماء هى اللافتات أو العناوين. ومن ثم يجب الاهتمام بأن يُفرض عليها الالتزام بالصواب والدقة والتمايز، حتى لاتؤدى اختلاطاتها أو تداخلاتها الملتبسة إلى التضليل والتخليط بين الموضوعات التى تشير إليها- حتى لو كانت موضوعات تلك اللافتات أو العناوين متميزة فى نظر الخبير المتمرس. وأهمية ذلك تبدو واضحة، إذا تأملت مثلا ما يمكن أن يحدث من كوارث، فى حالة وضع عناوين خاطئة أو مختلطة على زجاجات عقاقير من النوع الخطير!

● وفى العربية، نجد أن أصل كلمة «ذهن» يشبه تقريبا أصل كلمة «دماغ»: الأولى من معنى «دهن» للتعبير عن المادة شبه البيضاء للمخ، والثانية من «دم» للتعبير عن تركز الشعيرات الدموية فى المخ. وفى مقابل ذلك، نجد أن أصل كلمة «عقل» يرجع إلى معنى الربط وإلى معنى التحكم الذاتى. وهذا مستوى أرقى طبعا.

وفى اليونانية كانوا يستعملون: ١- كلمة «أنيموس» بمعنى حياة أو نفس أو نسمة Soul-fle/ breath. لكنها تطورت بعد ذلك (خصوصا فى اللاتينية anima) إلى معنى نَفْس âmc/ soul ٢- كلمة «بسيخوس» psyche (= lat. Spiritus) بمعنى نفس أو روح. ومنها حديثا كلمة psychology أى علم النفس، وأيضا psychiatry التى يترجمونها أحيانا الطب العقلى وأحيانا الطب النفسى! (والصواب هو الطب الذهنى). ٣- كلمة «نوس» noos/ nous. وفى القواميس اليونانية غير المتخصصة فى الفلسفة، يترجمون هذه الكلمة القديمة كمايلى: mind, brains. لكن ترجمتها الفلسفية الدقيقة، هى reason أو intellect (أو أيضا intelligence بمعنى عقل وليس بمعنى ذكاء). وهذا واضح عند التعبير عن النظام العقلانى للكون أو للكواكب، الخ.

وفى اليونانية، نجد أن كلمة noos مرادفة فى هذا المعنى لكلمة logos، التى تعنى بالنسبة للكون: منطق الوجود، أو القانون العقلانى للوجود.

وإذا أدركنا أن كلمة intellect أو intelligence مشتقة من inter + lego، فان هذا يعنى أنها

ترجع إلى نفس كلمة لوجوس هذه. هذا، وكان اليونانيون القدماء يقولون إن مكان العقل/ نوس هو الرأس، بينما مكان النفس (أى فى المرتبة الأدنى) هو القلب.

أما الكلمة الأوروبية reason، فهى مشتقة من اليونانية ratio. وهذه تعنى التحديد الفكرى والتنظيم أو التخطيط الفكرى والتحديد الحسابى والاستدلال والرأى والحكمة والمذهب العلمى أو الفلسفى، الخ. ومشتقاتها الأخرى التى تعبر عن الفكر والتحديد والحساب والمعدل الحسابى، كثيرة وواضحة فى اللغات الأوروبية. وفى مقابل ذلك، نجد أن أصل كلمة mind فى اللاتينية هو mens. وهذه لاتعبر عن مستوى فكرى راقى. فهى من نفس أصل كلمات /moon monsis قمر، month/ mensis شهر، و menstrua حيض أو طمث.

ورغم أن الأصل اليونانى للكلمة (أو ربما المرتجع اليونانى) يعبر عن التذكر أو التفكير فى المستويات البسيطة، إلا أن التنوعات اللاتينية المذكورة (التى ترجع بوضوح إلى تأثيرات إتروسكية غيبية)[1] تعبر عن تحكم القمر فى الزمن وفى الحيض وفى الذهن! (وهذا واضح فى كلمة Lunatic وفى كلمة mania وفى الربط الغيبى القديم بين القمر والجنون، وفى كلمة monere أى ينذر أو يحذر، ومنها manstrum أى نذير نحس أو شؤم، ثم monster أى مسخ مشوّه. ومثل هذه التربيطات تقريبا اقترنت بالكلمة العربية قمر/ أَمَر، حيث نجد أصلها الغيبى واضحا فى العربية القديمة فى كلمات «أمْر» و"مأمورة" التى تعبر عن العشق القهرى وغيره من أنواع التحكم الذهنى السرى فى انفعالات وتصرفات الآدميين أو الحيوانات، وليس فقط المعنى المعروف لاصدار الأوامر Command، فضلا عن كلمة «قمار» التى تعبر عن التحكم السرى السماوى أيضا فى الحظوظ!).

والخلاصة، أن الأسماء الدالة فى مختلف اللغات على الذهن mind أو النفس soul، تعبر اشتقاقيا عما ذكرناه عن مسمياتها، ألا وهو أن مستواها النوعى أدنى من المستوى النوعى

---

(١) أنظر الحاشية فى آخر هذا الفصل، عن عصابات الاتروسك ودورهم الكهنوتى والانسادى التخريبى فى صناعة الطفولة اللاعقلية الفاسدة للامبراطورية الرومانية، وفق مخططات وتحريكات الأجهزة الفرعونية وشبكاتها الدينية فى المنطقة، وكيف أثمرت بذورهم الاجرامية من خلال التعبيد الكنسى الطويل للرومان. بل إن أحد شعاراتهم الرمزية لعب دورادمويا فى القرن العشرين، حيث أنهم كانوا أصحاب شعار واسم البلطة الفاشية الذى التقطه موسولينى!

العقل أو الفكر الراقى reason أو intellect. وهذا ينطبق على الأسماء والمسميات الشبيهة بكلمة الذهن، مثل «الفهم» (فالحيوان يمكن أن يفهم لكن لايمكن أن يعقل أو يصل إلى الوعى الفكرى).

فكر المعتوهين والمهابيل!!

بالاضافة إلى ماسبق، يجب أن نلاحظ أنه حتى «التفكير» thinking يمكن أن يختلف كيفيا ونوعيا عن الفكر thought. فالتفكيرفعل قد يمكن أن يوجد بدرجة صغرى لدى بعض القردة الراقية الذكية (كالشمبانزى)، ويمكن أن يوجد بدرجة أو بأخرى لدى البدائيين غير المتحضرين، وطبعا لدى الناس العاديين الذين لايصلون إلى مستوى الفكر بمعنى وظيفة أو تخصص النظر العقلى. ذلك أن الفعل غير الوظيفة أو التخصص. فالذى «يتعلم» شيئا من هنا وشيئا من هناك، غير «المتعلم» المتخصص. والذى يلتقط بعض الثقافة من هنا أو من هناك، غير «المثقف» المتخصص. والذى يمارس الغناء أو الموسيقى أحيانا، أو يقوم عموما بأى فعل من الأفعال أحيانا أو عند الضرورة، يختلف عمن يتخصص فى هذا أو ذاك.

* وبهذه المناسبة، تساءلت فى خطابك عن عبارة وردت فى كتاب «المبادئ الفلسفية الجديدة» (ص ١٤٨)، تشير إلى أن **«التثقيف يختلف عن الثقافة مثلما يختلف التعليم عن العلم»**. وواضح أن المقصود هو التمييز: ليس فقط بين الفعل والتخصص، لكن أيضا بين الفعل والثمرة التى يؤدى إليها الفعل أو التخصص. فتعليم وتربية الطفل مثلا، يختلف طبعا عن علم التربية والعلوم الأخرى التى يعتمد عليها المعلم المتخصص فى أداء ذلك، بقدر ما يختلف فعل التربية وتخصص التربية عن إنجازات وثمار ذلك لدى التلاميذ. وتثقيف شخص معين مثلا، هى محاولة قد تفشل وقد تنجح. وهى قد تستمر وتتصاعد وتصل به إلى مستوى الثقافة بحيث يعتبر مثقفا، بينما قد تنقطع فيصبح رغم ما تلقاه من محاولات تثقيفية شخصا غير مثقف!

وهكذا تجد أن تعليم الطفل أو تثقيف الطفل، هى أمور تختلف تماما عن «علم تربية الطفل» مثلا، أو علوم الطفل عموما، وتختلف أيضا عن ثقافة الطفل التى يجب فى هذه الحالة أن توجد لدى المشتغلين بـ أو

المشرفين على تعليمه وتثقيفه وليس لدى الطفل نفسه الذى يستحيل أن يصل إلى مستوى الثقافة مهما ارتفع مستواه العقلى!! بل إن هناك بالفعل اقتراحا أكاديميا لايزال تحت المناقشه وأشارت إليه بعض الصحف، يطالب بأنشاء ما يسمى «المعهد العالى لفنون الطفل»، وإنشاء مايسمى «أستاذ طفل» أى كرسى أستاذية للطفل. وبديهى أنه ليس المقصود بذلك أن يصبح «الطفل» نفسه أستاذا على كرسى أكاديمى، ولا أن يستوعب فنون وعلوم «الطفل» التى سيخصص لها المعهد المطلوب، ولكن المقصود أن يكون «الطفل» موضوعا أومادة لذلك كله!!

لكن هؤلاء الذين أهدروا ويهدرون الثقافة والفكر، وصلوا فى تشويهها وتسفيلها إلى درجة اختراع حكاية اسمها الرسمى «ثقافة الطفل» للتعبير عن محاولات رفع مدارك ومعارف الطفل!! كما وصلوا إلى تشويه وتسفيل وتلطيخ الفكر إلى درجة اختراع اسم «التنمية الفكرية» لاطلاقه رسميا على مراكز ترويض أو تعليم «المتخلفين ذهنيا» أو «المعوّقين ذهنيا»!!! (أى المهابيل والمحرومين من قدرات العقل أو الفكر!!).

وكنت قد تناولت فى كتبى الأخيرة المفارقة التجهيلية لما يسمى «ثقافة الطفل»، لأنها هى التى كانت شائعة منذ أواخر الثمانينات. ثم ظهرت بعد ذلك مفارقة تسمية تعليم المعتوهين والمتخلفين ذهنيا باسم «مدارس التنمية الفكرية» أو «التثقيف الفكرى»!! وهذا أنكى وأضل من اسم «ثقافة الطفل»، بل وأشد استفزازا للعقل وأكثر إيلاما للنفس!! وقد تكررت أخبار الصحف عن ذلك النوع من الثقافة الفكرية المقلوبة!!

فبعض الصحف تستكمل هذا الاسم الاستفزازى كما يلى مثلا: «مدرسة التنمية الفكرية للمعاقين ذهنيا بالعباسية»! (أهرام ٩١/٣/٢٩). لكن الأهرام نشرت فى عدد آخر- فى صفحة الحوادث وليس فى صفحة الثقافة- خبرا عن جريمة حيوانية ارتكبها أحد «مفكرى» تلك المدارس، حيث اغتصب طفلة عمرها خمس سنوات ثم قتلها خنقا! وقالت إنه «طالب بمدرسة التثقيف الفكرى بالمطرية»- ثم اضطرت من باب الحياء إلى توضيح معنى ذلك التثقيف الفكرى فقالت: «متخلف عقليا»!! (أهرام ٩١/٤/٢١).

● أما قولك إن «التثقيف يؤدى إلى الثقافة والتعليم يؤدى إلى العلم»، فهذا أولا غير صحيح. فما أكثر من تلقوا التثقيف والتعليم ثم سقطوا فلم يصلوا حتى إلى صفة المتعلمين!

لكن الأهم من ذلك منطقيا، أنك تتحدث هنا عن موضوعين متميزين فتتناولهما بطريقة الجدل الماركسى الذى يجعل اقتران أو ارتباط الموضوعات المتعددة المختلفة لاغيا لتعددها ولاغيا لاختلافها!! فأنت- مثل هيجل والماركسيين- تنسى هنا كلمة «يؤدى إلى»، ومن ثم تخلط بدلا من أن تربط بين إحدى العلل وبين المعلول الذى قد ينتج وقد لاينتج عن تلك العلة! كمن يقول مثلا إن الذهاب إلى هوليود يؤدى إلى الشهرة السينمائية، فيفهم الآخر من ذلك أن: الذهاب إلى هوليود = الشهرة السينمائية! أو كمن يقول مثلا إن مجرى النيل يؤدى من أوغنده إلى البحر الأبيض، فيفهم الآخر من ذلك أن: أوغنده = البحر الأبيض!

مثل هذا «الجمع» الجدلى أو «الخلط» التربيطى، هو من أخبث سموم الجدل الهيجلى الماركسى. ولهذا تناولت فى كتاب الفلسفة مبدأ الترابط الجدلى الشامل الذى يساء فهمه عن قصد أو عن غير قصد، فاستكملت جانبه المهدر وأسميته: «**مبدأ اتصال الوجود مع انفصال التحديد**» (ص ٣٢).

■ وهذا ينقلنا إلى موضوع الجمع بين النقيضين الذى كتبت عنه كثيرا فى كتاب الفلسفة. ولهذا، ننتقل الآن من موضوعات العقل والذهن إلى الموضوع الأطول الخاص **بالتناقض**.

* * *

☼ حاشية عن الاتروسك والرومان

الاتروسك والتعبيد الكنسى للرومان قبل فاشية موسولينى

الاتروسك/ الاترورييون Etrusques/ Etrurie هم شعب كهنوتى إسرائى (= من شعوب الهجرات التعبيدية الاكتساحية) كان يتكون مثل الاسرائيليين المعروفين فى تاريخ الأديان من ١٢ قبيلة! وقد فرض سيطرته عدة قرون (مع شعوب تعبيدية أخرى صغيرة) على أجزاء كثيرة من إيطاليا- منها روما نفسها- حتى القرن السابع والخامس قبل الميلاد. ورغم أن المؤرخين المتخصصين يقولون إنه شعب مجهول الأصل، إلا أن الواضح تماما أنه شعب تكوّن من مجموعات قبلية مصنوعة من أصول شرقية وأصول أناضولية وبلقانية مخلّطة (فضلا عن

طريقه خطف وترويض الأطفال أو صغار الشبان والاناث، بالطريقة التى كانت معتادة فى تكوين الجيوش السرية أو جيوش الاكتساحات الدينية التعبيدية القديمة، على غرار طريقة خطف وترويض جيوش المماليك/ العبيد فى التاريخ المصرى). وكان ذلك يحدث تحت سيطرة وتحكم وتحريك أجهزة الكهنوت الفرعونى وعصاباتها وشبكاتها المنتشرة فى البلقان وإيطاليا، بمثل ماحدث فى العصور القديمة والوسطى فى مختلف بلاد العالم. أما دور الاتروسك الواضح تماما فى التاريخ، فقد كان دور إجهاض وتصفية محاولات اليونانيين المستنيرين الذين زادت هجراتهم من البلقان (بعد خضوعها للعبادات القهرية والتحكم السحرى السرى)، والذين كانوا قد أنشأوا فى جنوب إيطاليا مايسمى «اليونان الكبرى» Graecia Magna، وكذلك إجهاض وتصفية ثقافات الجماعات اللاتينية الكلتية الأسبق فى الهجرة العقلانية إلى الغرب، حيث كان هؤلاء وأولئك يحاولون منذ الألف الثانى حتى الألف الأول قبل الميلاد أن يرفعوا فى إيطاليا رايات العقلانية بعد سقوطها فى مهاجر الشام ثم بعد اهتزاز محاولاتها التالية المحدودة فى اليونان.

وقد لعب الاتروسك بشكل خاص- ومعهم من خارج إيطاليا الفينيقيون وأمثالهم من الشعوب ذات الأصول والتقاليد الشرقية الفرعونية المعروفة- أخبث وأخطر دور تحطيمى مموّه عرفه التاريخ، وذلك فى تسميم وتخريب بدايات الحضارة الرومانية، التى تولدت عنها بعد ذلك الحضارات الأوروبية الحديثة. فهم الذين فرضوا أغبى وأسوأ الخرافات الدينية والسحرية على الرومان، بل وأيضا أقذر وأبذأ تقاليد الفساد والانحلال الخلقى (التى استمروا يستخدمون فيها حتى القرون المتأخرة مسرحيات الفارس الجنسية البذيئة الساقطة)، وقاموا فى ذلك كله بأخبث وأخطر دور فى تحوير وتغيير اللغويات والكلمات الاستراتيجية اللاتينية اليونانية وفى تعكيسها وتربيطها بالخرافات أو بالتربيطات الجنسية البذيئة، فضلا عن تغيير بعض الصوتيات أو الحروف الأبجدية للكلمات، الخ. (وأوضح تلفيقاتهم فى أوروبا هى الكتابة الرونية)

وقد قال عنهم المؤرخ الرومانى تيتوس ليفى Livy (فى القرن الأول قبل الميلاد) إنهم «أشد الشعوب إدماناً للعبادات والممارسات الدينية»، أى الممارسات والتقاليد الخرافية

والغيبية والسحرية. ويذكر التاريخ وقائع كثيرة عن تعاملاتهم «الغيبية» المزعومة، ومنها وقائع مؤكدة عن شبكات «السراديب التحت أرضية» وفتحاتها «المقدسة» (والموزعة بطريقة فتحات المجارى الحديثة!)، التى كان يتعامل معها الاتروسك ومع سكانوا السريين التحت أرضيين فى إيطاليا، باعتبارهم كائنات عفاريتية مقدسة تُحرَّم رؤيتها أو ملاحقتها- وليس باعتبارهم جيشا سريا من الكائنات البشرية شبه القردية التى كانت تُصنع وتروَّض فى قردخانات مبرمجة على الطريقة الكهنوتية الفرعونية، لاستخدام أسرابها الحيوانية المحكومة فى أداء الجرائم والكوارث «الخفية» والرهبوت «الخفى» الذى ينسب إلى المعجزات الوثنية والعالم الروحانى السفلى!

ولم تبدأ الأجهزة الكهنوتية الفرعونية فى إبعاد الاتروسك عن مسرح التاريخ العام، مع إنهاء وطمس تاريخهم الخاص المكشوف وإدماجهم فى بقية الرومان وإلقاء ستائر التجهيل على تراثهم القديم- **كما حدث أيضا للفينيقيين وأمثالهم من شعوب الكومبارس فى العصور القديمة-** إلا بعد أن أدوا دورهم الافسادى السام فى التحطيم والتشويه الذهنى واللغوى والتراثى والحضارى لبقية الرومان، وقطع الاستمرارية الثقافية للتراث البحراوى اليونانى اللاتينى الكلتى الأقدم فى إيطاليا، بحيث أصبح من الممكن أن ينتقل الرومان من مراحل التعتيم المجهول إلى مراحل الظهور العالمى! فها هنا فقط، وعلى أساس ما كان يحدث وراء الكواليس فى القرون السابقة، سمحت الأجهزة الكهنوتية الفرعونية بقيام الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثانى قبل الميلاد، عندما نجحت فى أن تجعلها حلقة ممسوخة متدهورة من حلقات سلسلة بروميثيوس العقلانية الأقدم. ونتيجة ذلك، لم تلبث الحلقة الرومانية أن تفسخت ثم انهارت وتحولت رسميا إلى المسيحية فى صدر القرن الرابع الميلادى!! **وهذا مثال تاريخى نمطى، يوضح الدور الكهنوتى الفرعونى فى صناعة الطفولة اللاعقلية الفاسدة للبشرية، ولمختلف الامبراطوريات التى كانت شبكات الافساد والاجرام تعرقل وتلوث طفولتها، وتحقنها بسموم وأمراض الفساد والخرافة واللاعقل، وتمرغها فى أوحال وعادات الرذيلة والحيوانية والاجرام، بحيث تبدأ صعودها فاسدة مريضة مستهلكة، فلاتلبث أن تتفسخ ثم تنهار!!**

وقد وصل إلى عالمنا المعاصر من خلال الحديد والنار وطوفان الدماء في الحرب العالمية الثانية، أحد السموم التدميرية الخبيثة التي كانت أجهزة الكهنوت القديمة قد فرضتها على الرومان من خلال عصابات الاتروسك، هو شعار أو رمز الفسك/ الفاش fasces الذي جعلته فاشية موسوليني أسماً وشعاراً لها! وهذه الكلمة القديمة، كانت تعنى في الاتروسكية واللاتينية وغيرهما معنيين متكاملين يوضحان معا أصول هذا الشعار: ١- معنى العصابة أو الرابطة. والمقصود عصابة أو رُبَطية الاجرام التي كانت تقال على أفراد جهاز أو شبكة التحكم السرى المنتشرين داخل قصر الحاكم ومرافق الحكم والمجتمع. وبعد تخفيف هذا المعنى القديم، أصبحت تترجم بكلمة عصبة أو مجموعة سياسية عموما! ٢- معنى عصابة التعصيب أو الرابطة المربوطة. وفي هذا، كانت تقال بشكل خاص على مجموعة قضبان أو أعواد من فروع الشجر التي تستخدم في الضرب، مربوطة معا بشريط أحمر حول بلطة حدّها بارز من أحد الجانبين. وكانت ربطة البلطة هذه ترمز رسميا إلى سلطة العقاب بالضرب أو بقطع الرقبة، أو ترمز إلى القوة المطلقة عموما. وبعد أن أخذها الرومان عن الاتروسك، استعملها الملوك والحكام والقضاة الرومان بهذا المعنى، ثم استرجعها موسوليني والفاشست الايطاليون تعبيرا عن القوة المطلقة للسلطة. وموسوليني هو الذي عقد أول صلح رسمي حديث مع الفاتيكان في إيطاليا، بعد قرون الظلام الكنسي الذي عانت منه أوروبا. (ولاحظ أن كلمة Fati-can/ Vatican تعبر عن صانعي الأقدار أو المتنبئين بالأقدار!!)

والمعنى الأصلي القديم الذي يجمع بين المعنيين المذكورين للفسك أو الفش أو ربطة البلطة، هو أن كل من يحاول كشف عصابات/ مجموعات التحكم السرى الشامل التي تحرك الحكام والمسئولين الرسميين وأقطاب المجتمع، ستقطع رقبته على الفور. وبهذا المعنى، كان هذا الشعار بل وهذا الاسم يطلق أيضا في عهود الاتروسك وأوائل عهود الرومان على «بلطجية الملك» lictors- أي «حملة البلطات» الذين كانوا يحيطون به ويفسحون له الطريق ويحرسونه جسديا ويبعدون عنه غير المرغوب فيهم! (وكان العدد التقليدي لهؤلاء إذ ذاك ؟!!).

وإذا لاحظنا أن اسم «المحور» axis (الذي يعنى أيضا السيخ!)، يرجع إلى أصل اسم بلطة القتل axe (اكسيني)، يمكن أن نتذكر من ناحية أخرى أن شعار الصليب المعقوف/ السواستيكا الذي التقطه النازي، كان أيضا من الرموز السرية التي نشرها الاتروسك

والفينيقيون فى العصور القديمة! (ولاحظ أن عباس العقاد يعتبر الفينيقيين هم العرب الأقدم). والصليب المعقوف أو صليب جاما crux gammata لم يكن فقط من رموز التعذيب الأنكى أو التخزيق فى العصور القديمة، لكنه كان يرتبط أيضا بلغز يسمى «لغز الدلتاتين» ΔΔ enigma / إنيجما داودا (التى تحوّرت إلى مايسمى نجمة داود). وبهذا، كان الصليب المعقوف يشير رمزيا إلى التاريخ الحقيقى الملموس للصراع الأزلى بين العقل واللاعقل كما تجسد فى الاكتساح الفرعونى للدلتا المصرية والبحراويين حاملى شعلة برومثيوس، ومطارداتهم للهجرات البحراوية حول البحر الأبيض ثم فى كل مكان، وما ارتبط بذلك من التخليطات والالغاءات التى حدثت فى اللغويات والأبجديات القديمة بين حروف التواء/ التاء العبرى والدالت العبرى وجاما/ حرف المشنقة اليونانى Γ/γ ، والتاء العربى المربوطة δ (= حرف دلتا اليونانى)، وحرف F الذى كان يسمى داى جاما (أى المشنقة المضاعفة- وكان يرسم فى أعلاه كرباج أحيانا!)، وحرف الدلتا تاو القبطى (الذى يشبه النخلة ويعبر عن شمال نهر النيل)، والخلط الرومانى القديم بين الدال واللام (الدالاى لاما- حيث حرف اللام اليونانى Λ هو مثل حرف الدال اليونانى يشير إلى منظور شمالى لدلتا النيل، بعكس منظور حرف الدال تاو القبطى. وهذا التعاكس بين المنظورين هو ماعبر عنه "لغز الدلتاتين" كما قلت). ثم تضاف إلى ذلك الدال الاسكندنافية التى فى أعلاها صليب δ، والدلتا الروسية التى تكتب جيم لاتينية بالخط اليدوى، الخ. وكل هذه الأمثلة كانت تعبر فى الفولكوريات القديمة عن أشكال مختلفة لشعار صليب التعذيب أو خازوق التعذيب الأنكى أو عقدة / شنيطة الشنق أو المشنقة، وأيضا عن استمرار وتضاعف التحوير والتغيير بطريقة وردة الرياح!

ولهذا، نجد أن الكلمة الاتروسكية اللاتينية fasces التى اشتق منها اسم الفاشية، ترجع إلى نفس أصل الجذر اللاتينى pisc أو fisc (ومنه fiche و fish - ويقابل الجذر اليونانى إكس أو إخ)، حيث تعبر مشتقاته عن الفيشة أو الوتد أو الخازوق أو السمكة. وبهذا المعنى، استخدمت السمكة رمزا لما يسمى أسرار صلب المسيح، بل وأضيفت إلى الصليب السوريانى مثلا!! (وليس ذلك فقط للتعبير عن نفس التهديد ضد من يحاول التعرض لأسرار وشبكات وغوايات التحكم السرى الشامل وعملياته المدبرة التى تصنع أقدار الشعوب والأفراد، لكن أيضا لأن كلمة الصليب فى اللغات القديمة مشتقة بطريقة تشبه الاشتقاق الشرقى من:

الصل/ الصلو/ السل/ المسلة/ أو بلسكوس). وفى اللغة العربية، نجد مثلا من مشتقات الجذر الاتروسكى اللاتينى fasc : فاس/ وفسق.

ومن ذلك كله، نجد أن بلطة الفاشية وصليب النازية الموروثين من الاتروسك وغيرهم من شعوب التعبيد الكهنوتى فى العصور القديمة، كانا رمزين تاريخيين يعبران عن دوافع إغراق البشرية فى طوفان الدم والخراب والعذاب فى مجزرة الحرب العالمية الثانية التى دمرت بقايا عقلانية القرون الحديثة، ألا وهو: منع التقليب (أكثر من اللازم) فى الأوراق والأثريات والخرافات واللغويات والوقائع التاريخية القديمة بشكل عام، وتلك التى تتعلق بظهور وانهيار الامبراطورية الرومانية وتاريخ الكنيسة والاكتساح المسيحى لأوروبا بشكل خاص، ثم بشكل أخص تلك التى تتعلق بالتاريخ الأقدم المطموس الذى بدأ من شعلة العقل والمعرفة فى دلتا النيل، ثم طاردته ودمرته أجهزة وشبكات الكهنة والتعبيد الدينى التى فرضت على العالم طاغوت اللاعقل والتحكم السرى الشامل.

ومع ذلك، فان مثل هذه السطور التى تعتبر محاولات جديدة فى عصر البريسترويكا لاسترجاع شعلة بروميثيوس، إنما تؤكد أن جذوة العقل البشرى التى لم تنطفئ تماما، ستنجح فى استخدام الشرارات العقلانية الباقية فى إحياء شمس العقلانية الشاملة، التى تزيح عن العالم ماسُمّى فى أوروبا باسم "لعنة الفراعنة".

(انظر البند ١٣)

* * *

الفصل الرابع - التناقض فى حالات التحديد واللاتحديد

✪ موضوع التناقض

لاحظ أولا أننى ركزت كثيرا على موضوع التناقض فى كتاب «المبادئ الفلسفية الجديدة»، إلى درجة أننى جعلت العنوان الثانى للكتاب هو: «فلسفة التناقض والأساس الفلسفى للعلوم». ومع ذلك، ربما أكون قد قصرت فى الرد على سفسطات اجتماع النقيضين (التى أشرت إليها مثلا فى ص ١٢ – ١٩)، لأننى وجهت اهتمامى الأكبر إلى إرساء وتوضيح قواعد التحديد التناقضى وقواعد التنافى التناقضى contradictional exclusion، ولم أوجه اهتماما خاصا إلى تفنيد تلك السفسطات وإلى توضيح البديهيات الأولية الكبرى للهوية وعدم التناقض. ذلك أن تلك البديهيات الأولية الكبرى التى يهدرها التخليط الكهنوتى الهيجلى الماركسى، هى نفسها أساس أىّ ردّ أو توضيح من جانبهم أو من جانبنا، لأنها لاتعنى إلا «تحصيل الحاصل» الذى تفرضه فرضاً مسبقاً أى كلمة ذات معنى! ولهذا، كان يعترف بها كل المشتغلين بالفلسفة قبل هيجل وماركس– ولو اعترافاً تمويهياً كاذباً.

وإنما كانت الفقرات المحدودة التى تناولت فيها هذا الموضوع فى كتاب الفلسفة، تستهدف أساسا توضيح أسباب انخداعنا نحن فى شبابنا وانخداع أمثالنا من المثقفين والمشتغلين بالفلسفة بهذه التخليطات والسفسطات المضللة المرفوضة أصلا وابتداءً ومن حيث الشكل!! فأنت حين تقول أى كلمة ذات معنى أو أى حرف ذى معنى، إنما تقرر منطقيا بذلك القول نفسه مبادئ الهوية. حين تقول مثلا– بطريقة مفيدة أى عاقلة– كلمة «كتاب»، فأنت تقرر بذلك: أولا– أنك تقصد معنى الكتاب. وهذا يعنى منطقيا: أ تساوى أ. وثانيا– أنك لاتقصد أى معنى آخر، أى لا تقصد مثلا الكراسة. وهذا يعنى منطقيا أ لاتساوى لا أ، أى لاتساوى مثلا حـ أو د. وثالثا– أن الكلمة التى تقولها هى كلمة مفيدة أى عاقلة، ومن ثم فهى إما أن تقرر المعنى المقصود أو تنفيه ولا ثالث. وهذا يعنى منطقيا: أ تساوى إما ب أو لا ب.

التعبير المفيد يعنى تحديد الهوية

● إن قوانين الهوية **فى الكلام او التفكير المفيد،** لاتعنى أكثر من أن كل كلمة أو رمز تستعمله: **يكون له بالضرورة معنى منطقى أى معقول، ومن ثم متميز عن المعانى المخالفة، ومن ثم لابد أن يقبل الاثبات أو النفى بخصوص موضوعه**. أما **فى الواقع الخارجى**، فقوانين الهوية لاتعنى أكثر من أن كل شئ أو موضوع واقعى تتناوله بالادراك والتحديد، يتصف بما يلى:

١- يكون بالضرورة هو نفسه، وكذلك هو مسمى الاسم أو اللفظ أو الرمز الذى أطلقته عليه (فالحصان هو الحصان بالمعنى المحدد لهذا الاسم ولايمكن أن ينقلب إلى شئ آخر بطريقة سحرية).

٢- يكون من ثم متميزا عن بقية الحيوانات كمسميات تحمل أسماء أخرى.

٣- إذا قلت مثلا إن «هذا حصان»، فيجب من ثم أن يكون قولك قابلا للاثبات أو النفى ولا ثالث، أى أن يكون قولا صحيحا أو خاطئا ولا ثالث.

● **هذه إذن ضرورات التعبير اللغوى المفيد أى التحديد المنطقى (بل التحديد الادراكى عموما)**. وهى ضرورات تفرض نفسها كما قلت بتحصيل الحاصل، ولاتقبل التشكيك الذى يعنى فى هذا الحالة تعطيل أو إلغاء عملية التعبير أو التحديد نفسها! فاذا كلمت مثلا شخصاً باللغة الوحيدة التى يعرفها، فيجب أن تعتبر هذه النقطة نقطة بدء مفروضة فرضا أوليا يلزمك بالضرورة المنطقية بالبحث عن وسائل «مشتركة» للتعبير والتحديد تتيح التفاهم أو تبادل المدركات مع ذلك الشخص- ولو برمز الاشارة الخرساء أو الرسم. وحتى لو أردت إقناعه بفوائد تعلم لغات أخرى (والتشبيه هنا مع الفارق، لأنه **بالنسبة للمنطق لاتوجد إلا لغة واحدة هى لغة الواقع أى العقل**)، فانك لن تصل إلى مجرد التعبير عن رأيك إلا باستعمال وسائل تعبير وتحديد قابلة للتبادل بينكما. ولهذا، تجد أن هؤلاء الذين يؤمنون بالخرافات وينكرون مبادئ الهوية ومن ثم يرفضون اللغة الوحيدة المشتركة بين كل الكائنات وليس فقط بين البشر- وهى لغة الواقع أو منطق الوجود أى العقل- يضطرون رغم ذلك إلى استخدام مايمكن من وقائع ومدركات عقلية أو منطقية لتبرير **ما يتصورونه مختفيا وراء أو فوق الواقع والوجود المادى بحيث لايخضع فى**

زعمهم للتحديد المنطقى.

ذلك أن موقف إنكار مبادئ الهوية والقول باجتماع النقيضين ورفض مبدأ الثالث المرفوع، الخ، معناه ببساطة أنك ترفض استعمال وسائل تعبير قابلة للتحديد، أو وسائل مفيدة منطقيا بحيث تقبل التبادل والتحقيق المنطقى! وهذا الموقف يعبر- ببساطة أكثر- عن إلغاء وسائل التعبير والتحديد، ومن ثم وقف الكلام، بل ووقف التفكير أيضا- لأن الانسان لا يمارس تفكيرا حقيقيا إذا تناول داخل ذهنه وسائل لغوية أو رمزية غير محددة وغير مفيدة منطقيا (حتى لو كانت مفهومة لغويا ولكن بدون هوية منطقية، مثل كلمة عفريت أو كلمة لبن العصفور)!

فالقول باجتماع أو ارتفاع النقيضين، يعنى- بالتبسيط فى مجال اللغة مثلا- مايلى:

أن تتحدث مثلا عن محمد على (باشا)، ثم إذا بك فى الجملة التالية أو فى بقية الجملة تقصد محمد على (كلاى)، ثم إذا بك حين نحاول «تحقيق» موضوع الكلام تقفز إلى معنى الطين/ كلاى... بحجة ترابط الأشياء واشتراك الأسماء وتداخل المسميات (وفق مزاعم اجتماع النقائض)، أو بحجة أن الأسماء والمسميات غير قابلة للتحديد أو للتنافى بين المقصود بالكلام وغير المقصود به (وهذا مايسمى «ارتفاع النقيضين» أى إلغاء مبدأ «إما... أو»). وطبّق هذا التخليط واللاتحديد أيضا على بقية كلمات كل جملة، أو على بقية مسميات كل موضوع واقعى!! إن هذا قد يعنى الهذيان والتخليط الجنونى المعتوه، وليس فقط التخليط الجزئى المحدود الذى يسمى السفسطة أو المغالطة المنطقية!

قليل من الخمر فى كأس المنطق!

ومع ذلك، لاحظ أن هؤلاء الذين يقولون إن قليلا من الخمر يصلح المعدة، لايصلون بالخمر التخليطى اللامنطقى فى تعبيراتهم وأفكارهم إلى درجة السُكر البيِّن/ الطين، أو الخطرفة المكشوفة، ولكن يستخدمون التخليط والجمع بين النقيضين وإهدار الهويات بطريقة جزئية محدودة، ومن خلال «بعض» وسائل التعبير والتحديد المفيدة والمنطقية- التى لايمكن بدونها نقل سمومهم التخليطية المتناقضة- ناهيك عن تغطيتها بطريقة مقبولة وربما معسولة!!

إن اللاهوت المسيحى يقول مثلا إن المسيح «مات» على الصليب فعلا بل ووري القبر، لكنه «قام من الأموات»! كيف يجتمع الموت والقيام (طالما أنهم يعترفون بأنه مات فعلا ولم يحدث خطأ فى تحديد الموت نتيجة «تشخيص طبى» خاطئ مثلا)؟! ستجد للاجابة عن ذلك آلاف الصفحات من التخريفات والتخليطات والبغبغات اللامنطقية التى ترتكز أصلاً وأساساً على مبدأ اجتماع النقيضين– وهو يعنى أيضا عدم تحدد الهويات وإمكان الثالث المرفوع (= ارتفاع النقيضيين)!!

واللاهوت المسيحى يؤكد فى الأناجيل الرسمية أن مريم بنت عمران كانت زوجة يوسف النجار، ولكنها ولدت عيسى/ يسوع وهى عذراء، فأصبحت تسمى عندهم «العذراء ذات الولد» أو «أم الله»!! كيف تجتمع هذه النقائض؟! طبعا يوجد جواب يتكون عندهم من بغبغات كثيرة، تعتبر فى الحقيقة فارغة من المعنى المنطقى! لكن لماذا اخترعوا تلك المفارقة اللامنطقية التى تستفز العقل، بينما يعلنون ويؤكدون فى نصوصهم أن مريم كانت متزوجة من يوسف قبل مولد يسوع، بل ويضعون فى بعض الأناجيل (إنجيل متّى ١/١-١٦) نصاً يذكر صراحة اسم «يوسف ابن يعقوب زوج مريم» كأب ليسوع، وينسب إليه شجرة نسب أبوى طويلة يعتبرونها نسب ابنه؟!

بغض النظر عن الجانب الدينى من الموضوع، أهم الأسباب هى:

أولاً– تحطيم ميكانيزمات المنطق والتحديد المنطقى فى الذهن منذ الطفولة التى ترضع تلك الخرافات، أى استخدام خرافات التخليط فى «تربية» المجتمع على الخضوع للقهر الذهنى اللامنطقى، فضلا عن استخدام مثل هذه المثيرات الاستفزازية لفرز واستطلاع أصحاب العقول المنطقية السليمة لتصفيتهم بطريقة أو بأخرى.

ثانيا– أن عبارة «العذراء ذات الولد» «أم الله»، كانت من العبارات الفولكلورية الشائعة التى تعبر عن ظاهرة كانت شائعة فى بعض مراحل العصور القديمة، هى مايسمى «نكاح الجن»، حيث كان يظهر أشخاص سريون يرتكبون النكاح مع الاناث أحيانا ومع الذكور أحيانا (وكان لكل نوع من هؤلاء اسم فى اللاتينية خصوصا!) ثم يختبئون فى المخابئ أو السراديب التحت أرضية المحفورة فى الصخور والتى كشفت التنقيبات الأثرية عن بعضها فى كل جهات العالم القديم!! والنصوص الاسرائيلية المسيحية القديمة كانت تسمى مثل هذا الشخص «رجل

الله» (انظر مثلا قصة شمشون في سفر القضاة إصحاح ١٣)! لكن بعض القدماء كانوا يفهمون حقيقة هؤلاء كمجموعات تخريبية تشبه الجيوش السرية. وهذا ما توضحه بعض النصوص اليونانية واللاتينية والعربية القديمة التي وصلت إلينا. ولهذا، اهتم زبانية الكهنة بأن يفرضوا على الجميع اعتبار هؤلاء القردة البشريين التحت أرضيين كائنات سماوية مقدسة (ذكرت في لغات ماقبل الميلاد بكلمات تعني الجن وأيضا الشياطين وأيضا :الملائكة في معنى واحد مشترك!!). ثم للمزيد من التغطية، ظهرت أيضا خرافات الحمل الإلهي السماوي في الأسفار الاسرائيلية القديمة.

وثالثا- لمضاعفة التغطية، ظهرت وشاعت قصة عن أم صالحة معروفة الأسرة لكن ينسب إليها الحمل من الله نفسه، وذلك من أجل المتعقلين والمتأملين خصوصا من اليونانيين والرومان الذين تدفقوا إلى الشرق الفرعوني، والذين أصبح من الممكن أن يقارنوا بين الفولكلوريات العفاريتية القديمة في منبعها الشرقي وبين النصوص المسيحية الجديدة. كيف؟ بتقديم تصور احتياطي بديل يمثل صمام أمن (أي يشبه قطعة السلك في كوبس الاستقبال الكهربائي التي تحترق عند ارتفاع التيار الكهربائي بدلا من حرق بقية التوصيلات والأجهزة الكهربائية!)، وذلك لكي لايصل المتشككون من هؤلاء إلى الاستنتاج بأن التخريف الجديد استمرار للتاريخ الأسود القديم للشرق الفرعوني، ولكن يتصورون على العكس أن الحكايات القديمة المتوارثة لم تكن تعبر حقا عن جرائم شنعاءفي المراحل السوداء من التاريخ السري منذ العصور الأقدم، وإنما كانت تلك الحكايات مجرد ادعاءات للتمجيد الديني لا أكثر!! (ولاحظ أن كلمة هجص مثل كلمة هكسوس أصلهما المصري العربي القديم هو نفس أصل كلمة «حق»!!) hocus

التأويل العقلاني

فاذا انتقلنا إلى مجال آخر، نجد مثلا في الاسلام قصة تروى في بعض الأحاديث النبوية عما يسمى «الاسراء» (وهذه تعني الهجرة أي السفر الهروبي الطويل) و «المعراج» (وهذه تعني سلّم الصعود/ ويقصد هنا الصعود المتدرج عبر السموات). وفي بعض مايروى أن الله أرسل جبريل إلى النبي فأخذه من مكة إلى بيت المقدس حيث الهيكل الاسرائيلي المفقود، ثم أخذه من ذلك الهيكل صعوداً إلى أعلى بين السموات، وأنه أثناء ذهابه وإيابه فوق طريق

القوافل بين مكة والشام رأى كذا وكذا من الأشخاص والابل والأحداث، الخ. لكن حتى بعض الأقرباء اللصيقين للنبى وكذلك بعض الصحابة (وأظهرهم معاوية بن أبى سفيان كاتب القرآن وصهر النبى وخليفة المسلمين)، تأولوا تلك القصة واعتبروا أن الاسراء حدث بالروح لابالجسد، لأنهم رفضوا أن يكون النبى موجودا فى مكة فى تلك الليلة لم يغب عن نظر ملاصقيه، وأن يكون فى نفس الوقت قد ذهب إلى بيت المقدس فى الشام. أما المتعصبون اللاعقليون، فقد رفضوا أى تأويل ورفضوا أى منطق، وقالوا ببساطة وكالمعتاد إن قدرة الله تعلو على مبادئ المنطق والعقل، طالما أنه يستطيع أن يصنع أى شئ بأن يقول له كن فيكون! وبذلك لم **يستطيعوا أن يدركوا الفرق الجذرى النوعى بين مايقال عن «الاستحالة العملية» وبين معنى «الاستحالة المنطقية».**

والحقيقة أن من يقول مثل هذا الرأى فى أى مشكلة من المشاكل، لايستطيع أن يدرك «معنى» استحالة انتهاك مبادئ المنطق أو الهوية وعدم التناقض!! فهى ليست استحالة عملية يمكن التغلب عليها بالمزيد من القدرة أو التحايل، لكنها استحالة تعبيرية أو صورية بحتة! إنها ليست مثل استحالة فتح أو كسر خزينة هائلة مصفحة مثلا، وإنما هى مثل استحالة سرقة مليم واحد من خزينة مفتوحة لكن فارغة لا يوجد فيها أى شئ!! فى الحالة الأولى، قد يمكن التصرف بطريقة ما أو فى وقت ما، بينما فى الحالة الثانية نجد أن الجزء الأول من الجملة ينفى جزءها الثانى شكلا ومنطقيا، بحيث إذا صح أحدهما لايمكن تعبيريا أن يصح الآخر!! فاما أن تكون مخطئا فى القول بأن الخزينة فارغة تماما، أو أن تكون مخطئا فى القول بأنه سُرق أى مليم منها. جانبان متناقضان لايجتمعان. **تماما كأن تطلب منى مثلا أن أرسم لك مربعا مثلثا. هذا مستحيل: ليس لأننى ضعيف القدرة، ولكن لأن هذا تعبير لامنطقى يجمع بين النقيضين ومن ثم يفقد المعنى ويتحول إلى تعبير غير مفيد منطقيا.** صحيح أن كلمة «مربع» وكلمة «مثلث» مفهومتان لغويا، إلا أن جمعهما كنقيضين يلغى أى معنى منطقى لهما معا، بحيث لايختلفان عن أى هذو أو هذيان أو تركيبة حروف لامعنى لها.

فهذا شبيه بقولك لى مثلا: «اعطنى الشرمك»! أو : «اعطنى الشحبور»! هنا يكون قولك

مستحيل التنفيذ منطقيا، لأن ماتقوله فى الطلب لفظ بدون هوية منطقية. وهذا مثال واضح جدا، لأننى استعملت كلمة بدون معنى لغوى أصلا. ومع ذلك، يمكن استعمال عشرات بل مئات **الكلمات ذات المعانى اللغوية المفهومة، التى تكون رغم ذلك بدون هويات منطقية** (مثل كلمات الشبح أو العفريت بالمعنى الخرافى، ولبن العصفور والبرزخ الروحانى، الخ). **فمثل هذه الكلمات المفهومة لغويا لكن غير المفيدة منطقيا، تشبه العملات المزيفة**، التى تكون من حيث الشكل مثل أى عملة صحيحة، بحيث يمكن أن تخدع الكثيرين، لكن الخبير لا يرفضها فقط، بل وأيضا يقبض على من يروّجها!

وللمزيد من التوضيح، **نقول إن مثل هذه الكلمات– التى تكون ذات معان لغوية شائعة رغم أنها غير قابلة للتحديد المنطقى ومن ثم بدون هويات منطقية– هى كلمات أشبه بالشيكات التى بدون رصيد مصرفى**، رغم أنها من حيث الشكل شيكات قابلة للتداول لكل من يستعملها بدون تحقق مصرفى! وإذن، **فمعيار التعبير المفيد هو القابلية للتحديد أو التحقيق المنطقى. ومن ينكر ذلك، ينكر أصلا إمكان التعبير والتفكير.**

ولهذا، كان أساتذة الفلسفة الانجليز حين يعلقون مثلا على خطرفات الصوفى الألمانى جاكوب بوهمى Jacob Bohme (فى القرن السابع عشر)– الذى كان من أشهر القائلين بتخريفة اجتماع النقائض فى كل شئ، وأخذ عنه هيجل الذى نقل عنه ماركس– كانوا يقولون: «إذا كان جاكوب قد رأى مالايمكن النطق به، لما كان يجب على جاكوب أن يحاول النطق به»!

If Jacob saw the unutterable, Jacob should not have attempted to utter it !

وهذا ينطبق فى الحقيقة، ليس فقط على انجذابات وخطرفات المتصوفة والغيبيين، لكن أيضا على كل من يزعم أنه يرفض مبادئ الهوية وعدم التناقض. فمتنى هذا الموقف أن يرفض أصلا التعبير، ومن ثم أيضا حتى التفكير (لأن التفكير عبارة عن كلام داخل الذهن!)! **ولا يبقى أمامه إذن إلا أن يدق رأسه فى الحائط!**

من الممكن أن تقول عن موضوع ما إنه مجهول أو غير معروف unknown، أو إنه لم يتحدد بعد أو لم تتبين معالمه بعد، ومن ثم لايتسنى بعد وصفه أو التعبير عنه بدقة. لكن هذه مسألة تختلف نوعيا عن وصفه بأنه غير قابل للمعرفة unknowable، أو أنه لا يخضع أصلا

للتحديد أو الوصف! أما إذا قلت عن أى موضوع (بحجة أنه من الموضوعات الروحانية أو السماوية مثلا) إنه غير قابل للتحديد والوصف، فان هذا يعنى منطقيا بتحصيل الحاصل أنه غير قابل للتعبير ineffable (من fari أى يتكلم أو يبين أو يوضح)، ومن ثم يكون أيضا غير قابل للتفكير داخل الذهن!! فكيف تتأتى رغم ذلك محاولة التعبير عنه أو الحديث عنه- ناهيك عن محاولة إثباته أو تناوله فكريا؟!

الشبح ليس له هوية منطقية

إن أى حديث (منطوق أو داخل الذهن) عن «المربع المثلث» أو عن «الشمرك» أو «الشحيور» أو عن «العفريت» (بالمعنى الروحانى المزعوم وليس بالمعنى البشرى السرى)، يكون هذيانا يرفضه العقل السليم. وفى هذه الحالة، فان مثل هذا القول لا يمكن أن يوضع أصلا تحت «التحقيق المنطقى»، ولكنه يوضع تحت التحليل الفلسفى وتحت التحليل العلمى، لاكتشاف أسبابه الذهنية والذاتية والاجتماعية والتاريخية والعلمية عموما.

من ذلك مثلا، أن الألمان (الذين ظهر عندهم فى العصر الحديث أمثال بوهمى وهيجل ونيتشه ومن ثم هتلر وأشباهه) كانوا يتعرضون خصوصا فى القرن الماضى فى ظل التحكم السرى البريطانى العالمى فى بلادهم، لظواهر غريبة متكررة ومشهودة وغير مفهومة (ناتجة عن تأثيرات إشعاعية وتكنولوجية سرية)، فكانوا يرجعونها إلى مايسمى polter-geist أى «الأشباح المزعجة»!! لكن هذا فى الحقيقة هذيان وليس تفسيرا، يستعمل أسماء بدون مسميات، أو يتوهم مسميات مزيفة غير قابلة للتحديد والتحقيق منطقيا!! ولهذا، يجب أن يوضع مثل ذلك التخريف تحت نوع آخر من التحديد والتحقيق، هو التحديد والتحقيق الفلسفى والعلمى والتاريخى والسياسى، الخ، لاكتشاف أسبابه المخفاة.

صحيح أن بعض السفسطائيين فى اللاهوت المسيحى أو فى اللاهوت الاسلامى يدّعون أن أوهامهم اللاعقلية لاتنتهك مبادئ الهوية ولاتقول بالجمع بين النقيضين، التى يعترفون بأنها أصول أولى ضرورية لأى تعبير مفيد أو معنى منطقى. لكن كالمعتاد، تجد أن مثل هذه الجعجعات تكون نوعا من الدجل والخداع، يخفى فى الحقيقة وعمليا وبالضرورة المنطقية مختلف أشكال الاهدار والانتهاك لمبادئ الهوية وعدم التناقض!

فالغزالى مثلا، يقول إنه متمسك جدا بمبادئ الهوية وعدم التناقض- إلى درجة أنه باسم هذا التمسك المزعوم ينكر مبدأ السببية أو العلية Causality، لأن العلة فى رأيه «غير» المعلول، ومن ثم فان أ لاتساوى لا أ !! وهذا يشبه إنكار كل المعادلات أو العمليات الحسابية، بحجة أن الجانب الأيمن فى أى معادلة يكون «غير» الجانب الأيسر!! أما الحقيقة، فهى أن هذا يعتبر إنكارا وإهدارا لمبدأ الهوية باسم الهوية وعدم التناقض، لأن الهوية لاتعنى التطابق المطلق الذى هو تصور وهمى. لكن أ = أ يمكن أن تعنى أيضا أ = ب، كما أن ٥ = ٥ تعنى أيضا ٥ = ٣ +٢.

● ذلك أن التساوى أو التماثل تحديد نسبى مثل أىّ تحديد عقلى، ومن ثم يعبر فى الواقع الموضوعى عن تساوى أو تماثل أطراف معينة بالنسبة إلى أطراف أخرى مخالفة أى نقائض. ولهذا، يمكن أن نتناول التساويات أو المتماثلات من زاوية تحديد أخرى، فتصبح لامتساوية أو لا متماثلة أى نقائض. وفى ضوء ذلك، نجد أن قولنا إن النار أحرقت الورقة، لايعنى فقط أن النار هى النار والورقة هى الورقة، لكن يعنى أيضا أن: نار + ورقة (فى علاقة اشتعال)= احتراق.

وقد اعترف الغزالى نفسه فى باب «الطبيعيات» فى كتاب «التهافت»، بأن **الفلاسفة القدماء كانوا يردون على هذه السفسطة القديمة التى تشكك فى مبدأ السببية قائلين منذ العصور القديمة:**

«إذا أنكر لزوم المسبّبات عن أسبابها... فليجوِّز كل واحد منا أن يجد بين يديه سباعا ضارية ونيرانا مشتعلة وجبالا راسية... وليجوِّز أن يضع كتابا فى بيته فيكون قد انقلب عند رجوعه إلى بيته غلاما أمرد أو انقلب حيوانا. ولو ترك غلاما فى بيته، فليجوِّز انقلابه كلبا. وليجوِّز انقلاب الحجر ذهبا والذهب حجرا. وإذا سئل عن شئ فى بيته، فينبغى أن يقول: لا أدرى ما فى البيت الآن! وإنما القدر الذى أعلمه أنى تركت فى البيت كتابا، ولعله الآن فرس قد لطّخ بيت الكتب [= المكتبة] ببوله وروثه! وتركت فى البيت جرة ماء، ولعلها الآن انقلبت شجرة تفاح. فان الله تعالى قادر على كل شئ. ولا توجد ضرورات»!!

وهذا الدفاع عن التحدد وعن الثبات (النسبى) الضرورى للتحددات، هو ببساطة المقصود بالدفاع عن مبادئ الهوية وعدم التناقض فى الادراك وفى التعبير والتفكير، بينما إنكار ذلك

كان يسمى منذ القدم «سفسطة وشعوذة». وابن رشد مثلا يقول عن الحقيقة المنطقية المذكورة التى لاتقوم منطقيا إلا على الهوية وعدم التناقض: «إن العقل ليس إلا إدراك الموجودات بأسبابها، وإن من رَفَعَ الأسباب رَفَعَ العقل» و «إن المعرفة بالمسببات لا تكون تامة إلا بمعرفة أسبابها»!

وغنىّ عن البيان أن سفسطات وشعوذات هيجل فى إهدار مبادئ الهوية وعدم التناقض، لم تصل إلى درجة خطرفات المتصوف الألمانى بوهمى وأمثاله من اللاهوتيين فى العصور الوسطى ومجاذيب الخرافات الاعجازية غير المعقولة، كما أن سفسطات ومغالطات ماركس وانجلز لم تصل إلى درجة البغبغات اللاهوتية التى أوردها أستاذهما هيجل. ذلك أن فاعلية السموم كانت تتقدم، بينما الصحة المنطقية للعقل البشرى كانت تتدهور، ومن ثم كان القليل من سموم السفسطة والمغالطة يصبح كافيا لاهدار بقايا المنطق العقلانى! لكن المهم فى كل الأحوال، هو بذرة اللامنطق ومن ثم اللاعقل. فهذه قد تبدأ صغيرة، لكن لا تلبث أن تتحول إلى شجرة ضخمة ثم غابة كثيفة!

عدم التحدد وإهدار المنطق

جرعات السفسطة والمغالطة وإهدار مبادئ الهوية وعدم التناقض، كانت إذن أقل انفضاحا فى الجدل الهيجلى عند ماركس والماركسيين (بحيث انخدعنا بها فترة)، وكانت أقل انفضاحا أيضا فى تخليطات الكثيرين جدا ممن يرفضون العقلانية نتيجة القصور أو عدم التمرس المنطقى (خصوصا من العلماء البرجماتيين الجدد الذين لايتصورون أن فلسفاتهم المنهجية تشبه الجدل الهيجلى أو الماركسية!). لكن رغم انخفاض الجرعات، فالمهم هو موقف إهدار منطق الهويات وعدم التناقض، بأى درجة كان وتحت أى شعار كان، لأن نتيجته هى تقويض مبادئ العقلانية وأسس البناء العلمى كله. وقد أوضحت الكثير عن التخليطات والتغليطات السفسطائية التى يسوقها علماء الفيزياء وغيرهم باسم العلم- الذى يتوهمون فى تخلفهم الفلسفى أنه مثل «العلم المقدس» يمكن أن يتخطى أو يعلو على المنطق العقلانى! (انظر مثلا موضوعات «الأساس الفلسفى للعلوم» فى القسم الثانى من كتاب «المبادئ الفلسفية الجديدة»، خصوصا ص ص ٩٧-٩٨ ثم من ص ١٢٧).

من ذلك مثلا، الخلط السفسطائى بين احتمالات الخطأ الذاتى أو البشرى والاحتمالات المزعومة للقوانين الطبيعية، بدرجة تقل فى الجرعة لكن لاتختلف فى النوع عما أوردناه من الكتب القديمة عن «احتمالات» انقلاب الأشياء بالقدرة الإلهية وعن «ممكنات» الشعوذه الأخرى. فالاحتمالات المزعومة عند **العلماء البرجماتيين** أو **«الوضعيين الجدد»**، تجعل مثلا «من الممكن علميا» ألاتشرق الشمس غدا- رغم أنهم لا يصلون طبعا إلى درجة «احتمالات» تحول الشمس غدا إلى عربة يجرها حصان مثل حصان الأساطير القديمة أو مثل حصان مكتبة الغزالى المذكورة!! ومن ذلك أيضا، إنكار هؤلاء **العلماء البرجماتيين** للحقيقة الموضوعية أو التشكيك فيها، وادعاءاتهم أن «الحقائق العلمية» ليست إلا تصورات رمزية أو شفرية تصلح للعمل والأداء برجماتيا ولاتعبر عن واقع مادى قابل للتحديد الموضوعى!

وكل هذه التخليطات السفسطائية ليست إلا نتيجة إهدار مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع. وموقفهم الفلسفى بهذا الخصوص واضح مشهور فيما يسمى فى الفيزياء **«مبدأ عدم التحدد»** **Pninciple of Indeterminacy** (الذى يترجمونه فى القواميس والكتب السطحية باسم مبدأ اللاحتمية!!).

ونحن لايهمنا فى الفلسفة العقلانية المضمون العلمى الرياضى أو الفيزيائى الصحيح لهذا المبدأ، إلا من حيث أنه يتنافى منطقيا مع الادعاءات الفلسفية اللاعقلية واللاحتمية التى ترتبط به فى الجعجعات الفوغائية التى تثار حوله فى الصحافة والثقافة السطحية وفى دعايات الشعوذة اللاهوتية. ذلك أن مبدأ «عدم التحدد» المذكور، إنما يحاول فى الحقيقة الوصول إلى أقصى «تحديد» رياضى ووقائعى ممكن للعلاقة بين «عدم تحدد الوضع» و «عدم تحدد السرعة» فى حركة أى جسيم أو متحرك تحت ذرى (كالالكترون مثلا)، مما يعنى الوصول إلى نوع من **«التحديد» لظاهرة «عدم التحدد» فى العالم الميكرو** الذى لايخضع للتحكم البشرى الدقيق!! ومن هنا، فهو من الناحية الفلسفية يعتبر تأكيدا المبادئ التحديد والحتمية، أى لمبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع، وليس العكس!!

ومن ناحية أخرى، فعدم التحدد عموما لا يعبر إلا عن العجز والقصور البشرى أو عن الجهل البشرى أو عن نقص التصنيف البشرى، الخ. وهذه كلها مسائل لاتتعلق بمبادئ الهوية أو الحقيقة، ولكن بالقدرة البشرية على المعرفة والتحكم.

والكلمة الأوروبية determinism التى تترجم بالعربية «حتمية»، إنما تعبر عن الترادف بين التحديد والضرورة، لأنها مشتقة من كلمة تعنى التحدد أو التحديد، بحيث تكون ترجمتها الحرفية هى «التحددية». فهى إذن كلمة ترتكز على قاعدة فلسفية عقلانية دقيقة، حيث يعبر اشتقاقها اللغوى عن أن أصل الضرورة هو تحدد الهوية، أى ثبات الهويات. وإذا حللنا هذا المعنى فلسفيا. نجد أن «اللاحتمية» أو «اللاتحددية» المزعومة، إنما ترد على نفسها وتفند نفسها بنفسها. فأى شك فى الحتمية أو التحددية، إنما يعتبر منطقيا إثباتا لها، لأن هذا الشك نفسه لايمكن أن يستمر لغويا أو إدراكيا- على الورق أو بالصوت أو فى الذهن- إلا من واقع استمرار الوجود الفيزيائى للهويات اللغوية المنطقية المعبرة عنه! ولولا ذلك، لانقلبت حتى كلمة «شك» إلى كلمة أخرى بحيث يسقط المعنى المطلوب!! (على غرار انقلاب كتاب الغزالى إلى حصان!!).

وفى اللغة العربية، يوجد عندنا فرق بين كلمة «التحدّد» وكلمة «التحديد»، لا نجده فى الكلمة الأوروبية الواحدة determination. فالكلمة الأولى يمكن استعمالها على أنها تعبر عن اسم مفعول (to be determinated)، بينما الكلمة الثانية يمكن استعمالها على أنها تعبر عن اسم فاعل determining وto determinate). وهذا يشبه الفرق مثلا فى الثنائيات التالية: التمدد والتمديد، التردد والترديد، التلوّن والتلوين، الخ. فاذا قلت عن أى واقعة أوظاهرة إنها «غير محدَّدة»، فهذا لايعنى طبعا أنها غير قابلة للتحديد indeterminable، ولكن يعنى ببساطة أنها لم تتحدد بعد/ لم يتم تحديدها بعد.

فلا يوجد شئ غير قابل للمعرفة unknowable أو غير قابل للتحديد، رغم أنه توجد أشياء كثيرة مجهولة unkown أو غير محدَّدة. **لكن علماء الفيزياء البرجماتيين، مثلهم مثل السفسطائيين اللاهوتيين** القدامى (أو المحدثين) يخلطون بين هذا وذاك. وإذا قرأت ركام الصفحات الفلسفية المختلطة التى كتبها إنجلز (بجهالة فلسفية جريئة) مع بعض الحذلقات السفسطائية التى دعمه بها ماركس، لتبرير تخريفات هيجل ضد مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع، تجد أنها تعتمد كثيرا على مايشبه هذه الألاعيب الكهنوتية المرتبطة بعدم التحدد أو عدم التحديد وعدم المعرفة!

لقد كان السفسطائيون الدينيون منذ العصور القديمة قبل الميلاد (كما نجد حتى فى بعض

أسفار الكتاب المقدس) يحرجون العقلانيين بأسئلة تحقيرية من النوع التالى: هل تعرف عدد حبات الرمل على هذا الشاطئ؟! لاتعرف. فأنت جاهل، والرب أو رئيس الآلهة وحده العالم لأنه يعرف ذلك! هل تعرف عدد الشعر على جسم هذا الثور؟! هل تستطيع أن تحدد موعد ومكان موتك؟! لاتستطيع! فالعقل البشرى قاصر لايعلم الغيب! والرب أو إله الموت هو وحده الذى كتب موعد ومكان موتك. وإذا لم تصدق، فاسمع هذه النبوءة الكهنوتية لتعرف بنفسك أنت ومن حولك أننا لانقول إلا الحق: إنك ستموت فى يوم كذا فى مكان كذا! (ويتحقق ذلك فعلا بمعرفة وقدرة زبانية الأرض الذين ينسبون أنفسهم إلى السماء!).

التناقض واللاتحدد الماركسى

على غرار ذلك، نجد بعض الأمثلة- المشابهة لكن العلمانية- فيما كتب فردريك إنجلز (ومعه ماركس أحيانا) عن الارتباط المزعوم بين عدم التحدد واجتماع النقيضين! لكنه- فى سياق الدجل العلماني- يقدم ذلك بجرعة أقل من السفسطة ومن التشكيك فى العقل والمنطق، وبدون أن يضع بصراحة النقاط الغيبية اللاهوتية القديمة على الحروف السفسطائية التشكيكية الحديثة التى يسوقها باسم العلم والعصر الحديث.

من ذلك مثلا مايقوله ماركس وإنجلز ولينين (نقلا عن هيجل)، عن أن الحركة تعنى عدم وجود المتحرك فى لحظة معينة فى مكان واحد، مما يعنى أنه موجود وغير موجود معا فى ذلك المكان فى تلك اللحظة! وهذا غير صحيح منطقيا:

أولا: لأن القابلية النظرية للتقسيم اللانهائى تنطبق علىالحركة بقدر ما تنطبق على المكان والزمان معا، ومن ثم لايوجد منطقيا اجتماع للوجود ولعدم الوجود فى أى مكان أو فى أى زمان، كما أنه لايوجد منطقيا اجتماع للحركة ولعدم الحركة فى أى مكان أو فى أى زمان.

وثانيا: لأن **التحديد البشرى العلمى أى العقلانى لايعنى أكثر من التقسيم أو التصنيف المنطقى**. وهذا يعنى ببساطة تحديد هويات الأقسام أو الأجزاء بالطريقة التى تلغى عدم التحدد، ومن ثم تمنع الوقوع فى مغالطات الجمع بين النقيضين أو الوقوع فى الثالث المرفوع excluded middle. فأنت حين تقسم الحركة حسابيا وتحدد بذلك أوضاع المتحرك فى مختلف نقاط مكان الحركة خلال مختلف نقاط الزمان، تلغى بذلك عدم

التحدد المذكور للحركة فى المكان أو فى الزمان، وبالتالى تلغى الأوهام المذكورة عن وجود وعدم وجود المتحرك فى مكان معين فى لحظة معينة (حيث النقيضان لايجتمعان)، أو عن أن حركته تجعله لايوصف بالوجود ولايوصف بعدم الوجود فى مكان معين فى لحظة معينة (حيث النقيضان لايرتفعان).

هذه إذن أوهام لاتعبر عن «مبدأ» مزعوم، ولكن تعبر ببساطة عن نقص أو عجز فى المعرفة والتحديد. كأن تتحدث مثلا– بطريقة تقديرية بدون حساب دقيق– فتقول إنك تعتقد أن كوكب كذا سيكون قد وصل اليوم إلى نقطة كذا أو إلى نقطة كذا من برج كذا. أو أن تتحدث تقديريا وتخمينيا عن شخص يقوم برحلة حول العالم مثلا، فتقول إنك تعتقد إنه سيكون الآن فى باريس أو فى لندن. فكل هذه «الازدواجات» التقديرية لاتعبر عن اجتماع أو ارتفاع النقائض، ولكن عن نقص التحديد أو نقص المعلومات، ومن ثم يمكن حسمها إذا توفرت المعلومات ووسائل التحديد. فاذا كنت لاتعرف ولاتستطيع أن تحدد ما إذا كانت السماء ستمطر أو لن تمطر غدا، فهذا لايعبر عن اجتماع النقيضين، ولكن يعبر عن نقص فى المعرفة والتحديد. وهو نقص يؤكد ولاينتهك مبادئ عدم التناقض والثالث المرفوع (إما... أو). وبقدر مايتقدم علم الأرصاد ووسائل التحكم التكنولوجى فى الجو، بقدر ما تستطيع أن تحدد مسبقا– بل وأن تصنع مسبقا– حالات المطر أو عدم المطر.

وهذا يوضح لنا الرد الصحيح أيضا على مغالطات سفسطائية أخرى ذكرها إنجلز لتبرير اجتماع النقيضين، بالثرثرة عن عدم التحدد فى بعض الوقائع أو الظواهر الأخرى، كتقرير الوفاة مثلا فى حالات معينة مشكوك فيها خلال فترة معينة! وهو يعلق على ذلك بأن القضاة أنفسهم لايستطيعون أن يقرروا بدقة إلى متى يعتبر مثل ذلك الشخص حيًا ومتى يعتبر ميّتاً! ومثل هذه الحالات تؤكد فى نظره (= فى انعدام نظره!) اجتماع الحياة والموت أو ارتفاعهما كنقيضين فى الحالات المذكورة!! أما الصواب، فهو أن هذا لايعبر عن اجتماع أو ارتفاع النقيضين، ولكن عن «اختلاط» النقيضين نتيجة اختلاط أو نقص المعرفة واختلاط أو نقص المعايير الدقيقة للتحديد والتصنيف. وهو اختلاط بشرى وليس اختلاطا موضوعيا فى الواقع الخارجى، تماما مثل أى خطأ أو جهل أو عجز فى علوم أو قدرات البشر.

فلا يوجد فى الواقع الخارجى هويات محددة أو نقائض محددة حتى تجتمع أو تنفصل،

ولايوجد فى الواقع المادى صواب ولاخطأ ولافئات تحدد أو معايير تحديد classes or criteria، الخ. لكن هذه يصنعها العقل المنطقى البشرى: يصنعها من الواقع ويطبقها على الواقع. فان لم يفعل، فان الواقع يبقى فى ذاته عماءً لا محدداً apeiron كما كان يسميه الفلاسفة اليونانيون قبل أرسطو، أو هيولى مظلمة كما كان يقول أرسطو.

ومن سوء حظ إنجلز أن الأطباء اتفقوا بعد ذلك على تحديدات تصنيفية جديدة، تجعل معيار تقرير الموت هو توقف المخ وليس توقف القلب، وأصدروا فى ذلك تحديدات عما يسمى الموت الحقيقى و الاكلينيكى أو الموت الظاهرى، الخ. ومع ذلك، فسواء وصلوا إلى الاتفاق على مثل هذه المعايير والتحديدات التصنيفية أو لم يصلوا، وسواء كانت تصنيفاتهم صحيحة أو خاطئة أو مثيرة للخلط والالتباس، فهذه كلها أمور تخص قدرات وإنجازات ووسائل المعرفة البشرية والعلم البشرى، ولاتخص مبادئ المنطق الموضوعى للعقل والوجود، أى مبادئ الهوية والحتمية وعدم التناقض.

الفصل الخامس - التخليط والتناقض

* قبل أن أشير إلى بعض ملاحظاتك الأخرى عن موضوع «اجتماع النقيضين»، يهمنى التنبيه إلى ماذكرته في خطابك عما ورد فى ص ٢٤ من كتاب الفلسفة عن أن «الذهن والطبيعة أو الواقع شئ واحد». فها هنا يلزم تصحيح ملاحظتك. ذلك أن هذا الرأى الروحانى اللاهوتى لايمكن بداهة أن يكون رأيى أنا كما تصورت، وإنما هو رأى هيجل كما يتضح من سياق تلك الفقرة، وكما يتضح من علامة التعجب الموضوعة بعد تلك العبارة! فأنا أقول فى تلك الفقرة، إن هيجل يعتبر مبادئ أو مقولات المعرفة عند كانط «هى مبادئ الذهن وأيضا قوانين الطبيعة»، ليس بمعنى أنها «مستقرأة فى الذهن من الطبيعة، أى أنها إدراك ذهنى لمبادئ أو قوانين الواقع الخارجى»، لكن بمعنى «أنها ذهنية وطبيعية معا» لأن «الذهن والطبيعة أو الواقع شئ واحد!»- أقصد عند هيجل!

وقد لاحظت بالفعل أن كلماتى كانت تحتاج إلى المزيد من التوضيح. لكن واضح أن كلمة «عنده» سقطت أثناء الجمع، لأن ذلك الكتاب تعرض لتغليطات وتخليطات شاملة غير معقولة فى المطبعة. وقد أشرت فى كتاب «معنى الديمقراطية» (من ص ٥٨) إلى مدى ماوصلت إليه مشاكل تلك اللخبطات فى مطبعة مورافتلى التابعة لحزب التجمع التى اضطررت إلى أن أطبع فيها كتابى الأول بعد الخروج من مستشفى المجانين (والتى كشفت نفسها أخيرا عندما رفضت أن تضع اسمها على الكتاب!).

ومن ناحية أخرى، فقد كنت لا أزال إذ ذاك أعانى من تأثيرات براشيم وحقن فترة مستشفى بهمان التى ألقتنى فيها نقابة الصحفيين بحجة التحضير للافراج، ومن ثم كانت قدراتى الفكرية تقصر أحيانا فى التنبه إلى بعض أخطاء الصياغة والتعبير وليس فقط أخطاء المطبعة، أى تقصر فى التنبه إلى الغامض أو الملتبس أو مايستحق المزيد من التدقيق والتوضيح، بل وأيضا من حيث الترتيب الأفضل لبنود الكتاب. **وأرجو أن أتمكن من تصحيح ذلك كله إذا أعدت طبع الكتاب فى المستقبل.**

ومهما يكن، فالمقصود فى الفقرة المذكورة أن هيجل بسبب إنكاره لمنطق الهوية وعدم

التناقض، وبسبب تخليطاته اللاهوتية اللامنطقية التى يُدخلها البعض فى مذهب الوحدة اللاهوتية للوجود pantheism، كان يعتبر الذهن أو العقل أو الروح البشرية للفرد والمجموع، وكذلك الألوهية أو مايتصور أنه عقل وروح الله، وكذلك الطبيعة أو الواقع- كان يعتبرها كلها وجودا واحدا مختلطا معا، ومن ثم كان يعتبر قوانين الذهن البشرى وقوانين المنطق المزعوم فى تصوره هى نفسها قوانين الروح الإلهية وقوانين الواقع الروحانى أو الروح المتجسدة واقعيا! بغبغة وتخليط وسفسطة لاهوتية، تبين مدى مايصل إليه التعبير والتفكير عند إنكار منطق الهوية وعدم التناقض. ومن المستحيل طبعا أن يكون هذا التخليط رأى باحث عقلانى مثلى!

تخليطات التناقض الهيجلى الماركسى

* ولننظر الان ببعض التركيز فى **الفرق بين اختلاطات الواقع واختلاطات العقل والمنطق!!**

ونبدأ بملاحظاتك المشكورة عن اجتماع المرض والصحة فى حالات معينة، واجتماع الليل والنهار فى أوقات المساء أو الشفق daybreak، وعن إمكان اعتبارها أمثله على «اجتماع النقيضين فى مركب واحد لفترة من الزمن». فالرد على هذا القول واضح فيما سبق- مع ملاحظة أن **الجدل الهيجلى الماركسى لايقول إن اجتماع النقيضين قد يحدث فى حالات خاصة مؤقتة، ولكن يقول إنه قانون حتمى شامل!**

وقد أوضحت حقيقة مشكلة الاجتماع المزعوم لبعض النقائض فى الفصل الرابع من كتاب الفلسفة (وخصوصا فى ص ص ٧٧ - ٧٨ عن التحديد الزمنى لأجزاء اليوم). لكن يمكن أن أكرر هنا بسرعة، أن هيجل وماركس وأمثالهما والمتأثرين بهما **يخلطون أصلا بين «اجتماع» النقائض بمعنى اقترانها أو تواجدها معا أحيانا (أو «تعايشها» بتعبيرك) وبين «الاجتماع» بالمعنى المنطقى المرفوض الذى يعبر عنه المبدأ القائل: «النقيضان لايجتمعان ولايرتفعان». ذلك أن «الاجتماع» يعنى عندهم وحدة اللاتحديد واللاتمييز، أو وحدة التطابق والتماثل!** (انظر مثلا ص ١٥). وهذا النوع من الاجتماع أو الوحدة، يختلف طبعا عن المعنى العادى المقبول منطقيا!

فالاقتران شامل والترابط شامل بين أى شئ وأى شئ، لكنه اقتران بين تحددات منفصلة أى متميزة منطقيا أو قابلة للفصل والتمييز المنطقى، وترابط بين تحددات منفصلة أى متميزة منطقيا أو قابلة للفصل والتمييز المنطقى. فوجه العملة يقترن ويرتبط بظهرها- لكن الوجه شئ والظهر شئ آخر (انظر مثلا ص ص ٦٠ - ٦١ و ٦٩). والموت يقترن ويرتبط بالحياة، بدليل أن مالاحياة له لاموت له- لكن الموت شئ والحياة شئ آخر. وكل نقيضين من هذه النقائض لايجتمعان ولا يرتفعان، بمعنى أنهما لايتداخلان بحيث يستحيل الفصل أو التمييز بينهما منطقيا، ولا يجتمعان بحيث يستحيل إثبات أحدهما ونفى الآخر، ولايتوحدان بحيث يتطابقان أو يتماثلان. **وإنما يكون الاجتماع أو الارتفاع والوحدة أو التداخل، بالمعنى المقبول منطقيا الذى لايتنافى مع مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع.**

يقول هيجل مثلا (من ص ١٣ إلى ص ١٨) إن «الاتجاه الصورى» (= العقلانى) يفتت المدركات المتعددة، و «النظرة التجريبية» تفصل بينها، بينما «النظرة الجدلية»- التى يصفها أيضا بأنها «تأملية» و «صوفية» (!!)- هى التى توحّدها توحيدا «فوق عقلانى»!! ويقول فى ذلك مثلا: «إن تحرير العقل من كل تناقض، يحيله إلى فكر هوية فارغة»!! وهذا دفاع عن التناقض العقلى/ التناقض الذاتى لم يكن يجرؤ على أن يقول به قبل هيجل شخص ينتسب إلى الفلسفة!

وبدلا من أن يصبح الجدل/ الحوار كما كان عند سقراط، وحتى عند الألمانى فشته قبل هيجل، هو الوصول إلى الثالث الصحيح أى الهوية الواحدة الصحيحة بالتغلب على التناقض وبالتخلص من تعدد الهويات المتناقضة- أى بالتعبير الذى سرقه هيجل نفسه من هؤلاء- الوصول إلى هوية الثالث التركيبى الذى يحقق مايسمى **«نفى النفى» negation of the negation** (= إلغاء النفى أى إلغاء التناقض)، أصبح الجدل عند هيجل هو **«المحافظة» على التناقض أو «الجمع» بين النقائض** بحجة تركيبها معاً «بدون إلغاء تناقضها»!! أى تركيبها فيما يسمى عنده **«التوسّط» la médiation بالمعنى اللامنطقى- وهو تكوين «الثالث» المتناقض أو المرفوع!!**

وهذا واضح فى تحويره التخليطى لعبارة سبينوزا المشهورة: «كل تحديد هو نفى

negation». وكان سبينوزا يقصد قبل هيجل بقرون من الزمان، أن كل تحديد لهويّة معينة لا يكتمل إلا إذا كان «مانعاً» ينفي عنها تداخل أو التباس أى هويات أخرى. فشقلب هيجل هذه العبارة المنطقية الصحيحة وجعلها: «كل إثبات هو نفى»!! وهذا تخليط صريح وهذيان، لأن إثبات هوية معينة يمكن ويجب أن «يقترن بـ» أو «يتضمن» نفى هوية أخرى أو هويات أخرى، لكن لايمكن أن يكون هذا الاثبات «هو» ذاك النفى»!!

وفى هذا الاتجاه أيضا، تجد أن هيجل يبدأ مثلا بقول مقبول مثل: «إن فى كل باطل جانباً من الحق»! وتتصور من ذلك أنه يتحدث عن اختلاط طرفين منفصلين منطقيا كاختلاط الماء والزيت مثلا! لكنه لايلبث أن يرفض هذا التشبيه، ويقفز إلى التخليط الذاتى والتناقض الذاتى، قائلا إن الحق والباطل ليسا طرفين قابلين للانفصال، ولكن تجمعهما وحدة تجعل الباطل باطناً فى الحق محايثاً له فى صميمه!! بقبقة وهذيان!! وهكذا يقول أيضا عن: المتناهى واللامتناهى، والكلى والجزئى، والعينى والمجرد، الخ! وهذا فضلا عن الموضوع الذى أثار رفضك أنت نفسك وتصورت أنه رأيى أنا، وهو الخاص بوحدة الوجود- لا وحدة التلازم أو الاقتران- بين المدرِك (بكسر الراء أى الذهن أو الفكر) والمدرَك (بفتح الراء أى الواقع أو الطبيعة)!

التحديد التقنى والتحديد المنطقى

* واضح طبعا أن المسألة الخاصة بـ «الانفصال» المنطقى أى «التحديد» المنطقى، تختلف عن الانفصال المادى أو المكانى، الخ. فاذا كان من المستحيل منطقيا أن يوجد مربع مثلث، فمن الممكن عمليا أن تصنع قطعة خشب أو تكويناً فنياً يشكل فى أعلاه مربعا وفى أسفله مثلثا، أو العكس بالعكس! ومثل هذا التكوين لن يتخطى المنطق ولن يهدر مبادئ الهوية وعدم التناقض، لأن الجانب المربع سيكون بالضرورة «غير» الجانب المثلث.

كذلك توجد حالات معينة يتداخل أو يختلط فيها النقيضان فى الواقع، بحيث قد يصعب على الحواس المباشرة الفصل أو التمييز بينهما. من ذلك مثلا مايحدث فى الغش التجارى، حين يخلط البعض الذهب بالنحاس ويبيعونه على أنه ذهب، أو حين يخلط البعض فى مصر الشاى بنشارة الخشب أو بالملوخية، الخ. ومن ذلك أيضا مايحدث حين يدس عملاء الاجرام

الطبى موادا سامة أو ضارة فى مواد غذائية، وحين يستخدمون وسائل التحطيم الذهنى باسم العلاج الذهنى، وحين يدس المزيفون عملات مزيفة مع عملات صحيحة، الخ. وسواء وصل العلم أو لم يصل إلى وسائل الفصل بين النقائض المخلوطة فى مثل هذه الحالات، فهذه مشكلة أخرى لاتخص المنطق. فمن حيث التحديد المنطقى، الذهب ذهب وله مواصفاته المتفق عليها، والنحاس نحاس وله مواصفاته المتفق عليها، ومن ثم لايجتمعان ولا يختلطان منطقيا مهما اجتمعا أو اقترنا أو اختلطا ظاهريا. والأمر كذلك بالنسبة للنقائض الأخرى المذكورة.

وحتى إذا وصل الخلط المادى بين شيئين إلى درجة تشبه مايسمى «الاتحاد الكيميائى»، أى إلى درجة تكوين شئ ثالث يختلف عن الأول وعن الثانى ولايشكل خليطا بينهما (مثل تكوين الماء من الايدروجين والأوكسجين، أو تكوين ملح الطعام المفيد/ كلوريد الصوديوم من مواد أخرى شبه سامة)، فان هذا يخضع لـ ولايخرج على منطق الهوية وعدم التناقض، لأنه يعنى تكوين هوية جديدة تحل محل و «تلغى» هويتين سابقتين أو هويات سابقة ولا «تجمع» بينهما كنقيضين أو كنقائض! وهكذا تجد أن «اجتماع» الايدروجين مع الأوكسجين أو الكلور مع الصوديوم– أولا قبل الاتحاد الكيميائى– لا يشكل اجتماعا بين نقائض موحدة ولكن اقتراناً أو تواجداً أو امتزاجاً بين نقائض منفصلة التحديد كيميائيا. ثم تجد– ثانيا– أن حدوث «الاتحاد» الكيميائى فى الحالتين المذكورتين، يشكل هوية جديدة تحل محل هويات المكونات السابقة، بحيث لاتستطيع أن تتعامل مع الايدروجين أو الأوكسجين فى حالة وجود الماء مثلا، بل لابد من إلغاء وجود الماء لاسترجاع كلٍّ من هذين الغازين. وهذا يؤكد الفرق المنطقى النوعى بين «نفى النفى» أى «نفى التناقض»، وبين «اجتماع التناقض»!

المسألة واضحة إذن بالنسبة للمكونات أو النقائض القابلة للتحديد الدقيق والفرز أو الفصل التقنى الدقيق، لأن الوسائل الكيميائية هنا تساعد على توضيح معنى التحديد المنطقى والهوية المنطقية لكل مادة سابقة أو لاحقة، بحيث لايؤدى الخلط الظاهرى إلى أوهام الخلط المنطقى. لكن المسألة تتحول إلى مشكلة صعبة أو معقدة فى نظر غير المتعمقين فى الفلسفة، حين نتناول اختلاطا أو امتزاجا بين مكونات أو نقائض صعبة التحديد تقنيا. من ذلك مثلا تناول الصفات الوراثية فى الطفل الذى يجمع بين مكونات

وراثية من أبيه ومن أمه. ومن ذلك أيضا تناول حالة النقاهة التى تختلط فيها مظاهر الصحة المتزايدة بمظاهر المرض المتلاشى. وأيضا تناول بنود إجابة تلميذ فى امتحان مثلا، حيث يجتمع الخطأ والصواب، بل وقد توجد فى البند الذى يعتبر صحيحا وفق مقاييس التصحيح أجزاء ثانوية خاطئة، وقد توجد فى البند الذى يعتبر خاطئا أجزاء ثانوية صحيحة. (انظر كتاب الفلسفة ص ص ٧٥ – ٨١). فكيف تفسر فلسفة التناقض هذا الاختلاط تفسيرا عقلانيا منطقيا؟

فى مثل هذه الحالات، تكون المشكلة مشكلة وسائل التحديد والتصنيف، ومن ثم التمييز والفصل بين الجانبين أو النقيضين المطلوب تمييزهما. وهذه أيضا– كما أوضحت– مسألة تتعلق بقدرات المعرفة البشرية، ولاتتعلق بالاجتماع اللامنطقى المزعوم للنقائض. فعدم التحدد أو عدم التحديد لأى هويات، والعجز عن الفصل أو التمييز علميا أو عمليا بين أى نقيضين، هى مسائل تخص إمكانيات العلم والفكر والقدرة البشرية ولاتخص مبادئ وقوانين المنطق الموضوعى التى تقول إن الذهب ذهب والنحاس نحاس، وإن الايدروجين هو الايدروجين والأوكسجين هو الأوكسجين والماء هو الماء، وإن ذلك الأب هو نفسه وتلك الأم هى نفسها وذلك الطفل هو نفسه، وإن اقتران صفاتٍ من هذا مع صفاتٍ من هذه لايعنى أن الأب أصبح أما أو أن الأم أصبحت أباً أو أن الابن أصبح مجرد «جمع» بين الأب والأم! (ولاحظ بهذه المناسبة أن من التخليطات التى كان يعشقها ويكررها هيجل للتعبير عن اجتماع النقيضين، كلمة المسيح عن أنه ابن اله وأنه الله نفسه أيضا فيما يقول الانجيل: «من رآنى فقد رأى الأب»!!).

تحديد هويات التقسيم التناقضى

وإذن، فالاختلاط فى كل الأحوال المذكورة لايكون تخليطا يهدر المنطق، والاجتماع فيها لايكون جمعا لامنطقيا للنقائض بالمعنى الذى يقصده الماركسيون فى مغالطات الاجتماع المزعوم بين الوجود واللاوجود أو الحياة والموت، الخ. وحتى اجتماع قليل من الخطأ مع كثير من الصواب (أو العكس) فى الاجابة التى تعتبر رغم ذلك صحيحة (أو العكس) عند تصحيح الاجابات فى امتحان مدرسى ما، هى مسألة تخضع لنظام وشروط وتصنيفات التصحيح وتقدير الدرجات فى التحديدات الادارية التى يأمر بها المسئولون عن الامتحانات.

ومن ناحية أخرى، فان مظاهر الامتزاج أو التداخل لاتعنى بالضرورة أنها تتكون من هويات أو نقائض متميزة منفصلة منطقيا بالطريقة التى أوضحناها؛ لكنها قد تعبر أصلا عن خطأ أو عجز فى التحديدات والتصنيفات المنطقية للهويات والنقائض التى تُنسب إلى الخليط المذكور.
فاذا قلنا إن المساء مثلا هو مزيج من النور والظلام، فان هذا القول لايكون دقيقا من الناحية المنطقية، لأن الظلام ليس شيئا أو مكوِّناً مثل الضوء، وإنما هو ببساطة انعدام الضوء! فهذه الظاهرة تختلف عن ظاهرة الشخص الأسمر مثلا الذى قد يتكون سماره من مكونات بيضاء ومكونات سوداء (مع ملاحظة أن مثل هذا الشخص لايعتبر جامعا بين الأبيض والأسمر، ولكن يندرج تحت هوية كلية أخرى هى الملوّن، ومن ثم يكون نقيضه الكلى هو الأبيض ونقيضه الجزئى فى هذا التقسيم هو الأسود).

ولهذا، لايصح اعتبار المساء مزيجا من النور والظلام، لأنه فى الحقيقة مرحلة ذبول أو تضاؤل للنور قبل تلاشيه التام. ومن حيث التحديد التصنيفى التناقضى، ليس من المفيد أن نُخضع اليوم لتقسيم ثنائى بين مايسمى النهار ومايسمى الليل، ومن ثم فلا داعى لبذل الجهد من أجل المفاضلة بين حشر المساء فى قالب النهار أو فى قالب الليل! فاليوم يمكن أن ينقسم إلى نهار ومساء وليل وفجر، ويمكن أن ينقسم مثلا إلى الفترات المعروفة فى نظام المزاول الشمسية القديمة التى نُسبت بعد ذلك إلى الصلوات الدينية (أى الفجر والصباح والظهر والعصر والمغرب والعشاء)، كما يمكن أن ينقسم اليوم وفق نظام الساعات، الخ. (انظر كتاب الفلسفة ص ص ٧٧ – ٧٨).

وعلى كل حال، فالمهم فى أىّ تقسيم كان، هو أن يكون التحديد أو التصنيف «جامعاً مانعاً» كما يقال فى المنطق: أى جامعا لكل الجزئيات التى ينطبق عليها، ومانعا لأى جزئيات تنتمى إلى هوية أخرى مخالفة، أى تنتمى إلى هوية مناقضة. أما محاولات حشر المساء فى قالب النهار أو فى قالب الليل (بناء على مبدأ الثالث المرفوع الذى لاينطبق هنا!)، فهى لاتقل خطأ عن محاولات اعتبار المساء جامعا بين نقيضى النور والظلام أو النهار والليل!

وهذه المحاولات تذكرنى بما يروى فى تاريخ العرب القدماء عن إحدى «المعضلات» المضحكة التى لم يستطع أن يحلها إلا أحد حكمائهم المشهورين! تقول الرواية القديمة إن

الناس فى إحدى القبائل اختلفوا حول طريقة تحديد نصيب شخص ما من ميراث أبيه الميت، لأن ذلك الشخص كان خنثى لم يتفق الناس حول اعتباره ذكرا يرث بنصيب الذكر أم أنثى ترث بنصيب الأنثى! وبعد أن زاد الخلاف ولجأوا إلى ذلك الحكيم المشهور، اعتصر الرجل ذهنه العبقرى حتى خرج عليهم بالحل الذى توارثته الأجيال بالاعجاب! قال لهم: انظروا ذلك الشخص كيف يتبول. فان كان يتبول واقفا يرث بنصيب الذكر، وإن كان يتبول جالسا يرث بنصيب الأنثى!

وفى هذا المثال المضحك، تجد أن إهدار منطق الهويات وعدم التناقض والثالث المرفوع، لايكون فقط بمحاولة أو توهم الجمع بين النقيضين، لكن يكون أيضا بالخطأ أو القصور فى تحديد النقيضين اللذين تتم المبادلة بينهما، ويكون أيضا بالخطأ أو القصور فى تحديد تصنيفات الهويات المفيدة.

وفى هذا كله، يجب عدم الوقوع فى الخلط بين النقيض الكلى الواحد والنقائض الجزئية أو الفرعية المتعددة، وكذلك بين التقسيمات التناقضية المختلفة. فالنقيض الكلى للأبيض هو اللا أبيض أو الملوّن بمختلف فروعه، والنقيض الكلى للأسود هو اللاأسود بمختلف فروعه. واللا أبيض هو نقيض الأبيض وليس نقيض اللا أسود، والعكس بالعكس. **ولهذا نجد أن الأسمر مثلا يعتبر لا أبيض وأيضا لا أسود.** وفى موضوع الخنثى المذكورة، نجد أن النقيض الكلى للذكر هو اللاذكر بمختلف فروعه، كما أن النقيض الكلى للأنثى هو اللا أنثى بمختلف فروعه. وهذان تقسيمان تناقضيان مختلفان. ثم إن هذين التقسيمين الجنسيين ومكملاتهما يجب أن يرتبطا بالتقسيمات الأعلى التى تميز بين الكائنات الحية الواحدة الجنس والكائنات الحية المتعددة الجنس، فضلا عن انقسام الكائنات الحية أصلا إلى جنسية ولاجنسية، الخ.

وبدون مثل هذه التحديدات التصنيفية التناقضية الدقيقة و «الجامعة المانعة»، يقع البعض **فى التعلق بأوهام «اجتماع» النقيضين، أو بأوهام «ارتفاع» النقيضين؛** كما أنهم قد يقعون أيضا فى **أوهام «عدم اجتماع»** نقائض جزئية أو مختلفة الانتماء، أى نقائض غير متنافية non- exclusive، ومن ثم قد **تكون جائزة الاجتماع فعلا تحت**

هوية واحدة أخرى أو نقيض كلى آخر، وكذلك قد يقعون فى أوهام «عدم ارتفاع» نقيضين جزئيين أو مختلفى الانتماء لاينطبق عليهما مبدأ عدم ارتفاع النقيضين (إما... أو).

التقسيم التناقضى الجامع المانع

أوردنا أمثلة كثيرة عن الامتزاج أو الاقتران الظاهرى بين نقيضين لا يجتمعان منطقيا، أى يستمران فى التحدد المنفصل منطقيا. أما عن أوهام «عدم اجتماع» نقيضين غير متنافيين– مما يعنى أنهما نقيضان يجوز أن يجتمعا– فهذا واضح فى مثال الشخص اللوطى الذى يمكن من زاوية اعتبارات أوحيثيات معينة أن يجمع فعلا بين ظواهر الذكورة وظواهر الأنوثة، كما يمكن من زاوية اعتبارات أو حيثيات أخرى أن يعتبر لاذكرا ولاأنثى، وذلك إذا نظرنا إليه من زاوية تقسيم تناقضى معين هو: السوى جنسيا والشاذ جنسيا. وأما عن أوهام ارتفاع النقيضين، فهو مثل القول بأن اعتبار الخنثى لاذكرا ولاأنثى يعنى الاعتراف بوجود ثالث يرتفع على التناقض، لأن الخنثى يعتبر «لاذكرا» non- male بدون أن يعتبر «أنثى»، كما أنه يعتبر «لا أنثى» non- female بدون أن يعتبر «ذكرا». وسبب هذا الوهم فى الحقيقة، هو أن الخنثى تنتمى حقا إلى تقسيم تناقضى آخر يتعلق بالجنس وانعدام الجنس، أو بالثنائية واللاثنائية فى الجنس.

ومن هذه الأوهام أيضا، القول بأن اعتبار المحايد لاصديقا ولا عدواً يعنى الاعتراف بوجود ثالث يرتفع على التناقض، بينما الحقيقة هى أن المحايد ينتمى إلى تقسيم تناقضى آخر هو الحياد واللاحياد (الذى يشمل الصداقة والعداء معا). وقد أوردت فصلا كاملا فى كتاب الفلسفة، للتمييز بين «الثالث اللامنطقى والثالث الممكن» (الفصل الثالث).

● وبخصوص أوهام «عدم ارتفاع» النقيضين بالنسبة لنقائض جزئية أو غير تامة التقسيم (أى غير مستغرقة التقسيم)، فهى أوهام لاتقتصر على اعتبار الثالث الاستثنائى تابعا بالضرورة لأحد النقيضين السائدين، لكنها تشمل أيضا أىّ أوهام تحاول حشر الصواب فى نقيضين خاطئين - فروضين قهرا - والمثال الواضح على ذلك هو محاولات تطبيق تقسيمة اليسار واليمين على سياسى لايدخل فى أحد هذين القالبين بمعناهما الشائع المفروض حكوميا أو بوسائل الاعلام المتسلطة.

ومثلا فى مستشفى المجانين، كانوا يستخدمون مثل هذه الملاعيب التخليطية واللامنطقية، ويحاولون إرغامى بها على أن أقول عن نفسى إننى مريض- أسوة ببقية النزلاء المقهورين المقموعين فى المستشفى. كان يظهر شخص أو آخر ممن أعرف صفتهم، ويسأل: هل أنت مريض؟ فأقول: لا.فيقولون: إذن أنت موظف هنا؟ فأقول: لا. فيقولون: إما أن تكون مريضا أو أن تكون موظفا ولا ثالث! فكنت أضطر إلى أن أوضح لهم أننى نزيل سياسى محجوز بتهمة مزورة هى المرض العقلى. هذا مع ملاحظة أن النقيض الكلى للمريض هو اللامريض (بما فى ذلك الزوار وليس فقط المستخدمين والأطباء والنزلاء المحجوزين تزويرا).

ومن ناحية أخرى، كانوا يهتمون جدا فى مستشفى المجانين بتوظيف أو استخدام بعض الأطباء أو الاخصائيين الاجتماعيين أو الاداريين أو أيضا التمورجية والمرضين ممن يعتبرون «مرضى نفسيين» بشكل واضح ظاهريا! بل وكان بعضهم من مرضى الأمراض العصبية البدنية (أحدهم مثلا فمه مصاب باعوجاج عصبى!!). وبعض هؤلاء كانوا يتحولون أحيانا إلى نزلاء مرضى فى نفس المستشفى، خلال إجازات مرضية معينة تسجل إداريا وتستخدم بعد ذلك لتبرير إعفائهم من العقوبات إذا اعتدوا على النزلاء- كما ثبت مثلا فى بعض تحقيقات النيابة فى حوادث قتل أحد النزلاء فى الثمانينات!! ومثل هؤلاء المسوخ monsters يمكن أن يعتبروا فى نظر غير المتخصصين فى المنطق نماذج لاجتماع النقيضين، بينما المتخصص فى المنطق لايرى فقط أن الطبيب المريض أو المرض المريض لايشكل جمعا بين نقيضين بالمعنى المنطقى، بل ويرى أيضا وأساسا أن الطبيب أو الموظف أو المستخدم فى مستشفى للطب المقلوب أى فى سلخانة للاجرام الذهنى، «لابد بالضرورة» أن يكون مجرما ومن ثم مريضا، وأن اللامنطقى هو أن تجد طبيبا يمارس الاجرام الذهنى المنافق أو المكشوف بدون أن يكون فى الحقيقة الظاهرة أو المستترة مريضا!!

■ والخلاصة أنه يجب الاهتمام بالتحديد المنطقى للهويات والفصل المنطقى بين النقائض، كما يجب ألا ننسى أن ما تقوله السفسطات الدينية القديمة ثم الكنسية ثم سفسطات الجدل الهيجلى الماركسى عن اجتماع النقيضين، هو موقف يختلف جذريا عن إمكان اجتماع أو اقتران أو ارتباط النقائض التى تكون منفصلة منطقيا كهويات.

فالحقيقة أن سفسطاتهم إنما تعنى إنكار ضرورة التحددات، أى إنكار ضرورة الانفصال

المنطقى بين الهويات logical differentiation. **ولهذا السبب، جعلوا المنطق المزعوم القائل بالجمع الوهمى بين النقيضين مضادا لمنطق الهويات وعدم التناقض.** وهذا واضح فى استعمالهم اسم «المنطق الصوفى» المزعوم (وهذا اسم مشترك بين اللاهوت القديم وبين هيجل) وكذلك اسم «المنطق الجدلى» (بالمعنى الهيجلى الماركسى)، فى مقابل مايسمونه «المنطق الصورى» أو «المنطق الأرسطى»- ويقصدون به منطق الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع!! (انظر فى ذلك مثلا العنوان المشهور لكتاب لوكاتش المجرى!!). ولو كانوا يقصدون اقتران أو تعايش النقيضين كما يتصور البعض، لما اخترعوا نوعا آخر من المنطق ينفى تحديد هوية كل نقيض!

الاثبات والنفى لايجتمعان

إن اجتماع أ ولا أ عندهم لايعنى اقترانهما كائنين بطريقة أ + لا أ (لأن هذا غير مرفوض!). واجتماع الوجود واللاوجود عندهم لايعنى اقترانهما كائنين هما وجود + لا وجود، أو عدم نسبى أى جزئى (لأن هذا غير مرفوض!). واجتماع الحياة والموت عندهم لايعنى اقترانهما كائنين حياة + موت (لأن هذا مفهوم). ولكن هذه كلها تعنى عندهم أن أ لاتنفصل منطقيا عن لا أ، أى لاتوجد حدود منطقية مانعة بينهما، ومن ثم تكون أ لا أ شيئا واحدا جامعا للنقيضين! وتعنى عندهم أن الوجود لاينفصل منطقيا عن اللاوجود، أى لاتوجد حدود منطقية مانعة بينهما، ومن ثم يكون الشئ موجودا ولا موجودا معا مجتمعين! (وهذه يسمونها أحيانا: الصيرورة! becoming)! وتعنى عندهم أن الحياة لاتنفصل منطقيا عن الموت، أى لاتوجد حدود منطقية مانعة بينهما، ومن ثم يكون الكائن العضوى حيأوميتاً معا فى نفس الوقت!!

وحتى عندما يقولون مثلا إن الحياة «تحتوى على الموت وإن الموت يحتوى على الحياة»، لايقصدون بذلك أنه توجد جزئيات ميتة قليلة «إلى جانب» بقية الجزئيات الحية الكثيرة فى الحالة الأولى، أو العكس بالعكس فى الحالة الثانية، مع انفصال أىْ تمايز كل هوية من الهويتين منطقيا، لكنهم يعنون بذلك أن هوية الحياة وهوية الموت- أى معنى أو تحديد أو تعريف كلٍّ من الحياة والموت- متداخلان أو متحايثان منطقيا، بحيث يقبلان معاً الاجتماع والارتفاع المنطقيين!!

وإذا طبقنا هذا أيضا على اجتماع الأبيض واللا أبيض مثلا، نجد أنه لايعنى عندهم اقتران الأبيض+ الأسود منفصلين، أو امتزاجهما فى خليط واحد أسمر، أى لايعنى عندهم أن يوجد جزء أبيض فى هذه النقطة وجزء أسود أو ملوّن فى نقطة أخرى، كما أنه لايعنى عندهم امتزاج الأبيض والأسود مثلا لتكوين لون ثالث هو الأسمر الذى لاهو أبيض ولا هو أسود، لكنه يعنى عندهم أن الأسمر مثلا هو أبيض أسود معا!

فاذا أضفت إلى ذلك أيضا أنهم يزعمون أن ذلك الاجتماع اللامنطقى بين النقيضين شامل لكل الوجود، ولايقتصر فقط على حالات شاذة أو مؤقتة تعتبر أخطاء ذاتية أو تعتبر «لخبطات» ظاهرية قد يغتفر فيها الخطأ والتخليط وإنكار المنطق لدى غير المتخصصين فى المنطق، يتضح لك مدى اتساع سفسطاتهم ومدى عدائهم لمنطق التحديدات الحتمية وعدم التناقض.

* هكذا تجد أن موضوع الهويات وعدم التناقض بسيط جدا جدا لأنه يتعلق ببديهيات وأوليات المنطق، لكنه فى نفس الوقت صعب جدا جدا لأنه فى التطبيق المنطقى يتعلق بتحديدات وتمييزات وتصنيفات وتقسيمات الوجود كله ومدركات الوجود كله! وليس فى هذا القول أى تناقض ذاتى، لأن الكلام النظرى العام المجرد غير الكلام التطبيقى التخصيصى والعينى.

فمن السهل البسيط جدا أن تقول «نظريا» إن أىّ ثمرة فاكهة يجب أن تكون هى «نفسها» (أ = أ)، وأن تكون متميزة مختلفة عن «غيرها» (أ لاتساوى لا أ)، وأنها لابد بالضرورة «إما أن تنتمى أو لاتنتمى»إلى نوع معين من الفاكهة (أ = إما حـ أو لاحـ). فهذه هى بديهيات التحديد والتعبير التى تحمل اسم مبادئ الهوية، أو مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع. لكن إذا حاولت تطبيق هذه البديهيات الأولية البسيطة جدا حتى على تحديدات وتصنيفات وتسميات أنواع «الموالح» فقط، فلابد أن تكون فكها نياًّ متخصصا، أو على الأقل متيسراً صاحب خبرات وفيرة فى التعامل مع أنواع البرتقال البلدى والسكرى وأبو سرة، الخ، واليوسفى، والجريب فروت (الذى سمعت أنه يسمى باللغة الفصيحة الليمون الهندى!)، والليمون الحلو، والليمون غير الحلو، الخ الخ، ثم أيضا فروع كل نوع منها، ثم أيضا مواصفات وشروط التحديد والتصنيف أو التقسيم المطلوبة فى كل حالة من حالات تطبيق مبادئ الهوية المذكورة على كل قسم منها (مثلا من حيث النضج ومن حيث الحجم ومن حيث الجودة، الخ).

وفى الكتاب المقدس أن الله هو الذى علم آدم الأسماء كلها، أى علّمه منطق اللغة، بمعنى تطبيق الأسماء على المسميات وفق مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع. وفى القرآن أن الله لقن آدم أسرار الامتحان فى هذا الموضوع (وهذه بلاشك محاباة مشكورة!) لكى ينجح آدم ويرسب الملائكة فى الامتحان. لكن من أين لنا نحن فى القرن العشرين بمن يعطينا تلقيناً أو مسبقاً أسماء وتحديدات مدركات الوجود؟! ليس أمامنا إلا طريق واحد، هو التقاط المدركات بالمعرفة والعلم والممارسة، ثم تحديدها وتصنيفها وتسميتها لغويا وفق مبادئ الهوية المنطقية الثلاثة أو الأربعة، التى لاتسمح لأى اسم أو لأى مسمى بأن يُعتبر فى نفس الوقت هو وليس هو!

الفصل السادس - التناقض الموضوعى يعنى استحالة الجمع بين النقيضين

* أرجو ألايزعجك بعض التكرار الذى أضطر إليه أحيانا، لأن موضوع التناقض كما قلت بسيط جدا جدا من ناحية، وصعب جدا جدا من ناحية أخرى. فلابد من توضيح ذلك. **وبهدف التوضيح أرجو ألا يحدث إذن خلط بين «التناقض الذاتى» و «التناقض الموضوعى». فالتناقض الذاتى يعنى الخطأ والتخليط بارتكاب الجمع المرفوض بين النقيضين، بينما التناقض الموضوعى يعنى- على العكس- اختلاف وتنافى النقيضين ومن ثم استحالة اجتماعهما منطقيا.**

فأىّ شخص جاهل أو مهبول أو متصوف أو جدلى بالمعنى الهيجلى، يستطيع أن يقول: ١+١=٣. وهذا تناقض واضح وبيّن لاجدال فى ذلك. وحدوث الجمع بين النقيضين هنا من خلال علامة «يساوى»، هو أمر جلىّ لاشك في ذلك. هذا لايمكن أن ننكره نحن القائلون باستحالة اجتماع النقيضين!! لكن الأمر الذى يحتاج إلى توضيح بخصوص أىّ مثال يجمع بين النقائض بهذه الطريقة «الذاتية»، هو أننا «نعترف به» باعتباره تخليطا وخطأً لامنطقيا مرفوضا، وليس طبعا باعتباره قانونا من قوانين الفكر أو من قوانين الوجود كما يدعى أعداء المنطق العقلانى بمختلف فروعهم وتنوعاتهم!! فالذات يمكن أن تخطئ، لكن الواقع الموضوعى لايخطئ.

أما إذا قال لك قائل إن هذا الفرق الحسابى جائز، لأن الزوج والزوجة مثلا يمكن أن ينتجا شخصا ثالث هو الابن، فالرد واضح وهو مبادئ الهوية. فرقم واحد يشكل هوية «غير»هوية الزوج الواحد أو الزوجة الواحدة اللذين تربطهما علاقة زواج أو أسرة، الخ، كما أن علاقة «ينتج» أو «ينجب» هى «غير» علاقة «يساوى». واختلاف الهويات يعنى التناقض، ولا تجتمع النقائض على الاطلاق. فما بالك بمن يقولون إن اجتماعها ضرورى وشامل؟!

المسوخات

وقد قلت إنه يمكن أن نجد شايا مخلوطا بالملوخية أو بنشارة الخشب، ويمكن أن نجد عملة فاسدة تجمع على وجهها وظهرها بين قيمتين مختلفتين، ويمكن أن نجد نظرية (كالماركسية) تجمع بين الرطان العلمى أو العلمانى وبين الاشتراكية المشاعية ذات الأساس الكهنوتى الدهمائى، ويمكن أن نجد امرأة مسترجلة أو رجلا متأنثا، ويمكن أن نجد طبيبا إجراميا مقلوبا أو رجل أمن مجرما معاديا للقانون أو رجل شرطة لصا، الخ الخ. **لكن هذه كلها تناقضات ذاتية خاطئة ومرفوضة، تعتبر مضادة للعقل السليم ومضادة للوجود الاجتماعى الانسانى السليم، ولاتعتبر مطابقة لأى قانون من قوانين الفكر أو الوجود– إلا إذا كنا نتحدث عن قوانين المرض والخطأ والفساد والتحطيم والدمار، أو أيضا عن قوانين الاختلاطات والتشوهات وغرائب الكائنات (مثلا غرائب المواليد التى يدرسها علم المسوخات (teratology).**

وأصحاب العقول السليمة يسمون مثل هذه الحالات– سواء كانت تلقائية أو مصنوعة– باسم المفارقات paradoxes، أو اللخبطات والتخليطات، أو باسم المسوخ، الخ. وإذا اعتبروها تناقضات، فانما يعتبرونها كذلك بالمعنى «الذاتى» المذكور وليس بالمعنى الموضوعى المزعوم أى اللامنطقى. ولهذا يسرع المتخصصون فى التحديد التصنيفى أى المنطقى إلى إخضاعها لتقسيم تناقضى آخر، يكون جامعاً مانعاً يلغى تناقضها الذاتى سواء كان تلقائيا أو مصنوعا، فيقولون مثلا:

هذا ليس «شايا» وليس «لاشايا»، ولكنه «شاى مغشوش» (بناءً على تقسيمة أخرى هى: الشاى المغشوش والشاى غير المغشوش). هذا ليس عضوا «بشريا» وليس عضواً «لابشريا»، ولكنه عضو «ممسوخ» (بناءً على تقسيمة أخرى هى: الأعضاء الحية العادية أو النمطية، والأعضاء الحية غير العادية أو المسوخة). هذا ليس «طبيبا» وليس «لاطبيبا»، ولكنه «طبيب مقلوب» (بناءً على تقسيمة أخرى هى مثلا: الطب الانسانى والطب اللاإنسانى). هذا ليس «اشتراكيا» وليس «لااشتراكيا» (أى رأسماليا مثلا)، ولكنه «اشتراكى مقلوب» أو «مضاد» أو «دهمائى»، الخ (بناءً على تقسيمة أخرى هى: الاشتراكية العقلانية والاشتراكية اللاعقلية بأنواعها).

ويمكن أن تعتبر كل تقسيمة من هذه التقسيمات تقسيمة تناقضية فرعية تندرج تحت أحد النقيضين الكليين للتقسيمة الأعلى (كأن تعتبر الشاى المغشوش مثل غير المغشوش نوعا من الشاى أو تعتبره نوعا من اللاشاى وفق المواصفات التجارية التى تأخذ بها؛ وأن تعتبر الاشتراكية الدينية أو الاشتراكية الدهمائية نوعا من الاشتراكية أو نوعا من اللا اشتراكية وفق تحديداتك وتصنيفاتك الايديولوجية، الخ).

كما يمكن أيضا أن تعتبر كل تقسيمة من هذه التقسيمات التوضيحية تقسيمة تناقضية أخرى لاتندرج تحت أحد النقيضين الكليين المذكورين، أى تقسيمة تناقضية خارجة عن التقسيمة الأعلى أو مختلفة عنها (كأن تعتبر ثنائية الشاى المغشوش والشاى غير المغشوش ثنائية أخرى لاتتبع أحد النقيضين الكليين فى تقسيمة الشاى واللاشاى، ولكن تتبع مثلا تقسيمة الغش واللاغش، أو تعتبر ثنائية الاشتراكية العقلانية والاشتراكية اللاعقلية ثنائية أخرى لاتتبع أحد النقيضين الكليين فى تقسيمة الاشتراكية واللااشتراكيةولكن تتبع مثلا تقسيمة العقل واللاعقل؛ الخ).

لكن مهما يكن التصنيف، فان هذا كله لايقوم إلا على- ولايتأتى إلا بـ- مبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع.

التوضيح والمزيد من التوضيح

● فى مقابل هذه الملاحظات، أذكر أننى قرأت فى شبابى كتيباً لماوتسى تونج اسمه «عن التناقض». ولم أستطع إطلاقا أن أربطه أىّ نوع من الارتباط بما عرفته ودرسته عن موضوع التناقض فى المنطق وفى مبادئ الهوية، ولاحتى بما عرفته ودرسته عن تناقض العكوس والاضداد فى الدروس اللغوية! لقد كان مجرد شعارات سياسية لاتقوم على أساس منطقى أو منهجى فلسفى، ومن ثم كانت- حتى الأفكار الصحيحة القليلة فيه- مقطوعة الجذور والجذوع والفروع. مجرد أشياء قليلة جافة وسطحية، ومن ثم سهلة جدا ويمكن حفظها كالتراتيل الدينية، بينما الموضوع كما ترى يحتاج إلى تعمق فلسفى منطقى- لمجرد الوصول إلى إدراك بساطته!

■ أما غير المشتغل بالفلسفة أو بالتعمق الفكرى، فيجب أن نقدم له الموضوع من خلال

أكبر كمية ممكنه من الأمثلة العينية الجزئية، وأن نوظف الأدب والقصص والطرائف أو النكات وكل وسائل التسلية للتعبير عن ذلك، لكى يستطيع ذهنه أن يستوعب الميكانيزم المنطقى المطلوب- حتى لو لم يستطع استيعاب تحديداته الكلامية. مثله فى ذلك مثل الفاكهانى المتخصص الذى يستطيع أن يصل إلى أدق التقسيمات الجامعة المانعة منطقيا لكل مجموعة أو نوع أو فرع أو درجة من الفاكهة وجزئيات كل منها- رغم أنه قد لايعرف شيئا عن مبادئ الهوية وعدم التناقض، وقد يعجز عن التعبير عن مواصفات وشروط التقسيمات والتفريعات التى يصنِّف بها الفاكهة.

■ أعتقد أن التوضيحات الفلسفية التى تناولتها فى هذه الصفحات، طالت كثيرا. ورغم ذلك، أرى أنه لامانع من الاستمرار فى الكتابة عنها، لأنها تحتاج بالفعل إلى مزيد من التوضيح والتبسيط.

ذلك أن أصحاب الأفكار (فى العلوم المتخصصة) لايمكن أن يقتصروا على تركيز أفكارهم فى الكتب غير الميسرة، لكنهم يحتاجون بالضرورة- حتى بدون اعتراضات وتساؤلات المعترضين- إلى توضيح وتبسيط أفكارهم بمختلف الوسائل: من خلال المقالات الصحفية الصغيرة أو المتوسطة، ومن خلال الندوات والمناقشات أو المحاضرات، ومن خلال أى وسائل تعبيرية أخرى ميسرة. فمجرد إثارة زوايا الكلام أو تفتيحات المناقشة، ومجرد مواجهة تساؤلات المستوضحين، إنما يستثير أو يفرض التوضيحات والتبسيطات والاستكمالات اللازمة. لكن بالنسبة لى منذ السبعينات، فان كتابة الخطابات هى الوسيلة الوحيدة التى تحفزنى إلى ذلك! فشكرا لك لأنك حفزتنى إلى هذا التطويل!

● وأرجع إلى تناول بعض التوضيحات أو الاستدراكات التى أثارتها فى عقلى قراءة ماورد فى خطابك عن موضوع التناقض.

مفارقات التعبير

✳ فى أى لغة شائعة، توجد تعبيرات كثيرة ذات شكل متناقض، لكنها فى الحقيقة ليست متناقضة، أى لاتشكل جمعاً لامنطقيا بين النقائض بالمعنى الغيبى أو الهيجلى الماركسى، ولاحتى بمعنى الخطأ أو الخلط الذاتى.

فأنت تجد مثلا كلمة «برمائى» التى توصف بها بعض الحيوانات أو المركبات. لكن هذا لايعبر عن أى جمع بين النقيضين: ليس فقط لأن هذه الموصوفات يمكن أن تعتبر برية فى ثنائية البرى واللا برى وأن تعتبر بحرية فى ثنائية البحرى واللابحرى ولاتناقض بين هذا وذاك، لكن أيضا لأن وظيفة الحياة أو الحركة على الأرض لدى هذه الحيوانات أو المركبات تكون متميزة عن وظيفة الحياة أو الحركة فى البحر، وتكون لكل منهما وسائلها وإمكانياتها. تماما مثل الطائرة التى تملك عجلات للجرى بها على الأرض ونفاثات أو مراوح للطيران بها فى الجو.

وقد سمعت فى إحدى المرات اعتراضاً ساذجاً على ما أوردت فى كتاب الفلسفة عن استحالة اجتماع النقيضين، قاله لى شخص ماركسى قديم بطريقة خاطفة وفى استسهال غريب! قال إنه حتى أمرؤ القيس قبل الاسلام كان يعترف باجتماع النقائض فى بيته الشعرى المعروف:

مكـرٍ مفـرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معـاً * كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علٍ

فقلت له: أنت تردُ على نفسك بنفسك! فمن الواضح لأى متأمل فى هذه الكلمات أن امرأ القيس لم يكن يقصد أن حصانه كان يكرّ فى «نفس» وقت الفرار أو العكس بالعكس، أو أنه كان يتقدم فى «نفس» وقت التراجع أو العكس بالعكس! ولكن المقصود طبعا أنه كان: يكرّ فى لحظة معينة + يفر فى اللحظة التالية. أو: يتقدم فى لحظة معينة + يتراجع فى اللحظة التالية. وهذا التلاحق أو التوالى، يمكن أن تعبر عنه بكلمة «ثم» أو بحرف العطف «و»، أو أن تبالغ فيه شعريا فلاتستعمل له أداة عطف كما فعل امرؤ القيس. لكنه- بغض النظر عن أسلوب التعبير- **يتكون من أجزاء أو لحظات قابلة للتقسيم والتحديد، أى قابلة للفصل المنطقى بمبادئ الهوية وعدم التناقض.**

وحتى إذا قلت- من باب المجاز الأدبى والمبالغة الشعرية- إن كل ذلك كان يحدث «معا فى نفس الوقت»، فالمعنى المقصود واضح عند التدقيق، أى عند التحديد المنطقى. وأيضا إذا قال لك أحد الأشخاص إنه يستطيع أن يقوم مثلا بعملين مختلفين أو أكثر «معا فى نفس الوقت»، ستجد أن اختلافهما أى تناقضهما إنما يعنى انفصالهما عند التحديد. من ذلك مثلا أن يقوم بأحد العملين بيده اليمنى ويقوم بالعمل الآخر بيده اليسرى، أو أن يمارس فعلا معينا بيديه ويمارس الاستماع إلى مصدر صوتى بأذنيه، الخ الخ.

وأنت لابد تذكر الكلمة المعروفة فى الفلسفة عن هرقليطس اليونانى (فى القرن السادس قبل الميلاد)، والتى تقول: «إنك لاتنزل لنهر الواحد (= نفس النهر) مرتين». يقصد أن جريان أو انسياب مياه النهر فى وقت معين، يجعله «غير» النهر فى وقت سابق أو لاحق. وللأسف أن ما وصل إلينا من كلمات هرقليطس عن هذا الموضوع كانت قليلة وغير محددة، فضلا عن أن التطرف دفعها كالمعتاد إلى الخطأ أو إلى السفسطة التى تستخدم فكرة هرقليطس عن الانسياب أو السيلان flux لتبرير إنكار الهوية!! وإنكار الهوية يعنى طبعا إنكار عدم التناقض، لأنك حين تقول إن «هذا النهر ليس هو نفسه»، تضطر من أجل تمييزه عن الأنهار الأخرى إلى أن تقول عنه أيضا إنه «هو وليس هو»!! ولهذا كان هرقليطس يتحدث فعلا عن اجتماع وصراع الأضداد فى مجرى الانسياب الشامل للوجود!!

اللانهاية بين نفى الثبات ونفى التغير

وقبل التعليق على ذلك، من المفيد أن نشير هنا بسرعة إلى أن هرقليطس الافسوسى،وهو فيلسوف يونانى معروف فيما يسمى «المدرسة الايونية» (حيث إيونيا هى منطقة الساحل الشرقى لبحر إيجه اليونانى)، كان يستخدم الأسلوب الكهنوتى النبوئى، وذلك بعد أن استولى أخوه على عرش المدينة وطرده منها، فعاش طريدا ساخطا يعتمد على حماية ودعم الكهنة خارج مدينته. لكن رغم ذلك، فان أفكاره التى رفضتها الفلسفة العقلانية اليونانية قبل امبراطورية الاسكندر (والتى لم تلق الاهتمام إلا متأخرا بعد تداخل التراث اليونانى مع التراث الكهنوتى الفرعونى الشرقى فى مدرسة الاسكندرية البطلسية)، هى فى الحقيقة أفكار لاتخلو من جوانب صحيحة عميقة. **فأولا**، أفكار هرقليطس تنبه بشدة إلى حقيقة التغير الشامل أو الصيرورة الشاملة وراء الثبات أو الاستقرار الظاهرى. وهذا صحيح تماما. ولم يكن الفلاسفة القدماء ينكرونه، لكن لم يكونوا يعطونه التركيز اللازم، ولم يكونوا يكتبون عنه بدرجة كافية، لأن نقطة البدء المطلوبة دائما هى تمييز الأسماء والمسميات- وهذا يعنى التحديد الثباتى. ثم هى- **ثانيا**- إذ تدّعى أن سيلان أو انسياب التغير أو الصيرورة يلغى الهوية الثابتة، إنما تنبهنا بذلك إلى

ضرورة الاهتمام بوسائل ومنهجيات تحديد وتقسيم الحلقات أو المراحل المختلفة للحركة أو التغير أو الصيرورة، كهويّات متتالية تعتبر كل هوية منها متميزة أى منفصلة منطقيا- بغض النظر عن واقع اتصالها زمنيا ومكانيا، الخ.

فالمسألة هنا إذن ليست مسألة إلغاء الهوية، ولكن مسألة التنبيه إلى تعدّد الهوية، أو تفرع الهويات الجزئية التابعة لهويات أعم منها أو لهوية كلية أعلى. فاذا قلت إن الخط المستقيم يتكون من مجموع نقاط، فهذا لايعنى إلغاء هويته أو إلغاء موقعه، ولكن يعنى أنه قابل للتقسيم إلى هويات أو مواقع جزئية كثيرة. وفى هذا تكون هوية أى جزءٍ أو قطعةٍ من الخط المستقيم، أو أى نقطة من هذا الجزء أو ذاك، هى هوية قابلة للتحديد والانفصال منطقيا عن أى هوية أخرى- حتى لو كانت متصله وملتصقة بها مكانيا، كما هو الحال بالنسبة للهوية السابقة عليها والهوية اللاحقة بها فى هذا الخط المستقيم.

وهكذا نجد أن التحديد يعنى الهوية، والهوية تعنى عدم التناقض. صحيح أن هرقليطس القائل بالتغير المطلق، كان يميل إلى نفس ماقاله زينون Zenon وبارمنيدس فيما يسمى المدرسة الايلية فى القرن الخامس قبل الميلاد (الذين كانوا يقولون على عكس هرقليطس بالثبات المطلق أو اللاتغير المطلق)- أقول إن هذا كان يميل إلى نفس ماقاله هؤلاء بخصوص الاتصال اللانهائى للحركة أو الاتصال اللانهائى لتيار التغير! وهذا يوضح أن مانقل عن الجانبين لم يكن دقيقا، وإنما كان يعبر فقط عن تشابه أو اتفاق رأيهما فى عدم وجود جزءٍ لايتجزأ للحركة أو لجريان التغير- سواء تحت اسم التغير المطلق الذى ينفى الثبات الظاهرى، أو تحت اسم الثبات المطلق الذى ينفى التغير الظاهرى. لكن هذا لايعنينا فى شئ. فنحن أيضا لانعترف بوجود جزءٍ لايتجزأ أو لا نهائى أصغر infinitesimal فى المكان أو الزمان أو المادة أو الحركة، ومن ثم لانقول بامكان الوصول إلى هذا الاسم الذى هو بدون مسمى واقعى، ولكننا نريد فقط الوصول إلى أدنى أو آخر تقسيم

يتيح لنا التحديد الفاصل منطقيا، أى التحديد الجامع المانع. أى نريد الوصول إلى تحديد جزء أو نقطة أو لحظة، يمكن اعتباره هوية متميزة عن الهوية السابقة عليها وعن الهوية اللاحقة بها.

وفى هذا، نختلف عن هرقليطس بقد ما نختلف عن زينون: **أولا**، لأننا نرفض تصور هرقليطس عن أن سيلان أو اتصال التغير يلغى هويات النقاط أو الحلقات المكوِّنة لتيار التغير؛ ونرفض تصور زينون عن أن استحالة «حصر» الأجزاء اللانهائية للتغير أو التعدد يعنى ضرورة إنكار جريان التغير أو التقسيم. **وثانيا**، لأننا نرى- رداً على رأى هرقليطس- أنه مهما بلغت سرعة التغير، فلابد من وجود نقاط أو حلقات مكوِّنة لها، ومن ثم تحديد هوياتها. ولأننا نرى- رداً على زينون- أن اللانهاية هى اسم بدون مسمى، أى أنها معنى انتفائى بحت pure negational مثل معنى اللاوجود، ومن ثم لاتوجد فى الواقع الموضوعى مشكلة تسمى مشكلة «حصر» أو «عبور» اللانهاية (لأن الحصر أو العبور هو نقيض اللانهاية التى تعنى اللاحصر أو اللا آخر، بحيث تعتبر المشكلة الوهمية المذكورة مثل مشكلة المربع المثلث!). وإنما كلمة اللانهاية كاسم نظرى بدون مسمى عملى، لاتعنى أكثر من الاستمرار الذى ينفى التوقف، بينما الواقع المادى والظروف العملية تفرض التوقف المؤقت والنهاية المؤقتة، بل ولاتتكون إلا من توقفات أو نهايات متتالية. وهذا يعنى أننا نواجه دائما فى التحديدات العملية المباشرة، مايمكن حصره وعبوره والوصول إليه، أى مايمكن تحديد هوياته الواحدة أو المتعددة.

● وكما قلت، فان التحديد الذى يعنى تقرير الهويات المنفصلة منطقيا، إنما يعنى بذلك أيضا نفى التناقض وتجنب أى اختلاط أو اجتماع بين النقيضين. وتطبيقا لذلك، فبدلا من أن تقول إن المتحرك فى اللحظة أ مثلا سيكون فى النقطة ب أو فى النقطة حـ، بحيث يستغل السفسطائيون عدم التحدد هذا فيقولون بأنه سيكون موجودا وغير موجود فى تلك النقطة ب، أو سيكون لاهو موجود ولاهو غير موجود فيها، فانك تقول بالتحديد الدقيق إنه فى اللحظة أ/١٠ (أو أ/١٠٠، أو أ/مليون، الخ) سيكون موجودا فى النقطة ب وليس فى أى نقطة أخرى. فالتحديد يعنى الهوية التى تعنى عدم التناقض والثالث المرفوع. أما اللاتحديد أو اللاتحدد، فيعنى القصور فى الوصول إلى الهويات المطلوبة، ومن ثم

العجز عن استخدام مبدأ عدم التناقض والثالث المرفوع- رغم أنه لايعنى طبعا اجتماع أو ارتفاع النقيضين!

التناقض والاشتراك فى «العلاقة»

* للمزيد من التوضيح للنقطة السابقة عن التقسيم المنطقى للأجزاء المتصلة أو الموحدة ماديا، نأخذ مثلا الفرق بين ما أسميه فى المنطق باسم «العلاقة» وبين ما أسميه باسم «الهوية». إن المسافة مثلا بين أى خطين متتاليين للدقائق أو الثوانى فى الساعة العادية، يمكن اعتبارها «علاقة» بين الرقمين المتتاليين لهذه الدقائق أو الثوانى. فاذا رأيت عقرب الساعة مثلا بعد خط الدقيقة أو الثانية ١٣ وقبل خط الدقيقة أو الثانية ١٤ فى الساعة الرابعة مثلا، تستطيع أن تقول إن الوقت هو: الرابعة و ١٣ أو ١٤ دقيقة أو ثانية، أو إنه الرابعة ومابين ١٣ و ١٤ دقيقة أو ثانية. وإذا تكلمت مثلا عن سُمك العملة المعدنية وهل يتبع وجهها الأول أو وجهها الثانى، تستطيع أن تقول إنه «بيْن» الوجهين أو إنه «العلاقة» الواصلة للوجهين.

وفى مثل هذه الحالات عموما، يمكن أن تقول إن اسم أو مسمى «البيْن» أو «العلاقة» يتبع طرفين أو جانبين أو يجمع بينهما. ولهذا، أعبر عنه رمزيا باسم أ لا أ. لكن كما أوضحت فى كتاب الفلسفة (مثلا فى الفصل الأول ص ص ٥١-٥٥)، أستخدم هنا الحرف المصغر أو الأصغر (بنط الهامش) الذى لايرمز إلى هوية. بل إننى أستخدم فى الرمز إلى الطرفين أو الجانبين اللذين تتعلق بهما هذه العلاقة أو تتصل بينهما، حرفين عاديين صغيرين لايصلان أيضا إلى مستوى الحروف التى أرمز بها إلى الهويات- رغم أن هذين الطرفين أو الجانبين يتحددان كهويتين فى سياقات أخرى لايكونان فيها موصولين بعلاقة فى تركيبة رابطة. وبذلك أقول مثلا إن العملة المعدنية.

$$A = a + \bar{a} + a\bar{a}$$

هذا إذن جمع بين أجزاء فرعية فى تركيبة structure، أو بين أجزاء صغرى غير محددة أى غير منفصلة منطقيا فى ذلك السياق، ومن ثم غير متناقضة، لأن التناقض يعنى الجمع بين نقيضين يشكلان هويتين منفصلتين منطقيا. ومع ذلك، يمكن إذا أردنا وإذا توفرت الامكانيات التقنية اللازمة، أن نطبق عليها مبادئ الهوية المنفصلة وعدم التناقض.

فمثلا نستطيع أن نستخدم الاستوب ووتش، لنصل إلى تقسيمات أصغر للدقائق والثوانى، وبذلك «نفصل» بسهولة بين الدقيقة أو الثانية ١٣ والدقيقة أو الثانية ١٤ المذكورتين من قبل، ونلغى بذلك «العلاقة» أو «البيْن» غير المحدد بينهما (رغم أننا قد نصل فى الاستوب ووتش إلى «علاقة» أو «بين» أصغر يحتاج إلى جهاز تقنى أدق). وكذلك نستطيع باستخدام النوع المناسب من القواطع أو باستخدام أشعة الليزر أن نقسم أو نقطع سُمك العملة المعدنية إلى جزء تابع للوجه الأول وجزء تابع للوجه الثانى، ومن ثم نلغى تلك «العلاقة» أو «البيْن» المذكور، ونحدد– أى نفصل منطقيا– بين مايتبع a/ أ ومايتبع $\bar{a}$/ $\bar{أ}$ (لا ألف).

وعملية التحديد هذه، مثل أىّ عملية تحديد (= مثل أىّ تقسيم أو فصل منطقى)، يمكن أن تستمر إلى مالانهاية (= لاتتوقف)، وذلك على أساس مبادئ الهوية وعدم التناقض وليس باهدارها أو بانكارها، أو بالجمع التخليطى الجاهل أو العمائى بين اللامحددات. **فالوجود الذى لايوضع تحت التحديد الفكرى الفاصل، أى الجامع المانع، يكون كما قلت هو العماء (apeiron)– وذلك لأن هوياته** ونقائضه تكون غير محددة بعد وليس لأنه متناقض أو يجمع بين النقائض!

الكيف والكم فى التناقض

☼ تبقى بعد ذلك نقطة فى موضوع التحديد أو الفصل المنطقى أى عدم التناقض، هى تلك الخاصة بالفرق بين «كيف» الهوية أو النقيض و «كمّ» أو درجة الاقتراب أو الابتعاد عن الهوية الأخرى أو النقيض الآخر. ذلك أن الانفصال أو الانقطاع المنطقى لايكون فى الغالب انفصالا أو انقطاعا ماديا، أى لايعبر فى الغالب عن استقلال شيئى أو مكانى أو زمانى. ونتيجة هذا الاختلاف فى معنى «الانفصال»، يحدث أحيانا أن تُستخدم هوية معينة فى تحديد أمر قد يكون أقرب كثيرا من الناحية الواقعية إلى الهوية المخالفة أو النقيض. وهذا هو ما أسميه مسألة الكيف والكم فى تحديدات الهوية وعدم التناقض.

من ذلك مثلا، أن مرسى مطروح هى من حيث الكيف– أى من حيث الهوية المنطقية– تابعة لمصر، رغم أنها من حيث الكم– أى من الناحية الجغرافية– أقرب إلى النقيض أو الهوية المخالفة: ليبيا. ومن ذلك أيضا، تحديد حالة شخص معين أصيب إصابة خطيرة أو حتى وصل

إلى درجة الاحتضار، بأنه لازال «حيا» ولم يصبح بعد «ميتا». وكلمة «لازال» وكلمة «بعد» تعبران هنا عن الاقتراب الكمي من الكيف النقيض. وفي مثل هذه الحالات، تستطيع أن تقول إنه «حي لكن مصاب إصابة خطيرة يمكن أن تؤدي إلى الموت». وتستطيع أن تقول إنه «حي لكن على حافة الموت»، أو حتى أن تقول إنه «في مرحلة الموت».

وفي كل ذلك، لايوجد تناقض أو جمع بين النقيضين، لأن الهوية محددة بصفة «حيّ»، بينما الاستدراك يعبر عما يظهر من معلومات عن مدى استمرارية هذه الهوية، أو مدى اقتراب أو ابتعاد النقيض الذي سيلغيها ويحل محلها. وهذه مسألة لاتتعلق بمبادئ الهوية وعدم التناقض، وإنما تتعلق بتصنيفاتنا أو تقسيماتنا الجزئية للوقائع والأشياء. فاذا كان تحديد الكيف يعني إثبات «الهوية» ونفي النقيض، فان تحديد الكم يعني تحديد «الدرجة» داخل إطار تلك الهوية وبالنسبة إلى إطار النقيض.

الفصل السابع- الازدواج الاضطرارى إزاء العقلانية والمنطق

✪ قلت إن السفسطائيين اللاهوتيين ثم الهيجليين والماركسيين والبرجماتيين، الذين ينكرون أو يشككون فى مبادئ الهوية وعدم التناقض، لايستطيعون عمليا الاستمرار فى هذا الموقف أو الالتزام به، لأن هذا يعنى التوقف عن التحديد ومن ثم عن التعبير والتفكير! وقلت إن الجرعة المضادة لمبادئ الهوية وعدم التناقض عند هؤلاء جميعا، تختلف باختلاف درجة العداء أو الرفض للعقلانية، ودرجة النفاق ودرجة الاتساع فى الموقف إزاء العقلانية الفلسفية والعلم العقلانى والفكر الحر.

تبرير التناقضات

والنصوص الدينية الكهنوتية والشطحات الصوفية تطفح وتمتلئ بالتناقضات الصارخة. ومع ذلك، فان الناس العاديين يحاولون دائما أن يخففوا درجة التناقضات أو يبرروها، أو أن يؤولوها تأويلا يوزع النقائض على زوايا متعددة بدلا من جمعها. وهذا ماتشير إليه مثلا التعبيرات المعروفة: «نعم... ولكن»، أو «لا... ومع ذلك»، أو «من ناحية... ومن ناحية أخرى»، الخ.

لكن حتى إذا نجحوا فى «توزيع» أطراف التناقضات، فان سموم التناقض واللامنطق تترك بالضرورة آثاراً عميقة فى طريقة تفكيرهم. وتأمل فى ذلك تأثير التقاليد الفرعونية القبطية التى تسمى «الموت» مثلا باسم «الانتقال إلى الحياة الأبدية»، وتأثير التقاليد المسيحية التى تسمى يسوع باسم «المسيح المصلوب» وأيضا باسم «المسيح الحىّ»! والمتصوفة المسلمون يقولون كثيرا إن «الحياة موت والموت حياة»، وإن «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا»، الخ! ويحكى أن متصوفا اسمه الجنيد فى بداية العهد العباسى، كاد يفتك به أحد الغرباء لأنه سأله عن الطريق إلى العمران أو الأحياء- أى إلى المدينة- فأشار له إلى المقابر! وتصور الرجل أنه يهزأ به، لكنه قال له إن هؤلاء هم «الأحياء» حقا بينما سكان المدينة هم «الموتى» حقا!!

وقد كان هيجل يكرر باعجاب كلمة مارتن لوثر عن أن «موت الله فى شخص المسيح هو

موت للموت نفسه»!! وكان يكرر باعجاب أيضا كلمة الانجيل المنسوبة إلى المسيح: «من أراد أن ينقذ حياته يضيعها»! وهذه تشبه المعنى الدينى للعبارة العربية القديمة «لاتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة». فقد استعمل القرآن تلك العبارة بمعنى أخروى للتعبير عن ضرورة التضحية بالحياة فى الجهاد بالقاء النفس فى تهلكة الحرب، أى بالقاء النفس فى الموت الدنيوى لتجنب تهلكة النار فى الآخرة. لكن معظم المسلمين- حتى فى بداية الاسلام- كانوا يستعملونها بمعناها الدنيوى العادى.

والخلاصة أن الناس العاديين غير المطموسين أو المحطمين ذهنيا، بل وحتى بعض المفسرين المعتمدين للنصوص الدينية، يحاولون كثيرا أن يقدموا تبريرات أو تخفيضات لمعظم التناقضات القديمة. ومن باب أولى، فان السفسطائيين العلمانيين المحدثين- مثل الماركسيين الهيجليين والبرجماتيين- يقدمون المزيد من التبريرات والتخفيضات لسفسطاتهم المضادة لمبادئ الهوية وعدم التناقض، بل ويحاولون إعطاءها شكلا علميا وعصريا!

● فلماذا إذن يجعجع العقائديون من هؤلاء أو أولئك ضد مبادئ الحتمية والهوية وعدم التناقض، إذا كانوا فى كلماتهم وأفكارهم يحاولون كثيرا تجنب الاهدار الصارخ المباشر لتلك المبادئ فى معظم الأحوال؟!

الهوية السببية وعدم التناقض

أبدأ أولا بتوضيح الفرق بين التصور العقلانى وبين تصور اللاعقليين عن عدم التناقض- الذى يدافع عنه بعضهم نفاقا وتمويها.

فاذا تأملت ماذكرته قبل ذلك مما ورد فى كتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالى وفى كتاب «تهافت التهافت» لابن رشد، تجد أن أبو حامد الغزالى- وكذلك عديد من السفسطائيين اللاهوتيين فى العصور الوسطى- كانوا يحاولون إهدار مبدأ الهوية باسم مبدأ الهوية، وكانوا يحاولون ممارسة التناقض باسم عدم التناقض!! وقد رأينا كيف كان الغزالى يقول بأن هوية السبب «غير» هوية النتيجة، ومن ثم لا توجد علاقة ضرورية بينهما! وكان يقول إن قطعة القطن هى قطعة القطن والنار هى النار، وإن هذه الهوية أو تلك هى «غير» هوية الاحتراق، ومن ثم

فلا توجد «ضرورة» تربط الجانبين! (وهذا مايكرره اليوم الوضعيون البرجماتيون وأمثالهم منذ السفسطائى الحديث هيوم).

ومعنى ذلك فى الحقيقة، أن الهويات فى الوجود مستقلة تماما فى رأيهم ومقطوعة عن بعضها ماديا، بحيث لاتربط تغيراتها علاقة الهوية السببية التى تعبر عن الحتمية الشاملة، لأن الهوية السببية تعنى التساوى بين «العلة التامة» و «المعلول». فاذا كان الأمر كذلك (كما كان يقول السفسطائيون القدامى ثم الأشعرى فالغزالى ثم الصوفى مالبرانش فالعلمانى المنافق هيوم)، فان المجال يصبح مفتوحا لانقلاب أى شئ إلى أى شئ أو ظهور أى شئ من لاشئ، أو تحوّل أى شئ إلى لاشئ!! وعند المتصوفة وأمثالهم، يصبح كل شئ جائزاً طالما أن الله قادر على كل شئ!! **ولهذا، اعترف الغزالى صراحة بأن الدور الوحيد المقبول دينيا للعقل، هو إثبات عجز العقل(!!)، وإثبات الامكان المطلق وانعدام الحتمية!!**

● وهنا نصل إلى السؤال التمهيدى الذى وقفنا عنده: ماهو الفرق بين تصورهم التضليلى المذكور عن الهوية وعدم التناقض، وبين التصور المنطقى الصحيح.

والجواب أنه الفرق بين أن تقول بطريقة السفسطائيين الغيبيين القدماء فيما أورده عنهم كتاب «التهافت»: «إننى تركت فى البيت كتابا، ولعله انقلب الآن فرساً لأن الله تعالى قادر على كل شئ»، وبين أن تقول مثلا بطريقة منطقية صحيحة: «لقد تركت فى البيت كتابا، ولعله الآن سرق أو احترق، لأننى لا أعرف ماحدث فى البيت». فالفرق بين القولين، ليس إلا الفرق بين موقف إهدار مبادئ الهوية وعدم التناقض (بغض النظر عن أى جعجعة تضليلية منافقة عنها)، وبين موقف الالتزام المنطقى الصحيح بها.

فاذا قلت مثلا: «لقد تركت البيت سليما، وربما يكون الآن قد انهار أو احترق»، فهذا القول يمكن أن يكون منطقيا إذا كان يخضع لمبادى الهوية السببية وعدم التناقض، بمعنى أن يتضمن ضرورة حدوث أسباب (لاتُستحدث من لاشئ) هى التى تُنتج المعلول المذكور أى انهيار أو احتراق البيت. أما إذا كنت تزعم إمكان حدوث ذلك بدون أسباب، أو نتيجة أسباب تظهر من لاشئ، أو نتيجة قدرات مزعومة تُنسب إلى قوى وكائنات خرافية أى لاعقلية (= غير

خاضعة للتحديد) ومن ثم لامنطقية أى مرفوضة شكلا أو تعبيريا، فان هذا القول يعتبر تخريفا يهدر مبادئ الهوية وعدم التناقض. ويكون مثله فى ذلك مثل قولك بامكان فناء البيت إلى لاشئ، أو طيرانه وسباحته فى الفضاء، الخ.

وهذا هو الفرق أيضا بين قولك بامكان تحول البذرة إلى شجرة أو إمكان تحول الطفل إلى رجل، الخ، وبين قولك بامكان تحول الكتاب إلى حصان أو تحول الحصان إلى حمار، الخ. فالتحول من هوية إلى أخرى فى الحالة الأولى، هو تحوّل بين سابق ولاحق تربط وتضبط مبادئ الهوية وعدم التناقض تسلسله الحتمى، أى أنه تحوّل حتمى بين علة ومعلول؛ بينما التحول المزعوم فى الثانية لايربطه أو يضبطه تسلسل حتمى بين حلقات حقيقية تخضع للتحديد بمبادئ الهوية وعدم التناقض.

ذلك أن الهوية السببية، أى حتمية التغير من سابق محدد إلى لاحق محدد، تعتبر بمثابة السور الشامل الذى يفرض الضرورة على كل تغيرات الواقع. وغنىّ عن البيان أن أىّ ثغرة فى أىّ سور، تلغى شمول دوره الحتمى أى تفقده صفة السور! وبذلك يصبح مجرد عائق أو حاجز قابل للاجتياز، بالالتفاف حوله والبحث عن المنفذ الذى يلغيه! ولهذا، فان القول بامكان أو جواز حدوث أىّ «ثغرة» فى سور الحتمية الشاملة، يكفى لينسف معنى الحتمية ومعنى الموضوعية العلمية الشاملة. وعلى قدر اتساع هذه «الثغرة» أو تعدد «الثغرات» فى سور الحتمية الشاملة، تكون درجة اللاعقل والتخريف والشعوذة.

وفى منطق العلم فى مناهج البحث، يبحثون دائما عما يسمى «المثال السالب». فالعثور على مثال سالب واحد، يكفى لالغاء حتمية وموضوعية أىّ قانون علمى!! العثور مثلا على قطعة حديد واحدة تتمدد بالبرودة وتنكمش بالحرارة، يكفى لاسقاط قانون تمدد المعادن بالحرارة كقانون علمى، ويجعله مجرد «عادة» من عادات الطبيعة، أو ربما «نزوة» لا ضمان لها!! وهذا يلقى الكثير من الضوء على كلمة الانجيل المنسوبة إلى المسيح: «معجزة واحدة تكفى»!!

وأظن أن هذا كله، يوضح لك الأهمية المطلقة لتلك المبادئ المنطقية ولضرورتها وشمولها، باعتبارها مبادئ التحديد العقلى والحتمية الواقعية.

لماذا التشكيك فى منطق الهوية وعدم التناقض؟

* وأرجع إلى التساؤل: لماذا يهدر السفسطائيون اللاهوتيون أو السفسطائيون العلمانيون مبادئ الهوية وعدم التناقض، بينما يحاولون رغم ذلك استخدامها بدرجة أو بأخرى؟!

● الجواب باختصار، أنهم يحاولون فتح عدد قليل أو كثير من الثغرات (تبع النوعية اللاعقلية لكلٍّ منهم) فى إحساس الناس بسور الحتمية الواقعية، ويحاولون تفكيك عدد قليل أو كثير من صواميل الذهن البشرى (تبع النوعية اللاعقلية لمن يحاول ذلك)؛ لكنهم لايريدون- وأيضا لايستطيعون- هدم وإلغاء كل الاحساس البشرى بالسور الحتمى للواقع، ولايريدون- وأيضا لايستطيعون- تفكيك كل صواميل الذهن البشرى وتحويل الناس إلى معتوهين!!

وفى التاريخ الاسلامى حكاية مشهورة، تفيدنا فى فهم ميكانيزم التشكيك الذى يستهدف التحقير والتصغير لا الالغاء التام. تلك هى التى تسمى «واقعة التحكيم». فقد كان على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان بعد فترة من الحرب، قد قررا أن ينتدب كل منهما رجلا ويتحاور الرجلان أمام الناس، ليقوما بدور الحكَمين، أو بدور الاحتكام إلى الرأى العام للفاتحين المسلمين. وحضر إلى المسجد أبو موسى الأشعرى عن الأول وعمرو بن العاص عن الثانى، وبدأ الحوار. فطلب الثانى أن يخلع كلٌّ منهما الخليفة الذى يمثله، لتكون المناقشة حرة يتفقان بعدها على من يريدان ومن يريد المسلمون. وفى براءة، وافق الشيخ أبو موسى وأعلن خلع علىّ، فأسرع ابن العاص يقول إنه يثبّت معاوية بعد خلع علىّ!! لعبة فارغة وخدعة صبيانية لاتنطلى طبعا على أحد! فلماذا فعل عمرو ذلك؟! لم يفعل ذلك بداهة لاقناع أنصار علىّ أو لاقناع الرأى العام الاسلامى بأحقّية معاوية، ولكن بهدف تحقير هؤلاء وتصغيرهم ومحاولة إقناعهم بأن القائمين عليهم سذّج يمكن استغفالهم بسهولة، ومن ثم لاستفزاز هؤلاء الأنصار وتحطيم معنوياتهم! وبالفعل، أدت هذه العملية الاستفزازية التحطيمية إلى انصراف البعض عن علىّ، وخروج طائفة «الخوارج» ضده وضد معاوية وابن العاص معا!!

هذا يساعدنا إلى حد كبير، على تصور الهدف الحقيقى وراء سفسطات الانكار أو التشكيك إزاء مبادئ الهوية وعدم التناقض، التى هى صميم منطق الفكر ومنطق الوجود (= القوانين الموضوعية للوجود)! فهم لايمكن أن يصلوا حقا إلى صرف الناس عن

منطق الهويات وعدم التناقض (فهذا مستحيل عمليا حتى عند الحيوانات!)، لكنهم يحاولون فقط تحطيم بعض أو كثير من ميكانيزمات هذا المنطق فى أذهان القادرين على التفكير، مع استفزاز ومن ثم استطلاع والتقاط أصحاب القدرات الفكرية الراقية الذين يصدمهم جذريا هذا النوع من الاهدار لمنطق العقل والوجود- وذلك من أجل تصفيتهم بطريقة أو بأخرى أو كسر عقولهم تماما.

هذا هو الهدف الذى يمكن أن نلاحظه بوضوح، إذا تأملنا أحد الأمثلة المشهورة التى كان يرددها السفسطائيون فى العصور الوسطى، والتى نجدها عند ابن رشد وغيره من الفلاسفة الذين كانوا يردون عليها. فقد كان السفسطائيون يقولون مثلا: «الزنجى أبيض»!! فيسألهم الفلاسفة. كيف يتأتى أن يكون الأسود أبيض؟! فيقولون: إنه أسود البشرة أبيض الأسنان!! وهكذا يجعجعون عن اجتماع النقيضين حيث لااجتماع ولانقيضين، لأن البشرة شئ والأسنان شئ آخر، ولون هذه غير لون تلك!! لكن إزاء هذا التعبير ذى الشكل المتناقض، نجد أن الشخص المنخفض التفكير أو عديم الاحساس المنطقى قد يصدّقهم، أو على الأقل لايستنكر قولهم. وقد يصل انخفاض إحساسه المنطقى إلى درجة أن يكتفى بالضحك! وأما المفكر ذو الاحساس المنطقى المرهف، فانه يثور ضد هذا التخليط. وفى الأمثال:

أمـور يضحـك السـفهاء منهـا * ويبكـى مـن عواقبهـا اللبـيب

وكما قلت، فمن المستحيل عمليا الانصراف تماما عن منطق الهويات وعدم التناقض، لأن هذا يعنى التوقف عن ممارسة الحياة وليس فقط التوقف عن ممارسة التفكير والتعبير، ولأن الميكانيزمات الذهنية المنطقية توجد- بشكل إدراكى مباشر غير رمزى- حتى عند الحيوانات التى لاتستطيع أن تمارس الحياة بدون أن تتحدد مدركاتها ومنبهاتها على أساس الثبات الادراكى واختلاف أو تغاير الهويات الانطباعية للأشياء (مثلا قطعة العظم «هى» قطعة العظم، وهى «غير» قطعة الخشب، وكذلك صاحب البيت أو الصديق هو «غير» الغريب و«غير» العدو). لكن قليلا من الخمر يصلح المعدة! أعنى أن قليلا من التناقض يلخبط الذهن بالدرجة المطلوبة!

مدى التحطيم المطلوب في ميكانيزمات المنطق

المطلوب إذن من الناس العاديين- الذين هم أصلا قليلو التفكير- أن يفقدوا بعض الميكانيزمات المنطقية الذهنية، بحيث لايرتفعون إلى درجة غير مرغوب فيها من التدقيق الفكرى أى المنطق، وأيضا بحيث لاينخفضون إلى درجة الجنون أو البلاهة أو التخلف الذهنى. **هذه هى «الوسطية» المزعومة بين العقل والبلاهة، أو بين المنطق والهذيان!** أما أصحاب القدرات الفكرية المتفوقة الذين لايريدون الاقتصار على هذه «الوسطية» المعيشية، أى الذين يحاولون أن يتخطوا درجة التفكير البرجماتى اللازم لتصريف شئون الحياة، فهؤلاء يجب فعلا تحطيمهم وتجنينهم وتجريدهم من ميكانيزمات الهوية وعدم التناقض والمنطق العقلاني، وتحويلهم إلى مخرفين مجاذيب يحملون مرقّعات الصوفية اللاعقلية ويتلقون الكرامات اللاعقلية، الخ. (هذا إذا سمح لهم أصلا بالبقاء على قيد الحياة).

وقد قرأت فيما رواه بعض المؤرخين عن العصور الوسطى- عندما كانت الجرائم ضد العقل أكثر انكشافا ووضوحا- أن الكهنة ومطببى الكهنة (= الأطباء شبه البدائيين) فى بعض شعوب شرق أوروبا، كانوا يمارسون على المكشوف هذا التقليد المعادى للعقلانية والمنطق، فيأمرون بأن يقتل منذ الصغر (أو فى الكبر إذا أفلت منهم صغيرا!) أىّ شخص يتفوق ذكاؤه عن المستوى العادى، أو ينخفض إلى درجة التخلف الذهنى الأقل من العادى! وهذا يذكرنا بقصة «الخضر» وقتل الطفل التى وردت فى «الاسرائيليات». ومن المؤسف أن البعض يقصد ذلك حين يستعمل اسم «الأمة الوسط»، حيث يقصد المعنى البرجماتى الدهمائى الشائع لكلمة «الوسط»!

والمهم أن المطلوب بهذا التشكيك أو التحطيم الجزئى لميكانيزمات المنطق الذهنى، هو أن يستمر الحرفيون والصناع فى أداء أعمالهم بطريقة «منطقية» عادية، بدون أن يرتفعوا إلى مستوى التفكير المنطقى فى «المشاكل» الدينية أو الدنيوية العامة، أو حتى فى أصول ومبادئ ومصطلحات وتقاليد حرفهم وصناعاتهم. وعلى غرار ذلك، يستطيع الفكهانى مثلا أن يمارس منطق الهويات وعدم التناقض فى تمييز وتصنيف كل تنوعات وتفرعات ومجموعات الفاكهة وأسعار كل منها، بدون أى تناقض وبدون أىّ خلط (إلا إذا كان خلطا مقصودا بهدف الغش أو زيادة الربح)، ويستطيع أن يؤمن جدا بما قاله اللاهوتيون فى العصور الوسطى عن إمكان

انقلاب الكتاب إلى فرس بقدرة الله ومعجزاته- بدون أن يتصور إمكان انقلاب البرتقالة الصغيرة مثلا إلي برتقالة كبيرة أو انقلاب الليمون المصرى إلى ليمون هندى! بل وبهذه الطريقة أيضا، يستطيع رجل الدين أو «الفقيه» (ومعناها لغويا الفاهم أو المتفهم) أن يفقه تعاليم الدين وأوامر الله والأنبياء، بدون أن يفكر فى المشاكل الفلسفية للألوهية والنبوّة والروحانيات، وفى مدى منطقية أو لا منطقية القول بأنه كان يوجد لاوجود قبل خلق الوجود، أو بأن الوجود يمكن أن ينعدم بغض النظر عن قانون عدم فناء وعدم استحداث المادة والطاقة، الخ، وفى مدى منطقية أو لامنطقية القول بوجود موجودات لاتخضع للتحديد المنطقى العلمى ومن ثم للتحقيق المنطقى logical verification (بحيث تعتبر لاموجودة منطقيا). وأيضا يستطيع «العالم الدينى» أن يتناول بالدراسة والبحث الدقيق «العلم» بالمعنى الدينى، بدون أن يخطر على ذهنه أن كلمة «العلم» لها معنى آخر وأصول أخرى ومنهجيات أخرى.

بل ويستطيع أن يدرس ويبحث فى «أصول» تلك العلوم الدينية، بدون أن يتصور أن «الأصول» لها معنى منطقى آخر، وأن أصول العلم لها معنى منهجى آخر. ويستطيع أن يدرس ويبحث فيما يسمى «الأثر»/ المأثور الدينى، بدون تفكير فى المعنى المادى العلمى للأثر والآثار التاريخية، وكيف كان «الأثر» النصوصى يأمر بهدم هذه وإبادتها. ويستطيع أن يدرس ويبحث «الصحيح» و «الضعيف» و «المكذوب» فى الآثار الكلامية أو الأخبار والأحاديث الدينية القديمة، بدون أن يفهم أن هناك نوعا آخر من «الصحة» أو «الصدق» لايتعلق بوقوع هذا الكلام فعلا ولكن بمدى مطابقته للواقع والمنطق العقلانى. ويستطيع أن يستخدم- فى اتجاهين متعارضين- مثلا كلمات «الظالمين» و «المجرمين» و «الفاسقين» و «الجاهلين»، الخ: بالمعنى القرآنى القديم وهو «الكفار» حتى لو كانوا مسالمين أبرياء ومستقيمين ذوى علم، وأيضا بالمعنى العادى غير الدينى، أى للتعبير عن الظلم والاجرام والفسق والجهل بمعانيها الحقيقية. وكذلك يستطيع أن يستخدم مثلا كلمة «العمل» بالمعنى القرآنى القديم وهو «العبادة»، وأن يستخدمها أيضا بالمعنى العادى المعروف والشائع قديما وحديثا. كل ذلك- فى هذا الاتجاه أو ذاك- مع مئات الروايات المحفوظة عن تفاصيل المعجزات والكرامات، بدون أن يخطر على ذهنه أى تفكير فى مبادئ الهوية وعدم التناقض ومنطق التفكير والتعبير. وطبّق ذلك أيضا على بقية أصحاب المهن والحرف الأخرى العملية أو النظرية فى المجتمع: بالنسبة إلى أصول تخصصاتهم، وأيضا بالنسبة إلى الأصول الفكرية العامة لمعتقداتهم.

فى ضوء ذلك، تستطيع أن تفهم المقصود بالعبارات المعروفة التى يكررها- منذ العصور الوسطى- اللاهوتيون الذين يوصفون بـ «الاعتدال» عن هذا الموضوع. فهم يقولون مثلا- كما نجد عند القديس أوغسطين- إنه لاغنى عن العقل ولاغنى عن المنطق، لكن فى الاطار الذى لايرفض ما ينافى المنطق absurdum ولاينكر اللامعقول! بل ويقولون إن الفلسفة مطلوبة أيضا، لكن بشرط أن تخدم اللاعقل الكنسى. ومأثورتهم المشهورة تقول فى ذلك: «الفلسفة خادمة اللاهوت». أما أبو حامد الغزالى، فكان يرفض حتى قيام الفلسفة بخدمة الدين، وكان يقول صراحة إن العقل يجب أن يثبت عجز نفسه عن التفكير فى أصول الدين والوجود والخوارق. وفى مواجهة الاسلاميين المتشددين الذين كانوا يقولون «من تمنطق فقد تزندق»، كان يقول إن المنطق مفيد لكن داخل الاطار اللاعقلى! (ولهذا أطلق على المنطق اسماً آخر لالغاء اسمه الفلسفى، هو: «معيار العلم»- يقصد العلم الدينى!).

درجة خفض التفكير ودرجة تدمير العقل

إذا كان من يسمون بـ «المعتدلين» يرون السماح بدرجة ما من العقل والمنطق (تتوقف على درجة اعتدالهم المزعوم ودرجة تسامحهم العقائدى)، فان المتشددين أو المتزمتين يرون خفض هذه الدرجة إلى الحد الأدنى العملى البرجماتى المباشر. ومعنى ذلك أنه بالنسبة لمبادئ المنطق العقلانى، يرى اللاهوتيون «المعتدلون» أن بعض الخمر اللامنطقى ضرورى لاصلاح التفكير (عكسيا!)، بينما يرى اللاهوتيون «المتشددون» ضرورة الوصول إلى السكر البيِّن! لكن كلا الجانبين يتفقان ضد التقدم الفكرى- على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع- إذا اقترب من الخط الأحمر!

فالمعتدلون الذين يعتقدون أن بعض اللامنطق أو القصور الذهنى يمنع التدقيق غير المرغوب فيه ويمنع التفكير فى المسائل المحرَّمة، يرون أن المقصود بذلك أصلا «أواسط» الناس الذين لايملكون بطبيعتهم درجة كافية من قدرات التدقيق والتفكير. أما بالنسبة لأصحاب القدرات الفكرية المتفوقة، فهؤلاء يجب أن يتجرعوا الموت، أو أن يتجرعوا الخمر اللاعقلية حتى درجة العربدة الذهنية!

☆ وهذا مايحدث أيضا على مستوى الجماعات أو المجتمعات وليس فقط على مستوى الأفراد. فعندما يقترب مجتمع ما من درجة التفكير السليم والابصار الذهنى ويستعد لتطوير واستخدام قدرات العقل والفكر والمنطق، يجب تسجيده وتنكيسه أرضا وتحطيم وسائله العقلية والفكرية بمختلف أنواع الخمور اللاعقلية واللامنطقية، التى لاتسمح له- على الأكثر- إلا باستخدام غرائزه وانفعالاته وتدبير بعض مصالحه المعيشية البرجماتية المباشرة! وإلا، فيجب تدميره اجتماعيا وبشريا وتحويله إلى أنقاض، أو- بالتعبير القديم- «تل خراب»!

ويمتلئ تاريخ العصور القديمة والوسطى بالوقائع عن المخططات التى كانت تدبر وتنفذ لاستخدام الشعوب الأقل عقلا (إن لم تكن شعوب همجية شبه بدائية) ضد أى شعب تزيد فيه إمكانيات الاستنارة والتفكير، وكيف كانت تستورد ضدهم قطاعات الهمج والبرابرة والرعاة والبدو من أقاصى الأرض، إن لم يكن من الصحارى والبرارى المجاورة. وكان هؤلاء الغزاة يتعرضون للجرعات الشديدة من خمر الشعوذات والعجائب والتحكم اللاعقلى الشامل، الذى يغرقهم فى غرائز الحرب والقتال والعدوان والسلب والنهب وسبى النساء والغلمان، الخ، بالخضوع التلقينى الأعمى وبدون أى هامش تفكير أو إحساس منطقى. أما الآخرون المطلوب تصفيتهم، فكانت تهدر دماؤهم دينيا، ويتحول بقاياهم إلى عبيد مقهورين منبطحين أرضا، يحرمون مما قد يبقى لديهم من وسائل القراءة والكتابة والتفكير!

ومعنى ذلك أنه إزاء أخطار الاستنارة والتفكير فى العصور القديمة والوسطى، منذ بداية حكم الكهنوت الفرعونى للعالم، كانت الأجهزة السرية لصناعة اللاعقل تستخدم القدرات الاعجازية أو التعجيزية المكشوفة، لتحويل الشعوب الأكثر تخلفا إلى دراويش محاربين منتصرين، يمارسون الفتح والقرصنة والتمتع بغنائم النساء والغلمان، بينما يبيدون أو يدمرون الشعوب التى تتجه إلى الاستنارة والتفكير ويحولون بقاياهم إلى كلاب مروضة تتبع هؤلاء! أما فى العصور الحديثة- وخصوصا فى مرحلة اللاعقل الأمريكى- فقد أصبح من السهل أن يستخدموا إلى جانب خمور التخريف وقهر وتنكيس التعبيد اللاعقلى القديم، خمورا دنيوية فعالة أيضا (وربما أشد مفعولا!)، أوضحها الفساد الأخلاقى الشامل والانحلال الجنسى

والاجرام والمخدرات والخمور الحقيقية، وإطلاق وسائل الاثارات الانفعالية المتنوعة وسعار التناحر على الحياة، ومختلف أنواع الانفعالات الأخرى الجارفة التى تؤدى نفس الهدف المطلوب بدرجة أو بأخرى، وهو الطمس الذهنى والتحطيم العقلى الفكرى. وانظر إلى مدى انتشار جرائم المخدرات والقتل والاغتصاب والعربدة فى أمريكا العظمى، تجد مثالا واضحا على ذلك!

■ **وباختصار، يمكن تقسيم مخططات مكافحة العقلانية ومبادئ المنطق الفكرى وميكانيزمات المنطق الذهنى السليم إلى نوعين رئيسيين:**

النوع الأول: يشمل مخططات المكافحة التى تحدث فى الظروف العادية لفرد معين أو مجتمع معين، حيث يكون المطلوب فى هذه الحالة العادية إحداث إصابة أو إصابات فى عقل وفكر الفرد العادى أو المجتمع العادى لتعجيزه عن التفكير فى المسائل التى تحتاج إلى درجة خاصة من التحرر والتدقيق. وهذا يشبه ماكان يحدث فى النظام السابق للسجون (حتى الخمسينات فى مصر)، عندما كانوا يربطون بين قدمى المسجون سلاسل تثقل حركته وتمنعه من الجرى ولكن لاتمنعه من المشى العادى. ومثل هذا كان يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل «تحرير» العبيد السود، حيث كان العبد الذى يهرب أو يحتاج إلى إخضاع شديد، يبتر له جزء من كل قدم، فيعجز عن الجرى أو الانطلاق فى الحركة! أما نظام الأغوات/ الخصيان، فهو معروف..

والنوع الثانى من مخططات مكافحة العقل، يشمل مخططات المكافحة الخطيرة، أى التى تحدث فى الظروف التى تنذر بالخطر الداهم على المستوى الفردى أو الاجتماعى، حيث يكون المطلوب فى هذه الحالة تصفية الحياة أو تصفية قدرات العقل والفكر أو تعجيزها جذريا.

وعلى قدر الدرجة المطلوبة فرديا أو اجتماعيا فى كل حالة من الحالات المتدرجة فى النوعين المذكورين، تكون درجة العداء ودرجة المكافحة (الشخصية أو المجموعية أو العامة)، وتكون درجة الحرب (الداخلية أو الخارجية) ضد العقل والمنطق- وخصوصا ضد قواعدهما الأساسية الأولى وهى مبادئ الهوية وعدم التناقض.

* * *

وقد زادت الجرائم الشاملة ضد العقل نفاقا وخداعا وتضليلا، بسبب اتساع نفوذ الدهماء وسيطرة الرأى العام الدهمائى فى القرون الأخيرة. فالدهماء لايدركون حقيقة ومدى قدراتهم

الذهنية، ومن ثم لايتصورون أن هناك عقلا أرقى وأكثر منطقية من أذهانهم! فلماذا يخشون العقل والعقلانية، طالما أنهم يتوهمون أن بديهياتهم الخرافية هى قمة العقل والعقلانية؟! إن المفكر العقلانى الحر الذى يخالفهم، لايعبر بذلك عن عقل منطقى سليم، ولكن عن شذوذ لاعقلى أو جنون!! هكذا كان يتصور أيضا دهماء العصور الوسطى عمن كان «يزعم» أن الأرض كروية بينما هى مسطحة أمام كل ذى عينين، وعمن كان «يزعم» أن الأرض هى التى تتحرك حول الشمس بينما قرص الشمس يتحرك من الأفق الشرقى إلى الأفق الغربى أمام أنظار الجميع. وهكذا كانوا يتصورون عمن قالوا بالعدوى،وعمن كانوا «يخرفون» عن وجود ميكروبات لاترى بالعين المجردة، وعمن كانوا «يزعمون» أن كل الظواهر لها أسباب مادية ضرورية قابلة للتفسير والتغيير، الخ. وكان أمثال هؤلاء «المتفلسفين» المخرفين أو الشيطانيين، يحرقون أحياء فى ميادين عامة وسط تهليلات وتكبيرات المتفرجين العقلاء!!

لكن ليس من الضرورى استخدام قرارات الكنيسة فى إقناع الجماهير «العاقلة» بأى شئ! فكما كان يحدث عندما تنطلق مباخر الكهنة وترتفع تراتيلهم عن الحق والخير والسلام لتمجيد ذبح وحرق الأطفال على مذابح المعابد القديمة، أو لتكريم أقذر جرائم الجنس والبغاء «المقدس» فى طقوس المعابد، كذلك يمكن أن تمارس جرائم مكافحة العقلانية والفكر والمنطق: ليس فقط باسم النصوص اللاهوتية والتراتيل والعبادات، لكن أيضا وأساسا تحت أجمل الكلمات الخادعة المضللة والأسماء المزيفة، بل والأسماء التعكيسية المقلوبة– بما فى ذلك اسم الضحية المذبوحة نفسها!

تماما كما يحكى التراث التبصيرى اليونانى القديم عن بنات الملك بلياس Pelias، اللاتى نفذن تعاليم الكهنة فذبحن أباهن العجوز ووضعن لحمه فى الماء المغلى ليحققن له الخلود واسترجاع الشباب عندما يُبعث أمامهن من وعاء الماء المغلى!!

فما أكثر ماتذبح العقلانية والعقل– خصوصا فى هذه الأيام– باسم العقلانية والعقل! بل ويحدث ذلك أحيانا بتقديم قطع من لحم العقلانية نفسها طُعما فى مصيدة الخرافة واللاعقل، لاصطياد الببغاوات الذين لايميزون بين الاسم والمسمى!!

مارس ١٩٩١



العقلانية واللاعقل

في مختلف المجالات

أهم موضوعات هذه البنود:

العقيدة العقلانية - الماركسية ورفض العقلانية - ثلاثة بنود عن العلمانية - فلسفة لغة - العقل الفني والعقل المنطقي - اللاعقل والاجرام - العلوم الذهنية والنفسية - المصادفات وتوزيع الاحتمالات - المجموعات اللغوية والشعوب القديمة، ورمز الصليب المعقوف - الجمعية الفلسفية المصرية.

من أجل فكر عقلانى ← يؤدي إلى ظروف عقلانية ← تصنع إنسانية عقلانية

● الظروف هى التى تصنع الانسان. هذا ماكان يقوله العقلانيون الماديون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر، كقاعدة لحركة التنوير العقلانى الارتقائى المطلوب (الذى حطمته ثورة يوليو ١٧٨٩ الدهمائية وإرهابها الفوضوى). لكن هذا كان يعنى فى رأيهم أيضا، أنه **يجب أن نصنع الظروف التى تصنع إنسانية الإنسان العقلانى.** ثم إن هذا كان يعنى أيضا وأساسا – كما قالت "مدرسة الايديولوجيين / علماء الفكر" الفرنسيين فى القرن الثامن عشر – أنه **يجب إقامة علم ونظام للفكر العقلانى وللتعليم والتثقيف العقلانى، من أجل إقامة مجتمع عقلانى علمى وأفراد عقلانيين علميين.**

● وهكذا نجد أنه، إذا كانت الظروف هى التى تصنع الانسان، وإذا كان يجب أن نصنع ظروفا إنسانية، فان وسيلة البدء فى ذلك هى إنتاج الأفكار والخطط العلمية القابلة للتنفيذ عمليا، من أجل صناعة الظروف المطلوبة. ومن **ناحية أخرى، نجد أن هذا لايتأتى أصلا إلاإذا أمسكت سلطة المجتمع أجهزة عقلانية علمية أممية، يمكن أن تبدأ عمليات تحقيق هذه الميكانيزمات المتصاعدة والمتوسعة حلزونيا،** من خلال : أفكار عقلانية ومفكرين عقلانيين ← حكومة عقلانية ← جهاز دولة عقلانى ← تنوير عقلانى شامل، ومن ثم مجتمع عقلانى ارتقائى ⇄ المزيد من الارتقاء والاتساع فى الأفكار العقلانية وفى المفكرين العقلانيين ⇄ حكومة أكثر وأوسع عقلانية ⇄ جهاز دولة ... الخ الخ، فى تصاعد واتساع ارتقائى عقلانى يستمر إلى مالا نهاية.

البند الأول - مبادئ العقيدة العقلانية فى الفلسفة

كما أوضحت فى الفصول السابقة، الفلسفة بالمعنى الصحيح يجب ولايمكن إلا أن تكون عقلانية. ومن هنا، فالمبادئ الفلسفية الصحيحة هى بالضرورة مبادئ عقلانية. لكن بسبب ماتعرضت له الفلسفة طوال عصور الكهنوت من إهدار وتخليط، وبسبب مادُسّ فيها من اللاهوت والسفسطة والروحانيات واللاعقليات، أردنا هنا تأكيد هذا التحديد العقلانى من خلال ذكر أهم مبادئه.

وبالاشارة إلى كتاب "المبادئ الفلسفية الجديدة" الصادر عام ١٩٨٩، وإلى كتاباتى الأخرى الصادرة فى الفترة الأخيرة، يمكن تلخيص أهم وأبرز المبادئ الفلسفية العقلانية فى ستة عشر مبدأ كما يلى :

(١)- المبدأ المادى أو الطبيعى أو الواقعى. وهذا يعنى الاعتراف بأن الوجود الحقيقى هو كل مايمكن أن يخضع للتحديد المنطقى أو التحقيق التجريبى (= التحقيق الرصدى أى المباشر، أو التحقيق الاستدلالى غير المباشر). ومعنى ذلك بعبارة أخرى، عدم الاعتراف بأى إضافات لاعقلية أو لامنطقية تُنسب إلى الوجود.

(٢)- مبدأ التمييز : أولا، بين ثلاثة مستويات نوعية كبرى للوجود، هى : ١- الوجود المادى، أى القابل للرصد المباشر (= بالحواس أو بوسائلها التكنولوجية) ٢- الوجود التحت مادى، أى القابل للاستدلال أو التجريب من خلال الرصد المادى التحت ذرى ٣- الوجود المعنوى، أى الوجود الفكرى والادراكى من خلال حلقات الرصد المادى. فرغم أن الوجود المعنوى (الفردى أو الاجتماعى) ليس إلانتاجا وتعبيرا عن تركيبات مادية أو تحت مادية (أى مكونات وعلاقات فسيولوجية فى الجهاز العصبى أو وسائل تعبير مادية مرئية أو مسموعة، الخ)، إلا أن هذا الوجود المنوى يشكل عالما يختلف نوعيا عن عالم الوجود المادى وعالم الوجود التحت مادى، بحيث تختلف ظواهره نوعيا عن العلل والمؤثرات الفسيولوجية والمادية والتحت مادية المكونة لها، ومن ثم تخضع لقوانين وميكانيزمات من أنواع معنوية وليس من أنواع مادية (أى مثلا منطقية أو نفسية، الخ، وليس مثلا فسيولوجية أو فيزيائية).

وثانيا، التميز في تناول الوجود - بمستوياته الكبرى الثلاثة المذكورة - بين مختلف المستويات النوعية المتعددة الأدني من ذلك : في ميادين الطبيعة المادية والانسان كمجتمع وكفرد.

(٣)- مبدأ قابلية كل أنواع ومستويات وجزئيات الوجود للمعرفة العقلانية العلمية والتحديد المنطقي - التي هي طبعا معرفة بشرية وتحديد بشري. وهذا المبدأ يعتبر في الحقيقة الوجه الآخر للمبدأ الأول الخاص بالواقعية العقلانية للوجود. فاذا كان الوجود الحقيقي هو كل مايخضع للعقل البشري، فمعنى ذلك أن مالا يقبل المعرفة والتحديد بشريا يكون غير موجود. فالموجود هو القابل للمعرفة، ومالا يقبل المعرفة لايوصف بالوجود.

(٤)- مبدأ الاتصال المطلق والشامل للوجود، مع ضرورة الانفصال المنطقي لأي تحديد. أي استحالة التحديد بدون الفصل المنطقي الجامع المانع لهويات الوجود. وهذا يعني أيضا مبدأ لانهائية الوجود من حيث كل المنظورات المتصلة، مع استحالة الوصول إلى أي تحديد بدون الحصر أو الفصل ذي الحدود النهائية.

(٥)- مبدأ شمول الحركة وشمول تغير الوجود، مع ضرورة ثبات التحديد المنطقي الذي يعبر عن ثوابت وقوانين هذه الحركة وهذا التغير. وبتعبير فلسفي، نقول إن التغير مطلق، وإن الثبات الضروري الذي يتخلل هذا التغير ثبات نسبي.

(٦)- مبدأ التراكم المتصل للعلل أو السوابق المحددة كميا، مع الحدوث المنفصل للمعلولات أو اللواحق المحددة كيفيا. وهذا لايعني فقط اتصال الوجود المتدرج كميا مع قابليته للانفصال عند التحديد الكيفي، لكنه يعني أيضا أن التحديد الكمي ينظر إلى جانب الاتصال بينما التحديد الكيفي ينظر إلى جانب الانفصال (= إلى الهويات). وهنا نجد أنه لايوجد قفز من الكم إلي الكيف، ولكن انتقال من تحديد متصل (مثلا درجة الحرارة)، إلى تحديد آخر منفصل (مثلا : إما حالة السيولة أو حالة الغازية). أما إذا نظرنا إلى كل درجة من درجات الحرارة باعتبارها كيفا منفصلا، مع النظر إلي تدرج التخلخل في مكونات المادة باعتباره اتصالا كميا، فان هذا المنظور يحدد لنا نوعا آخر من العلاقة العلية بين الجانبين.

(٧)- مبدأ اللاتماثل الشامل في الوجود. وهذا يعنى أنه لايوجد على الاطلاق أى شئ أو أى تحدد من أى نوع يكون مطابقا لأى شئ أو تحدد آخر. وإنما يوصف الشئ أو التحدد بأنه يماثل غيره إذا كان هذا التماثل نسبيا، بمعنى أن يكون تماثلا فى اللاتماثل مع الأشياء والتحددات الأخرى المغايرة. فاذا كان النهر لايبقى هو نفسه فى لحظتين متتاليتين، فانه يبقى هو نفسه بالنسبة إلى الأنهار الأخرى المغايرة. وبتعبير فلسفى، نقول إن اللاتماثل مطلق والتماثل نسبى.

(٨)- مبدأ الحتمية الشاملة للوجود. وهذا يعنى ثبات تحددات وهويات الوجود. فاذا كانت الحركة شاملة والتغير شاملا، فلايمكن أن تحدث الحركة، أو التغير إلا انتقالا من سابق محدد (= علة أو مجموعة علل محددة) إلى لاحق محدد (= معلولا محددا أو مجموعة معلولات محددة) فى علاقة محددة، وذلك بطريقة ثابتة أى متماثلة تعبر عن ثبات التحديدات والهويات التى تدخل فى موضوع النظر.

وأى تشكيك فى ثبات التحديدات أو الهويات، إنما يعنى القول بإمكان تحول وجود سابق إلى لاوجود لاحق، أو العكس بالعكس. وهذا تناقض ذاتى تام مباشر، يمثل استحالة منطقية شكلية. فالقول بأن الوجود لايفنى ولايستحدث، أو أن تغير الهويات يحدث بناءً على تساوى الهويات السابقة مع الهويات اللاحقة (= مبدأ العلية التامة)، إنما هو تحصيل حاصل منطقى، يعنى أن الوجود وجود واللاوجود لاوجود. وتحول الموجود الجزئى إلى عدم نسبى، يعنى تحوله إلى موجود جزئى آخر يساويه من منظور معين، والعكس بالعكس. وتحول التحددات أو الهويات السابقة (= العلة التامة) إلى تحددات أو هويات لاحقة (=معلول)، يعنى التحول من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر فى معادلات التساوى وفق مبادئ الهوية.

ومن ناحية أخرى، فان أى موقف تشكيك فى مبدأ الحتمية الشاملة، إنما يمثل منطقيا تأكيداً أو إثباتا لهذا المبدأ بتحصيل الحاصل، لأن مثل هذا الموقف لايمكن أن يتحدد ويتحقق فيزيائيا بالصوت أو على الورق، أو حتى فسيولوجيا فى الذهن، إلا على أساس ثبات التحددات والهويات التى يتكون منها، أى على أساس الحتمية الشاملة.

(٩)- مبدأ الملاء الشامل. وهذا يعنى أن أى فراغ لايمكن أن يكون نسبيا، لأن الفراغ المطلق لاوجود، واللاوجود لايمكن منطقيا بتحصيل الحاصل أن يوجد، أى أنه اسم بدون مسمى واقعى. ومن الناحية الفيزيائية، فهذا يعنى أنه تحت كل وجود وجود

أدنى/أصغر منه فيزيائيا إلى مالا نهاية، وفوق كل وجود وجود أعلى أو أكبر منه فيزيائيا إلى مالا نهاية. ولهذا، فمن الجهالة أو السفسطة أن يتحدث العلماء البرجماتيون واللاعقليون وأبواقهم من الصحفيين والاعلاميين الأكثر جهالة وسفسطة، عن أبعاد "الكون" المحيط بنا أو عن المرحلة الزمنية لتطوره، باعتباره الكون "الكلى" أو المطلق!! ومن الجهالة والسفسطة أن يتحدث العلماء واللاعقليون وأبواقهم الأكثر جهالة وسفسطة، عن أحد المكونات الصغرى التحت ذرية باعتباره هو "الأصغر" بشكل مطلق، أى "اللانهائى الأصغر" المزعوم – مما يعنى منطقيا : "آخر متناهي لامتناهي"!!

(١٠)- مبدأ الأساس أو المصدر الحركى الفيزيائي للوجود.

وهذا يعنى أنه فى مستويات الوجود التحت ذرى والتحت مادى الأدنى من ذلك، تكون كل الموجودات أو المكونات عبارة عن حركات بدون متحركات، أى حركات متحركة أو تيارات حركية أو حركات تيارية، أى نبضات حركية ومركبات من نبضات حركية. ومن ذلك، نجد أن الأساس أو المصدر الحركى الأدنى لكل أنواع الوجود، هو نسيج واحد، يتكون من نبضات أو رذاذات حركية.

(١١)- مبدأ الصيرورة الانبثاقية لهذا المصدر الحركى الفيزيائى للوجود. وهذا المبدأ يعنى أن تحددات الوجود التحت ذرى تنبثق أو تكتسب الوجود النسبى القابل للرصد المادى، بطريقة التدفق السحاحى من مستوى الوجود التحت مادى، الذى هو مستوى العدم النسبى الأدنى. فالمكونات التحت ذرية تنبثق سحاحيا من العدم النسبى التحت مادى إلى الوجود التحت ذرى، ثم تتلاشى من وجودها التحت ذرى إلى العدم النسبى التحت مادى، فى انسياب متصل ومستمر بين العدم والوجود، بطريقة انبثاق دفقة الماء أو الافراز من مصدر غير محدد إلي مصب محدد تئوب فيه، حيث يتحدد وجودها بالتجمع والانفصال المغاير (= اللاامتماثل) عما حولها، ثم يتلاشى وجودها نسبيا بالتبدد والاتصال المماثل مع ماحولها.

(١٢)- مبدأ أدنى تغير ممكن في تيار أو سيال الوجود. وهذا المبدأ يُعتبر تركيباً يجمع بين مبادئ التغير الشامل واللاتماثل الشامل والحتمية الشاملة (أى شمول الثبات النسبى والتماثل النسبى). ذلك أنه إذا كان التغير مطلقا واللاتماثل مطلقا، فمعنى ذلك أن : أىّ ثبات نسبى يجب أن يحتوى على تغير يكون أقل من أن ينفى هذا الثبات،

أى أقل من أن يتحدد كتغيير للثبات (لأن الثبات يعنى استمرار الهوية)؛ وأن : أىّ تماثل نسبى يجب أن يحتوى على لاتماثل يكون أقل من أن ينفى هذا التماثل، أى أقل من أن يتحدد كانعدام للتماثل (لأن التماثل يعنى تساوى الهوية). وهذا التغير الأدنى المستمر استمرارا لانهائيا شاملا، هو الذى تتراكم منه انبثاقات الوجود أو تبددات العدم، وهو الذى تكونت منه لوحات الطبيعة الجامدة والطبيعة الحية، وهو الذى تكونت وتتكون منه جداول "تطور" مركبات عناصر أو ذرات المادة (التى نجدها فى جدول مندليف مثلا)، على غرار جداول تطور الأنواع الحية التى اكتشفها لامارك وداروين. وهو الذى تكونت وتتكون منه ظواهر الانتظام والسيمترية فى التغيرات التلقائية فى الطبيعة. الخ، الخ. وهو الذى يفسر لنا المبدأ القديم القائل : "الطبيعة لاتقفز"؛ كما يفسر لنا أن استمرار حتمية التغير من خلال حتمية الثبات إنما يتحقق بواسطة تراكم التأثيرات غير المحددة (= التأثيرات المادية الأقل من أن تعتبر هويات فى سياقات التغيير، أو التأثيرات التحت مادية الأقل من أن تصل إلى مستويات الوجود المادى)، بحيث تتحول التأثيرات المتراكمة إلى موجودات قابلة للتحديد كهويات.

ولاحظ أن الفرق بين هذا المبدأ والمبدأ السادس، يتمثل فى أن التراكم هنا يتعلق بتأثيرات أصغر من أن تدخل فى مجال أو سياق التحديد، ولايتعلق بدرجات تخضع للتحديد الكمى.

(١٣)- مبدأ الغائية التلقائية فى بعض نظم الطبيعة المادية.

وهذا يعنى أن بعض تركيبات الظواهر فى الطبيعة المادية (= الجامدة أو الحية غير العاقلة)، تتكون نتيجة شروط أولية معينة تمر فى مراحل من التطور التدريجى، بطريقة تؤدى إلى التخصص فى أجزائها والتكامل أو الانسجام فى علاقات وتركيبة هذه الأجزاء، ومن ثم تصل إلى قيام كل جزء منها بوظيفة متخصصة، بحيث يحقق المجموع تكاملا أو توازنا موحدا بين الأجزاء. من ذلك مثلا، الشروط الجغرافية والمناخية التى تؤدى من خلال التطور إلى تكوين مجرى نهر معين يتجه من منبع إلى مصب، بحيث يؤدى هذا التكوين بعد ذلك دور تنظيم وتوجيه حركة المياه المتدفعة فى منابعه. وعلى غرار ذلك، تكوين وتخصص ثدى الأنثى، أو ضرع الحيوانات المخصصة للحلب، أو منقار الطيور الجارحة ومناقير الأنواع الأخرى من الطيور، الخ.

وفى هذا، يجب أن نتجنب المغالطات والمدسوسات اللاعقلية التى تُحقن كالمعتاد فى مختلف المبادئ والتصورات العقلانية، لتسميمها وتخليطها أو تحوير اتجاهها. فأولا، ليس المقصود

طبعا بالغائية العقلانية فى الطبيعة المادية أنها غائية روحانية أو حيويةhylozoistic (!!)، أى ليست غائية تتخيل أن تركيبة النظام الطبيعى المادى المتكامل تعتمد على عنصر غير مادى! بل إن الحياة العضوية نفسها ظاهرة مادية، تحققت نتيجة غائية متطورة من النوع المذكور، ولكن على أساس مستويات نوعية متصاعدة من الوجود الفيزيائى. وثانيا، ليس المقصودأنها غائية استهداف مسبق، أى ليست غائية أغراض أو أهداف ناتجة عن ترتيب مسبق predestination (سواء كان ذلك من أعلى أو من أى مصدر مفترض لاعقليا). وثالثا، أن الغائية المقصودة هنا لا تتعارض مع ولاتنفى المصادفات الطبيعية – سواء فى النظم المتكاملة الأجزاء أو فى الموجودات الأخرى.

وإنما المقصود بالغاية هنا (fin/end) هو مايسمى فى الفلسفة القديمة تليوسيس / التمام (وليس الكمال كما ترجمها العرب) أو إنتلخيا / تمام الوجود – بمعنى وصول الموجود إلى درجة التكامل المستقر نسبيا. وهذا يعنى – بوضوح أكثر – أن هذه الغائية توجد فى "النهاية" لا فى "البداية"! كل مافى الأمر أن هذا المعلول الغائى اللاحق، ينتج عن توفر واجتماع علل وشروط معينة، وأن هذه العلل والشروط تنتظم فى تركيبة مترابطة تتثبت وتتطور وتتكامل خلال فترة كافية، بحيث يؤدى ذلك إلى ظهور نوع من التوجه التكاملى integrative orientation تلعب فيه "الخاتمة" المعلولة دور العلة الارتجاعية (بطريقة تكاد تشبه أحيانا التحكم الذاتى السيبرنطيقى أو التأثير الارتجاعى feed - back).

ولهذا، أفضل أن أترجم الغائية هنا بكلمة finality بدلا من كلمة teleology، للتعبير عن أن هذا التأثير العلى الارتجاعى تأثير لاحق أو متأخر وليس تأثيرا استهدافيا مسبقا pur-poseful. وسبب هذا التحفظ، ماطرأ من تخليطات وتشويهات على كلمة تليولوجيامنذ العصور القديمة. ورغم ذلك، فيجب ألا ننسى أن كلمة teleology مشتقة من أصل الكلمتين اليونانيتين المذكورتين (تليوسيس وإنتلخيا[1])، وأن كلمة "إنتلخيا" قريبة إلى المعنى المقصود هنا، لأنها كانت تعنى عند الأرسطيين : الاستكمال الذاتى للموجود أو تمام تحققه.

---

(١) من حيث المعانى الأصلية، لاحظ أن الجذر اليونانى تيلوس، يعنى النهاية أو الآخر، ويعنى الموت، ومن ثم يمكن أن يعبر عن الآجلة أوالآخرة فى مقابل العاجلة أو الحاضر المباشر. أما الجذر اليونانى اللاتينى تيلى/ تيلوم، فيعنى المقذوف أو المرسل من بعيد أو البعيد عموما (مثلا تيليجراف). ويشتق منه أيضا معنى الرصد من البُعد أو موقع الناضورجى.

(١٤)- **مبدأ علاقاتية - بدلا من نسبية - المكان والزمان** (أى relationlity بدلا من relativity). وهذا المبدأ لايعنى فقط أن وصف المكان والزمان بالنسبية هو وصف عقيم فلسفيا فى هذا المجال، لأن كل تحديد يكون بالضرورة المنطقية جزئيا ونسبيا (حيث أن صفة "شامل" مثل صفة "مطلق" تعتبر بالنسبة للوجود اللانهائى صفة انتفائية بحتة لاتثبت أى نقيض محدد). لكن المقصود أيضا وأساسا أن المكان والزمان هما نوعان من "العلاقات" وليسا نوعين من الهويات أوالكيانات أو المكونات. أما الخلط بين "العلاقات" المكانية والزمانية وبين "المكونات" المكانية أو الزمانية، أى مثلا الخلط بين التصور الفلسفى للمكان وبين تحديد الوجود فى مكان معين (وهذا يعنى فى الحقيقة تحديد حجم معين من الملاء)، أو مثلا الخلط بين التصور الفلسفى للمكان وبين تحديد عملية الحركة فى ذلك المكان، فهذا خلط مغالط، يشبه الخلط بين تحديد "المسافة" الهندسية (= المستقيمة) بين موقعين، وبين تحديد طريق معين بين هذين الموقعين، أو وقائع رحلة معينة فى ذلك الطريق!

وبهذه النظرة العقلانية، يمكن إلغاء التخريفات والمغالطات التى يرددها علماء الفيزياء البرجماتيون عما يسمى انحناء المكان أو تعدد أبعاد المكان أو تمدد وانكماش الزمان أو مايسمى المكان الزمانى، أو ماإلى ذلك من صياغات فيزيائية رياضية يمكن استخدامها فى حل بعض المعادلات، لكنها لاتعبر عن تحديدات أو تصورات فلسفية علمية صحيحة عن المكان والزمان، ومن ثم فهى تغلق ولاتفتح الباب أمام المزيد من الاكتشافات فى فهم معالم الظواهر الكونية الكبرى/ الماكرو والظواهر التحت ذرية / الميكرو (وخصوصا من زاوية مبدأ الملاء الشامل والمبدأين العاشر والحادى عشر التاليين له).

(١٥)- **مبدأ الالتزام الشامل بمنطق الهويات** فى أىّ تحديد أو تعبير مفيد يقبل التحقيق المنطقى. وهذا موضوع أوضحته فى الفصول السابقة.

(١٦)- **أهم مبدأ فلسفى عقلانى فى مجال الأخلاق، هو مايمكن تسميته:مبدأ "المثلية الأخلاقية" أو "الشعور بالمثلية الانسانية" أو "التمثّل الذاتى للآخرين"**. وهذا المبدأ العقلانى الأول فى الأخلاق، يمكن أن تصوره الحكم أو الأمثال الفلوكلورية التالية : "عامل الناس بمثل ماتحب أن يعاملوك به". و"حب للناس ماتحب لنفسك، واكره الناس ماتكره لنفسك". و"الجزاء من جنس العمل". و"من يعمل خيرا يجب أن يلقى خيرا، ومن يعمل شرا يجب أن يلقى شرا". الخ.

وكما أوضحت فى كتابات سابقة، فالقيمة الفلسفية المنهجية لهذا المبدأ، أنه حلقة الوصل بين ميكانيزمات "الذهن أو العقل الراقى السليم"، وبين قواعد وقوانين "الأخلاق". فميكانيزمات الاحساس بالمثلية مع الآخرين، لايبدأ فى الظهور أصلا فى تطور الأنواع الحية إلا عند وصول الذهن إلى درجة كافية من الارتقاء النسبى، نجد حدها الأدنى فى القردة المتطورة. فالقرد المتطور القادر على التقليد، هو أول نوع حيوانى فى سلم التطور يحس بالرعب إذا ذُبح أمامه كائن حىّ آخر. (وهذا هو الدرس الأول فى تعليم القردة فى القردخانات بذبح الكلاب أو الأرانب أمامها!).

وعند الانسان ذى الذهن السليم، نجد أنه كلما تحقق له الارتقاء العقلى ووصل إلى درجات التأمل الذاتى أو النظر الارتجاعى (الذى يسمى فى اللغات الأوروبية التفكر الانعكاسى re-flection / reflexion)، كلما زاد شعوره بالمثلية الانسانية وتمسكه بالقواعد والقوانين الأخلاقية التى تنطبق عليه كما تنطبق على غيره. وهذا التأمل الذاتى، هو أرقى حلقات "الوعى الذاتى" self-consciousness. وهو لايتوفر طبعا فى الذهن الحيوانى، ولافى الذهن البشرى المريض والمشقوق المنفصم – أى المقسّم تحجيزيا.

ومن هنا، فان الميكانيزم المذكور الذى يعبر عن الارتقاء الذهنى وعن العقل السليم الراقى فى "المستوى النوعى للحقائق الذهنية"، يعتبر من هذا الواقع الموضوعى نفسه قاعدة نموذجية ارتقائية سليمة فى "المستوى النوعى لحقائق الأخلاق"، أى فى مستوى السلوك البشرى الأمثل الذى يجب أن يكون. وعلى أساس تلك القاعدة وانطلاقا منها، تتسلسل المبادئ العقلانية الأخرى فى الأخلاق. فأساس الالتزام الأخلاقى وأساس القيم الأخلاقية، هو الشعور بالتألم لما يؤلم الآخرين إيلاما ظالما أى غير مستحق، والشعور بالرضا أو السكينة لما يرضى الآخرين إرضاءً عادلا أى مستحقا – بالمعنى العقلانى طبعا لهذه التحديدات الانسانية. وهذا يوضح لنا مدى ارتباط الأخلاق الارتقائية والقيم الحقيقية للعدالة والحقانية والتعاطف الانسانى الصحيح، بدرجة الارتقاء العقلى الفكرى، أى بدرجة العقلانية.

البند الثانى - موقف رفض العقلانية عند ماركس واللاهوتيين وأعداء الفلسفة

من المعروف أن اللاهوتيين والسفسطائيين وغيرهم من أعداء الفلسفة، يرفضون العقلانية الحقيقية بتبريرات متنوعة، تختلف باختلاف زوايا ونوعيات مغالطاتهم. فاللاهوتيون يرون أن العوالم التى فوق العقل أو وراء العقل، أعلى وأكبر وأخطر من عالم الأشياء الدنيوية التافهة التى يتعامل معها العقل البشرى، والتى تخضع تماما لسلطان مافوق العقل أو ماوراء العقل! ولهذا يعتبرون العقل البشرى مجرد حذاء يخوض به الانسان المنكود أو المنكوس فى بعض مخاوض الحياة المعيشية اليومية، أو مجرد أداة بيولوجية تشبه الأدوات التى يسعى بها النمل أو الذباب إلى بقايا الفتات المتساقط من أفواه وأصابع الآكلين والشاربين الكبار! وكما رأينا، نجد أنه حتى اللاهوتيين الذين يقتبسون ويركبون كلمة "العقلانية" للتضليل والترويج الاستهلاكى، إنما يُخضعون معناها أيضا لشروط الاطار اللاهوتى الروحانى اللاعقلى الذى يعلنه صراحة زملاؤهم المتزمتون - بغض النظر عن أى اختلافات نسبية فى درجة اتساع ذلك الاطار.

أما السفسطائيون العدميون عموما nihilists (أى الذين يستخدمون السفسطة فى إنكار كل القيم والمبادئ)، أو أيضا السفسطائيون العدميون الكلبيون cynicists (بالمعنى الأصلى للكلمة الذى يعبر عن العض والهبش اللاعقلى وليس فقط عن الانكار الشامل!)، فهؤلاء يعادون العقل عداءً واضحا، ولكن يقتصر على الهدم السلبى للمبادئ العقلانية، بدون تقديم بديل لاعقلى مزعوم يحل محلها. ومعنى ذلك أنهم يهدمون العقل ثم يتركون الأنقاض والأرض الخراب لمن يستطيع أن يقيم عليها أوكاره وسراديبه الخرافية.

وهذا مااعترف به أبو حامد الغزالى نفسه (القرن ٥ هـ / ١١ م) فى عبارة منقولة عنهم، كان يكررها فى معظم فصول كتابه "تهافت الفلاسفة" قائلا :"نحن لم نلتزم إلا تكدير مذهب الفلاسفة (= العقلانية) ولم نتطرق للذب عن مذهب معين". ثم يضيف مشيرا إلي مذهبه الصوفى اللاعقلى الذى دعا إليه فى كتاب "الاحياء" وغيره فيقول :"وسنصنّف كتابا بعد الفراغ

من هذا نعتني فيه بالاثبات كما اعتنينا في هذا الكتاب بالهدم"!!

فهدم مذهب العقل والعقلانية هو إذن هدف في حد ذاته وليس مجرد موقف سلبي، لأن البديل الاضطراري الذي تفرضه الميكانيزمات الذهنية عند ضياع الثقة بدرجة أو بأخرى في العقل والعقلانية، هو الانتقال بدرجة موازية إلى التعلق بالخرافات والأهواء اللاعقلية والاستسلام لأهواء القطيع وموروثات القطيع ونزوات الحياة وضغوط الغرائز الحيوانية، الخ.

وقد كنا في شبابنا نتصور أن الماركسية عقلانية مادية علمية، ومن ثم تعتبر عقلانية تامة، بل وقمة العقلانية! ثم اتضح لنا أن ماركس كتلميذ لهيجل وكمنظّر صاغ معظم مذهبه مثل شبكة العنكبوت في لندن (التي أقام فيها ٣٤ عاما!) تحت سيطرة المراكز الانجليزية العليا لصناعة اللاعقل الدهمائي الشامل، كان يرفض العقلانية ويضرب بمعاوله البروليتارية في قواعدها ومبادئها!

ذلك أن هيجل – الذي اقتبس ماركس خلاصة فلسفته وكان يفاخر بذلك – درس الفلسفة في معهد لاهوت، وجمع مع اللاهوت بين تراث السفسطات الصوفية التخريفية الصريحة عند جاكوب بوهمي ويوهان هامان وغيرهما من ناحية، والسفسطات اللاعقلية المنافقة المموهة التي بدأها في ... صر الحديث دافيد هيوم في اتجاه ركوب العلمانية أوالحياد الفلسفي المزعوم من ناحية أخرى! وكانت النتيجة أن هيجل – رغم خضوعه الرسمي المعروف للسلطات الألمانية التي كانت متشددة في العداء الديني للتنوير والعقلانية، ورغم حملاته الصريحة ضد فلاسفة التنوير والعقلانية في القرن الثامن عشر الذي عاش جزءا منه – لم يعلن صراحة أنه يعادي أو يرفض العقل، بل كان في الكثير من هجماته على "العقلانية" يزعم أنه يهاجمها باسم "العقل"!! وكان موقفه في ذلك تكراراً لموقف بعض اللاهوتيين الذين يتصورون أنه يوجد " عقل" بشري و"عقل" آخر مطلق غير بشري، يجعلونه تبريراً لهدم وإنكار العقل المنطقي العلمي الذي لايمكن إلا أن يكون بشريا. فتخريفات هيجل عما يسميه "الفكرة المطلقة" ليس لها أي معنى منطقي!

ثم إن هذا التلاعب السفسطائي اللاهوتي، نجده أيضا في تقسيم هيجل للعقل إلي نوعين أو مستويين :

١– العقل الأعلى الذي يسميه vernunft، وهو في رأيه العقل الحقيقي الذي يقول إنه عقل "صوفي"(!!) يأخذ بمبادئ الجمع بين النقائض والتأمل اللامنطقي للهويات المخلوطة!!

٢- العقل الأدنى الذى يسميه verstand، والذى يصفه أحيانا بأنه "عقل متعقل / استدلالى" raison raisonnante و"عقل مجرد". وهذا العقل المنطقى، هو فى رأيه "العقل العادى" المنخفض أو "الذهن" أو "الفهم"، لأنه يتعلق بالمنطق وبمبادئ الهوية وعدم التناقض!!

وبناء على هذا التقسيم المعكوس، يصوغ هيجل من ذلك "العقل" اللاعقلى الصوفى الأول أو الأعلى، مذهباً يسمونه "الفوق عقلانية" Su pra-rationalisme!! وهذا التخليط السفسطائى يعنى بصراحة : العقلانية اللاعقلية، أو اللاعقلانية المموهة!!

على غرار ذلك الاتجاه، هاجم ماركس وإنجلز مايسميانه "الفلسفة التأملية"! ورغم أنهما أدرجا فلسفة هيجل تحت هذا الاسم - الذى شوهه ونشره هيجل أصلا - إلا أنهما لم يقصراه طبعا على هيجل وأمثاله من الروحانيين اللاعقليين، بل أطلقاه أيضا وأساسا على الفلسفة العقلانية باعتبارها أشد الفلسفات تركيزا على التأمل الفكرى المنطقى!! ولهذا، هاجما مايسميانه "الفكر التأملى" عموما، بل وهاجما بشكل خاص كلمة "إيديولوجية" - لأنها تتعلق بالتكوين الفكرى والاعتقاد الفكرى للعقل!! وبالاضافة إلى استمرارهما مثل أستاذهما هيجل فى الهجوم الشامل على حركة العقلانية والتنوير الفرنسية والأوروبية التى اعتبراها مجرد مرحلة برجوازية مؤقتة (فى الطريق إلى التجهيل البروليتارى!!)، فقد ركزا هجومهما التجهيلى السطحى على اتجاه "مدرسة الايديولوجيين" و"علم الايديولوجية العقلانية" ideolog-ie rationelle (كوندياك ودى تراسى وكابانى، الخ)، لأنهم كانوا يطالبون بوضع نظام للتفكير الذهنى ونظام للتعليم والتثقيف الاجتماعى يجعل فرنسا" مجتمعا عقلانيا علميا"، أى لأنهم كانوا يطالبون بتصحيح أفكار الناس من أجل تصحيح ظروفهم. وباسم المادية الطبقية المزعومة، أنكر ماركس وإنجلز وجود عقل موضوعى مشترك بين البشر، وقالا مثل هيجل بوجود نوعين من العقل - لم يقولا إن أحدهما عقل بشرى منطقى والآخر عقل غير بشرى، أو عقل بشرى صوفى، ولكن أطلقا على أحدهما اسم "العقل البرجوازى"، وعلى الآخر اسم "العقل البروليتارى"!! وبنفس الطريقة، قالا بنوعين من المنطق : أحدهما باسم المنطق الصورى (= المنطق الأرسطى البرجوازى الذى يرفض التناقض!)، والآخر باسم المنطق الجدلى

البروليتارى (الذى يجمع بين النقيضين). وبذلك وضعا باسم الثورة وباسم المادية لافتات تمويهية مضللة تطمس الثنائيات الصحيحة العقل واللاعقل، والمنطق واللامنطق، والصواب والخطأ، والتنوير والتجهيل، والفلسفة والسفسطة، الخ[1].

ورغم أن الأجيال الماركسية التالية فى مختلف المراكز الفلسفية المتخصصة حاولت أن تخفف من هذه العدمية اللاعقلية (كالمعتاد فى عمليات التحديث والتجميل التى يقوم بها المستنيرون فى أى معتقدات غليظة)، إلا أن سموم ماركس وإنجلز ضد العقل والعقلانية والمنطق والفلسفة والتنوير وغيرها، استمرت باقية بدرجة أو بأخرى حتى انطلاق شرارة الثورة الفكرية العقلانية الكبرى التى أرتبطت فى الاتحاد السوفيتى باسم البريسترويكا. ويكفى أن

(١) بعد كتابة هذه السطور، أثارانتباهى فى موضوع موقف الماركسية من العقلانية والمنطق، ملاحظة سفسطائية قالها شخص مشهور لكن لاعلاقة له بالفكر والفلسفة، هو إدوارد شيفرنادزه : الذى كان وزيرا ماركسيا للداخلية ثم جعله التآمرك وزيرا ليبراليا للخارجية فى هذه المرحلة التمويهية المؤقتة! صحيح أنها مرحلة تستلزم استخدام بعض المسئولين السذّج (الصادقين فى سذاجتهم!) لتهدئة وطمأنة الوحش الأمريكى الرأسمالى العالمى أثناء عملية تقليم أنيابه ومخالبه قبل موعد ذبحه، إلا أن هذه السذاجة المعجونة بالسفسطة الماركسية، أصابت للأسف الفلسفة والمنطق أيضا! وهذا مايهمنا هنا.

ففى الكتاب الذى أصدره شيفرنادزه أخيرا ونشرت وكالات الأنباء صفحات منه، تحدّث عن التعارض المزعوم بين "المنطق والواقع". فقال مكررا أكثر من مرة إن "المنطق كان يستدعى كذا وكذا"، بينما "الواقع كان يستدعى كذا"، وإنه رأى أن يستخدم مع الأمريكان مقتضيات الواقع وأن يهدر مقتضيات المنطق لأن "الواقع قبل المنطق"!! (أهرام ٩١/٦/٩). أما لماذا لم يحفظ له "الواقع" اللامنطقى منصبه ضد "المنطق" الواقعى، فهذا أمر لم يستطيع بعد أن يفهمه!

وإن دلت السفسطة المذكورة على شئ، فانما تدل على أن سموم العداء الماركسى للعقلانية وللمنطق تغلغلت فى نخاع الثقافة والفكر فى الاتحاد السوفيتى، بحيث يحتاج السوفييت إلى عدة عقود للتحرر والتخلص من تلك السموم! وخلال تلك العقود، لامناص من أن يقوم المثقفون العقلانيون فى الغرب بدور فكرى تنويرى أكبر مما يستطيع أن يقوم به مثقفو الشرق السوفيتى – رغم كل المضاعفات العدائية المنتظرة بين الحكومات والأجهزة على الجانبين.

ولنتأمل أيضا كيف أصبح حالهم هكذا بعد قرن واحد من التخليط الماركسى، وكيف يكون إذن حال الشرق الفرعونى الذى غرق فى التعبيد الغيبى اللاعقلى المطلق منذ خمسة آلاف عام!!

نلقى هنا نظرة سريعة على ماورد عن المواد المذكورة مثلا فى القاموس الفلسفى السوفييتى Dictionary of philosophy الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٧.

ففى كلمة reason/ عقل، ينسب القاموس اسم "المرحلة" العقلية من التفكير إلى "الفلسفة السابقة على ماركس". وفى محاولة لتشويه معنى "العقل"، يذكر الكثير من المغالطات والسفسطات الروحانية التى ينسبها اللاهوتيون أوالفلاسفة المنافقون للعقل، مؤكدا تأييده لموقف هيجل الذى يعتبر "العقل" قاصرا وعاجزا عن تخطى منطق الهويات، وأن "المعرفة" المزعومة يجب أن تصل إلى الجمع بين النقائض!! ولهذا، يؤكد القاموس تقدير الماركسية الفائق لهذه النظرة الهيجلية الجدلية الصحيحة ضد العقل الميتافيزيقى!!

وتحت كلمة rationalism / عقلانية، يهتم القاموس بالتعريفات المذهبية الجزئية لهذه الكلمة فى مدارس الفلسفة (مثلا باعتبارها عكس التجريبية الحسية empiricism !)، وفى اللاهوت (من حيث دور العقل فى الايمان الدينى!). ولهذا، يحشر فى زمرة العقلانيين المزعومين كانط وفخته وهيجل، الخ !! وحتى عندما يذكر "العقلانية" فى مقابل "اللاعقلانية"، يفسرها بأنها تعبر عن أولوية الطابع أو الدافع العقلى! وفى زعمه بأن العقلانية فى المعرفة تعنى عدم الاعتراف بأن التجربة الحسية هى الأصل، ينسى المبدأ العقلانى الفلسفى القديم الذى أورده أرسطو، والذى كان يكرره حتى بعض المفكرين المدرسيين فى العصور الوسطى باعتباره أبسط وأقدم تعريف للعقلانية الطبيعية : "لاشئ فى العقل، مالم يكن قبل ذلك فى الحس." Nihil est in intellectu quod non prius fuerit in sensu

أما تحت كلمة enlightenment / تنوير (وهى تعنى ببساطة استخدام العقلانية فى التعليم وفى التفسير والتبصير الثقافى العام)، فيقول القاموس إنها اتجاه "مثالى" لايدرك القوانين الاقتصادية الطبقية للمجتمع، وإن التنوير يخطئ فى أنه يخاطب كل الطبقات، وإن البقايا المعاصرة للتنوير تنتشر عند المثقفين غير الماركسيين!

وفى آراء ماركس وأنجلز (وخصوصا الثانى الذى يعالج هذه المسائل الفكرية الدقيقة بسطحية غليظة نتيجة نقص ثقافته وفشله فى استكمال تعليمه الجامعى أصلا)، نجد كلمات مثيرة للاستفزاز حقا فى هذا المجال. وقد تناولت بعضها فى مقال "دفاع عن الفلسفة والتخصص الفكرى" (وهو آخر ملحقات كتاب "اشتراكية الاستثمارات الخاصة"). لكن يمكن أن أشير هنا إلى بعض الأمثلة، للتوضيح السريع.

من ذلك مثلا، قول إنجلز إن «الفلسفة والدين»، يعتبران معا من أنواع التهويم الايديولوجي (= الفكرى) المنسلخ عن الواقع لانفصاله عن التفسير الاقتصادى!! وقوله إن أى «مبادئ فكرية» يتصور الفيلسوف أو العالم الاجتماعى أنها تحديدات عقلانية موضوعية للواقع، ليست فى الحقيقة إلا «أفعالا منعكسة اقتصادية» (أى ردود فعل معيشية مباشرة!!)، وإن «الأفكار الاجتماعية» و«عملية التفكير الايديولوجى التى يقوم بها من يسمى المفكر [!!]، ليست إلا إفرازات ذهنية تفرضها «الوقائع الاقتصادية» فى ذهن «من يسمى المفكر» الذى يجعله «الوعى الزائف» أو الخداع الذاتى يتصور أنها نتيجة العقل والمنطق!!(١)

والحقيقة أن هذا الانكار لموضوعية العقل والمنطق فى «العلوم الاجتماعية»، إنما يعنى بالضرورة إنكار موضوعية العقل والمنطق فى «العلوم الطبيعية» أيضا - رغم محاولات الأجيال التالية من الماركسيين اختراع تمييز مصطنع بين النوعين لتبرير موضوعية علوم الطبيعة فقط! ذلك أن العقل البشرى هو العقل البشرى، والمنطق البشرى هو المنطق البشرى، والعلم البشرى هو العلم البشرى، فى أى مجال كان، ومهما كانت نوعية منهج البحث والتحقيق الذى يستخدم فى الوصول إلى الصواب فى هذا الفرع أو ذاك من فروع البحث والعلم. فاذا كان العقل العلمى البشرى لايستطيع أن يفكر بقوانين منطقية موضوعية فى مجال الواقع الاجتماعى وإنما يعمل فقط بطريقة رد الفعل الاقتصادى الذى يشبه رد الفعل الفسيولوجى الحيوانى، فكيف يستطيع ذلك العقل العلمى البشرى أن يفكر بقوانين منطقية موضوعية فى مجال الواقع الفيزيائى - بدون أن يقال أيضا (كما يزعم السفسطائيون البرجماتيون) إنه يعمل بطريقة رد الفعل البرجماتى للوصول إلى أى حلول عملية جزئية ناجحة مؤقتا للمشاكل الفيزيائية؟!! وإذا لم نعترف مبدئيا وفلسفيا بوجود العقل الموضوعى والمنطق الموضوعى والعلم الموضوعى وبوجود الحقيقة الموضوعية كثمرة لهذا العقل المنطقى العلمى، فكيف نستطيع أن نبرر الاعتراف بوجود حقيقة موضوعية فى هذا المجال دون ذلك؟!!

إن التقسيم التوفيقى فى العصور الوسطى للحقيقة إلى "حقيقتين" والعلوم إلى نوعين، كان أقل إهداراً للعقل والعقلانية من ذلك التقسيم الماركسى!! فهؤلاء الذين قالوا بوجود "حقيقة عقلية و"حقيقة" دينية، أو بوجود "علوم دنيوية" تسمى أيضا "العلوم العقلية" أو "العلوم

(١) انظر مثلا "المؤلفات المختارة" لماركس وإنجلز، الترجمة الانجليزية، طبعة موسكو ١٩٥٥ : المجلد الثانى، ص ص ٣٩٦ و ٤٩٤ - ٤٩٨.

الفلسفية"، وتتميز عن "العلوم الدينية" التى تسمى أيضا "شرعية" و"نقلية" و"مقدسة"، لم يصلوا على الأقل إلى إنكار موضوعية "الصواب" فى الأنواع الأولى، ولم يصلوا إلى اعتبارها علوما "ذاتية" خاصة بطبقة أو بأمّة أو بظروف اقتصادية اجتماعية مؤقتة، وإنما اكتفوا باعتبارها علوما من "الدرجة الثانية"، أى قابلة للاجتهاد والتصحيح المنطقى، وليست "علوما" منزّلة لايأتيها الباطل من بين يديها ولامن خلفها!

وهكذا نجد أن الماركسية أساءت إلى مبادئ العقل والعقلانية وإلى العلوم الفلسفية، أكثر مما أساءت إليها الفلسفات المدرسية فى العصور الوسطى!

البند الثالث – موضوع العلمانية (أ)
معنى العلمانية[1]

أصل الكلمة

العلمانية اتجاه واضح وبسيط ومتواضع. ومع ذلك، تراكمت عليه تخليطات وتجهيلات المتعصبين، بحيث اتخذ معانٍ غريبة ومختلفة. وأهم هذه المعانى التخليطية، اثنان لايتفقان! أما الأول، فيجعل العلمانية مرادفة للاتجاه اللادينى (من ذلك مثلا وصف النظام السوفييتى بأنه نظام علمانى!). وأما الثانى، فينسب العلمانية أيضا إلى نظم الحكم المدنية أو العسكرية التى تكون ملتزمة بالاتجاه الدينى التزاما واضحا لكن يختلف بدرجة أو بأخرى عن تصورات الدينيين المتطرفين. (من ذلك مثلا وصف النظام القائم فى مصر منذ الخمسينات بأنه نظام علمانى!). ولكى نبين أن العلمانية تتعارض مع الاتجاه اللادينى، بقدر تعارضها مع الاتجاه الدينى المدنى أو العسكرى الذى لايحكمه رجال الدين، نبدأ بالتعرف على أصل هذه الكلمة وعلى معانيها الصحيحة.

والكلمة فى العربية، هى مجرد ترجمة حديثة لكلمة Sécularisme أو Laïcisme . ولهذا يجب تحديد معنى أو معانى الكلمة من واقع اشتقاقاتها واستعمالاتها التاريخية فى البلاد الأوروبية، وليس من واقع اشتقاقاتها أو استعمالاتها فى العربية بدون أساس تاريخى عربى.

ومع ذلك، فلا مانع من أن نبدأ بالاشارة إلى أن المجمع اللغوى فى مصر، يقول إن كلمة "العلمانية" تقرأ بفتح العين لابكسرها، لأنها مشتقة من كلمة "العالم" لا من كلمة "العلم"! وهذا صحيح، من حيث الأصل الذى يعبر عن الدنيا أو الدنيوية فى مقابل الدين. ومن هذه الناحية، فقد كانت **الترجمة العربية غير موفقه، لأن كلمة "دنيوى" أكثر تعبيرا عن النقيض الذى يقابل كلمة "دينى"**. لكن واضح أن من اصطنعوا هذه الترجمة العربية،

(١) نشر هذا المقال – مع كثير من الأخطاء المطبعية والاسقاطات – فى مجلة منافقة محدودة القراء يصدرها حزب التجمع الغوغائى (اسمها "أدب ونقد" عدد فبراير ١٩٨٩ برقم ٤٤). وقد منعنى هؤلاء من النشر فى مجلتهم بعد ذلك المقال الذى كان الرابع لديهم.

حاولوا أن يدمجوا فيها معنى العلم، لأن العلمانية ارتبطت فى أوروبا بظهور العلم التجريبى الحديث منفصلا عن اللاهوت. ومن هنا فان *"الخطأ"* الشائع فى نطق الكلمة فى العربية، كان يعبر عن موقف مقصود يحاول أن يجمع بين الدنيا والعلم الوضعى، فى مقابل الدين واللاهوت.

أما فى اللغات الأوروبية - وهى الأهم لأنها هى التى وضعت الكلمة أصلا - فان الكلمة الأولى sécularisme ترجع إلى كلمة secular / séculier المشتقة من الكلمة اللاتينى saccu-lum أى القرن. وكلمة القرن هذه (التى اشتقت منها أيضا كلمة séculaire)، تشبه كلمة «القرون الأولى» فى التراث العربى القديم، أى تعبر عن العصور القديمة أو النظام القديم السابق على الأديان. لكنهم يفسرونها بأنها تعبر عن الزمنى المؤقت أى الدنيوى، فى مقابل الأبدى أو الدائم أى الدينى أو الإلهى. وهذا فى الحقيقة خلط يطمس أصل المعنى المعبر عن تاريخ "القرون الأولى" التى استمرت (خارج مصر الكهنوتية الفرعونية) حتى الألف الأول قبل الميلاد فى بعض البلاد، وحتى عصر الميلاد أحيانا. ذلك أن هذا التفسير يخلط بين المعنى التاريخى القديم، وبين وصف الأديان للانسان بأنه *"الزائل"* أو *"الفانى"*، فى مقابل وصف الله بأنه "الدائم" " Eternel".

ومن هنا يستعملون أحيانا بدلا من Séculaire كلمة temporel زمنى بمعنى mundane / du monde دنيوى (worldly) فى مقابل كلمة دينى أو روحى. من ذلك مثلا قولهم المعروف : «للمسيحية سيفان : سيف روحى وسيف زمنى» - أى سيف الكنيسة وسيف الدولة. ومن ذلك تمييزهم السلطة الأعلى وهى السلطة الكنسية أى الدينية، والسلطة أوالذراع الدنيوية أوالعلمانية "المؤقتة" أى سلطة الدول التابعة للكنيسة. ولاحظ أن كلمة "العلمانية" فى مثل هذه التعبيرات، لا تعبر عن اتجاه أو نظام، ولكن تعبر عن صفة جزئية لأداة تخضع للنظام الدينى. ولهذا يكون الأصح ترجمتها بكلمة «دنيوية». وهذا يتضح أكثر فى *استخدام* الكلمة فى تمييز الأشخاص العاديين Laïques، عن الأشخاص الكهنوتيين أو الكنسيين écclesiastiques. فالمسألة هنا لاتتعلق باتجاه أو بنظام، ولكن بصفة جزئية تابعة (على غرار مانجده مثلا فى الفرق بين كلمة "رأس مال" وكلمة "رأسمالية"، حيث رأس المال قد يكون عاما اشتراكيا، بعكس الرأسمالية!).

ثم إن هذا يتضح أكثر فى تقسيم طبقة الكهنة أو رجال الدين أنفسهم إلى نوعين :

١- الكهنة الذين لاينتمون إلى نظام الرهبانية ولكن يعيشون حياتهم الدنيوية العادية، ويسمون بالعربية المسيحية : الاكليروس العالمى (أى العلمانى أوالدنيوى) clergé séculier.
٢- الكهنة الذين يخضعون لنظام الرهبانية، ويسمون بالعربية المسيحية : الاكليروس القانونى (أى النظامى) clergé régulier. وهذه الصفة تعنى رهبانى أو دينى بالمعنى الخاص monas- tique, religieux.

أما الكلمة الثانية التى تعبر عن صفة العلمانية – وهى كلمة Laïque/ Laic– فمعناها الحرفى : "عامى"، أى شخص عادى من العامة (وهى مشتقة من الكلمة اليونانية لاوس أى شعب)، وذلك فى مقابل الكاهن أو الكنسى. وهى تشبه تقريبا معنى الدنيوى الساقط أو المدنس profane، فى مقابل معنى المقدس sacré!

من ذلك كله نجد، أن كلمة علمانى هى المقابل لكلمة دينى أو لاهوتى بتفرعاتهما المختلفة. ومنها اشتقوا اسم العلمانية، كاتجاه أو نظام دنيوى لايعارض ولايعادى الدين أو اللاهوت، لأن أصل الكلمة يعبر عن صفة كانت ولاتزال تستعمل فى تقسيمات النظام الدينى نفسه!

النظام العلمانى

العلمانية كاتجاه، تعنى إذن ببساطة عدم الاندراج فى النظام الدينى. وقد بدأت كنظام سياسى بعد القرن الثامن عشر فى فرنسا. وهى فى السياسة، تعنى انفصال الدولة عن الدين. وهذا يعنى فى أوروبا عدم تبعية الدولة للكنيسة، وعدم تبعية الكنيسة للدولة. أى باختصار، عدم تدخل الدولة فى الشئون الدينية، ومن ثم : عدم الالتزام دستوريا بدين رسمى، وعدم تدريس الدين فى المدارس الحكومية، وعدم الترويج للايمان الدينى حكوميا، وعدم الانفاق حكوميا على الشئون الدينية، الخ.

وكانت مقدمات أو بدايات الاتجاه العلمانى قد بدأت بعد تفاقم الصراع بين الملوك وبين السلطة الكنسية البابوية، خصوصا قبيل عصر النهضة، عندما زادت قدرات أجهزة الدولة المركزية بينما ضعفت قبضة الكنيسة وشبكاتها الاقطاعية على الدول والشعوب. ذلك أن الكنيسة كانت تحكم أوروبا وتفرض قراراتها "المقدسة" على الملوك والنبلاء والشعوب. ثم زاد استقلال الحكومات المركزية عن الكنيسة البابوية، رغم استمرار الشعارات الدينية الرسمية التى كانت الحكومات تبرر بها زيادة سيطرتها على الكنائس المحلية.

وبعد ظهور العلم الحديث المنفصل عن الدين وانتشار العقلانية، ثم بعد تضاعف النفور أو

العداء الديمقراطى ضد الكنيسة المركزية والمحلية وضد نفوذها وثرواتها وتدخلاتها، تفجر هذا النفور أو العداء بشكل خاص فى الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢. لكن بعد الثورة الفرنسية، ظهر حل وسط يحافظ عمليا على الدين، بدون أن يتخذ حكوميا سياسة المكافحة الصريحة ضد العقلانية واللادين والتحرر الفكرى. هذا الحل الوسط - الذى يفيد أيضا الكنائس المحلية من حيث يعفيها من سيطرة الدولة وتدخلاتها - هو العلمانية.

وهكذا نرى بوضوح أن العلمانية تختلف عن الاتجاه اللادينى، الذى يرفض الدين ويقوم رسميا بالترويج للأفكار العلمية والعقلانية اللادينية - رغم أن هذا الاتجاه اللادينى لايمنع المتدينين من ممارسة طقوسهم بدرجة أو بأخرى، ولايستطيع أن يفرض عليهم التخلى عن معتقداتهم. لكن الحقيقة أن الفرق بين العلمانية واللادين، لا يعنى مجرد الفرق بين موقف السلبية إزاء الدين وموقف الايجابية فى رفض الدين. ذلك أن السلبية هنا لاتعنى أكثر من سلبية الحكومات الرسمية فى مجتمعات تقوم على أساس المؤسسات الخاصة وغير الحكومية، وتتمتع فيها الكنائس بامكانيات تقليدية واسعة منذ مئات السنين، ويشكل المتدنيون فيها أغلبية السكان. فهذه السلبية تعنى إذن ببساطة عدم مشاركة الحكومة رسميا فى النشاطات الدينية التى تقوم بها الكنيسة والمؤسسات الأخرى، رغم أن كل أو معظم رجال هذه الحكومة - وخصوصا كبار المسئولين - يكونون من المتدينين الذين يشاركون بصفتهم الشخصية فى النشاطات الدينية!

ولهذا نجد أن المسيحية نشيطة ومتزايدة فى كل الدول العلمانية، وتمارس نشاطاتها الداخلية والخارجية دون تأثر بهذه العلمانية السلبية! وهذا واضح مثلا فى نشاط إرساليات المبشرين والرهبان الأوروبيين وفى المدارس الدينية الفرنسية التى تنتشر فى معظم بلاد العالم، وفى النشاط الثقافى والاعلامى الذي تقوم به المؤسسات الدينية فى تلك البلاد، وفى سيطرة الاتجاهات المسيحية أوالتأليهية حتى على أقسام الفلسفة فى جامعاتها، الخ! ويكفى للتعبير عن ذلك أن نعرف أن فرنسا - وهى أكثر وأقدم الدول الأوروبية علمانية - تعتبر رغم ذلك حامية الكاثوليكية فى العالم!! وفى بريطانيا، كانوا ولايزالون يمنعون جنائيا الاتجاهات اللادينية الصريحة حتى فى الجامعات[1]. أما فى الولايات المتحدة الأمريكية، فرغم أن دستورهم ينص

(١) نشرت الاهرام فى ٩١/٥/٢٥ مشروع دستور جديد مقترح لبريطانيا، من أهم مواده إلغاء الملكية وإلغاء القانون الانجليزى الذى يجعل التجديف والالحاد جريمة جنائية، حيث طالب المشروع بأن تعطى للفكر الالحادى حقوق مساوية لما يتمتع به الفكر الدينى!!

على عدم تدريس الدين فى المدارس، إلا أن السلطات كانت حتى الثلاثينات تمنع المدارس من تدريس النظريات العلمية التى يرفضها الدين!!

ومع ذلك، فلاشك أن الأخذ بنظام العلمانية فى بلاد الغرب ارتبط بمضمون ديمقراطى حقق فى كثير منها درجة كبيرة مما يسمى "حرية العقل"، أو مايسميه الشاعر الانجليزى جون ميلتون "الحرية الفلسفية". ذلك أنه أتاح فى بعض هذه البلاد حقوق التعبير عن الفكر الحر والفكر اللاديني غير الصريح خارج برامج التعليم، كما أنه أدى عمليا إلى خفض درجة التدين من حيث عدم "اعتماد" الدين رسميا. وهذا هو الفرق بين علمانية الغرب، والعلمانية التى أعلنها فى تركيا مثلا نظام كمال أتاتورك عام ١٩٢٢.

فعلمانية الغرب كانت أساسا نتيجة حركة ثقافية وسياسية واقتصادية ضد السلطة الكنسية، ثم تحولت إلي نظام سياسى ذى مضمون ديمقراطى. أما نظام كمال أتاتورك، فكان موجها ضد "الخلافة الاسلامية" (أى ضد مسئوليات الامبراطورية العثمانية)، وضد بعض الطرق الصوفية ذات النفوذ التى كانت تشارك فى السلطة. ولم يكن نظام أتاتورك يعبر بأى درجة عن اتجاه ضد رجال الدين الاسلامى. ولهذا اقتصرت علمانيته على بعض الاجراءات فى أعلى السلطة، ولم تنزل إلى صفوف الشعب، ولم تتخذ مضمونا ديمقراطيا، ولم ترتبط بحركة تحرر فكرى أو بموقف يرفض الاسلام. ومن ناحية أخرى، وصل تعسف أتاتورك إلى درجة فرض الأبجدية اللاتينية بدلا من الأبجدية العربية، لمنع الأجيال الجديدة من المثقفين من استرجاع وتأمل التراث العثمانى وخرافاته الدينية ذات الأهمية الكبيرة تاريخيا. وكانت النتيجة هى رجوع التعصب الدينى على المستوى الشعبى بعد فترة محدودة!

والعلمانية ليست مجرد شعار، حتى إذا "اعتُمد" رسميا. لكن العلمانية محصلة صراع فكرى ديمقراطى وبديل سلبى للاتجاه اللادينى. ومعنى ذلك أن العالم الاسلامى الذى لم يُسمح فيه بأى نشاط لادينى منذ العصور القديمة حتى اليوم، لايمكن أن يظهر فيه اتجاه علمانى حقا. ومن هنا، فمن الغريب أن نقرأ مثلا (انظر الأهرام ١٩٨٨/١١/١) عن اعتراض بعض الجماعات الاسلامية على فكرة "علمانية الدولة" التى نص عليها دستور منظمة التحرير الفلسطينية، وكأنها تعنى العلمانية بالمعنى المعروف فى الغرب! لكن الحقيقة أن كلمة

"العلمانية" تستعمل هنا – كما تستعمل أحيانا فى العالم الاسلامى – بمعنى يشبه ماكان يسمى فى الغرب منذ أواخر العصور الوسطى باسم "التسامح الديني" Tolerance.

وحتى التسامح الدينى، يمكن أن يُفهم فقط بمعنى اتجاه التسامح إزاء الأديان الأخرى (المسماة بالسماوية). لكنه يمكن أن يُفهم أيضا بمعنى آخر، هو اتجاه التسامح إزاء الاجتهادات والاختلافات الدينية المتحررة. والتسامح الدينى بهذا المعنى الثانى – أى اتجاه التسامح شبه العقلانى – بدأ فى غرب أوروبا منذ القرن السابع عشر، ثم ظهر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى بروسيا ثم فى روسيا القيصرية وغيرهما من الدول الأوروبية التى لم تشملها موجة العلمانية مبكرا، والتى تخلفت من ثم عن ركب دول غرب أوروبا التى سبقتها إلى التحرر الفكرى. أما فى العالم الإسلامى، فلم يظهر هذا النوع الثانى من التسامح إلا منذ القرن الماضى، بعد الغزوات الفرنسية الانجليزية. وانتهى مع بدء انحسار الثقافة الغربية فى ظل النظم العسكرية والدهمائية التى اكتسحت المنطقة.

المنهج العلمانى

إذا كان النظام العلمانى يعنى فى السياسة انفصال الدول عن الدين كبديل سلبى لاتجاه اللادين، فالعلمانية فى التفكير أو فى منهج البحث تعنى عدم الارتباط بالمسائل أو الشئون الدينية، كبديل جزئى للعقلانية الشاملة أو العلمية الشاملة أى اللادينية. وبهذا المعنى، لم تكن العلمانية تشكل مذهبا أو نظاما فكريا، ولكن مجرد موقف جزئى محدد فى مجالات التفكير أو العلم غير المرتبطة بالتخصصات الدينية، كالفلك والفيزياء، الخ. فهذه إذن مجرد صفة جزئية أو فرعية أشبه بصفة الكاهن أو القسيس الذى يسمى علمانيا لمجرد أنه يعيش حياة عادية غير رهبانية.

بل إنها بالتحديد مأخوذه من هذه الصفة الكنسية، لأن علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر (وربما كثيرين من علماء القرن السابع عشر أيضا) كانوا يدرسون فى معاهد أو جامعات لاهوتية، وبعضهم يتخرج منها إلى وظائف كهنوتية يمارس عن خلالها أبحاثه أو كتاباته العلمية المستقلة عن نصوص الدين! وأوضح مثال على ذلك، كوبرنيكوس (١٤٧٣ –

١٥٤٣م) صاحب نظرية دوران الأرض حول الشمس والذى أعدم حرقا بسبب هذه النظرية. فقد كان كوبرنيكوس كاهنا قانونيا (أى رهبانيا) فى كتدرائية فراونبرج، بينما كان عمه أسقفا! ولهذا أهدى كتابه الذى أحرق عليه، إلى البابا بولس الثالث، باعتباره اجتهادا مستقلا لاعلاقة له بنصوص الدين! وهكذا أيضا كبلر (١٥٧١ – ١٦٣٠م) الذى درس فى مدارس دينية رهبانية، وكان مسيحيا مؤمنا. وغيرهما كثيرون.

ذلك أنه لم تبدأ عملية إنشاء الجمعيات العلمية المستقلة ثم المعاهد العلمية المستقلة، إلا منذ القرن السابع عشر. من ذلك مثلا "الجمعية الملكية" للعلوم فى بريطانيا التى كونها عام ١٦٤٥ بعض أتباع الفيلسوف التجريبى فرنسيس بيكون، والتى قررت منذ البدء :استبعاد اللاهوت والسياسة من مناقشتها". ثم "أكاديمية العلوم الفرنسية" التى كونها بعض الفلاسفة ومنهم ديكارت وباسكال وجاسندى – ولكن لم تعقد أول اجتماعاتها إلا فى ديسمبر ١٦٦٦، حيث قررت التخصص تماما فى الدراسات العلمية. ثم "أكاديمية برلين" التى أسسها الفيلسوف ليبنتز عام ١٧٠٠، للتركيز على "الوقائع الموضوعية". وهذه مجرد أمثلة للمرافق العلمية التى بدأت، ثم أنشأت أو ضمت معاهد علمانية مستقلة أو برامج علمانية خاصة داخل الجامعات الدينية.

وكانت ولاتزال صفة "علمانية" secular ، تستخدم فى مثل هذه السياقات العلمية بمعنى : ماهو واقع تجريبيا أو ماهو كائن matter - of - fact. أى بما يرادف تقريبا معنى كلمة "وضعى" positive التى انتشرت فى القرن التاسع عشر. فوضعية أوجست كونت، **كانت تعبر عن سيادة الاتجاه العلمانى فى الفلسفة والعلم : أولا، كبديل عن العقلانية اللادينية والثورية الاجتماعية التى سيطرت على فلاسفة وعلماء التنوير فى القرن الثامن عشر فى فرنسا. وثانيا، كبديل للاتجاه الدينى والفلسفى التقليدى فى العلوم. وهذه الوضعية العلمانية الفرنسية، تختلف طبعا عن الوضعية الفلسفية المعاصرة التى روّج لها الاستعمار الأنجلو أمريكى، والتى هى اتجاه سفسطائى تشكيكى ضد الموضوعية العلمية وضد حتمية القوانين العلمية!**

من ذلك يتضح لنا أن المنهج العلمانى، انتشر أصلا كاتجاه مستقل عن الدين، فى العلوم الطبيعية التجريبية التى لايمكن أن تتقدم فى أحضان الدين. وحتى فى العصور الوسطى

الاسلامية والمسيحية، كانوا يقسمون العلوم إلى نوعين (تجدهما حتى عند الغزالي وفي مقدمة ابن خلدون) :"العلوم الدينية" أو "الشرعية"، و"العلوم العقلية" أو "الفلسفية" - كالعلوم الرياضية والطب. لكن كان هذا في الحقيقة مجرد تقسيم شكلي قديم يسري بالقصور الذاتي. ذلك أن التحكم الديني واللاهوتي كان يفرض نفسه على كل التصورات والأفكار والمواقف، التي لم يكن مسموحا لها بمجرد الاستقلال السلبي والجزئي. ثم في أواخر العصور الوسطى وبداية عصر النهضة، بدأت تظهر مقدمات المنهج العلماني من خلال اتجاه أو نزعة تسمى "النزعة الانسانية" Humanism - كما نجدها مثلا عند فرنسسكو بترارك الايطالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤م)، وإيرازموس الهولندي (١٤٦٩ - ١٥٣٦م)، وغيرهما. وكان المقصود بهذا الاسم : الاهتمام بالناسوت أو الانسان، والاستقلال عن اللاهوت أو الدين.

وكانت الحركة الانسانية في بدايتها ذات اتجاه مسيحي، ولكن منفصل عن اللاهوت وعن التفكير الاسكولائي / المدرسي وتقاليد العصور الوسطى. ثم اتجهت بعد ذلك إلى الانفصال عن المسيحية، كما نجد في :إنسانية" فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) وجوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢م). وفي هذا أصبح معناها **تغليب مصالح الانسان على تعاليم الدين، أو الاهتمام بالأرض بدلا من الاهتمام بالسماء.** وفي عصر جوته، عبر هيجل عن ذلك بقوله إن العقل في عصر النهضة وفي العصر الحديث (إذذاك)، لم يعد ينظر إلى العالم على أنه حقيقة سفلى أو دنيا، ولكن على أنه "واقع" أو "وجود قائم"، ومن ثم اتجه إلى الاهتمام باكتشاف أسرار الطبيعة والانسان.

وهنا تداخلت النزعة الانسانية مع الاتجاه العلماني، الذي غطى اسمه ذو الرصيد الكنسي القديم على اسم "الاتجاه الانساني" الذي كان أكثر تحررا أو انفصالا عن التراث الكنسي. وفي هذا، يجب أن نلاحظ أن الفرق بين الاسمين قد يكون عكسيا في اللغة العربية القائمة على الاسلام : أولا، لأن الاسلام لم يعرف صفة رجل الدين العلماني في مقابل رجل الدين الرهباني. وثانيا، لأنه لاتوجد نصوص إسلامية تركز على تغليب اللاهوت على الناسوت. ولهذا نلاحظ أن كلمة الاتجاه الانساني" تعتبر كلمة عادية مقبولة في العربية، بعكس كلمة "العلمانية" التي هي أقرب إلى التراث الديني المسيحي في أوروبا!!

وبهذا المعنى للعلمانية، نجد أنه حتى الفلاسفة والعلماء الفرنسيين اللادينيين الذين كتبوا الانسيكوبيديا / الموسوعة الفرنسية في عهد الملكية في القرن الثامن عشر، التزموا بأن

يقدموا فيها معارف علمانية، جعلوها فى مقابل التبريرات الدينية التى لم يكونوا يستطيعون مهاجمتها بشكل مباشر. وفى هذا العمل الفكرى الكبير، كانت سلبية العلمانية موقفا اضطراريا. ونفس هذا الموقف الاضطرارى، استخدمه عديد من اللادينيين بعد ذلك. من هؤلاء مثلا الفيلسوف الروسى تشيرنيشفسكى فى القرن التاسع عشر، الذى كان يقول – ساخرا – إن الفرق بين "العلم العلمانى" أو "العلم الدنيوى" وبين مايسميه "الدين المنزّل"، هو أن العلم العلمانى لايتعامل مع "الحقائق العظيمة" و"السامية" التى يتعامل معها الدين، ولكنه يتناول الطبيعة المادية والانسان الأرضى!

ومثل هذا الموقف التمويهى الاضطرارى، هو الذى أعطى كلمة "علمانية" بعض المعانى المعارضة للدين بدرجة أو بأخرى. من ذلك مثلا، أن دائرة المعارف الأمريكية تشير إلى مايسمى "فرقة العلمانيين" secularists فى بريطانيا وأمريكا، فتقول إنها فرقة من "الشكاكين" sceptics (بمعنى شبه الملحدين!)، وإنها تدعو إلى أن يهتم الانسان فقط بواجبات وشئون هذا العالم. وفى انجلترا مثلا، ظهر فى عام ١٨٤٦ مايسمى "لائحة العلمانية" التى أعلنها جورج جاكوب هوليويك Holyoake. وهى تدعو إلى مبادئ الأخلاق الطبيعية المستقلة عن الأديان، وكذلك إلي حرية الفكر وحق الاختلاف فى الرأى فى كل موضوعات الفكر، وحق مناقشة كل المسائل، بما فى ذلك الموضوعات الدينية. صحيح أنها تعلن أنها لا تحارب المسيحية، وأنها تقول فقط بأن "الحق العلمانى" مستقل عن المسيحية. لكن واضح طبعا أن الحقوق والحريات التى تدعو إليها، لابد أن تؤدى بدرجة أو بأخرى إلى الوقوف ضد المسيحية. وهذا يدخل فى المضمون الديمقراطى للعلمانية كنظام سياسى.

أنواع النظام الدينى غير العلمانى

المقابل التاريخى للعلمانية كنظام سياسى، هو النظام الدينى، ولايكتمل توضيح معنى أحدهما بدون توضيح معنى الآخر.

فالنظام الدينى كنظام سياسى، هو نظام الحكم أو نظام الدولة الذى يلتزم بالدفاع عن الدين، أى يلتزم بما يسمى بالتعبير القديم :"حراسة الدين". والالتزام بالدفاع عن الدين، يكون بالاعلان العملى حكوميا عن الدين الرسمى (حتى لو لم يعلن ذلك فى الدستور إن وجد

دستورا)، وبالالتزام العملى حكوميا بمبادئ هذا الدين (بغض النظر عن أى اختلافات مع المتطرفين أو رجال الدين المتخصصين أوالفروق الدينية المختلفة). وهذا واضح تماما فى الحديث الوارد فى صحيح البخارى :"لاتنازع الأمر أهله [والأمر يعنى الحكم الاسلامى]، إلا أن تروا كفرا بُواحاً عندكم من الله فيه برهان" (صحيح البخارى طبعة عيسى الحلبى، الجزء الرابع ص ٢٢٢، فى "باب الفتن").

فالتزام الحكام بالدفاع عن الدين أو بحراسة الدين، يكون إذن مجرد موقف عملى واضح لايحتاج إلى استدلال أو استقصاء! وإنما يكفى فيه أن ترتبط الحكومة بدين علنى رسمى تلتزم به أمام الناس، وتدعو إليه وتمنع الدعاية المضادة له. ولايهم بعد ذلك أن تكون هذه الحكومة مثل حكومة إمام اليمن السعيد حتى الستينات، أو حكومة تهتم بالمظاهر العصرية مثل حكومة السادات ومبارك.

وفى مصر الحاضرة مثلا، تنص المادة الثانية من الدستور على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام، فضلا عن أن جزءا كبيرا من القوانين المصرية مستمد رسميا من نصوص الشريعة الاسلامية، كما أن نص القانون المصرى يعاقب على أى عبارة تسئ إلى الدين "حتى لو كانت صحيحة". وتلتزم كل وسائل التعليم والتثقيف والاعلام والنشر الحكومية بالترويج للدين والدفاع عنه. وحتى لو فعلت أقل من ذلك كثيرا، فان هذا لاينفى عنها وظيفة الدفاع الرسمى عن الدين أو حراسة الدين. ففى العهد الملكى مثلا، لم يكن الدستور ينص على دين رسمى، وكانت القوانين المستمدة من نصوص الشريعة الاسلامية أقل، وكان الطابع الدينى لوسائل التعليم والتثقيف والاعلام والنشر الحكومية أقل كثيرا (ومثلا مادة الدين فى المدارس لم يكن يمتحن فيها فى آخر العام). بل وكان من الممكن أحيانا السماح ببعض الأفكار والتعبيرات العقلانية الحرة التى لاتجاهر بالهجوم على الدين. ومع ذلك، فقد كان النظام الملكى نظاما إسلاميا يحرس الاسلام ويدافع عنه، ويقدم للمحاكمة حتى من يشكك فى التصورات الاسلامية عن العرب القدماء كما فعل طه حسين! **ذلك أن العالم الاسلامى استمر منذ بداية تاريخه حتى اليوم، يلتزم بالدين بطريقة أو بأخرى، ولايعرف معنى العلمانية – ناهيك عن العقلانية اللادينية!**

وإنما تنشأ المشاكل فى تحديد هذا الموضوع، من أن النظام الدينى فى أى مكان له أنواع متعددة، كما أن القوى الدينية فى أى مكان هى قوى متعددة ومختلفة فى تصوراتها الدينية

(إلى درجة تفجير الحروب الدينية الداخلية كما يحدث فى العالم الاسلامى حتى اليوم، وكما كان يحدث فى أوروبا فى العصور الوسطى). فالنظام الدينى ينقسم أولا إلى أنواع : من حيث درجة التخلف أو درجة العصرية، ومن حيث درجة التزمت والسلفية أو درجة الاجتهاد والتحديث، الخ. وينقسم ثانيا إلى أنواع : من حيث درجة التعصب أو درجة التسامح الدينىTolerance الذى سبق ذكره. لكن الأهم والأوضح، أنه ينقسم ثالثا إلى نوعين رئيسين، وذلك من حيث نوعية رجال الحكم المباشر.

فالنظام الدينى قد يكون - أولا - تحت حكم مدنى أو عسكرى غير كهنوتى أو غير فقهى، أى يكون حكامه المباشرون غير متخصصين فى الدين. وقد يكون - ثانيا - تحت حكم كهنوتى أو فقهى، أى تحت حكم رجال الدين مباشرة (مثل نظام الخمينى فى العصر الحاضر). وهذا النظام الدينى الكهنوتى، يسمى فى اللغات الأوروبية باسم النظام الثيوقراطى أو الإلهىthéocratique. ولاحظ أن كلمة "كهنوتى" هنا، تعنى رجال الدين بشكل عام. لكن كلمة "كهنة" مرفوضة فى الاسلام، لأنها ترتبط بالمعنى الذى كان سائدا فى الجزيرة العربية القديمة. فهى لم تكن تستعمل هناك بمعنى كهنة الأديان، ولكن بمعنى الكهنة المتنبئين الذين كانوا ينسبون إلى الاتصال بالجن والشياطين (انظر مثلا ابن هشام وكذلك البخارى).

والمهم أن هذا التقسيم بين الحكم الدينى غير المتخصص والحكم الدينى الثيوقراطى، هو الذى يحتاج إلى وقفه استيضاح.

فالحكم الكهنوتى المباشر أو حكم رجال الدين، بدأ فى بعض الأسرات الفرعونية الأولى فى مصر القديمة. لكن الكهنوت الفرعونى القديم اكتشف بعد ذلك، أن من الأفضل له أن يضع فى الصدارة أو فى الواجهة حكاما مدنيين أو عسكريين غير كهنوتيين، يفرض من خلالهم طاغوته الدينى الشامل. وبذلك، فان الكهنوت الفرعونى بأجهزته ومرافقه وشبكاته الواسعة (بل ومستعمراته المنتشرة فى الصحارى وفى مجاهل البلاد)، كان يشكل السلطة الحقيقة وراء - وفى جوف - الدولة التى كانت تتكون من أشخاص غير كهنوتيين. واستمر هذا الوضع رسميا حتى العصر المسيحى (بل واستمر بطريقة سرية محدودة ولكن فعالة من وراء ظهر الدولة الاسلامية حتى الحملة الفرنسية على مصر منذ قرنين!). هذا إذن مثال من أمثلة النظام

الدينى – بل الطاغوت الدينى – الذى يستخدم حكاما من غير رجال الدين.

وفى التاريخ الاسرائيلى فى الشام، كان الحكم قبل القرن الحادى عشر قبل الميلاد، يسمى "حكم الأنبياء" أو "حكم الكهنة"، أى كان حكما ثيوقراطيا. ثم بناء على الضغط الشعبى، بدأ ماتسمية النصوص الدينية باسم "حكم الملوك". كان أولهم شاول Saul، وثانيهم داود، ثم ابنه سليمان. وشاول هذا يعتبر فى نصوص العهد القديم "مسيحا" أى ممسوحا من رئيس الكهنة بالزيت المقدس لتكريسه ملكا. وهكذا كان داود وسليمان، اللذان يعتبران من "ملوك" ومن "أنبياء" العهد القديم! لكن الثلاثة لم يتولوا وظائف الكهانة المتخصصة، ومن ثم قيل فى التاريخ القديم إنهم جاؤوا بعد نهاية "حكم الكهنة". وقد كان هذا أوضح بالنسبة لخلفائهم الذين لم يعتبروا أنبياء. إنما المهم أن نلاحظ هنا أن الحكم الدينى يمكن أن يكون حكما كهنوتيا (ثيوقراطيا) مباشرا، ويمكن أن يكون حكما دينيا غير كهنوتى – حتى لو تولاه شخص يسمى "نبيا" لكن لايتخصص فى الوظيفة الدينية. واستمر بعد ذلك "حكم الملوك" عدة قرون، فى مملكة اسرائيل وفى مملكة يهوذا. وبعد مرحلة سقوط الدولة، رجع مايسمى فى التاريخ أيضا "حكم الكهنة" وذلك فى عهد المكابيين ضد الامبراطورية اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد.

ولننظر الآن فى العصر المسيحى، الذى كان معظم العالم المسيحى يُحكم فيه حكما دينيا غير كهنوتى. فالكنيسة الشرقية التى كان مركزها فى القسطنطينية، كانت تسير فى ذلك وفق النظام القديم للاستخدام الدينى والتكريس الدينى للملوك أو الأباطرة، فى دولة موحدة. أما الكنيسة الغربية أو الكاثوليكية، فكانت تفرض نظاما دينيا أشد صرامة، لأنها تولت مركز الحكم بعد انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية وسقوط الحكومة المركزية فى روما، ومن ثم قامت بمهمة السيطرة على مجموعة من الدول الاقليمية الاقطاعية التى حلت فى أوروبا محل الدولة الرومانية الموحدة. صحيح أن السلطة البابوية الكاثوليكية، لم تكن تمارس الحكم الكهنوتى المباشر إلا فى روما أو غيرها من مناطق إيطاليا التى كانت تتمركز فيها. لكنها كانت تشكل دولة كهنوتية مركزية عليا فوق الدول الاقليمية الأوروبية، التى كانت تشكل نظما دينية عسكرية أو مدنية أى غير كهنوتية. وكان رجال الكنيسة فى كل بلاد أوروبا، هم الذين يقومون حتى بتسجيل "الاحوال المدنية" للمواطنين (الميلاد والوفاة والزواج، الخ).

ومن أغرب أنواع التخليط السفسطائى بل والجهالة، أن بعض الاسلاميين اعتبروا هذه الثنائية الخاضعة للدين والمستخدمة منذ عصور الفراعنة فى كل الأديان، ثنائية "علمانية"، أى

انفصالا للدولة عن الدين!!بل حاول بعضهم أن يبرر ثنائية تقسيم العمل الدينى (أى ثنائية الكهنة والملوك الذين يخضعون للكهنة)، بربطها بالمثل القديم الذى قاله المسيح :"اعط مالقيصر لقيصر، ومالله لله"!! وقد تناولت هذا الموضوع من قبل فى إحدى فقرات باب "لقطات ثقافية" (عدد ٤١). لكن يمكن أن أضيف هنا، أن ماقاله المسيح كان يتعلق بالرومان فى عصر الوثنية، ومن ثم كان يعبر عن الثنائية بين دينين هما : الوثنية والتأليهية. فكيف نقلب هذه الثنائية إلى ثنائية بين الدولة والدين، أو بين الملك ورئيس الكهنة، بينما الكهنوت المسيحى استمر – باسم المسيح – يحكم الملوك وأمراء الاقطاع والشعوب خمسة عشر قرنا قبل أن تظهر العلمانية فى العصر الحديث؟!

لقد أوضح مؤرخو العصور الوسطى، أن مايسمى "الكرسى المقدس"، كان يشكل نظاماً أصبح يسمى باسم "المملكة البابوية" monarchie pontif-icale. وهذه المملكة كانت تتكون من مالية ضخمة وهرم من الموظفين وحكومة مركزية يرأسها حاكم مطلق السلطة هو البابا، ويحكم بها شبكات هائلة من الكهنة والخدم، يحكم من خلالهم الدول والشعوب. وكانت المملكة البابوية تتدخل فى الحياة الشخصية للملوك والأمراء. وكان لها مبعوثون إلى مختلف الجهات يتمتعون بسلطات مطلقة. وكانت المملكة البابوية تعين الأساقفة المحليين الذين يتصرفون فى الشئون الدينية المحلية. وكانت تفرض ضرائب دينية، تضاف إلى ماتحصل عليه من ضرائب من حصيلة الجبايات المالية التى تجبيها الكنائس المحلية (لدرجة أن بعض حركات التمرد الدينى بدأت بالتمرد ضد الحقوق الضريبية للسلطة البابوية!). وكانت تختص باعتماد الطوائف الرهبانية المسموح بها، أى الحركات أو النظم الدينيةذات الشبكات الواسعة (مثل الفرنسيسكان والدومينيكان والجزويت، الخ).

وكان الكهنة الذين تحكمهم السلطة البابوية، يتدخلون فى كل شئ. ولم يكونوا يتولون فقط تسجيل الأحوال المدنية أى الميلاد والزواج والوفاة، بل كانوا أيضا يقومون بدور القضاء فى مختلف المنازعات. وحتى بعد أن ظهرت محاكم محلية، كان الناس يفضلون المحاكم الكهنوتية التى كانت تسمى officialités أى المحاكم الأسقفية! ومن ناحية أخرى، كان الكهنوت الكنسى يتولى إنشاء بعض المستشفيات تبع الأديرة، ويتولى إنشاء وتشغيل كل مرافق التعليم الذى كان فى مجموعة تعليما دينيا. وكان قرار الحرمان الكنسى excommunication ضد أى مسيحى (حتى لو كان ملكا)، يعنى الموت المدنى.

وهذا فضلا عن "محاكم التفتيش" التى كان يديرها المركز البابوى بسلطات مطلقة فى كل بلاد أوروبا، بحجة مكافحة الهرطقة أو الاجتهادات الدينية، وليس فقط مكافحة العقلانية. وكانت السجون الكنسية المركزية والمحلية منتشرة فى كل البلاد. لكن فى الحالات التى يتقرر فيها الاعدام حرقا، كانت المحكمة تسلم المحكوم عليه إلي السلطة المحلية (التى كانت تسمى "الذراع الدنيوية" أو "الذراع العلمانية"! bras séculier) لتنفيذ حرقه! وكانت الشبكات الكهنوتية المركزية والمحلية تحرك الكثير من الاضطرابات والفتن بل والثورات، لاحراج أى حكومة يكون من المطلوب إسقاطها دون تدخل علنى. أما الحملات الصليبية على الشرق وكذلك الحملات الصليبية الأخرى داخل أوروبا نفسها، فكانت نتيجة دعوات علنية للجهاد المقدس يطلقها البابا ويستجيب لها الجميع.

وعندما انتشرت ضد السلطة البابوية فى القرن السادس عشر، الحركة المسماة بحركة الاصلاح الدينى أو البروتستانتية – على يد مارتن لوثر وجان كالفن وغيرهما – كانت أشد فى التعصب الدينى من السلطة الكاثوليكية!

والحقيقة أن البروتستانتية ظهرت أصلا لمحاولة إجهاض حركة النهضة والانبعاث العقلانى، التى فرضت نفسها منذ القرن الخامس عشر. وهذا هو سبب مناداة البروتستانتية بالكنيسة القومية التى لاتخضع للسلطة المركزية البابوية فى روما. فقد كانت تريد بذلك تصفية التناقض بين الكنيسة المحلية والدولة المحلية، لتكوين كنائس قومية قوية تحكم أو تتوحد مع دول دينية قوية، تجدد حيوية المسيحية وتشيع فيها روحا حماسية جديدة تحت شعارات وشكليات دينية أصولية قديمة! ولهذا، كانت من حيث مواقفها الدينية أشد عداءً لموجات الفنون والعلوم والثقافات الفكرية الجديدة. بل وكان البروتستانت أكثر من محاكم التفتيش نشاطا ضد المفكرين وضد الناس العاديين!

وقد اتضح ذلك فى مواقف البروتستانت المسعورة ضد أفكار وأتباع كوبرنيكوس الذى أعدمته السلطة الكاثوليكية، وفى مواقفهم حتى ضد الأيقونات والفنون الكنسية. وفى مدينة جنيف – حيث أقام جان كالفين حكومة دينية كهنوتية مباشرة (أى ثيوقراطية) عام ١٥١٤م – فرضت

حكومته طغيانا دينيا تجهيليا شديد العداء للديمقراطية وللثقافة، فضلا عن أنه قام باعدام الطبيب المسيحى الاسبانى سيرفيتوس Servetus عام ١٥٥٣م فى محرقة عامة بتهمة الهرطقة، رغم أنه كان صاحب اكتشافات طبية جديدة.

العلمانية والاسلام

قلنا إن النظام العلمانى هو نظام انفصال الدين عن الدولة، وإن النظام اللادينى هو نظام مكافحة الدين أو الدعوة إلى اللادين. وقلنا إن النظام الدينى كمقابل للنظام العلمانى (وليس فقط للنظام اللادينى)، يتكون من نوعين، هما : النظام الدينى بالمعنى الخاص أى النظام الكهنوتى أو الفقهى أو الثيوقراطى أو حكم رجال الدين. والنظام الدينى بالمعنى العام، أى النظام الذى يتولى فيه الحكم مدنيون أو عسكريون ليسوا من رجال الدين المتخصصين، ولكنهم ملتزمون عمليا "بحراسة الدين". وسواء كانت سلطة الدولة ذات النظام الدينى العام أضعف من سلطة رجال الدين بحيث تخضع لهم (كما كان الحال فى مصر الفرعونية وفى أوروبا فى العصور الوسطى وفى عصور المماليك فى مصر)، أو كانت أقوى منهم بحيث تستطيع استخدامهم دنيويا رغم خضوعها لتعاليمهم الدينية، فان هذا لايغير من الطابع الدينى للنظام. فالمهم هو ارتباط أو عدم ارتباط الدولة بالدين.

يقول الدكتور جمال الدين محمود (الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية) فى أهرام ١٩٨٨/٩/٥ "إن الدولة الدينية [يقصد الدينية بالمعنى الخاص أى دولة رجال الدين مثل نظام الخمينى]، هى دولة مرفوضة من حيث الشكل، لأن الاسلام لايعرفها منذ (أى بعد) الصدر الأول، رغم أن أول واجبات الامام والخليفة أو رئيس الدولة (فى الاسلام)هو حراسة الدين وسياسة الدنيا".

والحقيقة أن دولة رجال الدين ليست مرفوضة فى الاسلام من حيث الشكل كما يزعم، طالما أنها وجدت فى الصدر الأول كما يقول!! فحكم الخلفاء الأربعة كان حكم رجال دين متخصصين. وكذلك يمكن اعتبار حكم معاوية الذى كان من الصحابة. وكذلك كان حكم عمر بن عبد العزيز الذى كان متخصصا فى الدين. وربما يمكن أن يقال نفس الشئ عن بعض

خلفاء الدولة العباسية الأولى، الذين تولوا الحكم أصلا من خلال انتسابهم إلى النبي. ومن ناحية أخرى، فاذا كان المؤرخون يرون أن تكليف النبي لأبي بكر بامامة المصلين وهو مريض، يعتبر بمثابة تكليف بالخلافة، فان استمرار الخلفاء الأمويين ثم بعض العباسيين في أمامة المصلين وإلقاء خطبة الجمعة، يعطيهم صفة رجال الدين – خصوصا أن التخصص الديني أوالفقهي في الاسلام ظهر متأخرا، وكان في كثير من العصور يعتبر من قبيل التربية الدينية العامة لجميع المسلمين. وعلى كل حال، فالمهم في رأى الأمين العام الاسلامي المذكور في مقاله المشار إليه، هو ضرورة "عدم فصل الدين عن الدولة طبقا للمفهوم السائد في البلاد الأوروبية تحت ستار العلمانية"، وأن تكون "الدولة إسلامية"، وأن يكون "القانون العام إسلاميا"، لأن هذا "أهم وأبقى من المظهر الديني [يقصد مظهر رجال الدين]".

والذى يهمنا نحن في ذلك، هو أنه يعترف بأن النظام الاسلامي الذى يرفض العلمانية، لايكون بالضرورة تحت حكم رجال الدين، بل ويرى أنه لم يكن تحت حكم رجال الدين في كل التاريخ الاسلامي القديم بعد الخلفاء الأربعة! وهذا يؤكد التمييز الذى أوضحته : بين النظام الديني المتخصص (= الثيوقراطي بالتعبير الأوروبي والفقهي بالتعبير الاسلامي)، وبين النظام الديني غير المتخصص – وكلاهما يرفض العلمانية ويعادى العقلانية الحرة رغم اختلاف درجة التشدد.

أما الدكتور/شيخ محمد عمارة، فيحاول بطريقته التمركسية المكررة (انظر مثلا هلال أكتوبر ١٩٨٨) أن يقفز على التناقضات، بحجة مايسمية "الوسطية"!(١) فاذا كانت مبادئ المنطق تقول إن النقيضين لايجتمعان ولايرتفعان، فهو يكرر دائما باسم الوسطية المزعومة – أى الوسطية السفسطائية – أنه يمكن جمع النقيضين أو الارتفاع عنهما! ولهذا يزعم أن الاسلام رفض الثنائية بين الدولة والدين!! كيف يرفض الثنائية؟! إن معنى ذلك منطقيا رفض الدولة ورفض الدين!! لا، إنه يعني بذلك رفض النظام العلماني، ورفض النظام الديني معا!! فكيف يكون النظام إذن؟! يقول إن "نظام الخلافة الاسلامي" (ولاحظ أنه يصفه هنا بوصفه الديني!!)، كان يجمع بين "سيادة الله" و"سلطان الأمة"، لأن الخليفة كان "نائبا عن الأمة" وفي الوقت نفسه "حارسا للدين"!! وهذا يعني أن نظام الخلافة الاسلامي كان في عصور الظلام

(١) لاحظ أن الشيخ محمد عمارة كان من أعضاء المنظمات الماركسية حتى الخمسينات، فلم يأخذ منها إلا الجدل الهيجلي الذى يجمع أو يرفع النقيضين!!

نظاما دينيا ديمقراطيا!! ليكن! فكلمة الديمقراطية عنده فقدت معناها! إنما المهم أنه نظام ديني غير علماني.فلاسبيل إذن للقفز على هذه الثنائية!!

وعلى كل حال، فالواضح أن الاسلام (وكذلك النظم الدينية السابقة على الاسلام فى المنطقة منذ العصور القديمة)، لم يسمح ولن يسمح بأى مرحلة علمانية أو شبه علمانية فى العالم الاسلامى!

ورغم ان التسامح الفكرى شبه العقلانى الذى ظهر فى بلادنا خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى، انخفضت درجته منذ عام ١٩٥٢ (قبل أن يتلاشى فى عهد السادات ثم مبارك)، إلا أننا نجد مثلا أن الصحفى أنيس منصور وآخرين من عديمى الضمائر، يزعمون فى تقيؤاتهم الكثيرة ضد عبدالناصر (والتى تستهدف استثارة رد الفعل العكسى نحوهم)، أنه كان ملحداً! وهذه أكذوبة واضحة ومكشوفة. فعبد الناصر لم يكن ملحدا، كما أنه من ناحية أخرى لم يكن علمانيا. وكل تقارير أجهزة المخابرات التى نشرت عنه، تؤكد أنه كان متدينا مؤمنا إيمانا لايقبل الشك.وقد سجل كثير من قادة الاخوان المسلمين (آخرهم عبد المنعم عبد الرؤوف زميله فى الجيش فى منكراته التى صدرت أخيرا)، أنه بدأ تشكيل تنظيمه تبع الأخوان المسلمين، ثم اختلف معهم بعد ذلك.

وفى عهده، كان الطابع الاسلامى واضحا تماما فى النشاط الاعلامى والثقافى والشخصى وفى النظام الجامعى، الخ. وكان يدعمه القانون والنظم الرقابية السرية أوالعلنية الصارمة، على أساس التمييز الدقيق بين التدين الاسلامى وبين الانتماء إلى تنظيمات سرية إسلامية أو مقاومة نظام الحكم. والخلاف هنا هو مثل أى خلاف بين أى قوى إسلامية متنازعة – مما شهده العالم الاسلامى منذ حرب عائشة أرملة النبى وعلى ابن عمه، وحروب على وصهره الصحابى معاوية، الخ. فالاسلام فى مصر، ليس أساسا إسلام الجماعات أو الحركات السرية، ولكنه أساسا الأزهر ودار الافتاء ورجال الدين والمساجد والزوايا، الخ. وهو أيضا النصوص والتقاليد والعبادات والايمان الدينى، الخ. وهذه كلها كانت تحظى بالرعاية والتدعيم فى ظل عبد الناصر، ومن خلال الدولة ومؤسساتها وليس بالانفصال عنها. فكيف يمكن منطقيا أن نصف المرحلة الناصرية بأنها لم تكن ملتزمة دينيا، أو أنها كانت علمانية؟!

لقد كان عمق الايمان الدينى والالتزام الاسلامى شرطا رئيسيا من الشروط السرية أوالعلنية للارتباط بالنظام الناصرى وفتح الأبواب الخاصة فيه والحصول على ثقته، بينما كان

العكس بالعكس. وكانت نتيجة ذلك أن كل كوادر مؤسسات ومرافق الدولة (وخصوصا الأجهزة السرية)، أصبحت فى ظل نظام عبد الناصر كوادر عميقة الايمان والتدين الاسلامى. وبعد موت عبد الناصر وتولى السادات الذى كان أكثر إسلامية منه، وبعد انتهاء جو الازدواج الايديولوجى فى التعامل مع المعسكر الشيوعى وفى الصراع ضد الغرب وضد الدول العربية التقليدية، كشفت هذه الظاهرة عن نفسها بوضوح، ومن ثم زادت درجة التعصب الاسلامى فى المرحلتين التاليتين.

ورغم أن المصادرة الثقافية فى عهد عبد الناصر، كانت تعنى أصلا مصادرة الكاتب قبل أن يكتب، أو على الأقل مصادرة الكتاب قبل أن ينشر، إلا أنه قد صودرت فعلا بعض الكتب التى حامت حولها شبهة المساس بالأديان. وأشهر هذه الكتب، رواية نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" (بناء على قرار من الأزهر عام ١٩٦٨)، رغم أنها رواية رمزية لاتشير إلى الأديان بأى شكل من الأشكال المباشرة! وبالنسبة لكاتب هذه السطور شخصيا، فقد صدرت الأوامر بمنع مجلة "الكاتب" من نشر مقال دراسى عن الامام الغزالى بحجة أنه يوجه النقد له (رغم أنه لايتناول إطلاقا مبادئ الدين) - وذلك بعد تجهيزه فى المطبعة فعلا[1]. وعند سفرى إلى خارج البلاد بعد ذلك، استطعت نشر مقالى عن الغزالى فى مجلة "الآداب" البيروتية (عددى أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨). فلما فصلت تعسفا من العمل الصحفى ثم أودعت فى مستشفى المجانين على ذمة النيابة بدون تحقيق لمدة سبعة عشر عاما وثلاثة شهور، أكدوا لى أن من أهم أسباب ذلك أننى كتبت فى المجلات الثقافية عدة مقالات عقلانية عن الفكر الاسلامى بروح لادينية!

ومن حيث النشاط العقائدى الايديولوجى لعبد الناصر، فان تركيزه على الاسلام قاطع

---

(١) بعد أن صدرت الأوامر العليا إلى مجلة الكاتب إنذاك من خلال كمال رفعت مسئولها العسكرى بعدم طبع ذلك المقال الدراسى بعد جمعه وحصولى على بروفاته، وبعد أن تطورت الأمور بعد ذلك إلى وقفى عن النشر فى الجمهورية والمساء أيضا ومهاجمتى علنا فى مجلة "روزاليوسف"، ثم التظاهر بإرغامى على مغادرة البلاد بحجة أننى شخص غير مرغوب فيه وغير مسموح له بالنشر (وذلك لتبرير فصلى رسميا من أى عمل صحفى أو ثقافى ثم إعادتى إلى البلاد محروما من العمل!!)، قال لى خالد محى الدين صراحة - فى مكتبه فى مبنى الاتحاد الاشتراكى أثناء حصولى على موافقات السفر إلى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ - إننى أغضبت السلطات بسبب ماكتبته أو حاولت نشره من مقالات معدودة (ثلاثة فقط!) عن بعض جوانب تاريخ الفكر الاسلامى!! وهذا رغم أنها كانت ذات طابع دراسى موضوعى لاتمس ولايمكن أن تمس محظورات القانون أو المقدسات!!

تماما فى كل وثائقه العقائدية. ويقول الصحفى محمد هيكل (الأهرام ٨٨/١١/٢١) إن عبد الناصر قال لخروشوف بصراحة فى أبريل ١٩٥٨ :"إن محتوى فكرة القومية العربية هو محتوى إسلامى". وفى محادثة أخرى مع خروشوف فى زيارته للقاهرة فى مايو ١٩٦٤، يذكر هيكل أيضا (الأهرام ٨٨/١٢/٢١) أن عبد الناصر قال لخروشوف "إن الاسلام هو الجوهر الحضارى للقومية العربية".

وقد أكدت تقارير للفاتيكان نشرها هيكل وأشار إليها كذلك فهمى هويدى (انظر الأهرام فى ١٨ وفى ١٩ أكتوبر ١٩٨٨)، أن حركة القومية العربية كانت تدفع حركة الاسلام فى العالم العربى كله. والسبب فى ذلك، ليس فقط أن الاسلام يشكل محتواها الفعلى، لكن أيضا أن حركة القومية العربية كحركة ضد أى نفوذ أجنبى كانت تعتمد على الجماهير العادية المتعصبة إسلاميا، ومن ثم كانت تتخذ عمليا اتجاها إسلاميا. ولهذا يعترف بعض الاسلاميين، بأن صعود الحركة الاسلامية منذ السبعينات، جاء نتيجة - أو خطوة ضرورية تالية - "للتحرر القومى" المنفصل عن الغرب وعن الشرق.

صحيح أن بعض المسيحيين العرب فى القرن الماضى ثم ميشيل عفلق وغيره فى هذا القرن، لعبوا دورا فى بدء حركة النشر والتخطيط لفكرة القومية العربية. لكن الحقيقة أن دافعهم الأول لذلك، كان دافع مواجهة حركة الجامعة الاسلامية التى ارتبطت بالخلافة العثمانية إذذاك، فضلا عن محاولة ركوب موجة القوميات المحلية الجديدة التى برزت منذ قيام دولة محمد على فى مصر ثم ازدهار بعض الدول المحلية الأخرى فى العالم العربى. ولهذا كانت أجهزة الاستعمار البريطانى فى مصر، تستغل فكرة العروبة فى استيراد كثيرين من العرب غير المصريين وغير المسلمين لتشغيلهم فى المواقع الاستراتيجية فى البلاد (خصوصا فى مجال الصحافة). وهذه كلها اعتبارات خارجية ومؤقتة، كانت تغطى شكليا المحتوى الاسلامى للقومية العربية ولاترفضه طبعا!

والخلاصة أن محتوى القومية العربية هو بالفعل محتوى إسلامى - كما قال عبد الناصر وهيكل. ومن المستحيل - خصوصا بعد انهيار لبنان - أن نتصور حركة قومية عربية ذات اتجاه علمانى! هذا هو الواقع الاسلامى. وكما قال الفلاسفة، معرفة الواقع هى شرط القدرة على معالجة الواقع.

٢٣ نوفمبر ١٩٨٨

البند الرابع - موضوع العلمانية (ب)
العلمانية بين الدين واللادين[1]

أوضحت أكثر من مرة فى كتابات سابقة (نشرت بعضها مرتين فى المجلة المشار إليها من قبل عدد ٤١، ٤٤)، تطور معنى كلمة "العلمانى" وكلمة "العلمانية" laïcisme/ sécularisme، وتحديداتهما الدقيقة منذ انطلاق الثورات الفكرية العقلانية فى أوروبا - وخصوصا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر. والكلمة الأوروبية ترجمها المسيحيون العرب إلى العربية بطريقة خاطئة، لتعبر عن "العالم" أى الدنيا، ثم شاع استخدامها بعد ذلك بطريقة ملتبسة أو مشتركة تحاول التعبير أيضا عن العلم الحديث الذى ارتبطت به الاتجاهات العلمانية الحديثة فى أوروبا. لكن المعنى الأصلى لصفة "علمانى" laïque/ séculaire التى كان يوصف بها أيضا داخل الكهنوت الكنسى الكهنة أوالقساوسة الذين لايخضعون لنظام الرهبانية - هو ببساطة الدنيوى du monde/ mundane, worldly. من ذلك مثلا، أن القسيس العلمانى أو الدنيوى هو الذى يحق له الزواج - بدون أن يعنى ذلك طبعا أى موقف يتعلق بالمعتقدات أو الالتزامات الدينية!

أما خارج إطار الكنيسة، فكانت كلمة laïque/ laic, layman تعنى ببساطة الشخص

---

(١) هذا هو أحد عناصر البند الثالث من الفصل الأول من كتابى "نظرية فى فلسفة التاريخ". وعنوان الفصل "تصورات عن التاريخ". ويتكون من أربعة بنود، هى ١- تصورات عامة عن التاريخ ٢- التصورات الدينية عن التاريخ. ٣- التخليطات العلمانية المكمله ٤- لمحات عقلانية عن التاريخ.
وكنت قد بدأت منذ أكتوبر ١٩٩٠ كتابة عدة فصول جديدة عن فلسفة التاريخ لاضافتها إلى الفصول السريعة المكتوبة عن هذا الموضوع فى العباسية عام ١٩٧٦، أو لادماج الفصول القديمة فيها. واستطعت أن أكتب بالفعل حوالى ثلاثة فصول كبيرة (فى حوالى ٢٠٠ صفحة). لكن الظروف والمشاكل العامة والخاصة بعد عملية الكويت والعراق، لم تسمح لى باستكمال الفصول المطلوبة فى هذا الموضوع الواسع المتشعب والعويص، الذى يحتاج إلى درجة كبيرة من التركيز القادر على استيعاب وتجميع كمية هائلة جدا من الوقائع التاريخية والفولكلورية استطعت بعد خروجى من وراء الأسوار أن ألتقطها بالتنقيب الدؤوب فى ثنايا وسراديب التاريخ البشرى فى خمسة آلاف عام! ومع ذلك، فسوف أستكمل وأنشر الكتاب فى القريب العاجل.

العادى غير المتخصص فى الدين وغير المشتغل به، أى كانت تقال فى مقابل "رجل الدين". فلما انتقلت الكلمة إلى المشتغلين بالعلوم والفكر والثقافة والسياسة ومالإلى ذلك من الشئون العامة، استمرت تعبر عن هذا المعنى السلبى، أى المحايد أو غير المختص إزاء الدين.

وكانت كلمات "عقلانى" و"ملحد" أو "لاديني" قد بدأت تنتشر فى الفكر والثقافة فى أوروبا، ومن ثم طرحت الأجهزة الكنسية المنافقة كلمة "علمانى" كبديل سلبى محايد لايعبر عن أى موقف ضد الدين أو أى مساس بقداسة الدين. فاذا قال أى باحث فى أى علم من العلوم التجريبية أو النظرية إنه يتناول موضوعه بطريقة "علمانية"، يكون معنى ذلك أن اختصاصه بعيد عن اختصاص الدين، وأنه يتناول الموضوع بدون أى موقف "مع" أو "ضد" الدين.

وهذا يمكن أن ينطبق حتى على التناول العلمانى للدين نفسه — كما حدث بالفعل — حيث يكون معنى ذلك التناول إجراء الدراسة "التقريرية" لتاريخ أو نصوص الدين مثلا، بدون أىّ "تدخل" فيما إذا كان مايقوله هذا الدين صحيحا أو غير صحيح.!! وفى مقابل ذلك، نجد أن الدراسة العقلانية فى أى علم أو مجال، تعنى تحديد الصواب والخطأ، أو المنطقى والمغالط واللامنطقى، أو الواقعى والخرافى، الخ. وهذا ينسحب بالضرورة على مواقف وتصورات ومضمونات الدين. أما الدراسة الالحادية أو اللادينية irreligious—ناهيك عن الدراسة المعادية للأديان anti-religious— فاتجاهها واضح ومعاييرها وأهدافها واضحة.

وقد حدث طبعا أن كلمة "علمانية" — مثل أى كلمة استراتيجية — استُخدمت تمويهيا. فمثلا بعض رجال الدين أو أشباههم من المتعصبين دينيا، أخفوا ملابسهم السوداء وخرافاتهم وغيبياتهم الكنسية الصريحة، وأخذوا يفرضون معتقداتهم باسم العلم والبحث والاستدلال وليس باسم الوحى والنصوص الدينية. وأمثال هؤلاء الذين يرتدون الملابس "العلمانية" للفلسفة أو العلم التجريبى فوق مسوحهم الدينية، يكثرون فى فترات التحرر الثقافى وانخفاض التعصب الدينى. وفى المقابل كان بعض الملاحدة اللادينيين يخفون اتجاهاتهم المحظورة قانونا أو المرفوضة شعبيا، ويحاولون تسريب ودس أفكارهم المتحررة تحت أسماء عامة مثل العقل والمنطق والفكر الحر، متجنبين الصدام المباشر مع الدين، ومؤكدين تحت شعار "العلمانية" أنهم لايتدخلون ولايخوضون ضد أقوال الدين فى هذه الموضوعات. وبديهى أن أمثال هؤلاء لايمكن أن يظهروا إلا فى ظروف تتخللها بعض الثغرات القانونية والليبرالية الثقافية التى تسمح بذلك. أما إذا أطفئت الأنوار وانسدت ثغرات الضوء، فان كلمة "العلمانية" ترجع فى

أقصى الحالات المسموح بها إلى المعنى "التقريرى" السلبى المذكور - خصوصا فى الاتجاه الذى يخدم سلطان الدين تحت اسم البحث المحايد أو غير المتعصب.

والمهم أن الأجهزة والشبكات الكنسية طرحت مايسمى "العلمانية" كموقف سلبى اتقائى ومأمون، يصلح لاجتذاب المتحررين فكريا كبديل سهل أو منخفض الثمن نسبيا، فى مقابل مواقف العقلانية الالحادية واللادينية الغالية الثمن التى استمرت محظورة قانونا وعمليا إلى وقتنا هذا،حتى فى أكثر البلدان تظاهرا بحرية الفكر! (باستثناء الدولة السوفييتية التى كانت تعلن أنها أول دولة لادينية فى التاريخ، ومن ثم لم تبرز قدراتها إلا منذ الخمسينات، ولم تستكمل قدراتها الحقيقية إلا منذ الثمانينات!!). ومعنى ذلك أن الأجهزة الكنسية استخدمت تلك "العلمانية" بتقاليد المراوغة المعروفة لتجنب الصدام الكبير مؤقتا فى مرحلة معينة. وهذه هى أيضا طريقة مكافحة حرائق الغابات، باشعال حريق صغير فى عكس اتجاه زحف الحريق الواسع، الذى يصل فى هذه الحالة إلى منطقة خالية يغطيها الرماد فتخمد وتنطفئ نيرانه! وهذا ماحدث فعلا، حيث استمرت نيران العقلانية الأوروبية فى الانخفاض بعد القرن الثامن عشر، وانطفأت العقلانية اللادينية خصوصا، بينما أخذت مواقف العقلانية الجذرية فى المجالات الأخرى فى الانخفاض والانكماش حت اقتربت من الانطفاء أيضا.

إن هذه اللعبة تشبه لعبة الحياد، أو مايسمى "الطريق الثالث" المزعوم[1] فالقوة التى تمر بأزمة أو بمرحلة تراجع مؤقت تعانى فيها من انفصال أو احتمال تمرد أتباعها، تحاول طبعا التصرف بالامكانيات المتاحة لمنعهم من التحول إلى أعداء أو الانضمام إلى الأعداء. وفى هذا الاتجاه، تحدث محاولة "تحييد" أكبر عدد منهم، أى دفعهم إلي اتخاذ موقف "الحياد" بدلا من موقف العداء وإعلان الحرب. والمسألة فى هذا ليست فقط أن "الحياد" يكون أهون الشرّين أو أخف الضررين، وليست فقط أن الرجوع من الحياد إلى الانتماء يكون أقرب وأسهل، لكن المسألة أيضا وأساسا أن موقف "الحياد" يعنى عدم الهجوم وعدم الصدام ومن ثم عدم تعرض تلك القوة المرفوضة للمزيد من الخسائر خلال الفترة الانتقالية الاضطرارية. صحيح أن الأعداء يمكن أن يستغلوا هم أيضا أوضاع الحياد أو الطريق الثالث فى دس قوات معادية تتصرف عدائيا تحت ستار عدم الانتماء إلى هذا أو ذاك. لكن القوة التى تمر بأزمة مؤقتة أو بمرحلة

---

(١) انظر "المبادئ الفلسفية الجديدة" : الفصل الثالث وغيره.

تراجع مؤقت، تكون رغم ذلك هى المستفيدة الأولى من هذه الأوضاع، طالما أنها من حيث المحصلة النهائية تؤدى إلي خفض خسائرها الاضطرارية في مرحلة الأزمة، ثم تتيح لها بعد ذلك الانتقال إلي استرجاع المنفصلين والمتمردين المحايدين والتنكيل بالمعادين عندما تبدأ مرحلة الهجوم المضاد.

"العلمانية" هى إذن موقف حياد أو لافتة طريق ثالث مزعوم بين الدين واللادين. وكما أنه يوجد حياد سلبى يتجنب أى صراع مع كلا الطرفين، وحياد إيجابى يزعم أنه يتخذ طريقا ثالثا مستقلا بين الطرفين، وحياد تمويهى يخفى انتماءه الحقيقى السرى إلي هذا الطرف أو ذاك، كذلك توجد علمانية سلبية تحاول أن تتجنب أى خلاف مع الدين أو مع اللادين، وعلمانية ايجابية تزعم أنها تمثل طريقا ثالثا يضاف إلي طريق الدين وطريق اللادين، وعلمانية تمويهية تخفى انتماءها الحقيقى إلى الدين أو إلى اللادين. ومن ذلك كله، يتضح أن المشكلة ليست مشكلة أسماء ولكن مشكلة مسميات، وليست مشكلة لافتات ولكن مشكلة مايختفى وراء اللافتات. والمحك والفيصل فى ذلك، هو العقلانية التامة والمنهج المنطقى الشامل (طبعا بالمعنى الصحيح وليس المزيف لهذه الكلمات!). فكل مايخدم هذا الاتجاه - باسم العلمانية أو بأى اسم آخر، بل وحتى باسم الدين - إنما يخدم الصواب والموضوعية . والعكس بالعكس.

وسوف نرى فى هذا الفصل تصورات علمانية كثيرة عن التاريخ ترفض الدين، أو ربما تهاجم الدين. ومع ذلك، تعتبر عمليا ومن حيث نتائجها المنطقية مكملة للتصورات الدينية : إما كامتداد لها ذى شكل حديث يؤدى إلي تثبيت وابتلاع مغالطات العصور الوسطى باسم جديد. وإما كردِّ فعل عكسى لها يحوِّل خطأها إلي صورة مقلوبة قد تكون أشد خطأ، ومن ثم لايرد عليها رداً عقلانيا صحيحا ولايلغيها بل ربما يدعمها! وإما كمجرد تناول سلبى لايبعد عنها إدانة العلم والمنطق وينقذها من التفنيد الصحيح والتحليل الموضوعي. وإما غير ذلك من بدائل فاشلة أو مزيفة أو "تصحيحات" خاطئة لاحصر لها - وكلها تكمل البديل أو تدعمه بدلا من أن تلغيه. وهذا يشبه بدائل الحيوانات المعبودة أو الأوثان المتنافسة والمتصارعة فى خرافات النظم الكهنوتية الشرقية القديمة. فقد يكون الفرق كبيرا فى عالم الحيوان أو فى نظر الفنانين وخبراء النحت بين تماثيل الثور والقط والقرد وماإلى ذلك، وقد يكون هذا مفيدا جدا فى بحث واقتفاء مسار الوقائع والتطورات التاريخية. أما من الزاوية الفلسفية والايديولوجية، فكلها متساوية فى الانتماء إلى التخريف واللاعقل.

أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٠

البند الخامس - موضوع العلمانية (جـ)
نجيب محفوظ وتشويه العلمانية

✪ الثلاثاء الخامس من فبراير ١٩٩١

. . . نجيب محفوظ بمجلس تحرير الأهرام(١)

كانت مفاجأة غير سارة أن نقرأ في الصفحة الأولى من أهرام أول أمس (٣ فبراير) كلمتك ضد العلمانية، والتي تشوه العلمانية أكثر مما تشوه صدام حسين. ولم تكن مصادفة أن يردد الشيخ الاسلامي محمد الغزالي في تهويماته الاسلامية في إحدى الندوات – في نفس اليوم – نفس هذه التشويهات ضد العلمانية، تحت زعم تشويه صدام حسين وحزب البعث الذي اتهمه بأنه "حزب ذو نزعة علمانية إلحادية(!!) لاصلة له بالاسلام"!! وكما أبرزت الأهرام كلمتك يوم الأحد، أبرزت الأهرام مغالطات ذلك الشيخ في اليوم التالي ٤ فبراير! (ثم في يوم الأربعاء كرر ابراهيم نافع نفس التشويه على لسان الاسلامي الماركسي المرتد عادل حسين!)

وقبل ذلك، كان الاسلاميون يكررون نفس التهمة ونفس التشويه ضد العلمانية بل وضد الشيوعية، في مزاعمهم عن عبد الناصر – ذلك العسكري القومي الاسلامي الغاشم عدو الشيوعية، الذي أعطى مراكز الدولة والمجتمع لأنصاره من الاسلاميين المتعصبين فانقلبوا عليه بعد موته، ثم قالوا عنه إنه شيوعي وعلماني وملحد! وحتى اليوم، لايزال معظم الاسلاميين يشوهون العلمانية بالصاقها بعبد الناصر وبالسادات وبمبارك!! ولايقول ذلك فقط خوارج الاسلاميين الارهابيين، لكن يقوله أيضا معظم من يسمون بالاسلاميين "المعتدلين"، بل وأيضا كتاب ومثقفون من نوعية المحامي الاسلامي شبه الوفدي محمد عصفور، الذي زعم (مثلا في صحيفة الوفد في ٢٨ أغسطس ١٩٨٨) أن النظام العسكري القائم في ظل مبارك "نظام علماني" يكره الأديان ويضطهد الاسلاميين!! (انظر الرد الذي نشرته حول هذا التخليط في

---

(١) وزعت من هذا الخطاب كالمعتاد، عديدا من الصور على الصحفيين والكتاب وعلى بعض الجهات الأجنبية.

مجلة تسمى "أدب ونقد" عدد أكتوبر ٨٨). وهذا فضلا عن أمثال أنيس منصور وأعتماد خورشيدالذين اتهموا عبد الناصر وصلاح نصر بالشيوعية والالحاد!!

فاذا كان صدام وأمثاله علمانيين ومبارك وأمثاله علمانيين، فمن يكون الحكام الاسلاميون إذن؟ هل هم فقط مشايخ السعودية وإمارات الخليج وأمثالهم من أصحاب العمائم والدشداشات والعقال؟!! تلك إذن قسمة ضيزى!!

إن هذه السفسطات التعكيسية ليست سفسطات جديدة، لأن المسلمين يحاربون بعضهم بعضا منذ حرب على ابن عم النبى وعائشة أرملته ثم على ومعاوية صهر النبى وكاتب إملاءاته القرآنية. ويغض النظر عن التاريخ الاسلامى، فان الصراعات الكنسية الدموية فى ظلمات العصور الوسطى تؤكد أنه هكذا فعل ويفعل دائما ضحايا الخرافات الدينية، من أى نوع وفى كل مكان وزمان، نتيجة انعدام أو انخفاض العقل والتفكير العلمى والحساب المنطقى. لكن الجديد هنا هو أن يصدر مثل هذه التشويه ضد العلمانية عن أديب لايعتبر من مشايخ الاسلام ولامن الاسلاميين الحزبيين، بل أديب يحمل جائزة أوروبية (=علمانية!!) ويقول إنه ليس من أنصار الحكم الدينى المباشر أى الثيوقراطى!!

ومهما يكن، فيجب التاكيد بوضوح على أن تعليقى هذا على كلمتكم لايتضمن بداهة أى دفاع عن صدام حسين.

لماذا؟ للأسباب التالية :

١- لأنكم أنتم الذين صنعتم صدام حسين وكرمتموه ومجدتموه ودعمتموه ماديا ومعنويا وبأخطر أنواع الأسلحة. هذا مافعله الغرب الذي يرتبط به النظام المصرى الحاكم الذى تنتمون إليه، وهذا مافعله النظام المصرى من خلال المخططات العسكرية المصرية وراء الكواليس فى العالم الثالث وفى أوكار الغرب، ومن خلال المصانع الحربية المصرية ومجلس التعاون الرباعى، ومن خلال الصحافة المصرية الصفراء والكتابات المصرية الصفراء والاعلام المصرى الفاسد، الخ. كل مافى الأمر أنكم كنتم تريدون استخدام رعونته العسكرية ضد إسرائيل (لاحراج السوفييت ولوقف مااسماه البعثى المدحور أحمد بهاء الدين "جريمة العصر"). لكن عملية صدام أفلتت من أيديكم واتجهت إلى الكويت! فرقت بنطا وتقدّرون فتضحك الأقدار!

وقبل ذلك صنع الغرب عبد الناصر وكاسترو لجر الاتحاد السوفييتى إلى حرب عالمية ثالثة قبل اكتمال قدراته. فمات الأول مهزوما مدحورا، ولايزال الثانى ينتظر نهايته بطريقة أو بأخرى!!

٢- أن عبد الناصر هو الذى زرع هذه النوعية من الزرع الأسود فى المنطقة، وهو الذى

استنبت أو شجّع أمثال القذافى ورفعت الأسد وصدام حسين ثم حسين مبارك وغيرهم من القادة العسكريين القوميين الاسلاميين– على أختلاف ألوان وأشكال راياتهم وشعاراتهم، وعلى اختلاف الأسماء التى يعطونها لاتجاههم العسكرى القومى الاسلامى المعادى للشيوعية وللأممية، والمعادى للعقلانية، بل وللعلمانية (التى لاتعنى أكثر من الحياد السلبى بين العقلانية اللادينية وبين الدين). ولهذا، فان أنصار ومنتفعى عبد الناصر – الذين منحهم عبد الناصر المراكز والنفوذ والشهرة الدهمائية والاعلامية – لايختلفون مع أمثال صدام وأنصاره إلا اختلاف اللصوص فيما بينهم، أو أختلاف فصائل العصابة الارهابية الواحدة.

ومع ذلك، فاذا كانت الحكمة القديمة تقول إنه إذا اختلف اللصان ظهر المسروق، وإذا تصارع وحوش الغابة استفاد المناضلون ضد اللاعقل الحيوانى، فمن الضرورى أن تؤدى التطورات التالية إلى إستفادتنا نحن العقلانيين الأمميين من صدام ومن مصارعيه– غير شاكرين له أو لهم!!

ولايستطيع أصحاب العقول السقيمة والأحلام القومية الدينية البالية أن يتصوروا أن مرحلة جورباتشوف هى مجرد مرحلة انتقال بين القديم والجديد. ولو أدركوا ذلك لتوقعوا فى أى لحظة أن يتجه الاتحاد السوفييتى إلى التصرف لقطف ثمار تلك التطاحنات الدموية المستمرة منذ عصور الفرعونية بين لصوص أو وحوش الغابة البشرية، التي يجب أن يقوم على أنقاضها نظام إنسانى عقلانى جديد.

٣– أن المنطق يحذّر من المفاضلة بين أى بديلين غير انتقائيين، بطريقة الاستجارة من الرمضاء بالنار، أو بطريقة المفاضلة بين أحمد عرابى الفلاح الأهوج والخديوى توفيق خادم الاستعمار. وهكذا نجد أن المفاضلة بين صدام حسين وأمثاله وبين حسين مبارك وفهد وأمراء الخليج ومعهم جيوش حلف الأطلنطى وأنصاره، هو تلاعب غوغائى يهدد المنطق العقلانى السليم. وهذا التلاعب لايقبله إلا من ينتمى إلى أحد فرعى أو فروع تلك الشجرة الخبيثة التى صنعتها الأجهزة العليا للغرب، وتولت زراعتها أجهزة العسكرية القومية الاسلامية فى العالم العربى، فلم تثمر له منذ الأربعينات إلا الكوارث والحروب والهزائم. وإن القادم أشد وأنكى من السابق!

ومن ناحية أخرى، يهمنى أن أؤكد هنا أننى لست من المنتمين إلى العلمانية كمذهب، رغم أننى مناصر لها كاتجاه يصلح بديلا مؤقتا لنظام الحكم الدينى، أى لأنها تقدم حداً أدنى من الظروف التمهيدية اللازمة لظهور ونمو العقلانية الفلسفية وعلى رأسها العقلانية اللادينية (انظر عدد فبراير ٨٩ من المجلة المذكورة).

ويعنى ذلك أن من يرفض العلمانية أو يعتبرها شبيهة بالالحاد، لايرفض فقط الحد الأدنى من الظروف اللازمة للعقلانية والتنوير الفكرى (=التنوير الحقيقى لاالتنوير المسرحى الغوغائى!)، بل يرفض أيضا الحد الأدنى من الظروف اللازمة للموضوعية الفكرية والنزاهة الفكرية والثقافة المتحضرة عموما. وهذا لايفعله إلا الدهمائيون والديماجوجيون (=محترفو التجهيل السياسى)، ومحترفو تمجيد الجهلة والعمال والفلاحين المتخلفين وأبناء الحوارى والأزقة وأمثالهم من الشعبيين الأميين أو شبه الأميين.

وخلاصة ذلك كله، أننى أطلب مايلى :

(١) يجب ألايكون الدفاع السياسى أو الهجوم السياسى بأساليب الغوغائية والديماجوجية. أى يجب ألا يكون على حساب التاريخ وضد حقائق التاريخ. فالعلمانية التى قدمت الحد الأدنى من ظروف العقلانية والبحث العلمى الموضوعى فى أوروبا منذ القرن السابع عشر، والتى نعيش حتى اليوم على بقايا ثمارها الأوروبية القليلة المحدودة التى تضاءلت وكادت تتلاشى فى أواخر عصر التحكم الدولى الأنجلو أمريكى، لايمكن إهدارها وتشويهها بهذه البساطة تحت ستار تشويه صدام حسين.

(٢) يجب أن يعرف كل امرئ "حقيقة" قدر نفسه وقدر بلده وقدر ظروفه المحلية والأقليمية والعالمية، والايؤدى الضجيج الدهمائى المؤقت والرنين الاعلامى الأجوف إلى صم أذنيه عن سماع صوت العقل الموضوعى.

لقد تغيرت ظروف العالم جزئيا منذ الخمسينات، حين انتقلت قيادة سلطة الغرب من المراكز الأنجلو أمريكية إلى المراكز الأمريكو إنجليزية! فما بالك بما يحدث وماسيحدث فى عملية انتقال السلطة الدولية برمتها من الغرب إلى الشرق السوفييتى وخاصة الصينى؟!! ذلك أن لجنة نوبل لم تقدم جوائزها لأديب نيجيريا ثم لك، إلا بعد أن آذنت سلطة الغرب بالأفول : أى للتعبير عن انحدار الغرب من موقع المعلّم للعالم الثالث إلى موقع المتلقى المؤثر للعالم الثالث!

فهذا إذن نوع من التكرار لمأساة فرض المسيحية على أوروبا وإسدال ظلام العصور الوسطى على أنقاض الحضارة اليونانية الرومانية! فقد ارتبط ذلك الانحدار القديم بظهور أسماء القديسين والأولياء بدلا من أسماء الفلاسفة والمفكرين العقلانيين، تماما كما أدت بداية العصور الوسطى الجديدة إلى سيطرة أسماء رجال الدين الاعلاميين وكذلك أسماء الراقصات والأرتيستات ولاعبى الكرة! وإن خطابك الفرعونى الاسلامى إلى لجنة نوبل، هو دليل على التجلى مخططاتهم المجهضة هذه، التى استهدفت نقل البشرية من بقايا العقلانية إلى ظلام

عصور وسطى دينية جديدة! لكنها مخططات لم يكتب لها النجاح!

لماذا؟ لأن شعلة برومثيوس العقلانية الأوروبية انتقلت من الغرب إلي موسكو، ومن ثم أعلنت مسبقا هزيمة جحافل الظلام والبربرية واللاعقل التى كانت تنطلق منذ خمسة آلاف عام من أوكار الفرعونية المصرية وملحقاتها فى الشرق العربى الاسلامى، والتى كانت تطارد وتحطم إمكانيات التقدم العقلانى فى أرجاء العالم، بحيث صنعت الطفولة التخريفية الفاسدة للبشرية ثم بددت آلاف السنين من عمرها. وهاأنت ترى فى أكثر من مكان معالم هذه الهزيمة الشاملة، التى تعنى تصفية وإلغاء مخططات وإمكانيات الانفجار الهمجى اللاعقلى ضد البشريةالعقلانية - ابتداءً من مناطق "سماويات" الشرق الفرعونى العربى الاسلامى، حتى مناطق بقايا الخرافات السحرية لدى الجماعات البدائية وشبه البدائية فى أفريقيا السوداء وغيرها!!

ومعنى ذلك أن حاضر ومستقبل العالم الثالث و "المهبط" الفرعونى العربى الاسلامى، وحاضر ومستقبل لجان نوبل المختصة بالأدب ومايسمى العلوم الاجتماعية أو السياسية، لايبشران باستمرار القدرة على تشجيع تقاليد تشويه التاريخ وإهدار الحقائق التاريخية. فاذا كان انتماؤك إلي الفرعونية العربية الاسلامية قد دفعك إلي تشويه وإهدار العقلانية الأوروبية - بل وتشويه حدّها الأدنى وهو العلمانية - فيجب ألا تنسى أن التاريخ يتحرك منذ أواخر السبعينات فى عكس ذلك الاتجاه! وكم يكون من المفيد أن نتذكر موقف روزبه ابن دازويه / ابن المقفع (رائد المحاولات العقلانية المحدودة المجهضة فى ظلام التاريخ الاسلامى)، عندما قال لخدم السلطة الاسلامية الذين كانوا يقطعون لحمه ويلقونه قطعة قطعة فى النار، إن التاريخ سيذكر اسمه ولن يذكر أسماء خدم السلطة هؤلاء الذين كانوا ملء السمع والبصر فى عهدها! وقد كان.

وختاما، أقول إن كاتبا مثلى يعيش على أمل (أو حتى على حلم!) القصاص مما فعله ويفعله خدم ومكملى السلطة القائمة منذ ١٩٥٢ فى حق الثقافة وفى حق العقلانية، بل وفى حق الصحافة والاعلام المفرغين من الثقافة، لم يكن يمكن أن يرى انتشار واتساع هذه [illegible] الجديدة فى الهجوم على العلمانية (التى هى الحد الأدنى السلبى من ظروف العقلانية!)، بدون أن يحاول التنفيس عن احتجاجه - وخصوصا حين يصدر ذلك من غير المكرسين دينيا.

فأرجو ألا يضيق صدركم بهذه الكلمات. وإنما يشفع لى فى ذلك أنكم تلقيتم منى من [illegible] أسوار العباسية منذ السبعينات مئات الأوراق، فلم تحرك ساكنا فى صدركم!!

. . . .

١٩٩١/٩/٥

البند السادس - العقلانية والتناسل!!

✪ الأربعاء ٢٦ ديسمبر ١٩٩٠

... الرسام ناجي بالأهرام(١)

. . . .

ولولا أنني أعرف مشاغلك الفنية الكثيرة، لأزعجتك أيضا بنسخة من كتابي الأخير الذي أشرت فيه إلى المشكلة السكانية – وذلك لأثبت لك أنني من أشد أنصار «تحديد النسل» بل وباستخدام وسائل التنظيم الجبري الواسع والقاطع، لكن بطريقة تصنيفيه فارزة تحقق هدفا محددا هو :«تحسين النسل» ضد عمليات زيادة «تسويء النسل»، وتغليب السلالات المتخلفة المنخفضة في القدرات الذهنية كما يحدث في العالم الثالث خصوصا.

وأظن أن موضوع الخطاب واضح. فالحقيقة أن رسوماتك الكاريكاتيرية المتكررة ضد الحمل والولادة تزعجني بل وتستفزني إلي الدرجة التي جعلتني أكتب هذا التعليق. ذلك أنني أشعر بأنك تقوم بعملية "تعقيد" و"تنفير" و"تقزيز" ضد الحمل والولادة، وإثارة العداء ولانفعالات الكراهية ضد الأم الحامل التي يجب على العكس أن تلقى كل تعاطف وحنان ورعاية واهتمام خاص وعام.

وبغض النظر عن الشعارات والسياسات الحكومية التي يرسمها ويروّجها أصنام سطحيون أو غاشمون يريدون في الحقيقة تبرير وتغطية عجزهم وفشلهم وفسادهم، أو على الأقل أصنام رسميون يفشلون لأنهم لايفكرون بالمنهجية العقلانية بل ولايدركون أصلا أنه يوجد شيء اسمه منطق التفكير وفلسفة التعامل مع الوقائع، فمن المهم ألا ننسى أنه يوجد في هذه المشكلة كلها عنصر يمكن أن نسميه عنصر الفرز الذاتي أو التصنيف الذاتي عكسيا.

وعلى سبيل التوضيح، أقول إن المسألة هنا تتوقف على معيار الفرز والتصنيف البشري، الذي يشبه دور الغرابيل أو المناخل. وأظن أن هذا واضح أيضا في عمليات ومخططات فرز وتصنيف من يتولون المسئوليات الفعالة في مفاتيح الدولة والمجتمع، بل ومن يسمح لهم أصلا بالارتقاء والظهور! وقد كان سيد درويش يغني : علشان مانعلا ونعلا ونعلا، لازم نطاطي نطاطي نطاطي! لكن الصواب هو : لازم نبقى عميان وعمشان وأغبياء، أو مطموسين بالفساد والتخليط!

---

(١) وزعت من هذا الخطاب كالمعتاد عديدا من الصور على الصحفيين والكتاب.

طبّق ذلك ياسيدى على من يهتمون بقراءة الصحف عموما، وعلى من يهتمون بقراءة الأهرام خصوصا (باعتباره أقل الصحف فى درجة الغوغائية والإثارة السطحية)، ثم طبّقه على من يملكون الادراك السليم والاحساس السليم ممن يقرأون الأهرام بحيث يتأثرون برسوماتك وتعليقاتك فى هذا الموضوع، تجد أنك تظلم بالتحديد "حوامل الأهرام" اللاتى لايمكن أن يكنّ من نوعيات الأرانب! (ومن ثم كان يجب تشجيعهن على زيادة الحمل والولادة لتحسين النسل لو كان هذا ممكنا!). وإذا كان المثل يشير إلى من يؤذّن فى مالطة (= فى الفضاء)، فالأدق هنا أن نقول إنك تضرب جرس الكنيسة فى مسجد، أو تؤذن أذاناً إسلاميا فى كنيسة! وبتعبير علمانى، فهذا يشبه تقديم برامج لعلاج المصابين بقصر النظر، على مسافة لايراها ولايتأثر بها إلاّ من يتمتعون ببعد النظر! هذا من حيث التأثير فقط، وليس من حيث التعقيد والتنفير والايذاء النفسى!

وأرجو أن تلقى نظرة سريعة على مرفقات هذا الخطاب وهى : أمثلة من رسوماتك الكاريكاتيرية المتضاعفة فى هذه الأيام بالذات، والتى تثير النفور الشديد والكراهية الغريبة ضد السيدات الحوامل من النوع الذى لايلد كثيرا! ومعها ريبورتاج من نفس صحيفتك الأهرام، تقول فيه بعض الاخصائيات الاجتماعيات المشتركات فى الاجراءات الشاملة لتنظيم النسل، إنه لاجدوى من الحملات الاعلامية والصحفية فى الريف والأحياء الشعبية، ولكن الحل هو استخدام الاجراءات الحكومية الجبرية! ومن المؤسف أنهن لم يستطعن أن يكتشفن أن الحملات الاعلامية والصحفية تؤدى إلى نتيجة عكسية، هى تأثر النساء والأسرات الأكثر إدراكا وإحساسا، فى مقابل عدم تأثر النساء والأسرات من الأنواع المتواكلة الجاهلة فاقدة الادراك والاحساس، ومن ثم زيادة النسل الجاهل الفاقد للادراك والاحساس!!

إن مشكلة زيادة النسل ومضاعفة قطاعات الأغبياء والمتخلفين وتغليبهم على المجتمع عددياً ومن ثم اجتماعيا وسياسيا وذهنيا، هى مشكلة الحثالات والدهماء والبوابين والعمال الجهلة والفلاحين الجهلة والفئات السفلى من المجتمع عموما. وهؤلاء لايقرأون الصحف. وإذا حدث وقرأها بعضهم، فانهم يختارون صحيفة الأخبار أو غيرها! وإذا حدث ونظر بعض هؤلاء البعض إلى الأهرام، فانهم لن يتأثروا إلا بأحاديث وأخبار الشيخ الشعراوى أو بالحوادث والصور الاثارية. ومن ناحية أخرى، فأصحاب القدرات الفكرية والثقافية وأصحاب الادراك والاحساس، يكونون بالضرورة فى ظل نظم التدهور والتجهيل واللاعقل القديمة الجذور : إما

مقطوعى النسل أو منخفضى النسل! ومثل هؤلاء يجب أن تشجعهم على النسل أو على زيادة النسل، وأن توجه سهام فتك إلى تناسل الحثالات والدهماء والمتخلّفين!

فالحمل والولادة والأمومة التى تخدم الارتقاء العقلانى والاجتماعى، يجب اعتبارها رسالة مقدسة جديرة بالتكريم والتمجيد والاعزاز. وفى مقابل ذلك، يجب أن توجه حملات التعقيد والتنفير ضد التناسل المتخلف ومن أجل مكافحة ومقاومة التناسل المتخلف بل والوجود المتخلف! فهكذا يفعل المتحضّرون فى مكافحة ومقاومة وإبادة أو تعقيم الحشرات والكائنات المؤذية للنوع البشرى الراقى، وفى تغليب السلالات الراقية على السلالات المتخلفة حتى فى عالم الحيوانات!

أسف لهذا الازعاج الذى حاولت به التعبير عن رأيى فى أن حملات الكراهية ضد الحمل والولادة تستهدف عموما تغطية الفشل الاقتصادى، وأن ضرورة تنظيم النسل وخفض عدد البشر يجب أن تعالج فى اتجاه عكسى تماما!! وهذا ماسيحدث فى المستقبل، وبالقوة الجبرية القاطعة.

. . . . .

١٩٩٠/١٢/٢٦

البند السابع - تحليل فيلولوجى
الأصول اللغوية لكلمة «كاريكاتير»

كان الزميل الفنان زهدى قد بدأ يصنّف كتابا عن فن الرسم الكاريكاتيرى. وتناقشنا فى يونيه ١٩٩٠ فى الأصول اللغوية لهذه الكلمة، فاختلفنا طبعا! ومع ذلك، رأى أن يضمّن مقدمة كتابه إشارة إلى وجهة نظرى فى هذا الموضوع. لكنى وجدت أن إشارة أو فقرة، لايمكن أن تفى الموضوع حقه، ولاأن تفى وجهة نظرى حقها. فكان لابد من أن أحدد وجهة النظر هذه فى مقال مكتوب، ليأخذ منه زهدى الاشارة أو الفقرة التى يريدها، بينما أنشر مقالى بعد ذلك ضمن ملحقات كتابى التالى المنتظر عن «فلسفة التاريخ»[1].

فقد درست فلسفة اللغة منذ بداية الخمسينات، ثم قمت منذ عام ١٩٧٨ (وراء الأسوار) بأبحاث مكثّفة وواسعة فى موضوع الأصول اللغوية المشتركة بين اللغات الشرقية القديمة واللغات اليونانية اللاتينية الكلاسيكية، وفى موضوع المصدر المشترك الذى يجب **افتراضه كمنبع لهذه الأصول المشتركة - وهو اللغة أو اللغات المصرية البحراوية القديمة التى ازدهرت فى شمال مصر قبل أن يكتسحه الجنوب الفرعونى** ويقهره الرهبوت الكهنوتى منذ عهد نارمر أو مينا، ومن ثم قبل أن يرغم الكهنوت الفرعونى شعوبه على الهجرة والفرار لينشروا قبسات لغاتهم ومعارفهم (التى سميت رمزيا باسم شعلة برومثيوس) على سواحل البحر الأبيض شرقا وشمالا، ثم فى بقية مجاهل العالم[2].

(١) عندما كتبت هذا المقال في أغسطس من العام الماضى ١٩٩٠، كنت مشغولا إنذاك باستكمال الفصول الجديدة فى كتابى "نظرية فى فلسفة التاريخ". لكن للأسف أن أحداث الكويت والعراق ومارتبط بها من تفاقم خطير للأوضاع فى مصر ولمشاكلى الشخصية، لم يتح لى استكمال ثم تجهيز ذلك الكتاب للطبع حتى اليوم. فلما كتبت هذا الكتاب السريع عن العقلانية والتناقض ودفعته إلى المطبعة، رأيت أن أضيف إليه هذا التحليل الفيلولوجى - كمثال عن العقلانية والتناقض فى بحث الأصول اللغوية لبعض الكلمات.

(٢) كنت قد أرسلت منذ عام ١٩٧٧ - ١٩٧٨ وحتى أوائل الثمانينات، مقالات وأبحاثا كبيرة فى فلسفة اللغة والفيلولوجيا / تحليل الأصول اللغوية، إلى لويس عوض وغيره ممن توقعت أن يهتموا بهذه الموضوعات (مثلا خريج الفلسفة الذى نسى كل شئ عن الفلسفة أنيس منصور!!). وكان من هذه المرسلات، بحث بعنوان "حول تاريخ اصطناع المشكلة اليهودية" (مايو - يونية ١٩٧٨). وقد حاولت فيه أن أوضح الأصول الكهنوتية الفرعونية الأولى لمختلف الخرافات والعبادات القديمة ، فى مقابل ===

ولهذا، فان التحليل الذى سأذكره هنا عن الأصول اللغوية لكلمة "كاريكاتير"، ينطلق من ويعتمد على المنطلقات والمنظورات والمبادئ العامة للأبحاث المشار إليها منذ السبعينات، فى فلسفة اللغة وفى الفيلولوجيا أو علم الأصول اللغوية.

* * * *

= = الأصول البحراوية المصرية الأولى للمعرفة واللغة البشرية المستنيرة التى بدأت فى الدلتا ثم هاجرت إلى الشام ثم اليونان وغيرها، والتى كونت الرصيد اللغوى الارتقائى الأقدم الذى ينطبق عليه تقريبا اسم "الأصول الهندو أوروبية" واسم "الأصل الكلتى اللاتينى"، الخ. وكانت هذه الفكرة ثمرة تصور عقلانى يحاول تفسير أسرار "قدس الأقداس" فى أصول التاريخ وأصول الأديان وأصول اللغات، كتبت عنه أبحاثا أخرى كثيرة بعد ذلك.

ولم يهتم بالموضوع إلا لويس عوض – ولكن فى اتجاه عكسى، حيث أصدر فى أوائل الثمانينات كتابا ضخما بعنوان «فقه اللغة العربية»، حاول فيه بتعصب فرعونى أن يدافع عن وجهات النظر المضادة لكثير من التصورات التى تضمنتها مرسلاتى إليه. ومع ذلك، فقد اعترف – لأول مرة فى كتاب دراسى كبير – بأن اللغات اليونانية اللاتينية ومكملاتها الأوروبية تشكل أسرة واحدة مع اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية القديمة، مما يعنى الاعتراف ضمنا بالفكرة التى طرحتها إذ ذاك عن وجود أصل واحد مشترك للغات الحضارية القديمة فى الشرق وفى أوروبا. (ولاحظ أن الأساتذة المتخصصين لازالوا حتى اليوم يفصلون بين أصول أسرة اللغات الأوروبية وأصول أسرة اللغات الشرقية، بل وحتى بين أصول المصرية القديمة وأصول العربية والعبرية وغيرها مما يسمى اللغات السامية!!)

ورغم ذلك، لم يعترف لويس عوض طبعا بأصل واحد مشترك للخرافات الكهنوتية وبأصل واحد مشترك لشعلة بروميثيوس وأسباب هجراتها ومطاردتها فى أنحاء العالم، كما أنه استمر فى الاعتراف بالتقسيمات اللغوية النوحية (الحامية والسامية والآرية)، مع محاولة إرجاع أصلها المشترك إلى ماأسماه "المخزن البشرى" لشعوب وسط آسيا التى هاجرت إلى المنطقة العربية وإلى أوروبا – حيث أشار فى ذلك إلى الهجرات التى حدثت قبل الميلاد بعشرات الآلاف من السنين قبل أن تبدأ وتتطور اللغة البشرية المتحضرة أصلا!!

وكان ممن تأثروا بالوقائع الفيلولوجية التى أوردها لويس عوض لاثبات وحدة الأسرة القديمة للغات الأوروبية والشرقية، باحثة اسمها تحية اسماعيل. وهذه لم تقتنع طبعا بحكاية المصدر المذكور فى وسط آسيا، فاخترعت مصدرا آخر بديلا–لكن لايقل غرابة– هو المصدر العربى الأقدم فى الجزيرة العربية البدوية شبه البدائية قبل الاسلام، متخيلة فى ذلك أن اللغة العربية لغة أزلية مقدسة سجلت فى اللوح المحفوظ فى السماء قبل ظهور الاسلام وقبل ظهور الحضارات التى بدأت من الألف الرابع قبل الميلاد!! وكتبت فى ذلك بحثاً بالانجليزية بعنوان :"العربية القديمة الجد الأكبر للغات الهندو أوروبية وأصل الكلام"! ورغم ماتضمنه ذلك البحث من وقائع لغوية وصوتية صحيحة تثبت بشكل حاسم وحدة الأصول الأولى للغات اليونانية اللاتينية والعربية بشكل خاص، فقد رفض الأساتذة الانجليز قبوله كرسالة دكتوراه، لأنهم اعتبروا أن التصور الخيالى الذى أوردته الباحثة عن الأزلية المقدسة للغة العربية هو نوع من الخرافة غير المقبولة أكاديميا. = =

• الترجمة الحالية الدقيقة لكلمة "كاريكاتير"، هي : الرسم الساخر. أما الأصل اللغوى المباشر للكلمة فى اللغات الأوروبية الحديثة ثم العربية، فهو الكلمة الايطالية "كاريكاتير" caric-atura. ويقال إن هذه الكلمة ارتبطت أولا باسم رسام إيطالى اسمه موسينى عام ١٦٤٦، ثم انتقلت من إيطاليا إلى فرنسا فى ستينات ذلك القرن السابع عشر، ثم انتشرت فى بقية أوروبا وغيرها.

والمعنى الذى كان معروفا للكلمة الايطالية، هو : الافتعال أو التصنّع affectation. لكن من حيث الاشتقاق، ترجع الكلمة إلى أصل الفعل الايطالى اللاتينى carricare [أو caricare] . والترجمة المعروفة لهذا الفعل هى : يشحن، أو يحمّل تحميلا كثيرا، أو يثقل. ويجب ألا ننسى أن هذا الفعل يرتبط بمشتقات أخرى معروفة، أوضحها car و carra،carrus أى عربة (= شاحنة)، و cargo/ carricum أى حمولة، الخ. وهنا تتوقف التحليلات الفيلولوجية المعروفة، بدون أن توضّح لنا بدرجة مقنعة حقيقة العلاقة بين الشحن والشاحنات والحمولات وبين الرسم الساخر!

كذلك يشير بعض الباحثين - بدون تأكيد - إلى الكلمة الاسبانية cara ومعناها وجه، وإلى الكلمة الايطالية caractere/ carattere ومعناها شخصية. لكن هذا يضاعف المشكلة بدلا من أن يحلها، لأنه يفرض على البحث أن يحدد الأصول المشتركة لهذه المجالات العديدة المتنوعة : الرسم الساخر، والتحميل، والشحن، والوجه، والشخصية!

أما إذا رجعنا إلى الأصول الأقدم لهذه الكلمة فى اللغات الشرقية والأوروبية القديمة، فان الأمر يبدو واضحا. فمفتاح هذه الأصول، هو الكلمة اليونانية القديمة "خاراكتير"، وباللاتينية "كاراكتير" character. فهذه الكلمة التى اشتقت منها الكلمات الدالة على الشخصية أو على الوجه فى اللغات الأوروبية، ترتبط أيضا بأصول الكلمات الأخرى المذكورة. فقد كانت تعنى فى

= = = لكن المهم فى ذلك كله، أن وحدة الأصول اللغوية الأولى للغات الحضارية القديمة فى مصر والشرق الفرعونى وفى اليونان وأوروبا، لم تعد اليوم مجرد فرض كتب فى العباسية عام ١٩٧٧!! ومن يعترف بصحة هذا الفرض، يجب أن يعترف بمتضمناته المنطقية العلمية فى مجال أصول التاريخ وأصول الأديان بوحدة الأصول الكهنوتية المصرية والعبرية العربية وأيضا الأوروبية، وأن يربط ذلك بتطورات الصراع الأقدم بين الكهنوت الفرعونى الجنوبى والبحراويين المتحررين / الدوريين فى دلتا مصر. وعندما تنجح فى تصفية بقايا الوسائل التكنولوجية المعاصرة للفرعونية الغربية الامريكية الحديثة، وبفرض بذلك الظروف العقلانية الشاملة الجديدة، ستتضح للجميع أسرار "لعنة الفراعنة" التى استمرت بطريقة أو بأخرى خمسة الاف عام! وإذذاك سنقول : هاقد عدنا يانارمر! / يامينا!

اليونانية وفى اللاتينية : ١- أداة وسم أو وشم الحيوانات ٢- علامة الوشم (= الكى بالحديد المحمى) ٣- الختم أو أداة الدمغ. (ولاتزال الكلمة الانجليزية والفرنسية المعبرة عن الشخصية تحمل أيضا هذه المعانى القديمة!). وهذا ماكانت تعبر عنه تقريبا الكلمة المعروفة ذات الاصل الجرمانى mark، وكان معناها العلامة الجسدية أو الوشمية المميزة، ثم أيضا النقود المصكوكة أو الماركة أوالعلامة المميزة عموما.

ولأن العبيد هم الذين كانوا يتعرضون من بين البشر لمثل هذه العلامات المميزة لأشخاصهم، ولأن العبيد هم أيضا الذين كانوا يرتبطون بالأعمال الشاقة فى الشحن وجر العربات والحفر فى المحاجر وقطع ونقل الأحجار (التى ترجع كلماتها إلى نفس الأصل، وأوضحها carrare أى رخام)، فضلا عن ارتباطهم بالسجن والتعذيب (الذى تعبر عنه كلمات من نفس الأصل : كركر أى سجن أو كركون، و carnificio أى يعذّب، الخ)، لهذا نجد أن الأصل الأقدم للكلمة اليونانية اللاتينية المذكورة كان يعبر عن الدمغ أو الوشم العبودى تخصيصا (أى العلامة المميزة للعبد)، وعن النخس أو النغز العبودى عموما.

وهذا المعنى الأصلى الأقدم، نجده أيضا فى الأصل القديم لكلمة "سخرية" فى العربية، حيث أن كلمة سَخِر (بكسر الخاء) وسَخَّر (بتشديد وفتح الخاء) وسُخْرِىّ (بضم السين وتسكين الخاء وتشديد الياء)، تعبر عن معنى مشترك يجمع بين سخرية التسخير العبودى وسخرية العبث (وهذه الكلمة أيضا أصلها المصرى القديم هو عبت أى عبد). وفى العربية أيضا، نجد أن كلمة النكتة والتنكيت مشتقة من النخس أو الحفر (ومنها ينكت الأرض). ونجد فى العامية العربية كلمة "النَّقُّورة" و"المنقوراتى" مشتقة من النقر. ونفس المعنى تعبر عنه كلمات اللمز والغمز والهمز (ومنها غمز الدابة أو همزها بالمهماز). وهذا يوضح لنا أيضا أن أصل كلمة قراقوز (مثل قراقون/ كراكون) هو نفس أصل كلمة كراكور أي كراكتور. بل إن هذا واضح كذلك فى الاسم الانجليزى للأراجوز وهو punch- فأصل هذه الكلمة يعبر عن النخس أو التخريم والثقب والدمغ بالاستمبة أو الزومبة (ومن نفس الأصل to punish). وبالاضافة إلى ذلك كله، توجد فى اليونانية القديمة كلمة أخرى هى "كاريكيون" أو "كاروكيون". ومعناها المعروف هو : الشارة أو العلامة الرمزية أو النقش أو الدمغ الرمزى.لكن القرائن التاريخية واللغوية تبين أن الكلمة كانت تعبر أيضا عن الدمغ التحقيرى أو التشويهى.

وفى ضوء ذلك، يمكن أن نقول إن الجانب الذى يهمنا من المعنى القديم للكلمة اليونانية

اللاتينية خاراكتير/ كاراكتير/ كاريكاتورا، هو معنى العلامة التشويهية المميزة أو الدمغ الجسدى التشويهى للعبيد، ومن ثم العلامة التشويهية المميزة أوالدمغ التشويهى والتحقيرى المعنوى للأشخاص الذين يتمتعون بالاحترام والتوقير. ومع التطور الحديث، خصوصا منذ منتصف هذا القرن، أصبح معنى رسم الكاريكاتير هو مجرد رسم العلامة المميزة الساخرة أو الرسم الساخر فحسب - رغم أن الكلمة (بعيداً عن الرسم) لازالت تعنى فى اللغات الأوروبية معنى التشويه والمسخ أوالشخص المسخة grotesque.

ذلك أن الكلمات ذات المعانى القاسية الشديدة المرفوضة أو غير المستحبة اجتماعيا، تتعرض دائما للتلطيف مع تطور الزمن! ليس فقط كجزء من عمليات طمس وتحوير وتزييف التاريخ، ولكن أيضا لأن ارتقاء التفكير أو الاحساس العام لدى المتعاملين فى هذه الكلمات يفرض عليهم أن يتصرفوا - شعوريا أو لاشعوريا - من أجل تلطيفها وتجميلها. أو بالتعبير الشائع : تحديثها! وهذا واضح فى التطويرات والتأويلات التجميلية التحديثية التى يفرضونها حتى على أغرب المقدسات القديمة من الخرافات والعبادات والغيبيات منذ عصور الفرعونية، بل وعلى الوقائع التاريخية التى يتهربون منها. ومن ناحية أخرى، نجد مثلا أنه حتى أغانى سيد درويش (الذى لايبعد كثيرا عن أيامنا الحاضرة)، حُوِّرت وغُيرت لاخفاء كلماتها الجنسية المكشوفة!

ومن حيث الأصول اللغوية القديمة، نجد أن كلمة "نقد" مثلا كانت تعنى حتى عصر ظهور الاسلام، النقض بمعنى الحفر والهدم، أو الدق تحت الأرض عموما. وبهذا المعنى، تصف النصوص القديمة كيف أن الواحد من الجن المختبئين تحت الأرض (أى فى شبكات السراديب السرية التى كانت تختفى تحت المعابد وتحت التجمعات السكنية)، كان "ينقض" أو ينقد على صاحبه المتصل به، أى يدق عليه الأرض من أسفل. (انظر فى ذلك مثلا "سيرة ابن هشام" وصحيح البخارى" وغيرهما عن الغيطلة الكاهنة مثلا). ومنه أشتقوا كلمة "النقد" أو "النقود" بمعنى الكنز أو الخبيئة (من الذهب أو الفضة) المدفونة تحت الأرض. ولهذا، نجد فى النصوص القديمة المذكورة، بل وأيضا فى مختار الصحاح، أن كلمة "ركز" وكلمة "ركاز" تعبر عن "الصوت الخفى/ السرى، وأيضا عن "الدفين" أو الخبئ فى بطن الأرض من الذهب أو الفضة! فلما تطورت وتلطفت وتجملت الظروف، أصبح النقد يعنى مجرد توضيح العيوب

والنقائص، أو حتى التناول التحليلى المحايد!

كذلك كلمة "التشنيع"، كانت تعنى لتقطيع أو التعذيب الفظيع، فأصبحت تعنى التشويه الشديد. وكلمة "تشويه" أيضا، كانت تعبر عما يشبه مايحدث للشاة من شيّ وسلخ وتمزيق، فانخفض معناها تماما. ونفس التطور حدث فى معانى كلمات "دمغ" و"سك" أو "صك" و"ماركة" أو "علامة"، الخ! وكلمة الخوف (خوفو) والهول (أبو الهول أو أبو الهون/ عذاب الهون) والرهبة (الرهبوت وبلد الرعب/ رَهَب أى مصر الفرعونية)، أصبحت كلمات مخففه جدا تبحث معانيها القديمة عن ألفاظ جديدة!

وهذا يتطبق أيضا على كلمة أعتقد أنها ترجع إلى الأصول الفيلولوجية لكلمة كاريگاتير، هى الكلمة اليونانية اللاتينية كيركوس التى أصبحت تنطق سيرك. وقد أخذت هذه الكلمة معنى "دائرة" بدلا من الكلمة اليونانية اللاتينية كوكلوس. لكنها كانت تعبر أصلا عن حلقة المتفرجين "العابثين" على عمليات التناحر الدموى بين العبيد أو بين العبيد والوحوش (على غرار مصارعة الثيران أو صراع الديكة). وفى مراحل مكافحة الغيبيات السرية بين العبيد فى العصور القديمة، أصبحت تعنى وضع الأشخاص القائلين بالمعجزات فى أقفاص الوحوش (للتأكد مما إذا كانوا ذوى كرامات إعجازية حقا أو مجرد غذاء للوحوش)،ثم أصبحت تعنى وضع المسيحيين (خصوصا من العبيد) فى مواجهة الوحوش فى ملاعب عامة. أما فى العصر الحديث، فأصبحت تعنى استعراض ألعاب الوحوش المروّضة والمهرجين والبهلوانات، الخ!

ولايتسع المجال للاشارة أيضا إلى تطورات وتحويرات وتحديثات كلمات النخس والخزق ونكاح الجن والهون والتنكيس والصلب والسيخ والمسلة (واسمها باليونانية القديمة أوبليسكوس أى سيخ الشوى أو سيخ التعذيب)، الخ الخ.

ونرجع إلى موضوع الكاريكاتير بمعنى الرسم الساخر.

إن من كتبوا عن تاريخ مصر القديمة، يشيرون إلي بعض الرسومات يسمونها هزلية أو كاريكاتيرية - **ومعظمها مرسوم على أوراق بردى فى المتحف البريطانى أو فى غيره.** من ذلك مثلا : رسم أسد وغزال يلعبان الشطرنج. ورسم نمر يقود سربا من

الأوز ويحمل له الماء والغذاء. ورسم ذئب يرعى الغزلان. ورسم فرس النهر / سيدقشطة فوق شجرة بينما النسر يحاول الوصول إليه على سلم خشبي. ورسم جوقة غناء وموسيقى تتكون من بعض الحيوانات (الحمار والقرد والوحوش) كل منها يمسك بآله موسيقية أو يغني. ورسم حرب الأجانب ضد المصريين في عهد الرعامسة في صورة هجوم من الفئران على قلعة القطط، الخ. ولاشك أنه بالمعنى الحديث للكاريكاتير، يمكن اعتبار هذه الرسوم كاريكاتيرية. لكن لكل مقام مقال. والكلمة يتغاير معناها إذا تغاير سياقها، كما يتغير معنى التصرف إذا تغيرت ظروفه. وفي سياق وظروف وفروق الأسماء والمسميات في تلك العصور الفرعونية، لايمكن اعتبارها رسوما هزلية أو كاريكاتيرية، لأنها كانت رسوما تعبر عن الجدّ لا عن الهزْل، وتعبر عن الرمز الكهنوتي النبوئي الصحيح لا عن التشويه والتحقير لمن يتمتعون بالاحترام والتوقير!

لاشك في أنها كانت تحمل السخرية والضحك. لكن ذلك كان من نوع يدخل فيما يسمى سخرية الأقدار، أو مفارقات القدر، أو الضحك المأساوي الذي يعبر عنه المثل القائل : "وتدبرون فتضحك الأقدار"! فالكهنة والأنبياء الفرعونيون الذين كانوا يسمحون بمثل هذه الرسومات ويحافظون عليها، كانوا صانعو مفارقات ومآسي وكوارث وانقلابات الأقدار في العالم كله، وليس في مصر فقط: هم الذين كانوا يستوردون الغزاة لابادتهم وترويض بقاياهم وتفريغ جوف دولتهم، ثم ركوبها بطريقة حصان طروادة المجوف واستخدام جهازها الامبراطوري قنوات توصيل وشبكات اتصال للنشاط الكهنوتي الغيبي التدميري في مختلف البلاد. وهم الذين كانوا يرسمون لكل فرد ذي قيمة "قسمته" أو "نصيبه" أو "مكتوبه" اللاعقلي المعكوس، بحيث يكون الحلق من نصيب شخص بدون أذنين، ويكون المشط من نصيب شخص أقرع، ويكون الذئب راعيا للغنم، ويكون مفتاح المطبخ من نصيب الفأر، وأن يمارس الوحش لعبة الاستموات / التماوت والوداعة لتستأسد عليه الضحايا الغافلة - أو غير ذلك مما تعبر عنه الأمثال والفولكلوريات الشعبية والأساطير القديمة.

وماهكذا كان الهزل أو الكاريكاتير عند القدماء! وإنما كان كاريكاتير النُّقُورة أو التنكيت عندهم، يعني سخرية التشويه والتحقير للملوك والوزراء والوجهاء وغيرهم ممن يهتم الكهنة وشبكات الكهنة بشحن العامة والرأي العام ضدهم، كجزء من المخططات القديمة للاثارة

الغوغائية وصناعة شحنات التمرد والفوضى والتخريب والمباعدة بين الحكام والمحكومين أو بين المبصرين والدهماء. وأوضح مثال على ذلك، هو ماتعرض له اخناتون من تشويه وتحقير وسخرية، بالرسم أو بالكلام والتشنيع، إلى درجة الربط بين اسمه وبين معنى الخنوثة، بحجة ماتعرض له من أعراض أنثوية فى تكوين جسمه نتيجة الهرمونات الأنثوية التى كان يدسها له الكهنة.

وبالمقارنة بالسخرية التشويهية التحقيرية هذه التى تعرض لها اخناتون مثلا، نجد أن **الرسومات المذكورة تعتبر فى ظروف القدماء نوعا من الرسومات الرمزية، أو بالأحرى : الشفرية.** وإذا نظرنا فى الاتجاه التبصيرى العقلانى، نجد نماذج لهذا النوع من التمثيل الرمزى فى القصص الرمزية التى على لسان الحيوانات فى كليلة ودمنة، وفى حكايات إيزوب ولافونتين. لكن الرسوم الفرعونية المذكورة تتخذ طبعا اتجاها عكسيا يعبر عن التدبيرات الكهنوتية المعادية للعقل والعدل. وهذا فضلا عن أنها كانت خاصة لاتعرض على الناس، ولاحتى على الكبار بشكل عام، ولكنها كانت محصورة فى إطار الكهنة وأتباع الكهنة - ومنهم خاصة الرسامين الذين كانوا يعتبرون مثل كتبة ونقاشى المعابد والقبور والبرديات من الطوائف السرية الوراثية المغلقة.

وباختصار، نقول إن هذا يشبه الفرق مثلا بين النظرة السياحية أو العلمية الأثرية المعاصرة إلى معابد ومقابر الفراعنة، وبين نظرتهم التقديسية الخاشعة إلى نفس هذه المعالم فى العصور القديمة.

وفى ظروف ولغة الحاضر، يمكن من ثم اعتبار رسوم المفارقات المقلوبة التى ذكرناها شبيهة بالرسوم الرمزية التى تستخدم حاليا فى الشعارات والشارات المزدوجة المعنى. من ذلك مثلا، استخدام امرأة معصوبة العينين رمزا للعدالة! (العمياء!). كذلك نجد من الرموز المزدوجة الاستطلاعية ذات الأصول الفرعونية، استخدام الثعبان والكأس رمزاً لمهنة الصيدلة، أو استخدام العصا وحولها الثعبان أو العصا ذات الثعبانين (صولجان هرمس السحرى!) رمزاً لمهنة الطب، وكذلك **استخدام الهرم الذى تتكون قمته من عين فرعونية مقدسة شعارا أو خاتما كبيرا للولايات المتحدة الأمريكية، الخ!!** فهذه كلها كانت رموزا كهنوتية مقدسة ذات أصول فرعونية، ثم أصبحت اليوم رسوما رمزية مقلوبة المعنى ولكنها رسوم "رسمية" للاستطلاع الذهنى وليس للهزل!

٢٣ أغسطس ١٩٩٠.

البند الثامن - بين تمثال موسى وبلطة موسولينى!![1]

✪ سأتكلم هنا مرة أخرى عن الأصول اللغوية لاسم موسى Moïse/ Moses، والكلمات المشتقة من نفس الأصل، مثلMuseum و music، الخ، وفى العربية: الموصى والمواسى، الخ. فالاسم والمسمى فى هذا الموضوع بالغ الخطورة تاريخيا: ليس أساسا بسبب ارتباطه بالاسرائيلية واليهودية، ولكن أساسا لأنه لم يعثر حتى الآن على أى أثر مادى أو كتابى أو أى نقش أو رواسب تاريخية ثابتة تشير إلى وجود شخص محدد يحمل هذا الاسم أو جماعة محددة تابعه له، وذلك منذ بدء التاريخ المسجل حتى بداية إعلان الفولكلوريات أو المحفوظات الاسرائيلية الخاصة به. وقد أُعلنت هذه فى حوالى القرن الرابع قبل الميلاد فقط، ثم كُتب وتُرجم بعضها حتى فترة ميلاد المسيح، وخصوصا بعد تحول بعض الاسرائيليين إلى المسيحية– مع تمسكهم بالفولكوريات أو المدونات التى تكونت منها أسفار العهد القديم. أما الفلتات التاريخية التى تشير إلى العبرانيين ثم إلى الاسرائيليين منذ الألف الثانى قبل الميلاد– كما سأذكر– فلم تشر أى إشارة إلى هذا الاسم.

وبالاضافة إلى بعض نصوص التوراة التى لم يبدأ تسجيلها فى التاريخ المعروف إلا فى الفترة المذكورة، وخصوصا بعد جمعها وترجمتها إلى اليونانية باشراف «لجنة السبعين» فى الاسكندرية، فى القرن الثالث قبل الميلاد بأمر بطليموس فيلاد لفوس (الثانى) الحاكم اليونانى لمصر إذذاك (بغض النظر عن أى تغييرات متتالية حدثت فى ذلك النص المفقود)، نجد أن أقدم

---

(١) صفحات هذا البند، بعضها مضاف مجددا وبعضها ملخص أو مقتبس (مع بعض التعديل المناسب) عن عدة خطابات كبيرة كتبتها وراء أسوار العباسية، منها خطاب الدردشات رقم (١٠) المؤرخ فى : الأحد ٣ أكتوبر – الاثنين ١٨ أكتوبر ١٩٨٢. وكنت قد انتظمت منذ بداية الثمانينات فى كتابة خطابات شهرية كبيرة (حوالى مائة صفحة على الأقل) بعنوان "دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين"، تحتوى على كميات كبيرة من التحليلات والأفكار والقراءات فى الفلسفة والعلوم والسياسة والتاريخ واللغويات، فضلا عن بعض صفحات مخصصة للوقائع الشخصية. وقد وصلت تلك الخطابات الشهرية الضخمة إلى رقم (٥٦). وكنت أرسل مسوداتها ومنسوخاتها الكربونية الثلاث بانتظام إلى النائب العام وحزب التجمع والمسئول الثقافى للاذاعة والتليفزيون (فؤاد كامل)، مع شخص رابع. وكانت بالعامية تقريبا.

نص آخر تضمن إشارة إلى ذلك الاسم هو أحد كتب جوزيفوس فلا فيوس اليهودى السكندرىJ. Flavius فى القرن الأول بعد الميلاد– وهو نص نقله عن كاهن مصرى عاش فى القرن الثالث ق.م، واعترف بوجود اختلاطات والتباسات كثيرة حول ذلك الاسم وصاحبه(١).

وعلى كل حال، فالموقف واضح تاريخيا بخصوص تداول ذلك الاسم خارج إطار الجماعات الاسرائيلية المحكومة كهنوتيا–كاسم لشخص محدد وليس كاسم لمنصب أو دور قيادى. ذلك أنه لم يبدأ تداوله تاريخيا إلا منذ القرن الثالث قبل الميلاد، رغم أن المحفوظات والتلقينات الأسطورية المقدسة للاسرائيليين المحكومين كهنوتيا عن الاسم والمسمى ظهرت عندهم بلا شك قبل ذلك بقرون عديدة (ربما منذ مرحلة المجازر الواسعة التى ارتبطت بوصول داود إلى العرش)، على غرار عشرات الأسماء المقدسة المرصوصة فى سفر التكوين مثلا، والتى كانت عبارة عن كلمات ذات معان تاريخية قديمة ثم حولّها الكهنة القدماء إلى أسماء أعلام مقدسة، لا غلاق «ملفاتها» القديمة ومنع التحليل والتفكير فى معانيها ومضموناتها!!

وفى التاريخ اليونانى المعروف، ظهر فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد شاعر كهنوتى يحمل هذا الاسم، هو موزايوسMusaeus، أشار إليه هيرودوت ثم أفلاطون(٢). وهو كاهن ومتنبئ يختلط شخصه بشخص الشاعر الكهنوتى الصوفى الروحانى والعربيد أورفيوسOrpheus، الذى يقال إن اليونانيين قتلوه فى إحدى مراحل فرض العبادات الوثنية والباكوسية على اليونان. ويقال إن أورفيورس كان «موسويا»–بمعنى أنه كان ابن إحدى ربات الالهام التى كانت كل واحدة منها تسمى عندهم «موسا» كما سأذكر! لكن من المعروف أن أورفيوس أدخل فى التاريخ اليونانى المسجل،ما يسمى الكتابات أو المنظومات المقدسة الموحاة (= الملقنة بالوحى)، وخصوصا فى موضوع أسماء وأصول الآلهة المزعومين وشجرة نسبهم! ويقال إن موسايوس المذكورة، كان ابنه أو تلميذه أو الراوية الذى كتب عنه أشعار الوحى الخاص بالطقوس والأساطير الأورفية، فضلا عن الأناشيد الصوفية والتنبؤية التى تنسب إلى هذا أو ذاك. أما هومير مثلا، فقد استخدم كلمة موساMousa: ليس فقط كاسم إلهة أنثى، ولكن أيضا باعتبارها بنت رئيس الآلهة زيوس!

وبسبب الموقف الفولكورى الأوروبى القديم المتوارث الذى لم يكن يعترف بما يقال عن

---

(١) انظر مثلا ماأورده لويس عوض عن ذلك فى كتاب "فقه اللغة العربية"، ص ص ١٣ – ١٦.

(٢) لاحظ أن الانسيكلوبيديا بريتانيكا حذفت من طبعاتها الحديثة مادة موزايوس التى كانت توجد فى طبعاتها السابقة منذ ماقبل الحرب العالمية الثانية. وتوجد فقرة صغيرة عنه فى طبعة ١٩٤٨ التى بددت بعض مجلداتها فى دار الكتب بباب الخلق! ثم اختفى ٨٧ بعد ذلك!

الموسوية أو الاسرائيلية، ظهر فى أوروبا فى بداية عصر المسيحية كتاب أو سفر منسوب إلى موسى (بقيت منه نسخة لاتينية)، أطلق عليه اسم «دعوى موسى» (= السفر المدعى نسبته إلى موسى!). واتضح للباحثين الكهنوتيين فى الكنيسه، أنه كتب فى العقود الثلاثة الأولى بعد ميلاد المسيح، للتبشير بظهور المخلّصين أو المسحاء أو الحقانيين (وبالعبرية محقق Mehoqeq / orderer). وواضح أن اسم ذلك السفر، كان يستخدم في فرز واستطلاع المتشككين فى وجود موسى نفسه، مع تحريف اتجاههم إلى التشكيك فى بعض مدونات الوحى المنسوبة إليه وليس فى الموحى إليه نفسه!

لكن طبعا لا يدخل في موضوعنا هنا مناقشه الرأى الذى يؤكده بعض المؤرخين العلمانيين للعصر القديم بخصوص إنكار وجود الاسم أو المسمى المذكور واعتباره اسما أسطوريا مثل الكثير من أسماء الأرباب والأنبياء الأسطوريين فى العبادات القديمة. ذلك أننا نرى أنه حتى الأساطير المزيفة لها أصل أو مصدر واقعى كان المطلوب تغطيته أو تحويره وتبديله أو تشويهه وتعكيسه، الخ. فلاتوجد عملة مزيفة إلا إذا كانت بديلة لعمله صحيحة. **والحقيقة المؤكدة فى هذا الموضوع، هى أن كلمة موسى/ موسا كانت تعنى فى أصلها اللغوى المرشد أو الموجِه أو المعلِّم، أو القائد العقائدى/ الزعيم الروحى بالنسبة للجماعات، والمدبِّر أو المشير /المستشار (=الوزير) بالنسبة للملوك، الخ.** أى كانت تعنى عموما صاحب الأفكار والتوجيهات والوصايا والتعاليم. وهذا يشبه أصل معنى اسم أوزير (وبالتصرف اليونانى أوزيريس) أى حاكم أو «وزير» الوجه البحرى، الذى حوّله الكهنة المصريون إلى اسم إله الموتى، وحوّله الكهنة الاسرائيليون إلى اسم ابن الله أو الرب «عُزير» (كما سجل القرآن)، بينما أدمجه الآخرون فى اسم إسرائيل واستخرجوا منه اسم ملك الموت عزرا- إيل (= عبد الله).

وإذا كان من الخطأ أن تستخدم وصف «المرشد العام» -الذى كان يوصف به الشيخ حسن البنا مثلا- كما لو كان اسما شخصيا له وليس وصفا لمنصبه، بحيث تختلط عليك الأمور إزاء تعدد وتنوع من يتولون مثل هذا المنصب بعده أو فى جماعات أخرى، فهكذا الأمر بالنسبة لما يسمى فى اللغات الشرقية القديمة «الموصى» أو «المواسى». فالأصل القديم للمواساة لا يتعلق بالتعزية كما تحّور معنى الكلمة فى الكتاب المقدس وغيره، ولكنه يعنى- كما يتضح فى اللغة العربية القديمة- **تحقيق الأسوة أى التساوى والانصاف**. ذلك أن

أصل معنى أسا /يأسو، هو تفريج الكربة بالحق والعدل والانصاف والرأى الصحيح، وليس أساسا بالعطف والطب كما تحور معناها بعد ذلك فى المصرية القديمة ثم ما بعدها! فأصل المواساة هو المساواة (التى اشتقت منها تعكيسيا التسوية بالنار وتسوية الهوايل والسواستيكا/ الصليب المعقوف، الخ!). ولهذا نجد فى اللغة العربية القديمة (وحتى اليوم) أن الموسى/ الموسا هى الشفرة ذات الحد الشديد الاستواء، وأن الفعل «أوسى رأسه» يعنى حلقه! وهذا الأصل هو نفس أصل كلمة «المسيّا» Messiah التى تحورت بعد ذلك إلى كلمة المسيح/ المشيخا بالمعنى الدينى الغيبى أو الكهنوتى. ولهذا تترجم : المخلّص .

وفى التاريخ الاسرائيلى مسحاء كثيرون، قبل ظهور المسيح المعروف يسوع النجار/ عيسى ابن مريم. أما صفة المرشد أو المعلم أو «أبو الأفكار»، فقد تكررت كثيرا أيضا، لكن اتخذها فى الحالات المشهورة كهنة وسحرة من النوع الاسرائيلى الشامانى الغجرى، كانوا يفرضون قهرهم على أتباعهم بالسحر والرعب والتعبيد الذى لا يمت بأى صلة إلى معانى الرأى والفكر والتوجية العقلى! وهذا واضح فى تحول كلمة «تعليمات» مثلا، من معنى الدروس التعليمية إلى معنى الأوامر الملزمة، أو «التعاليم» المقدسة!

ورغم وضوح الأصل التوجيهى العقلى لمعنى كلمة «موسى» فى اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية القديمة، إلا أن أصل المعنى العقلانى أوضح كثيرا وبشكل حاسم فى اليونانية القديمة ثم اللاتينية. فكلمة musa/mousa تعنى الموهبة أو الدراسة والتعليم أو العلم، ومنها Museum أى صومعة الدراسه والتأمل (أو متحف التأمل)، وأيضا المكتبة أو المعهد. (ولهذا كان اسم موزايون الاسكندرية البطلسية يترجم متحف ومكتبة ومعهد أو جامعة الاسكندرية). ومن هنا، كان اسم الموسى أو الموصى يعنى عندهم المعلم أو المربى. أما كلمة mythos/Muthos، فتعنى أسطورة- بمعنى كتابه مسطورة نقلت عن القدماء.

لكن كالمعتاد، ونتيجة التقاليد الفرعونية للقهر التعبيدى، والرهبوت الدينى الشامل الذى كان يفرض التحويرات والتعكيسات الخرافية على المنقولات القديمة واللغويات والموروثات الفولكلورية القديمة، جعلوا كلمة «موسا» اسما تنادى به ربه الالهام العقلى! بل وجعلوا أسماء المواهب العقلية (وأشهرها طبعا الموهبة الفنية الموسيقية!) أسماء تتعلق بربات أو جنيات إلهية غيبية هى التى تملى هذه الالهامات العقلية السحرية! بل وحتى كلمة mneme أى «ذاكرة»، جعلوها اسماً لأم هذه الربات أو الجنيات أو الموسات!! ومثل هذا التعكيس التخريفى، نجده

عند العرب القدماء الذين نسبوا الالهام الشعرى مثلا إلى ما يسمى «شيطان الشعر»- ليس بالمعنى المجازى الذى استعملت به الكلمة بعد ذلك خصوصا فى العصر الحديث، لكن بالمعنى الحرفى الذى تؤكدة النصوص والوقائع العربية القديمة!

وهذا ما نجده فى كل الكلمات أو الأسماء المفتاحية والاستراتيجية فى التاريخ القديم، حيث تتحول من كلمات ذات معنى إلى أسماء غيبية مقدسه، ومن ثم لايجوز تحليلها ومناقشتها والبحث فى مضموناتها الفكرية والتاريخية!! ونتيجة ذلك، أهملوا المعنى الواضح الثابت لغويا لكلمة موسايون museum وهو مطاف التأمل العقلى الدراسى (حيث كلمة متحف العربية أصلها مطاف/ طواف)، وادعوا أن الكلمة ترجع إلى اسم المكان الذى كانت تجمع فيه تماثيل الموسات أو ربات الالهام العقلى!! وبنفس التقاليد الفرعونية اللاعقلية التى فرضت على اليونان، ظهرت التعكيسات الغيبية فى معانى مشتقات تلك الكلمة،مثل : mythos أسطورة بالمعنى الخرافى وMistura / mystery بمعنى السر المستور أوالتخطيط غير المفهوم، و -mys ticism/ mystae بمعنى الجمعيات الدينية السرية، ومنها الحركات الصوفية، الخ الخ!!

وقد أوضحت كثيرا أن كلمة بوهودية أو بهودية Bhoudism (باستخدام الباء بمعنى أبو للتعبير عن صيغة الملكية أو الوصف[1]، أو باستخدام يو/هو أداة تعريف يونانية قديمة)، كانت تعبر أصلا عن مذهب الهدى أو العقلانية، ثم تحولت إلى معنى الاسرائيلية المصرية (= الاسرائية أو المسرائية+ إيل/ الله) التى تخلط بين الوثنية والتأليه التوحيدى، والتى تبدأ أدنى فروعها القديمة من الشامانية شبه البدائية، وعبادات وتقاليد الغجر (الهجر/ الجبسى= أهل الهجرات أو الاسراءات المصرية)، لتصل أيضا إلى الاسرائيلية المعروفة فى الكتاب المقدس. ومعنى ذلك أن الاسرائيلية المخلوطة كانت دينا مزيفا أو مصنوعا فى مراحل تاريخية لاحقة، اتخذ بعد ذلك اسم الهودية **للتغطية على الخروج البحرواى والهجرات البحرواية العقلانية الأقدم التى انطلقت بشعله برومثيوس فرارا من طاغوت الكهنة فى عصر الاكتساح الجنوبى الفرعونى للدلتا المصرية منذ أيام**

---

(١) لاحظ أن الباء أو تصريفاتها الثلاثة (بو / با/ بى)، مثل الميم أو تصريفاتها الثلاثة (مو/ ما/ مى)، كانتا تستعملان فى اللغات الأقدم للتعبير عن صيغة الملكية أو صيغة الوصف. ومن ذلك مثلا فى الكلمات القديمة : أبو هودا/ الهودى، وأم إسرا / مسرا أى دار الأسر أو السجن أو دار العبودية، ومهجر/ دار الهجرة (المهجور منها أو المهجور إليها). وفى العربية حتى اليوم : أبو الشام/ الشامى، وأم أربعة وأربعين/ ذات الأربعة وأربعين رجلا، وأم خمسة/ القطعة ذات الخمسة قروش.

نارمرومينا(١)، حيث ادعى ذلك التزييف الاسرائيلى أن الاسرائيليين هم الشعوب البحراوية البيضاء التى استعبدت بقاياها واستخدم عبيدها فى بناء الاهرامات وغيرها، وأن تلك الشعوب البائدة كانت غير مصرية لكن دخلت مصر من الشام (وكلمة شام/ سام تعنى الشمال!) ثم طردت من مصر إلى الشام تحت حماية المعجزات الغيبية!

ونفس هذا التزييف الكهنوتى حدث لاسم «العبرانيين»، الذين يرى بعض المؤرخين أنهم هم «الكنعانيون» أو فرعا من فروع «الكنعانيين»، ويقولون إن اللغة العبرانية الكنعانية كانت أول اللغات ذات الأبجدية فى الشام قبل اللغة الفينيقية (ولاحظ أن كلمة كنعان تعبر عن الماضى الأقدم عموما، بمختلف عصوره وشعوبه!). بل إن النصوص الاسرائيلية الكهنوتية نفسها، تعترف بوجود العبرانيين السابقين على وصول الاسرائيليين، والذين تحول بعضهم إلى عبيد للاسرائيليين. ومع ذلك، تحولت عبرانية القرون الأولى من الألف الثانى قبل الميلاد إلى معنى الاسرائيلية التى تنسب إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد!

وهذا التزييف لم يقتصر فقط على طمس وتغطية هجرات مصرية سابقة بهجرات مصرية لاحقة، مما أتاح لأمثال مانيتون وجوزيفوس أن يعتبروا هكسوس القرن الثامن عشر قبل الميلاد (الذين كان منهم عبرانيون) هم من بنى إسرائيل الذين وصلوا إلى الشام بعدهم بقرون عديدة، بل إنه يطمس ويغطى أيضا الفروق العقائدية والفولكلورية واللغوية بين هؤلاء وأولئك، ويطمس ويغطى أن العبرانيين الأسبق (وأنا أدرج فيهم الفينيقيين /الفينيكسيين والآراميين/ الأهراميين الأوائل) كانوا بدوًا متمردين هاربين من شرق الدلتا وسيناء، بينما الاسرائيليون بعد اخناتون كانوا مجموعات مصنوعة ومروّضة وملقنة فى سجون ومعسكرات الترويض وقردخانات التلقين الترتيلى فى مصر، ومخصصين للتهجير الجماعى والزحف الاسرائى أى الاكتساح التعبيدى تحت قيادات كهنوتية عسكرية صارمة تقسمهم إلى مجموعات تسميها "قبائل"! **ثم الأهم والأخطر، أن هذه الموجات المتتالية من الهجرة التلقائية أو من التهجير المروّض المصنوع، هى موجات كهنوتية متزايدة التخلف ومتزايدة التدهور، تخفى وتطمس وتغطى على الأصل التاريخى الأول والأقدم والأكبر لموجات الهجرة أو الخروج التيميرى البحراوى من مصر بشعلة برومثيوس، فرارا من الكهنوت**

(١) لاحظ أن بعض الاكتشافات الأثرية المصرية التى عرفت أخيرا، ترى أن نارمر ربما يكون قد سبق مينا بعدة قرون أو عقود (أى أنه ظهر فى مرحلة الزحف الجنوبى الدموى على شمال مصر قبل استكمال الاخضاع الفرعونى للشمال وموانى الشمال).

وصراعا ضد الكهنوت فى مصر وخارج مصر وليس العكس!!

ولهذا، أرجح أن كلمة "خبيرو"/ "عبيرو" Apiru/ Hapiru/ Habiru هى كلمة لم ترتبط فيلولوجيا بمعنى "عبور" سيناء إلامتأخرا، وأن أصلها الفيلولوجى ربما يرجع إلى جذر معنى "الخبرة" و"العبرة"/ الحكمة و"التعبير" اللغوى (اللوجوس)، أى إلى معنى العقل الذى كانت تعبر عنه كلمات "هودا" و"حور" و"سكن" و"سلم"، الخ. ويدعم هذا الرأى، أن الاسم القديم لايرلندا – وهو Iberia/ Hiberia (وهذا هو أيضا الاسم القديم لايبريا القوقاز/ جورجيا وإيبيريا البحر الأبيض حيث إسبانيا والبرتغال)- كان مرادفا عندهم لاسم Ire/ Eire من نفس أصل الكلمة اليونانية eirene أى سلام أو سكينة. ولهذا أرجح أن تكون الكلمة المذكورة كلمة تكرارية من جزءين مترادفين هما : إب/ قلب (كما أوضحت فى ص ٢٢) + أير.

ومن ناحية أخرى، فهذا التزييف الكهنوتى ينطبق أيضا على تقاليد عبادة الثور أو البقرة، وعلى كلمة تورات/ توراه Torah التى هى صيغة أخرى من كلمة "تراث"، للتعبير عن تركة "القرون الأولى" (أو للتعبير عن مجموعة الأسفار القديمة المتعددة – مثل "الأسفار الخمسة الهندية" التى ترجم ابن المقفع منقولها الفارسى بعنوان "كليلة ودمنة")، وليس للتعبير عن خرافات فرعى أو قرنى البحر فى طور سينا! كذلك ينطبق هذا التبديل التزييفى للتاريخ على كلمة "موسى" التى تحولت إلى معنى الكاهن أو الساحر، ثم تعرضت لتحولات أخرى بعد تحويرها إلى موشى[1] (بالطريقة العبرية الاسرائيلية المعتادة فى تحويل السين إلى شين فى مراحل عدم تنقيط الحروف الشرقية)، ومن ثم إلى موچى (بتعطيش الجيم). ورغم أن كلمة magister كانت تعنى قاضى أو معلم، وكلمة magus حكيم، إلا أن الكلمة الثانية أصبحت تعنى أيضا ساحر magician أو كاهن من كهنة "المجوسية" السحرية التنجمية وليس مجوسية الهدى والحكمة!

وبخلاف الاسرائية أو المجوسية شبه البدائية الغارقة فى السحر الوثنى التى ذكرت من أمثلتها السفلى الشامانية ومعتقدات الغجر، كانت توجد أنواع "مقبولة" نسبيا من الاسرائية والمجوسية (لاتركز كثيرا على التوحيد الإلهى الذى تعبر عنه كلمة "إيل"/ الله). ومن ذلك مثلا، مجوسية الفرس ومجوسية الهند (التى تتلمذ عليها وتفرع منها أمثال زرادشت وبوذا/ بهودا

(١) فى التخريجات الكهنوتية، يقول الكتاب المقدس إن أصل موشى/ موشية مشتق من معنى الانتشال أو الالتقاط! (أى أنه من نفس جذر ماشة/ ملقاط!). وبغض النظر عن القصص التى اخترعوها لتبرير ذلك، فالمهم أنهم استخدموا صفه اللقيط أو المنبوذ فى تبريرات كهنوتية أخرى بعد ذلك!!

السكياموتى(١)). ومن ذلك أيضا معتقدات العرب الذين أطلق عليهم الاسلام اسم "المشركين"، أى معتقدات "التأليهية المشركة" henotheism. فقد كانت الاسرائيلية المجوسية المختلطة توجد واضحة تاريخيا عند هؤلاء العرب- ولكن تحت أسماء مختلفة أو بدون أسماء - خصوصا فى منطقة الخليج وعند أهل مكة ويثرب والطائف، وغيرهم ممن استوطنوا الجزيرة العربية بعد وصول أجدادهم من البلدان المجاورة. وكان هؤلاء يؤمنون بالله، وأيضا يقدسون الأوثان، كما يقدسون اسم موسى (ويحتفلون بما يسمى يوم هجرة موسى أو يوم كيبور/ الغفران الذى كان يسمى فى مكة المشركة يوم عاشوراء!!)، كما كانوا يحترمون "أحبار" اليهود الموجودين فى اليمن أو فى بعض مواقع الحجاز (باعتبارهم علماء أو خبراء وليس باعتبارهم هم وحدهم الهوديون أو أهل الهدى!)

وفضلا عن ذلك، وفى الناحية الأخرى من أقصى الأرض فى شمال غرب أوروبا، نجد مثلا مايسمى الدروية / الدرودية Druidism التى استمرت عند الكلت فى فرنسا وإيرلندا والجزر البريطانية حتى عصر الرومان (حيث كلمة drui بالايرلندية القديمة مشتقة من جذر يعنى to know، أى من نفس أصل درى/ يدرى/ درس، ولكنها أصبحت تعنى أيضا ساحر!). ومن أشهر أسماء ملوكهم اسم الملكة بوديكا أو بوديشيا Boudicea/ هودية أو مهدية، التى هزمها الرومان فى القرن الأول الميلادى. كذلك نجد فى الهند مايسمى الدرافيدية/ الدراويدية Dravidism (وأصولها اللغوية تكاد تكون متطابقة مع أصول اسم الدروية الأوروبية التعبير عن المعرفة أيضا!). ومن أشهر أتباع الدرافيدية التاميل. ومن أهم مدنهم القديمة فى جنوب الهند : مدينة "مدراس"، ومدينة "إيوديا"/ "إيودهيا" المقدسة (=Judea أى يهوديا أو هوديا أو بالتعبير الاسرائيلى يهوذا!). ومن نفس الأصل الذى أنقلب تعكيسيا، نجد الكلمة العربية المعروفة درويش!

ومشتقات هذا الجذر تختلف طبعا عن مشتقات الجذر المشار إليه فى كتابات أخرى : ره/ رأى/ رع/ رس/ رأس/، الخ، والذى اشتقت منه كلمات روما وروسا ويروميثيوس و /reason ratio وبرهان من ناحية، وكلمات برهما brahma (=معرفة) والبرهمانية الخرافية وابرهة وابراهيم من ناحية أخرى. والأرجح أن كلمة درافيدا المذكورة هى كلمة تكرارية أى تتكون من

---

(١) لاحظ أن معنى اسم بوذا فى السنسكريتية هو "الحكيم". ومع ذلك، نسبت البوذية/ اليهودية إلى هذه الكلمة كما لو كانت اسم علم وليس التعبير عن الحكمة!!

جزءين مترادفين، حيث veda تعنى بالسنسكريتية "معرفة" أيضا! ونفس التعكيس التخريفى واضح فى تحويل كلمة الغنوصية gnosticism إلى معنى المعرفة السحرية!

✪ ونرجع إلى كلمة موسى.

فاذا نظرنا إلى كلمة musée/ museum، نجد أن هذه الكلمة المرتبطة باسم موسى ومن ثم باسم الاسرائيلية الهودية، يمكن أن توضح من حيث أصلها اللغوى مدى ماارتكبه التجهيل الكهنوتى ضد التأمل العقلى فى الآثار وفى التكوينات الفنية فكريا (قبل أن يستخدم الترفيه والتلذيذ السياحى الحديث فى القيام بنفس المهمة التجهيلية!). فالاكتساحات الاسرائية أو الغجرية أو الدروسية المذكورة، استطاعت بالرهبوت الدموى الأنكى أن تحول المتاحف والمدارس إلي معابد ومدارس دينية، واستطاعت أن تقلب كلمة contemplare/ templare تعكيسيا من معنى التأمل إلى معنى العبادة اللاعقلية حتى لقطع الحجارة وليس فقط للتماثيل الفنية، وأن تقلب كلمة idola المشتقة من جذر idea أى فكرة إلى معنى الأوثان الخرافية المعبودة!! والنتيجة أن متاحف التأمل "الموساوية" فى مختلف أرجاء العالم التى وصلت إليها شعلة برومثيوس، انقلبت إلي معابد للتعبيد والتسجيد والتنكيس والرعب، ومن ثم للتخريف أو العربدة والجنس والبغاء! وكان ذلك يتحقق بعد مراحل مطموسة أو ملغاة من التاريخ المعروف، تستخدم فيها المعابد أماكن متخصصة للتعذيب وذبح وسلخ "الكفار" أو ذبح القرابين البشرية عموما. ويستمر ذلك الرعب والرهبوت، حتى يصل إلى الدرجة التى تحقق التأثير النفسى المطلوب ذاتيا وتلقائيا وبالتربيطات الذهنية العامة، مع القليل من الاشارات والرموز المموهة، ومن ثم يتحول الرهبوت المكشوف إلي رهبوت سرى ثم إلى تقديس معتاد ومتوارث (لايستطيع أن يشكك فيه إلا القادرون على التفكير العقلى - أى الذين يستحقون التصفية الخاصة!).

وأبسط مثال مصغر يمكن أن نذكره هنا لتوضيح الطابع الذهنى النفسى لميكانيزمات التربيط والتعكيس فى شحنات الرعب التعبيدى المكشوف الذى تعرضت له مختلف الجماعات المستنيرة الآمنه (منذ الألف الثانى قبل الميلاد)، هو مثال من "التقاليد العريقة" لارهاب السجون المصرية كان يحدث فى عمليات التعذيب "التقليدى" المكشوف فى السجن الحربى فى عهد عبد الناصر، حيث كانوا يرغمون المساجين المكسورين المرعوبين على أن يسمعوا ويرددوا بعض أغانى أم كلثوم فى "حفلات" رعب يومية أحيانا! وبذلك كانت شحنات الرعب والألم والشلل الذهنى - على هذا المستوى المصغر المحدود - تحل عندهم محل تأثيرات التمتع

والتذوق الفنى عند سماع أغانى أم كلثوم، بل وعند سماع اسم أم كلثوم فقط!!

وفى العصور الوسطى، وبسبب عدم وجود أى رسم أثرى يشير إلى موسى، كلف الفاتيكان الفنان ميشيل انجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) بأن يقيم تمثالا يتخيل فيه النبى موسى. ويدأ الرجل طبعا هو وأصحاب البحث والمعرفة يجمعون المعلومات التى تفيد فى تصوير الشخصية المطلوبة، فى عصر بدأت فيه إرهاصات النهضة الحديثة والتنوير والتشكيك فيما يقوله الكتاب المقدس ورواة الكنيسة عن التاريخ القديم وعن الاسرائيلية اليهودية! وبذلك، وبعد أن أكمل ميشيل أنجلو تمثاله المشهور، وبعد أن تحول بذلك إلى رمز لمن يتعرض للتاريخ القديم والروايات التعبيدية والكنسية القديمة عن موسى، حلت عليه "لعنة الفراعنة"، فأصيب بأغرب الأمراض فى ذهنه وجسمه حتى مات ميتة غريبة! ونُسب ذلك كله إلى بحثه وتفكيره فى "أسرار" الأديان القديمة عند نحت التمثال! وهذا ينطبق عموما على أى محاولات للبحث والتنقيب عن الفلتات التاريخية الصحيحة المنثورة كالتبر فى ركام التراب القديم، أو عن "القطع" التى يمكن العثور عليها من أشلاء جسد الحقيقة الممزق والمبعثر فى ركام التاريخ المعروف.

ولاحظ أن عملية الالتقاط والتجميع الفسيفسائى فى الفن، تحمل فى اللغات الأوروبية اسما مشتقا من جذر موسا، هو mosaic الموزاييك - ليس فقط للتعبير عن دور العقل والالهام الفكرى فى عملية تشبه عملية تجميع صورة صحيحة من قطع ممزقة تبعثرت، بل وأيضاللتعبير عن أن موضوع الموسوية الاسرائيلية بشكل خاص يفرض هذا المنهج التجميعى التكاملى (وهو منهج يمكن أن تعبر عنه الكلمة الحديثة eclecticism - بمعنى الانتقائية الفكرية الصحيحة).

● وفى الثلاثينات والأربعينات فى مجزرة الحرب العالمية الثانية، تكررت عملية "لعنة الفراعنة" فى نفس موضوع موسى والاسرائيلية، لكن برموز أقل انكشافا! من ذلك مثلا استخدام اسم موسولينى (المشتق من موسى!) بدلا من تمثال موسى، مع استخدام محور أو بلطة الاتروسك (الاسرائيين ذوى الاثنى عشر قبيلة) التى تسمى fasces/ فاشية والتى لايعرفها إلاالمتخصصون، واستخدام الصليب المعقوف/ السواستيكا crux gammata/swastika أى صليب الدلتا والمشنقة ووردة الرياح، الذى يعبر عن العذاب الأنكى المرتبط بلغز الدلتاتين/إنيجما داودا (=نجمة داود).

ومع ذلك، يجب ألا ننسى أن الأعمال الفنية فى المعابد الكهنوتية القديمة كانت ذات قيمة

تاريخية وفكرية مفيدة – ليس فقط بالنسبة للعصور التالية التى يمكن أن تفهم أو تستفيد من معانى أى أثر قديم، لكن أيضا بالنسبة لنفس العصر الذى يمكن أن تخترق ظلامه التجهيلى بعض أفكار وإيحاءات الفنان الذى يصنع تلك الأعمال الفنية الدينية. ولهذا كانت تتكرر دائما فى الشرق والغرب، حركات مايسمى "تحطيم الأيقونات"iconoclasm، لتدمير ومنع أى أعمال نحت أو نقش أو رسم أو فنون تشكيليةعموما، تكون ذات معان تعبيرية، أو حتى تكون مفيدة فى تسجيل بعض المعلومات التاريخية المطلوب طمسها فى المستقبل!

وعلى سبيل المثال للتوضيح السريع للفوائد التاريخية البحتة لبعض المنتجات الفنية الخرافية المعبرة، يكفى أن نشير إلى الرسومات والنقوش اليونانية القديمة لأبو الهول/ فنكس/ سفنكس اليونانى (فى قصة أوديب مثلا) التى تبين أنه **أم هول أنثى ترتكز على عامود!** ويكفى أن نشير أيضا إلى تمثال الإله الهندى سيفا Civa/ Siva (أو أيضًا كيفا/ Cavea / كهف؟)، وله أربعة أذرع تعبر عن انتشاره فى الأركان الأربعة للأرض! وهذا الإله المرعب، هو فى الأساطير الهندوكية إله الخراب وأيضا إله الخصوبة والتناسل!!

البند التاسع - العقلانية والفن
١- الإيحاءات الفكرية للفن الراقى[١]

[.......]

✪ على سبيل المثال، سأشير هنا إلى بعض صور اللوحات أو صور التماثيل التى أتأملها أحيانا فى قاموس لاروس الجديد الذى وصلنى عام ١٩٧٦ (باعتبار أنه المصدر الفنى الوحيد تقريبا المتاح لى وراء أسوار العباسية!). ثم أنتقل بعد ذلك إلى تعليق سريع عن الدور الفكرى للفن الراقى، أى الذى يحمل أفكارا ويفيد معان تخاطب العقل، والذى تكون إيحاءاته الفكرية ومعانيه قادرة على تنشيط التفكير ودفع تسلسل الأفكار والاستنتاجات.

فمثلا، نجد فى لاروس صورتين عن آلام المسيح بعنوان ecce homo، إحداهما عن تمثال للنحات الاسبانى ألونو كانو Cano (١٦٠١ – ١٦٦٧). وهذه العبارة اللاتينية إيكّو هومو (وتنطق بالفرنسية إكسومو)، ترجمتها المعروفة فى الأناجيل :"هوذا الرجل (أو الانسان)"/ Voici L'homme / Behold the Man. وقد ارتبطت بعملية الارشاد والتبليغ عن المسيح (المنسوبة إلى يهوذا – وهذا الاسم يعنى المرشد أوالهادى!)، أى بعملية تسليمه إلى الصليب. لكن الأصول اللغوية اليونانية اللاتينية لهذا التعبير وتربيطاته الفيلولوجية، تشير بوضوح إلى معانى الألم والتخس والخزق، وليس إلى معانى الإرشاد! وهذا الانطباع الوجدانى والفلكلورى القديم، نجده واضحا ناطقا فى الصورتين المذكورتين. فوجه المسيح فى تمثال كانو ينطق بالألم والتوجع، وحول رقبته عقدة المشنقة من حبل غليظ جدا (العقدة والشنيطة/ الانشوطة التى يعبر عنها اسم الصليب المعقوف ويعبر عنها شكل حرف الدلتا المصغر gamma أو حرف التاء المربوطة). ولاحظ أن ألونسو كانو هذا، اشترك فى رحلات ماجلان البحرية، وكان له معرفة وفيرة فى الجغرافيا والتاريخ.

أما الصورة الثانية – التى تحمل نفس العنوان إكّى هومو / إكسومو – فهى لوحة رسمها الفنان الايطالى رينى جويدو، وشهرته Guide (١٥٧٥ – ١٦٤٢). ولاحظ أن اسمه يعنى

---

(١) هذا الموضوع مأخوذ عن الخطاب رقم (١٠) فى أكتوبر ١٩٨٢، المشار إليه فى هامش البند السابق (وهو من خطاباتى الكبيرة المعنونة "دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين").

المرشد – وأصله هو جودا/ يهوذا الذى أشرت إليه!! وفى اللوحة التى تعبر عن شدة التألم والتوجع والاستسلام، نجد مايشبه الرمح الطويل. ونفس هذه المعالم تقريبا، نجدها فى لوحة الفنان الايطالى أندريا مانتيجنا (١٤٣١ – ١٥٠٦) عن القديس سباستيان، وهو مقيد بالحبال فى عامود ضخم وقد اخترق جسده رمحان من الجانبين.

ولاحظ أن المعالم الفنية المذكورة، ظهرت فى القرون الثلاثة الأولى من عصر النهضة أو الاحياء. ورغم أن خبراء صناعة الرهبوت فى أجهزة الكنيسة كانوا يعتبرونها إنذاك من وسائل الرعب المقدس ضد التحرر الفكرى، وأيضا وكالمعتاد من وسائل الفرز والاستطلاع لالتقاط من يفهمون أسرارها التاريخية وأصولها الفيلولوجية، إلا أن الفنانين الذين صنعوها كانوا يعبرون بها لاشعوريا أو بوجدان فكرى غير محدد عن اتجاهات الناسوت التى بدأت تحل فى أوروبا إنذاك محل اتجاهات اللاهوت، كما كانوا يعبرون بها عن الاحساس الفولكلورى العام بأن الصليب هو رمز العذاب والآلام وليس رمزاً للعبادة والتقديس، وعن أن المسيح هو فى نظرهم رمز للانسان المعذب المتألم المقهور وليس ابن الله الذى يرمز إلى الألوهية والقيامة، الخ! (وهذا ماعبر عنه مثلا عباس العقاد فى الشعار الذى أورده عن بعض الفرق الأوروبية المتمردة على الكنيسة: "مامن أحد يعبد المشنقة التى شنقت أباه"!).

والابداع الفنى الراقى هو عبارة عن إنتاج فكرى أو استشعار عقلانى لم يصل إلى درجة التحديد المنطقى الدقيق أو الحساب التعبيرى المنطقى الدقيق. ومن الخطأ طبعا أن نعتبره فكرا أو وجدانا عقلانيا غير ناضج، لأن معنى ذلك اعتباره فكراً متخلفا أو طفوليا أو ناقصا، بينما المقصود أنه يمثل مرحلة فكرية "قبل" أو "سابقة على" مرحلة التحديد المنطقى الدقيق من حيث التسلسل أو التطور فى التعبير، ولكنها "موازية" لها من حيث النضج الفكرى والاحساس العقلانى. ولهذا استخدمت هنا كلمة "وجدان" ولم أستخدم كلمة "عاطفة". ومن حسن الحظ أن هذه الكلمة العربية الفصيحة أدق من الكلمة الأوروبية sentiment، التى قد تفهم بمعنى العاطفة ومن ثم ترتبط بمعانى الانفعالات emotions والأهواء passions، وغير ذلك من ظواهر تنتمى إلى ملكوت اللاعقل. وهذا واضح فى أنهم فى الانجليزية يترجمون كلمة sentiment الفرنسية بكلمتين هما:١– sentiment ٢– feeling (وهذه الكلمة فى الجمع تعنى المشاعر أو الأحاسيس التى تجمع بين الأفكار المجردة والانطباعات).

ومادام الفن الراقى (ولايدخل فى ذلك طبعا الفنون الجنسية والانفعالية!) عملا فكريا عقلانيا، فمعنى ذلك أن ارتفاع مستوى العقل والمنطق والمعرفة الفكرية يرفع مستواه ويثرى محتواه ومتضمناته وينشط إبداعه، والعكس بالعكس. ولهذا، أدى تدهور العقل والعقلانية إلى ظهور مختلف أنواع الفنون الركيكة، المتخلّفة فكريا وجماليا أيضا، مثل مايسمى السريالية والتجريدية والعبثية، الخ (على غرار أعمال بيكاسو ودالى وغيرهما من عظماء المشاهير فى الاسفاف والاهدار الفنى والعقلى!!). وهى فنون لاتستحى من إعلان استخدامها للتعبيرات الطفولية والبدائية والدهمائية عموما! ومعنى ذلك أن الموجات المعاصرة من الفنون اللاعقلية، هى نوع من حركات تحطيم الأيقونات، لأنها تلغى الفنون الحقيقية وتفرض على الناس فنونا "جديدة" لاتفيدهم فكريا وثقافيا ولاتقدم لهم معان منشطة للتأمل أو تبصيراً عقلانيا مفيداء ومن ناحية أخرى، فان ربط التربية الفنية والنشاط الفنى بالجنس – وبدون تعويض فكرى جزئى يخفض من تأثير هذه السموم – أدى إلى تحويل أذهان معظم الفنانين المعاصرين إلى أذهان شبه حيوانية، لاتستطيع التعامل مع الموضوعات الفكرية الراقية باهتمام واستيعاب وتمثل، ومن ثم لاتستطيع أن تفرز منتجات عقلانية.

✪ إن الفنان الحقيقى كمفكر راقى يكون بالضرورة مفكرا خطيرا. لماذا؟ لثلاثة أسباب، هى:

* ١– **أن الفنان المفكر يقدم منتجات عقلانية سهلة التناول، وأيضا جميلة أو ممتعة، ومن ثم تستطيع أن تجتذب وأن تصل إلى أوسع قطاعات البشر.** فالفرق هنا ليس فقط أشبه بالفرق بين الصناعات الاستهلاكية الخفيفة فى مقابل الصناعات الثقيلة أو صناعات وسائل الصناعة (وهى الفلسفة والعلوم والمعارف المتعمقة)، لكنه أيضا فرق بين الدواء أو المادة الغذائية التى تؤخذ لفائدتها، والمادة الغذائية أو العلاجية التى تكون أيضا لذيذة مشهية.

* ٢– **أن الفنان المفكر فى ظروف مكافحة ومحاصرة التفكير (إن وجد مثل ذلك الفنان فى تلك الظروف!) يستطيع أن يقدم أفكارا وإفادات تبصيرية مفيدة وأن يخاطب ويغذى وينشط العقل البشرى، بدون أن يحاسب على ذلك فى حالات كثيرة، لأن المنتجات الفنية تكون بطبيعتها غير محددة وغير مباشرة التعبير.** وليس المقصود بذلك أنه يستطيع أن يخدع السلطات. فالسلطات تستطيع فى كل الأحوال تقريبا أن تميز بين الأعداء وغير الأعداء. لكن المقصود أنه بدون تعمد ذى اتجاه عقلانى وبدون قصد تبصيرى، يصنع الايحاءات العقلانية

المفيدة ويقدم التأثيرات التبصيرية المفيدة، نتيجة طبيعته العقلانية لاأكثر! أى طبقا للمثل القائل: كل إناء ينضح بما فيه.

* ٣- أن الفنان المفكر يدفعه الاستشعار العقلانى أو الوجدانى العقلانى إلى تناول موضوعات أو أفكار ومنظورات معينة، لايكون العقل البشرى والعلم البشرى قد وصلا فيها إلى تحديدات وحقائق منطقية دقيقة. وفى هذه الحالة، يقدم الفنان المفكر لأصحاب الأفكار تعبيرات مجسمة : تكون بدون أحكام أو تحديدات حسابية دقيقة، ولكن تكون فى نفس الوقت معبرة عن جوهر المشاكل المطلوب حلها، ومثيرة للتأمل والتفكير فيها. بل وقد تكون أحيانا صورة كروكية للتحديد المنطقى المطلوب.

وهنا يمكن أن نقول إن الفرق بين مرحلة الفن ومرحلة الحساب المنطقى كمرحلتين من مراحل الانتاج الفكرى، يشبهان الفرق مثلا بين إنتاج البيض المفيد غذائيا والرخيص والسهل التناول، وبين إنتاج الدجاج الذى هو فقس محدد يخرج من ذلك البيض ثم يستكمل نموه الطويل المدى، ثم يحتاج بعد ذلك إلى معالجة خاصة لتناوله غذائيا. كما يمكن تشبيهه بالفرق مثلا بين ثمار الخضروات أو الفاكهة الطازجة التى تؤكل مباشرة، والثمار المطبوخة أو المجففة والمصنعة تصنيعا تقنيا يحتاج إلى عمليات دقيقة.

وخذ مثلا أعمال رسام ونحات فرنسى مبدع اسمه Oudry (١٦٨٦ - ١٧٥٥)، يعتبرونه من الكلاسيكيين وتوجد بعض لوحاته فى لاروس أيضا. هذا الفنان له مثلا لوحة اسمها "الطبيعة الميتة"، ولوحة أخرى اسمها "ذكر البط الأبيض". وفى كلا اللوحتين، يبرز عملية موت أو قتل (وليس ذبح) بعض الطيور الوديعة الجميلة وتحنيطها أو مسمرتها (وقارن المعنى السحرى الذهنى والتصليبى القديم ثم الحديث لهذه العملية). وهو يضع إلى جانب الجثث المحنطة فى اللوحة الأولى مصباحاً مطفأً وبعض الحشرات، وفى اللوحة الثانية شمعة كبيرة مطفأة! وهذه فى الحقيقة تعبيرات صارخة ومبسطة جدا، عن ظاهرة قتل الطبيعة الطيبة والخيرة، وإطفاء جذور الحياة الطبيعية السليمة وإنهاء شعلة الروح المضيئة فى الانسان.

بل وانظر مثلا إلى تمثال عصرى مصنوع من الصلب وموجود فى مركز روكفلر بنيويورك (وللأسف أن صورة لاروس لاتذكر اسم النحات). إنه يصور المارد أو العملاق أطلس بعضلات مهولة بارزة يحمل على كتفية : ماذا؟! لايحمل الكرة الأرضية، ولكن يحمل إطاراتها الحديدية

كمجرد حلقات مفرغة لاتمسك فى داخلها أى شئ! فهكذا وصل جبروت القوة الفولاذية العصرية إلى "تفريغ" العالم، أى إلغاء الوجود الانسانى!

ثم خذ أيضا الرسام الفرنسى المثقف أوتريللو Utrillo(١٨٨٣ – ١٩٥٥) – وهو من أسرة رسامين مثقفين. ففى لاروس توجد صورة لوحة لهذا الرسام اسمها L'Impasse Cottin– عن زقاق مسدود فى أحد أحياء باريس على مايبدو، اسمه "حارة قطان" (ولاحظ أنه لاتوجد فى العربية كلمة واحدة تعبر عما يسمى فى العامية "الحارة السد"). واللوحة جميلة ومعبرة جداء تصور زقاقاً مسدودا لكن فى آخره سلالم ترتفع إلى أعلى – ربما تكون هى المنفذ الوحيد للخروج من المأزق المسدود! فاذا لاحظت أن الأصول اللغوية القديمة للجذر /cotytto cott يعبر عن الفجور أو الجنس المقلوب، يمكن أن تفهم قصد ذلك الفنان المثقف من رسم زقاق مثير الشكل يحمل اسما من كلمتين يعبر كل منهما عن معنى المأزق!

● وهنا نجد نقطة أخرى فى الأعمال الفنية الراقية، هى توجيه الانتباه إلى الظواهر أو المفارقات الغريبة التى تحتاج إلى تفسير. مثلا : مصادفات التوافق بين الاسم والمسمى! لماذا مثلا كان تلميذ المسيح الذى نسبوا إليه عملية الارشاد عنه، اسمه يهوذا أى المرشد؟! لماذا مثلا كان المخترع الأمريكى للتليفون ذى الجرس اسمه ألكسندرج. بيل Bell– أى الاسكندر أبو جرس؟! ثم لماذا كانت زوجة أبو جرس صماء لاتسمع؟! ولماذا أصيب عبقرى الموسيقى بيتهوفن بالصمم، بحيث كتب مؤلفاته الأخيرة وهو فاقد السمع؟! ولماذا كان القائد الذى أعاد بناء ميناء سكندار الأقدم اسمه الاسكندر، بحيث نسبت إليه المدينة باسم قديم جديد؟!...

والأسئلة الأخرى من هذا النوع كثيرة لاحصر لها. وإزاء مثل هذه المفارقات والتساؤلات، يكفى الفنان المفكر أن يعبر عنها بطريقة جميلة ومجسدة ومثيرة للتأمل والتفكير. ثم يكون على فيلسوف التاريخ بعد ذلك أن يفسر مايكمن وراءها من تحكم سرى شامل.

٢- ملاحظات عن الجمال والفن [(١)]

✪ **الجميل** Le beau/ the beautiful هو المدرَك الحسى أو الفكرى الذى يبعث تأمله لذة عامة فى الذهن، من حيث تكوينه الادراكى الذى يلقى الشعور بالتآلف والتقبل الانطباعى

(١) هذه الملاحظات كتبتها عام ١٩٨٩ كمواد تمهيدية لمقال كنت سأكتبه للنشر فى إحدى المجلات الشهرية المحدودة القراء، لكنهم لم يلبثوا أن قطعوا تعاملهم معى! والاشارات الواردة هنا عن المفكر الروسى تشيرنيشفسكى، تعتمد على كتاباته الصادرة بعنوان "المقالات الفلسفية المختارة لتشيرنيشفسكى" – الترجمة الانجليزية، موسكو ١٩٥٣.

السار في الذهن. ومن هنا، فهذه اللذة الانطباعية تختلف عن اللذة المجردة التى يبعثها فى الذهن تأمل **الحق** le vrai/ the true كمدرَك يعبر عن التجاوب الفكرى نتيجة الشعور بالتطابق الادراكى النظرى أو العلمى (أى من حيث العلاقة بين طرفى التحقيق المنطقى). وكذلك تختلف عن اللذة السلوكية التى يبعثها فى الذهن تأمل **الخير** le bien/ the good كمدرَك يعبر عن مشاعر الالتزام الأخلاقى والشعور بالمثلية الانسانية المرغوبة والمفيدة.

وفى مقابل ذلك، فان **القبيح** هو الذى يؤدى تأمل تكوينه الادراكى فى الذهن إلى نفور أو تألم انطباعى عام. كذلك **الباطل أو المتناقض أو المغالط**، هو الذى يؤدى تأمله فى الذهن كمدرَك يخالف التطابق الادراكى النظرى أو العملى (أى من حيث العلاقة فى التحقيق المنطقى)، إلى نفور أو تألم ذهنى مجرد/فكرى، يزيد معدله عن معدل التألم عند إدراك القبيح. أما **الشر**، فان تأمله فى الذهن كمدرَك يعبر عن إهدار وإيذاء البشر، إنما يؤدى إلى درجة أكبر من النفور والتألم الذهنى الواسع المرتبط بالمدركات السلوكية المعيشية. وفى هذه الحالات الثلاث، فان النفور أو التألم الذهنى يكون عاما فى دوائر المدركات الادراكية أو الفكرية أوالسلوكية، أو يكون شاملا، كما أنه يرتبط بالشحنات النفسية للقيم المهدرة ونقائضها.

والتكوين الادراكى الانطباعى للجميل، يبعث اللذة الذهنية العامة، ليس لأن الجمال هو الحياة كما يقول تشيرنيشفسكى. فهذا تعريف مختلط، يرادف بين هويتين مختلفتين. فقد يمكن أن يقال إن الحياة جميلة، للتعبير عن صفة من صفات الحياة. لكن لايمكن أن يقال إن الحياة جمال أو إن الجمال حياة! وعلى كل حال، فسبب الخلط هنا. هو أن التكوين الادراكى للجميل يجب أن يتضمن – مثل ظاهرة الحياة – الكثير من المنبهات المتنوعة ذات التأثير الفعال فى الذهن (مثل المناظر المنعشة للذهن أو الألوان المختلفة والأصوات المختلفة أو التشكيلات المتنوعة واللغويات الكثيرة، الخ). لكنها منبهات يجب عموما أن تكون مريحة للذهن، ويجب أن يجمعها نوع من التكامل والتناسق اللذين يبعثان اللذة الادراكية المذكورة. وهذه شروط قد تتوفر وقد لاتتوفر فى ظاهرة الحياة. فضلا عن أن أى مؤثرات ذاتية تمنع تحققها فى الذهن، إنما تلغى بذلك تحقق إدراك جمالها. وهذا يتعلق بالطابع الذاتى (بالمعنى العام) للقيم من الأنواع الثلاثة المذكورة، أو الطابع الذاتى (بالمعنى العام) للتحديدات التقديرية/ المعيارية nor-mative عموما، والذى يميزها عن الطابع الموضوعى غير الذاتى للتحديدات التقريرية asser-tive التى لاترتبط بتأثيرات الراحة واللذة أو النفور والألم فى الذهن.

● صحيح أن التحديدات القيمية أو التقديرية يجب أن تكون تحديدات موضوعية أيضا وليست ذاتية بالمعنى الخاص أو الفردى غير الموضوعى. ولكنها موضوعية ذهنية، ومن ثم تتعلق موضوعيتها بالذات، بمعنى أن الذاتية الذهنية أوالموقف الذهنى تدخل كشرط من شروطها، بينما لاتدخل كشرط من شروط التحديدات التقريرية. وحتى إذا استطعنا تحديد قوانينها العامة الدقيقة بحيث تتحول إلى تحديدات تقريرية للقيم، فانها تظل متميزة عن التحديدات التقريرية الأخرى فى أنها تتعلق بالذاتية الذهنية أو الموقف الذهنى، بعكس التحديدات التقريرية الأخرى التى يمكن تجريدها من الطابع الذاتى الذهنى. **فالذهن كذهن بشرى ذى تكوين معين – وليس كجهاز سلبى للادراك أوالقياس – يدخل فى جوهر الادراك القيمى أو التقديرى/ المعيارى.** وهذا يشبه الفرق بين تقرير "**المضمون الواقعى**" لصور فوتوغرافية معينة، حيث يمكن فى هذه الحالة تجاهل أو غض النظر عن جانب التصوير وآلة التصوير، وبين **تقدير "المضمون الفنى"** لهذه الصورة الفوتوغرافية، حيث يجب هنا النظر إلى عملية التصوير نفسها وإلى العلاقة بين الصورة وبين موضوعها الخارجى.

ومن ناحية أخرى، يجب أن ننتبه جيدا إلى أن الحق كمدرَك ذهنى – أى بمعنى "الشعور بالحق" – يعتبر قيمة تقديرية / معيارية (بل إنه يرتبط عادة بقيم جمالية وخيرية أو أخلاقية). ومع ذلك، فالحق بالمعنى الموضوعى أى الذى يعبر عن تحديدات صحيحة أو صائبة، لايعبر بذلك عن تحديدات قيمية أو تقديرات، ولكن عن تحديدات تقريرية معينة. فالقيمة التقريرية هنا، هى فقط قيمة الحق كمدرَك شعورى عام، أى من حيث تأثيره الشعورى فى الذهن. أما صحة أو صواب القضايا والأحكام، فهى تحديدات تقريرية تتعلق بالتساوى الفكرى أو الادراكى بين الموضوعات والمحمولات، ولايدخل فيها التقبل والرضا الذهنى أو اللذة الذهنية. ولهذا، يجب عدم الوقوع فى الخلط الشائع بين الطابع القيمى التقديرى لمدرَك الحق فى ذاته أى من حيث تأثيره الذهنى العام، وبين الطابع التقريرى الموضوعى لهذا الصواب أو ذاك، أو لعلم المنطق وقضايا وأحكام المنطق وقوانين أو قواعد المنطق، الخ. وللأسف أن هذا الخلط وقع فيه بعض الأساتذة المعاصرين الذين يجرون وراء أي "تجديد" مزعوم فى الفلسفة، فاعتبروا المنطق علما تقديريا معياريا مثل علم الجمال وعلم الأخلاق!!

✪ **فى علم الجمال،** تضاف إلى قيمة الجميل قيم أخرى، مثل الجليل sublime والعظيم great والرائع magnificent والمهيبawsome، الخ. فمثلا الجليل، هو الذى عند مقارنته بغيره يتخطى غيره فى الضخامة أو فى القوة أو فى الشخصية، الخ. وهو فى هذا

أيضا يؤدى من حيث تكوينه الادراكي الانطباعي إلى نوع من التأثير الذهني المنعش والممتع والمرغوب فيه. وهذه التأثيرات الذهنية هي أيضا واسعة وعامة، بغض النظر عن اقترانها أوعدم اقترانها بانفعالات معينة. ويعتبر "المأساوى" فى رأيهم قمة المدركات الجليلة. ويلاحظ أن تشيرنيشفسكي مثلا يرى أن علم الجمال كعلم للجميل لايجب أن يتناول الجليل وغيره، إلا إذا أخذنا ذلك العلم بمعنى "علم الفن". لكن الحقيقة أن الجليل وغيره ينتمى إلى علم الجمال، لأن هذه القيم تتحدد أيضا من حيث تأثير تكوينها الادراكي الانطباعي فى الذهن.

✪ **الفن** عموما هو صناعة الادراك الجميل. والفن نوعان :

فن حسّي أى يتعلق بالمدركات الحسية فقط، كالموسيقى والرسم الزخرفى (بغض النظر هنا عن الوسائل الفكرية للفنان ودور الجانب الفكرى فى عملية إنتاج هذا النوع من الفن). وفن تعبيرى أى يفيد معان وأفكارا، ومن ثم تؤدى مدركاته الحسية دور التعبير الفكرى، كالأدب والكثير من الفنون التشكيلية.

والفن من النوع الأول يصنع الادراك الحسى الجميل، بينما الفن من النوع الثانى يصنع الادراك الحسى الجميل المعبر فكريا. ولهذا، يمكن أن يدخل هذا النوع الثانى فى مجال المعرفة – لكن المعرفة المدرَكة جماليا أو ذات الشكل الجميل. فاذا كان نوعا من المعرفة، فانه ينتمى بذلك أيضا إلي الثقافة بالمعنى الفكرى، ومن ثم يخضع – من حيث المضمون الفكرى – للمبادئ التى تخضع لها المعرفة والثقافة، أى يخضع للمبادئ العقلانية وللواجبات التبصيرية والتنويرية.

وليس معنى ذلك أن الفن من هذا النوع الثانى لايعتبر فنا إذا لم يخضع لهذه المبادئ والواجبات. إنما هو فن، طالما كان يقدم مدركات فنية جميلة. لكنه بدون مبادئ وواجبات الاستهداف العقلانى والافادة التبصيرية والتنويرية، لايعتبر نوعا من المعرفة أو الثقافة الحقيقية. ثم إنه من ناحية أخرى، يكون بالضرورة فناً ناقصا، طالما أنه لايعبر عن فكر خصب مفيد، لأن هذا ينتقص بالضرورة من تأثيره الجمالى الذى يرتبط ويتدعم بالتأثيرات القيمية الأخرى. ذلك أن انخفاض أو انعدام قيم الحق والخير فيه، بل وربما أيضا حلول تكوينات الباطل والشر محلها، يفرض طبعا على الذهن تأثيرات تنفيرية وإيلامية تقتطع من رصيد التأثير الجمالى. أما إذا اجتمع للذهن السليم فى عمل فنى ثالوث الحق والخير والجمال، فان ذلك العمل يبلغ القمة فى الارضاء الذهنى العقلى الراقى.

✪ **عن الشعر :**

الواجبات والفوائد الثقافية الحقيقية للشعر، بغض النظر عن موضوعاته وأشكاله وجوانبه

الفنية، هى :

(١) زيادة إمكانيات وثروات اللغة والتعبير السهلة الحفظ والاستعمال (سواء من النوع القديم أو الحديث أو العامى)، فضلا عن تقديم وسائل ونماذج مفيدة للجمال اللغوى والجمال التعبيرى.

(٢) تقديم التركيبات والصور الادراكية المفيدة والمؤثرة ذهنيا والجميلة، فى لغة سهلة الاستيعاب.

(٣) تقديم التركيبات اللغوية النمطية والتعبيرات الاشارية المبلورة عن المعانى والأفكار الهامة التى تحتاج إلى مجهود كبير وطويل للتعبير عنها، بما يتيح استخدام هذه الخلاصات المبلورة كوسائل تعبيرية فعالة سهلة التناول ذهنيا.

(٤) تقديم الأمثال والحكم بالطريقة المذكورة، أى كخلاصات مبلورة سهلة الحفظ والاستعمال.

أما الجوانب الأخرى العاطفية والاحتفالية فى الشعر، فقد تفيد فى مجال الأغنية والموسيقى وليس فى مجال الثقافة - التى تتعلق أساسا بقدرات التفكير والتعبير والتناول الذهنى.

وانظر من هذا المنظور أيضا، الواجبات والفوائد الثقافية الحقيقية للقصة والمسرح والسينما. ففى هذه الفنون، تضاف أيضا نقاط المبادئ والموضوعات الفكرية وأفكار التنوير والتبصير وتحديدات وتوضيحات المشاكل، الخ. بل ويمكن ابتكار أنواع وسيلية خاصة شبه تسجيلية فى هذه الفنون، تقوم بمهام توضيح وتبسيط بعض المعارف والموضوعات العقلانية والعلمية والميكانيزمات المنهجية، الخ. فالفن ليس فقط غاية جمالية وفكرية، لكن جانبه التعبيرى المعرفى يجعل من الضرورى استخدامه أيضا كوسيلة عملية وجزئية مباشرة فى خدمة المعرفة والتفكير، بل وبطريقة استخدامه فى الاعلانات التجارية والدعاية السياسية - مع ضرورة إخضاع هذه وتلك لمقتضيات خدمة المعرفة والتفكير.

وعلى غرار الفرق مثلا بين الرسم المقصود لذاته والرسم التوضيحى الذى يخدم الموضوعات المطلوبة، يمكن أن نتصور مدى اتساع وتنوع المجالات التى يجب أن تستخدم فيها الفنون التعبيرية لأغراض توضيحية وتعليمية وتبصيرية، الخ.

البند العاشر - الارتباط الحتمى بين الإجرام واللاعقل[1]
(نقص العقل = زيادة الشر والفساد)

✪ اذا تناولت شجرة معرفة الخير والشر، فانك موتاً تموت!

موضوع الخير والشر أوالفضيلة والرذيله ، هو من أقدم الموضوعات التى استمرت الفلسفه فى تناولها. وقد حاولت العلوم الذهنية والطبية والعلوم الاجتماعية أن تعمق دراسة هذا الموضوع المحدِّد لمصائر الأفراد والمجتمعات، لكن محاولاتها المتكرره أُجهضت ثم سُحقت وصُفيت بمختلف الوسائل المموهة وغير المباشرة، بحيث بقى هذا الموضوع بعد ذلك نهباً للتناولات السطحية والوعظية الشكلية أو المبتسرة وغير المتكاملة، وللتناولات الروائيه الانفعاليه أو الاثاريه المفسدة، فضلا عن التلفيقات "العلمية" المقلوبة التى تحاول تكريس النزعات والاستعدادات الحيوانية والغريزية اللاعاقله للفساد والشر والاجرام.

ذلك أن أجهزة صناعية التدهور والفساد واللاعقل منذ أقدم العصور، تعتبر موضوع الخير والشر ونوعيات الطبيعة البشرية أو الطبع من أخطر أسرار تخصصها ، لأن تحديد مواصفاته الصحيحة يعنى فضح وإفشال أو عرقله نشاطها الشامل ضد عقل وإنسانية الفرد والمجتمع.

وقدكان "الكتاب المقدس" - رغم رمزيته وتمويهاته - صريحا أكثرمن اللازم فى هذا الموضوع، فأطلق على الشجرة الأولى المحرّمة فى الجنة اسماً مكشوفا هو : **«شجرة معرفة الخير والشر»**!! (ولاحظ أن «الشجرة» فى اللغات القديمة - مثل «شجرة النسب» - كانت تعنى أيضا الكتابة المصنّفة أو المقسمة الى فروع). وأعلن بصراحة أن أسرار «شجرة معرفة الخيروالشر»، تعتبر فزّارة استطلاع يُستكشف بها هؤلاء الذين يستحقون الحياة والنعيم لأنهم

---

(١) كتبت هذا الموضوع وراء أسوار العباسية بتاريخ : **الاثنين ، الثالث من يناير ١٩٨٢**. وأعدت نسخة بالكربون تسع مرات، بحيث أرسلت منه فى أوائل الثمانينات أكثر من ثلاثين منسوخا إلى مختلف الأساتذة والكتاب والصحفيين. وقد أجريت عليه هنا بعض التعديلات الجزئية التى تستلزمها ظروف النشر.

مستمرون فى عمى البصيرة، وهولاءالذين يستحقون الموت أو الطرد لأن عيون عقولهم تتفتح وبدأوا يعرفون أسرار الخير والشر، أى بدأوا يفكرون فى الصواب والخطأ أو مايجب أن يكون ومالا يجب أن يكون ومايجب ألا يكون!

ويحكى "الكتاب المقدس" فى سفر "التكوين" كيف استطاعت "الحية" – التى ترمز هنا إلى الكفار ورافضى الأديان القديمة – أن تقنع آدم وحواء بتناول "ثمر شجرة معرفة الخير والشر"، ثم يحكى عن نتائج ذلك مايلى :

"قال الرب : أما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها [= لاتتناولها]، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت ... قالت الحية لن تموت، بل الله يعلم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتصبحان كالله عارفين الخير والشر ... فأكلا منه، فانفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانان [= عرفا الشر أو العار الذى يجب تجنبه] ... فقال الرب لآدم : من أعلمك أنك عريان؟! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟! ... وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ... فأخرجه الرب الإله من جنة عدن"!! (تكوين ٢ – ٣)

وفى هذا الاتجاه الكهنوتى القديم – بغض النظر عن التحويرات والشكليات – استمرت المعتقدات المتتالية فى محاربة " المعرفة" الأخلاقية الصحيحة (وليس فقط فى محاربة المعرفة النظرية المتخصصة)، كما استمرت فى تغطية بل وشقلبة أصول وتحديدات طبائع الخير والشر عند البشر، ومن ثم مواصلة ومضاعفة صناعة التدهور الشامل بحيث تتحرك عجلته تلقائيا، وبحيث يتحول البشر بالفساد واللاعقل إلى نوع حيوانى أدنى متزايد التدهور، تستطيع أن تحكمه وتتحكم فيه وتتربع على ظهره مجموعات قليلة من "المتفوقين" فى الشر والاجرام واللاإنسانية!

✪ التفسيرات المضللة للشر والرذيلة

يجب أن ننتبه إلى أن الأخيار الأخلاقيين حقا الذين ينتمون إلى مختلف المعتقدات أو الأديان، إنما يعبرون بذلك عن طبائعهم الذهنية السليمة وعن قلوبهم الخيّرة وتركيبات عقولهم وأفكارهم المستنيرة بدرجة أو بأخرى، ولايعبرون بذلك عن معتقدات وراثية معينة قد يشاركهم فيها ملايين الأشخاص الذين لاتتوفر فيهم هذه الأخلاقيات. فمهما تكن الحيثيات أو المبررات

الدينية، فان طبائع الشر والاجرام لدى الأشرار والمجرمين المنتمين إلى هذا الدين أو ذاك لم تتغير بدوافع دينية فى أى عصر من العصور! والتوبة الدينية لايتعلق بها عادة إلا هؤلاء الذين استنفذوا وسائلهم فى الحياة!

فالطبع هو الذى يسبق ويغلب - بل ويستخدم ويطوّع - أىّ حيثيات أو معتقدات : الخيّر يصنع خيراً تحت أى انتماءٍ عقائدى، والشرير يصنع شراً تحت نفس الانتماء!! بل إن الشرير قد يجعل الاستغفار باباً للخطأ وليس العكس! وقد وصل الأمر إلى درجة أن الكثير من الطرق الصوفية - خصوصا فى العصور الوسطى - كانوا يكررون أن الخطايا والذنوب ثم التوبة والايمان هى الطريق إلى زيادة الايمان!! (وهذا يمكن أن نجده أيضا فى بعض أشعار الشيخوخة التى قالها أبو نواس والتى تختار منها الاذاعة المصرية أشهر أغانى التوبة الدينية الصباحية!). ومن المأثورات الصوفية فى هذا الموضوع، تلك العبارة التى يرددها بعض الصوفية منذ العصور الوسطى : «معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عُجباً واستكباراً»!!

ومن ناحية أخرى، فاذا أدركنا أن العقل هو الصانع الأول للخير والفضيلة، وهو الفرملة وصمام الأمان الأكبر فى الطريق الأخلاقى، فمعنى ذلك أن ندرك أيضا أن أى معتقدات تقهر العقل أو تنتقص منه، إنما تكسر بذلك استعدادات الخير والأخلاق الحقيقية، وتضع النفس البشرية فى مهب نزوات الفساد والشر تلعب بها رياح الرذيلة.

وقد كان سقراط يقول إن الفضيلة علم والرذيلة جهل. لكن هذا جانب إضافى أو مكمل فى موضوع الخير والشر. فأصل وأساس الخير والفضيلة هو الطبع السليم أو التكوين الذهنى السليم : سواء كان ذلك نتيجة وراثة قدرات ذهنية فكرية سليمة لم تتحطم، أو نتيجة تطبّع سليم مكتسب أى تربية تعودية تنويرية سليمة، أو نتيجة كليهما. وعلى هذه القاعدة تستطيع المعرفة والعلم والخبرة أن ترفع بناء الخير والفضيلة إلى أعلى الطوابق، بينما الجهل وعدم الخبرة يعرقلان أو يمنعان ارتفاع البناء ويورطان فى الخطأ. أما إذا كان الأساس القاعدى يتكون من طبع أو تطبع مريض، أى من تكوين ذهنى فاسد، فان العلم فى هذه الحالة يزيد قدرات الشرير شراً، بينما الجهل قد يخفض قدراته الشريرة!!

وفى اتجاه آخر للتمويه والتحايل لاخفاء دورالطبع أو التطبع السليم فى تحديد السلوك الأخلاقى وبناء المجتمع الفاضل، وإخفاء دور مخططات صناعة الطباع والتطبعات المريضة فى تدهور وهدم الأفراد والمجتمعات، ظهرت نظريات التفسير الاقتصادى والطبقى التى تزعم أن الخير ينتج عن الملكية العامة (وعند آخرين أنه ينتج عن الغنى الخاص) وأن الشر ينتج عن الملكية الفردية والربح الفردى (وعند آخرين أنه ينتج عن الفقر)! ولم يكن كارل ماركس وغيره مبتكرين فى هذه النظريات ذلك أنها ترجع إلى أقدم عصور التمويه والتحايل والجهل والتجهيل ؛ أقصد من حيث النظام الدينى القديم الذى يصفه سفر "أعمال الرسل" بأنه "كان كل شئ عندهم مشتركا"، وأيضا من حيث الرأى القديم عن دور الاقتصاد فى تحديد سمات المجتمعات – بدون التنبه إلى أن الاقتصاد نفسه هو ثمرة من ثمار السمات والقدرات العقلية للبشر!

وبنفس هذا المنهج الذى يضع العربة أمام الحصان، ظهرت فى التاريخ القديم ثم فى «الكتاب المقدس»، وكذلك فى العصور الوسطى ثم عند ابن خلدون ثم عند ماركس، النظرية التبريرية المضللة عن "دورات" أو "عصور" المجتمعات، أى عن تطور المجتمع بطريقة الكائن الفرد من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة فالموت، وذلك لتبرير وتغطية مخططات صناعة التدهور ومخططات التدرج فى عمليات إفساد وهدم الأفراد والمجتمعات.

وكانت الشبكات السرية القديمة، تهتم إلى أقصى درجة بالترويج لقصص "استئجار" العملاء والخونة والأشرار والمجرمين والمفسدين، وقصص "الأجور" أوالمقابلات الذهبية والفضية التى يتقاضونها عن شرورهم وجرائمهم! وبذلك كانوا يغطون ويطمسون : أولاً، القبضات والدوافع السرية التى تصنعهم ثم تحركهم بالطريقة المطلوبة. وثانيا، حقيقة دوافع تصرفاتهم وهى طبائعهم وتكويناتهم ونزعاتهم المريضة الشريرة التى يصنعونها ويتعهدونها ويرعونها ويجعلون منها خمائر وميكروبات وبائية لنشر وتدعيم أمراض الشر والفساد والاجرام فى المجتمعات.

وفى شخصية يهوذا التى جعلوها نموذجا أو شخصية نمطية للشر والفساد، اهتمت الأناجيل بأن تحدد "الثمن" الذى تقاضاه عن غدره وخيانته للمسيح، وهو ثلاثون قطعة من الفضة بالتمام – بل واتفق الجميع على هذه "المعلومة" رغم اختلافهم على أهم المعلومات الخاصة بالمسيح نفسه، بما فى ذلك تاريخ السنة التى ولد فيها!! وحاولت بعض الأناجيل أن

تضيف نغمة فرويدية إلى حكاية يهوذا، لتعبر بذلك عما تتناقله الروايات منذ أقدم العصور عن أن عنصرى المال والجنس يفسران شرور وجرائم البشر! (مع أن صانعى الشر والاجرام هم الذين يتحكمون أصلا فى تشغيل المال والجنس، وفى اصطياد وتحريك وتحطيم الضحايا بهما، كوسائل فى الحرب ضد العقل وليس كأهداف! فضلا عن أنهم هم أنفسهم قد لايتعاطون شيئا منهما!). وفى هذا الاتجاه، ذكرت بعض الأناجيل أن السبب الآخر لخيانة يهوذا للمسيح، هو أن امرأة كانت قد أحضرت قارورة عطر غالى الثمن فسكبته على المسيح وعطرت به جسده وهو راقد أمامها! (بل وأضاف "إنجيل يوحنا" أن يهوذا اغتاظ لأنها أيضا مسحت بشعرها المعطر قدميه!!).

✪ تجارة الآلهه وأفيون الجنس!

نفس ذلك المنظور الاقتصادى التمويهى، ربطوه بالنمط اليهودى عموما، ونمط شيلوك تاجر البندقية على وجه الخصوص! ووصلت عمليات استغلال ذلك المنظور الاقتصادى التمويهى، الى درجة أن «الكتاب المقدس» ادعى أيضا - فيما يشبه نظرية «تجار الحروب» التى نجدها عند كثرين فى العصر الحديث ومنهم ماركس - أ ن من أهم أعداء المسيحية الأوائل الذين كانوا يحاربون انتشارها، الصاغة الذين كانوا يجنون الأرباح من صناعة التماثيل الذهبية والفضية الوثنية!! وهذه هى نظرية «تجار الآلهة» التى ظهرت قبل نظرية «تجار الأسلحة والحروب» بحوالى ألفى عام!! ولهذا لم يكن غريبا (رغم أنه استفزاز عقلى صارخ) أن يزعم السياسيون والمؤرخون أن «حرب الأفيون» البريطانية ضد الصين عام ١٨٤٢، كانت تستهدف فتح أبواب الصين لأرباح المخدرات البريطانية(١) - مع أن الأجهزة البريطانية لصناعة اللاعقل كانت على استعداد أن توزع مع مخدراتها نقودا لتصل بها إلى تحطيم عقول الصينيين وعقل المجتمع الصينى!!

وقد قلت إن موضوع الجنس يُستخدم أيضا كتبرير تمويهى وتفسير تجهيلى لنزعات الشر

---

(١) لاحظ أن ذلك حدث قبل أن يبدأ ماركس إفراز أى كتاب من كتبه، وقبل أن يصل أصلا إلى لندن ليفرز فيها تفسيراته الاقتصادية المزعومة للوقائع الاجتماعية والتاريخية!

والرذيلة والاجرام، مع أنه مجرد وسيلة هدامة تستخدم مع مختلف الوسائل الهدامة الأخرى - بما فى ذلك الرهبانية الجنسية - فى اتجاه الافساد والتحطيم وصناعة اللاعقل . فكما أن السكين أو المسدس أو القنبلة ليست هى «جريمة القتل» ولكنها وسائل لجرائم القتل، كذلك فان الفساد الجنسى هو مجرد وسيلة من وسائل صناعة اللاعقل، الذى هو صانع ومظلة الشر والاجرام والتدهور. والمقصود هنا الفساد الجنسى بالمعنى الذهنى العلمى، الذى لايقتصر على أفعال الزنا مثلا، ولكن يشمل أيضا الاستغراق الجنسى «الحلال»، كما يشمل الخيال الجنسى والشبق الجنسى الذى تتخصص فى صناعته أجهزة الاعلام.

وبهذا المعنى، نجد أن الافساد الجنسى قد لايختلف كثيرا عن مصادر الاثارة اللاعقلية الأخرى، سواء اختلطت بالجنس أو لم تختلط به. وأوضح مثال على ذلك وباء لعبة كرة القدم (بغض النظر عن ارتباطاتها الواضحة أو اللاشعورية بغرائز الجنس والعدوان وغيرها من الغرائز التى تستثيرها لاشعوريا أو تفرض تربيطاتها تعوديا). فالانفعالات والتصرفات الدهمائية الغوغائية التى يثيرها وباء الكرة، لاتختلف كثيرا من حيث جوهر الحيوانية واللاعقل عن الانفعالات والتصرفات الدهمائية الغوغائية التى تثيرها مصادر الاثارة الجنسية.

✪ تعددت الأسباب واللاعقل واحد

كانت أجهزة التوحيش الذهنى وصناعة اللاعقل عند القدماء، تستخدم أيضا عروض مصارعة الوحوش - مصارعة الوحوش للبشر وافتراسهم للبشر - كوسيلة من أهم وسائل استثارة الحيوانية واللاعقل، ومن ثم تحطيم إنسانية الانسان وعقله، وبالتالى تحطيم المجتمع.! وهذا وأكثر من هذا، تصنعه اليوم السينما والتليفزيون والاذاعه ولكن قصصيا، أى بطريقة الشبق المثير للسعار، وبطريقة «خيال» الشر والاجرام الذى يسيطر على أذهان ضحاياه، حتى لو لم يصلوا من ذلك إلى ممارسة أفعال الشر والاجرام.

وفى إسبانيا، استكمالا لدور محاكم التفتيش ولطمس وتوحيش الذهن الاسبانى، نشروا لعبة - أو بالأحرى جزارة - مصارعة الثيران لاستعراض الطعنات الدموية فى لحمها ثم قتلها استعراضيا! ومع هذه الأنواع وغيرها من الاثارات الانفعالية الجارفة ومصادر الطمس الذهنى وتغييب أو تعتيم أو تغشيم العقل، تنتشر مكملاتها ذات الدور اللاعقلى المكشوف، وهى

المخدرات والخمور، فضلا عن الموسيقى الصاخبة أو الضجيج والضوضاء، وما إلى ذلك من أنواع التوحيش السمعى والتفشيم السمعى (بواسطة آلات موسيقيه أوبدون موسيقى)!!

إماضحايا اللاعقل الذين لايتعاطون الخمور فانهم يتعاطون المخدرات، والذين لايتعاطون الجنس الحرام قد يتعاطون الجنس الحلال، والذين لايتعاطون الموسيقى الصاخبة قد يتعاطون التواشيح والأذكار وأغانى التوبة والغفران (وخصوصا من مغنيات العشق والغرام!)، ثم يتعاطون بجانب ذلك «طيبات» الأطعمة الشهية المثيرة التى يزيد طمسها الذهنى العقلى عن أشد الخمور المحرمة! ثم فوق كل هذا وأخطر من هذا وذاك، يتعاطون اللامعقولات والخرافات أو التبريرات المنافية للعقل، مع الضغوط والنواهى المرعبة ضد امتدادات التفكير والتساؤل، التى لايستطيع العقل أن يتجنبها ولو لاشعوريا - إلا إذا وصل بتكرار الكف المانع inhibition إلى الضمور والتقلص والتدهور.

ولنلاحظ هنا أن ميكانيزم إتلاف وتقليص وضمور مراكز التفكير فى المخ نتيجة الكف المستمر لـ «آلام» التفكير والتساؤل، هو نفس الميكانيزم الذى يؤدى فى مرض الجذام مثلا إلى إتلاف وموت الأعصاب الطرفية للأصابع ومن ثم موت وتساقط الأصابع تدريجياً، نتيجة الكف المستمر لآلام الأعصاب الطرفية عند المجذومين ! (والتشبيه هنا مع الفارق بين «الآلام» الذاتية المصنوعة بالانغلاق الذهنى، «والآلام» الفسيولوجية التى تفرضها الاصابة العضوية بالمرض).

وهذا ينقلنا من «المتع» التى تطمس أو تعرقل أو تنتقص من العقل ، إلى الآلام والمنفرات والمخاوف التى تؤدى نفس الدور بل وأكثر، حيث يمكن مثلا لمصادر الرعب الشعورى واللاشعورى أن تشل التفكير وأن تلغى العقل. وهكذا تتعدد الأسباب واللاعقل واحد - حيث اللاعقل يعنى بالضرورة المنطقية تدهور الفرد وتدهور المجتمع. ومع تزايد اللاعقل يتزايد التدهور، فى تفاقم متضاعف لاينتهى.

✪ فرويد والحيوان البشرى!

ولكن فرويد - الذى كان هو نفسه طبيبا مريضا وليس فقط فاسد الطبع - وضع تلفيقا

علميا لتكريس اللاعقل واللاأخلاق واللاإنسانية، كرر فيه بصياغات وشكليات علمية عصرية تقاليد وأساليب كهنه وقوادى الجنس منذ أقدم عصور الفراعنة الذين صنعوا الطفولة الشريرة الفاسدة للبشرية وفرضوا لعنتهم الاجرامية عليها. ذلك أن أفاعى أجهزة صناعة اللاعقل والافساد والحيوانية كانوا يغرقون مصر وجيرانها فى «أعياد» و«كرنفالات» المشاعية الجنسية مع المذابح البشرية (كرنفالات أدونيس وبعل وباكوس، الخ)، وفى معابد الجنس والخمور والذبح بل وفى جنس المحارم ومشاعيات ومذابح جنس المحارم وليس فقط فى زواج المحارم الذى استمر فى التقاليد الملكية الفرعونية حتى عصر الميلاد! بل وكانت أساطيرهم القديمة تقول إن قابيل ابن آدم قتل هابيل صراعا على أختهما!!

وانطلاقا من ذلك الرصيد الحيوانى المريض، تناول فرويد ظواهر الفساد الجنسى مع انفعالات العدوان والتطاحن والتناحر، وتناول مستنقعات وأخوار الاثارة الجنسية والشبق الجنسى مع إثارات وفنون الضرب والتقاتل والتذابح التى تغوص وتغرق فيها البشرية إفساداً وإجراماً وتحطيماً منذ آلاف السنين، فاعتبرها طبيعة سليمة وليست تطبّعا مريضا!! ونتيجة ذلك الرصيد العريق فى الحيوانية والمرض، اعتبر غريزة الجنس أقوى الغرائز طبيعيا – ولم يدرك أن هذا لم يحدث إلا بعد تحويلها إلى أفسد وأمرض الغرائز، وأن هذا لايحدث حديثا إلا بمايتناسب مع درجة تفاقم اللاعقل ومن ثم الحيوانيه، أى مع درجة السقوط الذهنى عن الفطرة العقلانية السليمة.

ومن ناحية أخرى، اعتبر فرويد الغريزة الكبرى المكملة لغريزة الجنس هى غريزة الموت(!!)، بمعنى غريزة العدوان ضد النفس وضد الآخرين – ولم يدرك أن هذا لايكون إلاتنفيساً غير طبيعى ضد النفس أو ضد الآخرين نتيجة زيادة الضغوط والآلام والشحنات الانفعالية مع نقص العقل. ثم صنع فرويد من هاتين الغريزتين مخلوطاً لاإنسانيا مدمّراهداما، جعله مصدر طاقة شحنات اللاشعور «الطبيعى» المزعوم عند جميع البشر – حيث اللاشعور يعنى فى رأيه اللاعقل، وأيضا النزوع الحيوانى اللاأخلاقى المحرك للانسان والذى يحاول المتفلسفون أن يعرقلوه ويعوقوه بالعقل والضمير وغير ذلك من معرقلات ومعوقات يعتبرها «غير طبيعية» لأنها غير حيوانية!!

هذا هو فرويد: اللافتة العلمية المزيفة التى يؤمن بها صراحة أو ضمنا كل المشتغلين

بالاجرام الطبى الذهنى، وخصوصا زبانية وحيوانات ومهابيل مايسمى الطب النفسى أو العقلى والمتأثرين بهم، والذين نجد أوضح نماذجهم مسئولين ومشتركين فى تشغيل مستشفيات المجانين ومايسمى المصحات النفسية، ومعلمين للدروس الاجرامية واللاعقلية التى تطبق صراحة أو ضمنا فى مختلف أجهزة ومرافق الدولة والمجتمع، وخصوصا فى أجهزة الارهاب وأجهزة الاعلام. فهؤلاء هم المتخصصون فى تحويل المجتمع إلى سلخانة لاعقلية على غرار سلخانات مستشفيات المجانين!

وأخبث السموم التى زرعها فرويد باسم الطب فى أذهان هؤلاء وأمثالهم، هو أنه لايعتقد أن جوهر الانسانية يتمثل فى العقل ولكن بالعكس! ولهذا لم يستطيع أن يفهم أن العقل يعنى إلغاء الحيوانية وليس مجرد كبحها وتقييدها، أي يعنى تحويل الوظائف الفسيولوجية الأدنى، تحويلا كيفيا ونوعيا إلى وسائل تخدم وتدعم قدرات ونشاطات العقل – على غرار تحويل مادتى الكلور والصوديوم السامتين إلى ملح طعام مفيد – أى تحويلا يحقق الارتقاء الانسانى . لكن فرويد وأمثاله يعتقدون أن جوهر الانسانية هو الحيوانية واللاعقل! ومعنى ذلك أنهم يعتبرون الانسان بطبيعته لاإنسانا(!!)، وأن العقل مجرد وسيلة تخدم حيوانية الانسان وتدعم اللاعقل البشرى!!

وفى هذا الصدد، استطاع أصحاب هذا الاتجاه منذ العصور القديمة أن يشقلبوا حتى معنى كلمة «الحيوان» animal، التى كانت تعنى فى اللغات القديمة الأوروبية والشرقية «الحىّ» animé (كما يتضح فى النصوص القديمة وحتى فى نظرية ديكارت عن «الأرواح الحيوية" les esprits animaux. وبهذا التعكيس، حوّروا عبارة أرسطو عن أن الأنسان كائن حىّ عاقل (أو بترجمة ابن رشد «حىّ عالم») فجعلوها «حيوان عاقل» – بمعنى أنه نصف حيوان ونصف عاقل!

وهكذا نجد أن فرويد وأمثاله، كرسوا تقاليد ومخططات تدهور الإنسان وتحويله إلى حيوان أدنى، حيث نظروا إليها كعمليات "تحريرية" تحرر الطاقات والشحنات "الطبيعية" اللاشعورية المزعومة للبهيمة البشرية، بدلا من أن ينظروا إليها كعمليات تجهيلية إفسادية وهدامة تصنع الطباع والتطبعات الحيوانية كطباع وتطبعات مريضة! ومن ثم انطلقوا ينشرون فى كل مجالات الحياة مثيرات "التحرير" والشبق الانفعالى وخصوصا الجنسى! (إلى درجة تحويل

الوطنية مثلا إلى وطنية جنسية كما يتضح فى زيادة الأغانى والتعبيرات الوطنية المعجونة بالجنس ومن مطربات الجنس!)

وفى هذا، يجب أن نعترف بأن تقاليد وأساليب وعلوم وفنون إفساد الجنس وإمراضها ونفخها وتضخيمها منذ أقدم العصور، قد جعلتها بالفعل لدى معظم الناس أقوى قطب يستقطب مختلف الغرائز الأخرى والوظائف والنشاطات الأخرى، بحيث أن استخدامها كوسيلة هدم للأفراد والمجتمعات أصبح سهلا إلى درجة خطيرة جدا، تشبه سهولة تفجير أطنان المتفجرات المجمّعة بواسطة شرارة كهربائية أو إشعاعية خاطفة! لكن التاريخ البشرى السابق على الفرعونية أو الذى أفلت من الفرعونية، وكذلك العلم الحقيقى والمنطق العلمى وخبرات التدهور والضياع والخراب الشامل، تؤكد كلها أن هذا اتجاه مريض وشرير وهدام. وهذه الحقيقة تؤكدها حتى دراسات "علم نفس الحيوان"، التى تبين أن الجنس لايشكل الغريزة الأولى فى درجات سلم الغرائز عند الحيوانات فى الظروف الطبيعية. **فما بالك حين تضاف مصالح العقل السليم إلى مصالح البدن السليم؟!**

إزاء هذه الحقائق العقلانية العلمية والأخلاقية، لاتجدى هنا اعتبارات الأغلبية والأقلية فى المعطيات النفسية أو فى الرأى! تماما كما أن موضوع كروية الأرض أو دوران الأرض حول الشمس لم يتحدد باعتبارات الأغلبية والأقلية! فمن واجب النظام العقلانى الجديد للبشرية، أن يفرض أقصى العقوبات والموانع والروادع التى تصفى ميكروبات الافساد الجنسى (ذهنيا أو سلوكيا)، وتصفى تقاليد وعادات الافساد المتراكمة والمتغلغلة منذ آلاف السنين، وتصفى غطاءها اللاعقلى الذى يحمى بقاءها واستمرارها، وتصفى المعتقدات الخرافية المعجونة بالانفعالات والمتفجرات الجنسية، والتى تجعل الجنس أخطر قوى اللاعقل والتجهيل أو الجهل.

✪ مفارقة الاجرام العاقل

خلاصة الفقرات السابقة، أن العقل هو جوهر الحياة الانسانية الطبيعية وهو جوهر الطبع أو التطبع السليم، ومن ثم فهو صانع الخير والفضيلة والأخلاق للفرد والمجتمع، والمحرك الصحيح ضد الشر والرذيلة. وفى مقابل ذلك، فان اللاعقل هو جوهر الحيوانية واللاإنسانية، وهو

جوهر الطبع والتطبع المريض والفاسد أى جوهر اللاإحساس، ومن ثم فهو صانع أو منشّط الشر والرذيلة واللاأخلاق، أو هو على الأقل مثبّط ومعرقل المقاومة ضدها.

ومن هذا المنظور المنطقى والعلمى، ننتقل إلى مفارقة لامنطقية أخرى معكوسة الأطراف، تفضح صميم صناعة اللاعقل والتدهورومخططات تحويل الانسان إلى نوع حيوانى أدنى، هى المفارقة التى تزعم أن المجرم يجب أن يكون عاقلا سليما وأن المجرم اللاعاقل يكون مريضا معذورا أى غير مجرم!! ودجّالو العلوم الذهنية المقلوبة، لايقصدون طبعا بهذه المفارقة اللامنطقية تخفيف العقوبات عن ضحايا الظروف والضغوط الذهنية التى تسبب الانزلاق الجنائى بدون نزعات واستعدادات إجرامية شريرة، على غرار تخفيف العقوبات عن بعض مجرمى السابقة الأولى وصغار السن المغرر بهم. لكنهم يقصدون بها اعتبار المريض بالاجرام أى ذى الطبع الاجرامى المريض غير مجرم، واعتبار المريض بالشر أى ذى الطبع الشرير المريض غير شرير!!

والحقيقة والتاريخ، فان هذه المفارقة اللامنطقية الكبرى، لم تنتشر وتحصل على التكريس الاجتماعى إلا بواسطة الأجهزة البريطانية لصناعة اللاعقل الحديث، بينما الأجهزة الفرعونية والكنسية ومكملاتها كانت فى بعض النصوص القديمة أكثر منطقية واتساقا فى هذا الموضوع، حيث كانت تقول أحيانا إن المجنون المجرم أو المجنون الشرير متضاعف الاجرام والشر، ومن ثم يستحق مضاعفة العقاب! لكن للأسف أنها كانت تطبق هذا الرأى بشكل خاص على المتحررين فكريا أو المتنورين منطقيا (من تمنطق فقد تزندق!)، باعتبار أن أجنّ الجنون وأجرم الاجرام وأشرّ الشرور هو التفكير الذى يؤدى أو يمكن أن يؤدى إلى التشكيك فى الغيبيات المقدسة!

● وقد نشرت الصحف وأجهزة الاعلام أخيرا عن محاكمة مجرم بريطانى سفسطات تعتبر من أوضح فضائح المفارقة المذكورة، بعنوان : "**سفاح يوركشاير- محاكمة القرن**"! وكان من عناوين الفكرة اللامنطقية المذكورة عن عقلانية الاجرام ولاإجرامية الجنون، مايلى

مثلا :"**هل سمع ستكليف صوت الرب أم نداء الشيطان؟ هل هو مجنون غير مجرم، أم مجرم غير مجنون؟**"

ومن هذه الحكاية النمطية، يتضح لنا أن الأجهزة البريطانية لصناعة اللاعقل والاجرام التى نشرت وكرست المفارقة اللامنطقية المذكورة عن **سلامة الاجرام ولاإجرام المرض**، كانت تصوغ وترسخ بهذه المفارقة "مصدراً" قانونيا وإعلاميا من المصادر الواسعة الشهرة، بهدف مضاعفة التجهيل والتضليل الفكرى فى موضوع أصول وأسباب الخير والفضيلة والشر أو الرذيلة والاجرام. ذلك أن أجهزة اللاعقل البرجوازية تحاول دائما أن تغطى وتطمس رواسب المبادئ والمعلومات القديمة المتوارثة عن أن سلامة التكوين الذهنى أى سلامة العقل – الذى هو حاكم الذهن ومنظِّم السلوك – هى أصل وأساس الخير أو الفضيلة، وأن مرض التكوين الذهنى أى مرض العقل هو أصل وأساس الشر والرذيلة والاجرام.

وفى هذا الصدد، يمكن أن نلاحظ التعبير العربى القديم – الذى نجده أحيانا فى القرآن – عن "الذين فى قلوبهم مرض"، حيث كان المعنى القديم للقلب هو العقل أو المخ الموجود فى قلب الرأس. وتبين القرائن التاريخية أن المعنى اللغوى القديم لهذا التعبير، هو أصحاب النفوس المريضة أوالأذهان المريضة – ليس فى الاطار السطحى الذى يفهم اليوم، لكن بمعنى الطباع المريضة الفاسدة أو الشريرة جذريا.

وإذا رجعنا إلى التقليد المذكور الخاص بصياغة مصادر إعلامية للتجهيل والتضليل والذى استخدمه الانجليز فى حكاية السفاح ستكليف، نجد أنه تقليد معروف كانت تمارسه أجهزة التجهيل والتضليل منذ أقدم العصور، حيث كانت تصوغ وتنشر القصص والأخبار والقواعد والعبارات أو المأثورات المزيفة أوالمشقلبة ذات المتضمنات التضليلية، لتزرع وترسخ بها المغالطات والتزييفات التى تتحول مع الزمن إلى "بديهيات" مزعومة!

● وعلى كل حال، فالمفارقة المذكورة عن **عقلانية الاجرام ولاإجرام الجنون**، تنبهنا أيضا إلى مفارقة لامنطقية أخرى مكملة لها عكسيا، أى تشكل صورة مقلوبة لها، هى **مفارقة مايسمى "جنون العبقرية"، وأنه "بين العبقرية والجنون شعرة"**!! وهذه مفارقة يروّجون لها لتبرير وتغطية حوادث ووسائل التحطيم المدبرة التى يلاحقون بها العباقرة قبل توقيتات التخلص من حياتهم. ذلك أنهم يستخدمون ميكانيزمات

الملاحقة والتحطيم ضد بعض المفكرين والنوابغ المسموح لهم بالحياة مؤقتا، ليس فقط بهدف التحكم فى إنتاجهم بالخفض أو بالمنع أو بالتوقيت المطلوب وفق برامجهم السرية، لكن أيضا لتوريطهم فى بعض الأخطاء "العميقة" التى تكون محبوكة المغالطة ومتقنة الشكل، ومن ثم رائجة وناجحة فى الاستخدام التجهيلي! أما الحقيقة العلمية والمنطقية فى هذا الموضوع، فهى أن قدرات العقل العبقرى حقا تجعله أبعد أنواع العقول عن الجنون، وأشدها مقاومة لعوامل الجنون – إلى درجة أن مثل ذلك العقل لايمكن أن يصاب بالانهيار العصبى أو الجنون إلا باستخدام أشد وسائل التحطيم والتجنين التى يحتاج تحطيم العقل العادى إلى أقل القليل منها!! تماما مثل حامل الأثقال العملاق، الذى يستطيع فى حالات الضعف أن يحمل مالا يطيق الانسان العادى حمله فى أوج قوته!!

✪ أجهزة وأساليب صناعة الفساد

من ناحية أخرى، يمكن أن نلاحظ أن الأجهزة البريطانية التى أثارت ضجيجا واسعا حول المفارقة التضليلية المذكورة بحجة سفاح يوركشاير، كانت تحاول بذلك أيضا تدعيم وترسيخ مغالطة تضليلية أشد خبثا، هى أن **ظواهر الشر والاجرام تعتبر ظواهر أو نزوات تلقائية طارئة**، يمكن أن تظهر فجأة كما يمكن أن تختفى فجأة دون ضابط أو رابط علمى موضوعى!! ذلك أن أهم الوسائل والأدوات البشرية للاجرام فى عصر "الحريات" الحديثة المزعومة، هى الوسائل والأدوات "التلقائية الحرة"! أما الأجهزة الفرعونية القديمة ثم فروعها فى العصور الوسطى، فكانت تقيم مدارس بشرية (تشبه مدارس القردة) للترويض المتخصص للأطفال والشبان، وذلك فى الأديرة وزوايا المعابد الفرعونية وكذلك فى جبات التعذيب (= السجون أو الخنادق التحت أرضية، جمع جُب)، وفى شفخانات المجانين الفرعونية أو المبرمجة على الطريقة الفرعونية التى كانت تنتشر فى مختلف المواقع المطلوبة. وكانت هذه كلها تُستخدم كمدارس قهرية منذ الطفولة أو كمدارس تجنين وتعليم بطريقة العصا والجزرة – أى أساسا بالتعذيب والرعب مع التلذيذ المحكوم على غرار ترويض القردة. وهذا واضح فى التعبير العربى القديم الوارد فى القرآن "معلَّم مجنون"، أى مروَّض وملقَّن بطريقة ترويض المجانين.

وفى مختلف هذه الأنواع من «المدارس» الفرعونية السفلى أو "مدارس القردة البشرية"،

كانوا يعلمون ويدربون ويروضون المطلوب تشغيلهم كأدوات أوتوماتيكية عمياء متخصصة فى مختلف مجالات السحر والكهانة والغيبيات وفى مجالات الشر والرذيلة والافساد والاجرام والتحطيم. (ولهذا اشتُق اسم "الانسان الأوتوماتيكى"[١] من كلمة robota التى كانت تعنى عبيد المرابط – وهو أيضا أصل معنى غيلان الأغلال المبرمجين حيوانيا كالقردة![٢]). وبذلك كانوا يخرّجون الفرق والمجموعات "الخاصة" من جوارى وغلمان الجنس وعبيد الشذوذ الجنسى وقوادى وقوادات الجنس والسمّاويين (محترفى دس السموم والأمراض والمواد المؤذية)، فضلا عن مرتّلى النصوص الملقنة والطقوس السحرية والمتنبئين ومفسرى الأحلام ورفاعية الأفاعى والحشرات، وكذلك أيضا أدوات الغواية والتمرد والدس والفتن ومروجى الاشاعات والمأثورات المزيفة أو المشقلبة والنكت أوالتعبيرات التجهيلية والمفسدة، وأيضا رواة أوشعراء الفولكلوريات المزيفة أو المحوّرة (ولاحظ أن كلمة "شاعر" / مشعور كانت تعنى عند القدماء : الملقّن المجنون)، ثم الأدباتية والقصاصين المفسدين للأخلاق أو المزيفين للتاريخ والمحرّفين للغة، وغير ذلك من الأدوات والأراجوزات البشرية فى مختلف مجالات وتخصصات الافساد والتجهيل أو التضليل وفنون اللاعقل.

وكانت الأجهزة والشبكات الكهنوتية القديمة تستخدم مختلف الوسائل المباشرة وغير المباشرة و"التقليتات" أو التهريبات الخاصة ذات المظهر الاضطرارى (بأسلوب حدوة الحصان) فى نشر هذه القردة أو الميكروبات البشرية : ليس فقط باستخدامهم فى حملات التهجيرات الجماعية ومطاريد الغجر وفى الاكتساحات الدينية وشبه الدينية، لكن أيضا بمختلف وسائل الانتقاء الفردى الخاص (من خلال السيطرة على "مصادر" الرقيق وتجارة الرقيق ووساطات تشغيل ونقل العمالة المطلوبة والأشخاص المطلوبين، فضلا عن تدبير العمليات الخاصة أو التهريبات الخاصة).

---

(١) للأسف أن كلمة automaton ترجمتها العربية الشائعة هى "الانسان الآلى"! وهذه ترجمة خطأ، لأن الأوتوماتيكية تعنى الحركة الذاتية أوالتلقائية، بينما الآلية لاتعبر عن ذلك.

(٢) لاحظ أن الجذر العربى "غل" يوجد فى كلمات "غول" (للتعبير فى العربية القديمة عن الافتراس الدموى وأيضا الجنسىّ)، و"غائلة" (ومن معانيها أيضا الجماع الممنوع) و"غلمة" و"غلام"، الخ. وفى العبرية القديمة، كات كلمة غوليم / غول تعنى جنين! ولهذا تعبر الكلمة أيضا فى العربية القديمة عن بذور العدوى (انظر حديث العدوى المعروف). ومنها أصبحت تعبر عن البذور النباتية / الغلال!

وقد استمرت هذه التقاليد والأساليب بدرجة أو بأخرى حتى النصف الثانى من العصور الوسطى : ليس فقط فى الأوكار والمراكز السرية فى مجاهل الصحارى والبرارى والغابات، لكن أيضا فى بعض الأديرة الكنسية وفى مرابط أو خانقاهات - أى خانكات - الطرق الصوفية، وفى السجون والبيمارستانات ومعسكرات الجذام. هذا مع ملاحظة أن كلمة "الرهبة" أو "الرهبانية" التى يجمع المؤرخون القدماء على أن مصدرها الأول هو مصر الفرعونية ثم القبطية، هى كلمة مشتقة من الاسم القديم لمصر "رَهَب" Rahab، التعبير اسماً ومسمىً عن "الرهبوت" أى الرعب الدينى الذى عبرت عنه الكلمة اليونانية deinos - ومنها دينوسورا - كتعكيس وتحوير تشويهى للكلمة الأصلية deon / دين بمعنى الذمة أو الضمير العقلانى.

وفى مقابل هذه المصادر المباشرة للشر والاجرام والافساد فى العصور القديمة والوسطى (بغض النظر هنا عن تبريراتها الغيبية الوثنية التى لم تكن تقنع العقلاء)، انتشرت المصادر والميكاينزمات المموهة فى العصر الحديث بعد انتشار شعارات الليبرالية والحريات الوهمية! فقد بدأت الأجهزة البريطانية - كقيادة للأجهزة البرجوازية العالمية - تقاليد وأساليب «حديثة» للتربية التلقائية الحرة على الشر والفساد والإجرام، «بطريقة» «الاختيار التلقائى الحر» أو «الانزلاق الحر»! (على غرار مايحدث مثلا فى ميكانيزمات إدمان السجائر والمخدرات!). ذلك أن التحكم الاشعاعى الذى كان عاملا مساعداً فى العصور القديمة والوسطى، تحوّل إلي العامل الرئيسى الأكبر فى العصر الحديث، ومن ثم حل محل المجموعات المتخصصة فى "تربية" وتشغيل القردخانات وفى صناعة ميكانيزمات وأدوات الشر والافساد والاجرام ومجموعات تشغيل الكهوف والأقبية والسراديب والأنفاق السرية والجبّات التحت أرضية التى كانت الأجهزة القديمة والوسطى تحكم بها المجتمعات "ماسونياً" من تحت الأرض! (ولاحظ أن هذا هو أصل معنى ماسونية عمال البناء، الذى كان يرتبط بتقاليد الغجر، والذى ارتبط أيضا بنجمة داود المفتوحة الطرفين).

ونتيجة ذلك، نجد أنهم بدلا من تخريج ميكروبات الشر والافساد والاجرام من مرابط أو مدارس متخصصة للقردة البشرية، أصبحوا يصنعونهم منذ الطفولة والشباب بالأساليب "التلقائية الحرة" فى أكوام القاذورات فى الأزقة ونواصى الشوارع وبعض البيوت وأماكن التجمع وأماكن العمل أو فى القعدات والسهرات والملتقيات - وليس فقط فى أماكن الاجرام

التقليدية المكشوفة، وأوضحها السجون ومستشفيات أو "مصحات" المجانين! وعلى غرار المثل القائل إن "التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر"، فان هذه الصناعة المخططة ماديا وبشريا وإعلاميا للميكروبات الاجتماعية تركز على مراحل الطفولة والشباب بطريقة تشكيل الأوانى الفخارية من الطين اللين، حيث يكون من الأسهل ومن الأبقى تكوين تعودات الشر والفساد وتحطيم الطباع السليمة واستبدالها بتطبعات مريضة، ومن ثم نشر التعود والادمان والتطبع الفاسد الذى يستحيل تغييره بعد ذلك.

وعلى أساس التحكم الطبى والتكنولوجى الاشعاعى وفروع التحكم الطبى والتقنى التقليدى المتفرعة تحته والخاضعة لقيادته، ومن خلال المتخصصين فى الاجرام النفسى والذهنى بمختلف مستوياتهم ومجالاتهم، تُنظِّم وتُنسق تشغيلات أسراب الميكروبات التلقائية الحرة المذكورة. وتعتمد تشغيلاتها – **أولا** – على نشر وتوزيع المغريات والمصايد التقليدية المعروفة للشر والاجرام. وتعتمد – **ثانيا** – على توفير ضمانات وتيسيرات وتبريرات الشر والفساد والاجرام والتخفيفات والثغرات القانونية والحكومية والمجتمعية المنشِّطة. وتعتمد – **ثالثا** – على مبدأ "استرعاء الذئب" أو "إعطاء الفار مفتاح الكرار"، أى وضع مفاتيح ومراكز التحكم فى مختلف مستويات ومجالات الدولة والمجتمع فى أيدى الأشرار الفاسدين أو المجرمين المنافقين، أو على الأقل فى أيدى "أدعياء العلم" المتخصصين" فى مظاهر التحذلق، وغيرهم من السطحيين والجهلة، أو حسنى الظن وأشباه البلهاء ذوى الأذهان الغيبية أو الأذهان الغبية. ثم – **رابعا** – تعتمد تشغيلات الميكروبات البشرية للافساد على "التربية" التدهورية إعلاميا وتعليميا واجتماعيا وتعامليا، على أساس صناعة مخططة شاملة للأذهان وإمكانيات الادراك بالمواصفات المطلوبة.

وهذا يبين لنا النقطة الأساسية والأهم التى تحتاج هنا إلى التوضيح، وهى الخاصة بصناعة التدهور الشامل باستخدام الأساليب التلقائية الحرة لتى تتناسب مع عصر الحريات الوهمية والكرامة المزعومة للانسان والحقوق المزعومة للانسان والمساواة المزعومة بين أى شخص وأى شخص (بل وحتى بين جميع الكائنات الحية وربما بين أى شئ وأى شئ!). فهذه صناعة مخططة، تعتمد أولا وفوق كل شئ على خبراء الاجرام الذهنى المتخصص وعلى أشباههم وأتباعهم وتلاميذهم أو المتأثرين بهم من المشتغلين بالعلوم الذهنية المقلوبة والمحكومة

بتقاليد اللاعقل. ويجب أن نلاحظ أن الفرق بين حسن النية وسوء النية هنا لاتكون له أى قيمة، لأن تنصيب المشتغلين بصناعة اللاعقل فى مراكز التحكم والتأثير فى الدولة والمجتمع (تحت أسماء الطب النفسى أو علوم النفس أو "العلوم السياسية" وعلم الرأى العام، أو فنون إرضاء الجمهور، الخ)، يشبه فى الحقيقة إعطاء مقعد التشغيل لطفل أو مهبول أمام لوحة قيادة سيارة أو طائرة أو آلة كبيرة – مهما كانت أحلامه الوردية السعيدة بخصوص ذلك!!

فهؤلاء اللاعقليون (الواعون أو غير الواعين) المشتغلون بالتحكم الذهنى فى الأفراد والمجتمعات، موزعون على مختلف مرافق الاعلام والاعلان والتخطيط السياسى واستطلاعات الرأى والخدمات والعلاقات العامة والشباب والطفولة، الخ. ناهيك عن الأجهزة السرية والحكومية والمرافق المكملة لها مثل مراكز التربية العسكرية والعقابية وغيرها. ومعنى ذلك أنهم موزعون على مختلف مراكز صناعة الذهنية الاجتماعية والانطباعات والآراء الاجتماعية وغيرها من مراكز التأثير فى الذهن الفردى والمجتمعى. وتتكامل مع هؤلاء وتخدم نشاطهم المتخصص، جيوش من ذوى الخبرات الشريرة (الموجهة) فى العمليات النفسية للارهاب والتحطيم والافساد : ابتداءً من حثالات المشتغلين فى الجهات الارهابية والعقابية، إلى جيوش من يسمون الفنانين والفنانات وأشباههم وتوابعهم من الأدوات فى أوكار الدعارة وملاهى الرقص والطرب والسينما والمسرح والاعلام، الخ. فهذه هى الكتائب المتخصصة فى صناعة الفساد اللاعقلى (سواء بهدف الارهاب والتحطيم أو بهدف الافساد الحيوانى الواعى أو باسم "التحرير" الفرويدى و"التكيف" النفسى أو "التربية" العصرية والتجديد أو التسرية والتخفيف، أو حتى التجميل والتلذيذ العقائدى!).

ومن خلال وبواسطة هذه "الكتائب" الافسادية ووسائلها المادية والذهنية وتقاليدها "الفنية"، تشتغل وتتحكم قيادة صناعة اللاعقل فى المراكز التكنولوجية الاشعاعية الأعلى التى خُصصت لها بعد الحرب العالمية الثانية فروع عسكرية بوليسية وطبية رسمية فى مختلف بلاد العالم البرجوازى، تتبع المايسترو الاشعاعى الأنجلو أمريكى.

✪ ميكانيزمات صناعة اللاعقل

وهنا نرجع إلى دور مستشفيات المجانين ومايسمى المصحات والعيادات النفسية الحديثة وما شابهها، باعتبارها المراكز الأساسية المتخصصة فى تنظير المغالطات والقواعد "التربوية"

لصناعة اللاعقل في المجتمع، وفى تعليم وتدريب المشتغلين فى صناعة اللاعقل الذين يوزعونهم على مختلف المواقع المذكورة للدولة والمجتمع، وفى توجيه الأشخاص الذين يتابعون "دروسها" العملية من مختلف مواقع الرصد. وفى هذا الصدد، يجب ألا ننسى أن فرويد – الذى هو منظِّر الافساد الذهنى والنفسى الحديث والرائد المعتمد لكهنة اللاعقل الحديث – تعلّم وصاغ نظرياته من "مصحة" وضعوا له فيها النماذج والأنماط المضللة المطلوب تكريس وتعميم دروسها الهدامة!

إن المسألة هنا ليست فقط وليست أساسا أن تلك المراكز المتخصصة هى (مثل السجون والملاجئ و"الاصلاحيات" وغيرها من المراكز العقابية) مزارع ميكروبات للشر والافساد والاجرام ومخازن توزيع للمنتجات الميكروبية. لكن المسألة الأخطر هى أن تلك المراكز المتخصصة فى صناعة أو مفاقمة المرض باسم "العلاج" ثم إخفاء وتغطية المرض وتحويله باسم "الشفاء" إلى حقول ألغام ومتفجرات ذات منافذ وثغرات محددة وذات أزرار تحكّم محددة تعرف الأجهزة الاجرامية خرائطها وأسرار تشغيلاتها، تعتبر من ثم أهم مراكز الدراسة والتدريب على ممارسة ميكانيزمات إنتاج الميكروبات اللاعاقلة وميكانيزمات الترويض والتشغيل المحكوم للمحطَّمين المحطِّمين ذهنيا والمشوَّهين المشوِّهين ذهنيا (بالفتح والكسر فى الحالتين)، وعلى أساليب تعميم هذه الميكانيزمات فى مختلف مواقع الدولة والمجتمع والحياة.

● ومعنى ذلك، أن مستشفيات أو "مصحات" اللاعقل الطبى والنفسى، هى المصدر والمرجع الأساسى لدروس وقواعد صناعة اللاعقل الفردى والاجتماعى عموما. وفى كلمة واحدة، نقول إنها تعتبر بمثابة "الماكيت" أو "النموذج المصغر" لصناعة اللاعقل واللاإنسانية فى أى مجال خاص أو عام.

ولننظر فى بعض الأمثلة.

إن القاعدة الرئيسية الكبرى فى تلك المواقع ذات التخصصات الطبية المقلوبة، هى أن الحل الحاسم لمشاكل الانسان هو خفض أو منع التفكير والكلام، أى حصر وعرقلة العقل! ولهذا فان كل أنواع "العلاج" الطبى والنفسى المقلوب التى يؤخذ بها فى تخصصاتهم، هى أنواع من العلاج اللاعقلى أى الخافض أو المانع للتفكير والكلام والعقل!! وكل أنواع "الشفاء"

المقلوب المأخوذ بها عندهم، هى أنواع من ضمور وانحصار العقل والوصول إلى الدرجة المطلوبة من الصمت والتبلد واللاإحساس!! وهذا يشبه علاج وشفاء العين مثلا من الحساسية لكشافات الضوء الشديد، بخفض أو تعمية البصر بدلا من إلغاء أو خفض مصادر "الاستفزاز" الضوئى التى تتألم منها العيون السليمة!! – أو على الأقل السماح لأصحاب العيون السليمة بالانزواء المتقوقع أو استعمال النظارات السوداء! **وقاعدة "التكييف العماوى" هذه، هى التى تعمم أيضا على المجتمع، وهى التى دفعت الشاعر الشيوعى الفرنسى إيلوار إلى أن يقول مأثورته المعروفة :"إنهم يبحثون عن العيون التى تبصر فى الظلام لكى يفقأوها"!**

وهذا ينقلنا إلى "دروس" المفارقة اللامنطقية المذكورة عن اللاعقل والاجرام. ذلك أن العقل – الذى هو حاكم ومنظم الادراك والسلوك – يكون من حيث وظيفته هو المانع الطبيعى من الخطأ والاجرام. وكلما زادت قدرات العقل، زادت قدرات مراجعة النفس، ومن ثم زادت قدرات تجنب الخطأ، أو القدرة على سرعة انتشال النفس من الخطأ. وعلى عكس ذلك، يكون طريق شرور وجرائم اللاعقل هو طريق التعود واللاإحساس. فاذا كان الأمر كذلك، فيجب إذن أن يكون العلاج الحقيقى الوحيد أى الشافى للأشرار ومجرمى اللاعقل واللاإحساس، هو زيادة ومضاعفة العقوبات التى يجب أن تصل فى حالات معينة إلى الاستئصال المرعب – ليس أصلا للتخلص من شرورهم وجرائمهم غير القابلة للاصلاح كما تستأصل الحشرات والكلاب المسعورة، بل أصلا وأساسا ليكون مايحدث لهم علاجا شافيا رادعا لأمثالهم من فاقدى الاحساس الذين قد يتجهون إلى التورط فى طريق مشابه(١).

لكن الدرس الاجرامى الهدام الذى تقدمه التخصصات الطبية والنفسية المقلوبة فى هذا الصدد – تحت شعار أن المجرم المريض غير مجرم وأن الشرير المريض غير شرير – هو أنه يجب عدم معاقبتهم ولكن "معالجتهم"!! وكأنما العقاب ليس علاجا!! أو كأنما مستشفياتهم

(١) رغم الاختلاف النوعى الجذرى فى الاتجاهات والمعتقدات، ورغم عكسية الأهداف، يمكن أن أشير هنا إلى حديث نبوى هام جدا وثابت بالاجماع أورده البخارى وغيره، فضلا عن أنه يعبر عن حكمه قديمة راسخة (لكنه للأسف غير مشهور حاليا)، وهو :"نُصرتُ بالرعب"!

ومصحاتهم جثث ممتعة لاتمارس العقاب والايلام والرعب – لكن لتحطيم الاحساس والتفكير وفرض العمى الذهنى وزيادة شحنات الشر والاجرام!!

ثم ماذا يقصدون بذلك العلاج المقلوب؟! إنهم يقصدون زيادة تخفيض وتعجيز عقولهم، ومن ثم زيادة وتعميق نزعاتهم الشريرة، مع زيادة الدقة فى إخضاعها للتحكم الترويضى التلفيقى! ويكفى أن تتأمل فى ذلك مدى اهتمام زبانية مستشفيات المجانين بنشر جرائم الشذوذ الجنسى (وليس فقط الاعتداءات الجنسية على بعض النزلاء خصوصا فى المستشفيات الحكومية)، وذلك باشراف مستخدمين ونزلاء متخصصين، وباستخدام مستخدمات المستشفى فى الاثارة الجنسية التى يتحول مفعولها إلى الشذوذ المتاح! هذا مع ملاحظة أنه فى حالة انفضاح أى جريمة شذوذ جنسى – اختيارية أو إجبارية – فانها تعتبر مجرد تصرف مريض "يعالج" مرتكبه بعدة صدمات كهربائية، شأنه فى ذلك شأن أى نزيل لم يرتكب جرما ولكن يعتبر "مريضاً تحت العلاج"!!

وقد انتقل الدرس الاجرامى الهدام عن مبدأ "العلاج" المزعوم بدلا من "العقاب"، حتى إلى المؤسسات العقابية وإلى قوانين العقوبات التى هى مختصة نوعيا بالعقاب الصريح، لأنها تنطبق فى رأيهم على "عقلاء" الأشرار المجرمين!! وهكذا تحولت السجون إلى أماكن للراحة لعتاة المجرمين يمارسون فيها أقذر الشرور مع الاستمرار فى تدبيراتهم الاجرامية!! بل وألغيت عقوبات الاعدام تماما – حتى عن أشرس الجرائم – فى معظم الدول "المتقدمة" فى التدهور والفساد والاجرام! أما الأخيار والفاضلون وأنصار العقل والعدل، فهم الذين لازالوا يلقون العذاب والاعدام فى تلك البلاد وغيرها – ولكن بوسائل العدوان والايذاء "التلقائى" والقتل الخلصى أو القتل السرى والحوادث المدبرة أو الموت الطبى والارغام على الانتحار، الخ. وقد انتشر وباء عدم العقاب أو تخفيف العقاب عن المجرمين، حتى أصبح مبدأً من مبادئ التربية العلمية" المزعومة، وليس فقط مبادئ المحبة والوئام والرحمة!

● **وهذا يذكرنا بالحكايات والصور الفرعونية والكنسية القديمة التى كانوا يروجون لها عن الصداقات وعواطف المحبة بين الذئاب والوحوش مع الحملان والنعاج!!** لكن الحقيقة أنهم فى تلك العصور لم يكونوا يطبقون شيئا من ذلك طبعا، وإنما كانوا يستكشفون ويستطلعون بهذه القصص والصور : من يصدقون ومن

لايصدقون هذه البلاهات المنافقة!! فمن الذى عميت بصيرته وانعد م عقله اليوم، بحيث لايدرك أن كل الاعفاءات والعواطف والمحبات والتراحمات المذكورة ليست إلا وسائل تغطية لعمليات افتراس وتحطيم وإفساد الضعفاء والأبرياء، ومنشّطات لزيادة الشرور والجرائم والحيوانيات والفظائع التى أغرقوا فيها عالم اليوم؟!

✪ العقل والنفس

إن هذا ليؤكد لنا مرة أخرى أن صناعة الشر والاجرام لاتكون إلامن خلال صناعة اللاعقل : صناعة لا عقل الأشرار المجرمين لكى يمارسوا الشر والاجرام، ولاعقل الضحايا لكى لايفهموا كيف ولماذا يحدث الشر والاجرام، ولاعقل من يبقى من المفكرين والمصلحين والمشرّعين لكى يفشلوا فى تشخيص وعلاج مايحدث للأفراد والمجتمعات.

ونستطيع أن نجد نماذج رسمية واضحة ومكشوفة لمخططات صناعة مجانين الاجرام والمجرمين ناقصى العقول، إذا تأملنا بعض الفضائح الاجرامية الذهنية التى كشفت عنها محاكمات نورمبرج ضد النظام النازى بعد تحرر المانيا من جنون النازية والعسكرية الهتلرية (التى صنعتها من الداخل والخارج ثم استمرت تتحكم فيها من الخارج أجهزة التحكم الانجلو أمريكية). ولننظر فى ذلك، بعض فضائح المجرمين الحكوميين، أى الزبانية الرسميين الذين كان النظام النازى يصنعهم ويروّضهم ويستخدمهم فى عمليات التعذيب والقتل فى السجون والمعتقلات – على غرار ماحدث ويحدث فى مختلف نظم القهر العسكرى الغاشم ومنها النظام العسكرى المصرى (مثلا فى السجن الحربى وفى مستشفيات المجانين).

إن النموذج الذى لاينسى مما أوردته تسجيلات محاكمات زبانية هتلر، هى تلك الحارسة النازية التى كانت تشتغل فى أحد المعتقلات وتشارك فى قتل بعض النزلاء، حيث كانت تمارس معهم الجنس قبل إعدامهم ثم تحصل بعد إعدامهم على جلودهم فتصنع منها مصنوعات جلدية تحتفظ بها!! **فمن الذى يستطيع أن يقول – كما تقول أجهزة الاعلام اليوم عن سفاح يوركشاير – إن تلك الحارسة النازية لم تكن مريضة عقليا ومجرمة شريرة فى نفس الوقت؟! ومن الذى يعجز عن أن يرى أن مرضها العقلى هو أساس إجرامها الشرير؟!**

لقد حاول البعض أن يخففوا من لامنطقية المغالطة المذكورة، فقالوا إن المجرمين "العقلاء" هم مرضى نفسانيون. لكن خطأ هذا الرأى يتمثل فى أنه يؤدى أيضا إلى القول بأن المجرمين الذين يعتبرون مرضى عقليين يعتبرون بذلك غير مجرمين، فضلا عن أنه أيضا يبعد من تحت طائلة القانون – ليس فقط المرضى العاجزين عن الادراك ولكن معهم كل مرضى الادراك بأى درجة من درجات مرض الادراك، على غرار اعتبار كل ضعاف البصر عميانا!

وواضح أن سبب المغالطة هنا هو الخلط بين نوعين من المرض "العقلى" وذلك من حيث مترتباتهما القانونية : **أولهما**، هو نوع العجز عن الادراك والكلام الذى يفرض إسقاط المساءلة والمحاكمة (محاكمة الشخص وليس محاكمة الجريمة طبعا والتحقيق فيها!)، إسقاطاً يرجع إلي عجز مرتكب الجريمة الذى يكون مريضا من هذا النوع عن إدراك ماارتكب وعجزه عن إدراك مايوجَّه إليه من أسئلة وعجزه عن الكلام المفهوم للاجابة عن أسئلة التحقيق ومتابعة المحاكمة. وهذا رغم أن عجزه المذكور لايسقط طبعا إدانة إجرامه ونزعاته الشريرة، ومن ثم يفرض على المجتمع ضرورة استئصالة كمجرم شرير ساقط الانسانية وليس إعفاءه!! **وثانيهما**، هو نوع المرض العقلى الاجرامى الذى لايصل إلى العجز عن الادراك والكلام ومتابعة إجراءات التحقيق، ومن ثم لايسقط المساءلة والمحاكمة (حتى لو اضطروا إلي تقييد وتكميم المجرم العدوانى المشاغب كما حدث فى بعض القضايا فى الغرب!).

وعلى كل حال، فقد تلاشى هذا الرأى أو اختفى وراء التبريرات والتضليلات الأكثر خطأ! فقد حدث مثلا أن المتخصصين فى صناعة اللاعقل فى مستشفيات المجانين قرروا تغيير أسمائها من مستشفيات أمراض عقلية إلي مستشفيات أمراض نفسية، بل وغيروا اسم الطب العقلى إلى "طب نفسى"!! ذلك أن اعتبار الأمراض العقلية نوعا من الامراض النفسية أو العكس، يعنى توسيع اختصاصهم فى صناعة اللاعقل بحيث يشمل كل المجالات النفسية أيضا (حتى فى مجال التربية وعلم نفس الطفل!)، فضلا عن أن هذا الادعاء يؤدى من ناحية أخرى إلى توسيع "تهمة" المرض العقلى بحيث يمكن أن تشمل حتى الاضطرابات والعقد النفسية!! وهذا يشبه انتشار استعمال كلمة "الأمراض العصبية" (التى يتعلق معناها الأصلى بأمراض الجهاز العصبى ذات الأعراض العضوية)، إلى درجة الايحاء بأن الشخص "العصبى" هو نوع من المريض العقلى!

ومهما يكن، فيجب أن نعترف بأن المجرم لايمكن أن يرتكب شراً إيذائيا شديدا أو جناية إجرامية، لمجرد إصابته بمرض نفسى أى بمرض فى السلوك، ولكن يتحتم أن يكون مريضا بدرجة أو بأخرى فى إدراكه أيضا لكى ينخفض أو ينعدم إحساسه بطبيعة الشر أو الجريمة التى يرتكبها وبتسلسلاتها ومترتباتها وبطبيعة العقاب القانونى أو الأخلاقى الذى يستحقه على ذلك. وكلما تكررت شروره وجرائمه وزادت خطورتها، كان هذا تعبيرا عن زيادة المرض فى إدراكه. ولهذا فان بعض اللغات تستعمل كلمة واحدة للتعبير عن "الضمير" وعن "الوعى" الادراكى (مثلا فى الفرنسية Conscience).

إن النفس تعنى الجانب المتعلق فى الذهن بالسلوك أو التصرف، بينما العقل يعنى الوظيفة الادراكية التفكيرية العليا فى الذهن. وبين الطرفين توجد الوظائف الادراكية العادية أوالمتوسطة فى الذهن. وإذا كان كل مرض عقلى أو إدراكى يرتبط بالضرورة بمرض أو اختلال نفسى، فأن العكس غير صحيح، لأن **ممارسة السلوك أو التصرف تتوقف أيضا وأساسا على ظروف وإمكانيات الواقع الخارجى وليس فقط على القدرات الذاتية للعقل والادراك. تماما كما أن سلامة بل تفوق قدرات الساقين حتى عند الرياضى المتمرس لاتتيح له إمكانية المشى كالبهلوان على حبل مشدود، لأن هذا يحتاج إلى تدريب خاص وخبرات خاصة للتحرك فى أوضاع استثنائية غير طبيعية!!** ومن ناحية أخرى، فان وسائل ومؤثرات التحكم السرى والتحكم الاشعاعى الشامل تستطيع بسهولة جدا وبأقل القليل من التأثير أن تُفشل المحاولات غير المرغوب فيها فى هذا المجال، فضلا عن أنها لاتسمح أصلا بتعلم وإتقان السلوك البهلوانى للأشخاص المغضوب عليهم أو الذين يفكرون كثيرا ويهتمون بالتمييز الدقيق بين الصواب والخطأ!

والمهم فى ذلك كله، أن القدرات العقلية وغيرها من القدرات الادراكية هى التى تحدد طبيعة الذهن أو التكوين الذهنى (الذى لاتحدده القدرات الخاصة غير العادية فى السلوك والتصرف)، ومن ثم لايمكن أن يعتبر كل شخص غير سليم نفسيا غير سليم عقليا أو ذهنيا – طالما كانت مشاكله النفسية أنواعا من العقد أو الاضطرابات الظاهرية، أو حتى أمراضا نفسية سطحية تفرضها الظروف بحيث لاتصل إلى درجة الارتباط بأمراض إدراكية. فهذا قد

يشبه مشاكل ظروف انعدام الوزن وظروف الوزن الأرضى، مما يسبب لرواد الفضاء اضطراب الحركة عند الانتقال من الأرض إلى الفضاء أو من الفضاء إلى الأرض.

هذا ويجب التنبيه إلى أن المقصود أساسا بكلمة "الاجرام" هنا، هو زيادة نزعات الشر أى نزعات الايذاء ضد الآخرين وانخفاض أو انعدام معايير الانصاف ومبادئ العدل والمعاملة بالمثل، وليس المقصود أساسا الاجرام الجنائى الذى يعاقب عليه القانون. **فالشرير غير الجنائى قد يكون من الناحية الأخلاقية والذهنية أكثر إجراما من الكثير من المجرمين الجنائيين.**

✪ أنواع اللاعقل فى الاجرام

إن تركيبة الذهن أى التكوين الذهنى للانسان تنقسم أساسا إلى نوعين : **تكوين ذهنى عاقل**، وهذا هو الطبيعى والناضج. **وتكوين ذهنى لاعاقل**، وهذا (على عكس مايقول فرويد وكهنة اللاعقل الحديث) هو التكوين الذهنى غير الطبيعى أى الناقص أو المريض بدرجة أو بأخرى.

والتكوين الذهنى العاقل، أى الطبع أو التطبع الانسانى السليم : قد يكون من نوع فكرى أى متخصص فى التفكير (سواء بميكانيزمات التحديد المنطقى أو بميكانيزمات الفكر الوجدانى أو بكلا النوعين)، وقد يكون من نوع غير فكرى أى تكوينا ذهنيا سليم التلقائية أى ذا ضمير تلقائى رغم نقص قدراته الفكرية.

وفى مقابل ذلك، يوجد **التكوين الذهنى اللاعاقل**. وهذا قد يكون من نوع غير مرضى – سواء كان مؤقتا أو مستمرا ولكن لايصل إلى درجة المرض العقلى. وقد يكون من نوع اللاعقل المريض.

ومن أمثلة النوع الأول من اللاعقل، نقص العقل عند الأطفال، أو عند الشبان الغريرين (وخصوصا فى حالات زيادة الطيش الشبابى). وكذلك اللاعقل أو نقص العقل عند الأشخاص غير الناضجين فى الادراك عموما، وخصوصا عديمى الخبرة أو ضيقى الأفق وذوى القوالب الادراكية المضللة. ثم اللاعقل أو نقص العقل غير المؤقت عند الأغبياء والجاهلين المتسمين بالغشومية. وبديهى أن الأطفال يكبرون، ومنهم من يتحولون إلى ذوى تكوينات ذهنية عاقلة سليمة. كما أن الشبان الغريرين أو الطائشين والأشخاص عديمى الخبرة أوالمضلَّلين

والمتخلفين فى الفكر والثقافة قد يكتسبون العقل الناضج والفكر السليم إذا كانوا أصلا ذوى طبائع سليمة وذوى تلقائيات وضمائر سليمة لم تتعرض للتحطيم. فهذه إذن أنواع من نقص العقل قد تكون مؤقتة، فلا توصف فى هذه الحالة بالمرض.

أما الأغبياء والجهلة الغشيمون (الذين لايصلون طبعا إلى درجة التخلف الذهنى)، فلا يعتبرون "مرضى" فى العقل والفكر رغم هذا الغباء المزمن أو الغشومية المزمنة، لأنهم يكونون أصلا فاقدين للعقل الفكرى أو ناقصين فى قدرات العقل الفكرى. ومعنى ذلك أنه لاتوجد لديهم (أو لا توجد بدرجة كافية) "مادة" المرض العقلى أو "مكان" الاصابه به!! مثل الأصلع الذى لايصاب بأمراض الشعر، أو الأهتم الذى لايصاب بأمراض الأسنان!! فاذا تربى هؤلاء تربية إدراكية وسلوكية سليمة تعفيهم من الخرافات والأوهام ومن الأمراض الذهنية والنفسية، فانهم يكونون أشخاصا "سلماء" غير مرضى. لكن المقصود هنا سلامة الذهن الفاقد للفكر أو الناقص الفكر، وليس سلامة العقل المنطقى والادراك الفكرى.

وهذا يشبه الفرق بين سلامة القدرة العضلية لقزم مثلا أو لشخص ضئيل الجسم، وسلامة القدرة العضلية لعملاق ضخم. ومثل هذا الفرق، هو الذى يجعل من السهل جدا استخدامهم أدوات عمياء أو عشواء ضد الحق والخير والجمال - مهما كانت نواياهم. وعلى غرار ذلك، نجد أن الأنواع المؤقتة المذكورة أيضا من اللاعقلاء - بما فى ذلك الأطفال وصغار السن عموما - يمكن أن يمارسوا الكثير من الشرور والأضرار والمفاسد، وقد يستخدمون كأدوات لاعاقلة فى أخطر نشاطات التحطيم والهدم وفى ارتكاب أخطر الشرور والأضرار والمفاسد ضد الأفراد والمجتمعات. وهذا هو السبب فى أن الأجهزة العليا لصناعة التدهور الشامل، أصبحت "تعطف" كثيرا على الأطفال والشبان (وكذلك "تعطف" كثيرا على النساء اللاتى هن بشكل عام أقل من الرجال فى القدرات الفكرية وليس فقط فى الشجاعة العقلية). وأنا لاأقصد بذلك أىّ اعتراف صحيح بحقوقهم (أو حقوقهن) الانسانية والاجتماعية العقلانية، وغير ذلك من حقوق واجبة موضوعيا وأخلاقيا. لكنى أقصد محاولات إعطائهم (أو إعطائهن) أىّ "حقوق" مزعومة للمساواة التطابقية فى المسئوليات والمناصب و"الحريات"، ومن ثم محاولات إعطائهم (أو إعطائهن) "مفاتيح" التصرف فى مختلف المجالات.

أما النوع الثانى والأخطر من التكوين الذهنى اللاعاقل، فهو التكوين الذهنى المريض أو

المحطَّم، والذى تنشط منه بشكل خاص فئة المحطَّمين المحطِّمين أو المشوَّهين المشوِّهين ذهنيا (بالفتح ثم الكسر فى الحالتين)، باعتبارهم أخطر فئات اللاعقلاء المعادين للحق والخير، وأخطر ضحايا اللاإحساس من الأشرار والمجرمين. **وهذا النوع من ذوى التكوين الذهنى المريض عقليا – أى مرضى الطباع أو التطبعات – يتكون من فئات متعددة ومتنوعة.**

● من هذه الفئات، فئة محدودى المرض العقلى أى ذوى الأمراض العقلية المحدودة، الذين يصل نقص التفكير والادراك العقلى عندهم إلى درجة الشذوذ والمرض لكن فى جوانب أو مجالات إدراكية معينة لاتلغى القدرات العقلية الأخرى. وأوضح هذه الجوانب أو المجالات التى يمكن أن تصاب دون غيرها بالشذوذ والمرض، هى تلك المتعلقة بالضمير أى بالتفكير والشعور الأخلاقى. وكما نعرف عن الكثيرين من الأشرار المجرمين، فان هذه الفئة التى يمكن أن تسميها باسم مرضى الضمير أو مرضى الادراك الأخلاقى، قد يتمتعون بامكانيات إدراكية تصل إلى "الذكاء" – لكن فقط فيما يخدم ممارسة وتغطية الشر والاجرام وأفعال الايذاء والايلام للآخرين! وهؤلاء هم الذين يشكلون أخطر اللاعقلاء فى المجتمع المتدهور (وأحيانا فى المستويات العليا من ذلك المجتمع). وبالاضافة إلى هؤلاء، توجد فئة أخرى تختلف عن السابقة فى مجال التفكير، ويمكن تسميتها محدودى المرض الذهنى الفاقدين للتفكير المتطور أو الذكاء. وهذه تضم أساسا الأغبياء والغشيمين أو أيضا المهابيل، الذين يتربَّون ويتعودون على الشر والاجرام وانعدام الأخلاق، ومن ثم يتحولون إلى أدوات شريرة وإجرامية بطريقة تلقائية أوتوماتيكية، لايصل إدراكها إلى معنى العواقب المستقبلية، أو حتى إلى معنى الفشل والنجاح!

وبالاضافة إلى محدودى المرض العقلى ومحدودى المرض الذهنى، يوجد ذوو التكوين الذهنى المريض عقليا بدرجة جذرية أو شاملة، أى ذوو الأمراض العقلية الشاملة. وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى نوعين فرعيين : نوع يصل إلى درجة العجز التام أو شبه التام عن الادراك، أى انعدام قدرة الادراك تماما أو تقريبا. وهؤلاء يسمون فى مستشفيات المجانين باسم "التايهين". ويشكلون أقلية ضئيلة. وبعض هؤلاء لايبقى من ميولهم الذهنية إلا نزعات الشر والاجرام والافتراس الحيوانى التى لم تردع ولم تكبح. ولهذا، فهم يترجمون حتى تأثيرات الرعب إلى ردود فعل متوحشة. لكن منهم من وصلوا بطريقة أو بأخرى إلى الخضوع التام والاستسلام التام لأى شخص ولأى شئ! ومع ذلك، توجد من ذوى الأمراض الذهنية

الشاملة نسبة كبيرة لايصلون إلى الدرجة المذكورة من انعدام الادراك أو "التوهان". وهؤلاء يكونون عادة من الأشرار المجرمين المدركين جزئيا، والذين تتناسب درجة شراستهم مع زيادة أمراضهم الادراكية.

وفى مستشفيات أو مصحات المجانين يتحدثون كثيرا عما يسمى مرض الانفصام الذهنى أو الشيزوفرينيا. **(والمعنى الصحيح للأصل اليونانى القديم لهذه الكلمة هو تشويذ المخ أو التشويذ الذهنى وليس مجرد "شق" المخ كما يقال حاليا، حيث ترجع هذه الكلمة فى الحقيقة إلى أصل مسجل فى الهيروغليفية وهو: "تشز" بمعنى كلب/حيوان مقلوب الفطرة ترويضيا. وهذا هو نفس المعنى الذى تعبر عنه الكلمة اليونانية اللاتينية canis / Kunos/ كنس - أى كلب - التى اشتق منها اسم الكنيس / الكنيسة أى مكان التعبيد والتسجيد، وكلمة cannibale أى أكل لحوم البشر!!**[١]**)**. والشيزوفرينيا هى المعروفة سينمائيا باسم الشخصية المزدوجة :"الدكتور جيكل والمستر هايد"!! وهم يستخدمون هذا المرض كتبرير طبى لعمليات تهييج (أى استفزاز) بعض المرضى الهادئين، فى توقيتات محددة نتيجة إثارات التحكم السرى الاشعاعى أو غيرها، مع التأثيرات الشخصية التى يعرفها بدقة هؤلاء الذين يصنعون ويفهمون خريطة التربيطات التهييجية والترويضية لكل شخص من ضحاياهم، أو خريطة التربيطات النمطية المصنوعة بأسلوب التايلورية الذهنية.

كذلك يستخدمون اسم الشيزوفرينيا كتبرير طبى لمخططات وعمليات تقسيم وتشقيق تربيطات الذكريات والانطباعات والتعبيرات ومختلف ردود الفعل الأخرى فى أذهان ضحاياهم، بحيث يمكن تشغيل كل تقسيمة أو قطاع أو شقة منها بدون استثارة محتويات كل أو بعض التقسيمات أو القطاعات أوالشقق الأخرى. ولهذا أطلق بعض علماء النفس الواعين بهذه الظواهر (وهم من غير الأطباء!) اسما آخر على تلك الظاهرة، وهو اسم **"تقسيم الشقق الذهنية"mental compartmentalisation!** وهذه فى الحقيقة ميكانيزمات

---

(١) من نفس الأصل، توجد أيضا كلمة كونوكيفالى/ سينوسيفالى cynocephale التى أصبحت تقال حديثا على نوع من القردة بمعنى "القرد الكلبى"، بعد أن كانت تعنى عند القدماء "الكلب القردى البشرى"، أى الشخص المتخلف أوالمحطم ذهنيا أو المعلّم المجنون بطريقة الكلب والقرد.

تستخدم فى كل مجالات المجتمع منذ أقدم العصور الفرعونية، وذلك بمختلف الوسائل والمؤثرات الكفّية inhibitive– ولو على الأقل كنوع من التحجيز الذهني والعرقلة الذهنية، خصوصا ضد أصحاب الأفكار والدراسات التى يكون المطلوب إبقاءها مقسّمة مقطّعة مفصولة الأجزاء، لأن تكاملها وتوصيلها وتوحيدها منطقيا يؤدى إلى كشف حقائقها واستنتاجاتها.

✪ عالم إجرام، إجرام!

من الأمثال الشعبية مثل يقول :"قالوا للغراب ليه بتسرق الصابونة، قال أصل الأذية فى طبعى"! ومن الأمثال الشعبية أيضا :"الشحاتة كيميا"، أى أنها – كنوع من الطبع أو التطبع – تفرض جبرها الذاتى على السلوك كما تفرض المواد الكيميائية جبرها على الأشياء! **ذلك أن الفرق بين التكوين الذهنى العاقل، أى الطبع أو التطبع السليم بمختلف تنوعاته ودرجاته وبين التكوين الذهنى اللاعاقل أى الطبع أو التطبع الفاسد والمريض بمختلف تنوعاته ودرجاته، يشبه الفرق بين الأنواع المختلفة من التجهيزات التى يمكن تشغيلها بنفس التأثيرات أو وسائل الطاقة: فالضغوط والتأثيرات التى تدفع العاقل إلى التفكير والتألم والانزواء والانطواء أو الاستغراق فى النشاط الفكرى أو فى العمل اليدوى، تدفع اللاعاقل إلى التنفيس الشرير والايذائى والاجرامى. تماما كما يؤدى نفس التيار الكهربائى إلى إنتاج ضوء من المصباح الكهربائى، وإنتاج سخونة أو نار من السخان أو الغلاية، وإنتاج برودة أو ثلج من الثلاجة، وإنتاج انفجار من المتفجرات المجهزة بجهاز كهربائى، الخ الخ.**

فالنشاط البشرى، هو نوع من التنفيس أو التفريغ الذهنى الذى يسمى أيضا باسم "التعبير عن الذات". فاذا صنع المتحكمون تكوينات ذهنية أى طباعا أو تطبعات سليمة أى عقلانية، فانها تنفّس وتفرّغ وتعبّر عن نفسها بالفكر والخير والفضيلة والبناء. ومن ثم فان مختلف الضغوط والمشاكل والتأثيرات ستجعلها تفرز أفكارا

وخبرات وفضائل وبناءات. أما إذا صنع المتحكمون فى المجتمع تكوينات ذهنية أى طباعا أو تطبعات مريضة أى معادية للعقل مضادة للفكر، فانها تنفّس وتفرّغ وتعبّر عن نفسها بالشر والاجرام والرذيلة والايذاء والتحطيم، ومن ثم فان مختلف الضغوط والمشاكل والتأثيرات ستجعلها تفرز شروراً وجرائم ورذائل وآلاما وخرابا ودمارا. وكلما زادت مخططات وبرمجات "تشويذ" و"إمراض" تلك التكوينات الذهنية اللاعاقلة الفاسدة، مع زيادة شحنات وضغوط الاثارة الشعورية أو اللاشعورية ونفخ المخ، فانها تتحول إلى حوافز ومنشطات ومفجرات للمزيد من إفرازات الشرور والرذائل والجرائم، إلى الدرجة التى نعانى منها فى عالم اليوم.

ولاخفاء تلك الحقيقة الأساسية للطبيعة البشرية فى العلوم الذهنية والاجتماعية، التى توضح أن الخير والشر هما نوعان من "الحتمية الذهنية" وأن المتحكمين في المجتمعات والأفراد هم الذين يحددون أيّ هذين النوعين من الحتمية يصبح هو نوع الحتمية السائدة (بدوافع الجبر الذاتى وليس فقط الجبر الاجتماعى من خارج الذات)، كان كهنة التجهيل واللاعقل الكنسيون يقولون إن الشر أو الخطيئة هى الحتمية الطبيعية الوحيدة لأصحاب الجسد البشرى منذ طرد البشر من السماء إلى الأرض، وأنها مثل اللحية التى تستمر فى النمو تلقائيا! لكن حتى هؤلاء الذين يصدقون ذلك، كان يجب أن يدركوا أنه يمكن تنظيم حلق الذقون دوريّا لتجنب اللحى، بل ولتجنب بداية نمو الشعر أصلا على بشرة الوجه! وهذا يبين لنا كيف ولماذا يهتمون بدس وترسيخ التفسيرات والتمويهات والخدع التجهيلية المضللة لتثبيط وإجهاض وإفشال محاولات مكافحة الشر والفساد والاجرام.

وكما يدعون أن الشر والفساد والاجرام ظواهر طبيعية أو أقدار ومكتوبات إلهية لايمكن إلغاؤها، كذلك يدعون – كما أوضحت – أن الأشرار والفاسدين والمجرمين عقلاء يسلكون بدوافع عاقلة أو طبيعية – سواء اعتبروها دوافع اقتصادية أو طبقية أو دوافع غريزية أو ما إلى ذلك. وهذا لايعنى فقط تبرير شرورهم ومفاسدهم وجرائمهم، بل يعنى أيضا وأساسا تعمية وتضليل اتجاهات التشخيص والاصلاح. فصناعة اللاعقل تشمل من يبقى من المدافعين عن الخير والعدل، بحيث تمنعهم من كشف الوسائل والثغرات المصنوعة المخططة للشر والافساد والاجرام، ومن اقتراح الحلول المضادة لأمراض الأفراد والمجتمعات، أو بحيث تورطهم فى التطرفات التى تقلب العلاج إلى مرض وتقلب الاصلاح إلى إفساد.

وقديما قال أرسطو إن الفضيلة وسط بين رذيلتين : إحداهما بالتفريط والأخرى بالافراط. لكن حتى هذا المبدأ العقلانى الهام لم يسلم من التغليط والتخليط والتحوير والتضليل، بحيث جعلوا الوسط الصحيح متوسطاً انتهازيا يجمع بين الرذائل والفضائل!

وكان البعض قد وصف المجتمع الأمريكى - وهذا ينطبق على بقية المجتمعات البرجوازية التى أصابها وباء "التقدم" الأمريكى - بأنه "عالم مجنون". فالتقطت السينما هذا التعبير بطريقة الابتذال المعتاد، الذى يصلح أيضا لفرز واستطلاع القادرين على الفهم المتعمق لهذه المشاكل، ومن ثم شاعت العبارة السينمائية المعروفة :"عالم مجنون، مجنون"! لكن الوقائع والأرقام التى تكشف مدى فساد المجتمع الأمريكى وأشباهه من المجتمعات البرجوازية "المتقدمة" فى الفساد، تبين أن ذلك العالم المجنون، هو فى نفس الوقت ولهذا السبب نفسه "عالم إجرام إجرام"، و "عالم شرير شرير".

فأجهزة التحكم السرى الشامل التى صنعت التدهور فى كل مكان منذ عصور الفراعنة، لتحويل البشر إلى نوع حيوانى أدنى تستطيع أن تستمر فى ركوبه والتربع فوق ظهره، قد صنعت وأطلقت على البشر أسراب الفاسدين والأشرار والمجرمين والجهلة والتجهيليين وغيرهم من أسراب اللاعقلاء المعادين للعقل، ومن مختلف زوايا ومنظورات العداء للعقل؛ ونشرتهم ووزعتهم مثل قطع الزجاج المكسور فى كل المواقع، بحيث أصبح الأبرياء والشرفاء من ذوى العقول المستنيرة يمشون فى عالم اليوم كما يمشى الحفاة على قطع الزجاج المكسورة الجارحة فى كل خطوة وفى كل مكان.

وإن هذا التشخيص الواضح المحدد للمشكلة، ليفرض العلاج الواضح المحدد الذى يجب أن يأخذ به النظام العقلانى الجديد للبشرية - نظام العقلانية الأممية الكاسحة للشر والفساد والاجرام والتجهيل الغيبى.

فالكسح العقلانى العلمى المطلوب هنا، هو الكسح الذى يجب أن يكون رادعا إلى أقصى درجة، ومن ثم يكون باقيا راسخ العبرة التعليمية فى أذهان الأجيال بعد الأجيال لمجموع البشر. ومثل هذه التربية التاريخية الرادعة العظمى، لايمكن طبعا أن تعتمد على رأى الأغلبية الدهمائية الحاضرة - التى يقودها ضحايا الخرافات ومهابيل الجنس وكرة القدم وعشاق الحياة الفاسدة!

الاثنين الثالث من يناير ١٩٨٢

البند الحادى عشر - العقل واللاعقل فى المشاكل الذهنية والنفسية

. . . . .

الأستاذ(١) . . . .

. . . هذا الخطاب الكبير ومرفقاته، يتعلق بمقالكم المفيد عن الفنانين والأمراض العقلية فى عدد مارس١٩٨٥ من مجلة الهلال ... رغم ماتمتلئ به مجلة الهلال من أعمال القصص والدراما، ونقد القصص والدراما، والتعليقات على نقد القصص والدراما، الخ .....

(١) أعدت كتابة هذا البند من تعليق كبير مؤرخ فى يوم الأربعاء ١٣ مارس ١٩٨٥، كنت قد أرسلته من مستشفى العباسية إلى الكاتب وسفير الخارجية حسين أحمد أمين الذى كان من كتاب مجلة الهلال ومجلة المصور، وذلك بخصوص مقاله المشار إليه عن الفنانين والأمراض العقلية، ثم أرسلت حوالى عشر منسوخات منه إلى مختلف الجهات.
والمرسل إليه هو ابن الشيخ أحمد أمين – من رجال الدين الذين اشتغلوا بالفكر والفلسفة، والذين كنا نفرح بهم باعتبارهم عملة نادرة فى ميدانهم! لكنهم لم يرضوا المتدينين ولم يرضوا العقلانيين! ورغم أن المرسل إليه نفسه (بعد ذلك الخطاب) وجه فى بعض مذكراته النقد واللوم إلى أبيه لأنه تعاطف مع الاتجاه المعتزلى(!!)، وركز بوضوح على عمق الخلاف بين أحمد أمين وطه حسين (محاولا تبرير ذلك بتبريرات شخصية!)، إلا أن الحقيقة التى يجب أن نعترف بها اليوم بعد انبلاج شمس الثورة العقلانية الكبرى من شرارة البرويسترويكا وبعد انتشار أنقاض النظم الدينية والدهمائية المكشوفة أو المموهة فى العالم كله، هى أن الشيخين مصطفى عبد الرازق وأحمد أمين قاما فى مصر بدور حاسم فى كسر موجة العقلانية الحرة التى كانت تلاطم مرافق الثقافة والفكر (خصوصا فى كلية الآداب والفلسفة) فى العشرينات والثلاثينات، حيث قدما – كالمعتاد فى مثل هذه الحالات – الحل الوسط المغرى الذى يحاصر ويستبعد الفكر الحر، وهو مايسمى العقلانية الدينية. وهذا يشبه ماسبق أن فعلته أجهزة التحكم اللاعقلى السرى فى أوروبا فى العصور الوسطى، عندما تصرفت لدفع واستثارة مذهب "الحقيقتين" كبديل لمذهب الحقيقة العقلانية العلمية الواحدة (حيث كان ابن رشد قد اضطر إلى القول بهذا الحل الوسط فى الأندلس رعباً وقهراً ونفاقاً – رغم أنه لم يكفل له حتى الافلات من السجن والنفى ثم من الموت المريب!!)؛ كما يشبه مافعلته تلك الأجهزة بعد ذلك على نطاق أوسع حين نجحت فى فرض العلمانية المحايدة فى أوروبا كبديل للعقلانية الجذرية الحرة (كما أوضحت فى البندين ٣، ٤).
ومن ناحية أخرى، من المفيد أن نتأمل بهذه المناسبة كيف استطاع السفير حسين أمين أن يجمع بين دبلوماسيات الخارجية المصرية (التى تحكمها أخبث مراكز المخابرات المتخصصة فى ملاعيب التنويعات والتلويبات والتشقيقات السياسية والايديولوجية)، وبين النشر المنتظم فى صحيفة الأهالى والارتباط بحزب التجمع الغوغائى!! وهو نفس مانجح فيه شقيقة جلال أمين الذى يضع النصف الأيمن من مخه فى الجامعة الأمريكية حيث يعمل، والنصف الأيسر فى الأهالى والتجمع حيث ينشر ويبشر!!

وهذا التعليق الفلسفي العلمي يتكون بعد ذلك من الفقرات التالية : أولا، حقيقة العلوم والأمراض الذهنية. وثانيا، منطق البحث العلمي في الوقائع الذهنية. وثالثا، الفن الفجري والفن الفكري. ورابعا، الوجدان العقلي والهوى اللاعقلي. وخامسا، أمراض العقل والنفس.

✪ كلمة تعريف

قبل الدخول في الموضوع، اسمحوا لي أن أشير بكلمة عن المفكر أحمد أمين الذى اشترك مع طه حسين وأحمد لطفى السيد فى صناعة جيلنا.فالشيخ أحمد أمين مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق وقبلهما الشيخ محمد عبده، نجحوا فى تربية جيلنا على الاعتقاد بأن الاسلام دين العقل وليس دين المعجزات، وأن معجزته الوحيدة هى كتاب القرآن. وهذا أتاح لنا أن ننشأ منذ الطفولة على مبدأ العقل. ثم كان لابد أن نكبر فى العمر وفى الثقافة والقراءة، لكى نكتشف من نصوص التراث القديم أن فكرة هؤلاء المشايخ فكرة غير صحيحة، ومن ثم نصل إلى مفترق الطرق الذى يتحتم علينا فيه أن نختار طريقا من طريقين : إما أن نكفر بالعقل ونؤمن بالنصوص، وإما أن نستمر فى الايمان بالعقل فنكفر بالنصوص! وبديهى أن أجهزة اللاعقل كانت تعرف حقيقة هذا المأزق الذى تصل إليه الأجيال التى تتربى بمثل هذه الطريقة المضللة. فقد كان هذا واضحا فى الأجيال التى ظهرت فى العراق وفارس بعد ظهور اتجاه المعتزلة. وكان هذا واضحا فى جيل فلاسفة القرن الثامن عشر الذين ظهروا بعد ديكارت!

وكما قال هيجل بخبرته اللاهوتية نقلا عن سابقيه، فان "بومة الفلسفة" لاتظهر فى رأى القدماء إلا أخيرا عند اقتراب الفجر! وطبعا هذا لايعنى عند اللاهوتيين أنها مثل الديك تعلن بداية النهار، ولكنه يعنى أن بومة الفلسفة (مهما تسربلت بالدين والايمان) تعتبر ناقوس خطر أو ناعقة بالخراب، أى ينطبق عليها المثل الشعبى الذى يردده السجانون فى السجون ضد المتمردين : الديك حين يكاكى [= أى يصل إلى النضج] يُذبح! وهكذا فان اضطرار الشيخين مصطفى عبد الرازق وأحمد أمين إلى النزول إلى معمعة الفلسفة قبل الحرب العالمية الثانية، كان يعنى أن مصر وصلت إلى وضع يشبه وضع انتظار نفير التكفير من أمثال ابن حنبل وأبو حامد الغزالى كما حدث بعد ظهور المعتزلة، توطئة لانتقال الحكم إلى سيوف الأتراك المماليك ثم الأتراك العثمانيين! أو أنها وصلت إلى مايشبه وضع انتظار صراخ الفوضى

والارهاب العشوائى من أمثال روبسبيير كما حدث بعد ظهور فلاسفة المادية العقلانية فى فرنسا القرن الثامن عشر، توطئة لمجازر حروب نابليون والتصالح مع الكنيسة!!

وهذا ماحدث فعلا فى مصر : بطريقة انتقالية مموهة فى عهد عبد الناصر (الذى طبق شعارات مصر الفتاة والاخوان المسلمين)، ثم بطريقة مكشوفة بعد ذلك. وإن انفلات وحش التعصب اللاعقلى فى إيران، هو نموذج لما كان سيحدث فى كل بلدان العالم الاسلامى – من حدود الاتحاد السوفييتى إلى الأطلنطى! لكن من حسن الحظ أن وحش التعصب أخذ يأكل نفسه فى طهران وبغداد وباكستان، بدلا من أن يأكل من الجمهوريات الاسلامية السوفييتية كما كان مخططا له! ومن حسن الحظ أنه لم يحقق انتصارا حقيقيا للغيبية فى أى مكان!

ثم اسمح لى أيضا بملاحظة شخصية، أتذكرها عندما كنت تلميذا فى مدرسة السعيدية الثانوية عام ١٩٤٨ (لمدة شهر واحد فقط!)، وسمعت مدرس الفلسفة يكلمك إذذاك ويبعث معك تحياته إلى والدك أحمد أمين ....

✪ وندخل الآن فى موضوع المقال، الذى أعتقد أنك حاولت فيه أن تصحح الكثير من المغالطات والأوهام الشائعة فى هذا المجال.

فمحور الموضوع الذى تناولته، هو العلاقة بين المرض الذهنى وقدرات العقل. وهذا بلاشك موضوع مهم جدا لايقتصر على الفن والفنانين كما تناولته فى مقالك، بل ولايقتصر على المشتغلين بالفكر والثقافة فقط، ولكنه يتعلق عموما بوظيفة العقل ودرجات العقل وحالات وعوامل تنشيط العقل، أو عرقلته وتعطيله، أو تعجيزه.

وقد كتبتُ عن هذه الموضوعات فى السنوات السابقة : من واقع تخصصى فى الفلسفة وعلم النفس (لأن تخصص علم النفس كان جزءًا من تخصص الفلسفة فى أيامنا وحتى الستينات على ماأظن)، ثم أيضا من واقع خبراتى فى مستشفى المجانين خلال هذه السنوات الطويلة من أبريل ١٩٧٠ حتى اليوم، وكذلك بالاستفادة من بعض المعلومات أو التبصيرات الخاصة التى كنت أستطيع التقاطها فى ثنايا بعض التوجيهات السوفييتية.

وأهم الموضوعات التى كتبت عنها هنا فى العباسية فى هذا المجال، هى :

● وقائع من مستشفى المجانين مع تحليلات وتحديدات علمية عما ترتبط به من موضوعات الغيظ والتعكيس الذهنى والقلق وميكانيزمات صناعة الغيظ والقلق، وعن العلوم الذهنية

وموضوعات العقل والوجدان والميكانيزمات اللغوية والثقافية والفلسفية فى الذهن، وعلم نفس الطفل، الخ، وذلك فى خطابات الدردشات الشهرية الكبيرة، ابتداءً من الخطابات رقم ٤ و٦ و٧ و٨ فى مايو ١٩٨٢، وحتى الخطاب رقم ٣٩ الذى وصلت إليه حاليا.

● وموضوع عن التحكم الذهنى والتلقين الذهنى وصناعة اللاعقل، بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٧٦(١).

● وموضوع عن الارتباط الحتمى بين الاجرام واللاعقل، ودور أجهزة صناعة اللاعقل فى صناعة الشر والاجرام، بتاريخ ٣ يناير ١٩٨٢(٢).

● وموضوع عن المستشفيات العقلية فى مصر كسلخانات للطب المقلوب ومدارس للاجرام الطبى والذهنى، بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٨٤.

وهذا فضلا عن كتابات أخرى كثيرة، سأعتمد طبعا على نتائجها وتأملاتها فى كتابة هذا التعليق الطويل.

أولا- حقيقة العلوم والأمراض الذهنية

أستخدم عادة اسم "العلوم الذهنية" للتعبير عما يسمى علم أو علوم النفس، وأيضا مايسمى الطب النفسى أو الطب العقلى psychiatry، مع فروع كل من النوعين طبعا. وإذا كانت كلمة "النفس" تتعلق بالسلوك ومن ثم بالقطاع الادراكى المرتبط بالسلوك فى الذهن، فلايوجد اعتراض إذن على المعنى المعروف لاسم علم أو علوم النفس. لكن الاعتراض يقع على اسم النوع الثانى : ليس فقط لأن الاسماء التى يستخدمها الأطباء نشأت فى العصر الحديث بعيداً عن الفلسفة أمّ العلوم وعن المنطق أداة العلوم، ولكن أيضا لأن الأطباء المحدثين اعتادوا على استعمال الكلمات بطريقة لامنطقية ملتبسة تشبه الطريقة التى يكتبون بها!! (وتأمل فى ذلك مثلا مايسمونه "الورم الحميد" - وكأنما يمكن أن يوجد ورم يستحق الحمد!!). فكلمة psychiatry المترجمة فى العربية بالترجمتين المذكورتين، لاتصل إلى (ناهيك عن أن تقتصر

---

(١) نشرت معظم ذلك الموضوع فى كتاب "معنى الديمقراطية" : من ص ١٦٩.

(٢) هذا هو الموضوع المنشور هنا فى البند السابق.

على) العقل reason – بالمعنى الفكرى المنطقى الصحيح الذى كان القدماء يعتبرونه "طب الذهن" medicina mentis. ومن ناحية أخرى، فهذا الفرع من الطب لايقتصر على السلوك النفسى، وإنما يشمل الكثير فى مجال الادراك. ومن ثم يجب أن يسمى باسم الطب الذهنى – بدلا من النفسى أو العقلى.

وعلى كل حال، فالعلوم الذهنية عموما – سواء كانت سيكولوجية أو طبية – لاتزال متخلفة جدا وقاصرة جدا ومختلطة ومعجونة بالأخطاء والأوهام والمغالطات التى دُست فيها على أيدى المطببين الكهنوتيين والروحانيين منذ العصور القديمة. **وأنا أقصد بذلك ماهو معروف ومتداول رسميا عن هذه العلوم الذهنية، وليس طبعا مايختفى من أسرارها ووسائلها العلمية والتكنولوجية فى المراكز العليا للتحكم الذهنى الشامل، وخصوصا المراكز الاشعاعية.** فهكذا مثلا كانت أسرار الميكروبات معروفة ومستخدمة بواسطة أجهزة مغلقة منذ عصور الفراعنة، رغم أنها لم تكشف وتعلن على الناس إلا فى القرن الماضى التاسع عشر!!

إن العلوم الذهنية المعلنة والمتداولة، تتعرض كعلوم جديدة للمزيد من التعمية والتخليط والتجهيل والاجهاض، فضلا عن الافساد الانتهازى أو الاجرامى، والاستخدام السرى فى جرائم التحطيم والارهاب والتربيط القهرى والتغليط – لحساب مراكز التحكم فى الدولة والمجتمع. وسبب عرقلة وحصر العلوم الذهنية المعلنة والتعتيم والتغطية على الحقائق العلمية الذهنية، يتلخص فيما يلى :

أولا – إخفاء أسرار الذهن والنفس والعقل عن المثقفين وعن غير المثقفين، لأن هذه تعنى أسرار مايسمى "الروح"، أى أنها أخطر أسرار الطبيعة والانسان التى طُمست بالخرافات والغيبيات منذ أقدم العصور، ولازالت تتعرض لمختلف أنواع التعمية والتضليل والتجهيل اللاعقلى، لمنع تطور واكتمال العقلانية الشاملة التى تعتبر كل أنواع الوجود المادى والمعنوى خاضعة للعلم والمنطق، والتى لاتعترف بأى ثغرة فى الوجود يمكن أن تنفذ منها الخرافات والغيبيات.

وثانيا – تعمية وتضليل وتجهيل المتعلمين المشتغلين فى المجال الذهنى هم أنفسهم، بل وأكثر من ضحاياهم! لماذا؟ لتسهيل استخدامهم كأدوات عمياء فى صناعة اللاعقل والتحطيم

الذهنى، بدون إدراك واضح لحقيقة ومدى مايرتكبونه. تماما كما تستخدم أحد العميان فى بعض حركات التضبيش والدربكة بدون اتفاق مسبق متعمد على أداء ذلك! فاذا أردت مثلا أن تفسد ساعة دقيقة إفسادا متخصصا، فمن الممكن الوصول إلى ذلك باستخدام ساعاتى عميل تصدر إليه الأمر بذلك. لكن الأسهل والأخبث أن تستخدم فى هذا الغرض ساعاتى من نوع غشيم لابد أن يفسد الساعة بغشوميته مهما أوصيته نفاقاً وتمويهاً بغير ذلك!

وتتمثل خطورة هذا الموضوع، فى أن الطب الذهنى يملك وسائل تحطيمية فعالة تتخذ حاليا مظهر التخصص الطبى والعلاجى الخادع، بحيث أن استخدامها فى الاتجاه اللاعقلى يشبه فى الحقيقة إعطاء مدفع لطفل لايستطيع تقييم نتائج استعماله أو العبث فيه! فقد وصل الطب الذهنى المتداول إلى نجاحات كبيرة فى مجال عقاقير العرقلة أو التعطيل الذهنى وإضعاف أو مسح الذاكرة وإضعاف أو إلغاء النشاط الفكرى، وكذلك فى مجال خدمة ميكانيزمات التربيط الفسيولوجى الذهنى (وهذه ميكانيزمات تمارسها عادة مراكز التحكم السرى وخصوصا الاشعاعى). والفرق بين موقف الأطباء المحدثين إزاء هذه المجالات وموقف المطببين الكهنوتيين المتخصصين فى العصور القديمة والوسطى، أن الأطباء الذهنيين "العاديين" فى العصر الحديث لايعرفون (أو على الأقل لايعرفون بدقة وعن يقين وتعمد) نتائج مايصنعون فى "العلاج" المزعوم لمرضاهم أو ضحاياهم. وهذا يكون مفيدا جدا بلاشك فى المحافظة على أسرار صناعة اللاعقل، وفى تغطية مخططات المراكز الأعلى لصناعة اللاعقل الفردى والاجتماعى.

ذلك أن الأجهزة الكهنوتية فى العصور القديمة والوسطى، كانت تستخدم وسائل أخرى فى المحافظة على أسرار صناعة اللاعقل، أهمها حظر تسرب أسرار المهنة وحصر مثل هذه المهن فى طوائف وراثية مغلقة والقهر الذهنى والرهبوت الغيبى الذى لايسمح لأى أحد بأن يتخطى حدوده. ولهذا، كان الكهنة أو المطببون القدماء أكثر من الأطباء المحدثين "وعياً" بحقيقة مايفعلون، رغم أنهم كانوا أقل منهم "تفكيراً" فى هذه الموضوعات الملقنة لهم!

ومن هنا، أصبحت المراكز العليا الحديثة لصناعة اللاعقل (تحت شعارات العلم والعلمانية والعقل!!) تستطيع أن تستخدم بعض الأطباء الذهنيين ضد ضحاياهم، بدون تعمد واضح وبدون اتضاح النتائج الحاسمة إلا بعد سنوات، بل وربما بدون أن يدرك الكثيرون منهم أنهم

يمارسون عمليات تحطيم، وبدون أن يدرك معظم الضحايا أيضا أنهم يتحطمون ولايعالجون!! وبنفس الطريقة، تستطيع تلك المراكز السرية العليا أن تستخدم المسئولين الكبار - أى السادة والزعماء الذين يقومون بدور "أطباء المجتمع" - فى التصرف ضد سلامة وارتقاء المجتمع وإنسانية الانسان، بدون تعمد واضح لذلك، وبدون اتضاح النتائج الحاسمة لما يفعلون إلا بعد عقود وأجيال!!

إن المطببين الكهنوتيين القدماء كانوا يتعاملون مثلا مع المجانين بطريقة مايسمى فى اللغة القديمة "تعليم المجنون" (وقد وردت فى القرآن عبارة فى صيغة المبنى للمجهول هى : "معلَّم مجنون")، على غرار مايسمى "تعليم الكلاب" (وفى النصوص القديمة كانوا يقولون "الكلاب المعلَّمة" بمعنى الكلاب المدرَّبة تدريبا متخصصا). وكانوا يقولون أيضا "ازدجار المجنون". وكانوا يستخدمون فى ذلك، الضرب والتعذيب والكى بالنار أحيانا، وربما أيضا "عذاب الهون" (أى الاعتداء الجنسى)، الخ. وبهذه الطريقة، كانت أجهزة الكهنة تخرِّج من القردخانات البشرية أو المرابط أسرابا من "المجانين المعلَّمين" بنفس طريقة تخريج واستخدام الكلاب المدرَّبة أو القردة المروَّضة أو البغبغانات الملقَّنة، أى على غرار إنتاج شريط التسجيل والترتيل أوالانسان المبرمج آليا (الربوطا robota) فى العصر الحديث. والكثير من هذه الميكانيزمات تحدث حاليا فى مستشفيات المجانين والسجون الحديثة، لكن بوسائل غير مباشرة، وبأنواع مموهة من التعذيب، ثم أساسا تحت اسم العلاج والاصلاح، وليس تحت اسم الترويض الحيوانى والتلقين القهرى وتدريب المجانين والمساجين على ممارسة الأفعال المطلوبه فى مجال الجنون والاجرام فى المجتمع!

وكان القدماء يستخدمون عقار تجنين له اسم صريح هو"طينه الخُبال". وهذا يشبه الكثير من عقاقير "التغييب" و "التتويه" و "الهلوسه" التى يعرفها جيدا نزلاء مستشفيات المجانين، لكن بأسماء أفرنجيه وباعتبارها أنواعا من "العلاج" الاضطرارى السريع!! وحتى مايسمى "الصدمات الكهربائيه"- التى يرى كثيرون من الأطباء منع استخدامها فى العلاج الذهنى المزعوم - هى نوع مخفف من الضربات الموجهة الى الرأس بدرجة تسبب الغيبوبة، وأيضا مع بعض الارتجاج فى المخ . فالفرق بين "صدمة" المخ و"ضربة" الرأس، هو أن الأولى لاتسبب إصابة أو جرحا فى الجسم، وأنها لاتحدث الارتجاج المطلوب إلابعد تكرارها عددا كافيا من

المرات! ثم هناك فرق آخر لايقل أهمية، هو أن الصدمة الكهربائيه تعتبر "علاجا" طبيا بل وتكنولوجيا، بينما ضربة الرأس كانت تعتبر "زجراً" وتأديبا وقمعا! وكان القدماء يستخدمون فى ذلك الشومة أو قطعة الحجر - ويفعلون ذلك أحيانا منذ الطفولة لانتاج المخ المهزوز أو المتعثر التفكير بالدرجة المطلوبة! وفى أحيان أخرى - خصوصا بالنسبة لأبناء الملوك والخلفاء والوزراء الذين لايضربون بالشوم أو الحجارة - كانوا يستخدمون وسائل التحكم السرى الخاص التى تؤدى إلى تعرض هؤلاء لرفسة "محكومة" فى الرأس من حمار أو حصان، أو لسقطة على الرأس من ارتفاع "محكوم"، الخ!

● **وهكذا تجد أن الفرق بين القدماء والمحدثين فى هذا الميدان، هو أن هؤلاء كانوا يعرفون مايفعلون، بينما الكثيرون من أولئك المحدثين لايعرفون حقيقة مايفعلون! لكن هؤلاء وأولئك يفعلون نفس الشيء، رغم اختلاف الوسائل أو اختلاف الأسماء. تماماً كما يستخدم عامل النسيج الحديث آلة كهربائية لانتاج قماش لايختلف كثيرا عن القماش الذى ينتجه عامل النسيج البدائى على نول يستخدم فيه يديه ورجليه!**

فاذا تذكرنا أن صناعة "جنس الكلاب" من سلالات الذئاب والثعالب وغيرها، هى صناعة بدأت وتطورت فى مصر قبل فرعونية مينا، واتسعت وشملت التماسيح والثعابين والطيور والحمام الزاجل ومالإلى ذلك (فيما يسمى عند القدماء "لغة" الطير والنحل والنمل، الخ!)، فاننا نستطيع أن نفهم مدى فاعلية التقنيات والخبرات السحرية والذهنية التى بدأت أسرارها فى قردخانات ومورستانات وجبّات / سجون مصر، وفى تقاليد التنكيس والتعبيد والتسجيد التى يرمز إليها أبو الهول منذ خمسة آلاف عام. وهذه التقنيات والخبرات السحرية والذهنية المدعمة بوسائل التحكم الاشعاعى والميكروبى والمرضى، هى التى أتاحت لأجهزة الكهنة أن تكتسح العالم شرقا وغربا، لمطاردة بذور العقل والمعرفة التى كانت تسمى شعلة برومثيوس.

وإذا كانت هذه هى حقيقة الأسرار "المحجوبة" منذ آلاف السنين، فما بالك بحقيقة القدرات السرية التى تملكها المراكز العليا للتحكم التكنولوجى والاشعاعى المعاصر؟! إن المراكز العليا المحلية (التى تتبع أو تتفرع عادة مما يسمى المخابرات الحربية) تعتبر نماذج مصغرة للمراكز الدولية الأعلى (أى المراكز الأمريكية الغربية) التى تقوم بدور القيادة أو المايسترو فى العالم

البرجوازى الدينى بشكل خاص، وفى مجموع العالم بشكل عام (وذلك قبل أن تبدأ المراكز العليا السوفييتية منذ الثمانينات مرحلة التفوق الاشعاعى التى تعرقل - أو تعطل أحيانا - دور ذلك القائد والمايسترو اللاعقلى الأعلى للفرق المحلية فى العالم البرجوازى، بحيث تتحول اليوم ضرباتها السحرية المتناغمة إلى نشاز مزعج ذهنيا وفاشل عمليا!!).

وبغض النظر عن الاختلاف فى النوعية التقنية وفى درجة الاتساع وفى درجة الدقة وفى درجة الخداع، فقد كانت مراكز التحكم السرى القديم مثل سلالاتها اللاعقلية الحديثة تمارس التربيط الذهنى "السحرى"، أى بالوسائل التقليدية السرية أو بالوسائل الاشعاعية، وكذلك التلقين الذهنى السرى أو الاشعاعى - بما فى ذلك تلقين الأحلام أثناء النوم كما تثبت النصوص القديمة منذ الألف الثانى قبل الميلاد. (ولاحظ أنهم فى العربية القديمة - كما ورد فى القرآن - كانوا يقولون عمن يتعرض للتلقين الذهنى الجبرى أوالقهرى بالوسائل السرية إنه "مسحور" أو "مسحَّر"[1]). كذلك كانوا ولازالوا يمارسون قراءة خفايا الذهن (بقرائن ظاهرية خاصة كما كان الحال قديما، أو بقراءة الأحداث الكهرومغناطيسية للنشاط الذهنى كما هو الحال بالتكنولوجيا المعاصرة).

وهذه الأمثلة توضح لك كيف أن المتخصصين فى التحطيم الذهنى فى سلخانات المجانين وفى السجون والمعتقلات الارهابية المكشوفة وفى مختلف المرافق العسكرية والبوليسية الخاضعة للقهر الذهنى، هم فى مستوى جزار السلخانة أو حلاق الصحة بالنسبة لخبراء المراكز التى تستخدمهم، وأنهم لايعرفون فى الحقيقة أى تأسيس أو تقنين علمى صحيح للوظائف والميكانيزمات الراقية للجهاز العصبى البشرى - خصوصا فى مستوى الفكر. فأمثال هؤلاء الأطباء الذهنيين وصبيان الخدمة الطبية التابعة لهم، لايختلفون عن الطبيب

(١) لم يكن المقصود عندهم المعنى الخرافى لكلمة "السحر"، ولكن المعنى الأصلى الذى تعبر عنه مشتقات نفس الجذر فى كلمات السر والسهر والسَّحر الذى قبل الفجر، الخ. وهذا يشبه قولهم عن أمرٍ ما إنه "مبيَّت" أو مدبَّر "بليل"، أو أنه صنع فى "الغيب" وليس فى "العلن" أو "الشهادة". فالمقصود بذلك كله، أنه فى الخفاء لم "ينظر، أى مجهول الوسائل والتفاصيل. ومن نفس الأصل السرى السحرى، نجد كلمة سرداب (= نفق سرى)، وكلمة سحَّارة (= صندوق الأسرار، وخصوصا تابوه اللامساس أى تابوت المواد المشعة). ولاحظ أن كلمة "سحَّارة" مثل كلمة "هويس" لاتزال تستعمل للتعبير عما يشبه الأنفاق المحفورة تحت الجسور أو المجارى السفلى للمياه!

البدنى الذى يملك مثلا وسائل فعالة لاصابة الجهاز الهضمى بالاسهال أو المغص المؤلم، الخ، ومن ثم يستطيع أن يوقف هذه الاصابات بوقف استخدام وسائله المسببة لها، ولكن بدون أن يتوفر لديه تحديد علمى دقيق وشامل عن خصائص وظواهر وظيفة الجهاز الهضمى وعن مكوناته العضوية وعناصر أدائه، الخ، ومن ثم لايستطيع أن يقدم رأياً مفيدا بخصوص صحة وسلامة ووقاية هذا الجهاز، ومصادر قوته وضعفه واحتمالات تطوراته.وقد كان من الملوك القدماء من يتفاخر بأنه "يحيي ويميت"! وكان هذا صحيحا – لكن بمعنى أنه يستطيع أن يعدم من يريد وأن يعفو عمن يستحق الموت، وليس طبعا بمعنى أنه يفهم أى شئ فى ميكانيزمات الحياة وميكانيزمات الموت، أو أنه يستطيع أن ينافس الطبيعة فى صناعة ظاهرة الحياة وتطويرها خلال مئات الآلاف من السنين!! ومن ناحية أخرى، فالقدرة أو الخبرة السلبية المذكورة تشبه قدرة أو خبرة مقاولى الأنقاض وعمال الهدم الذين يستطيعون أن يؤدوا بنجاح عمليات هدم الأنواع المختلفة من المبانى، رغم جهلهم فى عمليات البناء وعجزهم عن إقامة بناء جديد.

● **وخلاصة ذلك، أن المشتغلين بالطب الذهنى المعروف والعلوم الذهنية المتداولة، قد يعرفون الكثير أو القليل عن الأمراض الذهنية الظاهرية بدون أن يعرفوا شيئا علميا صحيحا عن الصحة الذهنية الحقيقية – وخصوصا الصحة العقلية المنطقية.** بل وحتى مايعرفونه عن الأمراض الذهنية الظاهرية، لايتخطى القوالب النمطية المحدودة التى لقنت لهم عن الأمراض الذهنية! **وبديهى أن تحديد الصحة يجب أن يسبق تحديد المرض، لأن الصحة هى الأساس الموجب الذى يعتبر المرض سلباً أو نفياً له.** وفضلا عن ذلك، فان الأمراض النمطية التى يتعلمها كهنة الجهل والدجل الطبى الذهنى المعاصر، تتكون فى معظمها من تركيبات لفظية مصطنعة أو أمراض زائفة تستخدم تقسيماتها الغريبة وأسماؤها الاصطلاحية أساساً فى تبرير التحطيم الذهنى وليس فقط فى تبرير التزوير الطبى وإسقاط الأهلية والايداع الجبرى فى مستشفى المجانين. ويمكن توضيح ذلك بتأمل بعض الأمثلة من أنماط الأمراض الذهنية، التى يتفنن كهنة السفسطة الطبية الذهنية المعاصرة فى استخدام عشرات الأسماء الغريبة فى قوالبها الفارغة!

● فهناك أولا. أنماط خرافية لأمراض شائعة.

من ذلك مثلا مايسمى "انفصام الشخصية" / الشيزوفرينيا، التى يخترعون لها أنواعا كثيرة أغرب وأخرف! وهذا هو المرض الذى صوروه روائيا وسينمائيا فى قصة "الدكتور جيكل والمستر هايد". وكهنة الطب الذهنى المقلوب يستخدمون فى تشخيصات هذا المرض وقائع فعلية أحيانا، لكنها وقائع "منفصمة" أو "مقطوعة" موضوعيا عن الحقيقة العلمية الشاملة! فانقسام أو انشقاق الذهن إلى قسمين أو ثلاثة أو أكثر – كلٌ منها محجوز أو منفصل عن الآخر – هى ظاهرة مرضية عامة تنتج بالضرورة عن انخفاض قدرات الفكر المنطقى، باعتباره القوة الوحيدة التى تستطيع ربط وتوحيد الدوائر الذهنية المختلفة للادراك والسلوك والذاكرة وتحقيق تكاملها.

صحيح أنه نتيجة الحصر الذهنى وزيادة الانفعالات والخضوع للتحكم الدقيق فى مستشفيات المجانين، يمكن أن تبرز أعراض هذا المرض اللاعقلى العام بحيث تتخذ شكلاً "سينمائيا" مضاعفا متطرفا تكون فيه الحواجز بين أقسام أو انفصامات الذهن فاصلة جدا. لكن هذه مجرد صياغة كاريكاتيرية "مصنوعة" لمرض عام عادي ينتشر لدى كل الأشخاص المنخفضى القدرات الفكرية والمنطقية. والسبب هو أن الحياة فى مستشفى المجانين تتيح التحكم الدقيق والسهل فى تربيطات الاثارة وتربيطات الكف inhibition (أى الكبح أو الالغاء الذهنى)، وتربيطات التلذيذ والترغيب أو الايلام والتنفير، وذلك مع إلغاء التفكير أو خفضه إلى الحد الأدنى، مما يجعل من السهل جداتقسيم هذه التربيطات وتعوداتها إلى مجموعتين أو عدة مجموعات كلّ منها معزولة ومحجوزة تماما عن الأخرى!! ونتيجة ذلك، يمكن للمريض من هذا النوع أن يتصرف كوحش مفترس، أو كفأر مذعور، وأن يظهر الحب والتعاطف والمسالمة، أو الكراهية والعداء والشراسة، بدون مبررات واقعية ومنطقية، لكن فقط عند تشغيل مفاتيح ومنبهات هذه المجموعة التربيطية أو تلك!! وهذه الحقيقة الهامة جدا من الناحية العلمية والفلسفية، لاتثير اهتمام خبراء الشيزوفرينيا الخرافية! وإنما يثير اهتمامهم مثلا، اختلاف نوعية التجاوب ونشاط أو كف الذاكرة لدى المريض بين موقف وآخر، مع أن هذه مجرد مظاهر سطحية لحقيقة المرض، الذى تقوم العقاقير الذهنية بتعميقة ومضاعفته من خلال دورها فى خفض قدرات التفكير المنطقى والوعى العقلى للمريض!

● وأشهر النماذج القديمة لتقاليد صناعة الانفصام أو الانقسام الذهنى، وصلت إلينا فيما أورده التاريخ عن طائفة حسن الصّباح الشيعية التى كانت تسمى «الحشاشين» Assassins - (فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر)، والذين كانت لهم فرق اغتيالات وفصائل «عمليات» سرية تشتهر بالطاعة العمياء، وكانت تنطلق من قلاع ومراكز سرية سقطت آخر قلعة منها عام ١٢٥٦م، نتيجة ضربات جيش الظاهر بيبرس المصرى، ثم ضربات جحافل المغول الذين استوردتهم المراكز القبطية العليا لاكتساح أوكار التحرير (الفارسية والرومية ثم الأوروبية). وكان حسن الصباح قد نقل عن بعض الأوكار المصرية تقاليد تعبيد وترويض الفرق الانتحارية الخاصة وتحويل أفرادها إلى أدوات تنفيذية عمياء ، ومن ثم حاول تطبيق ذلك لحسابه الخاص فى غرب آسيا للدفاع عن بقايا النفوذ الشيعى الفارسى فى المنطقة.

والطريقة القديمة التقليدية التى استخدمت فى ميكانيزمات تعبيد وترويض «الحشّاشين» طريقة مكشوفة وفعالة جدا. ومن حسن الحظ أن تمرد حسن الصباح وفرقته على المراكز الارهابية الغيبية العليا التى كانت تحكم الشرق الفرعونى منذ العصور القديمة، ثم مبالغته ورعونته فى استخدام هذه الأسلحة الذهنية القديمة بشكل واسع مكشوف، هى التى أحدثت "ثغرة" مؤقتة فى سور صناعة التاريخ التمويهى المضلل، واستطاعت بذلك أن تصل إلى نصوص التاريخ، ومن ثم أوضحت لنا طبيعة التقاليد السرية القديمة للتعبيد العسكرى الفرعونى والشرقى (الذى كانت صورته المخفضة عند العرب تسمى نظام "التطويع" أو تكوين "المطوّعة" أى ترويض الفرق العسكرية الخاصة).

وتتلخص هذه الطريقة فى تقسيم حياة وتنبيهات السلوك والتفكير للجندى أو العميل الحشاش إلى قسمين متضادين ومنفصلين تماما، هما : الجنة أو النعيم، والنار أو العذاب : فكل تصرفات الطاعة العمياء والتنفيذ المخلص مهما كانت المغامرة أو المخاطرة، ترتبط بظروف الراحة واللذة الغذائية وإرضاء كل الرغبات الشخصية، بينما كل تصرفات الرفض أو التمرد أو حتى التردد ترتبط بالعقاب والايلام والتعذيب والحرمان. ويتحقق هذا التقسيم أو التفصيم على أساس درجة كبيرة من خفض العقل والتفكير بوسائل المخدرات المعروفة. وتكون النتيجة طبعا واضحة. ولهذا، كان الحشاش الذى يصدر إليه الأمر بالقاء نفسه من قمة جبل مثلا، يسرع إلى تنفيذ ذلك على الفوردون أى تردد أو تفكير! (ومن المؤكد أنه كان يتصور فى هذه

الحالة أنه يلقى بنفسه إلى نعيم اللذات المرغوبة، أى إلى الجنة!!).

وقد كان علماء النفس المحدثون،الأقرب إلى العقلانية العلمية من أطباء الدجل الذهنى المعاصرين، يتناولون مثل هذه الظواهر تحت اسم آخر هو "تقسيم الشقق الذهنية" أو "التشقيق الذهنى" mental Compartmentalisation. وللمزيد من الدقة الفلسفية والمنطقية، يجب أن نسميها :"التشقيقات الذهنية المتناقضة". لماذا؟ لأن المشكلة هنا ليست أساساً مشكلة تقسيم أو تشقيق ذهنى، لكنها أساسا مشكلة التحجيز بين متناقضات هذه الشقق لمنع تصادمها وتطاحنها التناقضى، أى لمنع أى صراع أو نزاع ذهنى بينها! ولو لم يكن الأمر كذلك، لما تكونت تلك الحواجز العازلة الفاصلة التى تمنع أى تواصل أو تكامل بين الشقق.

وهذا التحديد أقرب إلى الأصل الأقدم لمعنى كلمة شيزوفرينيا، التى اشتقت من "تشويذ المخ" (حيث "تشز" بالمصرية القديمة تعنى كلب)، ولم تشتق من "شق المخ" كما قالوا بعد ذلك. والتشويذ يعنى التعكيس أو الجمع بين المتناقضات . ومعنى ذلك أن المرض الحقيقى الذى يصيب المخ فى هذه الحالة، هو العجز عن إدراك تناقضاته، وليس مجرد حدوث الانقسام بين دوائر نشاطه. فهذا هو الفرق بين تقسيمات التخصص الذهنى القابل للتواصل والتكامل (مثلا بين تصرفات العلاقة الجنسية وتصرفات العمل الجاد، أو بين السلوك فى مأتم والسلوك فى فرح)، وبين تقسيمات التحجيز بين المتناقضات المتصارعة، أى التحجيز المانع للصراع الذهنى (مثلا بين مغريات الدنيا ومغريات الآخرة عند شخص متدين، أو بين الحقائق العلمية والمقدسات الغيبية عند شخص يؤمن بهذه وبتلك). وهذا التحجيز المتناقض، هو الذى يحاول العامة فى الحياة العادية تبريره بقولهم : هذه نقرة، وهذه نقرة. فاذا كان المقصود بذلك التمييز بين "نقرتين" أو "دائرتين" مختلفتين غير متناقضتين وغير متعارضتين، فلا مرض فى ذلك. أما إذا كان المقصود بهذا التقسيم طمس التناقض والتعارض وتعمية الذهن عنه، فهنا يكون المرض الذى يعبر عنه فقدان أو انخفاض الاحساس العقلى المنطقى.

والميكانيزمات الأصلية لهذه المشكلة، واضحة تماما لدى المتخلفين عقليا ولدى البدائيين وأشباه البدائيين. ويمكن ملاحظة ذلك فى توصيفات علماء الشعوب البدائية العقلانيين (أو الوضعيين مثل ليفى بريل)، الذين يحددون ظاهرة الجمع بين النقائض عند البدائيين تحديدا

صحيحا باسم صحيح وتفسير صحيح، فيعتبرونها ظاهرة ذهنية قاصرة عقليا أو فاقدة المنطق (أو بالتعبير المهذب عند ليفى بريل : سابقة على اكتساب المنطق prélogique). من ذلك مثلا أن يؤمن البدائى ويتصرف على أساس أن الموتى زالوا وانتهوا، وأنهم أيضا باقون موجودون يترددون على القبيلة ليلا أو فى الأحلام، الخ!

وهذا يبين أن "شذوذ" المخ هنا يتكون تلقائيا نتيجة انعدام أو انخفاض الفكر العقلى فطريا، ومن ثم يختلف عن "التشويذ" الذهنى المصنوع الذى ينتج عن التحطيم والتربيط التشقيقى، مع مكافحة التفكير وتصفية أو خفض قدرات الفكر.

● **وفى موضوع التحجيز والتشقيق الذهنى، يجب أن نكرر أن الحواجز يمكن أن تمنع الأمواج الضعيفة، لكنها لايمكن أن تمنع الأمواج العاتية الكاسحة. ولهذا فان درجات الشيزوفرينيا أو الانفصام الذهنى تتناسب عكسيا مع درجات التفكير والعقل المنطقى.** ومن هنا فمهما تعرض الشخص القادر فكريا للتحجيز الناجح بين متناقضات ذهنه (أى بالتلذيذ الشديد الواسع أو بالأرهاب والايلام والتنفير الشديد، الخ)، فان نتائج ذلك تكون مؤقتة لاتلبث أن تنهار – مالم يتكرر تدعيمها بالتربيطات المتزايدة الشدة، مع الاستمرار فى تصفية أو خفض قدرات التدفق الفكرى فى الذهن.

● ● ومثال الشيزوفرينيا وميكانيزمات التحجيز الذهنى نتيجة التربيط التشقيقى الشديد، أو نتيجة الانخفاض الفطرى فى قدرات التفكير إلى درجة العجز عن اجتياز الفواصل لاستيعاب وتوحيد كل الدوائر الادراكية فى الذهن (أو حتى كل "المعلومات" المتباعدة فى دائرة واحدة)، هو مثال ينبهنا إلى العديد من الأمراض أو الظواهر المرضية التى تختلف أسبابها لكن تشترك فى أساس واحد – هو العجز أو التعجيز الفكرى فى الذهن.

من ذلك مثلا، مايسمونه "الفكرة الثابتة أو المتسلطة" fixed idea – ويقصدون بذلك فى الحقيقة الوهم أو التصور القهرى (لأن كلمة "فكرة" مشتقة من التفكير!)، وهو التصور الذى يسيطر على الذهن بدون أساس فكرى أو منطقى. والسبب هنا واضح أيضا، وهو الارتباط أوالتربيط الفسيولوجى العميق الذى لايخضع للتفكير. وتوجد نماذج مصغرة من هذه الظاهرة، تتخذ شكل السيطرة ولكن تقتصر على "أخطاء صغيرة ثابتة". ويمكن أن تدعمها

العادة إذا لم يصححها التفكير المنطقى. ثم هناك مايسمى "**الحصر الذهنى**" وهو يتدعم بالحصار الشخصى (وخصوصا المفروض بوليسيا)، مع عجز أو تعجيز الفكر أيضا. ولاشك أن الأساليب الارهابية والتنفيرية لمكافحة التواصل بين الناس وعرقلة أو قطع التعاملات الانسانية، تعتبر من أهم عوامل صناعة الحصر الذهنى. أما مختلف "المخاوف المرضية" pho-bia التى ترتبط بموضوعات معينة تتحول إلى مصادر خوف لاعقلى ونفور لاعقلى، فتدعم العادة واللاتفكير ارتباطاتها أو تربيطاتها.

وهناك أيضا مرض شائع جدا، ولكنه مطموس عند كهنة الطب الذهنى بسبب دلالته الفلسفية، وليس فقط بسبب اختلاف درجاته ومستوياته وتعبيراته. هذا المرض يمكن تسميته "**هوس المخالفة أو التضاد**" Contramania. وهذا هو مرض المحطَّمين المحطِّمين (خصوصا من الضعفاء!). وينشأ عن التحطم الذهنى وانهيار قواعد وموازين الحق والعدل فى الذهن، ومن ثم انفلات شحنات السخط والغيظ وغيرها من الشحنات الانفعالية اللاعقلية، بدون منطق أوتبرير سليم، لكن فقط فى اتجاه ضد كل شئ وضد أى شئ: بالانكار و الرفض، أو بالهجوم والتدمير والعدوان، أو حتى بأضعف درجات الايذاء والإضرار والخربشة! وفى مستشفيات المجانين الحكومية التى تضم أغلبية من "الغلابة" (= المغلولين أو المغلوبين) و "المساكين" من هذا النوع، تستطيع أن تلاحظ كيف يمارسون التنفيس المريض عن شحناتهم بأى درجة ممكنة من التعكيس أو المخالفة، حيثما أتيح ذلك بدون التعرض لغضب أو مساءلة الأقوياء. فاذا رأوا مثلا مصباحا مضاء يطفئونه؛ فاذا كان مطفأً يضيئونه! وإذا رأوا شباكا مغلقا يفتحونه؛ فاذا كان مفتوحا يغلقونه! وهكذا!!

● وبخلاف حالات الأذهان المحطمة جذريا، التى تتحول إلى أذهان حيوانية أوشبه حيوانية تتصرف عدوانا وهجوما أو ذعرا وانكماشا (وفق ماتتعرض له من ترويض فسيولوجى يشبه طريقة ترويض حيوانات السيرك)، نجد أن بعض الأشخاص العاديين قد يتعرضون لحالات أو اضطرابات سطحية مؤقتة من فقدان الأعصاب أو الانفجار العصبى المحدود. ورغم أن أدوات التحطيم الذهنى يعتمدون فى تدبير مثل هذه الحالات على تحضيرات الارهاق العصبى وإضعاف الارادة والتفكير بمختلف الوسائل المعروفة (وقد يستخدمون أيضا المؤثرات الكيميائية لتدعيم المؤثرات الاشعاعية المنتظرة)، إلا أن الأسباب المباشرة تعتمد عادة على

عمليات إثارة الاستفزاز أوالاغاظة أو توقيت الصدمات والمفاجآت غير السارة، وماإلى ذلك من وسائل تفجير الشحنات والتربيطات الانفعالية.

ولأن زبانية الخدمة الطبية يعرفون جيدا مصادر الاغاظة والارهاق العصبى، ويعرفون بشكل خاص خريطة الجروح والآلام الذهنية لدى ضحاياهم (ومعظمها تكون مصنوعة فى مستشفى المجانين)، فانهم يستطيعون بذلك أن يدفعوا ضحاياهم إلى الانفجار العصبى فى أى وقت - وخصوصا فى التوقيت المطلوب لاتهامهم بـ "الهياج"! ويستخدم أطباء الدجل الذهنى مثل هذه "الوقائع" الظاهرية المصنوعة فى تلفيقاتهم الطبية، بطريقة اعتبار أىّ اضطرابات معوية نوعا من أعراض الكوليرا! لكن حتى إذا أدت ضغوط واستفزازات زبانية الخدمة الطبية إلى انكماش وتوتر الشخص المطلوب بدلا من الوصول إلى تفجيره، فان هذه تعتبر أيضا فى تلفيقاتهم أعراضا للمرض أو العاهة العقلية - وذلك باسم اصطلاحى آخر! وبذلك "يحل " / يجوز إهدار عقل النزيل، إن لم يكن دمه أيضا.

وبديهى أن الأعراض السطحية المؤقتة لاتستمر كذلك. لكن من خلال زيادة وتعميق شحنات وعادات التهيج العصبى وتثبيت ومضاعفة نقاط التفجير العصبى، تتحول هذه الاضطرابات إلى أمراض شديدة وميئوس منها. ومع ذلك، يمكن أن يحدث "الشفاء" المزعوم إذا وصل المريض فى ظروف معينة وخلال فترة زمنية كافية إلى التبلد التام وانعدام الاستجابة للاثارة أو الاستفزاز! ومن ناحية أخرى، يستطيع كهنة الدجل الذهنى أن يتحكموا فى إخفاء أو تخفيف مظاهر تلك الأمراض، من خلال تجنب الضغط على أزرار الاثارة والتفجير، أو من خلال وقف المؤثرات السرية والاشعاعية التى تثير شحناتها الانفعالية! وقد كانت هذه اللعبة معروفة منذ العصور القديمة، حيث كان السحرة والكهنة أو القديسون والأولياء يواجهون "المتهيجين" الذين يقال إن الشياطين (أو الجن والعفاريت) تلبسهم، فيستخدمون معهم بعض الدعوات أو التراتيل الغيبية أو لمسات الأيدى، فاذا بالشياطين أو العفاريت "تخرج" من أجسادهم وتفر مذعورة!! ويكون معنى ذلك فى الحقيقة أن المؤثرات السرية أو الاشعاعية التى كانت تثير هياجهم توقفت عنهم فى نفس اللحظة بطريقة توقيتات أسلوب الدوبلاج السينمائى!

● ● ويمكن أن ننتقل إلى نمط آخر من الأمراض أو الاضطرابات، تؤكد أيضا أن كهنة الطب الذهنى المعاصر الذين يرتزقون من المستشفيات والمصحات والعيادات، لايفهمون حقائق

الذهن البشرى، ولكنهم يتصرفون بتصورات لاتقل فى اللاعقلية عن التصورات الكهنوتية الروحانية القديمة عن ركوب وخروج شياطين المرض! ذلك أنهم يهتمون ببعض المظاهر السلوكية التى قد تكون خادعة مضللة - بل وقد تكون ذات معنى عكسى. وهذا يمكن أن نلاحظه فى موقفهم إزاء الأمراض أو الاضطرابات الناتجة عن الصدام أو التطاحن بين القدرات الصحية السليمة لبعض الأذهان ذات الاهتمام الفكرى والاحساس المنطقى وبين الظروف والوقائع المعيشية والاجتماعية "المريضة" واللامنطقية التى تخنقهم. فها هنا يكون الحل الصحيح هو التدريب على مقاومة أو موازنة - وليس التكيف مع - ظروف انعدام الوزن المنطقى، بالاعتماد على زيادة قدرات التفكير والاحساس المنطقى وليس العكس. لكن الطب الذهنى اللاعقلى القائم، يتجه على العكس وكالمعتاد إلى خفض وملاشاة التفكير والاحساس المنطقى عند هؤلاء الضحايا، بحجة توصيلهم إلي «شفاء» التبلد واللاتفكير وانعدام الاحساس! تماما مثل تخليص شخص من الآلام التى تصيب عينيه نتيجة الاضاءة الشديدة، بخفض أو إلغاء قدرته على الاحساس بالضوء!

وبديهى أن "ألم" الاحساس فى هذه الحالة يكون أقرب إلي الصحة العقلية والذهنية من "راحة" التبلد! ولهذا كان الفلاسفة يقولون :"إنسان تعيس خير من خنزير سعيد"!

وهذا ينبهنا إلى ملاحظة هامة جدا، هى أن أخطر العوامل التى أدت إلى تدهور وسقوط العلوم الذهنية بعد انتقالها فى العقود الأخيرة من دائرة علم النفس إلي دائرة الطب، بل وأدت إلى انقلابها تعكيسيا إلى مكافحة العقل وخدمة اللاعقل، هو فصلها عن الفلسفة، ثم إسقاطها تحت حوافر الطب الذى هو مقطوع تماما عن الفلسفة، والذى يتناول الوظائف الراقية للمخ البشرى كما لو كانت وظائف عضو للتبول أو للهضم والتبرز!! (أو عضو تناسلى كما كان يتصور الطبيب المريض فرويد!!).

ثانيا - منطق البحث العلمى فى الوقائع الذهنية

نشأ علم النفس الحديث كفرع من فروع الفلسفة - ليس فقط لأن الفلسفة هى أم العلوم (بما فى ذلك الطب نفسه)، ولكن أيضا وأساسا لأن موضوع علم النفس هو العقل والفكر

والادراك والسلوك، ومن ثم اللغة والأخلاق وميكانيزمات المنطق والارادة، الخ. وهذه كلها موضوعات تدخل فى صميم التخصص الفلسفى وليس فقط التخصص النفسانى. ومثل أى علم جديد، بدأ علم النفس الفلسفى يتطور ويتقدم، بحيث انقسم إلي تخصصات فرعية واستخدم منهج ووسائل التجريب، بدون أن يفقد ارتباطه الفكرى العقلانى بأمه وشريكته : الفلسفة والمنطق.

وإذا نظرنا إلى إنجازات <u>علم النفس الفلسفى</u> (وأنا أستعمل هذا الاسم لتمييز مراحله السابقة حتى الأربعينات فى أوروبا وحتى الستينات فى مصر)، نجد أنه حقق نجاحا وازدهارا كبيرا، وأصدر سلاسل لاتنسى من الدراسات والكتب القيمة والتعريفات المبسطة، ووصل إلى اكتشافات وتحديدات نفسانية نظرية وتجريبية عن مختلف الظواهر والميكانيزمات النفسية والتفكيرية هى التى لازلنا نعيش على ثمارها حتى اليوم، ووسّع أبحاثه حتى شملت أهم المشاكل الاجتماعية والأخلاقية بل والفكرية والعقائدية، فضلا عن ظواهر الجريمة والانحراف والطفولة والأسرة ومإلى ذلك من مشاكل تهدد أبحاثها واكتشافاتها نظام التعمية اللاعقلية الذى يحاولون فرضه على عالم الذهن الفردى والاجتماعى.

ولهذا، وكالمعتاد فى أى نجاح علمى فكرى تنويرى، زادت عليه عوامل التدهور والانحراف والتجهيل. فقد ظهر أولا فى ألمانيا – التى كانت أحد معاقل تقدم علم النفس – اتجاه فى علم النفس الفلسفى يسمى علم النفس الظاهراتى (الفينومينولوجى) أو الوجودى، على يد برنتانو وهوسيرل (من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينات هذا القرن)! وغرق ذلك الاتجاه فى مستنقعات اللاعقل و"الأحوال" الوجودية المريضة، حتى وصل إلى الطبيب الذهنى الوجودى والنازى المعادى للعقلانية كارل ياسبرز K.Jaspers (توفى عام ١٩٦٩). وفى ألمانيا أيضا، ظهر الطبيب المريض المشهور سيجموند فرويد (١٨٥٦– ١٩٣٩).

وكان واضحا أن اتجاهات <u>اللاعقل الفلسفى</u> تهدم فى بناء علم النفس العقلانى من جانب، بينما اتجاهات <u>اللاعقل الطبى</u> تهدم فيه من الجانب الآخر، وتحاصره من كل جانب. وبحجة التركيز على التجريب وعلى التأصيل الفسيولوجى للمستوى الذهنى، بدأت دراسات وتخصصات علم النفس تنفصل عن الدراسات الفلسفية الأساسية التى تشترك معها فى صميم موضوعات النفس والعقل. وفى مصر، بدأوا

منذ الستينات والسبعينات ينشئون فى كليات الآداب أقساما للدراسات النفسية منفصلة عن أقسام الفلسفة، تحولت إلى مايشبه "معهد الخدمة النفسية" (الذى كان يعتبر أقل مستوى من الكليات بحيث يمنح دبلوم وليس ليسانس).

وكانت النتيجة طبعا أن الطب الذهنى - الذى أطلقوا عليه اسم "الطب النفسى" بدلا من "الطب العقلى - استكمل سيطرته على موضوعات وميادين البحث السيكولوجى الفلسفى التى لايستطيع استيفاءها أو تناولها طبياً، ومن ثم فرض الانغلاق العضوى والاتجاه العضوى والاتجاه العقاقيرى والمعايير الطبية على عالم النفس والمعنويات والفكر والمنطق! وبذلك تحولت أقسام علم النفس الجديدة بعد انفصالها عن الفلسفة، إلى التخصص فى الخدمة الميدانية والاستبيانية وماإلى ذلك من خدمات تابعة للطب الذهنى، وإلى تخريج باشتمورجية نفسيين (يسمونهم إخصائيين) لخدمة الأطباء الذهنيين وتنفيذ برامجهم ونظمهم وتصوراتهم عن الصحة والمرض والعلاج، الخ!

ومن ناحية أخرى، أدى هذا الانفصال ثم الانقطاع عن الفلسفة إلى تفاقم مشاكل منهج البحث فى الظواهر الذهنية، لأن الفلسفة التى تشارك فى الموضوعات الذهنية المذكورة، هى المختصة أيضا وأصلا بفروع مناهج البحث ومنطق العلوم. وبذلك تضاعفت انحرافات وعمايات الطب الذهنى والخدمة السيكولوجية التابعة له!

وإذا أخذنا أمثلة مما ذكرت فى مقالك، نجد أن البحث الذى تقول إن أستاذة علم النفس الأمريكية (أو الطب النفسى) بجامعة كاليفورنيا أجرته عام ١٩٨٣ على ٤٧ من الأدباء والفنانين، إنما يشبه "الاستفتاء الطبى" الذى تقول إن إميل زولا أجراه حين عرض نفسه على خمسة عشر طبيبا نفسيا أجمعوا على أنه مريض نفسى، وكذلك تأكيدات غيرهم من "الأطباء" الذين يزعمون أن "الفنان" يكون بحكم طبيعة عمله مريضا نفسيا!! فنقطة البدء فى مثل هذه "الأبحاث" هى المغالطة المنهجية أو الخطأ فى أصول العلم، بل وأحيانا إلى درجة التعكيس الذى يضع العربة أمام الحصان ويعتبر المعلول علة. وإذا كان الكثير من التلفيقات الطبية الذهنية تعتبر أشبه بما يسمى "الخيال العلمى" scientific fiction نتيجة عمليات صناعة المرض والتحكم فى المرضى بواسطة شبكات الخدمة الصحية فى المستشفيات والمصحات،

فان مثل هذه الأبحاث تعتمد على وقائع وجزئيات صحيحة لكن لا تضعها فى السياق العلمى الصحيح ولاتقيمها على أصول علمية صحيحة.

● وعلى كل حال، يمكن أن نشير فيما يلى إلى أهم الاعتراضات المنهجية والأصولية التى تأخذها العقلانية العلمية على مثل هذه الأبحاث الطبية الذهنية، وعلى اتجاهات الطب الذهنى المعاصر عموما والفروع النفسية التابعة له.

● **الاعتراض الأول :**

نبدأ بالأمثلة المذكورة فى مقالك. ففى هذه الأمثلة، توجد مغالطة منهجية فى عملية تحديد: العيّنة الميدانية التى تمثل الفنانين فى حالة الباحثة الأمريكية، وتلك التى تمثل رأى العلوم النفسية أو الذهنية فى حالة إميل زولا وغيره. ولايقتصر الاعتراض فقط أو أساسا، على اختيار عناصر ذات أسماء معترف بها فى الحالتين، مما يعنى أنها تمثل اتجاهات مراكز الدولة والمجتمع التى تحدد الأسماء المعترف بها فى مجالات التأثير الاجتماعى. كما أن الاعتراض لايقتصر فقط أو أساسا، على الخلط والاتساع فى تصور الأستاذة الأمريكية عن الفن والفنانين، إلى درجة الجمع بين "الفن الفكرى" مثل الأدب والفنون التشكيلية المعبرة فكريا وبين ماأسميه "الفن الغجرى" مثل فنون الطرب والتمثيل. **لكن الاعتراض يشمل أيضا وأساسا الخلط بين طبيعة وظيفة الفن كوظيفة ذهنية اجتماعية، وبين مواصفات الفنان الذى يستطيع البقاء والاستمرار فى ممارسة تلك الوظيفة. وكذلك الخلط بين الموقف أو التصور العقلانى الصحيح للعلوم الذهنية إزاء الصحة والمرض والنشاط الفكرى، الخ، وبين المواقف أو التصورات التى يفرضها نظام الدولة والمجتمع على برامج تعليم تلك المواد وعلى شروط ممارسة تلك التخصصات!**

وبالنسبة لحالة الفنان، نجد أن مجرد السماح له بالاستمرار فى الصراع والمعاناة من أجل الانتاج ومن أجل النجاح، يفرض عليه مواصفات وأعراضاً ذهنية لم تكن توجد لديه قبل أن ينخرط فى التخصص الفنى ثم قبل أن ينزل إلى "سوق" العمل الفنى. لماذا؟ **ليس نتيجة طبيعة التخصص الفنى أو العمل الفنى نفسه، ولكن نتيجة سوء وتدهور الظروف اللاعقلية المريضة للمجتمع وللمتعاملين مع الفنان (من**

الجمهور وليس فقط من التجار!) - ناهيك عن المشاكل والمشاق التى تفرضها عليه أجهزة وشبكات مكافحة العقلانية والتنوير والثقافة الفكرية، ومكافحة النبوغ والمواهب، ومخططات تحويل العبقرية إلي جنون،وإفساد وعرقلة القدرات الذهنية للعلماء والمفكرين، الخ. **فها هنا تكون الأمراض أو الاضطرابات نتيجة للظروف المضادة للفن وللعقلانية والفكر عموما، وليست نتيجة التخصص الفنى فى ذاته أو نتيجة طبيعة العمل الفنى نفسه كما يزعمون!**

والمغالطة المنهجية التى نعترض عليها هنا من حيث تحديد عَّينة البحث، نجدها أيضا فى الكثير من الأبحاث الميدانية الأخرى. من ذلك مثلا إجراء بحث ميدانى على نزلاء بعض مستشفيات أو مصحات المجانين لاكتشاف أسباب إبداعهم فيها! ــــ ولكن بعد فترات من طحنهم فيها وليس عند بدء إبداع بعضهم فيها تزويرا وتلفيقا. ذلك أن مثل هذا البحث سيكتشف أنهم مجانين أو مرضى فعلا، لكنه لن يكتشف ماإذا كان هذا قد حدث "نتيجة" الايداع فى المستشفى أو المصحة، أم أنه كان "سبب" الايداع فيها!

● **الاعتراض الثانى** :

هو اعتراض أساسى على الطب الذهنى المعاصر والفروع الخادمة له، لأن أبحاثه وتجاربه **معلقة فى الهواء بدون أساس نظرى وبدون مبادئ وقواعد** تحدد أصلا وبدقة علمية تعريفات وشروط وأسباب الصحة أوالسلامة الذهنية (النفسية والعقلية)، ومن ثم شروط وأسباب المرض أو الفساد الذهنى عموما.

وليس معنى ذلك أن المشتغلين بالطب الذهنى الحالى وتوابعه (من الدجالين أو حسنى النية) ليس لديهم تصورات ضمنية أو صريحة ونظرية أو عملية عن معنى الصحة أوالسلامة ومعنى المرض أو الفساد فى الذهن : سواء من خلال التخليطات التى لقنت لهم فى سنوات التلمذة أو نتيجة التعليمات أو الاجتهادات الشخصية. لكن المقصود أنه **لاتوجد تحديدات علمية بالمعنى الدقيق، تكون من ثم جامعة مانعة منطقيا،** وقابلة للتحليل والتفسير العلمي أو للاستدلال واستنتاج النتائج. ولنتأمل فيما يلى بعض الأمثلة من التصورات الشائعة عن ذلك لدى المشتغلين بالطب الذهنى الحالى وتوابعه :-

(أ) – فى رأيهم أن الصحة الذهنية تعنى "التكيف" adaptation مع الآخرين أو مع الوسط المحيط، وأن المرض هو العكس. لكن هذا التصور لايصل طبعا إلى التمييز بين التكيف مع العقلانيين السلماء الذى يعتبر تكيفاً طبيعيا سليما، وبين التكيف مع الأغبياء والمخرفين والفاسدين ذهنيا ومهابيل الجنس وكرة القدم – مما يعتبر تكيفا لا عاقلا بل تكيفا فاسدا مريضا! وقد كان القدماء يضربون مثلا على ذلك، فيقولون – كما روى الجاحظ – إن خنافس الروث (رمز الكهنوت الفرعونى) إذا وضعت داخل وعاء مملوء بالورد تموت!

وباختصار، فهذا التصور لايميز بين التكيف العقلانى والأخلاقى الذى قد يدفع صاحبه إلى الوقوف "ضد" الآخرين فى قضايا معينة، وبين التكيف اللاعقلى شبه الحيوانى الذى يدفع صاحبه إلى الانخراط دائما فى القطيع. فلايوجد معيار هنا يتعلق بشئ يسمى العقلانية أو الفطرة السليمة أو الأخلاق، الخ – بدليل أن كاهن الطب اللاعقلى الحديث فرويد كان يكرر صراحة أن "الضمير" عقدة نفسية مرضية!!

(ب) – بعضهم قد يتعلق بتصورات الأغلبية والأقلية لتأسيس سفسطاتهم على قاعدة ديمقراطية! وبذلك يرون أن الصحة الذهنية تعنى مجاراة ماهو سائد ورفض الآراء الغريبة وعدم مخالفة الأغلبية أو اتخاذ أى مواقف أو أفكار غير عادية! وحتى إذا كانت الأغلبية (الاجماعية!) تقول إن الأرض مسطحة وليست كروية، أو إن الشمس هى التى تدور حول الأرض وليس العكس، أو إن الواقع يخضع لملكوت غيبى لاعقلى، فان مخالفتها تعبر عن مرض أو فساد ذهنى! ولأن رجل الفلسفة والمنطق والاصلاح البشرى جون ستيورات ميل Mill (١٨٠٦ – ١٨٧٣) كان يقول إن البشرية كلها لاتملك من حقوق الرأى أكثر مما يملك أى فرد واحد يخالفها فى الرأى، فقد اعتبر مجنونا يدافع عن حقوق الرأى للمجانين!!

(جـ) – فى تصور كهنة الطب الذهنى – على غرار كهنة العبادات اللاعقلية القديمة منذ عصر أبو الهول الفرعونى المعادى للكلام – أن الصحة الذهنية معناها قلة التفكير وقلة الانشغال بالهموم وقلة الكلام والتقفيل فى الذهن وفى اللسان على الموضوعات الصعبة، وأن المرض هو العكس. وهنا أيضا كالحال فى تصوراتهم الأخرى، **لايميزون بين الكلام المفيد والعقلانى وبين الثرثرة الفارغة أو البغبغة اللاعاقلة، أو بين الصواب والخطأ، أو بين التبصير والتنوير وبين التجهيل والسفسطة والتخريف، الخ!**

(ء) – فى تصورهم أيضا أن الصحة الذهنية معناها عدم الدخول فى مشاكل : سواء فى الحياة الشخصية أو فى العمل أو فى السياسة، الخ! وكالمعتاد، فانهم لايميزون فى ذلك بين المشاكل الاضطرارية أو الدفاعية والمشاكل التى يسعى إليها هواة المشاكل، أو بين المشاكل المفروضة ظلما وعدوانا والمشاكل الظالمة أو المصطنعة التى يفرضها صانعو المشاكل، الخ! وبذلك فانهم يتعامون – إن لم يكونوا عميانا بالفعل – عن وجود التحريكات والتدبيرات السرية للمشاكل، أو حتى وجود من يملكون إمكانيات صناعة المشاكل لتحقيق مصالح معينة، فى مقابل المستضعفين الذين يعتبرون ضحايا سهلة للمشاكل لسبب أو لآخر!

وفى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، يعتبرون مجرد الطلاق دليلا على الفشل الشخصى والميل إلى المشاكل – مع أنه قد يكون دليلا على الظلم ومحاولات التحطيم ضد شخص معين، إلى درجة حرمانه من الأسرة المستقرة والتقاط زوجته من بيته وتحويل حياته إلى جحيم!! وفى مستشفى المجانين – كما يعرف جيدا من عاشوا فيها – تستخدم صناعة المشاكل على المكشوف ضمن برامج "التشخيص الطبى" الذى يتغير بتغير الظروف! فاذ كان المطلوب مدّ فترة إيداع أحد النزلاء ومضاعفة "العلاج" أى التحطيم الطبى ضده، يتصرف التمورجية أو الممرضون (بأى وسائل مباشرة أو غير مباشرة) بحيث ينطلق ضده عديد من حثالات النزلاء المتسولين واللصوص والمشاغبين، فتزيد "خناقاته" التى تسجل فى دفتر الأحوال كمشاكل (بغض النظر عن المعتدى والمعتدى عليه أو الأسباب، الخ!). وهكذا يصبح من الناحية الاحصائية "كثير المشاكل" فيعتبر من الناحية الطبية فى حالة سيئة أو متدهورة أو فى نكسة!! فاذا كان المطلوب الافراج عنه أو إعفاءه من "العلاج" التحطيمى، يتصرف التمورجية أو الممرضون لتحذير النزلاء من أى احتكاك به أو اقتراب منه، فيصبح من الناحية الاحصائية "بدون مشاكل"، فيعتبر من الناحية الطبية "متحسنا" أى قريب الشفاء!!

● وفضلا عن قصور وتهافت التصورات المذكورة عن الصحة الذهنية والمرض، وزيادة ثغراتها التى تفقدها القيمة المنطقية، يجب ألا ننسى أن كهنة ودجالى الطب الذهنى وتوابعه يستخدمونها بطريقة تبريرية تعسفية، بل وأحيانا بطريقة تبادلية وفق المزاج والتساهيل والتعليمات! فالصمت مثل الكلام يمكن اعتباره "دليلا" على المرض – وفق "تقديرات" الطبيب وليس وفق الظروف والأوضاع المفروضة على الضحية! وأوضح مثال على هذا النوع من

التعسف، مثال أورده الكاتب المعروف توفيق الحكيم في نكرياته عن فترة عمله في قسم التحقيقات في وزارة المعارف / التعليم في الثلاثينات!

قال توفيق الحكيم إنه حدث مرة أن صدر الأمر بتحويل مدرس إلى مستشفى المجانين لفحص قواه العقلية، لأنه كان متمسكا بأن يلبس طربوشا أخضر بدلا من الطربوش الأحمر! وأصدر توفيق الحكيم قرار التحويل، الذي تضمن تكليف مدرس زميل له بأن يصحبه إلى المستشفى. وفي المستشفى، ترك الطبيب المدرس ذا الطربوش الأخضر واشتبك في مناقشة مع المدرس المكلف باصطحابه، استفزه فيها فرد عليه هذا، فأمر بإيداعه هو في مستشفى المجانين وإطلاق ذي الطربوش الأخضر!! لماذا حدث هذا؟! لأنه "ثبت" له أن ذا الطربوش الأحمر عدواني أو مشاغب من صانعي المشاكل، بينما ذو الطربوش الأخضر هادئ مسالم! لكن ماذا عن مخالفة الاجماع؟! قالوا إنه يتمسك باللون الأخضر لأنه لون العلم المصري!!

وخلاصة نقاط هذا الاعتراض إذن، هي أن أي بحث ميداني أو تجريبي لايقوم على أساس نظري واضح وعلى مبادئ وتعريفات محددة تحديدا علميا دقيقاً وجامعاً مانعاً من الناحية المنطقية، يكون بالضرورة غير محدد النتائج علمياً، لأن وقائعه تصبح قابلة للتفسير في أي اتجاه، بل وفي اتجاه مقلوب! وهذا واضح في أن نفس وقائع حركة المجموعة الشمسية، كان يستخدمها مثلا أرستارخوس اليوناني ثم كوبرنيكوس في عكس الاتجاه الذي ارتبط باسم بطليموس! وإذا أجريت مثلا بحثا ميدانيا أو استطلاعا عن الديمقراطية، فنتائجه تتوقف على تصورك وتعريفك للديمقراطية التي تبحث عنها. وقد قرأت حكاية من نكريات كاتب عاش في قرية المفكر العقلاني أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، تؤكد هذه الحقيقة بطريقة مأساوية مضحكة!

يقول إنه عندما رشح أحمد لطفي السيد نفسه في قريته، كان من هجمات وتشويهات أعدائه ضده، اتهامه بأنه يطالب بحق المرأة في الزواج من أربعة رجال بناء على مبدأ الديمقراطية والمساواة!! وحاولت مجموعة من أهل القرية أن تتأكد من صحة هذا الاتهام من خلال "التجربة المباشرة"، فذهبوا إليه وسألوه سؤالا واحداً فقط، هو: "هل أنت ديمقراطي حقا؟!". فأجابهم في سعادة: "أي نعم، ولافخر!". فاكتفوا بهذا الرد الحاسم القاطع الذي يثبت أنه من دعاة زواج المرأة بأربعة رجال، وفق معنى الديمقراطية والمساواة عندهم!!

● **الاعتراض الثالث :**

هو الاعتراض المنهجي الأصولي على أبحاث الطب الذهني المعاصر وفروعه، بسبب إختفاء أو سرية الكثير من العناصر الفعالة التي تحدد الظواهر والوقائع الذهنية. ومعنى ذلك أن أبحاثه ليست فقط معلقة في الهواء بدون أساس نظري وبدون مبادئ وتعريفات منطقية دقيقة، لكنها أيضا تحاول تحليل وتعليل وقائع لاتعرف أو لاتعترف بأهم وأخطر العوامل أو العلل المسببة لها!! والحقيقة أن هذا النقص أو القصور الخطير، يقوّض أيضا - كما سأذكر - أرضية العلوم الاجتماعية والتاريخية، ويفسر أيضا أحد أسباب تخلفها وتضارب اتجاهاتها واختلاط نتائجها.

وهذه المشكلة المنهجية الفلسفية في أصول الأبحاث المأخوذ بها في تلك العلوم، يمكن تشبيهها باختصار بمحاولة تعليل حركات وتصرفات عرائس الأراجوز مثلا على المسرح، بدو ن معرفة - أو بدون الاعتراف بـ - وجود الخيوط اللامرئية التي تحرك هذه العرائس والأصابع التي تتحكم في هذه الخيوط.

هذا هو بالضبط وضع الباحث الذي يبحث في الوقائع أو الظواهر الذهنية، بدون أن يعرف أو يتنبه أصلا أو يعترف بـ وجود مراكز وشبكات سرية متخصصة في التأثير أوالتحكم الذهني السري منذ الطفولة، وأنها تستخدم وسائل سرية شديدة الفعالية أوذات قدرات حاسمة. وتشمل هذه، مختلف الوسائل الطبية والكيميائية والبيولوجية. لكن أهمها هي المؤثرات الاشعاعية للتحكم أو التأثير والفعل من البعد، من مواقع تكنولوجية دولية أو محلية في الأرض أو في الفضاء (وكانت توجد أنماط بدائية منها منذ عصور الفراعنة في صناديق / سحّارات/ توابيت حجرية أو معدنية ذات فتحات قابلة للتوجيه). ويمثل هذه الوسائل، يمكن تنفيذ وتثبيت أو تدعيم أدق أنواع التربيطات الذهنية والفسيولوجية اللاشعورية واللاإرادية والقهرية منذ الطفولة، كما يمكن إحداث أي أعراض سلوكية أو إدراكية أو عضوية، وصناعة وتثبيت العادات، الخ.

وبالنسبة للعمليات الفجائية الواضحة التي تنتج عن مؤثرات التحكم الاشعاعي، نلاحظ أنه حتى البلطجية والتمورجية أو المرضين القدامى المتمرسين في مستشفيات المجانين

وماشابهها من مرافق عقابية، يعرفونها وينتظرونها أحيانا - رغم أنهم لايفهمون أسبابها ولايستطيعون تفسيرها طبعا، ثم لايفهمون مدى قدراتها فى الحالات العادية وغير الفجائية، أى "بدون تجلّيات"!! (وكان بعض تمورجية العباسية يسمونها "الحُنْجُل والبُنْجُل". وبعضهم يعتبرونها قوة غيبية، لكنهم يربطونها بقدرات الحكومة والجيش! لكن بعضهم يسمونها "التكنولوجيا"، ويدركون أنها ترتبط فوق ذلك أيضا بقدرات أجنبية كبرى). ومع ذلك، فان معظم - إن لم يكن كل - الأساتذة والباحثين حسنى النية فى الطب الذهنى المعاصر وفروعه، لايخطر على خيالهم أىّ تصور عن دور ذلك العالم التكنولوجى غير المرئى فى المجالات الذهنية منذ الطفولة! وحتى من يؤمنون منهم بتدخل تأثيرات الغيب أو الألوهية فى مثل تلك الأمور، لايستطيعون طبعا أن يدخلوا ذلك فى حسابات البحث الأكاديمى أو أن يخضعوه للرصد والتجريب.

فكيف يمكن الوصول إذن إلى أسرار الذهن البشرى، إذا كانت العوامل المؤثرة والمتحكمة فيه غير خاضعة للحصر العلمى الدقيق والرصد الشامل - لأن بعضها مجهول تماما؟! إن هذا يشبه محاولة تجميع وقياس كمية من المياه فى قربة مثقوبة أوفى وعاء بدون قاع!
والحقيقة أن العجز عن رصد وتحليل العلل والمعلولات فى مثل هذه الظواهر، ومن ثم العجز عن تحديد جانبى المعادلة التى تفسر التساوى السببى الحتمى بينهما، هو شكل سلبى حديث للعجز الذى كان يدفع بعض القدماء إلى إرجاع تلك الظواهر إلى نزوات الجن والعفاريت، أو ضربات الآلهة والشياطين!

ومن ناحية أخرى، فالأطراف السرية فى معادلة التساوى الحتمى بين العلل والمعلولات فى الظواهر والوقائع الذهنية، لاتقتصر على "الوسائل" المجهولة (مثل المؤثرات الاشعاعية وأيضا المؤثرات الكيميائية أوالبيولوجية السرية وماإلى ذلك)، لكنها تشمل أيضا وأساسا عالم التشكيلات والشبكات السرية، أى عالم "النشاطات" السرية البشرية عموما! فهناك الأجهزة والشبكات التى تقوم بتجميع وتسجيل وأرشفة واستخدام أسرار وخصوصيات الحياة الشخصية لمختلف الأفراد وآبائهم قبل وبعد مولد كل فرد، وتصنع وتوجه وتوزع مختلف مصادر ووسائل التأثير "الشخصى"، بحيث تستخدم أسرار وخصوصيات الحياة الشخصية

للبشر (بما فى ذلك تلك المترسبة فى اللاشعور منذ الطفولة والتى لايسترجعها الشخص نفسه!)، ومعها التربيطات والتأثيرات النمطية العامة أو الجماعية، فتحولها إلى "شفرة" تربيطات وتأثيرات ذهنية، تؤدى دور التهديد أو الأثارة الانفعالية أو التخليطات أو الاستفزاز والتفجير العصبى، الخ. وبهذه الطريقة، تمارس أجهزة وشبكات التحكم السرى وعملاؤها وأدواتها النشاطات والتأثيرات الذهنية المطلوبة مع أى شخص بالوسائل المتاحة، بينما تضاف إلى ذلك غالبا التدعيمات الحاسمة من مراكز التحكم التكنولوجى الاشعاعى.

والحقيقة أنه – من حيث النتائج والتأثيرات الذهنية والادراكية والاعتقادية – فان نشاطات هذه الأجهزة والشبكات العسكرية والبوليسية الحديثة، لاتكاد تختلف نتائجها عن نتائج نشاطات القردة البشريين التحت أرضيين الذين كانوا يقهرون أذهان البشر فى العصور القديمة والوسطى. وكانت أسراب هؤلاء تُصنع وتروَّض فى أوكار أو مرابط متخصصة ومبرمجة على الطريقة الفرعونية القديمة، ثم يوزعون على السراديب والمنشآت الماسونية / التحت أرضية وعلى كهوف ومغارات الجبال، فيمارسون انطلاقا منها أفعالهم ونشاطاتهم أو جرائمهم وحوادثهم السرية التى تدبرها وتحركها الأجهزة والمراكز الكهنوتية. **فكيف يمكن تفسير الظواهر اللاعقلية الفردية والاجتماعية للعصور القديمة والوسطى، أو الظواهر اللاعقلية الفردية والاجتماعية للعصر الحديث، بدون الاعتراف بوسائل ونشاطات هؤلاء وأولئك؟!**

إن المقدسات الدينية لاتمنع البحث فى وسائل نشاطات تلك الأسراب السرية التحت أرضية القديمة – ناهيك عن خلفائهم من قردة الشبكات السرية الحديثة. فهؤلاء مثل أولئك لايتصفون بالصفات "الروحانية" التى تبرر اعتبارهم كائنات مقدسة. صحيح أن بعض رجال الدين فى العصور الوسطى كانوا يطلقون اسم الجن على أى كائن سرى، سواء كان جنًّا حقيقيا أو شخصا يتقمص الجنونية! لكن هذا موقف لايلزم الباحث العقلانى. وحتى إذا وجد إلزام، فانه يقتصر فقط على الملابسات الدينية القديمة.

وعلى كل حال، كان كثير من الضحايا يذهبون مثلا إلى الأمام الشافعى فى مصر ليشتكوا ويحكوا له عن وقائع ماتعرضوا له من هؤلاء، فكان يرفض الاستماع إليهم قائلا: "من قال رأيت الجن بطلت شهادته"! ولم يكن يقصد بذلك طبعا كما ادعى الدجال الاسلامى عبد

الرحمن الشرقاوى إنكار وجود الجن، لكنه كان يقصد ضرورة الايمان بوجود الجن، مع حظر الحكاية عنهم أو عما يفعلونه - على غرار "الأسرار" الغنوصية التى كان يُقتل من يفشيها. وهذا ثابت أيضا فيما رواه البخارى عن أبى هريرة، بأن ثمة أحاديث سرية حفظها عن النبى الذى حرّم عليه إذاعتها وإلا "قُطع هذا البلعوم"! (البخارى جزء أول ص ٣٤ - ٣٥). لكن بديهى أن هذا لاينطبق أيضا على النشاط السرى العسكرى والبوليسى فى العصر الحاضر.

إن هذه المسائل - كما قلت - ذات أهمية وخطورة كبيرة فى مجال البحث التاريخى وفى مجال العلوم الاجتماعية (وخصوصا السياسية)، وليس فقط فى مجال العلوم الذهنية. فاذا كان البحث فى الوقائع الذهنية بدون حساب الخيوط والأصابع السرية المذكورة يخفى ويطمس حقائق وميكانيزمات الذهن ويحولّها إلى أسرار غير مفهومة، فان نفس الشئ ينطبق على وقائع تطور التاريخ وتطور المجتمعات وأسباب صعودها وتدهورها وانهيارها. وهذا واضح بشكل خاص فى توقيتات وتربيطات انتشار الأوبئة والكوارث الفجائية، وحدوث الهزائم والانتصارات غير المتوقعة، ومايسمى "مصادفات" التاريخ، الخ. كما أن هذا واضح فى العصر الحديث فى تعدد "المصادفات" و"التقلبات" السياسية غير المفهومة، وفى تخريفات مايسمى الأطباق الطائرة، ومايسمى مثلث برمودة، ومايسمى الباراسيكولوجيا (الذى يقولون إنه "علم يختص بظواهر المعجزات الذهنية المزعومة)، الخ.

● **الاعتراض الرابع :**

هو الاعتراض المنهجى الذى نأخذه على طريقة الابتسار أو التحديد المحصور المبتور غير المتكامل فى البحث العلمى المعاصر للموضوعات الذهنية.

وهذه المشكلة المنهجية لاتقتصر على طريقة التفتيت والتقطيع والتجزئ الناقص فى تناول موضوعات البحث العلمى، كما يحدث فى كثير من الاتجاهات الخاطئة أو المغرضة المضللة فى مختلف العلوم، بل تشمل أيضا طريقة "الاقتصار" أو "الانحصار" السلبى الذى يتجنب التوضيح التكاملى، أى توضيح وحدة الصورة المتكاملة للحقيقة فى موضوع البحث.

والجانب الأول من هذا الاعتراض مفهوم، لأنه يشبه محاولة دراسة ظاهرة الحياة فى الخلية مثلا بالبحث فى مكوناتها وأجزائها، بدون استكمال ذلك بالبحث فى "تركيبية" تلك المكونات والأجزاء الموحّدة معا، وبالبحث عن النشاط الفيزيائى للمستويات التحت ذرية والتحت

مادية المكونة لظاهرة الحياة. وهذا يشبه أيضا دراسة صحة ومرض جزء من الجهاز الهضمى مثلا، بدون دراسة "التركيبة" الكلية للجهاز الهضمى، بل والتركيبة الكلية والتكامل العضوى للكائن الحى الذى يحتوى على ذلك الجهاز الهضمى. أما الجانب الثانى من الاعتراض، فيتعلق بالموقف السلبى إزاء "الفراغات" الأخرى التى لايحدد الباحث معالمها، أو إزاء الأخطاء والأوهام الشائعة والاستنتاجات المضللة التى لابد أن "تملأ" تلك الفراغات وتكمل الاكتشافات الجزئية المبتورة للباحث فى اتجاه خاطئ حتى ولو كانت اكتشافات صحيحة فى الأطار الجزئى. ولننظر فى بعض الأمثلة، لنبين أن العبط أو الاستعباط فى المواقف السلبية من هذا النوع، إنما يخدم التضليل والتخريف ومغالطات السفسطة التى تملأ بالضرورة "فراغات" البحث عن قصد أو عن غير قصد.

تقول النكتة السياسية المعروفة : قالوا للجمل : لماذا تهرب من البلد إذا كانوا يقبضون على الثعالب؟! فقال : وماذا أفعل حتى أصل إلى أن أثبت لهم أننى جمل ولست ثعلبا؟! فأنت حين تواجه اتجاها عاما إلى التلفيق والتعامى (أو وهمًا عاما أو خرافة عامة) فى موضوع الثعالب مثلا، يجب فى أقوالك عن الذئاب والضباع وماإلى ذلك من الحيوانات المشابهة (بل وعن الجمال أيضا إذا استدعى الأمر!) أن توضح الفروق والاختلافات بين هذه الأنواع، وأن تحذر من الانزلاق إلى الأوهام والأخطاء الشائعة بخصوص ذلك.

ومنذ العصور القديمة حتى اليوم، نجد أمثلة لاحصر لها عن ألاعيب الأجهزة والشبكات المتخصصة فى التخليط واللخبطة وإهدار منطق التفكير ومنطق التعبير اللغوى، باستغلال مثل هذه التشابهات والفراغات والالتباسات (= تداخل أو اشتراك المعانى)، وذلك بالاعتماد طبعا على الجهلة والأغبياء والدهماء. وهذا ماتشير إليه مثلا عبارة "تحويل الحبّة إلى قبة"! ذلك أن كلمة قُبة/ كُبة كانت تعنى فى اللغة القديمة أىّ شئ مكبّب، ومن ثم كانت تنطبق مثلا على حبة الحمص أو على القوباء (= الدمل الصغير) كما تنطبق على قبة البناء! وكذلك كلمة "عضة" كانت تنطبق على قرصة البعوضة (= با + عُضة!)، كما تنطبق على نهشة الأسد! وعندما كانت الكتابات العربية القديمة بدون تنقيط، كانت كلمة "نحلة" مثلا تكتب مثل كلمة "نخلة" بدون أى فرق! وبديهى أن العقلاء الفاهمين، كانوا يستطيعون التمييز بسهولة فى الموضوعات العادية بين مثل هذه الأطراف الملتبسة (أو "المشتركة الاسم" بتعبير أرسطو عن أسباب السفسطة).

لكن الدجالين الذين يحترفون لعبة الثلاث ورقات، كانوا يفرضون تلك المغالطات والسفسطات بقوة القهر والرعب، وليس فقط بوسائل الخداع والتدليس التى تعتمد على الجهلة والأغبياء والدهماء.

وفى بعض الكتابات المسمومة التى وصلت إلينا من العصور القديمة والوسطى، نجد مثلا كيف كان المخرّفون والسفسطائيون يمارسون الهجوم والهدم ضد الادراك الحسى وضد العقلانية بهذه الطريقة فى تحويل "الحبة إلى قبة"! كانوا يكررون الهجوم مثلا عن ظهور العصا بمظهر الانكسار إذا نظرنا إليها مغموسة فى الماء، ليزعموا أن هذا دليل على أن الحواس عاجزة وخادعة ـــــ بدلا من أن يفسروا ذلك تفسيرا موضوعيا ويستنتجوا منه أن العقل المنطقى هو حاكم ومرشد الحواس، وأنه هو الذى يستطيع أن يستخدم الحواس نفسها فى تفسير وتصحيح الادراكات الظاهرية التى من هذا النوع. وكانوا يكررون أمثلة أخرى عن أخطاء أو مغالطات الاستنتاج العقلى والاستدلال المنطقى، ليزعموا أنها دليل على عجز وخداع العقل ـــــ بدلا من أن يستنتجوا منها كيف تحدث عمليات تغليط العقل والمنطق، وكيف يمكن وضع القواعد والقوانين التى تضمن الصواب وتتجنب الخطأ أو المغالطة. ذلك أنهم كانوا ينتهون عادة من سفسطات إنكار صدق الادراك الحسى وصدق العقل والمنطق أو التشكيك فيهما، إلى الادعاء بضرورة الالتجاء إلى البديل اللاعقلى اللامنطقى (بل واللاحسّى!)، وهو الالهام الصوفى والتلقى الغيبى للحقائق المزعومة والايمان الأعمى بالخرافات!

وقد استخدم أبو حامد الغزالى الكثير من هذه السفسطات، قائلا إن الشك هو المدخل الضرورى لليقين الغيبى واللاعقلى. وإن تعجب لشئ، فاعجب لهؤلاء الدجالين الذين كتبوا فى بعض المجلات الاسلامية الحديثة، يزعمون أن هذه العبارة السفسطائية اللاهوتية القديمة التى اقتبسسها الغزالى فى كتابه "المنقذ من الضلال"، هى التى اقتبسها عنه ديكارت فى العصر الحديث بتأكيده على أن الشك ضرورى لليقين ولاثبات الوجود!! ودليلهم على ذلك، هو أنه عثر أخيرا على ملاحظة بخط يد ديكارت تشير إلى "الاستفادة" من عبارة الغزالى هذه فى حيثيات منهجه!! ومن المعروف طبعا لكل ذى عينين، أن الغزالى لاهوتى صوفى لاعقلى، بينما ديكارت هو أبو العقلانية الحديثة، ومن ثم فلا يمكن أن يأخذ أحدهما عن الآخر إلا فى الاتجاه المضاد!

لكن لم يُسمح طبعا لأحد من المعلقين بأن يشير أى إشارة إلى هذه الحقيقة الواضحة!

● **إن الغزالى وأمثاله يجعلون "الشك" هدماً للعقل والمنطق والعقلانية، وطريقا إلى "اليقين" اللاعقلى الغيبى والصوفى، و"منقذا من ضلال" العقلانية ـــــ بينما ديكارت وأمثاله يجعلون "الشك المنهجى" أو "الشك الفلسفى" طريقا إلى "اليقين" العقلانى المنطقى و"منقذا" من احتمالات الخطأ أو التحيزات والأفكار الموروثة أو المفروضة اجتماعيا، وهدماً وتفنيداً للتشكيك الانكارى اللاعقلى السفسطائى الذى يحاول أن يسلب الذهن حتى ثقته فى الوجود!! فمن الذى عميت عيناه بحيث لايدرك أن هذين موقفان متنافيان على طرفى نقيض؟!**

والخلط بين الشك اللاعقلى السفسطائى الصوفى والشك المنهجى العقلانى، لايذكرنا فقط بسفسطات الطب الذهنى الذى يعتبر "أىّ كلام" مريض مثل "أىّ كلام" سليم، و"أىّ انفراد" مريض أو "اختلاف" أحمق فى الرأى مثل أى انفراد عقلانى أخلاقى أو اختلاف فى الرأى الموضوعى، لكنه ينبهنا أيضا إلى أن هؤلاء الدجالين يركزون على الاستخدام السفسطائى لموضوع "الشك" كتهمة عقلية!! فاذا كان الغزالى وأمثاله يقولون : **أنا أشك، إذن فعقلى عاجز، واليقين هو الالهام اللاعقلى الصوفى** ـــــ بينما ديكارت وأمثاله يقولون : **أنا أشك، إذن أنا موجود وقادر على التفكير، واليقين هو ثمرة الرد على الشك** ـــــ يقول كهنة الدجل الطبى الذهنى: أنا أشك، إذن فأنا مجنون!! والحل الطبى هو – كما فعل أوديب خضوعاً للآلهة فى مسرحية سوفوكليس – أن يفقأ الشاك عينىْ عقله! ومعنى ذلك أن ينتقل بالصدمات الكهربائية وعقاقير منع التفكير إلى ملكوت التبلد واللاإحساس!

وقد ناقشت طبيبا من كهنة السفسطة الذهنية عن المقاييس والمعايير التى يحددون بها طبيا "كثرة" الكلام بالنسبة لكل موضوع أو مناسبة – حتى إذا افترضنا أن كل "كلام كثير" يعتبر بغبغة مرضية! فقال لى إن مثل هذه المناقشة تعتبر من أمثلة كثرة الكلام!! (وهذه ليست نكتة، بل إن بعض الصحف نشرت أخيرا تأكيداً للدجال الذهنى المشهور عكاشة بأن الاتجاه إلى الفلسفة وعلم النفس النظرى(!!) يعتبر من أنواع الهروب المرضى من "الواقع" إلى "الكلام"!!). وسألت دجالا آخر منهم عن الفرق بين أخطاء الادراك وأمراض الادراك، فقال لى

بغباء غريب - يعبر عن انعدام الادراك المنطقى - إن أى خطأ فى الادراك يعبر عن مرض !!
وسألت آخر عن المقاييس والمعايير التى يميزون بها بين الشك المرضى، والشك المنهجى أو الفلسفى أو الشك البوليسى والشك السياسى لدى الحركات السرية المعرضة للاختراق، أو أيضا الشك الجنسى بدافع الغيرة والحب، الخ. فضحك لهذا كثيرا!!

أما الجواب الصحيح للتمييز بين النوع المريض والنوع السليم من كل هذه "الأسماء" الجوفاء عندهم، فهو الفرق بين انعدام المنطق أو أنعدام مبررات الصواب، وبين توفر المنطق والصواب أو الأسباب والمبررات المقنعة منطقيا. ونفس الفرق هو الذى يميز أيضا بين "الخوف" أو "القلق" السليم، و"الخوف" أو "القلق" المريض. لكن هذا التحديد العقلانى يعنى التمييز الفلسفى المنطقى بين العقل واللاعقل ــــ وهذا تمييز لايفهمه ولايعترف به كهنة السفسطة الطبية والجهالة الذهنية!

صحيح أن كهنة الطب الذهنى يستخدمون بالضرورة تقديرات شخصية، أو تعليمات سرية، يميزون بها بين مايعتبرونه "كلاماً كثيرا" مريضا أو "خطأ إدراكيا" مريضا أو "شكا" مريضا، وبين مالايعتبرونه كذلك، لأنهم لوطبقوا تلك الأسماء الواسعة على الجميع لاعتبروا كل الناس مرضى! وهذا واضح فى المثال الذى ذكرته عما رواه توفيق الحكيم عن صاحب الطربوش الأخضر وصاحب الطربوش الأحمر. لكن كل من يعرف قواعد منطق العلوم وأصول العلم والمنهجية العلمية، يفهم أنه **لايوجد علم حقيقى يترك فى تحديداته وتوصيفاته ثغرات بهذا التعدد وبهذا الاتساع، تسمح للتقديرات الشخصية بأن تنقلب من النقيض إلى النقيض، أو أن تخلط بين الأحمر والأخضر!!**

● (ويمكن أن أضيف هنا خبرا حدث فى السنوات الأخيرة، حيث سأل أحد وكلاء النيابة الأذكياء ناهيد غالب المديرة السابقة للعباسية - بخصوص ماذكره تقرير المستشفى عن أحد المجرمين إنذاك - عما إذا كانت توجد مقاييس مادية أو معملية لتمييز الاصابة أو عدم الاصابة بالمرض العقلى الذى يعتبر من الناحية القانونية "عاهة" تسقط الادراك والمسئولية، فقالت له إن تشخيص المرض العقلى الذى يسقط الأهلية يكون بالتقدير الشخصى للطبيب بناء

على ملاحظاته وأسئلته. وللأسف أن وكيل النيابة لم يكن أكثر ذكاء بحيث يسألها عن مقاييس ومعايير تلك الملاحظات والأسئلة! ففي العقود السابقة، كانوا يعتبرون من هذه المعايير مثلا : العرى أو الصراخ بدون سبب أو التكسير والعدوان بدون مبرر أو التمرغ فى الوساخات، أو عدم إدراك الفرق بين أيام الأسبوع أو بين الاتجاهات المكانية الأربعة، الخ : وهذه تعبر **فعلا عن الفرق بين العقل واللاعقل، وليس عن "التقديرات" السفسطائية التى تستخدم كلمات جوفاء مثل "عدم الاتزان" أو "كثرة الكلام" أو "أخطاء" الادراك أو "الشك" فى الآخرين للتعبير عن أمراض عقلية تسقط الأهلية والمسئولية!!).**

وعلى كل حال، فالمقصود هو التأكيد على أن زيادة واتساع الثغرات والالتباسات والكلمات "المشتركة" القابلة للتأويل من مستوى الحبة إلى مستوى القبة أو من مستوى المغص والاسهال إلى مستوى الكوليرا، أو ربما فى اتجاهات متناقضة أصلا، هو من التقاليد السفسطائية للطب الذهنى المعاصر التى ورثها عن تقاليد «الأسرار» و«المثانى» و«المتشابهات» و«المعميات» الكهنوتية القديمة القابلة للتأويل فى نبوءات الكهنة ورموز الأحلام، الخ. ومثل هذه التقاليد لاتتنافى فقط مع تقاليد منطق العلوم والمنهجية العلمية، لكنها أيضا وأساسا تعبر عن استهداف واعى لتقديم الثغرات ومبررات التلاعب للدجالين سيئى النية، أو على الأقل زرع المنزلقات ومنحدرات التوريط والتغليط للأطباء السذج محدودى الذكاء ومنخفضى الثقافة ليرتكبوا الجرائم الطبية بحسن نية!

إن تعمد المراكز اللاعقلية العليا التى تضم كهنة الطب الذهنى الحالى فى مثل هذا الموقف غير العلمى، يشبه تماما موقف المتحدثين الاعلاميين الذين يعلنون مثلا باسم بعض الأوساط العلمية عن اكتشاف مواد "عضوية" فى أحد الكواكب تعتبر من المواد "التى تدخل فى تكوين الحياة"! (ويكون المقصود بذلك على الأكثر اكتشاف بعض مركبات الكربون!!). وكما هو متوقع ومرسوم فى مخططات التجهيل والتخليط اللاعقلى، يلتقط أبواق المرافق الصحفية والاعلامية الأقل عقلا أو الأكثر عداء للعقلانية هذه الأخبار المبتسرة ويذيعونها تحت عناوين عن "وجود حياة فى الكواكب الأخرى"! ثم يلتقط القراء الأكثر جهالة هذه الأخبار، فلا يقتصرون على تخيل وجود حياة من المستويات السفلى على تلك الكواكب، بل يقفزون من ذلك إلى احتمال

وجود حياة شبه بشرية! وهذا يؤدى طبعا إلى التعلق باحتمالات أو قصص زوار الكواكب الأخرى! (التى كتب عنها كثيرا بوق الدجل الفلسفى أنيس منصور - نقلا عن "أساتذة" أمريكيين!!)، كما يؤدى إلى مايرتبط بذلك منذ العصور القديمة والوسطى من خرافات روحانية أو خزعبلات تمويهية لتغطية أصول ومصادر القدرات المتفوقة والضربات الساحقة التى حدث بعضها وبقيت آثاره منذ آلاف السنين! (من ذلك مثلا مايروى عن اختفاء حضارة أطلنطا : أطلا / ميناء سكندار الذى نسب موقعه تضليليا فى العصور التالية إلى أطلس الجزائر أو إلى إيطاليا، ثم إلى المحيط الأطلنطى، وجزيرة أطلنطا القديمة أى أمريكا قبل إعلان كشفها!!).

وفى الأسفار القديمة (وخصوصا فى سفر "اللاويين Leviticus فى العهد القديم) نجد مثالا نمطيا آخر من هذا النوع. فقد كان الكهنة يستخدمون مرض **البَرَص Lepre / lep-rosy**[1] المصنوع بالوسائل الميكروبية أو الاشعاعية، فى ضرب أى شخص مستتير أو مغضوب عليه (حتى لو كان ملكا أو وزيراً أو قائد جيش)، ومن ثم يرغمون الناس على هدم بيته وإعدام كل ممتلكاته ومتعلقاته، بعد إعدامه هو وأسرته أو إلقائهم إلى الموت فى الصحراء، فى زفّة / موكب يرددون فيه صيحة الكاهن :"نجس! نجس!". ثم إن هذه اللعنة لم تكن تفرض الرعب المطلق على الجميع فقط من واقع أنها مجهولة الأسباب والمصادر، وأنها يمكن أن تسقط فجأة على أى شخص يغضب عليه الله أو كهنة الله لسبب أو لآخر "فى علم الغيب"، لكنها كانت تفرض رعبها المطلق أيضا من واقع عدم تحديد مواصفاتها أو أعراضها بدقة!! **فأى قرحة أو دمل أو بقعة فى الجلد، كانت تعتبر نوعا من البرص إذا قرر الكاهن ذلك!!** (أما إذا قرر العكس فان الدهماء فى الزفة أو الموكب يزفون صاحب القرحة صائحين وراء الكاهن لاعلان براءته! ولاحظ هنا كيف كان المرض - المصنوع غالبا - يعتبر دليل النجاسة أى الغضب الالهى الذى يستحقه الكافر أو المجرم[2]، بينما انعدام المرض

(١) واضح أن أصل الكلمة العربية وكلمة lepra اللاتينية، يرجع إلى نفس أصل لب/ libra (وباليونانية lipra) للتعبير عن العقل المغضوب عليه! انظر هنا ص ٢٢.

(٢) فى صحيح الأحاديث للبخارى أن النجاسة الحقيقية هى نجاسة الكفر وليست نجاسة الجنابة الجنسية! ويلاحظ أيضا أن نصوص القرآن تكرر أن كلمة "المجرم" أو "المجرمين" كانت تعنى الكافر والكفار وليس المجرمين بالمعنى العادى المستعمل قديما وحديثا.

كان يعتبر دليلا على البراءة / البرء من الغضب الإلهى!!). ومن ناحية أخرى، فان مايسمى لعنة أو "بلوى" البرص، قد لاتصيب جسم المغضوب عليه، لكنها قد تصيب فقط الرداء الذى يلبسه إصابةً تشبه نقر أو أكل / لحس العثّة، أو قد تصيب فقط جدران بيته بالتغييرات أو التقشيرات والبقع الغريبة!! (ويسمى الكتاب المقدس النوع الأول "بَرَص الملابس"، والنوع الثانى "بَرَص الحيطان"! – سفر اللاويين " إصحاح ١٣ و١٤). وهكذا يتسع الرعب بدون حدود!

ويمثل هذه التقاليد الكهنوتية التى تستخدم اتهامات مجهولة الأسباب وملتبسة الأعراض، يستطيع أى كاهن من كهنة الطب الذهنى المعاصر أن يعتبر الشك البوليسى السياسى أو الشك الفلسفى نوعا من المرض – ليس فقط مرضا نفسيا مما يسمى "الوسواس" مثلا (الذى كان المطرب عبد الوهاب أشهر المصابين به!)، بل أيضا مرضا عقليا يسقط الأهلية والمسئولية!!

● ● وأظن أن هذه الاعتراضات الرئيسية على نقص الأصول العلمية والمنهجية للطب الذهنى المعاصر وتوابعه، تكفى لتوضيح أسباب فشله وتخلفه، وتهافت أبحاثه ومحاولاته – رغم أنها بدأت كلها من **رصيد الاكتشافات الناجحة التى حققتها أبحاث علم النفس الفلسفى (النظرى والتجريبى) فى القرن التاسع عشر والعقود الأربعة الأولى من القرن العشرين.** ثم إن هذه الاعتراضات توضح أيضا وأساسا، أسباب سهولة استخدامه فى مخططات الاجرام الذهنى والتحطيم البوليسى والسياسى وفى تغطية أخطر أنواع الاهدار المعاصر للقانون وحقوق الانسان.

ثالثا - الفن الغجرى والفن الفكرى

يثير مقالك نقطة أخرى تستحق التعليق. فقد فوجئت بأنك فى إشارتك إلى الراقصة التى لطمت أحد الضباط، تسميها "فنانة"! وهذا يشبه الاسم الذى يطلق على راقصات الأفراح والهشتك بشتك، وهو "عالمة"! ولهذا لابد من التعليق هنا على موضوع الفن باعتباره مادة عيّنات البحث النفسانى الذى أجرته الباحثة الأمريكية التى كتبت عنها.

إن كلمة "الفن" لها ثلاثة معان متميزة :

١- **هناك الفن أو الفنون بالمعنى العام.** وهذه يمكن أن تشمل فنون الجنس والدعارة، وفنون السرقة والاجرام، وفنون الفساد والافساد، الخ. ويكون المقصود بالفن فى هذه الحالة فرع العمل أو الممارسة المتخصصة حتى فى مجال النشل. وأصل الكلمة فى العربية يعنى الفرع أو الغصن أو الطريقة. (وربما يكون هذا أصلها فى اليونانية أيضا arw).

٢- **فى مجال العلوم والمعارف أو الدراسات،** تستخدم كلمة الفن بمعنى العلم التطبيقى أو التطبيق العلمى المتخصص فى مقابل العلم النظرى. مثل فن الطب فى مقابل علم الفسيولوجيا مثلا، أو "الفنون التطبيقية" (الهندسية) فى مقابل الهندسة النظرية. كذلك استخدمت كلمة الفن أو الفنون فى العصور الوسطى، بمعنى الفنون الأدبية الخاصة أوالفنون الدراسية الفرعية التى تختلف عن العلوم وأيضا عن اللاهوت. وهذا واضح فى الاسم الانجليزى لكلية الآداب des Lettres / Faculty of Arts.

٣- يوجد أخيرا **المعنى الخاص المعروف لكلمة "الفن"**، وهو مهنة إنتاج الجميل فى مختلف المجالات. وهذا يعنى فى العصر الحاضر، إنتاج الجميل فى :"فنون الأدب"، و"الفنون التشكيلية" (الرسم والنحت، الخ)، وفيما يمكن تسميته "فنون الستارة" (ومنها الموسيقى)، وغير ذلك. لكن لأن اتجاه التدهور والافساد الذهنى العام واللغوى دفع كلمة "الجمال" إلى المعنى الجنسى، ودفع قطعان البقر والثيران الجنسية إلى مجالات الفنون، فقد مالت كلمة الفن والفنون إلى هذا المعنى أيضا، بحيث أصبحت كلمة "أرتيست" تعنى الراقصة أو العاهرة – أو أصبحت تعبر فى "أرقى" الحالات عن الممثل والممثلة!!

وإذا تأملنا تاريخ الصراع بين العقل واللاعقل فى عصور البشرية، نجد أن الفن فى المجالات المذكورة كان ينقسم منذ الألف الثالث قبل الميلاد إلي نوعين أو اتجاهين يختلفان جذريا، رغم أن انتصارات واكتساحات الاجرام اللاعقلى، مع هزائم وانحسارات وتدهورات العقلانية، أدت طبعا إلى تداخل النوعين وسيطرة النوع اللاعقلى أو ظهور مخلّطات مزدوجة لاتكاد تخدم العقل البشرى! هذان النوعان اللذان أصبح من الصعب التمييز بينهما حاليا، هما : **الفن الغجرى**، بمعنى الفن اللاعقلى الذى يستخدم الجنس والانفعالات شبه الحيوانية فى خدمة الافساد الذهنى والأخلاقى و اللغوى، الخ. و**الفن الفكرى**، بمعنى الفن العقلانى الذى يستهدف العقل والمنطق والأخلاق وتبصير وتنوير الانسان بالحكمة والخبرة والمعرفة. ولننظر فى كل نوع منهما.

١- الفن الغجرى :

كلمة "غجرى" أصلها فى العربى القديم "هَجَرى". وكلمة "هَجَر" لم تكن تعبر فقط عن الهجرة والرحيل، ولكن أيضا عن معانى أخرى واضحة جدا وهامة جدا تاريخيا، نجدها فى النصوص القديمة وفى قواميس العربية القديمة. منها مثلا : **الهجر بمعنى الهذيان (بما فى ذلك هذيان الحمى[1])،وبمعنى الربط والتقييد كما كان يربط العبيد الذين أطلق عليهم فى بعض اللغات الأوروبية رُبوطا (ومنها "لاتهجروهن فى المضاجع" أى لا تربطوهن أو تحبسوهن بتفسير ابن مسعود)، وبمعنى الفحش والبذاءة (وهذا لايزال مرتبطا بمعنى الفجر والتفجير فى اللغة المصرية)**. وواضح أن هذه المعانى لاتجتمع معا لكلمة واحدة، إلا للتعبير عن سمات تاريخية معينة شاعت واستمرت فترة كافية بحيث دخلت تاريخ اللغة. هذه هى سمات قطعان المهجَّرين أو المهاجرين (المصريين ثم المصنوعين على النمط المصرى) الذين كانوا من الحثالات شبه الحيوانية المتعودين على الفحش والبذاءة والجنس والاجرام والخطف والاغتصاب والسرقة، الخ، مع الاشتغال فى أعمال الحفر والبناء، وأيضا فى مهن الدعارة والرقص الجنسى والطرب الجنسى، الخ. وإذا كانت هذه المعانى باقية فى اسمهم العربى، فهى باقية أيضا فى تاريخهم المعروف فى العالم خصوصا فى أوروبا، كما أن أصلهم المصرى باق فى أسمائهم الأوروبية التى استمرت حتى بعد تكوين محطات ثم مخازن ومعامل بشرية لتكوين سلالات جديدة مخلطة منهم فى الهند وما حولها ثم فى شرق أوروبا. هذا الاسم اليونانى اللاتينى هو: gitano / gypsy / gyptius أى مصرى!!(واسمهم فى التركية Farawni/ فرعونى، وفى المجرية المحلية pharao nepe / شعب فرعون!!).

لهذا كله، وللتعبير عن الأصل اللاعقلى الذى يجمع بين الفساد الذهنى التخريفى والفساد الجنسى والشخصى والفساد الأخلاقى والفساد اللغوى، ومن ثم للتعبير عن هذا التاريخ القديم للافساد "الفنى"، اخترت صفة "غجرى" لوصف هذا الاتجاه النوعى فى الفن، والذى بقيت بعض رواسبه المكشوفة مرتبطة بالغجر فى أكثر من مكان من العالم منذ العصور الوسطى.

---

(١) انظر فى ذلك مثلا صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٢ - ٣٣، وجـ ٢ ص ١٧٨.

وفى اللغة العربية، نجد أن كلمة "مسرح" ترجع إلى معنى "المسارح" أى أراضى الفضاء على حدود المدن والقرى، التى كانت مخصصة للرعى (= لتسرح فيها المواشى). وكانت مثل هذه الأراضى، هى التى تنزل فيها القطعان المهاجرة أوالمتجولة من الغجر، لتمارس فيها الدعارة والطرب الجنسى ومحفوظات البغبغة التخريفية، وماإلى ذلك من المغريات أو "العروض الترفيهية"، لجذب الضحايا خارج أسوار المدن والقرى التى لم تكن تسمح لقطعان الغرباء بالدخول. وقد قرأت تعليقات تجهيلية فارغة للملفق أنيس منصور عن أصل كلمة "المسرح"، تعجبت لها كثيرا، لأن المعنى العربى القديم المذكور موجود فى الأسفار الأولى للكتاب المقدس وفى مقدمة ابن خلدون وغيرها! وعلى كل حال، فالأصل الأقدم لهذه الكلمة العربية هو "مسرا" - أى المهجر عموما أو مداخل ومخارج الفرار من وإلى "أسوار" المدن، الخ.

أما فى اللغات الأوروبية، فقد ارتبط اسم المسرح بالأصل الغجرى أو الهجرى أو الأسرائى/الاسرائيلى (أو الاتروسكى) للتخريف التعبيدى وتقديس الآلهة والرعب منها والسجود لها! فالأصل الصحيح لكلمة تياترو theatre مشتق من ثيوس باليونانية اللاتينية أى ربّ أو أرباب. (وهذا نفس أصل كلمة الربابة وشاعر الربابة الذى كان يكرر محفوظات شجرة وأمجاد الآلهة قبل أن ينتقل إلى الأولياء وأبطال المعجزات!). وقد وجدت المسرحيات الكهنوتية التى تعجن قصص الآلهة بالجنس والرعب والحزن والاثارات الانفعالية الأخرى فى مصر الفرعونية وفى البلدان التى قهرها الكهنوت الفرعونى (بعضها مسرحيات سرية وبعضها علنية)، كما وجدت "مسرحيات الأسرار" فى الكنيسة فى العصور الوسطى للأفساد الذهنى والجنسى بحجة التحذير من الفواحش القذرة التى لايفكر فيها الانسان العادى!!

أما عن كلمة "الشاعر"، فقد كان لها معنى آخر قديم، يعبر عن الجانب اللاعقلى الذى كان يُفرض عادة لتشويه وإفساد كل كلمة مفتاحية ذات معنى عقلى سليم. فالى جانب الشعر والشعور الذى يعبر عن الوعى المرهف أو الحساس، أصبح الشاعر يعنى أيضا "المشعور" أى المجنون أو المجنوب الذى يلتقط الايحاءات والتلقينات اللاشعورية أوالعبارات والمحفوظات التخريفية ويرددها ببغاويا (انظر مثلا التعبير القديم "شاعر مجنون" أو "شاعرمسحَّر"). فأصل ارتباط الشعراء بالشياطين ، هو التعبير عن أدوات التجنين الشعرى demoniacs الذين كان يصنعهم ويلقنهم زبانية الكهنة . وهذا يفسر الملاحظة التى قلتها فى مقالك عن

ازدواج المواقف أو التصورات الاجتماعية فى أوروبا إزاء الشعراء، وأيضا ملاحظتك عن اعتبار المجذوب محتقراً ومقدساً فى نفس الوقت فى تقاليد الشرق.

ففى الشعر، وجد فى التاريخ الأوروبى شعراء خدموا التاريخ الصحيح وفولكلوريات التاريخ الصحيح والحكمة (التى اضطرت حتى النصوص الدينية إلى اقتباس واستيعاب بعضها كما نجد فى سفر "الأمثال" فى "العهد القديم")، كما وجد شعراء التخريف والافساد والجنس والبكاء. ومن هنا كان الموقف المزدوج. وهذا واضح فى عمق وقدم العداء الأوروبى للغجر وللشرق est/ الشرج وسراكينو / إسراكينو، وللفرعونية التى نقل الكتاب المقدس بعض أسمائها القديمة قبل أن تطمسها التمويهات السياحية الحديثة! (وأوضحها اسم "الأفعى القديمة" أو "التنين"، و"رَهَب" و"تنين الحية القديمة شيطان الهاوية" الذى يخزن فى "بئر الهاوية" – أى فى "الجِبّ" – الجراد والحشرات والأوبئة، الخ)(١).

وحتى فى آسيا وأفريقيا، كانت (ولاتزال) كثير من الجماعات ذات التقاليد القديمة تحتقر الفنون التطريبية أو الترفيهية المعروفة والفنانين الذين يمارسونها، وتعتبرهم غجراً من طوائف الخدم والعبيد والأوباش.

أما عن الموقف المزدوج من المجانين أوالمجاذيب، فهو يرجع إلى تقاليد الرعب التى فرضها الكهنة لارغام الجميع على تقديس المجاذيب بعد استخدام الكثيرين منهم فى المواقع والأعمال المقدسة وفى النبوءات! وفى سفر صموئيل ثانى مثلا، تجد صورة واضحة لهذا الموقف المزدوج إزاء مايرويه النص عن حالة الدروشة والانجذاب التى أصابت الملك داود وهو ينقل تابوت / صندوق العهد، فأخذ "يقفز ويرقص"، ورأته بنت شاول" فاحتقرته فى قلبها" وقالت له إنه يفعل مثل "السفهاء"!(٢) (صموئيل ثانى ٦/١٤ –٢٢). فعوقبت على ذلك باللعنة الإلهية!

---

(١) أهم بقايا الفولكلوريات العقلانية القديمة بهذا الخصوص، نجدها فيما وصل إلينا عن الأساطير الاسكندناوية والجرمانية التى تتحدث عن "الأفعى الكونية"Midgardsorm، وكيف تنشر الدمار الشامل والطوفان الشامل كلما ظهرت دورة انبعاث جديدة فى أى مكان volva. وتسمى ذلك باسم Muspell أى شيطان أو سحر الخراب والدمار (= الخراب المخطط).

(٢) فى بعض النسخ السابقة من هذا السفر (مثلا النسخة الانجليزية التى استمرت حتى الخمسينات)، يشير النص مرتين فى واقعة داود هذه إلى حدوث التعرية! "uncovered himself"! لكن الترجمة الجديدة فى السبعينات أسقطت هذا المعنى!!

وفى أسفار تلك القرون، بيستخدمون فى ترجمات مختلف اللغات كلمة ecstasy أو الانجذاب أو لوثة الجنون بمعنى "التنبؤ"! فكيف لايكون المجنوب فى هذه الحالة محتقرا ومقدسا معا؟! حتى العاهرات والعواهر الشواذ الذين كانوا يضعونهم فى المعابد فى العصورالقديمة، كانوا يسمون كما يذكر الكتاب المقدس prostitués Sacrés, prostituées Sacrées/" المأبونون المقدسون والمومسات المقدسات"!!

ومما يعبر عن اختلاط هذه "الفنون" والصفات الغجرية جميعا، أن فنان الترفيه أو مهرج البلاط الذى كان يخصص لملك فرنسا، كان يسمى "مجنون البلاط"fou de cour.

٢- الفن الفكرى :

إذا كان من السهل أن نجد أمثلة نمطية قديمة (بل وحديثة) للفن الغجرى، فلا يوجد أى مثال نمطى نقى أو متكامل للفن الفكرى من العصور القديمة أو الوسيطة. ذلك أن مجازر وطوفانات ومخططات العداء للعقل والتنوير منذ خمسة آلاف عام، كانت تطارد وتستأصل الفكر العقلانى بشكل عام، والفكر العقلانى فى الفن بشكل خاص، لأنه أوسع انتشارا ورواجا وأقدر على الوصول إلى الناس العاديين وتبصيرهم والتأثير فيهم. لكن بطريقة البحث الفسيفسائى / الموزاييك، والتنقيب فى حفريات النصوص والتراثات والفولكلوريات القديمة، يمكن الوصول إلى تصورات واضحة عن هذه النوعية المندثرة من الفن!

ويساعدنا على هذا البحث والتنقيب أن النصوص والفولكلوريات الدينية القديمة نفسها كانت تضطر إلى استيعاب الأجزاء الأشد رواجاً وجاذبية من الفن الفكرى، ليس فقط لترويج بضاعتها اللاعقلية، ولكن أيضا **للخداع والتضليل واستخدام قليل من العسل أو الدسم فى تبليع السم**، فضلا عن تغيير وتحوير، أو حتى تخفيف معانيها العقلانية الحرة القديمة، بل وتعكيس بعضها! وهذا واضح بشكل خاص فى موقف النصوص القديمة (انظر مثلا أسفار التوراة وخصوصا سفر "الأمثال" و"الحكمة"، الخ) إزاء الأمثال والحكم الأقدم والعبارات أو التركيبات اللغوية الحكمية الأقدم. وعلى كل حال، فهذا ينبهنا إلى أن أقدم وأوضح أنماط الفن الفكرى القديم، هى الأمثال والحكم التى تجمع بين الجمال التعبيرى والتبلور اللغوى المكثّف وبين التبصير والارشاد والتعليم.

ومن ناحية أخرى، فالوظيفة التعبيرية التفكيرية الارشادية الواضحة فى الأمثال والحكم

القديمة، تبين لنا أن الحكايات أو القصص النثرية السجعية أو الشعرية والمنظومة فى الفن الفكرى القديم، وكذلك المسرحيات إن وجدت، كانت تستهدف أساسا أداء هذه الوظيفة. **فالفن الفكرى كان إذن جزءا من الحكمة العقلانية القديمة**. والدليل على ذلك، نجده فى بقايا القصص الحكمية التى وصلت إلينا فى فصول "خزائن الحكمة الخمس / الأسفار الخمس الهندية" و"كليلة ودمنة" و"حكايات إيزوب"، بما يروى فيها على لسان الحيوانات وغيرها. وإذا كانوا قد اضطروا إلى تحوير الكثير من الأساطير اليونانية القديمة ونسبتها إلي الآلهة الوثنية وتغطيتها بالخرافات، فان جوهرها الفكرى الحكمى واضح. وهذا هو الفرق النوعى الجذرى بين الأساطير الكهنوتية اللاعقلية (أو الجانب الكهنوتى اللاعقلى من الأساطير المخلوطة)، وبين الأساطير اليونانية (أو الجانب العقلانى والتبصيرى من الأساطير الأخرى).

● وفى الكثير من بقايا "المجوسية" أو "البوذية" فى آسيا قبل وبعد **جوتاما السكياموتى** (وقد أوضحت أن هذين الاسمين بل وأيضا اسم سكيا تعبر عن العلم والحكمة وليس فقط عن حكيم **سكيا** الذى ارتبطت به كلمة بودا)، نجد أن طريقة تشكيل الآثار ومطافات التأمل التى أصبحت تسمى باسم المعابد، كانت تستهدف أداء تلك الوظيفة الحكمية التبصيرية بأساليب جميلة توجيهية وكلمات إشعارية سهلة الاستيعاب والحفظ. (وقد بقى منها مطاف متأخر من القرن التاسع الميلادى اسمه معبد بوروبودور فى جاوه[1]).

والكثير من بقايا الفنون التشكيلية اليونانية والمتاحف (مطافات التأمل) أو المعابد التى من هذا النوع، وبعض آثار التماثيل الضخمة والأبراج القديمة التى قرأنا عنها (**وأشهرها تمثال هيليوس اليونانى رمز العقل الطبيعى** الذى دمر بوسائل التحكم السرى فى العصر القديم ثم صنع على غراره فى العصر الحديث **تمثال الحرية الفرنسى الأمريكى المعروف**)، كانت فى جوهرها أعمالا فنية تستهدف أداء هذه الوظيفة الفكرية التى تستخدم الجمال والامتاع الادراكى فى التبصير والتأثير العاطفى العميق.

لكن شمول انتصارات اللاعقل والاكتساح الكهنوتى التجهيلى طوال تلك الآلاف من

---

(١) لاحظ أن اسم java/ جاوه/ javan يافا، هو احد أسماء اليونان القديمة، ويترجم فى النصوص القديمة greece.

السنين، أدى إلى تصفية هذه الأنواع من الفن، أو أدى فى أحسن الأحوال إلى تخليط العقل باللاعقل والفن الفكرى بالفن الغجرى! فالرسم والنحت غرق فى الجنس، ثم انقلب إلى اتجاهات الشخبطة البدائية والطفولية و"التفريغ" من المعانى باسم التجريد! وهكذا القصص والأدب والمسرح – الذى أصبح نوعاً من اللاعقل الغجرى الاثارى مع قشور من الفكر أو العقل! وعلى غرار ذلك ظهرت الموسيقى المخلوطة التى تجمع بين الطرب الغجرى والرقص الجنسى والاثارة البدائية والطفولية، وبين الامتاع السمعى والامتاع الفنى أحيانا! وحتى فيما يسمى "فن" الرقص، ظهرت أنواع مخلوطة باسم **الباليه والأوبرا** وماإلى ذلك، تستخدم الموسيقى السيمفونية الراقية مع الحركات المسرحية الرومانتيكية القائمة على الخيال الجنسى والتبطين الجنسى وأحلام الجنس والغرام – بدون هز الأثداء والبطون والأرداف! فهذه إذن أنواع من الجنس "الراقى" أى الأرستقراطى، وليست أنواعا من الفن الفكرى فى موضوع الجنس!

وفى مقابل ذلك أو استكمالا لذلك، ظهر مطربون "تقدميون" يجمعون بين التهييج الشعبى الطبقى والتهييج الوطنى والتهييج الجنسى معا!! وأوضح هؤلاء مطرب العشرينات والثلاثينات (المبدع موسيقيا للأسف!) سيد درويش، الذى يسمى "فنان الشعب"!! وهو صاحب الأغانى الوطنية الطبقية الجنسية المعروفة – التى اضطروا منذ الستينات إلى حذف أو تغيير بعض عباراتها وصورها الجنسية المكشوفة حتى يمكن الاستمرار فى إذاعتها!!

وحتى أعمال **الفولكلور**، انتقلت من اتجاهات البحث والدراسة التاريخية والعلمية العقلانية فى أصول ورواسب التاريخ واللغات القديمة والتصورات والعادات الذهنية والدينية غير المسجلة رسميا، إلى اتجاهات الرقص والطرب الجنسى أيضا، بحيث أصبحت الكلمة تعنى الآن تقريبا: "**الرقص الشعبى**"!!

وهكذا نجد أن الاختلاف النوعى الجذرى القديم بين العقل واللاعقل فى الفن، كاد يختفى أو يختلط تماما لصالح اللاعقل! وهذا يبين من ناحية أخرى، أن مادة البحث العلمى التى تناولتها الباحثة الأمريكية التى كتبت عنها تعتبر أصلا مادة مختلطة وشائكة، تحتاج إلى دراسات وتصنيفات فلسفية ومنهجية قبل إجراء البحث عليها. وبدون ذلك، لايمكن تحديد نوعية الفنانين الذين يجرى عليهم الاختبار، ونوعية الاستنتاجات الخاصة بالفن والفنانين!

ونقف هنا مرة أخرى لتوضيح الفرق بين الأرضية الذهنية للفن الفكرى والأرضية الذهنية للفن الغجرى.

رابعا - الوجدان العقلى والهوى اللاعقلى
rational feeling and irrational passion

هذا الخلط أو المغالطة أو التغليط بين الفكر واللافكر أو العقل واللاعقل فى مجال الفن، إلى درجة اعتبار الراقصة والمطرب الجنسى أو الممثلة الجنسية فنانين مثل مفكرى الأدب والفن التشكيلى المعبر، يرتبط بتخليط أو تغليط أو مغالطة تمتد أيضا إلى مجال الفلسفة. ذلك أنهم بدلا من التقسيم الفلسفى القديم المذكور، اخترعوا تقسيمات جديدة تتهرب من أوتتجنب ثنائية العقل واللاعقل، أو الفكر واللافكر أوالمنطق واللامنطق. من ذلك مثلا مايسمى "العقل والقلب" أو "العلم والايمان"، الخ!

وأقدم نصوص وصلت إلينا عن هذه الثنائية السفسطائية، هى الأسفار المنسوبة إلى الملك سليمان للتمييز بين "الحكمة" و"العلم" اللذين "فى كثرتها كثرة الغم والحزن"، وبين "القلب" الذى جعله الرب للفرح بالمرأة والفرح بالطعام واللذات الأخرى، مع الايمان بالرب وتقوى الرب! وهذه التقسيمة أخبث كثيرا من نظرية "الحقيقتين" التى اضطر إلى القول بها بعض المفكرين فى العصور الوسطى لتبرير حق العقل فى البحث بدون الاقتصار على تعاليم الوحى! وعندما ظهر فى القرن الثامن عشر السفسطائى الانجليزى نصف الدينى ونصف المتعلم دافيد هيوم (الذى كان من أخبث حلقات الاتصال بين الأجهزة البريطانية وأجهزة الكنيسة الفرنسية والبابوية ضد العقلانية الفرنسية، وفى عمليات تفجير الثورة الدهمائية الفرنسية لاجهاض ثورة الفلاسفة الفرنسيين)، استرجع الثنائية التمويهية المذكورة - لكن بعد تدعيمها بالتشكيكات السفسطائية القديمة ضد العقل وضد العلم والحتمية والموضوعية. والنتيجة أنه استخدم ثنائية العقل والايمان فى اتجاه يسلب العقل سلطته المنطقية وقدرته على الحكم اليقينى، ويعطى اللاعقل القلبى أو النفسى السلطة الأعلى للحكم والتصديق!!

وانتقلت هذه الثنائية السفسطائية الخبيثة التى تدعم اللاعقل وتتظاهر بعدم رفض العقل إلى ألمانيا المتخلّفة فلسفيا إذذاك، فالتقطها كانط فى القرن الثامن عشر ثم بعده هيجل (رغم

اختلاف الأسماء التى استخدمها كل منهما). وعن طريق الألمان، انتشرت فى الفلسفة والفكر فى أوروبا، بل زادت وتضاعفت سمومها، خصوصا فى ظل الوضعية النمساوية الأمريكية فى القرن العشرين : التى التقطت اسم الوضعية العلمانية من فلاسفة وعلماء القرن التاسع عشر (خصوصا فى فرنسا أيضا!!) وجعلتها عنوانا للسفسطات القديمة المذكورة التى جدّدها عدو العقلانية المنافق هيوم! وفى مصر، كرر بوق السفسطات "الفلسفية" المعادية للفلسفة زكى نجيب محمود هذه التخليطات النمساوية الأمريكية باستخدام ثنائية هيوم عن "العقل والوجدان"!

● وعلى غرار أو على أساس هذا التقسيم السفسطائى القديم بين "العقل والقلب" – تحت مختلف الأسماء المتغيرة التى تعبر فى الحقيقة عن معنى العقل واللاعقل – جعلوا أيضا "الفن" مقابلا للفكر وليس فقط مقابلا للعلم كفرع خاص من فروع الفكر! ونتيجة انتشار هذه التقسيمة المغالطة، تبناها رائد الفسيولوجيا الذهنية وعلم النفس الفسيولوجى العالم الروسى إيفان ﭘافلوف (١٨٤٩ – ١٩٣٦). فقد قام بأبحاث واكتشافات هامة فى موضوع الأنماط الذهنية البشرية، من زاوية تقسيمها إلى نوعين رئيسيين هما :"النمط التفكيرى" thinking type، و"النمط الفنى" artistic type. وبديهى أن الخطأ والاختلال فى هذا التقسيم، أدى إلى أخطاء فى تصنيف وتفسير الوقائع، ومن ثم انتقص من ثمار هذه الانجازات العلمية التى تمت فى ظل الدولة السوفييتية الوليدة.

ذلك أنه إذا أخذنا "التفكير" بالمعنى العام الذى يعبر عنه "الفكر"، فليس من الصواب أن نتصور أن مجال الفن الحقيقى المعبر ثقافيا ومعرفيا (كالأدب والفنون التشكيلية التنويرية) هو مجال غير تفكيرى أو غير فكرى! كذلك ليس من الصواب أن نعتبر الفن هو فقط الرقص والطرب والأعمال غير الفكرية!! ولهذا نجد أن التقسيم الذى كان قد شاع فى الغرب وأخذ به باڤلوف، يخلط فى الحقيقة بين ثنائيتين هما :

(١) – ثنائية العقل واللاعقل أو الفكر واللافكر (بما فى ذلك تمايز الفن الفكرى عن الفن الغجرى كما أوضحت).

(٢) – ثنائية الفكر الاستدلالى أو فكر الحساب المنطقى، فى مقابل الفكر الانطباعى أو الوجدانى أى فكر الجشطلتات / التركيبات الكلية.

وأعتقد أن باقلوف كان يستشعر هذه الاستدراكات، لأن كلمة "التفكير" – كاسم فاعل – ربما تعبر بشكل خاص عن "عملية الاستدلال الفكرى" وليس عن أداء الفكر عموما.

ومن ناحية أخرى، فالتقسيمة المذكورة بين العقل والقلب أو الفكر والفن، استخدمت فى تبرير المغالطة التى تحاول إيهام الرأى العام بالطابع اللاعقلى لنزوات وتقلبات وجنون "القلب" و"الفن" و"الفنانين"! وبذلك تصبح الحكايات الخاصة بجنون وفوضوية الفنانين وعبثهم اللاعقلى، حكايات مبررة فلسفيا! **فما الجديد إذن فى أن تكتشف تلك الباحثة الأمريكية أن معظم الفنانين مجانين؟!**

● ثم إذا كان الفن يعتبر نوعا أو فرعا من الجنون، وإذا كان من المعروف للجميع أن كثيرين من مشاهير الفنانين مفكرين وعباقرة، فان هذه المغالطة يمكن أن تبرر أيضا الحكايات المغرضة عن جنون الفكر وجنون العبقرية! فما بالك إذن بالفلسفة التى هى أم الفكر؟! إنها تعتبر طبعا رأس الجنون وقمة الجنون، وليس فقط قمة الكفر الذى هو قمة الاجرام!

وقد أوضحت فى أوراق سابقة أن هذه المغالطة، لاتستهدف فقط التخليط والتشويه والتشهير، لكنها إذ تضع العربة أمام الحصان تستهدف أيضا تغطية وتبرير جرائم التحطيم الذهنى والشخصى التى ترتكب بشكل خاص ضد العباقرة والمفكرين والفلاسفة، وضد الفنانين الفكريين الذين هم أكثر تعاملا بل وهم المتعاملون بشكل مباشر مع أفكار ومعتقدات وأخلاقيات الناس العاديين. وربما يكون الفيلسوف بحكم طبيعة عمله صعب المراس شديد التدقيق. **أما المفكر الفنان الذى يُنتج أصلا منتجات غير محددة، فيمكن مع بعض التحطيم الذهنى والشخصى والتخليط الفلسفى أن يفرز للناس أعمالا فنية جميلة لكن مسمومة أخلاقيا وفكريا!**

والمهم أن الربط بين العبقرية والفكر أو الفن وبين الجنون، يعتبر نوعا من إهدار الدم المسبق ضد هؤلاء الصانعين للأفكار والاتجاهات والمثل العليا البشرية. **فاذا أصيب أحدهم بالتحطيم أو الانهيار الذهنى أوالشخصى، فالسبب جاهز معروف، وهو العبقرية أوالفكر والفن!** وهذا "سبب" فعلا : ليس بمعنى أن هذه الانهيارات تعتبر "إصابات عمل" كما يتصور غير المتعمقين فى الأمور، أى ليس بمعنى أنها "ناتجة" عن طبيعة العمل، لكن بمعنى أن العمل الفكرى والفنى العقلانى النابغ هو "الدافع" إلى ارتكاب جرائم

التحطيم والتجنين ضد المشتغلين به! فالسبب يفهم هنا بمعنى الدافع الذى يستهدف هدفا معينا، وليس بمعنى الواقع السابق الذى يتحول إلى واقع لاحق أى نتيجة!

ومعنى "الدافع" المذكور، هو الذى تعبر عنه أيضا العبارة المأثورة "حُرْفة الأدب" (بضم أو بكسر الحاء) بمعنى محنة احتراف الأدب أوالثقافة والفكر. وهذا ماتعبر عنه أيضا مأثورات الحكماء والشعراء منذ العصور القديمة، عن شقاء وبؤس أهل العقل والعلم والحكمة، ونعيم وسعادة أهل الغباء والجهل! فأنت حين تقول : من يفكر كثيرا يعانى ويشقى ويتحطم (إذا سُمح له بالحياة أصلا!)، إنما يكون معنى ذلك فى الحقيقة التحذير مما يتعرض له من يرتكب "جريمة" التفكير! هذا المعنى نجده واضحا جدا فى الأساطير اليونانية القديمة ذات الاتجاه التبصيرى (انظر مثلا مسرحية أوديب). وهذا المعنى واضح جدا فى كلمة الشاعر إيلوار:"إنهم يبحثون عن العيون التى تبصر فى الظلام لكى يفقأوها" [أو حتى يضعفوها ويعمشوها فقط!!]. وهذا ماتعبر عنه أيضا الأسطورة القديمة عن "بومة الفلسفة" التى تعنى فى الحقيقة أنه لايُسمح للفلسفة بالوصول إلى مواقع التنوير لانقاذ وإصلاح المجتمع، إلا عندما يكون قد انتهى عمره وبدأ انهياره، بحيث لاتملك بومة الفلسفة فى هذه الحالة إلا أن تنعق على أنقاضه!!

✪ خلاصة الملاحظات السابقة من وجهة النظر الفلسفية الصحيحة، هى : أولا، أن الفن كما يجب أن يكون يعتبر نوعا من الفكر ونوعا من المعرفة (أو الوسائل الجميلة التى يمكن أن تخدم المعرفة)، ومن ثم يعتبر إنتاجا عقلانيا وليس إنتاجا لاعقليا. وثانيا، أن نقيض العقل أو الفكر والمعرفة، هو اللاعقل والهوى والنزوة، وليس الوجدان : إذا أخذناه بمعنى الاستشعار الفكرى و العقلانى، وليس بمعنى الاستشعار الفسيولوجى شبه الحيوانى الذى ينتج عن التربيط أوالارتباط غير الفكرى (فهذا يعتبر نوعا من الاحساس العام غير المتعمق، وقد يسمى apprehension). وثالثا، أن أنواع الفكر باعتبارها نشاطات عقلانية، يمكن تقسيمها إلى نوعين رئيسين : ١- فكر استدلالى منطقى، أى يعمل بالحساب الواعى والتحديد المنطقى والهويات المنطقية. ٢- فكر وجدانى يعمل بالادراك العقلانى غير المحدد، وبالانطباعات العقلانية المجمّعة (= بطريقة التركيبات الكلية / الجشطلتات)، وليس بالحسابات والمعادلات المنطقية. ويكون ذلك بزيادة الاعتماد على العقل الباطن أو اللاوعى (بالمعنى العقلانى وليس

بالمعنى الفرويدى اللاعقلى[1])، أكثر من الاعتماد على العقل الواعى والحساب الواعى.

وفى هذا، يصبح الفرق بين الفكر العلمى والفكر الفنى، هو فرق بين الحساب أوالتحديد المنطقى الواعى، وبين الادراك الانطباعى[2] أو الجشطلتى الذى يصوغه العقل الباطن من حلقات ومكونات لاشعورية أو تحت - شعورية. لكن كلا النوعين يجب أن يستلهما مبادئ الحق والخير والجمال، وأن يعبرا عن روح المنطق والاتساق المنطقى الذى تلتزم به ميكانيزمات الذهن السليم فى التفكير الواعى أو اللاواعى (إذا استبعدنا هنا اللاشعور الحيوانى بالمعنى الفرويدى أو شبه الفرويدى).

وقد كتبت الكثير من قبل عن العلاقة الصحيحة بين ثنائية العقل واللاعقل وثنائية الوعى واللاوعى، وأوضحت كيف كان الفنانون المفكرون يخدمون بأعمالهم الفنية العقل والعقلانية قبل أن تنجح أجهزة التحكم البرجوازى الحديث فى إسقاطهم فى مستنقعات اللاعقل الصريح، بعد أن كانت الأجهزة اللاعقلية الكهنوتية القديمة والوسطى تكتفى بتحريم أو مكافحة الفنون الأدبية والتشكيلية، أو تحطيم منتجاتها من حين لآخر. أما اليوم، فبدلا من أن يأمروا الرسام مثلا بأن يرسم رسوما زخرفية فقط ويحرّموا عليه رسم صورة كائن ذى روح، فانهم يحركونه بسلاسل وقيود "التلقائية الحرة" المزعومة، بحيث يعجز عن الرسم الزخرفى الجميل وأيضا عن الرسم المفيد تعبيريا، ويسقط فى الشخبطات البدائية والطفولية والتكعيبية والتجريبية وغير ذلك من الاتجاهات المجردة (= المفرغة) من المعنى ومن التفكير!

أما من حيث تطبيق التقسيم العقلانى الصحيح على "المعرفة" فيمكن أن نقسمها إلى : ١- معرفة وجدانية. وأهمها طبعا المعرفة الفنية. ٢- معرفة تحديدية، أى محددة المكونات والحلقات والاستدلالات. وأهمها طبعا المعرفة العلمية. والعلوم تنقسم إلى : ١- علوم فلسفية (وهى : أ- علوم عامة شاملة، أى فروع فلسفية بالمعنى الخاص. ب - علوم تأسيسية).

(١) إذا كانت كلمة unconsciousness قد اكتسبت معنى فرويديا أو لاعقليا بشكل عام، فيمكن أن نستخدم بدلا منها كلمة unawareness أو unaware reason. وفى العربية، نجد أنه (فى الاطار العقلانى) تعتبر كلمة اللاوعى أدق من كلمة اللاشعور، لكن كلمة "العقل الباطن" هى الأدق.

(٢) لاحظ أننى أستعمل هنا كلمة "انطباع" impression ليس بمعناها القديم وهو التلقى الحسى المباشر، ولكن بمعناها الأدبى والفنى الشائع، وهوالاحساس الوجدانى العام أو التجميع الحسى غير المحدد. وفى هذا يجب التمييز بين الانطباع المصنوع بالفكر العقلانى، وبين الانطباع الدهمائى المصنوع بالتلقين أو التأثير الاجتماعى.

٢- علوم مستكملة. وهذه تنقسم إلى : علوم دقيقة وعلوم غير دقيقة، أو إلى علوم نظرية وعلوم عملية، أو إلى علوم رياضية وعلوم طبيعية وعلوم اجتماعية، الخ.

وبالنسبة **للثقافة العقلانية** (التى هى دائرة أضيق من دائرة المعرفة)، نجد أنها تعنى الخلاصة العامة أو رصيد الاستخلاصات والمترسبات العامة لمجموع التحصيلات الذهنية الفردية والاجتماعية من المعارف والخبرات والنشاطات واكتسابات التربية والتعليم، الخ. وهذا معنى يختلف نوعيا وجذريا عن "الثقافة" المزعومة التى ينسبونها إلى البدائيين فيما يسمى علم البدائيات أو علم أصول الانسان! وبالاضافة إلى مفارقة "الثقافة" البدائية المزعومة هذه، يجب ملاحظة أن الجماعات البدائية المعروفة لاتمثل "طفولة" البشرية كما يزعمون. فطفولة البشرية نمت وتطورت مع تطور البشرية. لكن **هؤلاء يمثلون حلقات قزمية متجمدة، عجزت عن مسايرة مراحل النمو والتطور البشرى، فتحجرت فى جزر معزولة عن النوع البشرى - أى جزر شبه بشرية.** ذلك أن نقص أو انعدام العقل عند الطفل يكون مؤقتا انتقاليا بعكس نقص أو انعدام العقل عند الشخص المتخلف ذهنيا الذى يموت على نفس الحال!!

● ● ثم ليت هذه المفارقات والمغالطات اقتصرت على حكاية "ثقافة" البدائيين"، بل إنها وصلت إلى درجة إطلاق اسم **HOMO SAPIENS** على المراحل الأولى من تطور سلالات النوع البشرى عند انتقاله من مستوى القردة العليا شبه البشرية إلى مستوى بداية الادراك البشرى!! فما معنى هذا الاسم اللاتينى الذى تحاول القواميس المعاصرة والكتب المعاصرة أن تغطى على معناه الأصلى اللامنطقى الفاضح؟!

معناه :"الانسان الحكيم أوالعالم "homme sage, savant"، أو على الأقل "الانسان العاقل"raisonnable!!! فاذا كان الجد الأول للبدائيين عاقلا عالما حكيما، فماذا يكون البدائيون؟! وماذا يكون الدهماء المعاصرون الذين يستعملون الراديو والتليفزيون؟!

واضح طبعا أن هؤلاء الذين اخترعوا واستخدموا ذلك الاسم اللامنطقى فى علم أصول الانسان، كانوا:إما تحت ضغوط التخليط الذهنى وفقدان الاحساس المنطقى، وإما سفسطائيين تجهيليين يمارسون التخليط والتغليط عن عمد، أو عن عداء دينى كهنوتى للحضارة العقلانية!!

إن هذه الأمثلة توضح لنا أن التشويه والتعكيس الجذرى ضد العقل، والخلط بين العقل

واللاعقل أو التخلف الذهنى أو الجنون، هو اتجاه قديم يعبر عن نجاح مخططات قهر وتحطيم المحاولات المستمرة للعقلانية. وهل أدل على ذلك من تأمل ما تعرضت له كلمة الحكمة / صوفيا، التى تشقلبت إلى معنى السفسطة المغالطة وإلى معنى التخريف الصوفى؟!

لقد كان تاريخ البشرية منذ البدء وحتى اليوم صراع حياة أو موت بين العقل واللاعقل، تسجله وقائع صراعات وتطورات اللغات والشعوب والمعتقدات منذ عصر مينا والفرعونية. ومن المؤسف أن اللاعقل هو الذى انتصر فى معظم معارك هذا الصراع، بل هو الذى سيطر على المحاولات العقلانية الناجحة فى الحضارة الحديثة، وحاول أن يحطم جوهرها العقلانى تدريجيا وأن يلغى بذلك آثار فلتات عصر النهضة والتنوير، ليعيد البشرية إلى عصور وسطى ترتيلية جديدة.

لكن هذه الكلمات التى أكتبها من داخل سلخانة إجرامية لصناعة اللاعقل (مستشفى مجانين)، إنما توضح أن ثمة قوة دولية جديدة وقادرة قد نجحت فى مقاومة عجلة اللاعقل التى تطحن البشرية منذ بداية الفرعونية، بالدرجة التى تتيح لقلم ضعيف لفرد مستضعف أن يخط هذه الكلمات! ومع ذلك، يبدو أن الأجهزة السرية للاستشعار الاشعاعى التى تتابع الشفرات الرمزية لمباريات القوى الدولية فى مستشفيات المجانين وغيرها من "المناطق الحرة"، باستخدام مايشبه تقاليد "الاستخارة" الاستشعارية القديمة، أى بالتقاط وتفسير الشفرة الرمزية لوقائع التحكم السرى، لم تستطع بعد أن تفهم معنى ماحدث ومايحدث فى العباسية!! وحتى هؤلاء الذين فهموا، وجدوا أن الأفيد لهم أن "يتعاموا" إلى آخر لحظة ممكنة عما حدث من تغير فى ميزان القوى الاشعاعية الدولية، عملا بالمثل القائل : أنا ومن بعدى الطوفان!

خامسا- أمراض العقل والنفس

✪ لااستفتاء فى تحديد الصواب والخطأ

أبدأ بالاشارة هنا إلى بعض الأفكار المفيدة التى وردت فى مقالك.

من ذلك مثلا ملاحظتك عن أن نبوغ الفنان المريض قد يكون "بالاضافة إلى مرضه"، وليس "بسبب مرضه". وهذا مايسمى فى الفلسفة، التمييز بين اقتران الظواهر وبين ارتباطها

السببى أوالعلّى. لكن الأدق أن نقول إن نبوغ مثل ذلك الفنان يكون "برغم" وليس "بالاضافة إلى" مرضه. **فالمرض ليس إضافة توضع إلي جانب النبوغ، ولكنه قوة سلب تنتقص من النبوغ أو تعرقله وتنخر فيه.** وقد اعترفت أنت بذلك فى إشارتك إلى أن الجانب السليم من الروح / الذهن، هو المسئول عن الكفاءة والقدرة الابداعية، وفى قولك إن الخلل العقلى "قد يؤدى إلى" الفشل وإجهاض النبوغ. والصواب أنه يؤدى بالضرورة إلى الانتقاص منه بدرجة "قد تصل" إلى الفشل والاجهاض.

كذلك أوضحت عن حق أن صراحة الفنانين والأدباء فى كشف أسرارهم الشخصية، واهتمام الناس بتلك الأسرار، يجب ألايخفى عن نظرنا أن أسرار الآخرين الذين ليسوا فنانين وليسوا مشهورين قد تكون أكبر وأخطر. ورأيك واضح أيضا فى رفضك للفكرة اللامنطقية التى تزعم أن المرض الذهنى قد لايشكل خللا فى موتور الابداع الفنى لكنه يشكل موتور الابداع نفسه!! فهذه الفكرة المقلوبة تشبه تماما الأوهام التى تزعم أن المخدرات وأمثالها هى قوى دافعة ومنشّطة للابداع الفنى وليست قوى استهلاك وهدم للذهن ولقدراته! وعلى غرار ذلك، كان القدماء يزعمون أيضا أن العبقرية تنتج عن مسّ الجن - وخصوصا "جن عبقر" / أبكارا التى اشتقوا منها اسم العبقرية!![1] كذلك من المفيد أنك رفضت تخريفات فرويد وأتباعه، عن أن الفنان (وهذا يعنى فى الحقيقة المفكر عموما) هو مريض بطبيعة عمله!!

لكن للأسف أنك لم تركز على توضيح عناصر وحيثيات رأيك ورفضك لهذه الادعاءات، ولم تركز على تفنيد عناصر وحيثيات رأى الأستاذة الأمريكية التى زعمت وحاولت أن تثبت ميدانيا وجود علاقة وثيقة بين المرض النفسى والموهبة الفنية أو قدرة الخلق! صحيح أن ملاحظاتك تعنى رفض هذا الرأى، لكن الأحرى ألانكتفى برفضه، بل أن نحاول أن نثبت أنه رأى معكوس ومقلوب، وأن وجود العلاقة الوثيقة المذكورة إنما يعبر عن دور وقدرة الموهبة الفكرية للفنان فى

---

(١) لاحظ أن هذا التخليط اللغوى التمويهى أوضح فى الأصل اللاتينى، حيث نجد أن الأصل المعروف لمعنى كلمة genius هو المنجب (= المتناسل!) begetter. لكنها أصبحت تعنى أيضا الجن أو الروح المذكرة للأسرة التى يرمز لها الثعبان! وهذا يعنى أن كلمة النجابة أو العبقرية ربطت عندهم بالانجاب مما يسمى "نكاح الجن"!! ومؤنث genius هو juno، وتعنى الأم الولود أو روح الانجاب عند الأم. وهذه توضح أن المعنى الأصلى المقصود، هو حمل وإنجاب وابتكار وتوليد الأفكار عند المبدعين النابغين، ثم شوهته الشبكات الاتروسكية القديمة إلى معانى الحمل الجنسى السرى من الجن!!

مقاومة المرض الذهنى، بحيث أن تواجد المرض فى حالة النبوغ الفنى يكون تعبيرا عن تلك المقاومة ضد المرض وليس نتيجة المرض الهدام للذهن والنبوغ!

كذلك يمكن أن نستنتج أنك ترفض البلاهة المضللة التى دفعت إميل زولا إلى أن يصدّق أن "عبقريته" هى "نتيجة" عناصر مرضية فى شخصيته وفى جهازه العصبى، اعتماداً على "الاستفتاء" الذى أجراه حول هذا الموضوع بالرجوع إلى خمسة عشر "طبيبا نفسيا" مشهورا! وهذه نقطة كان يجب تفسيرها وتحليلها وتفنيدها. ذلك أن إميل زولا كاتب متخلف فى الفلسفة والمنطق العلمى، بل وفى التاريخ وفى الخبرة السياسية والاجتماعية التى كان يمكن أن تتيح له فهم أصول الأوهام العامة! (وهذا بغض النظر عما إذا كان عبقريا حقا، أم موهوما فى ذلك نتيجة الشهرة المصنوعة، أم صاحب بذور عبقرية لم يكتمل نموها السليم نتيجة ميكانيزمات الاستخدام السالب للاستعدادات الذهنية المتفوقة). وبسبب تخلفه الفكرى المنهجى المذكور، لم يستطع أن يفهم أو أن يتصور أن استفتاء خمسة عشر طبيبا نفسيا من المشهورين والمعتمدين رسميا فى هذا الموضوع، لايختلف من حيث قواعد الصواب والخطأ عن استفتاء مائة أو استفتاء واحد منهم فقط!!

والمسألة هنا لاتقتصر فقط على أن مهنة الطب الذهنى هى من أخطر المهن لأنها تتعلق بأسرار وأساليب التحكم الذهنى والتحطيم الذهنى الذى تمارسه بالضرورة أجهزة السلطة وشبكاتها السرية، ولاتقتصر فقط على أن الاستمرار فى تلك المهنة (ناهيك عن البروز والشهرة) يكون دليلا على استمرار ونجاح الالتزام بما هو مطلوب ممن يُسمح له أصلا بالاشتغال بها بعد الفرز والاختبار الدقيق، فضلا عن الاستجابة لظروف الارتزاق والانتهازية وتعليمات السلطة والتخلص من بقايا الضمير إن وجد. لكن **المسألة أيضا وأساسا أن اتجاه ومنهج وطريقة تعليم الطب الذهنى تعبر ابتداءً عن مواقف وتصورات معينة فى موضوع النفس والعقل وفى صحة ومرض الذهن، أوضحت قبل ذلك أنها قائمة على سفسطات ومغالطات لاعقلية.**

ونتيجة ذلك، لايمكن الاعتماد على عنصر "العدد" عند مناقشة التصورات والآراء العامة لهؤلاء! ذلك أن وضعهم فى مجال العمل المختص بالعقل والنفس، يشبه مثلا وضع رجال الدين المشتغلين فى المعابد والمعاهد الدينية. فلايمكن أن يُسمح لهؤلاء بالاشتغال أو الاستمرار فى

الاشتغال فى هذا المجال – ناهيك عن إغداق الشهرة والمناصب على بعضهم – إلا إذا كان من المؤكد والمضمون أنهم يخدمون العبادة والدين الذى اشتغلوا باسمه، ويحققون المطلوب منهم بطريقة أو بأخرى ومن هذه الزاوية أو تلك. فهل يمكن فى مثل هذه الحالة أن تقوم ببحث فكرى عن مشكلة الدين واللادين، فتجرى على هؤلاء استفتاءً ميدانيا لحسم المشكلة بناءً على نسبة المتدينين واللادينيين منهم؟! وإذا وصلت مثلا إلى أن نسبة اللادينيين منهم هى صفر فى المائة، فهل تكون لهذه النتيجة أى قيمة بالنسبة للمشكلة المذكورة كمشكلة فكرية علمية؟! بل حتى إذا أجريت هذا الاستفتاء علي شعب كامل (خصوصا فى ظروف انعدام حرية الرأى وانخفاض أو انعدام التنوير والثقافة العقلانية)، هل تكون له أى قيمة فكرية من حيث تحديد الصواب والخطأ؟!

إن أصوات هؤلاء أو أولئك جميعا، لاتُحتسب من الناحية الفكرية أو المنهجية إلا كرأى واحد، ولاتشكل إلا رأيا واحدا، فى مقابل الرأى المضاد الذى قد يمثله فرد واحد أو صوت واحد!! فهكذا مثلا كان رأى أريستارخوس وكوبرنيكوس وأنصارهما المعدودين فى مقابل رأى بقية أهل العلم والجهل بخصوص دوران الأرض والشمس! وهكذا أيضا كان رأى أنصار كروية الأرض المعدودين (قبل رحلة ماجيلان) فى مقابل رأى مجموع الناس الذين لايتصورون كروية الأرض! وهذا ماكان يقصده رجل الفلسفة والمنطق چون ستيوارت ميل عندما قال إن **حق البشرية كلها ضد فرد واحد يخالفها فى الرأى، يساوى حق ذلك الفرد ضد رأى البشرية**. فقواعد المنطق والمنهجية العلمية بخصوص أىّ رأى عقلانى أى قابل للمناقشة، تعتبره مهما كان عدد أنصاره "موضوعا" أو "أطروحة" thesis، وتعتبر الرأى المضاد له "نقيض موضوع" أو "أطروحة مضادة" antithesis، وتناقشهما على هذا الأساس وليس على أساس عدد الأصوات التى يملكها كل منهما! لكن هذه البديهية العقلانية المنهجية اعتبرت نكتة مضحكة، واتهم صاحبها بالجنون!! فالطب الذهنى طب "ليبرالى"، يعتبرأى مخالفة لرأى الأغلبية مخالفة مرضية!!

✪ الجنون فنون!

ثم ماهى النتيجة أو التأثير الانطباعى عند الرأى العام لاعتبار الفنانين والمفكرين

والفلاسفة مرضى، وأن المرض النفسي أو الذهني هو موتور الابداع وهو قرين العبقرية؟!

النتيجة هي - أولا - أن يفقد الناس الثقة في التصور المنطقي الذي يقول إنه كلما زاد الانسان تفكيراً زاد عقلاً والعكس بالعكس، وأن يتوهموا أن الأمراض الذهنية هي "أسرار" لايعرفها إلا الأطباء المتخصصون، وأن أي شخص يمكن أن ينتقل فجأة من عالم العقل إلى ملكوت الجنون (بما يشبه ضحايا نزوات الجن في العصور القديمة والوسطى)! ثم - ثانيا - أن يتصور الناس بطريقة تحويل الحبة إلى قبة، أنه مادام "المرض" شائعا وسهلا بهذه الدرجة حتى عند "مشاهير" الفنانين والمفكرين وأمثالهم، فلا غرابة في أن يتهم به أي شخص.

وإذا كان الأطباء فقط هم الذين "يعرفون" الفرق بين المرض الذي يجيز الابداع الجبري في مستشفيات المرضى وبين المرض الذي لايحرم المريض من الحياة مع الأغلبية "العاقلة"، فذلك لأن هذه مسائل فنية متخصصة: فقليل من المغص والاسهال، قد يكون دليلا على الاصابة بالكوليرا! والدمل الضعيف - كما أكد الكتاب المقدس نفسه - قد يكون من أمراض البرص اللعون! وهكذا فإن توسيع تهمة "المرض" (من أي نوع كان) على هؤلاء الذين هم - أو يجب أن يكونوا - أكثر عقلا بل وصانعي الأفكار والمثل العليا، يعتبر نوعا من "إهدار الدم" أو "الحرمان المدني العام" excommu-nication ضد أصحاب الرأي والمشتغلين بالفكر والثقافة والفن.

ثم إن الاعلام الجاهل المسلوب الضمير يشارك في التغطية والتعمية على تقاليد التخليط والمغالطة في هذا الموضوع - الذي يصنع القانون ثغراته ومبرراته ومغالطاته وتلفيقاته وتزويراته (فضلا عن منع التحقيق في جرائمه بعد ذلك)! فكيف يستطيع المثقف العادي إذن أن يفهم حقائق هذا الموضوع الذي تطبع جرائمه قانونيا وطبيا وإعلاميا؟!

صحيح أن روح القوانين الصادرة بخصوص هذا الموضوع على أساس مبادئ العدالة الأوروبية الحديثة، تعتبر في الحقيقة واضحة ومقبولة في اتجاهها العام. لكن الصياغات المكملة لها ووسائل التطبيق المحددة لها، تفرض عليها ثغرات حاسمة تلغي عمليا اتجاهها العام المذكور (انظر مثلا قانون الاجراءات الجنائية (خصوصا المواد من ٣٣٨ إلى رقم ٣٤٢)، وقوانين الأحوال الشخصية وقانون أحكام الولاية على المال والحجر، إلخ، تجد أنها تعلن أو تفيد بوضوح أن المسئولية الجنائية والحقوق القانونية العامة لاتسقط إلا

عن الشخص "المعتوة" أو المجنون الذى يمكن أن يوصف بهذه الصفة، وأن التوصيف القانونى للمعتوه أو المجنون بدرجة العته هو أن يكون إدراكه بدرجة إدراك الطفل – مما يعنى العجز عن الادراك العقلى والاصابة بـ "عاهة فى العقل". ذلك أن "العته" أو جنون "العاهة العقلية" يزيد عن درجة "السفه" وعن درجة "الغفلة"، وغير ذلك من حالات نقص الأهلية التى يجيز الحجر والوصاية أو مايسمى "المساعدة القضائية" (فى حالات الصم والبكم مثلا)، ولكن لاتعنى إسقاط المسئولية الجنائية أو فقدان الأهلية تماما!

توجد نصوص قانونية واضحة إذن فى هذا الصدد، لكنها تتضمن بعد ذلك ثغرات تلغى عمليا كل التحديدات المذكورة! وأخطر هذه الثغرات، أنها تعطى كهنة مايسمى "الطب العقلى" – الذى أصبح يسمى "الطب النفسى" – سلطة الحكم فى هذا الموضوع، بل وتعتبرهم وتعتبر سلخاناتهم المتخصصة فى التحطيم الذهنى والتزوير الطبى هم المرجع والفيصل فى هذا الموضوع! وهذا يعنى "استرعاء الذئب" أو "إعطاء الفار مفتاح الكرار". والنتيجة العملية هى أنه حين يكتب أحد دجّالى الطب الذهنى بطريقة الرطان الاصطلاحى والشخبطة الطبية المعتادة أن شخصا ما يعتبر "مريضا" بمرض كذا أو كذا (مما يعنى عندهم أنه مصاب بـ "عاهة عقلية" تجعله عاجزا عن الادراك أو بدرجة إدراك الطفل)، وحين يعتمد زميل له أو إدارة مستشفاه هذا التشخيص، فان ذلك الشخص يعامل بناء على نص القانون معاملة المعتوه فاقد الأهلية ساقط المسئولية الجنائية والحقوق القانونية، أى تنطبق عليه القوانين الخاصة بذلك!!

وهذا يشبه ماتعبر عنه قصة تحكى عن راهب اشتهى دجاجة فى أيام الصيام عند المسيحيين، فأمسك واحدة من الدجاج وعمدها باسم نوع من السمك (المسموح بتناوله فى الصيام المسيحى) ثم التهم لحمها باطمئنان شرعى تام!!

بهذه الطريقة، تُلغى عمليا التحديدات والتوصيفات القانونية المذكورة، ويلغى التمييز القانونى بين ماكان يسمى فى الماضى "أمراضا نفسية" وبين ماكان يسمى "أمراضا عقلية"، الخ! وإذا كانت شهادة الوفاة الرسمية تعنى إلغاء وجود أى شخص رغم بقائه على قيد الحياة، فان الوضع بالنسبة للتشخيص الذى يسقط المسئولية القانونية يعتبر أشد وأخطر ومن

المستحيل رده تقريبا! ففى الحالة الأولى، نجد أن شهادة اثنين بأن شخصا ما على قيد الحياة تكفى لاثبات ذلك لدى الحكومة، بينما الشخص الذى تسقط أهليته طبيا لايستطيع أن يثبت أهليته بمائة شهادة وشهادة من هذا النوع!!

✪ المرض الذهنى والبراءة الطفولية المزعومة!

وتهمة المرض الذهنى الذى يسقط المسئولية القانونية تثير نقطتين تستحقان التوضيح : الأولى، نقطة التمييز بين النفس والعقل. والثانية، نقطة التمييز بين فقدان أو انعدام المسئولية أو العقل و بين إسقاط هذه المسئولية أو حقوق العقل عن شخص معين.

والنقطة الأولى لاأريد التطويل فيها لأننى أوضحتها كثيرا فى أوراق سابقة. لكن المسألة باختصار، هى ضرورة التنبه إلى صحة التمييز الفلسفى القديم بين العقل والنفس. فقد كانوا يعتبرون العقل أعلى مستويات الادراك والتفكير، بل ويسمونه النفس الناطقة أى المنطقية، بينما يعتبرون النفس بالمعنى العام (= الذهن) هى جانب الدوافع والادراكات والنشاطات السلوكية التى يمكن أن يشترك فيها الانسان والحيوان، أو بالاحرى التى لاتختص بالفكر العقلانى. وطالما أن العقل هو حاكم الذهن أو النفس، فمعنى ذلك طبعا أنه بقدر ارتقاء القدرات الفكرية والمنطقية للانسان وارتقاء إرادته العقلانية، يكون ذهنه أو نفسه ذا طبع عقلانى، والعكس بالعكس.

ونقص أو انخفاض أو تدهور قدرات العقل، يؤدى إلى زيادة الطابع الغريزى الحيوانى أو شبه الحيوانى للنفس البشرية، أى يجعلها من نوع لاعقلى. ومثل هذا النوع من الذهن أو النفس يتورط بسهولة فى الشر والاجرام والفساد الأخلاقى. صحيح أن الشر أو الاجرام هو فى جوهره مرض نفسى، إلا أنه يعبر أيضا وبالضرورة عن ضعف أو نقص فى العقل - هو الذى يخفض أو يلغى الاحساس بالخطأ ويسبب عدم إدراك العواقب الذاتية والموضوعية للخطأ. ومعنى ذلك أنه فى حالة انعدام أو انخفاض الفكر العقلانى والارادة العقلانية، لايمكن منع الذهن اللاعقلى من الاتجاه ذاتيا إلى الشر والاجرام إلا بواسطة كوابح وموانع فعالة تُفرض عليه نفسيا وجبريا.

وهذا يوضح ويؤكد أن الشرير أو المجرم يستحيل أن يكون سليم العقل أو كامل العقل، بل لابد أن يكون - إلى جانب مرضه النفسى السلوكى - ناقص العقل أو عديم العقل بحيث

ينفلت ذهنه اللاعقلى بدون صمام أمن ذاتى. وإنن فشعارات "التحرر" النفسى الفرويدى" أى اللاعقلى، مثلها مثل اعتبار "المجرم" شخصا عاقلا واعتبار المريض العقلى شخصا "بريئا" حتى لو ارتكب أى جريمة، هى شعارات سفسطائية تعكيسية مضادة للمنطق وللعلم العقلانى الصحيح. وإنما تنشأ المغالطة عن الخلط بين درجات العقل والادراك، أى نتيجة اعتبار كل ضعاف البصر عميانا، أو على العكس نتيجة اعتبار مرضى البصر القادرين نسبيا على الابصار ذوى بصر سليم!! وهذا ينقلنا إلى النقطة الثانية الخاصة بالمسئولية القانونية.

● وأبدأ أولا بملاحظة شخصية مريرة من واقع معاناتى من نزلاء مستشفى المجانين، وفق المثل القائل : "الذى يده فى الماء ليس مثل الذى يده فى النار".

لقد قرأنا فى الصغر قصة عالم الفيزياء التنويرى بييركورى مكتشف النشاط الكهربى الاشعاعى للذرة (١٨٥٩ - ١٩٠٦)، والطريقة الغريبة غير العادية التى مات بها حين صدمته عربة كارو يقودها عربجى غشيم الذهن، فدهس الحصان وعجلات العربة مخه العلمى الراقى ليعُجن بتراب الأرض!! ومع ذلك، لايملك المحقق العادل إلا أن يحكم بأن العربجى والحصان لم تدفعهما أى دوافع شريرة إلى ارتكاب هذا الفعل، بحيث يمكن اعتبارهما بريئين، أو على الأكثر اعتبار العربجى مهملا! لكن ماهكذا على الاطلاق يمكن تصور مايرتكبه وحوش وحشرات المجانين والنزلاء المرضى فى مستشفيات المجانين، الذين ينفلتون تلقائيا أو يُستخدمون عمدا ضد شخص مثلى! وأنا لاأتحدث هنا عن نتيجة أو مدى نجاح أفعالهم، أو عن أسباب فشلهم وانكسار أو إجهاض محاولاتهم، وإنما أتحدث عن دوافعهم واستعداداتهم الذهنية والنفسية، لأن "**الأعمال بالنيات**".

من هذا المنظور، لاأستطيع أن أعبر عن مدى عمق وتغلغل نزعات وميول الشر والايذاء والتحطيم فى نفوسهم (أقصد الأغلبية طبعا) - حتى، بل وخصوصا، الضعفاء "الغلابة" منهم - ومعهم أمثالهم من الصبيان الأشرار "تلاميذ التمريض" الذين يعيشون ويتدربون فى العباسية - الذين لايريحهم نفسيا إلا القيام بأى إيذاء أو خربشة أو مضايقة أو معاكسة ضد أى شئ وضد أى شخص، بقدر مايكون لديهم من بقايا مخالب أو أظافر وأسنان مكسورة!! وكلما كنت أرى أحدهم يجاهد ويهابر (من أجل إطفاء لمبة مضاءة مثلا أو إضاءة لمبة مطفأة!)،

كنت أتذكر منظر كلب هزيل محتضر رأيته فى طفولتى ملقى فى الطريق – ويبدو أنه كان مسعورا – استمر رغم ذلك يمد فكيه يحاول أن يعض أى شئ يمكن أن يصل إليه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة!! وكنت أتذكر أيضا ماقرأته عن تصرف عجوز حيزبون فى عملية حرق المفكر الدينى التنويرى التشيكى **جان هوس J. Hus** (١٣٦٩ – ١٤١٥) عميد جامعة براغ، الذى أمر البابا بحرقة إذذاك بسبب أفكاره المعارضة للكهنوت البابوى!! فالنصوص التاريخية تروى أن الرجل فوجئ وهو مربوط فى انتظار الحرق بامرأة شمطاء تبذل جهدا كبيراً لتحمل قطعة خشب لتضيفها (احتساباً لله!) إلى كومة الخشب المجهزة للاشعال لحرقه!! فلم يملك هوس إلا أن يصيح بعبارة ذهبت مثلا، وهى : !!O sancta simplicitas / "ياالبراءة المقدسة"!!

هذه هى "البراءة" المزعومة للمجانين والمتخلفين ذهنيا والمخبولين ناقصى أو معدومى العقول، الذين يُستخدمون فى دهس وطحن المتحررين والمغضوب عليهم، وسحق كل ماهو حق وخير وجمال لاتدركه أذهانهم العاجزة.

بهذه الأمثلة، تتضح حقيقة مشكلة المسئولية الجنائية أو القانونية فى الجرائم. فهذه ليست أصلا وأساسا مشكلة طب (ولاحظ أنهم يقولون دائما فى المستشفيات الذهنية أن "الطب فوق القانون"، وأن مستشفياتهم "مناطق حرة" من القانون!!)، ولكنها مشكلة إجراءات قانونية قضائية. فأنت تستطيع منطقيا وعلميا أن تحكم بالوحشية الشريرة والشراسة، على أى مجرم أو سفاح – أو حتى على كلب – يرتكب جريمة أو جرائم لاتتفق مع طبيعة نوعه البشرى أو الحيوانى!! (ولاحظ أن كلمة الوحشية مشتقة من اسم الوحوش أو العكس بالعكس، مما يعنى فى حد ذاته إدانتهم كحيوانات رغم توقع هذه الوحشية منهم!). ففى هذا كله، **لايوجد معنى ولامبرر لصفة "البراءة"**! وإنما تتمثل المشكلة فى أنك قد تواجه أحيانا سفّاحا أو مجرما متوحشا، لكن لاتستطيع أن تحقق معه وتسائله قانونيا وتتابع الاجراءات القضائيه اللازمة معه! وفى هذه الحالة، تضطر طبعا إلى مواصلة التحقيق والاجراءات القانونية بدونه، مع الحكم بسقوط أهليته وحقوقه القانونية.

وهذا لايعنى طبعا أنه "برئ" كما يجعجع ببغاوات الدجل الاعلامى والقانونى (إلا إذا ثبت أنه لم يرتكب تلك الجريمة بالذات، على غرار "براءة" الذئب من دم ابن يعقوب فقط!!)!

كذلك لايعنى عجزه الادراكى أنه يستحق أن يتمتع بالحياة والعطف والمحبة كما يجعجع كهنة الانسانية المقلوبة الذين يقدسون المجانيب والمجانين منذ العصور القديمة!! ولكن هذا يعنى ببساطة، أنه لايمكن مساءلته ومحاكمته، لأنه لا يستطيع أن يتابع مايسمع أو يعى مايقول أو يدرك ويتذكر ماحدث بالدرجة التى تستلزمها الاجراءات القضائية. والحكم باستحالة أو إمكان قدرته على ذلك، هى مسألة يختص بها أصلا وأساسا الذين يقومون بالتحقيق والمحاكمة. فاذا شعروا بالشك فى أن المتهم ربما يكون متظاهرا بالجنون والعجز الذهنى، فانهم يحوّلونه فى هذه الحالة إلى الأطباء المتخصصين – لاكتشاف قدرته إن وجدت وليس لاكتشاف عجزه الظاهر! تماما كما تحول إلى الطب شخصا يقول إنه أعمى وتشك أنت فى ذلك، ومن ثم تطلب البحث عما إذا كانت لديه قدرة ماعلى الابصار. ومعنى ذلك أن المختصين بالقانون أو بالطب الذهنى لايحكمون باسقاط أهلية أحد أو بأسقاط قدرته العقلية، وإنما يحكمون فقط بأنه "فاقد" الأهلية أو القدرة العقلية – **كالأعمى الذى لاتحكم بفقء أو تعمية عينيه بحجة أنهما مريضتان مثلا، ولكن تحكم بأنه فاقد الابصار وليس ضعيف الابصار بدرجة تسمح له بالرؤية اللازمة للتحقيق.**

● وهذا التحديد الدقيق لحقيقة المشكلة (من حيث أن المهمة القانونية الحقيقية للطب الذهنى فى خدمة القضاء هى اكتشاف العقل وليس اكتشاف الجنون)، يثبت منطقيا مدى التعكيس الذى يحدث فى التلفيقات القانونية والطبية القائمة، التى تتيح مثلا لوكيل نيابة أمن الدولة العليا (باعتماد رئيسة وباعتماد النائب العام) أن يحوّل شخصا مثلى إلى مستشفى المجانين لاثبات أننى مجنون أتظاهر بالعقل وأطلب المساءلة والتحقيق والمحاكمة فى التهمة السياسية التى وجهها لى نظام عبد الناصر، فيرد عليهم المتخصصون فى الاجرام الذهنى والتزوير الطبى بأننى مصاب بـ "عاهة فى العقل" تجعلنى عاجزا عن المسئولية القانونية!! ويعتمد الطرفان معا هذه الجريمة الفاضحة رسميا، فيسقطان أهليتى وحقوقى القانونية – على أمل أن تحقق لهم طاحونة الاجرام الذهنى فى السلخانة المجانينية طبختهم المزورة ضدى خلال أسابيع أو شهور كما يحدث للآخرين!!

✪ الفكر والمرض

نقف الآن قليلا عند الأمراض الذهنية للفنانين والمفكرين بشكل خاص.

إن من المستحيل منطقيا وعلميا بالنسبة لأى مفكر – سواء كان يعمل بالفن أو بالمعارف

الأخرى – أن ينجح فى القيام بانتاج فكرى حقيقى إذا كان ناقص العقل (ناهيك عن أن يكون عاجز العقل!)! ففاقد الشئ لايعطيه. والمفكر المصاب بأمراض أو اضطرابات إدراكية شديدة – مثل أوهام الهوس delusions أو التسلطات القهرية والحصارية fixed ideas, obses-sions– يكون من الضرورى أن ينخفض ويختلط ويفسد إنتاجه الفكرى فى الفن أو فى غير الفن، وينزلق بسهولة إلى التخريف أو اللاأخلاق.

وعجز الفكر نتيجة عجز الذهن ولومؤقتا، واضح مثلا فى مرض أو اضطراب ذهنى عام اسمه asthenia – وهو مرض عقلى نفسى لكن يترجمونه باسم "الضعف النفسى". ذلك أنه يسبب انخفاض الطاقات الذهنية وانخفاض الاحساس الذهنى بدرجة تعجز المفكر كليا أو جزئيا عن ممارسة إنتاجه ونشاطه الفكرى المعتاد، بل وربما تعجزه عن ممارسة التفكير الفعال. وقد تعرض له كثير من العلماء – ومنهم فرويد وبافلوف!! والحقيقة أن المرض يحدث نتيجة تأثيرات اشعاعية أو كيميائية، أو تأثيرات تربيطية ولاشعورية أخرى، تؤدى فى مجموعها إلي كبح النشاطات الكهرومغناطيسية للذهن – بطريقة تشبه ماتسببه على المدى الطويل عقاقير التهدئة المعرقلة للفكر. وهذا يماثل أيضا مايحدث نتيجة مايسمى اليوم "الاكتئاب"، أى عموما اليأس والاحباط والانكباس الذهنى أو الفشل المعنوى القاصم. وفى هذا كله، نلاحظ كيف يؤدى انخفاض التدفق الفكرى إلي خفض أو عرقلة الانتاج الفكرى أو العجز عنه.

ومع ذلك، فان نتائج هذه الأمراض لدى المفكرين العلماء أو الفنانين، تختلف كيفيا عن نتائجها لدى الناس العاديين الذين يمكن أن يدفعهم ذلك إلى الانهيار أوالانفلات اللاعقلى. ذلك أن "الضعف" العضلى حين يصيب مثلا أبطال حمل الأثقال، لايؤدى إلي نفس النتائج عندما يصيب الأشخاص العاديين أو ضعاف الجسم أصلا. **ولهذا، فان هؤلاء المفكرين والفنانين قد يمكن أن يستمروا بدرجة مافى إنتاج مايعجب الناس، لكنه لايمكن طبعا أن يكون على المستوى الذى كانوا سيصنعونه لو لم يتعرضوا للعرقلة أو التعجيز الذهنى.**

ومن ناحية أخرى، فالمفكر (الفنان أو غير الفنان) إذا انجرف وراء أهواء ونزوات الغرائز والفساد الأخلاقى، **يفقد أيضا التدفق الفكرى والطاقات الفكرية السليمة**، حيث تؤدى الشحنات الاثارية والانفعالات الغريزية إلى اكتساح وطمس عقله وفكره المنطقى أو الوجدانى وخفض أو تعطيل إحساسه العقلانى المرهف. فشحنات اللذة الغريزية مثل شحنات

الألم الغريزى، تؤدى فى حدّ ذاتها- وحتى بدون إيلام أخلاقى وفكرى - إلى كسح وطمس وتبديد النشاطات الفكرية الدقيقة الراقية. وحتى مايسمى "فوضوية الفنانين"، هى نوع من الاختلاط والتضارب الذهنى والنفسى يؤدى بدرجة أو بأخرى إلي إفساد الارادة العقلانية الموجهة للنشاط الفكرى الهادف، وإلى إفساد نظام الوعى والتركيز، وإطلاق النزوات والشهوات والانفلاتات.

وهذه الأسباب كلها، يمكن أن تفسر لنا لماذا يورطون المفكرين والفنانين فى الفساد الذهنى والأخلاقى، بل ويفرضون على طلبة الفنون التشكيلية مثلا - وفق تقاليد الفنون الفجرية القديمة - أن يبدأوا بتقاليد تصوير العرايا وتأمل النساء العرايا، الخ! **وإذا كان كل إناء ينضح بما فيه، فالفساد الشخصى أو الأخلاقى للفنان يجعله بالضرورة يفرز منتجات لاعقلية فاسدة.**

إن العقل السليم يعمل بيدين اثنتين متكاملتين، هما : المنطق، والوجدان المرتكز على الأخلاق - أى الضمير. فاذا حرمته من إحدى هاتين اليدين - المنطق أو الضمير - حكمت عليه بالعجز الذى لايقتصر على نصف العقل. وعندما نتأمل حياة كبار الفنانين مثلا، نجد أن من أصيب منهم بالتدهور العقلى كان يتجه عادة إلى الانتحار. هكذا فعل فان جوخ مثلا بعد أن ورطوه فى حب فاشل (ويبدو أن المرأة التى أحبها كانت مخصصة لتحطيمة وهدم ثقته بنفسه). وهكذا أيضا فعل إيرنست همنجواى، بعد أن تعرض لتأثيرات ذهنية شديدة أوهمته بأنه سيفقد عقله!

● ● وننتقل الآن إلى نقطة تستحق التأمل، وهى معالم الصحة والمرض الذهنى لدى الناس العاديين. ذلك أن طريقة حياة واهتمامات المفكرين واستغراقهم فى الفكر والدراسة أوالابداع، الخ، وتفرغهم لذلك على حساب الاهتمامات المعيشية العادية، قد تجعل معالم الصحة والمرض لديهم مختلفة إن لم تكن مناقضة لمعالم الصحة والمرض لدى الناس العاديين! وفى قصص حياة الإمام الشافعى مثلا أنه كان قد اشترى جارية حسناء واصطحبها إلى بيته. ثم انشغل عنها ببعض قراءات وكتابات الفقه، فهربت المرأة من منزله وفضحته واتهمته بالجنون لأنه ينشغل فى القراءة والكتابة ولا يهتم بملاعبة الجوارى الحسان كما تقضى تعاليم الدين والدنيا بالنسبة للناس العاديين!! **فما هى الفروق إذن بين معالم الصحة والمرض لدى المفكرين ولدى الناس العاديين؟**

أعتقد أن الفرق الرئيسى الذى يحدد الفروق الأخرى، هو أن الناس العاديين أو العامة بالمعنى العقلى (وهم الأغلبية طبعا) يكونون منخفضى العقل والتفكير. ومن هنا تكون معالم

الصحة لديهم ذات طابع نفسي سلوكي أكثر مما هي ذات طابع عقلي فكري. والعكس بالعكس.

ذلك أن الميكانيزمات الذهنية البشرية تعوض بعضها بعضاً بمعنى أن زيادة القدرة في جانب معين تؤدي عادة إلى خفض القدرة في جانب آخر، والعكس بالعكس (كما يحدث مثلا في زيادة قدرة السمع والحفظ السمعي لدى الأعمى). وحتى في ميكانيزمات العقل المفكر، تجد أن انخفاض قدرات الذاكرة والاسترجاع مثلا (نتيجة الشيخوخة أو نتيجة التأثيرات المعرقلة للذاكرة) يؤدي عادة إلي تنشيط وزيادة قدرات التفكير المنطقي والاهتمام بالمعاني، كما أن كبت بعض النشاطات الفكرية الشعورية قد يؤدي إلى تنشيط وزيادة النشاطات الفكرية اللاواعية، على غرار مايحدث عندما يزيد منسوب المياه الجوفية وتنشط تياراتها نتيجة التبدد الأرضي والتشرب للمياه الجارية على السطح.

● **والخلاصة أنه ليس غريبا أن يساعد انخفاض قدرات العقل والتفكير لدى الشخص العادي على زيادة قدرات السلوك النفسي والتكيف النفسي لديه، وأن يؤدي تفوق قدرات العقل والتفكير لدى المفكر إلى انخفاض قدراته السلوكية والنفسية.** وقد لاحظ القدماء هذه الظاهرة (المعروفة عن الفلاسفة بشكل خاص)، كما لاحظوا أن خاصة المفكرين يفشلون عادة في معالجة المشاكل المعيشية العادية التي ينجح في معالجتها الكثيرون من العامة أو الدهماء!

✪ شروط التصدي للبحث أو العلاج الذهني

هذه المشاكل المتنوعة والمتعددة الاتجاهات والمستويات، تنبهنا مرة أخرى إلى الملاحظة التي أشرنا إليها في بداية هذه الصفحات، عن الترابط الموضوعي المضموني والمنهجي بين الفلسفة والعلوم الذهنية بفروعها المختلفة. فمن الخطأ تماما أن تنفصل دراسة العلوم النفسية أو فروع الطب الذهني وفسيولوجيا الجهاز العصبي، عن دراسة الفلسفة، كما أن الدراسة الفلسفية لمثل هذه الموضوعات والمشاكل بدون تأسيس علمي نفسي أو طبي فسيولوجي تكون دراسة عقيمة أو سطحية. وإذن فلابد من تزاوج الجانبين لمن يريد أن يتصدى للبحث أو للعمل في المجال الذهني فلسفيا أو نفسيا وطبيا. ومعنى ذلك بالتحديد:

أولا، ضرورة الدراسة العامة التمهيدية للفلسفة عند دراسة الطب الذهني ومعه مكملاته من العلوم النفسية، أو عند دراسة علوم النفس ومعها مكملاتها من الطب النفسي؛ فضلا عن تقديم خلاصات تلك العلوم لدارسي الفلسفة عموما.

وثانيا، أن الباحث أو المعالج النفسي، وكذلك الطبيب الذهني أو الفسيولوجي الذهني،

يجب أن يستكمل تعليمه الجامعي بالدراسة المتخصصة الفلسفة، أي بالتخرج من قسم الفلسفة أيضاً. والعكس بالعكس بالنسبة للباحث الفلسفي الذي يريد أن يشتغل في مجال البحث النفسي أو الذهني. ويمكن طبعاً إعتبار التخرج الثاني بالنسبة لكل منهم بمثابة حصول على درجة الماجيستير.

فإذا كنت ترفض أن تضع جهاز تليفزيونك أو ثلاجتك في يد شاب صغير السن لايستوعب جيداً مكونات ومشاكل هذه الأجهزة، وإذا كنت ترفض أن تضع جاموستك المريضة في يد طبيب بيطرى غير محيط جيداً بكل شروط الصحة والمرض عند الجاموس، فيجب من باب أولى ألا تضع أمخاخ ونفوس وعقول الأفراد وأفكار وعادات وذهنيات المجتمع في أيدى شبان صغار ناقصى العلم غير محيطين بمعالم هذا الميدان الواسع ومبادئه الفلسفية – خصوصاً من الأطباء الذين يتصورون أن المخ البشرى الذى هو فعلاً عضو مثل أى عضو آخر من الناحية البدنية، يمكن تناوله بنفس طريقة تناول الكلى التى تفرز البول والأمعاء الغليظة التى تفرز البراز!!

* * * *

آسف أننى أطلت كثيراً. فالموضوع كما ترى كبير وصعب ومتشعب. ثم إنه معجون بالتحليلات والمقالات منذ أقدم العصور. ثم إن ترابط المشاكل والموضوعات الذى يدفع المشتغلين بالتنوير إلى الدراسة الموسوعية من أجل الكتابة والتوضيح بطريقة موسوعية، قد اضطرتنى إلى محاولة استخدام شئ من هذا التقليد عند تناول هذا المجال العريض. ويضاف إلى ذلك أن معظم الجهات التى أرسل إليها كتاباتى من وراء الأسوار يلقونها عادة فى سلة المهملات، بحيث أضطر فى كل مرة أكتب فيها موضوعاً جديداً إلى أن أبدأ من الألف إلى الياء بدون اعتباره استكمالاً لموضوع سابق!

أعتذر مرة أخرى كثيراً. واسمح لى أن أسترجع فيما يلى عناوين وصفحات أقسام هذا الموضوع حتى تستطيع أن تلقى نظرة على مايسمح وقتكم بالاطلاع عليه منها :-

------

------

١٢ – ١٥ مارس ١٩٨٥

البند الثانى عشر - المصادفه وحساب الاحتمالات

* تقديم للتوضيح

هذا البند عبارة عن خطاب كبير، كتبته بتاريخ ١٩٨٠/٤/٩. وقد أجريت عليه بعض التعديلات مع قليل من إعادة الكتابة وفق ماتستلزمه مقتضيات النشر والتنقيح. لكنى رأيت أن أتركه كما هو بالعامية المثقفة، لأنها أسهل كثيرا بالنسبة لهذا الموضوع الفلسفى الرياضى. كما رأيت أن أترك الموضوعات الأخرى التى تضمنها الخطاب، والتى تتناول بعض التدهورات والتخليطات والعرقلات التى أصابت العلوم الجديدة والمحاولات الفكرية الجديدة منذ انبثاقها فى القرون الحديثة، مع بعض الأمثلة مما وصل إلينا فى التاريخ المعروف عن وحشية الاعتداءات التى كان يتعرض لها أصحاب الفكر والأدب، والتى كانت تتعرض لها كتب الفكر والأدب منذ العصور القديمة.

وبهذه المناسبة، كنت أستعمل العامية المثقفة فى الكثير من كتاباتى غير الرسمية : أولا، لزيادة التسهيل وتخفيف أعباء وضغوط الذهن أثناء الكتابة، ولمضاعفة قدراتى الفكرية على مقاومة المؤثرات التكنولوجية للتغليط وعرقلة أو تقطيع الأفكار، فضلا عن تحرير الأفكار من شكليات وتعقيدات وعرقلة الكتابة العربية الرسمية المتداخلة مع تقاليد العربية القديمة. وثانيا، لأن اللغة العربية الفصيحة ومن ثم الرسمية لغة منبرية خطابية، يمكن أن تدفع الذهن أو تساعد على دفعه إلى الانزلاق من الأفكار الموضوعية المحسوبة إلى العبارات الرنانة أو إلى البلاغة والزخرفة.

وهذا البند أو الخطاب الكبير، هو أحد الخطابات الثقافية الكبيرة التى كنت أكتبها لابنى مجدى فى فترة سفره الاضطرارى إلى السعودية (التى قضى فيها عدة سنوات قبل أن يرجع للالتحاق بالجامعة المصرية[1]). وكنت أستهدف من خطاباتى الثقافية السياسية الضخمة إلى مجدى

---

(١) بعد مضاعفة وتشديد الحصار المفروض على اتصالاتى فى مستشفى المجانين، لم يكن باقيا لى تقريبا ممن أثق فيهم إلا الولدان مجدى وطارق. ولهذا تصرفوا لحرمانى من هذين المنفذين اللذين كنت أعتمد عليهما فى الاتصال ببعض الجهات الحساسة (خصوصا بعض الجهات الأجنبية). وكان من السهل أن يستخدموا فى ذلك أمهما مطلقتى التى تعمل بدار أخبار اليوم (وكان محمود العالم قد ألحقها بالعمل هناك عام ١٩٦٩ فى نفس فترة حرمانى من العمل الصحفى ومن النشر!! - حيث استكملوا ربطها بشبكات مكافحة الشيوعية، وخصوصا بعض المجموعات الفلسطينية والسعودية والكويتية، الخ!). ولهذا، حدث فى أواخر عام ١٩٧٦-بعد ظهور معالم الهزيمة الأمريكية فى فيتنام= =

بالسعودية، ليس فقط وليس أساسا محاولة تثقيفه وتنويره ورفع مستوى اهتماماته، لكن أيضا وأساسا مايلى :

أولا، محاولة استرجاع وتحديد وبلورة أفكارى وتصوراتى أنا شخصيا فى مختلف المجالات.

وثانيا، محاولة تنبيه الأجهزة والشبكات الغشيمة فى السعودية (والتى كنت أعانى الكثير من تهديداتها ومحاولاتها الارهابية العاجزة الفاشلة فى مصر وليس فقط ضد الولدين فى السعودية) - تنبيهها إلى : أ- أن المراكز السوفييتية العليا منذ أواخر عام ١٩٧٦ بالذات (أى بعد هزيمة الأمريكان فى فيتنام)، بدأت التصرف من موقع التقدم فى قدرات التحكم الاشعاعى العالمى من البُعد، وأنها قررت بعد أن أطمأنت إلى قدراتها أن تتصرف لتغيير الايديولوجية الماركسية اللينينية. وكانت المراكز السوفييتية قد بدأت محاولات التحرك فى هذا الاتجاه فى عهد خروشوف، لكنها لقيت أولا مظاهر الاهمال السلبى، الذى تحول بعد ذلك إلى الرفض والتهديد الخطير من مراكز الغرب الأنجلو أمريكى! لماذا؟! لم يكن السبب واضحا إذذاك. لكن اتضح فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات، أن **العاصمة القديمة للعالم البرجوازى - لندن - صنعت الماركسية أصلا لتكون قمقماً يُحبس فيه المارد السوفييتى حتى الانهيار!!** ب- أن خفايا التاريخ والسياسة، وجرائم الأيدى السرية فى التاريخ وفى السياسة، أخطر وأبشع وأقدر كثيرا مما تتصور أذهانهم البدوية الدينية، ومن ثم لايستطيع المؤرخون والسياسيون الاسلاميون أواليساريون الذين تحركهم الخيوط الاسلامية والأنجلو أمريكية أن يتصوروا نوعية آفاق المستقبل ومدى ماينتظر أن

= = = - أنها حصلت بدون مقدمات على عقد للعمل فى السعودية مع إجازة بدون مرتب من أخبار اليوم، وطارت بالولدين إلى مجاهل السعودية! وهناك، أمكن تصفية الولد طارق تصفية إفسادية تامة، بحيث رجع عام ١٩٨٠ ليقوم بدور حلقة الوصل اليسارية لتلك الأجهزة الاسلامية (خصوصا مع خالد محيى الدين وغيره من كوادر النفاق واليسار المخابراتى فى حزب التجمع الغوغائى). ثم لم يلبث أن تحول إلى عميل مكشوف للمباحث العامة، مع استمراره مسئولا فى حزب التجمع وموظفا بمصلحة الاستعلامات، إلى أن تورط فى محاولة الاستيلاء على مخطوطه كتابى "معنى الديمقراطية" من المطبعة الأولى ففضحناه وهزمنا محركيه هزيمة واضحة، فاضطر التجمع إلى التخلص من ارتباطه الرسمى بالولد(وكان يقوم بمسئولية الدعاية عندهم تحت إشراف شخص اسمه أبو سيف يوسف (من مهابيل الماركسية فى مجموعة لطفى الخولى التى كانت تجمع منذ الستينات بين الجعجعة اليسارية والعمالة المخابراتية المصرية). أما **مجدى الموجه باسمه هذا الخطاب الكبير**، فقد تعرض لمشاكل ومصاعب لم يستطع أن يتخلص من آثارها القاصمة حتى اليوم!

يحدث فيه لمقاومة وتصفية جبال اللاعقل والتجهيل والتزييف الغيبي والتضليل الخرافي التى صنعها رهبوت العبادات الفرعونية ومولوداتها التالية خلال آلاف السنين. جـ- أن المراكز العليا فى الغرب الأنجلو أمريكى تعرف طبعا ماحدث وما سيحدث، وأنها تحاول إخفاء هزيمتها وتحاول استخدام الشرق الفرعونى الاسلامى والعالم الثالث عموما لامتصاص صدمة الهزيمة الأولى وتحمل الجزء الأكبر من خسائرها فى عمليات مشاغلة وعرقلة العدو (الذى كانت تتصور أوسيبدأ الهجوم المضاد الشامل على الفور بدون تجهيز وترتيب عالمى كاف!)، حتى تتمكن على الأقل من إعادة تنظيم صفوفها والتقهقر بانتظام. ولاشك أن أساليب إطلاق البرابرة أو الشعوب المتخلفة على الامبراطوريات الكبيرة، هى من التقاليد الكهنوتية القديمة. ولو كانت المسألة مسألة هجوم مضاد حقا بعد هزيمة فيتنام، لكان من الممكن أن يؤدى ذلك فعلا إلى الانشغال عن الغرب الأنجلو أمريكى، ومن ثم تأجيل إعلان نهايتهم فترة تتيح الوصول خلال ذلك إلى صفقة ما مع السلطة الدولية الجديدة. ء- أن ماأكتبه بامكانياتى فى أسوأ الظروف وتحت أبشع الضغوط ومؤثرات التقليط غير المحتملة، إنما يعبر رغم ذلك عن انتهاء التفوق الغربى الأنجلو أمريكى السابق، وأن هذا يشبه من بعض الجوانب ماكان يقوله ضمام بن ثعلبة لاقناع قبيلته بنى سعد بن بكر بأن قداسة اللات والعزى قد انتهت، وأن دليل انتهاء الرهبوت القديم وبدء ظهور مقدسات جديدة هو أنه أصبح من الممكن توجيه الشتائم القذرة والاهانات ضد اللات والعزى بدون التعرض للبرص والجذام والجنون كما كان يحدث من قبل!![1] وفى ظروف العقلانية الأممية المنتظرة، يكون معنى ذلك أن البقاء للأذكى والأكثر ثقافة والأكبر عقلا، وأن المطلوب هو المزيد من البحث العلمى والفكر الحر، وأنكم إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها.

وواضح طبعا مما يحدث حتى اليوم، أن محاولاتى هذه لم تكن فقط صرخات فى برية أو صيحات فى واد أو نداءات إلى موتى لاحياة فيهم، بل إنها - والحق يقال - أنتجت نتائج عكسية وأثمرت ثمارا أشد غباءً وعداءً للعقلانية وللاتحاد السوفيتى!! وكل إناء ينضح بما فيه، وعلى نفسها جنت براقش!

أنتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى أود توضيحها بمناسبة هذا البند أو الخطاب الكبير.

لقد أرسلت إلى ابنى مجدى بالسعودية منذ عام ١٩٧٧ سبعة وتسعين خطابا بالبريد المسجل! وهذا هو الخطاب رقم ٩٢ منها. وكانت أكثر هذه الخطابات، خطابات ضخمة يصل الواحد منها إلى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام - طبعة دار الفكر - الجزء الثالث، ص ص ١٤٢٨ - ١٤٢٩.

حوالى ثمانين صفحة! (وطبعا كانت تلفت نظر جهات الرصد والرقابة هناك - لكن يبدو أنهم تصوروا أن "سبب" ذلك هو أن كاتبها ملقى وراء الأسوار فى العباسية!!). والحقيقة أننى كنت أخترع بل وأختلق مبررات للكتابة الثقافية بانتظام، من خلال أى أحد يمكن اعتباره مرسلا إليه! فلما رجع ابنى المذكور من السعودية وفقدت بذلك وسيلة للكتابة الثقافية المنتظمة إليه، اضطررت إلى أن أخترع من بداية عام ١٩٨٢ مناسبة أخرى للكتابة الثقافية المنتظمة، وذلك بعنوان "دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين" - كنت أرسل أربعة منها كل شهر إلى مختلف الجهات!

لماذا هذا؟ المشتغل بالتفكير والتعبير لايسأل مثل هذا السؤال. فافراز الفكر وإفراز الكلمات المعبرة شفاهة أو كتابة عن هذا الفكر، هو أصلا وظيفة فسيولوجية يمارسها المخ البشرى ولايتوقف عنها إلا إذا توقف أو اختل نشاطه الفسيولوجى، كما يحدث لافرازات الغدد أو الكبد أو ماإلى ذلك. وهذا بغض النظر هنا عن حتميات الميكانيزمات الأخرى النفسية والاجتماعية والمعنوية والمنطقية التى تكمل هذا الميكانيزم الفسيولوجى وتتفاعل معه. لكن بالنسبة لى فى جحيم سلخانة الأمخاخ فى العباسية، كانت توجد حتمية أخرى إضافية أو اضطرار آخر إضافى، هو الصراع المستميت من أجل البقاء - أو بالأحرى من أجل تجنب السقوط والانهيار إلى الهاوية التى وضعونى على حافتها فى سلخانة متخصصة - متصورين أن الأمر لن يحتاج إلى أكثر من زقة إصبع!! وأنا أقصد بكلمة "البقاء" هنابقاء العقل والقدرة على التفكير والتعبير وليس بقاء الحياة (الذى لم يكن يهمنى كثيرا!).

وفى هذا المجال، لم تكن المسألة فقط أن ممارسة القراءة والبحث والتفكير والكتابة هى الطريقة الوحيدة التى تحمى وتحفظ لى هذه القدرات (تماما كما يفعل الرياضى المتخصص الذى يجب أن يستمر فى ممارسة الرياضة إذا أراد أن يستمر فى المحافظة على قدراته ولياقته الرياضية، أو كما يفعل من يتعلم لغة أجنبية بطريقة Learn to Speak by Speaking). لكن المسألة أيضا أن ممارسة هذه القدرات للمحافظة عليها كقدرات، كانت هى الطريقة الوحيدة للمحافظة على كيانى العقائدى وعلى صلابة مبادئى ومعنوياتى، ومن ثم عدم انزلاقى إلى الهاوية. وبدون هذا أو ذاك، لم أكن سأستحق دعم وحماية بل واهتمام المراكز العقلانية السوفييتية التى استطاعت أن تكفل لى حق وإمكانيات القراءة والكتابة داخل جحيم المجانين، من أجل أن تتيح لى تقديم ثمار ذلك وليس من أجل المحافظة على جثة شخص محنط!

وعندما كنت أكتب عن هذا الموضوع فى خطاباتى، كنت أشبّه وضعى فى هذا الصراع الشرس

المستميت من أجل البقاء العقلانى الفكرى بمثالين : الأول، هو وضع الانسان فيما يسمى "كهف الكلاب" فى أحد جبال أوروبا. وهذا كهف تموت فيه الكلاب ويبقى فيه الآدميون. لماذا؟ السبب هو وجود غازات سامة فى الكهف حتى ارتفاع حوالى متر، ومن ثم لايموت فيه الانسان المرفوع القامة! ولهذا، كنت أقول إن إصرارى على رفض السجود والركوع، وهو قبل كل شئ دفاع عن البقاء. والمثال الثانى، هو وضع الغواص فى المياه العميقة فى أعالى البحار. فهو لايمكن أن يستغنى عن حبل الحياة الذى يربطه بالسفينة التى تكفل له الحياة. وهو أيضا لايستطيع أن يستغنى عن بدلة الغوص التى تحميه من ضغوط المياه الساحقة على عمق مئات الأمتار، ولا عن أنبوبة الهواء التى تعطيه أنفاس الحياة. وفى جبِّ مستشفى المجانين، كانت بدلة الغوص هى القراءة والتفكير، وأنبوبة الهواء هى الكتابة والتعبير. ويضاف إلى ذلك عامل ثالث لايغفل عنه عاقل، هو ضرورة أن يستمر ذلك الغواص مصدر فائدة لقائد السفينة، يؤدى باخلاص مهام البحث والتنقيب والاكتشاف والتجميع فى مجاهل قاع المحيط، لأن قائد السفينة – الذى يتعرض هو نفسه للضغوط والمشاكل الخطيرة – قد يرى أن الأجدى لسفينته أن يسرع بها بعيدا ويترك ذلك الغواص وشأنه. ولعل ذلك كله، يكفى ليوضح أن استغراقى فى مستشفى المجانين فى القراءة والكتابة وفى التفكير والتعبير، وفى البحث والتنقيب والاستكشاف الفكرى، كان عملية حياة أو موت بالمعنى الحرفى للكلمة.

ثم هناك جانب آخر فى هذه المشكلة، هام جدا من الناحية الذاتية. هذا الجانب يتعلق بمقتضيات أو مستلزمات العملية الفكرية. فالبحث والتفكير يحتاج مثلا إلى مراجع ومصادر اطلاع ومواد للتناول. لكن هذه قد يمكن الحصول على أقل القليل منها، واستخدامه بطريقة المثل القائل :"الشاطرة تغزل برِجْل حمار"! (أى بقطعة عظم). ذلك أن المطلوب هو تقديم تصورات كروكية وأفكار وفروض وتفسيرات مفتاحية عامة، وليس المطلوب طبعا تقديم نظريات متكاملة أو أعمال فكرية مكتملة أو كتابات تذهب من العباسية إلى المطبعة مباشرة!! أما الجانب الذى يمثل مشكلة حقيقية عسيرة فى هذه العملية، فهو أن الفكر حوار. هذا هو المعنى الأصلى الصحيح لكلمة الديالوج والديالكتيك أو الجدل والجدال منذ أيام سقراط. الفكر حوار : سواء كان داخل الذهن، أو فى مناقشة وتبادل للأفكار بين أكثر من شخص، أو فى خلاف جدالى بين اتجاهات متعارضة، الخ الخ. وفى مستشفى المجانين (وسط زبانية ومجرمين أو حثالات ومتسولين أو مجانين لايمكن التفاهم معهم)، لم يكن يزورنى من داخل أو من خارج المستشفى أحد يمكن أن أتبادل معه الرأى أوالكلام الثقافى، ولم يفكر أحد فى أن

يكتب لى فى أى اتجاه أو فى أى موضوع! وحتى الزيارات الشخصية المحصورة جدا، لم تكن تتيح لى إلا نادرا فرصة الكلام، ومن جانبى فقط! ومعنى ذلك عمليا، انعدام التبادل أو التفاعل أو التواصل الذهنى بين طرفين متقابلين، ومن ثم انعدام التوالد الفكرى الذى لاينتج إلا عن تزاوج أو حوار بين فكرين!

وإزاء ذلك، كان لابد من البحث فى القراءات الممكنة وفى حصيلة الأفكار السابقة أو استرجاعات الذاكرة، عن الاعتراضات والخلافات والتساؤلات أو الردود الممكنة. لكن حتى لو أمكن الحصول بطريقة أو بأخرى على بعض الاعتراضات والخلافات والمحاولات السابقة من الرصيد الفكرى المتاح، فان هذا لايكفى فى حد ذاته، لأنه لابد من أن يتكون فى الذهن مايشبه الرحم الذى تتزاوج فيه الأفكار وتنمو وتتطور، أى يجرى ويتكامل فيه الحوار والاستدلال وصياغة النتائج. **هذا هو المستمع أو القارئ أو المحاور والمجادل أو طالب البحث، الذى لابد أن يتصوره المفكر فى ذهنه أثناء صياغة أفكاره شفاهة أو كتابة. فان لم يوجد مثل ذلك الشخص فعلا، فيجب على الأقل أن يتخيل الباحث شخصا ما فى هذا الموقع، وأن يتخيل أنه يشرح له أو يكتب له ويناقشه ويحاول إقناعه بالأفكار والتصورات التى يصل إليها أولا بأول، والتى يقوم بتطويرها وتنميتها وبلورتها وإنضاجها، الخ.**

فاذا كان الباحث فى مثل هذه الظروف يعرف شخصا معارضا لهذا الإتجاه، فانه يكتب له، أو يضع صورته فى ذهنه أو خلفية ذهنه وهو يفكر أو يكتب، بحيث يستطيع أن يناقش وأن يحدد أفكاره فى مواجهته. وإذا كان يعرف شخصا يتوقع على الأقل أن يهتم بالاطلاع على رأيه وبقراءة كلماته، فانه يكتب له، أو يضع على الأقل صورته فى ذهنه كهدف ثقافى أثناء التفكير والكتابة. وبهذه الطريقة، يحدث **التواصل الذهنى** (ولو فقط داخل الذهن) بحيث يثير درجة ما من الحوار أو التبادل أو التفاعل، ومن ثم يؤدى إلى توليد الكلمات والكتابات المطلوبة. وأقل دور مطلوب **للتوليد الفكرى** فى هذه الحالة، هو دور القابلة أو المولِّدة، أى الشخص الذى يتصور المفكر أنه سيتلقى أفكاره بين يديه!

وفى الشعر مثلا، لايستطيع الشاعر أن يؤلف قصيدة حب وغزل، إلا إذا كان على علاقة بامرأة يستلهم منها الصور المطلوبة، أو على الأقل إذا كان قد رأى امرأة معينة يجعلها عروس أحلامه! وهذا فضلا عن أن يتصور طبعا أنها هى أو غيرها من النساء والرجال، سيسمعون أو يقرأون أشعاره

هذه. وعندما كنا صغارا، كان المدرس يقول لنا فى حصة الرسم : ارسم من المنظور كذا وكذا (مثلا وعاء أو آنية زهور). وكان معنى ذلك أن ننظر إلى ذلك الشئ ونحاول رسمه. لكن فى السنوات التالية، كان يمكن أن نرسم مثلا دجاجة أو قطة من الذاكرة وليس من المنظور. بل إن المتمرس فى الرسم يستطيع أن يسترجع فى ذاكرته صور الرسومات السابقة بدلا من صور المرسومات السابقة.

صحيح أن الطبيعة والأصل الواقعى يكون دائما أغنى وأكثر حيوية وأشد تنشيطاً للذهن واستثارة للفكر. ولكن المهم فى الأحوال الاستثنائية المذكورة، هو أداء الواجب بدرجة أو بأخرى – ولو بطريقة التخطيط الكروكى.

لهذا السبب، كان من المفيد جدا أن تتحدد فى ذهنى أسماء أشخاص أوجه إليهم الكتابة والمناقشة فى هذا الموضوع أو ذاك، أو أرسلها إليهم فى خطاباتى بعد ذلك. وكان هذا يحقق درجة كافية من التفاعل أو الحوار الذهنى المطلوب. فاذا اتضح لى من متابعة الأصداء أو ردود الفعل لدى شخص معين (خصوصا من كتاباته الصحفية) أنه عديم الاحساس والتجاوب، أو أن اتجاهه الذهنى لايعطى إمكانيات للتواصل والحوار، أسقطه من ذهنى تماما وأبحث عن "مسمار" آخر أعلق عليه خيوط أفكارى! وهذا يذكرنى بما حدث عندما تلقيت إشارة من المراكز السوفييتية فى عام ١٩٧٦، بأنهم قرروا التصرف لاحداث تغييرات جذرية فى الايديولوجية للتحرر من الماركسية اللينينية، وأنهم يطلبون من المفكرين المخلصين أن يدلوا بدلوهم لتحديد معالم البديل العلمى المقترح. وكنت فى تلك الفترة قبل الحصول على الضوء الأخضر الصريح، أكتب بحثا عن المنطق والفلسفة، أحاول فيه توضيح أخطاء الماركسية توضيحا مخففًا وناعما جدا بقدر الامكان! فأرسلت ذلك البحث إلى زكى نجيب محمود، ومعه كلمة عن التغييرات الايديولوجية المنتظرة فى الاتحاد السوفييتى.[١] وبعد قليل، فوجئت به يرد على ذلك فى أهرام ١٩٧٦/٦/١٧ بالكثير من الاهانات الوقحة، مع تلويحات يستنفر فيها السلطات ضد الخطابات الكبيرة "المنتفخة" التى أرسلها إلى مختلف الجهات (ويبدو أنه ومحركية فى الأهرام كانوا يتصورون أننى أكتبها وأرسلها سرا!!).

وكان من الواضح أنه يريد قطع التواصل الذهنى وليس فقط التواصل الورقى بينى وبينه. فقد كان يعمل منذ العهد الملكى تبع الأجهزة الانجليزية والأمريكية قبل أن ينتقل إلى العمل تبع الأجهزة الاسلامية. وبوضعه القديم هذا فى خدمة الأقسام المتخصصة فى الفكر فى تلك

(١) انظر كتاب "المبادئ الفلسفية الجديدة"، ص ص ٤١ – ٤٨.

الأجهزة، كان يعرف جيدا خطورة نقد وتفنيد الماركسية والتحرر من الماركسية حين يصدر فى اتجاه عقلانى أممى. ولهذا كرر التذير والتحذير بهذا الخصوص بعد فترة، وشبّه هذه العملية بقصة الفأر الذى أراد أن يرد الجميل لأسد أعفاه من الموت قبل ذلك، فرآه مقيداً فى شبكة الصياد فاستمر يقرض حبال الشبكة حتى أنقذه! وهذا يؤكد أن العملاء العقائديين الأنجلو أمريكان، كانوا يدركون تماما أن الماركسية قيد غربى أنجلو أمريكى وشبكة غربية أنجلو أمريكية أوقعوا الروس فى داخلها توطئة لتصفيتهم، وأن "فئران" البحث والتحليل والتفكير فى النصوص والكتب والوقائع يمكن أن يمزقوا تلك الأغلال الماركسية فيطلقوا المارد العقلانى الأممى من عقاله!

وعلى كل حال، فقد أردت أن أوضح بمناسبة هذا الخطاب الذى كتبته إلى ابنى بالسعودية، كيف كانت عملية التفكير على الورق عملية صعبة وشاقة جدا بالنسبة لى، ومحاصرة (بل ومخنوقة أحيانا)، وكيف أن هذا الخطاب مثل غيره من الخطابات الكبيرة كان حلقة فى سلسلة الكتابات المتواصلة التى كنت أستهدف بها البحث والتطوير الفكرى للبدائل النظرية الجديدة أكثر مما أستهدف بها شخصا معينا بذاته حقا. ومع ذلك، فقد كان فى ذهنى وأنا أكتب هذا الخطاب بشكل خاص - كما أوضحت لابنى فى صفحاته الأولى - أن أرسل صورة منه إلى رجل سياسى كنت أعرفه منذ الخمسينات، هو الدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الاحصاء والرياضيات وأحد مسئولى كلية العلوم بعد ذلك. وبالفعل أرسلت إليه صورة من الخطاب مع أوراق أخرى عن الأساس المنطقى للرياضيات والحلول المنطقية لبعض المشاكل الرياضية، كما أرسلت صورة أخرى لشقيقه المرحوم الدكتور محمد أنيس عندما كان يعمل ببعض دويلات الخليج على اتصال بمجلة "العربى" الكويتية. وكالمعتاد، ورغم أن واحدا من الاثنين لازال حيا يرزق فى أوكار ومطبوعات حزب التجمع الغوغائى حتى اليوم، فقد كان رد فعل هذه المرسلات هو :

لقد أسمعت إذ ناديت حياً * ولكن لاحياة لمن تنادى!

■ فكرة المصادفة والاحتمالات

● فى هذا التقديم، يهمنى أن أسجل أن كتاباتى عن الأساس المنطقى للرياضيات، وعن

الحلول الفلسفية للكثير من المشاكل والمفارقات الرياضية، وعن موضوع المصادفة والاحتمالات (الذى يعتبر هذا الخطاب مجرد حلقة فى سلسلة كتاباتى عنه)، هى كتابات ارتبطت بالكثير من الأبحاث الفلسفية والمنطقية عن مبادئ ومشاكل الفيزياء فى موضوعات المكان والزمان والظواهر أو المكونات الميكرو (الذرية والتحت ذرية والتحت مادية)، وعن الأساس الفلسفى المنطقى للحسابات والاستدلالات التحت ذرية ولحساب الاحتمالات التحت ذرية، الخ.

● وقبل الانتقال إلي الخطاب المذكور، الذى يعتبر أهم جزء فيه هو الخاص بموضوع المصادفة وحساب الاحتمالات، يهمنى أن ألخص هنا الأرضية الفلسفية المنطقية لتصوراتى عن هذا الموضوع. فقد أشرت إلي بعضها فى كتاب "المبادئ الفلسفية الجديدة"[1]، لكنى لم أفرد لها فصلا أو بندا متكاملا، بسبب تبعثر وتفرق كتاباتى الكثيرة عنها.

● **معنى المصادفة باختصار، هو الحدث غيرالمحدد من قبل - حتى لو كان متوقعا بدرجة ما.** والمقصود عمليا بعدم التحدد المسبق للمصادفة، أنه عدم تحدد فى الواقع الموضوعى، وليس عدم تحديد أى عدم إدراك ناتج عن الجهل أو التضليل وحجب المعرفة. وإلا، فان البحث فى المصادفات والاحتمالات يتحول إلى بحث فى مدى معلومات ومجهولات كل شخص!

ومن حيث حساب الاحتمالات، فأنا اتناول مشكلة المصادفة من زاوية فلسفية منطقية، وليس من زاوية رياضية شكلية تكون معلقة فى الهواء إذا لم تركز على قاعدة من هذا النوع. وأهم عناصر القاعدة الفلسفية المنطقية لهذه المشكلة، عنصران هما : ١- أنها فى الأصل مشكلة تحديد علّى / سببى[2]، تتناول وقوع أو عدم وقوع الأحداث كمعلولات تصنعها مكونات ومؤثرات علّية معينة، وليست مجرد معدودات إحصائية تعالج بالحسابات الرياضية الشكلية.

---

(١) مثلا فى ص ١٢ - ١٣، وص ١٠٥، وفيما ذكرته تحت اسم "المبدأ التاسع" من مبادئ الأساس الفلسفى للعلوم فى ص ص ١٢٧- ١٤٢.

(٢) من الناحية المنطقية، يختلف معنى العلة cause عن معنى السبب reason، من حيث أن كلمة "السبب" تعبر عادة عن العلة المباشرة (فضلا عن أنها تتخذ عادة طابعا بشريا)، بينما كلمة "العلة" تعبر عن كل مايؤدى عموما إلى الحدث أو المعلول، بما فى ذلك المؤثرات غير المحددة. ولهذا، فالأدق أن نستعمل هنا كلمة "علة" ومشتقاتها.

٢- أنها بناء على ذلك، مشكلة تحديد لـ "الامكان" possibility، من حيث درجاته ومن حيث بدائله التى هى عدد الممكنات المتاحة. **ومعنى ذلك استخدام القياس العلّى فى تحديد درجات وبدائل الامكان.**

وقد كان القدماء يستخدمون مقولة تسمى **"الجهة" modality**، تقسم الأحداث أو الوقائع إلى: ضرورى، وممكن، ومستحيل. فاذا أدركنا أن الضرورى هو الذى يستحيل بديله، وأن المستحيل هو الانعدام الضرورى، نجد أن الأنواع الثلاثة المذكورة يمكن اعتبارها ثلاثة منظورات للامكان كما يلى : الامكان الوحيد (فى الحدوث أو الوقوع) أى الضرورة، والامكان المتعدد، وانعدام الامكان أى الاستحالة. **وهذا يبين أن القياس العلّى الذى يحدد درجات وبدائل أو تعددات الامكان، هو نفسه الذى يحدد ضرورة واستحالة الأحداث.**

وعناصر أو مقومات القياس العلّى للمصادفات والاحتمالات، يمكن تقسيمها إلى :

١- إمكان استمرار الاشتراك العلّى العام، أو الاشتراك فى أساس علّى معين، أى فى دائرة من الثوابت تشكل قاعدة للمتغيرات المختلفة. (ويمكن أن يصل هذه الاشتراك - كمثال تبسيطى - إلى قيام شخصين مثلا بالعمل فى مكان مشترك وفى وقت مشترك وفى نشاطات مشتركة أو متداخلة، بحيث تكون مصادفات التقائهما ضرورية ومتكررة، وتكون المصادفة غير العادية أو المصنوعة هى عدم التقائهما فى الظروف المذكورة. ومن أمثلة ذلك أيضا، إقامة شخصين فى حىّ واحد عند محطة أوتوبيس واحدة ومواعيد عملها متقاربة، بحيث تكون مصادفات التقائهما عادية متكررة).

٢- إمكان حدوث التيارات العلّية المؤقتة، أى المتغيرات المترابطة التى تظهر فى فترة معينة وتعمل فى عكس أو فى اتجاه الثوابت العلّية. (مثل حدوث متغيرات علّية تنقل شخصا فى فترة مؤقتة من حيّ إلى آخر أو من عمل إلى آخر، الخ. وهذه تؤدى إلى مصادفات غير عادية). وتوجد درجات من التقارب أو التباعد فى تيارات المتغيرات العلية المذكورة، ومن ثم فى درجات المصادفات غير العادية، بحيث يمكن أن تتيح مثلا التقاء شخصين فى مدينة أخرى - من منطلقات علية ثابتة ترتبط بالعمل أو بالأسرة، الخ. **ولهذا ، فان المصادفات غير العادية يمكن أن تصل إلى درجة المصادفات**

الغريبة، ثم إلى درجة المصادفات الغريبة جدا أو الاستثنائية.

٣- إمكان تحقق العلل المباشرة أو الحدوثية، أى التى يؤدى أو يُفترض أن يؤدى حدوثها إلى وقوع أو عدم وقوع المصادفة. وهذه يجب أن تحدث على أساس الثوابت ثم التيارات العلية المذكورة. (مثل توقيت نزول الشخصين المذكورين إلى محطة الأتوبيس المشتركة). وباعتبارها عللا إضافية أو ترجيحية، يجب أن يكون مداها محدوداً ودرجاتها محدودة. لكن إذا حدثت هذه العلل المباشرة أو الحدوثية بدون أن ترتكز على ثوابت علّية مشتركة، أو على متغيرات علّية مترابطة، فانها تؤدى إلي مصادفات معلقة فى الهواء أى مصنوعة. (من ذلك مثلا التقاء الشخصين المذكورين فى بلد آخر لأن أحدهما أو كليهما أصابته "نزوة شخصية" جعلته يذهب إلى ذلك البلد!).

٤- إمكان حدوث المؤثرات العلّية غير المحددة (مثل حدوث جزئيات صغيرة فى سرعة الحركة أو فى درجة التنبه أو فى سرعة وصول وانطلاق الأوتوبيس من المحطة المشتركة المذكورة، بحيث تؤدى إلى وقوع أو عدم وقوع المصادفة).

وفى هذا الهرم المتصاعد الذى ترتكز أجزاؤه الأعلى على أجزائه وقواعده السفلى، يكون <u>المعيار المنطقى الحاسم الذى يميز بين المصادفة التلقائية والمصادفة المصنوعة هو التعليل التام، **أى التساوى بين المجموع العلّى وبين المصادفة الناتجة عنه**</u>. وطبعا هذه المسألة تحتاج فى معظم الأحوال إلى أجهزة ذات سلطة وإلى وسائل رصد علمى وتحقيق علمى للتمييز بين العلل أو المؤثرات العلّية التلقائية، وبين العلل أو المؤثرات العلية المصنوعة أو الاضافية التى "تبرر" وقوع المعلول غير المتوقع وهو المصادفة. لكن هذا يتعلق بالتحقيق فى حقيقة "التبرير" العلى للمصادفة، ولايخص المنطق والفلسفة. أما المصادفات التى تفتقد أصلا "التبرير" العلّى على مستوى الثوابت أو المتغيرات والاضافات الترجيحية، فهذه تعتبر من الناحية الفلسفية والمنطقية مصادفات مصنوعة، أى ترجع إلى علل علّية سرية أو محكومة سرا. من ذلك مثلا أن يموت شخص ما فى تاريخ مولده أو فى تاريخ موت أبيه. فهذه "مصادفة" استثنائية نادرة (تعتبر فى الحسابات الاحصائية بنسبة $\frac{١}{٣٦٥} \times \frac{١}{٣٦٥}$، أى بنسبة واحد على ١٣٢ ألف). والمهم هنا ليس الرقم الاحصائى، ولكن ضرورة التعليل التام لحدوثها (كأن يتضح مثلا أن الرجل قتل فى ذلك اليوم بالذات عن عمد لأسباب تتعلق بالثأر والترصد

أو ماإلى ذلك). وبدون التعليل، فانها تكون بالضرورة ناتجة عن عملية سرية محكومة. وفى حوادث ونوادر التاريخ والغيبيات والكرامات الخرافية وماإلى ذلك، توجد أمثلة كثيرة جدا من هذا النوع.

والخلاصة أن المصادفات يمكن أن تنقسم إلى : مصادفات عادية، ومصادفات غير عادية (أى بدرجة متوسطة)، ومصادفات غريبة أو غريبة جدا، ومصادفات استثنائية. ولكل نوع منها درجات. لكن الفيصل والمعيار الحاسم، هو خضوع المصادفة للتعليل التام، يغض النظر عن النسب الاحصائية! وهذا يتضح بشكل خاص فى المصادفات العشوائية التى سنتناول موضوعها فى هذا الخطاب.

فاذا كانت الثوابت العلّية لحركة أرقام النرد / الزهر مثلا هى ستة، بينما لاتوجد بالاضافة إلى هذه الثوابت العلّية أى مكونات أو تيارات علّية أخرى ولكن فقط مؤثرات علّية غير محددة تتمثل فى عشوائيات حركة اليد وحركة النرد، فمعنى ذلك أن تكرار ظهور رقم واحد أكثر من مرة على التوالى يجب أن تكون له حدود معينة أو إطار معين هو حدود وإطار هذه العشوائيات. فاذا تخطى هذه الحدود أو هذا الاطار - كأن يتكرر مثلا ثلاث أو أربع مرات متوالية - **فان المشكلة لاتكون مشكلة نسبة إحصائية فى حساب الاحتمالات، ولكن تكون مشكلة وقوع حدث بدون علّة كافية،** مما يعنى ضرورة افتراض تفسير واحد على الاقل من تفسيرين : ١- تغير فى الأساس العلّى (مثلا حدوث تغيير فى تكوين أو فى ثقل قطعة الزهر). ٢- حدوث تدخل فى التأثير العلّى (مثلا حدوث تحكم ما فى حركة اليد).

وهذا التحديد الواضح فى ظاهرة بسيطة مثل أرقام النرد أو إلقاء العملة toss(= الطوسة أى قرعة وجه العملة أو ظهرها)، ينبهنا إلى أن المصادفات الغريبة جدا والاستثنائية أو النسب الاحتمالية النادرة جدا فى الظواهر الشديدة التعقيد وغير المحكومة بدقة - مثل أحداث الالكترونات وغيرها من الأحداث التحت ذرية - تعتبر مصادفات أو احتمالات ناتجة عن تداخل دوائر وقواعد أو أسس علّية متعددة، وتداخل تيارات علّية متعددة، وليس فقط نتيجة عشوائيات التأثيرات العلّية الاضافية. فنقص أو عجز قدرات التحكم والتحديد هنا، هو الذى يؤدى إلى

عدم تحدد الدوائر والقواعد والتيارات العلّية التى تصنع الأحداث الميكرو المرصودة، ومن ثم يؤدى إلى الوقوع فى التصور الخاطئ الذى يعتبر أن غرابة مصادفاتها واتساع احتمالاتها هو نوع من التشتتات العشوائية التى تشبه تشتتات أرقام النرد أو وجهى العملة! وعلى أساس هذا التصور الخاطئ، يقيمون (فى فلسفة العلوم أو منطق البحث) تصوراً عاما أشد خطأً ولامنطقية، يزعم أن نسب المصادفات وتوزيع الاحتمالات يمكن أن تصل فى أى مجال إلى أى درجة صغرى أو لانهائية فى الصغر (!!) - على غرار حساباتهم البرجماتية عن المصادفات فى المجال الميكرو التى هى حسابات خاصة بمجال لازال الإنسان عاجزاً فيه عن التحديد الدقيق والتعليل الدقيق لأفعاله ولمكوناته وعلاقاته الأدنى، ومن ثم التحديد الدقيق والتعليل الدقيق لدوائر ولدرجات وبدائل الإمكان فيه.

ولننظر الآن فى الخطاب بمختلف موضوعاته.

الأربعاء التاسع من أبريل ١٩٨٠

. . . مجدى

. . . .

وبخصوص الولد طارق فى القاهرة، أنا كتبت لك المرة اللى فاتت إنك ماتهتمش بالكلام اللى كتبهولك، وخصوصا حكاياته عن كلاب اليسار المصرى اللى ارتبط بيهم لمصالحه الشخصية، واللى متصورين بغباءهم المعهود إنهم حيقدروا يستخدموه ضدى زى ماastخدموا....

معلهش، الخطاب المرة دى طلع كبير جدا، وفيه بعض "الكلاكيع" عن الرياضيات وماإلى ذلك. فأرجو تعمل تمرين لـ"عضلات" مخك قبل وأثناء قرايته. وانا عارف إنك مابتحبش الرياضيات. لكن الحقيقة إن الموضوع اللى حاكتب عنه هنا يعتبر "**مبادئ منطقية**" أو "**تأسيس منطقى**" لأحد فروع الرياضيات، هو مايسمى "**حساب الاحتمالات**" : اللى بيتضمن موضوع المصادفة والفلتات والانحرافات أو التشتتات غير المتوقعة، الخ. والمسألة مش بس مسألة ترييض وتثقيف لذهنك، لكن فيه كمان سبب خاص بيدفعنى إلي الكتابة عن الموضوع ده هنا، هو إنى عايز أسترجعه وأستوعبه فى مخى أكثر، وأعمل له تطويع وتسهيل

فى تفكيرى، وأحدد وألخص عناصره وأفكارى عنه، بعد مئات الصفحات اللى كتبتها عن المشاكل والأسئلة المتعلقة بيه. ثم كمان لأنى عايز أبعت أوراق عنه إلى أستاذ متخصص فى الجانب الرياضى الاحصائى من الموضوعات دى. وعلى كل حال، أوعدك بان دى تكون آخر مرة أكتب لك فيها عن منطق الرياضيات. ثم إنت مش ضرورى تقرا كل كلمة فيه. لكن الفقرة أو النقطة اللى ماتقدرش تتابعها، تخطيها وتنقل على اللى بعدها.

وأنا بدأت فى الأجزاء الأولى من الخطاب، أعمل توضيح لصراع العلم منذ عصر النهضة والتنوير ضد قوى وحواجز التجهيل، بحيث إنه ماكانش بيتقدم أى خطوة إلا من خلال معارك وحروب ضد أجهزة وشبكات التحكم اللاعقلى فى البشر، اللى اضطرت بعد مراحل الظلام الغيبى الشامل الصريح فى العصور القديمة والوسطى إنها تستخدم حروب العرقلة والتخريب واللخبطة والتتوية ضد العلوم والعلماء وضد الفكر والمفكرين، وتستخدم المقاومة السرية المنافقة والضرب السرى والتحطيم الشخصى، أو حتى مجرد التعطيل والتخفيض. وفى الأجزاء الأخيرة من الخطاب، حارجع إلى نفس الموضوع من خلال أمثلة شخصية عن مآسى بعض المفكرين.

أما موضوع المصادفة أو التشتت المفرد والخاص فى توزيع الاحتمالات، فهو موضوع تعبر عنه مثلا عملية الطوسّة toss، يعنى قرعة العملة : ملك – واللا – كتابة. والمطلوب إننا نعرف إيه النظام بتاع كل مرة، وليه لما عدد مرات الطوسّة بيزيد بنوصل تقريبا إلى نتيجة متساوية بين وجه العملة وظهر العملة (مثلا ٤٧٪ ملك و٥٣٪ كتابة). وإيه نظام توزيع الاحتمالات فى عمليات من نوع آخر، زى مثلا أحوال الطقس والمطر، أو تدهور صحة شخص مريض ثم وفاته، الخ.

ونبدأ دلوقت بالتأمل فى تطورات الأبحاث المرتبطة بهذا الموضوع.

✪ المنطق والرياضيات

زى ماقلت، الطريقة اللى حاأتناول بيها موضوع المصادفة وحساب الاحتمالات، تدخل فى المنطق مش فى الرياضيات. أو بتعبير أدق، تدخل فى **منطق الرياضيات**. وأنا أقصد بالكلمة دى : الأسس المنطقية للرياضيات، أو فلسفة الرياضيات ومنطق البحث فى

الرياضيات – بما فى ذلك بحث الأصول المنطقية لعملية رياضية معينة. ولاحظ إن المعنى ده مختلف تماما عن معانى بعض الأسماء الحديثة المشابهة اللى تجمع بين المنطق والرياضيات. مثلا : المنطق الرياضىMathematical logic. وده فرع من المنطق بيستخدم الرموز والحسابات فى التعبير عن المعادلات والعلاقات المنطقية. يعنى معناه المنطق الرمزى نو الأسلوب الرياضى. والفيلسوف ليبنتز كان بيسميه كمان logistica. وده مجرد شكل أو أسلوب فى التحليل المنطقى. لكن فى العصر الحاضر ظهرت كلمة logicism بمعنى آخر مختلف جذريا عن المعنى اللى بدأنا بيه الكلام، رغم إن الكلمة ممكن تاخد اسم مشابه هو: "منطَقَة" الرياضيات – يعنى ردّ أو ترجمة الرياضيات إلى المنطق! وأشهر اتنين قاموا بالمحاولة دى، هم برتراند رسل Russell وألفريد نورث وايتهدWhitehead فى كتابهم المعروف برنكيبيا ماتيماتيكا/ المبادئ (أو الأصول) الرياضية.

والمعروف إن رسل ووايتهد بدأوا أبحاثهم فى اتجاه عكسى هو ترييض المنطق يعنى تحويله إلى رياضة، ثم انقلبوا فى كتابهم المذكور إلى اتجاه منطَقَة الرياضة يعنى تحويلها إلى منطق! (وده اتجاه ممكن نسميه "المنطقاوية" – لأن دى هى الترجمة الحرفية لكلمة logicism، ثم كمان لأن هذه الصياغة فى اللغة العربية بتعبر عن السخرية وعن خطأ التطرف فى الاتجاه!). والحقيقة إن محاولتهم فشلت. واللى يدرس ويحلل المصايب والمشاكل وعدم الاستقرار والتهديدات والاثارات اللى اتعرض لها الاتنين دول أثناء تفكيرهم وتجهيزهم لكتاب البرنكيبيا، يلاقى إنهم كان لازم يغلطوا ويلخبطوا فى هذا الموضوع الشديد الدقة والعمق والتجريد. فمجرد نقطة زيادة هنا أو نقطة ناقصة هناك، تقلب النحلة إلى نخلة والنخلة إلى نحلة!

وأنا أعتقد إنهم كأساتذة فلسفة بدأوا بفكرة صح كانت تسيطر على أذهان الفلاسفة القدماء، وهى: **التأسيس أوالتأصيل المنطقى للرياضيات، أو البرنكيبيالوجيكا ماتيماتيكاى** Principia logica mathematicae. ودى كانت حتبقى محاولة صحيحة ومفيدة فى اتجاه "منطق الرياضيات" بالمعنى اللى بدأت بيه الكلام. لكن زى أى علم جديد أو محاولة علمية جديدة، انحرفوا فى الاتجاه، ثم شقلبوا الاتجاه! زى كده محاولات البحث الكيميائى – اللى كانت نتيجة ضغوط التغليط والتخليط الذهنى فى العصور الوسطى والكتب العربية والعبرية التخريفية – بتنحرف إلى البحث عن أكسير الذهب ثم إلى السيمياء

والتخريف الكيميائى! وزى أبحاث الطب والعقاقير اللى كانت بتنحرف بنفس الطريقة وتغرق فى البحث عن أكسير الشباب مثلا! يعنى المهم إنك تغرق فى البحث عن سراب أو عن وهم، فيضيع جهدك وتتبدد أبحاثك ولاتصل إلى أى اكتشافات ذات قيمة. وبدل ماتقيم ترعة أو قناة تتدفق فيها أفكارك إلى أرض زراعية تجنى ثمارها، تتجه تدفقات أفكارك إلى الصحراء فتضيع طبعا بدون فائدة، أو ربما إلى أوكار وأدغال المغالطة والتخريف فتساعد على تدعيمها وتكثيفها!

وفى حالات معينة، ممكن يستخدموا عربجى يفعص مخ العالم أو المفكر غير المرغوب فيه، زى ماعملوا مع بيير كورى اللى داسته عربية كارو ففعصت مخه! لكن فى حالات أخرى، ممكن يكتفوا ببعض وسائل وتأثيرات التغليط والتخليط اللى تغير الاتجاه والنتائج أو تلخبط الأفكار، لأن مكونات وعلاقات وتركيبات التفكير دقيقة جدا وحساسة جدا – مش بس من الناحية المعنوية المنطقية، لكن من حيث أساسها الفسيولوجى والفيزيائى. وأنا شفت فى إحدى المجلات، صور نشرها بعض العلماء عن القرق بين شبكة العنكبوت الطبيعية والشبكة اللى ينسجها العنكبوت بعد تعريضه للقليل جدا من عقاقير الهلوسة! طبعا التأثير مابيزيدش بحيث إن العنكبوت يقول "أنا جدع" ويلخبط خالص زى الشخص السكران. لكن تقدر تشوف فى الصور إزاى بيلخبط هنا وهناك فى نقط كتيرة فى نسج الشبكة، بدرجة واضحة جدا للنظر المدقق. ده اللى بيحصل فى تسلسلات عملية غريزية شبه ميكانيكية بيكررها العنكبوت منذ آلاف الملايين من السنين. فما بالك بقى باللى ممكن يحصل للفكر المنطقى ولخطوات الاستدلال المنطقى وشبكات التسلسل المنطقى اللى بتستخدم أدق الدقائق الفسيولوجية والفيزيائية المكتسبة المستحدثة اللى مش ممكن تقارن مع الميكانيزمات الحشراتية السفلى والعريقة فى مخ العنكبوت؟! ومابالك إذا كانت عمليات اللخبطة دى وتربيطات التغليط والتخليط سهلة جدا جدا، باستخدام المؤثرات الاشعاعية وتكنولوجيا التحكم الذهنى اللى بتعتمد على مختلف المؤثرات الشخصية المحكومة – وفى الغالب بدون استخدام أى مؤثرات كيميائية حاليا؟!

● ونرجع لمحاولة رسل ووايتهد. للأسف إنهم بدل مايبحثوا فى المبادئ أو الأصول المنطقية للرياضيات، حاولوا يثبتوا إن الرياضيات كلها ممكن تتحول إلى منطق! صحيح إن روح

الاستهداف الصحيح فرضت وجودها بطريقة أو بأخرى فى هذه المحاولة، ولو بين بعض السطور، وبالتالى قدمت فوائد ومواد للتفكير والبناء العقلانى العلمى الصحيح. لكن من حيث النتائج العامة والاتجاه العام، نلاقى إن رسل ووايتهد عملوا زى الباحث فى الأنساب مثلا اللى يبدأ بمحاولة إثبات إن فلان ده هو ابن فلان الأب، ثم فجأة يسكر أو يحشش أو ياخد عقار هلوسة، فيقفز إلى محاولة إثبات إن الابن المذكور يعتبر فى هذه الحالة هو الأب، وإن ممكن نعتبر وجود الأب متمثل فى وجود الابن بدل مانعتبرهم شخصين بينهم علاقة أبوّة وبنوّة! وبالطريقة دى، قلبوا علاقة "القرابة المباشرة" بين المنطق والرياضيات، إلى علاقة استبدال وردّ أو ترجمة: Mathematics is reducible to logic

ــ والحقيقة إن الاتجاه العقلانى فى فلسفة العلوم، يجب يعمل تأسيس وتأصيل فلسفى منطقى لكل العلوم، بطريقة متسلسلة متصاعدة أو متدرجة من علم سابق منطقيا إلى علم لاحق منطقيا، ولايقتصر على التأسيس والتأصيل المنطقى للرياضيات فقط. لكن المسألة هى : أولا، إن الحلقة الأولى من السلسلة تؤدى إلى الحلقة الثانية ولاتحل محلها، وإن الدور الأول فى البناء يحمل الدور الثانى ولايحل محله. وثانيا، إن العلاقة بين المنطق والرياضيات هى بالفعل علاقة "خاصة" جدا و"وثيقة" جدا، لكن طبعا علاقة تمايز وتحديد.

فاذا كان المنطق هو الأساس أو الأصل الأول لكل العلوم، فالرياضيات هى الأساس والأصل التانى للعلوم. وإذا كان المنطق هو أعم وأشمل العلوم وأكثرها تجريدا، فالرياضيات هى التالية على المنطق من حيث التعميم والشمول والتجريد. والمنطق هو أعم العلوم، لأن موضوعه هو قواعد وعلاقات الصح والغلط – ودى تشمل كل مجالات المعرفة والادراك، وتعبر عن علاقات التساوى أو عدم التساوى بين أىّ مدركات قابلة للتحديد. أما الرياضيات، فهى العلم المختص بالصح والغلط أو التساوى واللاتساوى بين مدركات الكميات المجردة. وواضح إن مجال الكميات المجردة هو المجال التالى بعد مجال المنطق من حيث الشمول. ثم فى الطقات أو الطوابق والشقق التالية، ندخل فى مجالات الكيوف والكميات العينية غير المجردة، وبالتالى تبدأ عمليات التخصيص.

ولاحظ إن مش معنى كده إن مجال الرياضيات هو "الكم البحت" بدون كيوف qualities. ده مش ممكن، لأن الكم لايتحدد منطقيا ككم، إلا من منظور أو بناءً على كيف معين. لكن المقصود بكلمة الكمية الرياضية إنها كمّ مجرد تماما من الكيف العينى concrete أو الواقعى

real. يعنى الرياضيات بتتناول مثلا الرموز الكمية المجردة، وبتتناول الأعداد بغض النظر هيّ أعداد إيه (أعداد حمير واللا أعداد كتب واللا أعداد ذرات)، وبتتناول الأشكال الهندسية بغض النظر هى أشكال إيه فى الواقع - إن وجدت أصلا فى الواقع (يعنى هل هى أشكال قطع أرض واللا قطع خشب واللا علاقات فضائية واللا علاقات تحت ذرية). فانت لما تقول مثلا "٤" أو "ناقص" أو "مثلث"، ده بيقى تحديد كمي مجرد، بينما لما تقول أربعة كذا أو ناقص كذا أو قطعة خشب مثلثه، ده بيقى تحديد عينى أو واقعي، زى تحديد الحيّ والميت والأعمى والأبيض، الخ. لكن الكم بالمعنى المنطقى غير الكم بالمعنى الرياضى. فالكم بالمعنى المنطقى هو أىّ تعدد جزئى يتبع وحدة كلية هى الكيف. وعلشان كده، تلاقى إن الأربعة والخمسة مثلا فى الرياضيات هى أكمام أو كميات تتبع كيف "العدد"، بينما كيف "العدد" نفسه يعتبر كم تبع كيف "الفئة" class، الخ. فمن الناحية المنطقية، **الكيف هو كمّ أكبر والكم هو كيف أصغر.**

وللأسف إن بتوع الرياضيات مش متنبهين إلى أن - من الناحية المنطقية - الأكمام أو الكميات اللى بيستخدموها لها ولابد يكون لها - كيوف. والنتيجة هى إنهم ممكن يستمروا فى تسلسلات التجريد الرياضى بحيث يوصلوا إلى أى نتايج خرافية لاعلاقة لها بالواقع، ثم يحاولوا يفرضوها على الواقع بحجة إنها صح رياضيا! فالتخصص الصحيح للعلوم الرياضية، هو تحديد المجموعات والعلاقات الكمية المجردة للواقع. وإذا استعملنا الأسماء اللى كانت مستعملة عند العرب فى العصور الوسطى نقلا عن اليونانيين وغيرهم (مثلا اسم "العلوم العددية" أو "علوم الأعداد والمقادير"[1] بدلا من اسم العلوم الرياضية)، نقدر نقول إنها تختص بتحديد الأكمام العددية المجردة للواقع. وإذا كانت التحديدات الكمية هى منطقيا التحديدات "المتصلة" للمدركات، فهى لاتكتسب إمكانية الاتصال أو استمرار التسلسل إلا من زاوية أو من منظور كيف معين يعتبر منطقيا تحديد منفصل (=يفصل أو يقطع هذه الاتصالات والسلاسل عن غيرها). وعلشان كده، العلاقات الرياضية لايمكن تكون صحيحة كعلاقات كمية مجردة فقط، لكن لازم تكون صحيحة كمان من منظور التحديدات الكيفية المنطقية اللى بتنتمى إليها، ثم كمان من منظور التحديدات العينية أو الواقعية اللى ممكن تنطبق عليها.

---

(١) انظر مثلا مقدمة ابن خلدون فى الفصلين ٢١، ٢٢ من الباب السادس.

وفيه ناس بتوع رياضيات ممكن يعملوا تسلسلات تجريدية رياضية توصل إلى نتائج خرافية أو لامنطقية، وبعدين يقول لك إنها صح رياضيا وأنا ماليش دعوة بالمنطق أو بالواقع. ده طبعا كلام سفسطة، لأن الصح صح والغلط غلط فى أى مجال وفى كل مجال - طالما إنه ملتزم بالسياق المحدد وبالشروط المحددة بتاعته.

وانا اتكلمت قبل كده عن السفسطات الرياضية فى موضوع الصفر وفى موضوع اللانهاية[1]، وأوضحت إن دى سفسطات غلط منطقيا وغلط رياضيا مش بس غلط واقعيا. فلايوجد نظريا ولاعمليا لانهائى أكبر ولا لانهائى أصغر. فاللانهائى ماهوش "عدد" ولكن معناه "اللامعدود"، يعنى استمرار وعدم توقف عملية العدّ enumeration - سواء بالزيادة أو بالنقصان. وعلشان كده، اللانهائى الأصغر المزعوم لايساوى صفر، لكنه يعبر عن عملية أخرى تختلف كميا وكيفيا عن الصفر - حتى لو كان الاختلاف ده ممكن إهماله فى الحسابات العملية العادية. وفى الخطاب ده حاوضح إن استخدام السفسطات الرياضية المجردة اللى من هذا النوع فى موضوع "حساب الاحتمالات"، بتؤدى برضه إلى الخطأ وإلى سد وقطع الطريق أمام الحلول المنطقية والرياضية للمشاكل القديمة.

ومش حاتناول هنا موضوع حساب الاحتمالات من الزاوية اللى اتناولت بيها فى عام ١٩٧٦ منهجية البحث العلمى فى مصادفات التاريخ. لكن حاتناوله من زاوية التصورات الخرافية لبعض العلماء عن احتمالات الواحد فى المليون أو الواحد فى التريليون (أو أكتر من كده بكتير جدا!) - اللى بيعتبروها فى بعض مجالات الفيزياء مثلا احتمالات حقيقية موضوعية مش احتمالات ذاتية تعبر عن الجهل ونقص المعرفة، أو تعبر عن مغالطة منطقية! والدليل على كده إن بعضهم بيقفز فى الحكايات دى إلى الجمع بين النقيضين (= الامكان واللاإمكان)، فيرجع ويقول إن النسبة الاحتمالية دى معناها تقريبا الاستحالة!!

✪ مشكلة الاحتمال

علشان نقدر نستوعب الموضوع والعناصر بتاعته، لازم نعمل استرجاع لتاريخ وتطور المشكلة دى.

---

(١) انظر مانشرته من كتاباتى القديمة عن هذا الموضوع وعن سفسطات حساب الاحتمالات ذى الأرقام الفلكية، فى كتاب "المبادئ الفلسفية الجديدة" : ص ص ٩٩ -١٠١ ، و١٣٥ - ١٣٩.

ودلوقت، نبدأ بفكرة عامة عن مشكلة الاحتمالات، قبل ما ننتقل إلى الاسترجاع المطلوب اللى حيفسر لنا أصل المشكلة، وازاى الأساس المنطقى لمعالجة المشكلة ولاقامة مايسمى حساب الاحتمالات اتعمل غلط ثم تطور بعد كده فى اتجاه غلط. ونشوف النهارده مثلا، نلاقى إنهم اخترعوا تقليعة سفسطائية اسمها "منطق الاحتمال"! وده اسم صح على مسمى غلط، أو دعوة حق يراد بها باطل! ليه؟ لأنهم لايقصدوا بيه المعنى الصحيح اللى يقصده العقلانيين – وهو معنى التأسيس المنطقى لمشكلة الاحتمال، أو الأصول المنطقية لموضوع الاحتمال – وإنما يقصدوا بهذا الاسم اختراع نوع "جديد" من المنطق بيدّعوا إنه مابيقولش "صح واللا غلط"، ولكن بيقول "صح أو غلط أو جايز"!! يعنى أيه جايز من الناحية المنطقية؟! الحقيقة إنك لما تقول على حكم منطقى إنه "جايز"، حيكون معنى كده إنه : "صح إنه مش صح ولاغلط". ولما تنفى عنه صفة "الجواز" حتقول العكس. يعنى "الجواز" مايعفيش برضه من الصح والغلط، لكن لازم تقول برضه صح أو غلط عن "الجواز" ده نفسه! ويبقى معناه بعبارة أدق :"الصواب اللى وصلت له، هو أنى مش قادر دلوقت أحكم منطقيا بالصواب أو بالخطأ على الموضوع المنتظر"! والحكاية دى تبقى زى : فين ودنك ياجحا! فالحكم على موضوع معين بانه جايز، لازم يكون هو نفسه أصلا حكم صح أو غلط، فضلا عن إنه إذا تناول حكمين بديلين منطقيا يبقى بيقول إن واحد منهم حيطلع صح وواحد حيطلع غلط. يبقى إذن هذا الفرع المنطقى ماهوش "منطق جديد" بيتخطى الصواب والخطأ زى مابيقولوا، وإنما هو فرع يختص بصواب أو خطأ الأحكام أو التقديرات والتوقعات النظرية والاحصائية المتعلقة بصواب أو خطأ الوقائع الفعلية!

فهنا تلاقى ثنائية أولى خاصة بثنائية تانية (وربما دى كمان تكون خاصة بثنائية تالتة، الخ). إنما كلها ثنائيات صح أو غلط بتحتوى بعضها بطريقة "علبة العلب"، اللى كل علبة فيها شايلة علبة أصغر! فاذا واحد قال لك مثلا حكم هو :"الدنيا حتمطر بكره"، تقدر ترد عليه برد من الردود الثلاثة التالية : ١– أيوه صح. ٢– لأ غلط. ٣– جايز / ربما، أو جايز بنسبة كذا تمطر وجايز بنسبة كذا ماتمطرش.

والسفسطائيين من أمثال بتوع الوضعية البرجماتية، يعنى الوضعية النمساوية الأمريكية (ودى غير الوضعية العلمانية بتاعة القرن التسعتاشر اللى كانت معقولة نسبيا)، بيستنتجوا هم واللى زيهم من الحكاية دى إن ده "منطق جديد" لا يستخدم مايسمى "التقييم الثنائى"

bivalent logic، ولكنه منطق "متعدد القيم" Plurivalente /many –valued!! بينما الحكاية زى ماقلت هى عبارة عن استخدام ثنائية تقديرية من المعطيات المتاحة، بخصوص ثنائية منتظرة من الوقائع الفعلية : إما حيحصل مطر، أو مش حيحصل مطر، ولا تالت! والموقف البرجماتى السفسطائى ده، بيفكرنى بموقف الرحالين الأوائل اللى وصلوا إلى استراليا وشافوا لأول مرة الكانجرو / الكنغر! وكانوا عايزين يعرفوا اسمه، فبدأوا يسألوا الأهالى البدائيين : إيه ده؟ أو : اسمه إيه؟. فكانوا بيردوا عليهم : كانجرو! فاستنتجوا من كده إن الحيوان الغريب ده اسمه كانجرو – بينما الكلمة دى معناها عند البدائيين : ماأعرفش! أو : مش فاهم!

● وفى العصور القديمة أو ربما لحد العصور الوسطى، كانوا فى الفلسفة بيقسموا الحكم المنطقى تقسيمات على أساس مقولات أو منظورات عليا كثيرة، منها مقولة اسمها "الجهة" modality (أو ممكن نسميها : الحال). ودى كانت بتقسم الحكم المنطقى إلى : ضرورى وممكن ومستحيل. لكن زمان كانوا أدق فى المنطق وفى الفلسفة من دلوقت. وعلشان كده كانوا بيقصدوا بالامكان ده جواز الحدوث أو عدم الحدوث، مش الجواز اللى غير الصح أو الغلط!! فالصح والغلط مالهومش تالت، لكن تقديراتك وتوقعاتك انت عن الوقائع والأحداث لها تالت ورابع وعاشر!

وعلى كل حال، ممكن نعتبر الاستحالة نفى ضرورى للحدوث، بحيث يبقى الضرورى معناه أيوه لازم بينما المستحيل معناه لازم لأ. وكمان بالنسبة للضرورة والامكان، نلاقى إن الضرورى هو الممكن الوحيد، بينما الممكن هو البديل اللى حيبقى بعد حدوثه ضرورى من بين بدائل متعددة.وعلشان كده، فى العصور الوسطى كانوا بيسموا الوقائع أو الجزئيات المترتبة على علل محددة باسم "الواجب بغيره". يعنى الواحد منها كان يعتبر قبل حدوثه ممكن منطقيا، ثم أصبح بعد حدوثه ضرورى نتيجة الأسباب اللى فرضت وقوعه. وهنا تلاقى إن المشكلة مالهاش علاقة بثنائية الصح والغلط، وإنما تتعلق بالتقديرات المسبقة للصح والغلط أو أسباب الصح والغلط أو نوعية التحديد اللى يجعل الصح واحد بدون بديل ونوعية التحديد اللى يسمح منطقيا بوجود أكتر من بديل آخر صح.

فاذا قلت مثلا :"٢ + ٢ = ٤"، فده حكم ضرورى لأن أى تبديل أو تغيير له بالزيادة أو

النقصان حيخليه غلط. لكن إذا قلت :"أنا مسافر اسكندرية بكره"، فده يتضمن حكم ممكن، لأن له أكتر من بديل جايز يطلع صح برضه. فمثلا ممكن تسافر، وممكن ماتسافرش، وممكن تسافر لكن مش بكره، وممكن تسافر بكره لكن إلى مرسى مطروح، الخ.

وموضوع "الاحتمال" هو عبارة عن فرع من فروع موضوع "الامكان" المذكور. وكلمة "المحتمل" كان معناها فى الأصل "المرجّح" - يعني اللى ممكن أكتر. فالامكان له درجات: ممكن لكن مستبعد، وممكن نُص نُص، وممكن مرجّح أو محتمل، الخ. ثم اتغير معنى كلمة "محتمل" أو "احتمال"، وأصبحت لاتفيد معنى الترجيح ولكن تفيد فقط معنى الامكان المحسوب بالأرقام - حتى لو كان حساب خرافى بطريقة الواحد فى التريليون، مما ينفى أى إمكان موضوعى!

✪ تقاليد العرقلة والتخليط والتغليط

زى ماقلت لك، الشقلبات اللى من هذا النوع وأكتر منها بكتير جدا، حصلت فى كل العلوم الجديدة أو الفروع العلمية الجديدة. ليه؟ لأن أجهزة وشبكات التجهيل واللاعقل لما تلاحظ إن فيه اتجاه واسع ظهر لاقامة علم جديد أو فرع علمى جديد وماتقدرش تقاومه أو تجهضه مسبقا، تضطر تتحرك مع التيار وتجارى الجو وتركب الموجة، فتشترك فى إقامة العلم أو الفرع العلمى الجديد - لكن من خلال مجموعة العلماء اللى تختارهم أو تسمح لهم، بحيث تقدر تفرض عليهم التحكم الشخصى والفكرى بدرجة أكتر نسبيا من غيرهم من العلماء الفعليين أو المكتنين (وأقصد بالعلماء المكتنين الأشخاص اللى كانوا حيبقوا علماء ثم أبعدتهم عمليات التحكم السرى الشامل إبعاد بالحياة أو بالموت عن ميدان العلم أو عن ميدان التفرغ العلمى). واللى بتختارهم أو بتسمح لهم بالبروز، بيكونوا طبعا أقل من غيرهم نسبيا فى العقلانية والفكر الحر أو فى الثقافة والذكاء، أو بتكون لهم أو بتُصنع لهم ظروف ومشاكل شخصية تجعلهم أسهل فى الخضوع لمؤثرات التحكم الذهنى واللخبطة وشقلبات التفكير والتعبير أو عدم الدقة فى النقاط الاستراتيجية المفتاحية، الخ.

والمهم إن العلم أو الفرع العلمى الجديد لازم يبدأ بحيث يكون فى بداياته غلط، أو يكون فيها نقط متنافرة وملخبطة حتؤدى بالضرورة إلى الخطأ وانسداد الطريق وعدم التكامل مع

العلوم والأفكار الأخرى، الخ، بحيث يبقى من السهل بعد كده تنمية الغلط وزراعة المزيد من الغلط، وعزل وتحجيز العلوم عن بعضها ومنع محاولات التوحيد والتكامل بين نتائج العلوم، الخ – بدون مايستلزم الأمر منع ظهور العلم الجديد أو توريطه فى التخريف وفى الاستنتاجات اللى معظمها غلط زى ماكان بيحصل فى العصور الوسطى.

● خذ مثلا "**علم الوراثة**" **genetics** اللى هو علم مهم جدا بالنسبة لبقية العلوم البيولوجية وبالنسبة للعلوم الاجتماعية والتاريخية، بل وللعلوم الفيزيائية التحت ذرية. ده كان ممكن يبدأ باتجاه مفيد جدا، يستفيد من الخبرات القديمة الهائلة فى أدق أسرار الوراثة عند الإنسان والحيوان، ويستكمل المحاولات القديمة والجديدة المجهضة فى **الوراثة وفى تحسين النسل eugenics**. لكن اللى حصل طبعا كان بالعكس. اختاروا واحد راهب نمساوى محدود الذكاء ومحدود الثقافة الفكرية، اسمه جوهان مندل Mendel(١٨٢٢–١٨٨٤). ورغم إن علماء النبات والحيوان فى أيامه كانوا بيرفضوا اتجاهه المصنوع فى الأديرة الدينية، إلا إنه قدر هو وأنصاره بعد كده يوجّهوا العلم الجديد فى اتجاه غلط وعقيم وفى طريق شبه مسدود، أدى إلى تأخيره عشرات السنين بعد ماكان ممنوع عن البحث المنهجى مئات السنين!! وكانت النتيجة إن علم الوراثة لم يتجه لحد النهارده إلى طبائع البشر كأفراد وكمجموعات وكشعوب (**بل وشجعوا التخريفات العنصرية والنازية والاشتراكية الدهمائية علشان يهددوا ويمنعوا أى محاولة لتوجيه علم الوراثة إلى مجال الذكاء والقدرات الذهنية البشرية، وهاجموا حتى علماء الشعوب البدائية لما قالوا إن الذهن البدائى لم يصل إلى مستوى العقل والمنطق!!**)

ازاى حصل الانحراف العقيم ده؟!

حصل بان الراهب الكنسى غير المتزوج مندل، دفع العلم الجديد الخاص بالوراثة الجنسية فى اتجاه "نباتى"! وده أدى إلى استغراق علم الوراثة فى الصفات المظهرية والمرئية والجسمية، بحيث لم يتجه إلى دراسة الصفات الوراثية الدقيقة جدا غير البدنية عند البشر، اللى بتصنع استعدادات الذهن البشرى والقدرات والتخلفات البشرية المكونة لحياة الفرد ولحياة ومصير المجتمع والبشرية، وبالتالى لم يتجه إلى استدلال الفيزئيات التحت مادية

للظواهر الحيوية والوراثية غير البدنية. بل حتى استخدامه لكلمة الجينات genes، كان مقصود بيه تبرير هذا الاتجاه التمويهي المضلل، اللى بيجعل الوراثة مجرد حسابات ألوان بشرة أو ألوان شعر وعيون، الخ. ده هو معنى توجيه علم الوراثة الجديد وتوجيه معنى الجينات / المورّثات إلى ظاهرة التوارث فى أدنى عوالم الحياة، وهو عالم النبات والبازلاء وما إلى ذلك!

ثم لاحظ إن الجذر جينوس genos فى اليونانية واللاتينية كان مرتبط ارتباط خاص بالنسل البشرى والسلالات البشرية والأنساب، بل والعبقرية البشرية genius ! والتضليلات الكهنوتيةالقديمة اللى كانت بتستخدم البدائيين والبدو والمجاذيب والمتخلفين عموما فى قهر وتصفية العقل والعقلانية والسلالات الراقية وقدرات الارتقاء الانسانى، اهتمت جدا كالمعتاد بتغطية وتشويه وتعكيس هذه الأفكار التقليدية عن الأساس الوراثي للذكاء وللقدرات الذهنية المتفوقة، فربطت الموضوع بما يسمى "نكاح الجن" أو"الحمل السرى"، واخترعت لكلمة genius معنى آخر مكمل هو : روح الذكورة، أو الجن المنجب لما يسمى "أبناء الآلهة" (وفى التوراة بيقولوا "أبناء الله" وبينسبوهم إلى شخص سرى يسمى "رجل الله" هو المختص بعمليات الحمل المقدس!). ورغم النهضة والتنوير، طلع لنا مندل بعد آلاف أو مئات السنين علشان يستعمل طريقة جديدة تؤدى نفس الهدف، وهو تحريف وإبعاد علم الوراثة عن دراسة الوراثة الذهنية البشرية الصانعة للتفوق والتخلف عند الأفراد والمجتمعات وفى مصير البشرية كلها!

واللى اختاروا واستخدموا الباحث المذكور فى إنشاء وتوجيه علم الوراثة الجديد، تركوا كالمعتاد توقيعهم السرى أو رمزهم الشفرى، اللى يؤكدوا بيه استمرار سلطان اللاعقل فى شفرة التاريخ، ويستكشفوا ويسحقوا بيه أى مفكر أو باحث حر قد يصل إلى التفكير فى أسرار هذه الشفرة. فهذا الراهب اللى استخدم "جينات" النبات بدل من الجن الأرضى أو التحت أرضى، اسمه مندل. وكلمة " فتح المندل" معروف فى الشرق بمعنى فتح السحر أو فتح أسرار الغيب، لكن معناها الأصلى هو : فتح مهبط النزول (من ندل/ نذل/ نزلة ومنزّل). وهنا نوصل برضه إلي جن النكاح أو رجل الآلهة اللى كان يعيش فى الأوكار والسراديب التحت أرضية، واللى كان بيعبث "من الباطن" فى وراثات الدم الذكى وأنساب الشرفاء! يعنى اللى ورد من آلاف السنين فى خرافات الكهنوت الفرعونى وفى خرافات التوراة، رجع ظهر "علميا" عند الراهب مندل فى أديرة النمسا فى القرن التسعتاشر!! كلنا اولاد آدم وحواء، وكلنا اولاد

تسعة، ولا فرق بين متحضر وبدائي، ولافرق بين مفكر وبين غشيم جاهل – إلا في الشكل أو في لون البشرة ونوع الشعر، الخ!!

● ونفس تقاليد التخريف والعرقلة دى، نلاقيها برضه فى كل أو معظم العلوم الطبيعية الجديدة، مش بس العلوم الاجتماعية والتاريخية اللى لازالت راكدة ومتعثرة وملخبطة متضاربة لحد النهاردة. فمثلا كان فيه علم اسمه "**الكيمياء العضوية**". **العلم ده بدأ من حوالى ميتين سنة، وكان بيتحرك فى الاتجاه العام السائد أيامها للكشف عن كيمياء المواد الحية وقوانين التفاعل فى المواد الحية اللى بتختلف عن قوانين التفاعل الكيميائى فى المواد غير الحية.** لكن اخترعوا معارك عرقلت وبددت جهود البحث فى العلم الجديد ده، بحجة الخلاف حول موضوع "القوة الحيوية" اللى بتشتغل بالضرورة فى ظاهرة الحياة وفى كيمياء المواد الحية، لأن كلمة "**القوة الحيوية**" تعتبر فى الحقيقة هى الاسم العلمى المادى للموضوع اللى بيحمل دينيا اسم "النفس" anima أو "الروح" بالمعنى الحيوى العام. وطبعا ماكانوش يقدروا يقولوا بصراحة إن "القوة" المذكورة معناها موضوعى بسيط، مثل "القوة" المتكاملة مركزيا فى أي وحدة، يعنى : الطاقة الموحدة من مختلف الطاقات الفرعية فى تركيبة الكائن الحى بحيث تحقق له التكامل والتفاعل المركزى الحيّ. وعلشان كده غرقوا فى المناقشات البيزنطية التمويهية اللى لاتنتهى، عما إذا كانت "القوة" دى مادية واللا قوة روحانية واللا افتراض ملفق لامبرر له، الخ!! وبسبب المناقشات البيزنطية دى، مع انهيار وتوقف الأبحاث فى هذا الاتجاه، اضطروا يشقلبوا الاتجاه ويتحركوا فى طريق مختلف، بحيث جعلوا "الكيمياء العضوية" علم متخصص فى كيمياء عناصر المواد الحية – أو بشكل خاص فى كيمياء مشتقات الكربون باعتباره أهم العناصر دى!! وده فضلا عن المعانى الأخرى اللى اخترعوها لكلمة "عضوية" (وأشهرها الأسمدة العضوية / أسمدة الروث والبراز!)، بحيث انتهى تماما من العلم ده أىّ تفكير فى اتجاه كيمياء الحياة والقوة الحيوية!! ومع ذلك، استمر بعض العلماء فى محاولات تعويض الاتجاه السابق اللى انقطع وتبدد، لحد ما نجحوا فى استئناف البحث لكن بطريقة مقبولة دينيا لاتتصدى لمشكلة "النفس الحية" أو "القوة الحيوية" (من حيث طبيعتها وهل هى مادية واللا روحانية، الخ). وجعلوا للعلم الجديد اسم آخر يغطى على اسم المحاولات السابقة اللى أُجهضت، وهو اسم "**الكيمياء**

البيولوجية / الحيوية"، أو "البيوكيمياء".

● وفى الفيزياء الذرية وموضوع العناصر وجدول مندلييف، الخ، نلاقى برضه أمثلة كثيرة تبين إن كل علم جديد كان بيتأخر عقود أو ربما قرون، ثم لما يبدأ يبدأ غلط بدرجة أو بأخرى، أو مدسوس فيه أخطاء تعرقل وتؤخر تقدمه من خلال عقود أخرى. يعنى مثلا لو كان مؤسس علم الكيمياء الحديث – اللى هو العالم الفرنسى العقلانى لافوازييه Lavoisier(١٧٤٣ – ١٧٩٤) لم يتعرض للسجن والاعدام فى الثورة الدهمائية الفرنسية اللى أجهضت ثورة فلاسفة فرنسا، ولو كان قدر يستكمل الربط الصحيح بين الكيمياء والفيزياء فى موضوع العناصر والطاقة، كان العلم اتجه صح وكسب حوالى قرن من الزمان. ولو كان بيير كورى اللى عربجى الكارو كسر مخه – عاش وربط بين الجدولة الذرية للعناصر وبين تكوينها ونشاطاتها الكهربية الاشعاعية، كان العلم اتحرك فى اتجاه أدق من الاتجاه اللى اتحرك فيه على أساس جدول مندلييف، وكان كسب حوالى خمسين سنة. ومع ذلك، نرجع ونقول إن المهم هو إن **محاولات العلماء كانت بتستمر بدون توقف، وكانت بتوصل بدرجة أو بأخرى وبعد فترة طويلة أو قصيرة إلي حقائق علمية هامة ومفيدة تدفع التقدم العلمى.**

● أما العلوم الاجتماعية والتاريخية، فدى لايتسع كتاب ضخم لمجرد توضيح أنواع وكميات الحواجز والموانع والعراقيل والعقبات اللى بتقطع طريقها لحد النهارده، وبتفرض عليها التعمية والتزييف والتضليل، وبتفرض الحظر والتحريم المقدس على أهم علومها الأصولية المفتاحية (خصوصا **ثالوث فلسفة أو أصول التاريخ، وفلسفة أو أصول الأديان، وفلسفة أو أصول اللغة**)، بينما بتترك للحكومات والأجهزة الاجرامية الرسمية مهمة منع ومكافحة أيّ محاولات عقلانية صحيحة فى علوم السياسة والديمقراطية والمجتمع!

لكن خد مثلا دراسة "التراث الشعبى"أو "الأثريات/الموروثات الشعبية" popular antiquities، اللى غيروا اسمها بعد كده وعملوها "**الفولكلور**". دى كان مقصود بيها استكشاف آثار ورواسب التاريخ السرى للعصور القديمة والوسطى، من خلال تحليل بقايا التاريخ ده فى التعبيرات والأمثال واللغويات الشعبية المتوارثة، والعادات والتقاليد والتصرفات والشعائر الشعبية المتوارثة. (زى ماتلاقى مثلا فى دراسات حملة نابليون هنا اللى سجلوها فى كتاب

"وصف مصر"). وطبعا التقاليد والعادات دى بتشمل موضوعات مهمة (زى مثلا نظام "ملابس الاحرام" فى الحج الاسلامى). وبتشمل كمان موضوعات زى الأغانى الشعبية والرقصات الشعبية. لكن بيبقى المهم فى الحالات دى، هو لغويات ومعانى وإشارات ومتضمنات الأغانى الشعبية أو الرقصات الشعبية، مش قيمتها "الفنية" أو "الترفيهية"! إنما اللى حصل هو إن يتوح الفولكلور سابوا الأهداف والموضوعات الحقيقية المهمة دى كلها، واستغرقوا فى موضوع الأغانى والرقصات الشعبية كمواد للطرب والترفيه والدراسة التاريخية الذهنية!! وكانت النتيجة إن أدعياء الثقافة والطفيليين الثقافيين ودعاة الفساد والافساد، قلبوا الفولكلور إلى **معنى الفن الشعبى الترفيهى!!**

الأمثلة دى كلها فى مختلف فروع الثقافة والبحث والمعرفة، حنلاقيها كمان طبعا فى موضوع الاحتمال وحساب الاحتمالات.

✪ الدوران الطويل حول أسرار الاحتمالات

زى ماستخدموا الراهب مندل فى توجيه علم الوراثة فى اتجاه غلط، استخدموا الراهب باسكال (١٦٢٣ – ١٦٦٢) وأمثاله فى توجيه أبحاث حساب الاحتمالات فى اتجاه غلط. وأنا لا أقصد بكلمة الاتجاه أو الطريق الغلط إنه يؤدى فقط إلى الأخطاء وإن مالهوش ثمار صح. لأ. ده مابيحصلش تقريبا فى العصر الحديث، لكن كان بيحصل فى العصور الوسطى أيام ماكانوا بيحولوا علم الفلك astronomy إلى مايسمى علم التنجيم astrology، وعلم الكيمياء chemistry إلى مايسمى علم السيمياء أو التخريف الكيميائى alchemy. (وحتى فى الأيام دى، كان ممكن تلاقى برضه بعض "التبر" أحيانا فى أكوام "التراب"). أما فى عصر التقدم العلمى والمنهجى، فالاتجاه أو الطريق الغلط بيبقى معناه إنه طريق طويل وصعب وفيه التواءات والتفافات وحواجز ومشاكل كتيرة، وبالتالى بيؤدى إلى حاجات صح وحاجات غلط، وبيأخر ويعرقل التقدم أو تصحيح الأخطاء، ومابيوصلش إلى ثمار علمية كبيرة إلا بعد جهود كتيرة مضنية، الخ. زى الفرق بين التحرك فى رحلة معينة فى طريق يعبر البرارى والأدغال والمستنقعات، وبين التحرك فى الطرق السهلة المحددة. فأجهزة التجهيل واللاعقل بتتصرف دائما بطريقة الممكن، وبطريقة التمويه المتخفى اللى له مبرراته المقنعة لتجنب إثارة أى شك

حول وجودها أصلا وحول نشاطاتها المعادية للعقل والعلم. وعند الضرورة، إذا ماقدرتش تمنع الوصول إلى الأفكار المهمة والمفاتيح المهمة فى الاكتشافات العلمية والفكرية، فهى بتركز فى هذه الحالة على منع "الأهم" والسماح الاضطرارى بـ أو التراجع بالنسبة لـ "المهم".

ونرجع إلى الراهب الصوفى المتفلسف باسكال ودوره فى أبحاث حساب الاحتمالات.

أهم غلطة ارتكبها هو وأمثاله من الباحثين الأوائل اللى سمح لهم بالكتابة عن مشكلة المصادفات، هى إن الظروف الغيبية اللى فرضت عليهم يعيشوا حياة معلقة على المصادفات العشوائية وعدم التحدد، يعنى فرضت عليهم الاحتمالات اللى تبدو بدون أسباب أو غير قابلة للتعليل المحدد، فرضت عليهم بهذا الواقع إنهم يتناولوا مشكلة المصادفات والاحتمالات بعيد عن منهج التعليل ومبدأ العلّية أو السببية. والنتيجة إن نظرية الاحتمالات عندهم أصبحت زى الشخص اللى قطعت رجليه فاضطر يزحف على الأرض علشان يوصل لهدفه، وبالتالى اتعرض للمرمغة والتأخير وسهولة الوقوع فى المنحدرات. وده نلاقيه بوضوح عند باسكال، وعند عالم فلكى هولندى معاصر له اسمه كريستيان هيجنز Huygens(١٦٢٩ – ١٦٩٥).

فمثلا هيجنز لما حاول يعمل بحث فى نظرية الاحتمالات، غرق فى بحث مشكلة الاحتمال في ألعاب القمار، يعنى في مصادفات البخت والحظ فى زهر الطاولة والكوتشينة ومإلى ذلك. والبحث اللى عمله فى الموضوع ده اسمه "**الحسابات فى ألعاب القمار**"! وواضح إن ده موضوع فيه حساب وإحصاء ومافيهوش تعليل! وبنفس الطريقة، اتجه باسكال إلي البحث فى مصادفات البخت والحظ والنصيب أو القسمة فى حياة الأشخاص وفى التاريخ. فطلّع فكرة وهمية سموها "نظرية أنف كليوبترة"، بتقول إن العمليات الكبرى فى التاريخ بترجع فى نهاية الأمر إلى مصادفات صغرى مالهاش أسباب! (يقصد طبعا بانعدام الأسباب إنها ترجع إلى إرادة الغيب بدون أسباب موضوعية!). وفى المثال بتاع كليوبترة بالذات، كان رأيه إنها لو كانت مناخيرها أكبر شوية أو أصغر شوية، ماكانتش بقت حسناء فاتنة، وبالتالى ماكانش أنطونيو حيقع فى حبها، وماكانش حيحصل للرومان اللى حصل، وكان تاريخ العالم كله حيتغير!! وده يدل فى الحقيقة على جهل شديد : مش بس فى مجال التاريخ وأسرار التاريخ، ومش بس فى التحكم السرى فى المصادفات، لكن كمان فى موضوع المرأة والحب والجنس ومإلى ذلك!

ولو كان باسكال عاش لحد التلاتينات فى فترة تدبير وصناعة الحرب العالمية التانية، كان شاف ازاى مراكز التحكم السرى الأنجلو أمريكي وقّعت الملك إدوارد الثامن في حب وغرام معزة أمريكانية مطلقة ومكحكحة اسمها الليدى سمبسون (=سمسون/ شمشون) بحيث اتنازل عن العرش بسببها عام ١٩٣٦ فى فترة التحضير لمجزرة الحرب العالمية التانية! فاللى يشوف صورة المعزة الأمريكاني دى، يعرف أن أى تغيير فى أنف كليوبترة أو فى قفاها ماكانش حيعمل أى تغيير فى مخططات تعمية وتحطيم شمشون الرومان، اللى كانت جزء من مخططات تحطيم وتفريغ الدولة الرومانية وركوبها من الباطن! وأجهزة وشبكات التحكم السرى الشامل اللى كانت بتستخدم المخططات دى وتنشر فى كل مكان الفساد والإفساد والتدهور واللاعقل والتخريف، توطئة لرفع راية الكنيسة المسيحية بعد كده على أطلال روما وأطلال الامبراطورية الرومانية، ومن ثم إغراق أوروبا فى ظلام العصور الوسطى المعروفة، كانت بتستخدم مئات الآلاف من نساء الجنس وغلمان الجنس فوق سطح الأرض وتحت سطح الأرض فى السراديب والأنفاق السرية. يبقى أنف كليوبترة واللاديلها كان حيعمل إيه فى الطوفان السرى الشامل ده؟! الحقيقة إن كل قيمة أنف كليوبترة وفتنة كليوبترة، إنها كانت وسيلة دراماتيكية لتضليل الشعراء وضحايا القصص والخيال من أمثال باسكال، علشان مايفكروش فى الأسباب الحقيقية لتغيرات التاريخ!

● وبخصوص منهج التعليل ومبدأ العلية كأساس ضرورى للبحث السليم المثمر فى نظرية الاحتمالات، لازم نلاحظ إن عشوائيات الزهر والكوتشينة والقمار، والمصادفات الغيبية (يعنى المحكومة سرا) فى التاريخ، كلها تعتبر بلاشك أحداث تخضع للحتمية الشاملة ولمبدأ العلية الشامل. وكلمة hasard اللى معناها فى الافرنجى مصادفة، مشتقة من الكلمة الشرقية العربية زهر يعنى النرد بتاع الطاولة. وفى العربى بيقولوا مثلا "معلهش يازهر"! بمعنى "ده حظ" أو "قسمة ونصيب" - يعنى "قَدَر" من الغيب مالهوش سبب. لكن الحقيقة إن مصادفات وعشوائيات الزهر أو الطوسه أو الكوتشينة هى كلها معلولات برضه، إنما معلولات مجمّعه لتأثيرات علّية صغرى غير محددة، هى تأثيرات حركات الايدين أو حركات وسائل القرعة المذكورة. مافيش هنا إذن ولا فى أى حدث فى الوجود تخطّى أو إفلات من العلّية الشاملة. إنما المشكلة هى إن المعلولات العشوائية دى لاتنتج عن علل محددة، ولكن عن تأثيرات لاتصل

إلى درجة المكونات المكتملة والقابلة للتحديد.

ومعنى شمول العلّية، إن كان لازم نبدأ البحث فى مشكلة الاحتمال وفى نظرية الاحتمالات بدراسة المصادفات أو الاحتمالات الناتجة عن علل محددة، بحيث نقدر نعمل فى هذا المجال حساب العلل ثم حساب المعلولات. وبعد كده، كان حيبقي ممكن وسهل إننا ننتقل إلى دراسة المصادفات والاحتمالات العشوائية الناتجة عن تأثيرات علّية صغرى غير محددة (أو الناتجة عن علل سرية مطموسة زى مصادفات التاريخ أو الحياة الشخصية المحكومة). فحساب الاحتمالات المحددة فى الحالة الأولى، يعتبر زى الدور الأول فى أىّ بناء، بينما حساب الاحتمالات العشوائية غير المحددة فى الحالة التانية يعتبر زى الدور التانى. والموقف الطبيعى هو إنك توصل للدور الأول قبل ماتوصل للدور التانى. فما بالك لما واحد يفرض عليك إنك تحاول توصل إلى الدور التانى بدون المرور على الدور الأول، بل ويحاول يفرض عليك إنك ماتستخدمش الطريق الطبيعى للصعود وهو السلالم - يعنى منهج التعليل ومبدأ العلية؟!

ممكن نقول تشبيه تانى لتوضيح الصعوبات اللى نشأت عن التحرك فى هذا الطريق الغلط فى أبحاث نظرية الاحتمالات، هو إن البدء ببحث الاحتمالات العشوائية قبل بحث الاحتمالات المحددة العلل، يشبه محاولة تعليم طالب طب تشريح وتكوين الجسم البشرى ابتداءً من جثة بشرية محروقة متفحمة، أو مدشدشة ومعالمها ضايعة لايمكن التعرف عليها! لكن الصواب طبعا هو إنه يبدأ التعليم فى جثة سليمة بل ونمطية، وبعد كده يحاول يستكشف المكونات النمطية دى فى حالات اختفاء أو اختلاط المعالم. أو زى ماتطلب من واحد يستكشف مجرى ومصب نهر معين، فيوجهوه غلط إلى متابعة بعض التفرعات والنهيرات فى روافد المنبع أو فى التشتتات المبددة من النهر فى بعض الأخوار والمستنقعات، بحيث يتوه فيها وما يوصلش إلى متابعة المجرى الرئيسى المحدد للنهر والمصب الرئيسى المحدد للنهر. هو ده اللى حصل لهيجنز وباسكال وأمثالهم، لما تاهوا فى بحث التفرعات والنهيرات المشتتة اللى مالهاش حصر ولا تحديد، فما قدروش يتنبهوا إلى إن دى مجرد زوائد وشراشيب بتخرج من فروع محددة ومجرى محدد — زى الشعيرات والمسارات الدموية الصغرى اللى مالهاش حصر ولاتحديد، رغم إنها بتتكون وتظهر أصلا من خلال فروع وعروق دموية محددة.

وأنا كنت درست إحصاء كمادة إضافية للامتياز وانا طالب امتياز فى قسم الفلسفة من تلاتين سنة، بينما كنا فى نفس الوقت بندرس فى دروس المنطق موضوع اسمه "الاحتمال" برضه لكن من زاوية مختلفة خالص! وبعد كده قريت كتير عن حساب الاحتمالات وعن محاولات استخدامه فى تبرير المصادفات المشبوهة فيما يسمى الباراسيكولوجيا (=علم النفس الغيبى) وماإلى ذلك من "علوم" مزيفة تعتمد على "مصادفات" الغيبيات والمعجزات المصطنعة، الخ. وكنت أحيانا أحاول أقارن بين اللى بتعمله الفلسفة البرجماتية السفسطائية (الوضعية الأمريكية) وغيرها فى مشكلة الاحتمال، وبين اللى بيعمله علماء الاحصاء والرياضيات فى مشكلة الاحتمالات، فأتعجب جدا!

● فالاتجاهات السفسطائية والبرجماتية اخترعوا فى الفلسفة مغالطة وهمية، سموها "**مشكلة الاحتمال فى القوانين الموضوعية للوجود**"! يعنى إيه الكلام ده؟ يعنى إن فيه فى رأيهم احتمال بان الحديد يتمدد بالبرودة وينكمش بالحرارة، وإن الشمس ماتطلعش بكره، الخ! طبعا ده تخريف بيرجع أصله إلى سفسطات الكهنة عن قدرة الآلهة على فعل أى شئ وتغيير أى شئ؛ بينما من الناحية الفلسفية المنطقية لابديل للوجود بقوانينه الموضوعية ولامعنى لتخيل أى بديل ينفى الوجود كوجود موضوعى. وعلشان كده، كان الفلاسفة القدماء بيسموا الوجود "واجب بذاته"، يعنى ضرورى ضرورة مطلقة. يبقى فين مكان الاحتمال فى الحتمية الموضوعية اللى مستحيل منطقيا بتحصيل الحاصل يكون لها بديل؟! مافيش! يعنى الفلسفة ناقشت مشكلة الاحتمال بطريقة السفسطة حيث لايوجد احتمال! أما فى الرياضيات، فانعزلوا عن المنطق والفلسفة، وبالتالى انعزلوا عن منهج التعليل ومبدأ العلية، واتجهوا إلى محاولة حل مشكلة الاحتمال فى مجال العشوائيات بطريقة العملاق الأعمى. ولو كان اجتمع الابصار المنطقى التعليلى من الفلسفة، مع العضلات الاحصائية العملاقة من الرياضيات، فى تناول مشكلة الاحتمال وحساب الاحتمالات، كانوا قدروا يتخطوا تلات أو أربع قرون من أيام برنولى إلى أيام تشيبيشيف وليابونوف فى القرن العشرين زى ماحنشوف.

✪ الحساب الذاتى للاحتمالات

قبل ماننناقش موضوع حساب الاحتمالات العشوائية، يجب أولا نعمل تمييز وتقسيم فلسفى منطقى لأنواع الحساب اللى ممكن تندرج فى حساب الاحتمالات. فعندنا تلات أنواع

من حساب الاحتمالات، يجب منطقيا التمييز بينها، وهى :

١- الحساب الذاتى للاحتمالات.

٢- حساب الممكنات الاحتمالية الموضوعية. وده ينقسم إلى نوعين فرعيين :

أ- الاحتمالات الموضوعية ذات العلل المحددة.

ب- الاحتمالات الموضوعية الناتجة عن تأثيرات عشوائية، يعنى مؤثرات علّية غير محددة.

ونشوف دلوقت التلاتة دول. ونبدأ بالأولانى.

● الحساب الذاتى للاحتمالات

معناه فى الحقيقة حساب مدى الجهل، أو حساب الجهل المقارن بخصوص موضوع معين مطلوب التصرف إزاؤه. وواضح طبعا إن فى مجال الجهل، مافيش مكان للتعليل أو العلّية! وعلشان كده، نلاقى إن النوع ده من الحسابات الاحتمالية ساعد هو كمان على دفع المشكلة إلى وسائل البحث الرياضى بعيد عن الفلسفة والمنطق. فهذا النوع من حساب الاحتمالات بيعتمد على الأرقام والتقسيمات، وبيستخدم المعلومات المتاحة فى إطار الجهل علشان يوجهك إلى مايسمى إحصائيا "المتوقع أكثر" و"المتوقع أقل"، أو"الممكن أكتر بالنسبة لك". والفرق النسبى ده، هو اللى بيسموه "النسبة الاحتمالية الأكبر" و"النسبة الاحتمالية الأصغر".

والمثال النمطى اللى بيقولوه كتير فى كتب حساب الاحتمالات، هو : تليفون حصل قطع فى الخط بتاعه، اللى طوله مثلا من المكان أ إلى المكان ب ١٠٠٠ متر. يبقى ازاى تحسب احتمالات الموقع اللى حصل فيه القطع؟

والجواب هو إن لو افترضت إن الألف متر بيتكونوا من عشر أجزاء (كل جزء طوله ١٠٠ متر)، حيبقى احتمال موقع القطع هو ١٠٪ لكل جزء. لكن طبعا إذا افترضت إن الألف متر بيتكونوا من مائة جزء أو من خمسين جزء، الاحتمال حيبقى ١٪ أو ٢٪. وده يبين لك إن النسبة الاحتمالية بتتحدد على مزاجك انت، لأنها فى الحقيقة بتعبر عن استعداداتك الذاتية للتصرف فى حالة انعدام المعلومات الكافية المحددة. وعلشان كده سميته حساب الجهل المقارن. **فكلمة النسب الاحتمالية هنا هى أرقام برجماتية (=إجرائية) بحتة،** ومعناها فى الحقيقة إنك بتسأل نفسك السؤال التالى : بدون أى معلومات عن موقع القطع، هل الأسهل لى والأفيد لى إنى أبدأ البحث على أساس تقسيمة كل عشرة متر، واللا على

أساس تقسيمة كل عشرين متر، واللا على أساس تقسيمة كل مائة متر؟ والجواب على الأسئلة دى بتحدده إمكانياتك وظروف العملية المطلوبة، ومالهوش أى معنى موضوعى أو منطقى بالنسبة للحدث المجهول.

وبنفس الطريقة دى فى الحساب الذاتى للاحتمالات أوالجهل المقارن، ممكن تحسب مثلا احتمالات تواجدك مع شخص معين فى مدينة واحدة خارج القطر، بدون مايكون عندك أى معلومات عن الأماكن اللى سافر وحيسافر إليها خارج القطر. فاذا أخدت مثلا بعدد عواصم العالم (وهى تقريبا ١٥٠)، حتلاقى إن نسبة الاحتمال تبقى حوالى $\frac{١}{١٥٠}$، يعنى حوالى ٠.٠٠٧٪. أما إذا أخدت بعدد المدن الكبيرة عموما فى العالم - ونفرض مثلا إن عددها ٣٠٠٠ - حتطلع نسبة الاحتمال $\frac{١}{٣٠٠٠}$، يعنى حوالى ٠.٠٠٠٣٪. وبالطريقة دى، ممكن توصل برضه كالمعتاد إلى احتمال واحد فى المليون أو أقل!

● لكن العجيب بقى، إن بعض أساتذة حساب الاحتمالات أخدوا ظاهرة الجهل المقارن وانعدام المعلومات دى، اللى هى ظاهرة ذاتية، وأضافوا لها ظاهرة العشوائية وعدم التحدد اللى هى ظاهرة موضوعية، ولخبطوا الاتنين على بعض لأن لهم طابع مشترك هو اختفاء مبدأ العلّية وعدم الخضوع لامكانيات التعليل الموضوعى، وطلّعوا من خليط الاتنين تركيبة سفسطائية فى حساب الاحتمالات سموها **"عدد طرق وقوع الحدث"**، أو **"عدد طرق وقوع الحالة"**! وبناءً على التوليفة دى، قال لك إن : الاحتمال هو عبارة عن نسبة وقوع حدث ما بالنسبه إلي عدد طرق وقوع جميع الأحداث أو البدائل الأخرى الممكنة!

يعنى إيه بدائل، ويعنى إيه ممكنة؟

فلسفيا المعنى واضح ومفهوم، وهو البدائل أو الممكنات المنطقية، يعنى المحسوبة بمبدأ العلّية ومنطق الهويّات. لكن فى الرياضيات مابيتعاملوش بمبادئ الهوية والعلّية! يبقى إيه معنى البدائل والممكنات عندهم؟ معناها طبعا زى ماأوضحنا هو البدائل والممكنات الذاتية للجهل المقارن وعدم التحدد!

وإذا طبقت المبدأ البرجماتى الذاتى بتاعهم على أغرب المصادفات اللا معقولة للتاريخ والمجتمع والكوتشينة أو القمار، اللى لايمكن إطلاقا تكون مصادفات طبيعية (بغض النظر عن اختلاف نوعياتها الاحتمالية)، حتطلع فى الحساب الاحتمالى بتاعهم ممكنة مش مش ممكنة،

ومعقولة مش مش معقولة!! ليه؟! لأنها خضعت للحساب وأخذت رقم ونسبة احتمال – ولو واحد فى المليون!! ومادام احتمالها ممكن يبقى محسوب، تبقى خلاص ممكنة ومعقولة! ونقدر نسميها نادرة جدا أو ضئيلة الاحتمال جدا، الخ، لكن المهم إنها تعتبر ممكنة ومعقولة ومحسوبة! أمّال إيه ياسيدى اللى يعتبر مش ممكن ومش معقول؟! ده الحدث اللى مانقدرش نحسب نسبة وقوعه بالنسبة إلى عدد طرق وقوع البدائل الأخرى! وده طبعا مش موجود، لأنك تقدر تعمل نسبة حسابية لأى شئ!

والنتيجة إذن إن كل شئ فى الماضى أو فى الحاضر والمستقبل يعتبر على مايرام، ولايوجد مشكلة خاصة بالتحكم السرى والصناعة السرية للمصادفات والاحتمالات فى التاريخ والسياسة والغيبيات، الخ!! وبالتالى يبقى من الجائز جدا ومن العلمى جدا – من الناحية الاحصائية الرياضية – إن يكون حصل أى شئ وكل شئ فى الماضى، وإنك تتوقع أى شئ وكل شئ فى الحاضر والمستقبل، مادام ممكن يتورع الرياضة يطلّعوا نسبته الاحتمالية بأسلوب **"عدد طرق وقوع الحالة"!!**

والموقف المضلل ده (بكسر وفتح اللام) زى موقف المحامى الانتهازى عديم الضمير اللى بيدافع عن شخص مختلس استحكم فجأة على مليون جنيه مثلا. فبدل مانعمل بحث وتحقيق وقائعى، يعنى بحث وتحقيق علّى وتعليلى فى "مصدر" المبلغ ده، نعمل بحث فى "**عدد الطرق**" الممكنة أو المتاحة لحصول مثل ذلك الشخص على مبلغ مليون جنيه – من زاوية عدد

الاحتمالات الممكنة نظرياً مش من زاوية عدد المعلولات الممكنة منطقياً!! وبالبحث ده، حنلاقى إن توجد عند الشخص المذكور طرق كثيرة ممكنة مش مش ممكنة للحصول على مليون جنيه، بحيث إن «عدد طرق وقوع الحالة» - يعنى وقوع المليون جنيه فى إيدين المختلس المذكور- ممكن يوصل مثلاً إلى ٩٩ طريقة، لايشكل الاختلاس إلاّ طريقة واحدة منها !! يبقى خلاص مافيش مشكلة، وموقف المختلس ده يبقى سليم جداً من الناحية الإحصائية ومن حيث نسبة الاحتمال!!

واسمح لى أقول لك دلوقت بعض النكت، التسلية وكمان للتعبير عن دور اللعبة الرياضية التضليلية دى فى محاولة تغطية وتبرير المصادفات المصنوعة.

بيقول لك إن فيه واحد هزق قرر إنه يرغم معارفة بالقوة على احترامه. فاشترى مسدس وحطه فى حزام على وسطه، وقال لهم إنه قرر يضرب بالنار أى شخص يهزر معاه. فواحد

منهم خلاه ماشى، وضربه على قفاه! فبص له فى غضب شديد وسأله : إنت بتهزر واللا بتتكلم جد؟ قال له : باالتكلم جد. فاطمأن وقال له وهو مستمر فى طريقه : باالحسبك بتهزر! فالمشكلة هنا مشكلة الكلمة أو الاسم، مش مشكلة الفعل أو المسمى.

وبيقول لك إن القاضى سأل أحد قراصنة البنوك فى المحكمة : ليه اقتحمت البنك بالمسدس؟ فقال له ببساطة : لأن الفلوس كانت جوّه البنك. وواضح إن القرصان بيعتبر ده تعليل كافى! وهو بالفعل تعليل : لكن تعليل إجرامى، يعنى إدانة كافية، مش تعليل للبراءة! وفى نكتة أخرى إن شخص لقى شخص آخر قعد وحط كيس موز قدامه، وبدأ يقشر كل موزة ثم يرش عليها ملح ثم يرميها! فالراجل استغرب وسأله : ليه بترمى الموز كده؟ فرد عليه : أقول لك السبب بصراحة : أنا ماأحبش الموز بالملح! هنا برضه تلاقى تبرير شكلى بدل التعليل الحقيقى.

● وفيه فى الموضوع ده نقطه عايزه توضيح، **هى الفرق بين الامكان والاستحالة فى الحساب الاحصائى للاحتمالات.**

زى ماقلت، الرياضيين ماعندهمش نسبة توصل إلى مستحيل فى حساب الاحتمالات (يعنى صفر فى المائة)، ولا نسبة تعتبر ضرورى (يعنى مائة فى المائة). ليه؟ حيقول لك إن حساب الاحتمالات مختص فقط بالاحتمالات مش بالضرورة ولا بالاستحالة. يعنى رش الملح على الموز، فبقى لازم يرميه! **والحقيقة إن الضرورة هى الجدار الأعلى للاحتمالات، بينما الاستحالة هى الجدار أو الحاجز الأسفل للاحتمالات.** وهم بيعترفوا "عمليا" بالحقيقة دى رغم إنه اعتراف غلط منطقيا. لكن المشكلة هى إن الحساب الرياضى للاحتمالات غير مختص بالمنطق وبالتعليل وتحديد العلل، وبالتالى غير مختص بتحديد الضرورى أو المستحيل اللى لايمكن تحديدهم إلا بالمنطق ومبدأ العلّية، وإنما يقتصر اختصاصه فقط على حساب درجة أو نسبة الاحتمال من زاوية إحصائية بحتة بناءً على عدد البدائل أو طرق وقوع الحالة المعطاة له إحصائيا. ومن هنا لايدخل فى اختصاصه أصلا ولايدخل فى اختصاصه منطقيا البحث فى مدى كفاية أو عدم كفاية علل المصادفة، أو محاولة التمييز بين المصادفة المصنوعة والمصادفة الطبيعية والتلقائية!!

فاذا كانت هذه المشكلة الكبرى والرئيسية لنظرية الاحتمالات ولمشكلة

الاحتمال أوالمصادفة، لاتدخل أصلا ومنطقيا فى اختصاص حساب الاحتمالات عندهم، فده بيؤكد - أولا - إننا محتاجين بالضرورة إلى استكمال فلسفى منطقى للحساب الاحصائى للاحتمالات كما هو معروف فى الرياضيات. وده بيؤكد - ثانيا - إننا مش ممكن نعتمد على حساب الاحتمالات بوضعه الحالى فى الوصول إلى اكتشافات فى مجال التحكم السرى وصناعة المصادفات، وخصوصا فى مراحل التاريخ اللى كانت محكومة دينيا على المكشوف.

وأرجع تانى لحكاية اعترافهم العملى مش النظرى بالاستحالة. فأنا قريت مثلا لواحد من أساتذة الفيزياء تقدير بالأرقام عن نسبة احتمال انتقال جزيئات الهواء فى أى غرفة، انتقال يؤدى إلى تفريغ نصفها الأسفل من الهواء وصعوده إلى نصفها الأعلى عند السقف. الراجل حسب الاحتمال ده، وقال إن "العملية ليست مستحيلة ولكن ضئيلة الاحتمال جدا، لأن نسبتها فى حجم السنتيمتر المكعب من الهواء هى نسبة واحد على ١٠ أسّ ٣ قدامها ١٩ صفر"! لكن بعد كام سطر، رجع وقال إن النسبة دى تعتبر عمليا مستحيلة!! ليه ياسيدى مادام النسبة والحمد لله محسوبة مش مش محسوبة؟! قال:"لأنه لامعنى للتفريق بين كلمة ضئيلة الاحتمال جدا وكلمة مستحيلة"!! وده فى الحقيقة غلط منطقيا، لأن مش ممكن يكون الفرق بين الضرورة أوالامكان والاستحالة فرق كمى فى الأرقام! فاذا قلنا إن الضرورة معناها ١٠٠٪، فده مايبقاش مجرد رقم، لكن يبقى معناه الهوية التامة ١ = ١، أو أ = أ، أو ١٠٠ = ١٠٠. وإذا قلنا إن الاستحالة معناها صفر فى المائة، فده لايعبر منطقيا عن رقم، ولكن يعبر عن انعدام الرقم، يعنى النفى التام. ومعنى كده منطقيا إن وجود أى ثغرة فى وحدة الامكان - ولو بنسبة واحد فى المليون أوالتريليون - تجعله غير ضرورى، ووجود أى ثغرة فى انعدام الامكان - ولو بنسبة واحد فى المليون أو التريليون - تجعله غير مستحيل".

لكن نرجع ونقول إن بتوع الرياضة لابيستعملوا المنطق ولابيستعملوا مبدأ العلّية! يبقى ليس عليهم حرج - بشرط إنهم مايخرجوش عن السياق الرياضى ومايتخطوش الحسابات الشكلية

النظرية الرياضية، وبالتالى مايدخلوش فى التطبيق "العملى" لكلامهم الشكلى البحت. فالرياضى لما يقول فى الحساب إن ٢ + ٢=٤، يبقى مالهوش دعوة إذا كنا حنطبق المعادلة دى على قرشين + قرشين = أربع قروش، أو على حمارين + حمارين = أربع حمير. فالحمير مثلا ممكن تتزاوج وتولد ويزيد عددها. ودى لاتدخل فى اختصاص الرياضى. وفى الكيميا ممكن تحط ٢ جرام من مادة معينة + ٢ جرام مادة أخرى، فيحصل انفجار بدل مايتجمع لنا ٤جرام من المادة. وتبقى دى مسألة تخص الكيميائى وماتخصش الرياضى، إلا إذا حاول يفرض حساباته الشكلية المجردة فرض "عملى" على مجال الكيميا".

✪ الحساب الموضوعى للاحتمالات

زى ماقلت، الحساب الموضوعى للاحتمالات معناه مختلف. فده هو حساب الممكنات أو البدائل اللي تعتبر نتائج أو معلولات موضوعية، يعني يفرضها الواقع الموضوعي مش الاختيار الذاتي. وزى ماقلت برضه، ده ينقسم فرعيا إلى نوعين : نوع ممكن نسميه "حساب البدائل الاحتمالية الموضوعية ذات العلل المحددة". والمقصود إنها بدائل لها علل محددة أو قابلة للتحديد بحيث تحكم نسبها أو درجاتها الاحتمالية. ونوع ممكن نسميه "حساب البدائل الاحتمالية الموضوعية ذات المؤثرات العلّية العشوائية". والبدائل دى بيكون لها طبعا علل أساسية أو قاعدية محددة برضه، لكن اللى بيحكم نسبها أو درجاتها الاحتمالية هى التأثيرات العلّية العشوائية يعنى غير المحددة.

وقبل مانسى، لازم أوضح هنا المقصود بعبارة "المؤثرات العلّية غير المحددة"، لأنى استعملتها وحاستعملها كتير اعتماداً على إنى وضّحت التعريف الدقيق بتاعها فى أوراق سابقة. فالفرق بين المكوّن المحدَّد أو القابل للتحديد وبين التأثير أوالجزء أوالقطعة غير المحددة، هو الفرق بين أى شئ مادى أو عضوى أو واقعى له كيان أو هوية وبين أى شذرة أو رذاذة أو شقفة أو قطعة من الوجود المادى أوالمعنوى ماتوصلش إلى درجة الكيان أو الهوية فى سياق البحث. فمثلا لما تقول : كتاب. الكتاب كشئ مادى أو ككلمة ذات معنى، له كيان أو هوية محددة أو قابلة للتحديد. لكن لما تقول : كـ ... أو تقول تا ... – وماتكملش كلامك – فدى تبقى شظية من الوجود ماوصلتش إلى درجة التحدد فى سياق الكلام. أما إذا كنا فى سياق الكلام

عن حروف الهجاء مثلا، تبقى دى ممكن تعتبر هوية محددة زى أى حرف آخر. لكن إذا كنا بنتناول الكلمات والعبارات أو الأشياء، تبقى دى شذرة غير محددة، لأن ممكن تكملها بعد كده فتبقى "كتاب"، وممكن تكملها فتبقى "كتاكيت"، الخ.

وبهذا المعنى، نلاقى إن التأثيرات العلية غير المحددة فى عملية قرعة الطوسة أو الزهر أو الكوتشينة، هى عبارة عن حركات ناقصة أو أجزاء من حركات بتحدث من اليد ومن تقلبات العملة أو قطعة النرد، أو حركات عشوائية من اليد بتكون غير مكتملة وغير موجهة، مع عمليات تفنيط وإدخال وإخراج أجزاء من الكوتشينة برضه بطريقة عشوائية غير مكتملة وغير موجهة، ثم يتبنى عليها عمليات السحب والتوزيع، الخ. وفى كل الأمثلة دى، ماتلاقيش حلقات أو مكونات محددة أو حركات وعمليات قابلة للتحديد والحساب فى تعليل النتيجة. يعنى ماتقدرش تقول مثلا إن الحركة رقم ١ أو الحركة رقم ٣ هى اللى أدت إلى حدوث كذا أو كذا فى العملة أوالنرد أو الكوتشينة. فالفرق واضح بين عملية من هذا النوع، وبين مصادفة التقاء شخصين مثلا. ففى الحالة دى حتعلل حدوث المصادفة بان الأول كان ماشى من شارع كذا الساعة كذا فى اتجاه كذا، بينما التانى كان ماشى من شارع كذا فى نفس الوقت فى اتجاه عكسى، فاتقابلوا فى مكان كذا. **هو ده الفرق بين العلل المحددة بمختلف أنواعها، وبين التأثيرات أو المؤثرات العلية غير المحددة اللى بتتراكم وتتجمع مع بعضها فتؤدى إلى حدوث المعلول الاحتمالى**. زى كده ماتتراكم أكوام التراب مثلا بفعل الرياح عشرات السنين، فتغطى على بقايا منزل أو موقع. فيبقى السبب هو "التراب" عموما، مش هذا التراب بالذات فى ذلك الوقت بالذات.

وفى مجال النشاطات التحت ذرية للالكترونات أو غيرها من المكونات التحت ذرية، بتتعرض هذه المكونات المتجددة / المتكررة الانبثاق والتلاشى إلى تأثيرات تحت ذرية وأدنى من التحت ذرية من داخل ومن خارج الذرة. وهى تأثيرات لاحصر لها ولايمكن تحديدها، بل ولايمكن رصد بعضها أصلا، ومن ثم بتؤدى إلى معلولات حركية غير محددة أيضا لهذه المكونات اللى بيتلاشى بعضها باستمرار بينما بتظهر بدلها مكونات أخرى، مما يضاعف عدم التحدد فى التأثيرات العلّية ويضاعف عدم التحدد فى المعلولات الناتجة عن ذلك، فى طريق مستمر من الأحداث العشوائية غير المحددة كعلل وكمعلولات!! وعلشان كده، بتوع الفيزياء

الاحصائى ممكن يوصلوا فى حساب أى حدث مفرد من هذه الأحداث إلى نسب ا.. تمالية تستخدم أرقام فلكية - مش بصحيح لأن ممكن توجد منطقيا مصادفة أو نسبة احتمالية بهذه الأرقام الخرافية ، ولكن ببساطة لأن حساباتهم نفسها حسابات عشوائية ممكن تتعامل مع مجموعات بالجملة وبأعداد كبيرة ، بينما تعتبر عاجزة عن تحديد العلل المفردة وعن معرفة نوعيات التأثيرات العلية المفردة ، ومن ثم تبقى عاجزة عن تحديد أو معرفة المعلولات المفردة بدرجة معقولة .

ونترك دلوقت الأمثلة وننتقل إلى تفاصيل عملية الحساب الموضوعى للاحتمالات فى الحالات القابلة للرصد .

فعملية حساب الاحتمالات من أى نوع ، يجب تبدأ بخطوة منطقية اسمها « استغراق » البدائل أو الممكنات يعنى تحديد وحصر البدائل اللى مستحيل العملية الاحتمالية تتخطاها أو تخرج عنها . وأساس الاستحالة هنا ، هو إن الاستغراق يجب يقفل / يغلق دائرة الامكان إغلاق منطقى . يبقى هنا المنطق المتخصص لابد منه . طيب ازاى بيوصل بتوع الرياضيات إلى هذا الاغلاق أو الاستغراق المنطقى ؟ لا يوجد استغراق منطقى إلا من نوعين :

١ - نوع يستخدم مبادئ الضرورة المنطقية من خلال تحديد الهوية الواقعية . ودهـ معناه التحديد والحصر العلّى التام لكيان أى شئ أو حدث فى الواقع . زى ماتقول مثلا : قطن + نار + علاقة اشتعال = حريقة . وبناء على المعادلة العلّية دى ، تقدر تعمل معادلات تطبيقية أو فرعية تحدد بدائل أو ممكنات أو احتمالات « حدوث » أو « تحقق » المعادلة ، يعنى حدوث المصادفة إذا كانت العملية غير مقصودة .

٢ - نوع يستخدم مبادئ الضرورة المنطقية من خلال تحديد الهوية الصورية ، يعنى الهوية التعبيرية اللغوية أو الهوية الرياضية المجردة . زى ماتقول مثلا : ٤ + ٤ = ٨ . وبناء على المعادلة الصورية المجردة دى ، تقدر تعمل معادلات تطبيقية أو فرعية تحدد بدائل أو ممكنات أو احتمالات « اكتمال » المعادلة دى يعنى ازاى يتجمّع ويكمل عدد ٨ وفق حساب المعادلة . والطريقة دى واضحة فى الحساب الذاتى للاحتمالات ، لأنك هنا لا تقدم تعليل أو تحديد وحصر علّى لحدث معين ، ولكن بتقدم أى تقسيم صحيح صوريا لاحتمالات حدث مجهول . بتأخذ مثلا - زى ماشفنا قبل كده - مصادفة حدوث قطع فى خط تليفون طوله

١٠٠٠ متر وبتحاول تحسب احتماليا موقع القطع باستخدام أى تقسيم مناسب لك ، بحيث يساوى في مجموعه ألف متر . فتقول مثلا إنك حتقسم خط التليفون فى عملية البحث عن القطع إلى ١٠ أجزاء كل جزء طوله ١٠٠ متر ، ويبقى درجة احتمال وجود القطع مبدئيا فى أى جزء هو ١٠٪ .

لكن لما تيجى تعمل حساب للاحتمالات الموضوعية ، ماتقدرش تستخدم الطريقة دى . فإذا حاولت تعمل مثلا حساب لاحتمالات نزول أو عدم نزول المطر بكره ، ماتقدرش تقسم الموضوع بالطريقة الصورية المجردة دى اللى تعبر عن نسب الجهل المقارن زى ماقلت . يعنى ماتقدرش تكتفى بأنك تقول إن السما إما حتمطر وإما مش حتمطر بكره ، يبقى نسبة المطر ٥٠٪ ونسبة عدم المطر ٥٠٪ ! لكن يجب فى هذه الحالة تبدأ بدراسة وتحديد العلل الفعلية المنتظرة للمطر ولعدم المطر ، وتعمل حساب موضوعى مقارن للنسب الاحتمالية لكل علة من العلل دى ولتغيراتها الممكنة والتفاعلات الحادثة أو اللى ممكن حدوثها بين العلل والتغيرات دى كلها ، وتستخرج منها النسبة الاحتمالية العامة لكل بديل من البديلين المذكورين .

وطبعا بيبقى فيه هنا برضه هامش غير محدد : إما نتيجة احتمالات الخطأ فى رصد وحساب عناصر الموضوع لأنه معقد ومتشعب وصعب التحديد ، وإما نتيجة احتمالات ظهور علل صغرى أو مؤثرات علّية صغرى ماكانش ممكن حسابها فى موضوع من الصعب التدقيق فى تغطية مكوناته وعلاقاته . لكن رغم ذلك ، بيكون ممكن الوصول إلى نسبة احتمالية تقريبية لكل بديل من البديلين ، لأن البحث والحساب بيعتمد بشكل عام على عناصر قابلة للتحديد . أما فى حساب الاحتمالات فى رميات الطوسّة أو فى رميات زهر الطاولة أو ما إلى ذلك ، فمش ممكن توصل إلى نسبة احتمالية تقريبية لكل رمية مفردة أو مجموعة جزئية صغيرة من الرميات (بطريقة الحساب الموضوعى للمطر) - رغم إن ممكن توصل إلى نسبة احتمالية تقريبية لتوزيع الاحتمالات فى عدد كبير من الرميات زى ماحنشوف .

فالفرق فى الاحتمالات العشوائية غير المحددة بين الحالة المفردة والاتجاه العام المجمّع فى عدد كبير من الحالات ، هو زى الفرق بين تأثير مجموعة من جزيئات الهواء لايمكن الاحساس بحركتها ، وبين تأثير كميات مجمّعة من الهواء بتتخذ شكل حركة واضحة أو تيار هوائى أو تيار ريح . ودى ممكن طبعا تحس بيها وتحدد اتجاهها . وبناءً على الفرق المذكور بين العشوائيات الصغرى غير المحددة وبين العلل المحددة ، تلاقى إنك فى احتمالات الحالة

المفردة أو الجزئية فى موضوع الطوسّة مثلا ، ماعندكش إلا علّتين محددين ، هم : وجه العملة (أو الملك) وظهر العملة (أو الكتابة) . وبول علتين ثابتين ومستمرين فى كل حالة . لكن اللى بيحقق مصادفة المعلول المنتظر ، هو الحركات العشوائية غير المحددة لليد ولتقلبات العملة . وعلشان كده ماتقدرش تعمل حساب علّى مسبق لكل حالة جزئية ، وبالتالى ماتقدرش توصل إلى حساب احتمالى تقريبى لكل حالة . وده رغم إننا حنشوف إزاى **منطق الرياضيات بيدلنا على إننا ممكن نوصل إلى إطار محدد لايمكن تتخطاه فلتات أو تشتتات النسب الاحتمالية المفردة .**

ونرجع إلى حساب البدائل الموضوعية ذات العلل القابلة للتحديد . فمثلا فى موضوع حدوث أو عدم حدوث المطر بكره ، نقدر نعمل له تحديد وحصر للعلل كما يلى (بفرض التبسيط التوضيحى فقط لأنى للأسف مادرستش علم الأرصاد الجوية) :

(١) علل حدوث المطر : أ – تراكم السحب بدرجة كذا . ب – زيادة رطوبة الجو بدرجة كذا . جـ – وصول درجة الحرارة إلى كذا . ء – حدوث شحنات كهربية جوية بقوة كذا قابلة للانتشار بدرجة كذا . هـ – علل أخرى . **(٢) علل امتناع حدوث المطر** : أ ، ب ، جـ ، الخ .

(٣) نسبة تأثير كل علة ، وتفاعل تأثير كل علة مع تأثير العلل الأخرى ، وتغيرات وتفاضلات هذه التأثيرات التبادلية ، ومن ثم النتيجة المترتبة على ذلك فى وقت محدد : أ – من حيث إمكان حدوث المطر ب – من حيث إمكان عدم حدوث المطر .

وعلى أساس هذا الحساب ، ممكن مثلا بوسائل التكنولوجيا الاشعاعية للتحكم من البعد ، إضافة أو خفض أو تغيير القيمة الموضوعية لاحدى العلل المذكورة بدرجة محددة ، فتصبح النتيجة المؤكدة هى حدوث أو عدم حدوث المطر . وهو ده اللى بيحصل بالاعتماد على الكمبيوترز فى عمليات التحكم السرى المعاصر فى الطقس . أما فى العصور القديمة والوسطى ، فكانوا بيعملوا تدخلات تقنية شديدة وغليظة للوصول إلى النتيجة المطلوبة ، أشهرها تسخين وتبخير نترات الفضة فى أماكن مرتفعة (مثلا أعلى الهرم أو كهوف أعالى الجبال) .

ونفس الشئ ممكن نلاقيه لما نعمل تحليل وحساب لبعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، زى ظاهرة العرض والطلب والأسعار ، الخ . ونفس الشئ كمان ممكن نلاقيه

في مثال آخر بسيط ، هو مثال المرض . ويهدف التوضيح البسيط برضه ، ممكن أعمل هنا إشارة عامة عن الموضوع ده ، لأن ماعنديش معلومات فنية متخصصة عنه .

فالحساب العلّي للمرض ، هو الحساب العلمي الموضوعي اللي يجب استخدامه عند تحديد الموقف الطبي الدقيق إزاء حالات المرض والتدهور الصحي لأي شخص . فإذا كان الشخص ده عنده أكثر من مرض بيسببوا تدهور حالته الصحية واقترابه من الموت ، بتحاول تحدد الأمراض دي وأسبابها وتأثيراتها ، وتعمل تقدير وحساب للقيمة العلّية لكل عنصر من العناصر دي ولتغيراتها وتطوراتها وتفاعلاتها المنتظرة ، وبتحاول تحدد تأثير علاج كل مرض منها على مسار الأمراض الأخرى سلبا أو إيجابا ، وهل مثلا إذا عملت عملية جراحية لالغاء أحد الأمراض ممكن العملية دي تؤدي عموما إلى تقدم صحي واللا إلى زيادة التدهور الصحي وربما الموت ، الخ . ويتحسب النسبة الاحتمالية لكل عنصر من العناصر دي واحتمالات مضاعفاته الخاصة والتبادلية، ، في مقابل النسب الاحتمالية للبدائل الأخرى ، ثم بناءً على ذلك بتحدد البدائل الأكثر احتمالا في اتجاه الانقاذ الصحي أو خفض التدهور ، والبدائل الأكثر احتمالا في اتجاه مضاعفة التدهور الصحي والوصول إلى الموت ، فإذا كنت تريد إنقاذ المريض ، بتختار التصرف الأنسب للانقاذ . وإذا كنت تريد دفعه طبيا إلى الموت ، بتختار التصرف الأضمن أو الأقل انكشافا في هذا الاتجاه .

والمثال ده ممكن يوضح لنا معنى كلمة السيبر نطقيا cybernetics يعني علم التحكم التكنولوجي ، أو علم التحكم الارتجاعي أو التحكم العلّي الاحتمالي . وده معناه التحكم اللي بيعمل أنسب رد فعل لكل احتمال ، علشان يوصل بطريقة مضمونة إلى النتيجة المطلوبة ، بناءً على الحساب الدقيق لكل الممكنات أو البدائل العلّية السابقة أو اللاحقة المؤدية إلى هذه النتيجة .

✪ حساب الاحتمالات الموضوعية للعشوائيات

نيجي دلوقت للحساب الاحتمالي للمعلومات العشوائية، وهنا لازم نلاحظ أولا إن المعلولات العشوائية هي مجرد مكمل للمعلولات المحددة ، وإن التأثيرات العشوائية العلية غير المحددة هي مجرد مكمل – يعني مرجّع – للعلل المحددة اللي بتصنع تلك المعلولات . فالأحداث أو المصادفات العشوائية ، هي مجرد تشتتات أو أطراف وزوائد صغرى أو شراشيب لعلل ومعلولات محددة . زي كده الشعيرات والمسارات الدموية الصغرى اللي مش ممكن توجد أصلا إلا كامتدادات وشراشيب

لتفرعات العروق المحددة .

وطبعا فيه مصادفات تعتبر معلولات مختلطة ، بتتداخل فيها عوامل الكثرة والتعدد والتعقد فى العلل ، مع عوامل الجهل أو العجز عن التحديد والعجز عن التحكم اللى يتيح دقة التحديد ، مع سرعة تغيرات وتفاعلات العلل والمعلولا ت الانتقالية — ثم فوق ده كله ممكن ييجى كمان عامل العشوائيات والتأثيرات العلية غير المحددة . وده زى مثلا ظواهر الطقس ، وظواهر المرض والموت ، وظواهر العرض والطلب والأسعار فى الأسواق ، الخ . وفى الحالات دى ممكن الانسان يقول لنفسه ببساطة إن الوضع مختلف بالنسبة لعشوائيات الطوسّة أو الزهر أو الكوتشينة ! فعناصر العملية هنا معدودة وبسيطة وواضحة ، يبقى إيه سبب وإيه مدى تقلب المصادفات هنا ؟!

وضوح دور العشوائيات أو الشراشيب المرتبطة فى هذا المجال بأصول علّية معدودة ومحددة وواضحة ، هو اللى بيجعل التشتت أو الانحراف أو التبعثر فى المفردات الجزئية يأخد هنا بوضوح شكل الخروج أو النشوز أو الشذوذ غير المفهوم ، يعنى اللى مالهوش ظاهريا سبب أو مبرر ! وإلا ، إيه السبب فى إن الطوسّة تطلع المره دى صورة مش كتابة ، وممكن تطلع المرة الجاية كمان صورة مش كتابة ؟! مافيش أى سبب ظاهر ، لأن العملة هى « نفسها » بالصورة وبالكتابة ، والايد اللى بترمى الطوسة هى « نفس » الايد ، وبتعمل « نفس » الحركات ! يبقى ده إذن « حظ » و« نصيب » و« قدر غيبى » و« معلهش يازهر » !! يعنى الذهن غير العقلانى ممكن يتجه بسهولة إلى اعتبار المصادفة من هذا النوع مصادفة لاعقلية ولامنطقية ، وبالتالى نتيجة تدخلات غيبية ! أما الذهن العقلانى ، فهو على العكس بيدرك إن وضوح وبساطة الأرضية العلية لمثل هذه الظواهر ، بتفرض على الباحث اللى عايز يدرس « منطق العشوائية » ، يعنى « منطق العلّية غير المحددة » ، إنه يدرس أساسا فى أنماط التشتت العشوائى المكمل لمعلولات محددة متساوية ، القائم على قاعدة علل محددة متساوية مافيهاش أى مشاكل تداخل أو اختلاط أو تعقد علّى . وده هو مجال الطوسة أو الزهر أو الكوتشينة ، الخ .

ونبدأ دلوقت التحليل المنطقى لهذا الموضوع .

ليه لما ترمى القرش طوسّه بطريقة متماثلة وبنفس الشروط ، بيطلع فى بعض المرات

صورة وفى بعض المرات كتابة ؟ وليه لما تكرر العملية دى عدد كبير من المرات ، لازم توصل إلى نتيجة متساوية تقريبا (يعنى مثلا حوالى ٤٧٪ للناحية دى وحوالى ٥٣٪ للناحية التانية ، بتشتت علم±٣٪ – زائد أو ناقص تلاتة فى المية) ؟ وليه نفس الشئ بيحصل فى الزهر برضه بالنسبة لكل رقم من الأرقام الستة ، مع نسبة تشتت عام بتحافظ تقريبا على هذا المستوى بين الجوانب الستة لقطعة الزهر ؟ وإذا كان التشتت العام فى الأعداد الكبيرة هو محصلة التشتتات الجزئية أو الفرعية أو المفردة ، فازاى نكتشف إن انخفاضه أو ضآلته لازم يعبر كمان عن انخفاض أو ضآلة التشتتات الجزئية أو الفرعية أو المفردة بدرجة نسبية ؟ وبعبارة أخرى : **إيه هى العلاقة بين التشتت العام والتشتت الجزئى؟**

● **النتيجة اللى وصلت لها بالتحليل الرياضى ، هى إن التشتت الجزئى يجب ماتزيدش نسبته الاحتمالية عن مكعب النسبة اللى يكون التشتت العام هو مربعها . يعنى إذا كان إطار التشتت العام هو مثلا±٤٪ ، يبقى إطار التشتت الجزئى هو±٨٪ (= مكعب±٢٪) .**

ونشوف ازاى نوصل إلى النتيجة دى .

● من القرن السبعتاشر تقريبا ، حساب الاحتمالات والتشتتات العشوائية دخل فى الرياضيات وأصبح موضوع رياضى مالهوش علاقة بالفلسفة . وفى سنة ١٧١٣ ، وصل عالم رياضايات سويسرى اسمه برنولى Bernoulli إلى ملاحظة بخصوص الظاهرة البسيطة اللى اسمها فى حساب الاحتمالات « **ظاهرة الأعداد الكبيرة** » : وصل إلى إن كل ماعدد الاختبارات الاحتمالية يزيد ، بتقترب من النسبة الأكثر احتمالا . وظهر بعد كده واحد فرنساوى اسمه بواسون Poisson ، هو اللى سمى الملاحظة دى فى عام ١٨٣٧ باسم «قانون الأعداد الكبيرة» ، ملاحظة بسيطة جدا وقاصرة ، ومع ذلك استغرقت فترة طويلة لاكتشافها ! ثم بعد برنولى بأكتر من مائة وخمسين سنة ، اكتشف الروسى تشيبيشيف Chebyshev فى سنة ١٨٦٧ ، إن كل ما الاختيارات الاحتمالية بتزيد بتنخفض نسبة التشتت العام أكتر . والاكتشاف ده يعتبر طبعا تحديد أدق لقانون الأعداد الكبيرة ، يعنى تحديد أدق لظاهرة عدم التحدد فى العشوائيات المكررة فى عدد كبير .

ثم بعد كده بسبعين سنة – يعنى فى هذا القرن فى مرحلة الحرب العالمية التانية – اكتشف العالم الروسى لياپونوف إن كل ماعدد الاختبارات الاحتمالية بيزيد ، مش بس بينخفض التشتت

العام أكتر ، لكن كمان بتنخفض التشتتات الجزئية (= المجموعية) بالنسبة للمنحنى الاحتمالى العام ،ومن ثم **بتنتظم الاحتمالات وتتجه نحو« التوزيع المعتدل »** – اللى بيتخذ فى الرسم البيانى عادة شكل الجرس ، يعنى بيعبر عن التماثل بين مختلف النسب الاحتمالية المحيطة على الجانبين بالخط اللى يقسم المنحنى من أعلى قمته . فالتوزيع المنتظم أو المعتدل للاحتمالات ، معناه انخفاض التشتت (أو النشوز) الجزئى ، مش بس انخفاض التشتت العام اللى اكتشفه تشبيشيف وسابقيه .

وفى ضوء الاكتشافات البسيطة دى لكن المهمة ، أصبحت النتيجة المنطقية واضحة . لكن للأسف إنهم ماوصلوش إلى استنتاجها ، لأنها كانت تحتاج إلى تأسيس حساب الاحتمالات كله على أساس منطقى تعليلى !

ومن هيجنز وبسكال لحد ليابونوف – خلال حوالى تلتميت سنة – استمر العلماء والمفكرين فى صراعات ومعارك وحروب غير معلنة ضد أجهزة وشبكات وقوى اللاعقل والتعمية واللخبطة والتخريب الذهنى ، بحيث وصلوا إلى النتائج الناقصه دى بدون تأسيس فلسفى منطقى . وعلشان كده ، ورغم كل شئ ، الواحديرجع ويقول كتّرخيرهم إنهم قدروا يستمروا وقدروا يوصلوا إلى النتائج اللى وصلوا لها – فى ظروف التحكم الدولى اللاعقلى والتجهيلى البرجوازى ، اللى ورث التحكم الشامل عن أجهزة الكنيسة صانعة الظلام فى العصور الوسطى . ويكفى فى هذا المجال إنك تلاحظ ازاى شعلة بروميثيوس فى هذا الفرع العلمى ، كانت بتهرب من هولندا وفرنسا إلى سويسرا إلى مجاهل روسيا القيصرية ثم الاتحاد السوفيتى ، علشان تقدر تحمى وتضاعف ضوء المعرفة العلمية فى هذا الموضوع اللى ارتبط بالقدر والغيب منذ العصور القديمة (١)

● وعلى كل حال ، لو كان العلماء حللوا المشكلة والنتائج اللى وصلوا لها عن قانون الأعداد الكبيرة من منظور فلسفى منطقى ، كانوا اكتشفوا أصلا إن سبب التشتت الجزئى هو زيادة تأثير العشوائيات فى جانب واحد أكتر من الجانب الآخر (أو فى جوانب معينة أكتر من الجوانب الأخرى) ، كزيادة نسبية تفرضها الضرورة المنطقية لعدم وجود مايؤدى

(١) لاحظ إن اسم الفاتيكان Faticanus / Vatican مشتق من كلمة fatum / fate ، بمعنى المتنبىء بالأقدار أو صانع الأقدار ! وهذا يعنى المتحكم السرى فى حساب الاحتمالات !!

منطقيا إلى التماثل الدقيق أو التساوى الدقيق بين مؤثرات الجوانب المختلفة . وكانوا اكتشفوا بالتالى إن سبب انخفاض التشتت العام فى الأعداد الكبيرة ، هو إن التكرار فى العدد الكبير بيؤدى إلى الالغاء التبادلى التقريبى أو التوازن أو التساوى التقريبى بين التأثيرات العشوائية المختلفة الاتجاه ، يعنى بين مؤثرات التشتتات الجزئية اللى لازم منطقيا تتجه بدرجة ما فى كل حالة إلى جانب معين (أو إلى جوانب معينة) لعدم وجود مايمنع ذلك جزئيا . وعلى أساس هذه الأرضية المنطقية العلية ، كانوا استنتجوا إن التوزيع الصحيح والضرورى منطقيا للاحتمالات العشوائية أو المصادفات الناتجة عن تأثيرات علّية غير محددة (بافتراض تماثل الثوابت والشروط العلية المحددة لهذه العملية طبعا) ، يجب يكون هو التوزيع المعتدل أو المنتظم ، وإن أى خروج أو انحراف عن هذا التوزيع المعتدل ، وأى تشتت أو نشوز يخرج عن منحنى التشتتات الجزئية المعتدلة أو المنتظمة ، لا يمكن يحدث إلا نتيجة تدخل من خارج العملية الاحتمالية ، أو نتيجة تداخل واختلاط عوامل أو شروط علية أخرى مع عوامل وشروط العملية الاحتمالية المحددة علّيا . وده مبدأ أو قانون موضوعى ينطبق على أى مجال من مجالات الوجود ، ويعتبر مكمّل لمبدأ الحتمية الشاملة.

ونشوف التفاصيل . وناخد المثال الأبسط ، وهو طوسة القرش : صورة واللا كتابة . (لاحظ إن هذا الخطاب كتب قبل إلغاء عملة القرش !) .

● الحدث الاحتمالى الجزئى أو المفرد فى الأحداث المتكررة للطوسة المذكورة ، بيحدث نتيجة ما يلى :

أولا ، نتيجة علل محددة ثابتة ، هى إن القرش مالهوش إلا ناحيتين ، وإن رميته بطريقة القرعة لازم تؤدى إلى ظهور الصورة أو ظهور الكتابة . وثانيا ، نتيجة مؤثرات علّيه متغيرة وغير محددة ، هى اللى بتؤدى إلى وقوع العملة على الجنب ده أو على الجنب ده . والمؤثرات دى بتتكون من الحركات العشوائية الناقصة لليد والأصابع وللتقلبات العشوائية المتقاطعة معها أو الناتجة عنها فى حركة العملة .

وواضح – زى ماقلنا – إن الأساس العلّى أو العلل المحددة المذكورة محايدة وكمان متساوية علّياً بالنسبة للبديلين المذكورين (الصورة أو الكتابة) ، وإن الأسباب اللى بترجح أو بتعرقل ناحية

أو جانب بالذات فى مقابل الجانب الآخر هى المؤثرات العلية العشوائية غير المحددة . لكن بديهى إن المؤثرات العلّية العشوائية غير المحددة دى تعتبر محايدة عليّاً برضه ، يعنى لا يوجد منطقيا ما يجعلها تميل نحو أو تنحاز إلى جانب معين بالذات من الجنبين بتوع القرش . إنما المسألة هى إنها مش متساوية علياً تساوى دقيق ، ولا يمكن بناء على مبدأ اللاتماثل الشامل[1] إنها تتكرر بالتساوى العلّى الدقيق . **هو ده جوهر وسبب العملية الاحتمالية العشوائية كلها!**

فإذا كانت المؤثرات العشوائية المذكورة محايده وبالتالى متساوية تساوى تقريبى بالنسبة للبديلين بتوع الطوسة (صورة – واللا – كتابة) ، فيجب بشكل إجمالى عام إن عدد مرات ظهور الصورة تبقى مساوية **تقريبيا** لعدد مرات ظهور الكتابة – وإلا تبقى مش محايدة ، وتبقى بتتجه بشكل خاص إلى تغليب أحد الجنبين على الآخر . لكن طالما إن التساوى فى تأثير المؤثرات العشوائية دى تساوى **تقريبى وغير دقيق** ، يبقى ضرورى يحصل عدم تساوى بين مرات ظهور الصورة ومرات ظهور الكتابة . ومعنى الكلام ده منطقيا ، إن « التشتت » أو النشوز فى الاحتمالات العشوائية اللى لها أساس علّى محدد ، لا يمكن يتفهم بمعنى حدوث أى خلاف أو أى خروج عن الحساب المتساوى (اللى هو هنا ٥٠ ٪ + ٥٠ ٪) ، ولكن يجب يتفهم بمعنى واحد وهو : الانحراف غير الدقيق عن التحديد الدقيق ، أو الاختلاف التقريبى عن التساوى الدقيق . والحقيقة المنطقية دى واضحة رياضيا فى ظاهرة « الأعداد الكبيرة » . ليه؟!

؟! لأن فى العدد الكبير من رميات الطوسة ، بتحصل عملية تعويض أو موازنة تبادلية بين الانحرافات أو الاختلافات اللى بتتجه إلى الناحية دى ، وبين الانحرافات أو الاختلافات اللى بتتجه إلى الناحية التانية . يعنى بيحصل إلغاء تبادلى للانحرافات والاختلافات غير المتساوية . أما فى المجموعة القليلة من الرميات أو فى العلاقة بين الرميات المفردة ، فما بيحصلش التعويض أو الموازنة أو الإلغاء التبادلى ده ، وبالتالى بيميل الانحراف أو الاختلاف إلى ناحية معينة ضد الناحية الأخرى . وهو ده الفرق بين التشتت العام والتشتت الجزئى .

لكن مادام التشتت العام هو فى نهاية الأمر محصلة التشتتات الجزئية ، يبقى إذن لازم منطقيا تكون هذه التشتتات الجزئية محكومة برضه باطار يتيح لها إنها تؤدى حسابيا إلى النسبة الصغيرة بتاعة التشتت العام . والاطار ده هو اللى قلت إنه مكعب النسبة اللى التشتت

(١) انظر ماكتبته من هذا المبدأ فى كتاب « المبادئ الفلسفية الجديدة » ص ص ٩٩ – ١٠٠ .

العام يعتبرمربع لها . ونشوف التفسير المنطقى الرمزى لهذه العلاقة فى المثال البسيط بتاع طوسة القرش اللى له جنبين أو بديلين فقط .

● لنفرض إن المؤثرات العشوائية اللى بتلغى بعضها تبادليا فى العدد الكبير من رميات الطوسة هى مجموع « وحدات » معينة فى الاتجاهين البديلين المتناقضين : الوحدة الأولى (= وحدة التأثير المؤدى إلى الصورة) ويرمز لها بالرمز أ ، والوحدة التانية (= وحدة التأثير المؤدى إلى الكتابة) ويرمز لها بالرمز النقيض وهو أ̄ يعنى لا ألف . فإذا اعتبرنا إن « وحدة » تأثير الانحراف أو الاختلاف الجزئى عن التحديد الدقيق أو التساوى الدقيق اللى بتسببه المؤثرات العشوائية ، هى « وحدة » تأثير تعبر عن علاقة نفى أو سلب ضد هذا الاتجاه أو ذلك الاتجاه ، يعنى تعبر عن علامة ناقص ضد كل بديل من البديلين المحددين ، حنلاقى إن معنى ده إن ظاهرة « العدد الكبير » اللى ممكن تحقق الالغاء التبادلى المذكور هى الظاهرة اللى تقدر تحقق مربع هذه الوحدة المضادة أو السالبة لأن مربع السلب هو اللى ممكن يلغى السلب (**أى تقريبا : أ صورة ضد الكتابة × أ كتابة ضد الصورة = أ٢ تقريبا**) . ده من حيث العدد الكبير اللازم للالغاء التبادلى للانحرافات أو الاختلافات الجزئية اللى تصل إلى درجة « الوحدات » . وبالطريقة دى ، حنلاقى عندنا مايلى فى ظاهرة « العدد الكبير » بعد عملية الالغاء التبادلى اللى بتؤدى إلى نسبة التشتت العام : أ٢ (= مربع أ تقريبا) أو أ̄٢ (= مربع لا ألف تقريبا) . فإذا أخذنا النقيض هنا برضه بمعنى السلب ، حنلاقى إن نسبة التشتت العام تبقى كما يلى : ±أ٢ ، يعنى زائد أو ناقص مربع ألف . فإذا اعتبرنا **إن التشتت الجزئى هو تشتت خاص عن التشتت العام** ، حيبقى معنى كده إنه يساوى « **نسبة التشتت العام × نسبة وحدة التشتت** » ، يعنى يساوى تقريبا : ±أ٢ × ±أ = ±أ٣

فإذا طلع التشتت العام فى توزيع احتمالات الطوسة هنا حوالى ± ٤٪ مثلا ، يبقى معنى كده إن « وحدة » التشتت الجزئى هى حوالى ± ٢٪ ، ويبقى إذن إطار احتمالات التشتت الجزئى يعنى الانحراف أو الاختلاف التقريبى عن التساوى فى مجموعة معينة من الحالات هو حوالى ± ٨٪ .

● والخلاصة اللى عايز أقولها ، هى إن أى أحداث عشوائية فى أى مجال من مجالات الوجود نقدر نحدد له أساس علّى ثابت أو متماثل ، لابد إن تشتتاتها الاحتمالية الجزئية مش بس تشتتها الاحتمالى العام تتخذ شكل التوزيع المعتدل أو المنتظم اللى يكون كمان محصور فى إطار

محدود وقابل للتحديد ولايمكن تخطيه . أما الانحرافات أو الانفلاتات الواسعة اللى ممكن تنتج عن التدخل فى العمليات الاحتمالية العشوائية أو تنتج عن تداخل واختلاط دوائرها العلية ، فيجب إخضاعها لتحليلات علّية واحتمالية تعبر عن الالتباس المذكور فى الظروف .

وتحديد الدوائر العلية اللى تنسب إليها العشوائيات العلية غير المحددة فى هذه الأحوال ، يشبه تحديد الاطار العام لحركة كميات كبيرة من المياه مثلا ، بواسطة تحديد وإقامة مجارى هذه الحركة والسدود والفتحات المتحكمة فيها . فتحديد الدائرة العلّية الثابتة أو المتماثلة أو الاطار العلى الثابت أو المتماثل ، هو بمثابة تحديد اتجاهات وفتحات التأثير العشوائى ، اللى مستحيل منطقيا فى هذه الحالة إنه يتخطى إطارات هذه التحديدات الثابتة المتماثلة . زى العلاقة بين حركة حفنة الماء وبين حركة المياه اللى بتشمل هذه الحفنة إذا حددنا لها حدودها الهندسية . فى هذه الحالة ، ممكن حركة حفنة الميّة تنحرف أو تتشتت يمين أو شمال ، لكن داخل الحدود المرسومة لحركة مجموعة المياه فى مكان معين ، ومستحيل نتصور إنها ممكن تخرج عن هذه الحدود — إلا إذا أخرجتها قوة أخرى .

ومن ناحية أخرى ، اتضح لنا مما سبق ازاى إن « التساوى المجمّع » ، بين المؤثرات العلية العشوائية غير المحددة ، بيكون معناه بنفس طريقة القنوات الهندسية المذكورة : التساوى التقريبى . والتساوى التقريبى فى الفلسفة (انظر مبدأ اللاتماثل الشامل ومبدأ الحتمية الشاملة يعنى شمول التماثل ومبدأ أدنى تغير ممكن (١)) ، هو التساوى اللى ينفى عدم التساوى المحدد وينفى كمان التساوى الدقيق . فاذا كان التساوى المطلق وهم ولامنطقى فالتساوى الدقيق معناه التساوى المحدد اللى لايمكن يكون إلا بين هويات منطقية محددة . وده لا ينطبق على أى تساوى يحصل بين مجموع مكونات غير محددة . وأظن كفاية كده ، لأن من المؤكد إنك ماتقدرش تستحمل أكتر من كده فى هذا الموضوع! ونرجع إلى بعض الملاحظات السريعة عن تاريخ مكافحة العلم والفكر .

*****

✪ مكافحة الفكر والكلمة

قريت من كام شهر فى مجلة ثقافية عن شاب فرنسى عبقرى فى الرياضيات ، اسمـــه

(١) انظر كتاب « المبادئ الفلسفية الجديدة » ، ص ص ٩٩ — ١٠٥ .

إفرست جالوا Evariste Galois (١٨١١ – ١٨٣٢) ، ظهر ضمن جيل الشباب المفكرين العقلانيين اللى أنتجتهم ثورة الفلاسفة فى فرنسا ، واللى بسببهم أجهزة الانجليز والكنيسة عملوا الهوجة الدهمائية الارهابية لاجهاض وتصفية العقلانية الفرنسية والأجيال العقلانية الجديدة . الشاب ده حاول يعمل تجديدات ونظريات جديدة فى الرياضيات وهو لسه طالب . لكن طبعا ماسابوهوش يستمر ، وإنما حاصروه وحاولوا يقطعوا محاولاته بكل الوسائل ، إلى درجة إنهم مثلا ضيعوا له الأوراق النظرية اللى كان كتبها وأرسلها إلى الأكاديمية الفرنسية ، ثم ورّطوه فى مؤتمر سياسى ضد الملك (لأن الملكية كانت رجعت بعد نابليون وكانت مكروهة طبعا لأن الانجليز والكنيسة هم اللى فرضوها بعد مغامرات نابليون) . وبحجة المؤتمر ده ، قبضوا عليه وفصلوه من الدراسة وسجنوه ! ومع ذلك استمر حتى فى السجن يكتب أفكاره الجديدة ! وطبعا اللى ضيعوا أوراقه وفصلوه وسجنوه ، ماكانش ممكن يسيبوه يفكر ويكتب – إلا فى الحدود اللى تورطه فى الأفكار الغلط ! فإذا اتضح إن نسبة الصح أكتر من نسبة الغلط ، يبقى يجب يقضوا على حياته ! وهو ده اللى حصل .

بعد الافراج عنه ، ورطوه فى مشكلة شخصية أدت إلى أن أحد أراجوزات القوة البدنية اتحدّاه للمبارزة وفرض عليه قبول التحدى والدخول فى المبارزة ، وفق التقاليد الاجتماعية اللى كانت تسمح بهذا النوع من القتل « الاجتماعى » وتحكم بالسقوط المعنوى على أى شخص يحاول التهرب منه ! وطبعا أصيب إصابة قاتلة وهو لسه أقل من ٢١ سنة ! وبعد هذه الاصابة قضى ليلة الاحتضار قبل الموت يحاول يلخص أفكاره الجديدة فى الرياضيات ، اللى الجميع بيعترفوا بقيمتها العلمية الكبيرة لحد النهارده ! لكن من المؤكد إن كتاباته دى أثناء الاحتضار كانت مخلوطة بالأخطاء وعدم الدقة ، اللى ممكن من خلال موته المأساوى ولمحاته العبقرية تكتسب قدرة مضاعفة على التأثير ! وده بالاضافة إلى إنه – كعبقرى – لو كان عاش ، كان حيستخدم عبقريته فى مجالات أعمق وأوسع بكتير ، داخل وخارج الرياضيات .

● وقبل تصفية جالوا المذكور فى مرحلة مقاربة ، كان ظهور عالم فرنساوى اسمه مونج . وده كان قدر برضه يؤسس بعض العلوم الرياضية الجديدة (بطريقة السماح بالمهم بدلا من الأهم) . وكان ممكن يتجه إلى إحداث تغييرات فى التصورات الأساسية القاعدية للفيزياء (تصورات تنظر مثلا إلى المكونات الصغرى للمادة نظرة حركية تيارية أو سيولية أو هيدروليكية –

يعنى ماتعتبرش المادة مكونة من فتافيت صلبة صغيرة زى التصور اللى استمر لحدّ قريّب !).

. لكن لما وجدوا إن مونج واحد من مجموعات كتيرة ذات اتجاه عقلانى بدرجة تشبه الموجة العريضة اللى مش ممكن كسرها بالوسائل الفردية الشخصية فقط ، عملوا عملية « عسكرة » واسعة لهؤلاء العلماء الشبان النوابغ وأمثالهم - يعنى ربطوهم وشغّلوهم فى العسكرية الفرنسية ، وزرعوا فى أذهانهم السانجة سياسيا إن الجيش الفرنساوى لازم يكتسح العالم كله عسكريا ، وبالتالى غرقوا فى تنظيم وتجهيز الحروب الفاشلة فى مرحلة « الثورة » الدهمائية الفرنسية اللى استكملها ربيب «الثورة » المغامر نابليون بونابرت !

والعالم مونج ده هو وبعض زملائه من العلماء ، حضروا بالفعل إلى مصر مع حملة نابليون ، وتركوا لنا كتاب « وصف مصر » . بل وتوجد فى السيدة زينب حارة بتحمل اسمه لحد النهارده . ومن حسن حظنا احنا ومن حسن حظ البشرية ، إن مخططات تحطيم ومطاردة العقلانية الفرنسية وتحطيم فرنسا ، تركت فى بلادنا المنكوبة باللاعقل الفرعونى العريق بعض شظايا التحطيم ده - يعنى بعض العقلانية والروح الفكرية العلمية الفرنسية !! وإذن فالعملية التحطيمية الكنسية الانجليزية ضد فرنسا >كان لها جانب ثانوى اضطرارى مفيد ، لأنها تركت فى أو حال الشرق الفرعونى بعض البذور المفيدة اللى طلعت منها أشجار النهضة الحديثة فى الشرق هنا! زى كده ماترتكب جريمة قرصنة كبيرة ضد أحد البنوك ، فتتبعتر منك اضطراريا بعض حزم البنكنوت اللى يستفيد بيها الفقرا المفلسين من حيث لا يحتسبون !

والمهم إن الثورة الدهمائية ثم حروب نابليون انتهت بالهزيمة العسكرية لفرنسا - رغم بذور الفكر الفرنسى اللى زرعته فى البلاد المتخلّفة . وفى فترة سقوط نابليون ، حاول مونج يرجع تانى إلى التركيز على الأبحاث العلمية بعيد عن العسكرية ، لكن حطموه شخصيا ثم قضوا على حياته !

يعنى زى لافوازييه - الفرنسى برضه اللى كان أنبغ مؤسسى الكيمياء الحديثة - ثم أعدمه ثورجية الثورة الدهمائية الفرنسية عام ١٧٩٤ ، مع آلاف النوابغ والمثقفين وأصحاب الأفكار (خصوصا غير المشهورين أو اللى انتهوا فى عمليات غير مسجلة رسميا !) . وزى الفيلسوف العالم الرياضى النابغ كوندورسيه ، اللى كانت اتجاهاته فى المنطق والفلسفة والمنهج العلمى قريبة جدا من الصواب العقلانى ، فغرقوه كالمعتاد فى مشاكل السياسة بطريقة

«الغواية» الاضطرارية ، ثم قبض عليه ثورجية الثورة الدهمائية وأرغموه على الانتحار فى السجن فى نفس السنة ١٧٩٤ ! وإذا كان ده اللى حصل فى " الثورة " الفرنسية اللى استمرت فى ترديد شعارات الفلاسفة عن " العقل " (بل واخترعوا شعار جديد عن " عبادة العقل " !!) ، فيبقى إيه اللى حصل بقى فى «الثورات» الدهمائية أو العسكرية الأخرى اللى لا تعترف بالعقل ولا بالفلسفة؟! فرغم إن «الثورة» الفرنسية كانت عمليا «ثورة مضادة» لاجهاض العقلانية والفلسفة ، إلا إنها كانت شكليا على الأقل امتداد ظاهرى (أو بتدعى إنها امتداد) لثورة الفلاسفة والشعار الشعبى العقلانى اللى كان بيقول : اشنقوا آخر إقطاعى (١) بأمعاء آخر قسيس !

● ولاحظ إن الملاحقات التحطيمية الدموية دى ، ماكانتش فقط ضد العقلانية الحرة أو العقل اللاديني ، ولكن كانت كمان ضد العقل أو الفكر الملتزم بالدين ، لأنه ممكن يؤدى فى المستقبل إلى فكر حر ! وإذا نظرت فى تاريخ ظلام العصور الوسطى ، تلاقى إن المفكرين الدينيين المتحررين اللى اضطُهدوا أو ذُبحوا كانوا هم الأغلبية ! وأوضح مثال على ذلك ، العالم كوبرنيكوس اللى كان قسيس ومن أسرة دينية ! ثم كمان عميد جامعة براغ الدينية (فى تشيكوسلوفاكيا) جان هوس اللى الفاتيكان شلحه وسجنه بسبب معارضته للامتيازات البابوية ، ثم طلعوه من السجن وأحرقوه فى محرقة عامة سنة ١٤١٥ !

✪ وإذا كانت الكنيسة استخدمت الوسائل العلنية الرسمية فى مكافحة العقلانية والعلم والعلماء فى العصور الوسطى فى أوروبا ، فيجب نعرف إن أضعاف أضعاف ذلك حصل بطريقة غير رسمية (وربما بطريقة سرية مموهة أحيانا) ضد محاولات التفكير والعلم – حتى بالمعنى الدينى – فى الشرق المحروم من العقلانية منذ عصور الفراعنة ! صحيح إن معظم التاريخ الإسلامى ماكانش فيه «رجال دين» فى قمة الحكم زى رجال الكرسى البابوى . لكن لازم نفهم إن الخليفة أو الحاكم كان بيحكم باسم الدين وباسم رجال الدين ، وبيعتمد فى كل أحكامه (بل وفى حياته الشخصية) على قرارات القضاة الشرعيين والفقهاء الشرعيين وغيرهم من رجال الدين اللى بيحددوا الحلال والحرام للجميع وبيحكموا بالموت والحياة وفق تعاليم الدين .

وعلى كل حال ، أنا مابا اتكلمش هنا عن المصايب والكوارث والأمراض الخطيرة والوفيات المو

١) كان المقصود بالاقطاعيين حكام المقاطعات الاقطاعية وأتباعهم ، وليس جميع رجال «الطبقة الأولى» من النبلاء والوجهاء وأمثالهم ، لأن الكثيرين من هؤلاء كانوا محمونى الثورة ، كما كانوا من أنشط المثقفين ومحركى الفكر والفلسفة ! هة

اللى كانت بتلاحق المفكرين والأدباء المستنيرين ، بوسائل الاجرام السرى الشامل وبأيدى عملاء وشبكات اللعنة السرية . إنما باتكلم عن الحوادث أو العمليات العلنية اللى كان بيبقى مقصود بيها نشر وتأكيد الرعب الشامل . فمثلا - حتى فى عهد الدولة العباسية اللى قامت أصلا بالاعتماد على الفرس وباسم البيت النبوى - كانوا بيجمعوا بانتظام فى حملات دورية مستمرة عشرات الشبان المتعلمين اللى من أصل فارسى ، بتهمة الزندقة المانوية أو المجوسية (وده معناه مجرد وجود علاقة ما مع واحد متهم بهذه التهمة !!) ، أو كمان بتهمة « الشعوبية » أو « الشيعية » الخ ، ثم ينقلوهم مجموعات - زى ماتنقل المواشى إلى السلخانات بدون ماتعرف مصيرها ! وفى قصر الحاكم ، كانوا يذبحوا فردا فردا ! ده بالنسبه للمستنيرين الشبان اللى مالهمش أسماء يعرفها التاريخ . أما أصحاب الأسماء الكبيرة - حتى فى قصر الخليفة - فعددهم كبير برضه . وكل واحد منهم كانوا يخترعوا له حجة أو قصة لا يمكن طبعا إنها تخفى القبضة اللى بترتكب الجرائم دى ، وهى قبضة مكافحة العقل والتفكير .

وقائمة ضحايا العصر العباسى - اللى كان أقل بداوة وغشومية من العهد الأموى - قائمة طويلة : ابتداءً من أبو مسلم الخراسانى صانع الدولة العباسية ، إلى البرامكة ، إلى ابن المقفع ، الخ ! حتى الخليفة المأمون نفسه مات موته غير طبيعية بعدما ثاروا ضده أكتر من مرة ، واتهموه بالكفر لأنه عمل مكتبة لترجمة كتب اليونان ! واتمردوا ضده فى مصر كمان ، واتهموه باثارة « لعنة الفراعنة » لأنه أمر بفتح الفتحة المعروفة فى الهرم الأكبر ! وبعد تصفية المجموعات المتحررة اللى كانت بتسنده ، استخدموا الأتراك وذوى الأصل التركى بدل ذوى الأصل الفارسى ، فى ظل خليفة غشيم معادى للعقل والتفكير ، اسمه المتوكل . وده كان بداية طريق التدهور الجذرى والانحدار الخطير فى التاريخ الاسلامى !

● وفيه خليفة عباسى تانى ظهر بعد المأمون بأكتر من ميت سنة ، وكان له بعض الاهتمامات الثقافية ، هو الشاعر ابن المعتز (مات فى ٩٠٨م) . ده مالحقش يقعد فى الحكم كام سنه زى المأمون ، لكن استمر يوم واحد فقط !! وكانوا سجنوه كتير قبل كده بحجة منعه من المطالبة بحقه فى الحكم . فلما وصل للحكم قتلوه !! وسبب اللعنة اللى نزلت عليه واضح فى بيت الشعر اللى قاله :

وحلاوة الدنيا لجاهلها * ومرارة الدنيا لمن عقلا !

وده بيفكرنا ببيتين شعر بيقص المعنى قالهم المتنبي (فى القرن ٩م) . بيت بيقول :

والحر له رب مجتهد * ما خاب إلا لأنه جاهد

والبيت التاني بيت مشهور بيقول :

ذو العلم يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والمتنبي برضه سيرته كتير بحجة إنه من أسرة شيعية . ثم استخدموا أحد قطاع الطرق في قتله بعد زيارته لمصر . لتأكيد دور القبضة المصرية في هذه العمليات ! ولاحظ إن فيه شعراء عرب كتير مشهورين ماتوا موت غير طبيعي . وأوضحهم بشار بن برد (في القرنين ٧ – ٨ م) اللي لفقوا له تهمة وقرروا يضربوه بالسياط حتى الموت !

أما عن اللي ماتوا في حوادث لتظهر فيها قبضة حامل السلاح . فعددهم كتير قوي . خد مثلا الخليل بن أحمد (واسمه الفراهيدي) في القرن السابع الميلادي . ده هو اللي بدأ تأليف أول معجم للغة العربية (على غرار المعاجم السريانية والعبرية اللي كانت معروفة في عصر الروم) . وأعتقد إن الجزء اللي عمله من المعجم بعد ضاع . والمهم إن الراجل ده اللي واضح إنهم سمحوا بظهوره استراتيجيا – خافوا يطلع له ابن تابع زيه يكمل أعماله اللي ماكملهاش؟ فكانت المصادفة الغريبة إن ابنه طلع متخلف ذهنيا / أهبل ! ثم كانت المصادفة الثانية . إن حصلت له حادثة غريبة غير طبيعية . هي إنه اصطدم بـ « سارية المسجد » . يعني اصطدم بعامود المسجد . فحصل له ارتجاج في المخ ومات !!! والحادثة دي بتفكرني بطريقة موت المفكر الأديب الجاحظ (سنة ٨٦٩ م) . جاله شلل . فاستمر برضه يقرأ ويكتب وهو نايم على جنبه مشلول ! فحدثت مصادفة غريبة . هي إن الكتب الكثيرة بتاعته اللي كانت على الرف وقعت عليه وهو راقد . فقطس من العلم والكتب ومات !!!

ثم لاحظ إن حوادث القتل أو الموت دي . ما كانتش بتقتصر على رجال الفكر والأدب . لكن كانت بتشمل كمان رجال الفقه والدين المتخصص اللي بيؤسسوا قواعد الدين واللي بيصدروا فتاوى الإسلام ضد أي زندقة أو تفكير بيخرج على الحدود المسموح بيها !!! ليه ؟ لأن دول كانوا برضه بيستخدموا « الآلة » الخطيرة اللعينة – وهي القراءة والكتابة والتفكير والتنظير – وبالتالي كان لازم يظهر اللي أشد منهم علشان يوقفوهم عند حدهم . وعلشان يمنعوهم من التفكير أكتر من اللازم بدرجة تهدد « الاستقرار » العقيدية واستقرار الحكم !!! يعني الحكاية كده زي « عملية

العلب » ، أو زى السمك اللى يبلع اللى أصغر منه ، بينما اللى أكبر منه يبلعه !!

● خد مثلا الامام أبو حنيفه (اللى كان من أصل فارسى) ، سجنه المنصور العباسى ، وضربوه بالسياط ، ومات بعد كده بسبب الضرب ده . والامام مالك ضربوه برضه - وللأسف ماعنديش تفاصيل عن حياته وموته . والامام الشافعى فى مصر (اللى كان بيحكم بالزندقة على أى تمييز منطقى بين الاسم والمسمى ، وكان بيمنع أى كلام عن وقائع ظهور الجن) ، سببوا له الالام الرهيبة جدا فى البواسير (وكان اسمها « دك البواسير » !!) علشان يمنعوه من الجلوس للتدريس فى الجامع . فلما فشلت الآلام الرهيبة دى فى منعه من الكلام والمناقشة، ، استخدموا شوية بلطجية اتخانقوا معاه جوه الجامع ثم هجموا عليه وضربوه بالشوم ، ومات بعد كده بسبب الضرب ! والامام ابن حنبل ، ورطوه بطريقة مغرضة مدبرة فى مشكلة مع الخليفة المأمون اللى كان معتزلى متحرر . فاتعرض للسجن فترة طويلة ، أدت طبعا إلى خسائر فى جهوده التسجيلية المفيدة تاريخيا فى عمليات تجميع وتسجيل أكبر عدد ممكن من الأحاديث النبوية المهددة بالاندثار . (ولاحظ إن جامعى النصوص الاسلامية القديمة - وأشهرهم البخارى والطبرى - اتعرضوا برضه للاضطهاد وماتوا فى ظروف غير عادية !!) . آدى ياسيدى أئمة المذاهب الأربعة ! فما بالك بالفقهاء غير المشهورين اللى كان ممكن يهتموا بالبحث والتفكير فى النصوص الدينية القديمة أكتر من اللازم ؟!

والمؤسف إن روح التواكل والقدرية ، كانت ولا تزال لحد دلوقت بتغطى على الجرائم والحوادث الكتيرة دى ، وبتعتبرها حوادث بالقضاء والقدر ، أو بارادة الغيب ، أو على الأقل بتعتبرها جرائم عادية من السلطة ضد أعداها والمتمردين عليها . يعنى الناس للأسف مش قادرين يفهموا إنها جرائم موجهة أصلا وأساسا ضد العقل والتفكير بدرجاته المختلفة ، بل وأحيانا ضد بذور العقل والتفكير !! وده لأن الناس العاديين محرومين من التفكير ، أو قدراتهم التفكيرية منخفضة جدا ، وبالتالى مايقدروش يفهموا إن التفكير ده سلاح خطير له أعداء ممكن يرتكبوا أى شئ ضده ! زى كده البدائيين اللى مايفهموش معنى وقيمة الماس أو البلاتين مثلا ، أو ما إلى ذلك من مواد موجودة تحت رجلين الماشية اللى بيربوها ، وبالتالى ممكن يتصوروا إن الغرباء حيهجموا علشان يسرقوا المواشى بتاعتهم لكن مش ممكن يتصوروا أو يفهموا إن فيه غرباء مستعدين ييجوا من آخر الدنيا علشان يبحثوا عن قطع الحجارة النادرة !! وإذا كان

المثل بيقول « فاقد الشئ لا يعطيه » ، فده معناه هنا إن **فاقد الشئ لا يخاف عليه ولا يفهم أصلا موقف الأعداء ضده !!**

وأنا قريت مثلا قبل ما اكتب لك الخطاب ده ، عدد من مجلة « الأزهر » فيه نص تاريخي عن **عملية تعذيب بشعة** اتعرض لها واحد من إخوة عبد الله بن الزبير ، اسمه عروة بن الزبير. وواضح للمدقق العقلاني إن العملية كانت مدبرة – مش بس بغرض تصفية أكبر عدد من شهود التاريخ ورواة النصوص القديمة كالمعتاد ، لكن كمان لاستخدام قصته في نشر الرعب واليأس والشلل الذهني ، وإلغاء الثقة بعدالة الأقدار مع توقع الضربات القاصمة من كل جهة ! ورغم وضوح هذه المعاني ، فالكاتب اللي أورد هذا النص التاريخي أورده كتعبير عن شجاعة وصبر عروة بن الزبير ، مش للتعبير عن وجود حتى احتمالات تدبير إجرامي وراء العملية دي!! بيقول النص الوارد في المجلة :

« أصابت عروة بن الزبير رضي الله عنه الأكلة في رجله [يعني السرطان – وطبعا ده ما كانش ممكن يتعرف بدقة خصوصا في العصور القديمة ، ولكن تلاقيه كان التهاب مصنوع زي كده دمّل البرص المزعوم !!] . فأشاروا عليه بقطعها ! قالوا : نسقيك المرقِّد [يعني المخدِّر] . فقال : إني أكره أن أفارق عضوا من أعضائي بدون أن أجد ألماً لفراق ذلك العضو . ودخل عليه قوم أنكرهم [يعني ناس مجهولين وشكلهم غريب منفّر !] . فقال : ماهؤلاء ؟! قالوا : يمسكونك . قال : أرجوا أن أكفيكم ذلك من نفسي . ومدّ رجله . وجيء بالسكين فقُطع اللحم ، وبالمنشار فنُشر به العظم . وأُغلي الزيت في مغارف الحديد ، وحسم الدم بالزيت المغلي . وفي أثناء ذلك ، دخل عليه رجل يعزيه ، فقال : إن كنت تعزيني في رجلي فقد احتسبتها عند الله . قال بل أعزيك في ولدك محمد . قال : ماله ؟! قال سقط الساعة في اسطبل دواب الوليد [الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك] فرفسته بقوائمها حتى قتلته . فما زاد على أن قال : اللهم أخذت ابنا وأبقيت أبناء ، وأخذت عضوا وأبقيت أعضاء . » !!!

وطبعا الحوادث اللي من هذا النوع ماتتعدش . والحقيقة إنها كانت بتستخدم كمان **فرّازة استطلاع** لالتقاط الأشخاص اللي عندهم درجة كافية من الذكاء تجعلهم يشكّوا في وجود أصابع وخيوط وتدبيرات سرية وراء الكوارث « المجمّعة » اللي من هذا النوع ......

● ونيجى للنقطة الأخيرة هنا ، وهى بخصوص مذابح أو محارق الكتب (١) . ..... لكن يكفى نقول إن اسم بابل وبرج اللغات بتاع بابل ، مشتق من اسم بيبل / كتاب ، وأبابيل /كتب ، للتعبير عن واحدة من أشهر وأقدم مذابح الكتب واللغات فى التاريخ القديم فى أواخر الألف التالت قبل الميلاد ، واللى اتكررت فى نهر دجلة بعد حوالى أربعتالاف سنة بايدين التتار والمغول ! ثم عندك كمان محارق مكتبة الاسكندرية فى عهد المسيحية ثم فى الفتح الاسلامى .... وعندك كمان مذبحة مكتبات الفاطميين فى مصر ، وأشهرها مكتبة « دار الحكمة » أو « دار العلم » اللى أسسها الحاكم بأمر الله ، واشترك صلاح الدين الأيوبى نفسه فى إتلاف وإبادة الكتب اللى فيها بحجة مكافحة المذهب الفاطمى ومكافحة البدع وفرض مذهب السنة والتسليم الصوفى للانتصار فى الحرب ضد الصليبيين !! ..... ولاحظ إن الفاطميين كانوا جمعوا من مختلف البلاد الاسلامية أهم وأندر الكتب وخزنوها فى مراكزهم فى مصر – على وهم إنها أماكن مأمونة ومضمونة ! ثم اتضح إنها كانت مصيدة مؤقتة أبيدت بعدها آلاف الكتب النادرة .... والمؤرخ المقريزى نفسه بيحكى عن « خرابات » بجوار القاهرة كان اسمها « تلال الكتب » (من تل / طل ، أطلال) ، كان مدفون فيها أعداد لا حصر لها من الكتب اللى أتلفت أو أحرقت ....

وفى الختام . . .

٩/ ٤/ ١٩٨٠

---

(١) اكتفيت ببعض السطور هنا لتجنب زيادة التطويل .

البند الثالث عشر: صفحات من فلسفة التاريخ عن بعض أصول الشعوب واللغات القديمة

توضيح

فى البند الرابع هنا فى ص ١٣٣ ، أوردت عن موضوع العلمانية بنداً من بنود الفصل الأول من كتابى " **نظرية فى فلسفة التاريخ** " وأشرت إلى أسباب توقفى الاضطرارى عن استكمال الفصول الإضافية فى ذلك الكتاب ، ومن ثم تأجيل عملية طبعه . وفى ص ص ١٤٥ – ١٤٧ أضفت إشارة أخرى عن جانب اللغويات فى موضوع الكتاب . أما فى هذا البند الثالث عشر ، فسوف أورد بنوداً وصفحات كاملة من الفصلين الثانى والثالث من مسودات الكتاب ، اخترتها وأجريت ما يمكن إجراؤه من حذف مؤقت فى بعض فقراتها أو سطورها ، بالطريقة التى تضمن تقديم الأفكار المطلوبة فى أقل عدد من الصفحات .

والفصول الأصلية من كتاب " **نظرية فى فلسفة التاريخ** " ، كنت قد كتبتها وراء أسوار العباسية فى عام ١٩٧٦ بعنوان " **منهجية البحث فى التاريخ وميكانيزمات الحركة التاريخية** " ، وأرسلت منسوخاتها ومنسوخات الفصل التاريخى السابق لها (على قسمين) بالبريد المسجل إلى الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين مؤنس ، فضلا عن نجيب محفوظ ومندوب فلسطين فى الجامعة العربية إذ ذاك (وهذا بالإضافة إلى أصول كل الأوراق إلى النائب العام كالمعتاد) . فلما خرجت من الأسوار الصغيرة المفضوحة إلى الأسوار الكبيرة فى سجن القهر اللاعقلى الفرعونى العريق فى مصر، حاولت أن أضيف عدة فصول جديدة قبل تنقيح وإعادة كتابة الفصول الأصلية وتجهيزها للنشر (وذلك على غرار مافعلت فى كتاب الفلسفة ثم كتاب الديمقراطية وكتاب اشتراكية الاستثمارات الخاصة التى أصدرتها فى ١٩٨٩ – ١٩٩٠) . لكن البحث والتنقيب فى خفايا ومجاهل وسراديب ونصوص التاريخ القديم ، استغرقتنى فترة أطول كثيرا مما توقعت ، جمعت خلالها موادا هائلة لا يمكن تقدير قيمتها العلمية العقلانية فى فلسفة التاريخ ، إلى درجة أننى فكرت فى أن أجعل الكتاب كله فصولا جديدة وألغى الفصول الكروكية المكتوبة فى العباسية عام ١٩٧٦ ، مكتفياً بنشر بعض نماذج منها لتوضيح نوعية **مفاتيح وأصول فلسفة التاريخ وميكانيزمات حركة التاريخ** التى وصلت إليها إذ ذاك ، والتى وجهت كل أبحاثى وقراءاتى فى السنوات التالية بعد ذلك . وبدون أن أحسم القرار فى هذه

الفكره ، بدأت كتابة عدة فصول إضافية للكتاب منذ أكتوبر ١٩٩٠ .

● وكان تخطيط محتويات الكتاب كما يلى : القسم الأول بعنوان "**تاريخ ما وراء التاريخ**" ، والقسم الثانى عن " **المحاولات الأصلية للكتاب فى عام ١٩٧٦** " وعن الملحقات المكملة المكتوبة وراء الأسوار . وتشمل الفصول الإضافية موضوعات عن مواد التاريخ القديم الملموس ، وموضوعات منهجية بعنوان " **ماوراء الطبيعة وما وراء التاريخ** " ، و" **علوم وفلسفة التاريخ** " وفصولا عن " **عصور التاريخ المزيف** " ، و " **صناعة التدهور ودورات التدمير** " ، وغير ذلك من عصور الصراع بين العقل واللاعقل : " **من الوهيوت الفرعونى إلى مخطط الحرب العالمية الثالثة** " ، تنتهى بفصل عن **الناصرية** ووثائق أجهزة الخداع الرسمى للتاريخ (ومثالها النمطى المعاصر محمد هيكل ومحركوه) .

وأستطعت أن أجهز مواد كل الفصول الإضافية تقريبا ، بل وأن أكتب الكثير من فقراتها ، كما وصلت إلى كتابة ثلاثة فصول إضافية كبيرة فى أكثر من ٢٠٠ فولسكاب بالترتيب المذكور بالكتاب . وأثناء ذلك ، زاد ما أتعرض له من الضغوط والمشاكل والمشاغل ومضادات البحث والتفكير والكتابة على المستويين السياسى والشخصى (خصوصا فى ظل استمرار الحرمان من العمل والنشر فى الوسائل المتاحة للآخرين ، ومع زيادة الحصار الشخصى والملاحقة والإيذاء النفسى الشديد وزيادة المشاكل التى أسجلها فى شكاواى وبلاغاتى الرسمية وفيما أقيم من قضايا ومحاضر !!) . ووصلت هذه الضغوط والمشاكل والمشاغل ومضادات الفكر إلى قمتها بعد تفجير حرب العراق والكويت وتدعيم ومضاعفة تجهيزات وتنسيقات وتضييقات **التحالف العربى الغربى (الأمريكى المصرى السعودى ، إلخ)** . وهنا ، لم أستطع الوصول إلى الحد الأدنى الضرورى من قدرات التركيز الفكرى مع قدرات الاستيعاب والتجميع الشامل والانتقاء المناسب من الأكوام الهائلة من المواد النصوصية والعلمية التاريخية القديمة ، فى مجال يصل فى التشعب والاتساع والتركيب والتعقيد إلى أقصى الدرجات التى جعلته عماءً من المعميات المحجوبة بأكثف ستائر اللعنه والتحريم والتقديس والتزييف والتمويه والتخليط منذ آلاف السنين !! فاضطررت طبعا إلى التوقف – فى انتظار ثغرة جديدة فى ستائر التعمية العربية الغربية الجديدة ، لأستكمل الكتاب أو أطبع ما كتب منه .

وعلى كل حال ، فقد أوردت فى البند الرابع فقرة كبيرة من الفصل الأول . وسأورد فى هذا البند هنا عدة فقرات من الفصلين الكبيرين الثانى والثالث اللذين تناولت فيهما مواد الفولكلوريات القديمة : الفصل الثانى تحت عنوان " **الفولكلوريات فى مجرى التاريخ** " ، والفصل الثالث تحت عنوان " **لعنة الفراعنة ورمز الصليب المعقوف** " .

✧✧ الفولكلوريات فى مجرى التاريخ

من كتاب "نظرية فى فلسفة التاريخ"

✧ بصمات الماضى البعيد

فى هذا الفصل ، سنتأمل بقدر مايمكن من لمحات ، فولكلوريات التاريخ فى مراكز الحضارة فى العصور القديمة . فالفولكلوريات واللغويات القديمة ، هى التى عبرت عن تراث آلاف السنين ، قبل أن تبدأ المحاولات الأولى المعروفة التى وصلت إلينا فى ميدان كتابة التاريخ ثم محاولات تحويله إلى تدوين علمى . هذه المحاولات التى لم تصل إليناأول كتابات منها إلا نقلا عن هيرودوت فى القرن الخامس فقط قبل الميلاد !

وواضح أن الفولكلوريات واللغويات الشفاهية التى سنضطر إلى الاعتماد عليها ، **هى أشبه بالمادة القابلة للفساد** – كالغذاء المخزون مثلا – بحيث تزداد تغيرا وفسادا كلما طال عليها الزمن . فما بالك إذا كنا نتناول فولكلوريات ولغويات تعبر عن العصور الأقدم قبل الميلاد (أى منذ سوابق ولواحق بداية الفرعونية فى عهد نارمر أو مينا) ، وبعد أن مرت خلال محارق وفظائع ومباءات ظروف الرهبوت الكهنوتى ومحاربة العقل والتفكير وطمس الذاكرة الاجتماعية والتاريخية ، بل وعمليات إبادة ومحو الشعوب والأجناس وليس فقط الذكريات والمعلومات ؟!

ذلك أن فولكلوريات العصور القديمة الممتدة (أى القصص والملاحم والأشعار ، إلخ) ، ولغويات تلك العصور عموما ، كانت تتعرض للتحوير والإفساد والتلفيق والتشويه والطمس من جيل إلى جيل ، نتيجة مخططات تجهيلية تعبيدية وعمليات تحكم كهنوتية لا عقلية مفروضة ، وليس فقط نتيجة تلقائيات التدهور الثقافى والشخصى والتسفيل الذهنى واختلاطات وإسقاطات الذاكرة . ثم إن ما وصل إلينا " عن " – وليس " من " – تلك الفولكلوريات القديمة ،

هو بالتحديد ماوصل مكتوباً ـــ ولم تبدأ كتابته إلا منذ القرون القليلة السابقة على الميلاد بالنسبة لليونان ، وفى قرون مشابهة ، أو بعد ذلك بالنسبة لشرق البحر الأبيض (باستثناء حالات معدودة كتبت فيها بعض الروايات الفولكلورية فى الألف الأول قبل الميلاد نقلا عن الألفين السابقين !!) .

ومعنى ذلك باختصار ، أن ماوصل إلينا من تلك الفولكلوريات واللغويات الأقدم ، هى نصوص أو شذرات تعتبر رواسب من رواسب متكررة الغربلات ومتتالية الأجيال لفترات قد تزيد على ألفى عام ولا تقل عن ألف عام قبل تاريخ تدوينها كتابة !

ومع ذلك فهى بلا أدنى شك ثروات تاريخية هائلة لا تقدر قيمتها . وعلى المؤرخ العقلانى وفيلسوف التاريخ أن يتصرف إزاءها كما يتصرف **المحقق القانونى المدقق فى بقايا حادث ما** ، لمجرد الوصول إلى التقاط بصمة أصابع أو بعض تراب الأقدام أو بعض الرماد ، أو ما إلى ذلك من "آثار" سابقة يمكن أن يعالجها بمختلف وسائل التحليل والفحص والتحديد ، ليستخلص أو يستنتج من مكوناتها ومن متضمناتها المنطقية حقيقة ما حدث .

بهذا المنظور الفلسفى والمنهجى ، نبدأ فى تعريف مانقصده بكلمة " الفولكلور " التى نعبر بها عن نوعية مواد البحث فى هذه الفصول الأولى .

✧ معنى " الفولكلور "

فى الحقيقة أن كلمة " فولكلور " كلمة غير موفقة وغير دقيقة ، حتى قبل أن تتعرض كالمعتاد للتدهور والتسفيل " الإعلامى " و " المسرحى " منذ النصف الثانى من القرن الماضى !

والكلمة تنسب إلى **شخص بريطانى مريب** كان قد أرسلها فى خطاب باسم مستعار إلى بريد القراء فى مجلة بريطانية اسمها " **المنبر الأثينى** " **Athenaeum** (وهذا اسم يعبر عن منبر محاضرات الحكمة القديمة ، لأنه كان اسم معبد إلهة الحكمة مينرفا أو أثينا ، الذى أقيم فيى أثينا ثم فى روما ، والذى كانت تقدم فيه محاضرات ثقافية) . وقد اقترح ذلك الشخص المجهول فى خطابه المشبوه الذى تلقفه المسئولون عن المجلة بحماس غير عادى ، استعمال كلمة " فولكلور " بدلا من الكلمة الفنية التى كانت مستعملة من قبل وهى **Popular antiquities** " **الأثريات الشعبية** " أو " **البقايا والمخلفات الشعبية القديمة** " . وواضح أن هذا التعبير كان أدق كثيرا ، وأكثر تحديدا وامتلاءً بالدلالات التاريخية الأثرية . ولهذا ،

كانو ا يحاولون قبل ذلك ا ستبداله بتعبير غير ناجح هـو " الأدب الشـعبى " Popular litterrature . فلما " طُرحت " تلك الكلمة عير الشائعة والقابلة للتشكيل المطلوب فى اتجاه تخليطى تسفيلى ، التقطوها وروجوها ، فانتشرت كالوباء انتشاراً غريبا فى بريطانيا ثم فى بقية العالم (رغم أنها كانت تترجم بالفرنسية أحيانا بالطريقة القـديمة وهى : traditions populaires) . بل وظهر أيضا فى مختلف البلاد ما يسمى " علم الفولكلور " ، جنبا إلى جنب مع " فولكلوريات " الرقص والأغانى وماإلى ذلك من ابتذالات ترفيهية وجنسية لا علاقة لها بمسمى الاسم الأصلى الذى حلت محله تلك الكلمة المصكوكة فى لندن وتحت تحكم لندن !

وكلمة Folklore كلمة إنجليزية قديمةوليست ألمانية كما يتصور البعض (حيث الكلمة الألمانية هى Volkkunde) . ومعناها الحرفى : المعرفة الشعبية أو العلم الشعبى . واستعملت فى البدء بمعنى الرواسب التقليدية الباقية لدى الشعب عن الأزمنة القديمة . وهذا ماكانت تعبر عنه - كما قلت - عبارة " **الأثريات الشعبية** " (**وفى اللغة العربية : الموروثات الشعبية أو المأثورات الشعبية** ، بالمعنى العام الذى لا يقتصر على الأمثال والأقوال) . وهى تشمل من حيث التعريف الأكاديمى ، الأساطير والتراثات الشعبية ومايسمى الخرافات الشعبية مع العادات والأغانى الشعبية والأمثال ، إلخ ، مما كان يُنقل أساسا عن طريق الذاكرة والممارسة وليس عن طريق الورق (أى قبل تسـجيله كتابيا) . ولأن " الحكايات الشعبية " مثلا كانت تنتقل أحيانا من بلد إلى آخر مع هجرات الشعوب أو الجماعات ، فقد سميت أيضا " الحكايات المهاجرة " .

وإذا كان اسم " **الأثريات أو الموروثات الشعبية** " أدق تعبيراً عن الجانب التاريخى الذى لا يعبر عنه اسم " المعرفة الشعبية " أو " الفولكلور " ، فإن الاسم الثانى يعتبر أيضا أكثر فشلا وقصوراً فى التعبير عن جانب آخر مطلوب للبحث فى هذا المجال ، هو الجانب غير المعرفى فى الذهن الشعبى أو الاجتماعى - **فضلاً عن الفرق الواضح بين صفـة " الشعبى " وصفة " الاجتماعى "** التى هى أوسع وأشمل . فالذهن الاجتماعى (لدى مختلف الطوائف والفئات و الطبقات) يشمل إلى جانب المعرفة - التى قد تفيد معنى الإدراك الشعورى والذاكرة الواعية - جوانب الانفعالات والدوافع وما إلى ذلك من جوانب لا شعورية أو تحت شعورية متوارثة أيضا ضمن عناصر الطبائع والتطبعات والمفروضات الاجتماعية .

والمقصود بالذهن الاجتماعي - الذي يسمى أيضا " **الذهن الجماعي أو المجموعي** " Collective or group mind - التصورات العامة والقدرات العامة والنزعات العامة للإدراك والتفكير والسلوك ، التي توجه الجماعة أو المجموعة أو المجتمع بطريقة متميزة في مرحلة زمنية كافية .

ويقول وليام ماكدوجال مثلا عن ذلك ، إن المجتمع الذي يطول عمره ويرتفع تنظيمه ، يكتسب صفات موجِّهة (بكسر الجيم) تتخطى صفات الأفراد الزائلين فيه ، بحيث يكون : " الذهن الجماعي منظومة منظمة organised system من القوى الذهنية ، أي الهادفة " . بل إن " أي مجتمع يعتبر حرفيا منظومة ذهنية منظمة بدرجة أقل أو أكثر . . . وفي هذا تقدم المجموعات الاجتماعية الأعلى تنظيما حياة ذهنية جماعية يمكن أن تبرر تصورات هذا الذهن المجموعي " . (١)

ويقول شارل بلوندل ، إنه حتى " إدراك الأشياء " لايتم فقط من خلال " تسمياتها الاجتماعية " بل وأيضا من خلال منظومة مرتبة من التصورات وفي جملة محددة من المدلولات . . . تصنعها الجماعات التي ينتسب إليها الأفراد " . ويشير إلى أن ليفي بريل أوضح كيف أن " **البدائيين لا يدركون الأشياء كما ندركها ، لكن إدراك الأشياء يرجع لديهم إلى خصائص** صوفية / غيبية غير محسوسة (تصنعها الجماعة) بقدر ما يرجع إلى الخصائص المادية المحسوسة " . ويلخص هذا الموضوع بمثال يوضح به مايسميه " **الطابع السيكولوجي الجماعي للإدراك** " ، لتأكيد "ماتفرضه التصورات الجماعية على الإدراكات التصنيفية " ، هو مثال جان دارك . يقول : " إن جان دارك - كلها إحساس وسلامة إحساس - رأت ملائكة وقديسين وتكلمت معهم . وكانت رؤيتهم وتكليمهم أمرا طبيعيا عندها مثل رؤية أبيها وتكليمه ، في العالم الذي آمنت به هي ومعاصروها . ولئن أكد بعض هؤلاء أنها كانت ألعوبة في يد إبليس ، فلم ينكر أحد منهم أنها رأت وسمعت . ولايجوز في هذا الموضوع أن نتحدث عن هذيانات

---

١ - ص ٩ و ١١ من كتاب : The Group Mind , by W . Mc Dougall. Camdridge University Press , 1921 .

ووساوس ، لأن هذا يتناسى موافقة الناس لها " (١).

وإذا كنا نهتم هنا بمدركات ومكونات الذهن الاجتماعي لشعوب معينة في العصور القديمة ، وذلك من خلال الموروثات الذهنية الشفاهية التي وصلت إلينا في تدوينات أو تسجيلات مادية معينة ، وتلك التي ترسبت حتى اليوم في الذهن الاجتماعي اللغوي الحديث ، فان هذا يوضح المعنى الذي نقصده حين نستعمل هنا كلمة الفولكلور أو الفولكلوريات في كلامنا عن التاريخ . فالمعنى المقصود يتخطى الإدراكات والذكريات الشعورية ، ويمتد إلى الظواهر الأخرى في التكوين الذهني أو الطبع الذهني للجماعة ، مما يعبر عنه مايبقى من الموروثات أو الامتدادات أو الرواسب القديمة التي يمكن تمييزها عما هو جديد أو مكتسب في العصور اللاحقة . وبهذا المعنى الذهني العام ، نستعمل كلمة الفولكلوريات في هذا الكتاب ، بحيث تتضمن مختلف المكونات المشار إليها ، مضافا إليها علاقات وترتيبات هذه المكونات وخلفياتها ومتضمناتها ،وكل ما يجعلها **تشكل تركيبة ذهنية للجماعة أو تشكل الطبع أو التطبع الذهني للجماعة.**

- والمكونات الفولكلورية تنقسم أساسا إلى ما يلي :

١ – المرويات أو المنقولات القديمة العامة التي وصلت إلينا خلال مدونات الرواة والناقلين القدماء . وهذه عبارة عن قصص وأخبار وأشعار وأساطير وأمثال وحكم شعبية ، إلخ.

٢ – اللغويات القديمة . وهذه عبارة عن نصوص وأصول ونظام وطريقة استعمال هذه اللغة أو تلك في الكلام أو في الكتابة ، وعلاقاتها باللغات المتفاعلة معها ، والمدونات التي استعملت تلك اللغة أو ترجمت عنها ، وأبجدياتها ، إلخ ، فضلا عن آثارها ورواسبها في اللغويات اللاحقة .

٣ – النصوص النقلية القديمة الصادرة عن أفراد أو المرتبطة بأفراد ——— ولكن من حيث جانبها الذهني الاجتماعي المذكور : لغويا ومنطقيا وفي الإدراكات والتصورات العامة ، إلخ .

٤ – العادات والنزعات والدوافع والميكانيزمات الذهنية الاجتماعية القديمة ،

---

(١) شارل بلوندل : " المدخل إلى علم النفس الجماعي " ترجمة حكمت هاشم : صص ١٠٨– ١٠٠

والميكانيزمات أو الصياغات التعبيرية القديمة ، كما سجلتها المعطيات التاريخية القديمة أو كما يمكن استخلاص معالمها من حفريات ورواسب المحفوظات الاجتماعية اللاحقة والحديثة .

الأسطورة والحكاية الرمزية

نقف هنا قليلا عند أهم وأسهل عناصر هذه المكونات الفولكلورية ، وهي : الأسطورة myth ، والحكاية الرمزية fable (التى يسميها معظم المتخصصين وخصوصا المترجمين عن الإنجليزية باسم " الخرافة " !) .

ومنذ اليونانية القديمة المعروفة واللاتينية ، كانت الكلمتان تختلطان كثيرا بين اللغتين ، لأن الكلمة الثانية كانت قد استعملت فى البدء كترجمة لاتينية للكلمة الأولى ! ثم تميزت الكلمتان فى اليونانية واللاتينية ، بحيث اختصت كلمة **fabula** **بالتعبير عن " لب " الحكاية فى الأسطورة** ، أى عن " خطة " أو " دسيسة " الحكاية ، أو مايسمى فى العامية المصرية : " الفولة اللى تفهمها " . (وهذا هو بالدقة المعنى الأصلى لكلمة fabula فى اللاتينية وهو " **الفولة** " !). ولهذا ، كانوا يترجمون هذه الكلمة فى نصوص أرسطو بالكلمة الإنجليزية **Plot** . (وهذه الكلمة الإنجليزية تعنى فى أصلها القديم : المخطط أو المكيدة أو الورطة المرسومة . لكن بعض الأدباء ابتذلوها واستعملوها بمعنى الحبكة القصصية أو الحبكة الفنية !!) .

وفى الاستعمال الحديث ، تختلط كثيرا كلمة myth وكلمة fable – وخصوصا فى اللغة العربية – حيث يترجمان معا بكلمة " أسطورة " أو بكلمة " خرافة " التى تقتصر أحيانا على الكلمة الثانية كما قلت . ولكن الصواب أن نستبعد معنى " الخرافة " من كلا الكلمتين ، وأن **نترجم الأولى " أسطورة " والثانية " حكاية رمزية "** (مثل حكايات لافونتين الرمزية فى العصر الحديث ، أو حكايات " كليلة ودمنة " القديمة) . هذا بدون أن ننسى أن معنى " الأسطورة " فى اللغات القديمة كان يتضمن أيضا معنى الخطة المطلوب توضيحها أو الفكرة الرمزية أو التعليمية فيما ترويه الأسطورة . ولهذا ، نجد مثلا أن اسم Fabulinus فى اللاتينية كان يعنى إله تعليم الكلام للأطفال ، بينما نجد أن كلمة Fabula نفسها كان لها معنى آخر متميز فى اللاتينية هو " **الحكمة الرمزية** " أو " **القصة الحكمية** " . وبسبب هذا المعنى ، كانت لها ترجمة ارتجاعية خاصة باليونانية هى : **أبو لوجوس apologos** – وهذه تعنى الحكاية التعليمية أو الكلام التعليمى أو التوجيهى أو كلام الرد (وأصلها : أبو التفكير) .

ونرجع إلى كلمة myth التى ترجمتها " أسطورة " . فالكلمة اليونانية هى " موثوس " . وبدون التذييلة النحوية ، نجد أنها هى نفس الكلمة المصرية القديمة "موت" أو "ميت " – تأكيدا للأصل البحراوى الواحد للغات البحراوية التى بدأت من شمال مصر وتفرعت شرق وشمال البحر الأبيض ثم فى مواطن برومثية أخرى . وكلمة موثو / موتو / ميت (مثل النطق الفرنسى) كانت تعنى فى الأصل الأقدم المسجل: القضيب الأسطوانى ، الذى يعبر أيضا عن لفة الورق الأسطوانية roll أو Scroll – بالطريقة التى كانت متبعة فى العصور القديمة وفى جزء من العصور الوسطى . (١) والترجمة العربية القديمة لهذا المعنى الأصلى للكلمة البحراوية القديمة ، تبين أنه واضح تماما ومسجل فى النصوص . فكلمة " الزبور " فى العربية القديمة (فى القرآن مثلا) كانت تعنى الكتاب ، كماكانت تعنى أيضا قطعة أو قضيب الحديد . والمعنى الأول نجده فى سورة فاطر مثلا : " جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزُّبُر " ، بينما المعنى الثانى نجده فى سورة الكهف مثلا : " زُبُر الحديد " .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن الترجمة العربية القديمة للمعنى الكتابى (وليس الأسطوانى) لكلمة موتو ، هى " أسطورة " . وهذه كلمه ذات أصل بحراوى يونانى أيضا تعبر عن الترادف بين معنى الكلمتين : موتو / زبور + إستر / إسطور . فكلمة الأسطورة فى العربية القديمة (قبل أن تتحول إلى معنى الخرافة) ، كانت تعبر عن أصلها الاشتقاقى وهو السطر والتسطير ، أى الكتابة . فمعناها الأصلى إذن هو أيضا : المكتوب أو الكتاب . وفى القرآن مثلا ، نجد مايلى : " كان ذلك فى الكتاب مسطورا " (سورة الإسراء) . وأيضا : " وكل شئ فعلوه فى الزُّبُر [= الكتب الملفوفة] ، وكل صغير وكبير مستطر [= مسطـــــور] " (سورة القمر) . أما فى اليونانية فنجد أن كلمة " إستوريا " التى ترجع إلى نفس الأصل المشتقة منه الكلمة العربية المذكورة ، كانت تعنى " التاريخ " (= التسجيل التسطيرى للأحداث) ، قبل أن تتحور هى أيضا لتعنى القصة أو الرواية Story !!

فالدلائل تبين أنها كانت فى أصلها الأقدم تعبر عن نفس المعنى الأصلى الذى حافظت العربية المعزولة فى الصحراء على أحد اشتقاقاته ، أى كانت تعبر عن تدوين أو تسطير وقائع

(١) انظر مثلا المقطع m. t . ورسمه بالهيروغليفية (التى حافظت على استعماله البدئ فقط !!) فى كتاب " قواعد اللغة المصرية / القديمة " تأليف عبد المحسن بكير ص ١١٤

التاريخ – وهو المعنى الذى أصبحت تعبر عنه كلمة لاحقة ظهرت بعد تحورات معنى الكلمة المذكورة ، هى كلمة إستوريو جرافيا / أى كتابة أو تسجيل التاريخ (وتعبر عنه فى العربية الجديدة كلمة " تأريخ " بالهمزة) .

وقبل أن تتسع التحورات والاختلافات بين معنى الكلمتين الأصليتين (إستوريا / الإسطورة وموثوس / زبور الكتاب) ، كانت الكلمة الأولى قد احتفظت بالتعبير عن معني التسجيلات التاريخية ، بينما أصبحت كلمة " موثو " تعبر فى مقابل ذلك عن معنى التاريخ المحفوظ شفاهيا على شكل " خلاصات " روائية / مروية أو عبرات / عبر تاريخية تعليمية . وهذا واضح فيما عرفناه عن أنواع الكتب المسجلة أو المودعة للتاريخ (مثل سفر " أخبار الإيام " Chronicles أو تلك الكتب التى كانت تسمى بالعربية القديمة فى اليمن باسم " الوضائع / الودائع " ، وبين أنواع " الخلاصة (= القولة) المدونة للتعليم والتحفيظ وتقرئ الأميين أى " القرّائين " (= المرتلين بالمعنى التعليمى قبل أن يتحول إلى المعنى الكهنوتى) . ولهذا كان مرادفها اللاتينى الأول – كما أوضحت – هو كلمة Fabula . ثم تأمل فى ذلك أيضا الكلمات اليونانية اللاتينية التى ترجع إلى أصل مشترك مع موثو / ميثو : / musa / mousa / موسا التى تعبر عن التعليم أو الدراسة ، و missus أى مكتوب أو مرسل (أو حامل رسالة) – ومنها فى اللغات الأوروبية missive / رسالة ، و mission / مهمة أو رسالة .

وبخصوص سبب الا شتراك أو التداخل بين معنى الكتاب أو الكتابة والتسطير وبين معنى التأريخ أو التاريخ كما لاحظنا ، فيجب أن نفهم جيدا أنه – **فى التاريخ الأقدم بالذات – كان أهم كتاب وأقدس كتاب وأكبر كتاب ، هو كتاب التاريخ ، أى ذلك الذى يسجل ويدوّن أقدم وقائع وجرائم وطوفانات الإبادة والدمار والعذاب واكتساحات الإبادة والدمار والعذاب وهجرات الفرار من الهلاك الشامل ، ومحاولات الاستقرار أو السكن فى أرض جديدة ، إلخ .** وهذا ما تعبر عنه الكلمات الموجودة فى الأساطير القديمة فى أرجاء العالم عن : **التكوين (أى النشوء) والطوفان والخروج / الهجرة والميلاد الجديد أو الدورة الجديدة Volvas** ، إلـخ . ذلك أن هذه " التواريخ " المكتوبة أو ملخصاتها المحفوظة شفاهيا كما سنذكر ، قد أبيدت واستُأصلت كلها ، وحلت محلها الكتب الدينية المصنوعة فى كل مكان ، تحمل نفس

الموضوعات الفرعية بعد تزييفها وتحويرها ، بل وتحت نفس العناوين الرئيسية للكتب القديمة أحيانا (مثلا توراه / تورات / تراث ، وكذلك " الأسفار الخمسة " ، إلخ). وعلى كل حال ، **فالمهم هنا أن نشير إلى أن معنى "الكتاب" ومعنى "كتاب التاريخ" (المحفوظ كتابيا أو شفاهيا) ومعنى "التاريخ" نفسه كواقع موضوعي، كانت تتداخل وتمتزج أو تتوحد فى التراث اللغوى القديم.**

ونكتفى مؤقتا بهذه الملاحظات التى تبين أن تحليل الأصول اللغوية لمثل هذه الكلمات المفتاحية ، ليس فقط مفيدا وضروريا من أجل تحديد وتوضيح فروق وتطورات معانيها ، لكنه مفيد وضرورى أيضا كجزء من البحث التاريخى نفسه . وقد رأينا كيف أكد المفكر **الإيطالى الباحث فى أصول التاريخ فيكو Vico على أن التاريخ كعلم جديد للبشرية ، يجب أن يقوم أيضا على أساس الفيلولوجيا (= علم الأصول اللغوية) وعلى أساس الفلسفة .**

تحويرات وتحويلات الفولكلوريات القديمة

أوضحت قبل ذلك أن ثالوث المحرمات القصوى فى قدس الأقداس المحجوز عن البحث والتفكير ، هو : فلسفة الأديان (ابتداءً من البحث فى الأصول التاريخية للأديان) ، وفلسفة التاريخ (ابتداءً من البحث فى الأصول القديمة للتاريخ) ، وفلسفة اللغة (وأهمها أصول اللغات القديمة المرتبطة بأسرار الأديان القديمة وأسرار العصور والشعوب التاريخية القديمة) . أما البضاعة التى سُمح أو يُسمح بها عن ذلك الثالوث ، فكانت ولا تزال مجرد منتجات مزيفة أو مضللة ، أو قشورا لا تصل إلى الأصول (هذا إذا لم تكن محض أوهام ملفقة) .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلم يكن من المعقول منطقيا أن تسمح قبضة الرهبوت اللا عقلى الشامل منذ الفرعونية ، بأن تبقى وتنتقل بالتداول والتوارث أىّ حقائق أو وقائع محددة مفيدة عن الأقانيم الثلاثة المذكورة للأسرار المحرّمة – سواء خلال النصوص والوثائق المكتوبة أو خلال المحفوظات الشفاهية فيما يسمى الفولكلوريات واللغويات الاجتماعية .

ولن نتناول هنا دورات الإبادة والتدمير والتصفية والغربلة التى كانت تتعرض لها البشرية بإنتظام (انظر عبارة أشعياء المذكورة من قبل عن " غربلة الأمم بغربال السوء / غربال الخراب : **to force the nations to their ruin / cribler les nations avec le crible de la destruction .** (سفر أشعياء ٣٠ /

٢٨) . لكن المهم أن نشير مرة أخرى إلى أن دورات الغربلة كانت تستهدف ضمان عدم انتقال " القطع الكبيرة " من الحقائق والأسرار التاريخية عبر دورات وعصور الجماعات البشرية ، **بحيث لا ينزل إلى "أكوام" التراث البشرى أصلا من خلال تلك الغرابيل والمناخل التدميرية إلا التراب ، أو " القطع الصغيرة " على الأكثر .**

. . . . . . نقطتين هما :

<u>النقطة الأولى</u> ، هى أن ما تتعرض له المفاتيح الفولكلورية اللغوية والقصصية والتراثية والذهنية الأخرى ، من التحويلات التسفيلية والتخليطية والتخريفية ، أو التحويلات التحويرية التجهيلية عموما ، هى عمليات مخططة ومحكومة ومصنوعة من أعلى – أو على الأقل مسموح بها من أعلى . <u>والنقطة الثانية</u> ، هى أن هذا التخطيط والتحكم والتنفيذ لا يقتصر على التحويرات والتحويلات السلبية أو الجزئية المذكورة ، أى تلك التى تعتمد على تلقائيات وميكانيزمات السوقية الدهمائية والابتذال وانخفاض أو اختلاط الفهم والمعرفة والخبرة ، وما يرتبط بذلك كله ويكمله من الظروف والسياقات الوقائعية المصنوعة أو الموجَّهة وفق ما هو مطلوب . لكن هذا التخطيط والتحكم يهتم أيضا وأصلا وأساسا بالتحويرات والتحويلات الكلية والملقنه الملاة ترتيليا ، التى كانت فى العصور القديمة والوسطى تُفرض فرضا بالحديد والنار والموت والدمار ، على بقايا الشعوب التى تتعرض للإبادة والاكتساحات القطعانية والهجرات والتهجيرات والتغييرات السكانية واللغوية وتغييرات العبادات والأديان ، إلخ .

وسوف نتناول فى فصول الكتاب أمثلة تاريخية كثيرة عن تلك الدورات التدميرية الواسعه ، التى كانت ترتبط بتغيير الشعوب واللغات وبتغيير الأديان والعبادات ، ومن ثم تغيير الفولكلوريات وبقايا الأرصدة التراثية القديمة . فقد كانت تلك التغييرات الدورية تتخذ شكل التلقين الإملائى والترتيلى الصريح ، باسم الدين المنتصر وباسم المقدسات الجديدة وباسم الفاتحين أو الحكام الأجانب والكهنة الجدد ، إلخ ، وذلك على أساس إبادة أو تهجين الشعوب السابقة التى تتعرض لذلك .

لكن يكفى فى هذا الفصل عن الفولكلوريات ، أن نشير إلى بعض الأمثلة الرمزية الواردة عن دورات الشعوب فى النصوص الدينية القديمة .

يمكن أن نبدأ بالإشارة أولا إلى ماورد عن ذلك تعميما في القرآن ، ثم ننتقل إلى ماورد من الأخبار عن هذه الميكانيزمات التاريخية الدورية في أسفار العهد القديم والعهد الجديد من " الكتاب المقدس " . . . . .

. . . .

ولننظر الآن فيما ورد في أسفار العهد القديم .

فهناك أولا ماورد في سفر " التكوين " عن " برج بابل " . وهذا سنتناوله في فقرة أخرى.وفي أسفار " الأنبياء " ، نجد مثلا في سفر " زكريا " كيف ضرب الرب حتى أنصاره لغربلتهم . يقول:" يقول رب الجنود : أيها السيف استيقظ على الراعى الخاص بى my Shepherd وعلى رجل رفقتي . أضرب الراعى فتتبدد الخرفان ، ثم أرد يدى على الصغار to turn my hand against . ويقول الرب أيضا : يكون في كل أرض أن ثلثين منها ينقرضان ويضمحلان extermine ، والثلث يُستبقى فيها . ثم أُدخل الثلث في النار وأحميه إحماء الفضة وأمتحنه امتحان الذهب throngh fire [حتى] أقول هو شعبى ، ويقول هو الرب إلهى " . (زكريا ١٣ / ٧ - ٩) .

وتأكيداً لعمليات " الغربلة " الدورية يقول سفر إشعيا :

" قلت : إلى متى أيها السيد ؟ [= إلى متى يارب يستمر الانصراف عن الدين ؟] قال : إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن والبيوت بلا إنسان وتخرب الأرض وتقفر . . وإن بقى فيها عُشر سكانها a tenth of its people يصيرون هم أيضا إلى الخراب exterminated ، ولكن كالبلوطة إن قطعت فلها ساق يكون زرعٌ مقدس une sainte posterité " (أشعياء ٦ / ٩ - ١٣) .

وفي سفر " إرميا " ، يقول عن إحدى غضبات الرب على أورشليم :

"صعد الأسد من غابته وزحف مُهلك الأمم the destoyer of nations [المدمر العام] ليجعل أرضك خراباً ....الطموا وولولوا " (إرميا ٤/٧-٨).لماذا ؟ !"يقول الرب: تمردت عليّ " (٤/١٧) . كيف ؟! يقول سفر آخر : " إن لم تؤمنوا لاتأمنوا " (إشعياء ٩/٧). والمقصود في هذه النصوص ليس مجرد الإيمان الديني ، لكن الإيمان الخرافي الأعمي الذي

يلغي العقل والتفكير . وفي "رؤيا يوحنا اللاهوتي" آخر اسفار " العهد الجديد " ، يذكر أنواعا متتاليه من الويلات والأهوال ونيران العذاب ترتعد لها الأبدان ! لماذا ؟! كعقاب إلهى للبشريه على تعذيب وصلب المسيح !أما فى إنجيل متى " ، فيقول على لسان المسيح (قبل أن يصيبه أى شيء !) إنه من أجل الوصول إلى " ملكوت الله " فى الدوره المسيحيه فى ذلك الوقت ، ستحدث " حروب وأخبار حروب . . . وتقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون أوبئة ومجاعات وزلازل فى أماكن شتى " (متى ٢٤ / ٦ – ٧) . ومعنى ذلك أن الدمار كان مكتوبا على البشر فى ظل المسيح ثم تحت صليبه .

لكن لماذا هذه " الدورات " التى قد يتصور البعض أنها تشبه لعبة القط والفأر ؟! ولماذا تبرر النصوص الكهنوتية القديمة شعار " غربلة الأمم بغربال الخراب " destruction / ruin ، وشعار " مدمّر الأمم " destroyer of nations ؟ !

يمكن أن نجد الجواب فى أسفار أخرى . فالجواب هو أن **المطلوب فى الحقيقة قطع اتصال الأجيال ومن ثم اتصال الذاكرة التاريخية المتمثلة فى التراث واللغة والفولكلوريات** ، أى مسح وطمس الآثار الدورية لعملية أو جريمة صناعة كل عصر من العصور ، وتغطيتها بالجهل والنسيان إن لم يكن إزالتها . ويكون ذلك بإفناء جيل معين أو أجيال معينة ، أو أحيانا إفناء شعب بأكمله أو شعوب كاملة ، مع السماح بالبقاء فقط للجماعات الجديدة التى ينطبق عليها (خلال دورة واحدة على الأقل !) الرمز المعروف القردة الهندية الثلاثة المعبرة حقا عن شعار صناعة دورات التجهيل فى التاريخ : " **لا أرى ! لا أسمع ! لا أتكلم !** " — ثم يأتى بعد ذلك بالضرورة : **لا أعرف !** .

يقول سفر " العدد " مثلا : " حمى غضب الرب على إسرائيل وأتاههم فى البرية أربعين سنة حتى فنى كل الجيل . " (العدد ٣٢ / ١٣) . أما شعب مديان مثلا – الذى كان يوجد فيه الحكيم الملحد بلعام بن بعور – فقد أمر الرب بإبادة كل ذكر فيه حتى الأطفال ، وكل امرأة فى سن الزواج ، وإحراق وتدمير كل المدن والمساكن . وعندما حاول الإسرائيليون استرقاق بعض نساء مديان بدلا من قتلهن ، أصابهم الرب بالوباء وأرغمهم على تنفيذ أوامره : " قال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ! إن هؤلاء كنّ لبنى إسرائيل حسب كلام بلعام خيانة للرب : فكان الوبأ فى جماعة الرب . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة . . . لكن جميع

الأطفال من النساء أبقوهن . . . " (عدد ٣١ / ١٥ – ١٨) .

وفى سفر " القضاة " أيضا ، يميز النص بين الجيل القديم أو الأجيال القديمة " الذين رأوا كل عمل الرب العظيم " – أى الذين كانوا أدوات عمياء خضعوا تماما لـ " المعجزات " الكهنوتية ونفذوا بدقة حروب الإبادة وتعليمات الرب أى الكهنة ، وبين الجيل أو الأجيال الجديدة التالية : " قام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب ولا العمل الذي عمل " ! وهؤلاء نقصت عندهم درجة الرعب وعمى البصيرة ، ومن ثم نقصت رغبة الحرب والإبادة ، فبدأت تنزل عليهم اللعنات ، توطئة لصناعة جيل جديد من المرعوبين المرعبين الذين ينفذون بدقة ولا ينفرون من الحرب والإبادة وقتل الأطفال والنساء وإحراق المدن وفرض حكم الكهنة فى كل مكان ! (إصحاح ٢) . وهكذا دواليك من دورة إلى أخرى !

وفى سفر إشعياء يقول : " ويل لك أيها المدمِّر destroyer . . . إنك حين تكف عن التدمير تدمَّر ، وحين تفرغ من النهب تُنهب " ! (إشعيا ٣٣ / ١)

وبخصوص التمييز بين الشعوب المطلوب إبادتها ، وتلك المطلوب تغييرها ، أو المطلوب تهجينها أو حتى إخضاعها فقط ، نجد نصوصا كثيرة توضح التعليمات الخاصة بهذه الميكانيزمات والتقاليد القديمة . وفى سفر " التثنية " مثلا ، يميز بين **الشعوب التى يُقتل ذكورها فقط ويُستعبد الباقى** (وهى الشعوب التى لم يصل إلى منطقتها الصراع بين الكهنة وأعدائهم بحيث لا تملك معلومات أو ذاكرة شعبية تاريخية عن ذلك ومن ثم يكون المطلوب أساسا تغيير تكوينها وتراثها الذهنى) ، وبين **الشعوب التى يُقتل كل كائن حىّ فيها حتى البهائم** (وهى الشعوب التى انخرطت بشكل أو بآخر فى بعض وقائع ذلك الصراع أو تابعت أخباره ، والتى يسميها النص أحيانا بالشعوب " **السبعة** " – والمقصود كما يتضح فى الكلمة الفرنسية اللاتينية : الشعوب **الشمالية septentrional** ، وهى التى تسمى أيضا **السامية / الشامية** (١) أى التى تنتمى أصولها إلى شعوب الدلتا المصرية القديمة) .

---

(١) تسمية الدلتا بالسبعة ٧ ، يعبر عن منظور ذى اتجاه مصرى فى عكس اتجاه الهجرة البحراوية الإيونية الذى يتضح فى شكل حرف الدلتا اليونانى Δ . ومن ناحية أخرى ، فكلمة شام / شأم فى العربية القديمة وأشباهها وفى الاحاديث النبوية ، كانت تستعمل بمعنى الشمال فى مقابل " اليمن " أو " التيمن " بمعنى " اليمين أو الجنوب – من منظور الخروج من مصر عبر سيناء .

وفي هذا المعنى ، يتحدث السفر المذكور أولا عن الشعوب " البعيدة جدا " التي تقبل الاستسلام . في هذه الحالة : " كل الشعب يكون للتسخير ويستعبد " ! ثم يقول عن بعض الشعوب الأخرى " البعيدة جدا " أيضا ، ثم عن الشعوب الأخرى المغضوب عليها غضباخاصا: " إذا دفعها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافي المدينة ، فكل غنيمتها تغنمها لنفسك . . . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيكها الرب إلهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ما any creature alive ، بل تحرّمها تحريمًا / إفناءً annihilate them : الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين [وهذه شعوب شامية يونانية فارسية ظهرت لها بدائل لاحقة بنفس الأسماء في القرون التالية] " . لماذا يأمر رب الكهنة بذلك ؟! " لكي لا يعلّموكم أن تقلدوا [= تقلدوهم] . . . فتخطئوا إلى الرب إلهكم (تثنية ٢٠ / ١٠ – ١٨) .

● وسنذكر فيما يلي أمثلة تاريخية سريعة ، لمجرد تنبيه القارئ إلى أن هذه ليست مجرد نصوص دينية كهنوتية يلتزم بها أتباع العبادة الإسرائيلية المعروفة فقط ، والتنبيه إلى أن هذه التعليمات الكهنوتية كانت تشمل العالم كله (من الدروية / الدرويدية في شمال غرب أوروبا إلى الدرافيدية وأشباهها المجوسية في شرق آسيا) ، ولم تكن قاصرة على منطقة الشرق الأوسط المتاخمة لمصر الفرعونية ، مما يعني بالتالي أن الإسرائين أو الإسرائيليين أي المهجّرين الكهنوتيين منفذي اكتساحات الرعب الكهنوتي لم يقتصروا فقط على الجماعات المعروفة بهذا الاسم في الشام أو في جنوب الشام (والذين صنعوهم في مرحلة متأخرة كنمط تاريخي مزيف وللتضليل وتحويل النظر عن مصر الفرعونية إلى مصرائيل !) ، وأن رب الكهنة والرعب الإسرائيلي (= رهب Rahab) الذي يقول الإسرائيليون إن " مسكنه " الخاص كان في " شيلو " في السمرا / السامرة ثم انتقل منه بعد ضم يهودا البيضاء إلى " مسكن " خاص آخر في أورشليم " في معبد جبل " صهيون " (= الكنانة المصونة) [١] ، إنمـــا

(١) لاحظ أن كلمة " صهيون " ترجع إلى نفس أصل الكلمة العربية " صون " (ومنها " الحرم المصون ") ، ونفس أصل الكلمة وكلمة "صوان " ، هو نفس أصل الأسماء الكثيرة التالية التي أطلقت على مصر في النصوص القديمة المعروفة : سو So / سوا Soa / Çoa / كوا / صوعن ، إلخ .

كانت له فـــى الحقيقة مراكز كهنوتية متعددة الأسماء فى كل مكان ، وكان يستخدم أوكاراً وشبكات سرية وعلنية لا حصر لها !!

ولنتأمل مثلا بعض وقائع الإبادات الشاملة التى حدثت فى التاريخ القديم بنفس المواصفات المذكورة فى هذه النصوص ، والتى كشفت الحفريات حتى الآن بعض آثارها المادية الثابتة . من ذلك مثلا حفريات عاصمة وادى **الإندوس / السند** (موهنجو دارو Mohango - Daro / دار موهنج) التى كانت لها حضارة علمانية معروفة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، أى قبل الحضارات الدينية والغيبية والسنسكريتية الآرية التى غطت على ماقبلها ! فقد هاجم بعض الغزاة (الذين حملوا اسم الآرية) تلك المدينة فى حوالى ١٥٠٠ ق . م . **فقتلوا بالسيوف والفئوس والبلط كل كائن حى ، بحيث كشفت الحفريات عن هياكل وجماجم الأطفال والنساء والرجال مبعثرة فى كل مكان : فى بقايا البيوت وجانب البئر وفى الحوارى وفى السوق ، إلخ** !! وتركت آثار تلك المذبحة كما هى عدة قرون حتى غطاها تراب الزمن على نفس الأوضاع – بطريقة تكشف شمول واستمرار الرعب ولعنة اللامساس الذى جعل المدينة ببقايا المذبحة عبرةً مشهودةً ومحظورةً حتى اختفت !! (وقارن بذلك ماورد فى الأحاديث وسيرة ابن هشام عن الرعب من الأطلال "المحجورة" لإحدى مدن كفار ثمود مثلا فى شمال الجزيرة فى الطريق إلى تبوك) . ونفس الشئ تقريبا كشفه الأثريون فى حفريات " الطبقة الأولى " من طرويا / مدينة طروادة ، قبل أن يعاد إنشاؤها فى الألف الثانى قبل الميلاد ، ثم تتعرض فى الأجيال التالية لغزو هندى آرى ، ثم تتعرض بعد ذلك للغزو المعروف من الدوريانيين اليونانيين . وهكذا أيضا كشفت الحفريات عن التدمير والحريق الشامل الذى قضى به الدوريانيون على مدينة موكيناى / ميسينيا Mycenae فى حوالى ١١٠٠ ق . م . وكانت قد برزت كعاصمة لمرحلة من مراحل المحاولات الحضارية اليونانية السابقة على الدوريانيين ، وحلت إذ ذاك محل مدينة كنوسوس الكريتية Knossos – التى تكشف الحفريات أنها تعرضت للزلازل والنيران المتكررة بحيث انتهت فى حوالى ١٥٠٠ ق . م ! والأمثلة الأخرى للدمار الشامل – سواء باستخدام السيوف السرية للرعب الإسرائيلى أو باستخدام السيوف والفئوس / البلط للغزو الاسرائى – هى أمثلة لا حصر لها ! .

● وفى الإصحاح الثانى من سفر " التثنية " أيضا ، يحدد " رب الجنود " الموقف

المطلوب من قطعان الاكتساح تنفيذه إزاء كل شعب . يقول مثلا : "إخوتكم بنى عيسو . لا تهجموا عليهم . . . مؤاب لا تعادهم ولاتثر عليهم حربا . . . بنى عمون ، لا تعادهم ولا تهجموا عليهم " ، إلخ . (تثنية ٢ / من ٤) .

ثم يقول فى إصحاح ٧ : " سبع شعوب [= شعوب الدلتا القديمة] أكثر وأعظم منك . . . تحرمهم / تفنيهم Put them to death . لا تقطع لهم عهدًا ولاتشفق عليهم ولا تصاهرهم " (٧ / ١ – ٣) . " لا تشفق عيناك عليهم . . . وإن قلت فى قلبك : هؤلاء الشعوب أكثر منى فكيف أقدر أن أطردهم ، فلا تخف منهم . اذكر التجارب العظيمة التى أبصرتها عيناك والآيات والعجائب واليد الشديدة .. وأيضا الزنابير / Panic [= الوسائل السرية للاخضاع أو الإبادة] يرسلها الرب إلهك عليهم حتى يفنى الباقون " (٧ / ١٦ – ٢٠) . ثم يؤكد ذلك قائلا بكلمات إسرائيلية واضحة تماما :

" الرب إلهك فى وسطك / فى صفوفك in Your midst إله عظيم ومخوف / رهيب terrible . لكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليـلا قليـلا [= تدريجيا] لا تستطيع أن تفنيهم سريعا ، لئلا تكثر عليك وحوش البرية [= تثور وتتحد ضدك الشعوب المعادية الأخرى] .. الرب يوقع بهم اضطرابا عظيما حتى يفنوا ، ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء !! (تثنية ٧ / ٢٠ – ٢٤) .

وفى إصحاح آخر ، يحدد تعليماته بخصوص أى مدينة يسبق احتلالها ثم يظهر فيها كفار (يسميهم فى النص العربى " بنى لئيم " ، وفى النصوص الأخرى جاحدين أو ضالين Perers / miscreants) . يقول مصدراً الأمر بإبادة كل كائن حىّ بل كل شئ وكل بقايا هذه الجماعة التى يظهر فيها كفار :

" ضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرّمها / تفنيها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف . تجمع كل أمتعتها . . . وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها للرب إلهك ، فتكون تلاً إلى الأبد/كومة خراب ruins لا يعاد بناؤها " !! (تثنية ١٣ / ١٣ – ٦) .

كذلك يحدد تعليماته حتى بخصوص طريقة التعامل والعلاقات السكانية مع الجماعات المسموح لها بالبقاء ومع أجيالها المقبلة قائلا : " لا يدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب [= الانتماء العقائدى للفاتحين] حتى الجيل العاشر . . . لا تكره أدوميا لأنه أخوك . لا تكره

مصريا ، لأنك كنت نزيلا فى أرضه . والأولاد الذين يولدون لهم فى الجيل الثالث يدخلون فى جماعة الرب [= يعتبرون إسرائيليين] " . (تثنية ٢٣ / ٣ – ٨) .

ويتكرر كثيرا فى النصوص الخاصة بهذا النمط الكهنوتى القديم للاكتساح الشامل ، أن " الرب إلهكم هو المحارب عنكم " (!!) ، وأنه هو الذى يستعمل وسائله وضرباته السرية فى الإفناء والإبادة أو فى التمهيد التدميرى للاكتساح . ويقول مثلا عن شعب معين تقرر إفناؤه قبل استخدام حملات الغزو الاكتساحى لتبرير واستكمال ذلك : " إن يوم هلاكهم قريب ، والمهيّآت لهم مسرعة " (تثنية ٣٢ / ٣٥) . وكلمة " المهيّآت **Ce Qui est Préparé Pour eux** ، هى كلمة مهمة ومفيدة جدا ، ومعناها باللغة الحديثة : " المخططات " .

وقد رأينا كيف أن المطلوب هو " محو اسمهم من تحت السماء " . وهذا ماتؤكده نصوص أخرى كثيرة وحاسمة . من ذلك مثلا ماورد مراراً وتكراراً بكلمات صارخة فى "مزامير داود " . ورغم أن النص العربى يستخدم كلمات مموهة كالمعتاد فى تقاليد العداء الشرقى القديم للعقلانية والتحرر الذهنى ، نجد أن النصوص الأوروبية تستخدم ترجمات محددة . فبدلا من الكلمة العربية " المنافق " أو " الشرير " للتعبير عن الكافر ، يستخدم الإنجليزى و الفرنسى : infidèle / ungodly . وفى المزمورين ٩ و ١٠ ، يقول النص ما يلى باسم الرب (وبعضه موضوع فى النص الإنجليزى تحت عنوان Downfall Of the Godless / انهيارمن لا إله له) :

"زجرتَ الأمم وأهلكتَ المنافق / الكافر . محوت اسمهم إلى الدهر والأبد . . . دمرت مدنهم / محوتَ Rasé مدنهم ، وحتى ذكرهم باد / thou hast blotted their name for all time, all memory of them is lost / leur Souvenir est anéanti. لا يعتزّ إنسان . يارب اجعل عليهم رعباً ، لتعلم الأمم أنهم بشر they are but men . . . الرب مَلِك إلى الدهر والأبد . بادت / هلكت الأمم " !! (مزامير ٩ ، ١٠) . ويكرر السؤال : إلى متى المنافق / الكافر / العدوّ يارب ؟! " ، ثم يكرر الجواب : بادوا . . . وصاروا دِمَناً للأرض (= سباخًا) de fumier / dung " – " الرب قد ملك ، فلترتعد الشعوب . . . وتتزلزل الأرض " !! (مزامير ٨٣ / ١٠ ، ٩٩ / ١ ، وانظر ٧٤ و ٧٩ و ٩٧ ، إلخ) .

السؤال الذى يبرز مرة أخرى هنا ، هو : لماذا " تُختار " شعوب معينة لأعمال الاكتساح والتدمير ومسح الذاكرة التاريخية – مثل شعوب الهكسوس / الرعاة ، وغيرهم من قطعان البدو والإتروسك والهون والتتار والمغول ، إلخ – وهى الشعوب التى يرمز لها " الكتاب المقدس" بنمط أو نموذج يحمل اسم " إسرائيل ؟ " (وهذا اسم كان يعنى فى اللغويات القديمة " رعب الله" أو " خوف الله " أو " هيبة الله " ، ثم أصبح يعنى فى العصور الرومانية حتى ظهور الإسلام "هجرة الله ") .

تجيب النصوص القديمة صراحة ، بأن السبب هو " رفض " الشعوب المطلوب إزالتها ، وليس " تفضيل " الشعوب التى تُستخدم فى عمليات الإزالة أو التعبيد ! أى بالتعبير العربى القديم : ليس حبًا فى معاوية ، ولكن كراهية لعلىّ . يقول النص بهذا المعنى فى تفسير " اختيار " شعب إسرائيل ضد الشعوب الأخرى : " بسبب إثم هذه الشعوب . . . وليس بسبب برك وعدالة قلبك / جدارتك Your merit or Your integrity تدخل لتملك أرضهم " (تثنية ٩ / ٤ – ٥) .

ويؤكد ذلك مكررا أن شعب الاكتساحات الإسرائية / التهجيرات التعبيدية ، هو " شعب صلب الرقبة Stubborn " – أى بالتعبير الحديث : غاشم أو غشيم . لهذا يقول فى نفس السفر على لسان الرب مهدداً من يتمرد عليه : " أنا أغيّرهم بما ليس شعباً a people with no account [= أغيّر الشعب المتمرد بشعب مصنوع لا يستحق أن يسمّى شعباً] – بأمة غبية أغيظهم / insensé brutish " (تثنية ٣٢ / ٢١) .

لكن لأن أى شعب غشيم أو متخلّف يمكن بدرجة أو بأخرى أن يتعلّم ويتحضّر ويرتقى إذا تثقف واستفاد من خبرات من سبقوه وأضاء لنفسه إمكانيات العقل والتفكير ، فقد كانت التعليمات صريحة وقاطعة بمنع ذلك الشعب " المختار " من الدخول فى أى نوع من التفاهم أو التواصل الذهنى والاجتماعى مع الشعوب المغضوب عليها التى يُستخدم ضدها ، لدرجة أن كلمة " التحريم " مثلا المكررة كثيرا فى النسخة المصرية من الكتاب المقدس ، تعنى فى اللغات الشرقية : الإبادة أو الإفناء ، وأيضا اللاتواصل واللا تعامل واللاتقارب !! [1] وهذا المعنى الثانى يرادف المعنى الأصلى

(١) لاحظ أن الأصل الإشتقاقى " تحريم " بمعناها الأصلى المرعب ، هو " حور " أو الحوريون أى البحراويون / شعوب شمال مصر الذين كانو من أنصار التفكير أو النظر ، ومن ثم كتبت عليهم الإبادة أو العزل والمقاطعة والحصار (إلى أن يتلاشوا أو تسقط أجيالهم التالية فى الجهالة واللاعقل) .

لكلمة excommunication . وأسهل حالات التحريم الشخصى ، هو العزل حتى عن الكلام (قارن فى ذلك مثال " المتخلّفين الثلاثة " فى فجر الإسلام) . وفى سفر إشعياء مثلا ، يقول إن الرب غضب على شعب إسرائيل لأنهم أصبحوا " يصافحون أولاد الأجانب [= الغرباء] " ! (٢ / ٦) وهذا يوضح السبب فى منع استحياء / استرقاق نساء وأطفال بعض الشعوب المطلوب محوها .

يقول مثلا عن بقايا بعض الشعوب المحرَّمة : " احترس من أن تقع فى أحابيل طرقهم their ways ولا تسأل عن آلهتهم قائلا : كيف عبدت تلك الأمم آلهتها ؟ " (تثنية ١٢ / ٣٠) —— ذلك أن بعضها كانت مصنوعات أو تحف فنية أو تاريخية للتأمل وليس للعبادة contemplare non templare ، وبعضها كانت أصناما مفروضة بالتعبيد الجبرى أو بالرعب السرى !

. . . .

ثم إن تزييف التراث التاريخى أو ذاكرة التاريخ فى الطوفانات التدميرية الدورية ، لم يكن فقط سلبيا يقتصر على فرض النسيان والجهل وقطع تواصل الأجيال ، ولكنه كان أيضا إيجابيا : يستخدم البغبغات الترتيلية الملقنة بدقة لـ " المختارين " بدقة من الجهلة الغاشمين – المصنوعين بالترويض والتدريب الحيوانى والتلقين أو التعليم الجبرى ، بالطريقة التى تعبر عنها الكلمات العربية القديمة "معلّم مجنون " أو " الكلاب المعلّمة " ، والتى تخصصت فيها أديرة وجبّات وقردخانات الصغار والكبار فى مصر الفرعونية ثم فى فروعها الكهنوتية خارج مصر.

وعلى سبيل المثال فقط ، نجد أن البرمجة الكهنوتية للترتيل الجبرى أو الجبر الترتيلى واضحة فى التعليمات التالية فى سفر " التثنية " أيضا :

" متى أتيت إلى الأرض التى يعطيكها الرب إلهك نصيبا وملكتها وسكنت فيها . . . تذهب إلى المكان الذى يختاره الرب إلهك ليحل اسمه فيه . . . ثم تصرّح وتقول / ترتّل solemnly recite أمام الرب إلهك [= أمام المستمعين المقهورين] : أرامياً تائهاً كان أبى wandering Aramaean ، فانحدر إلى مصر وتغرّب هناك فى نفر قليل ، فصار هناك أمة كبيرة عظيمة وكثيرة . فأساء إلينا المصريون . . . فأخرجنا الرب من مصر بيدٍ شديدة وذراع رفيعة ومخاوف عظيمة وآيات وعجائب . . . وأعطانا هذه الأرض أرضاً تفيض لبناً وعسلاً " !

(تثنية ٢٦ / ١ – ٩) .

وهكذا كان هؤلاء الإسرائيليون وأشباههم يفرضون على بقايا الشعوب المبادة أو المقهورة – أى على ذاكرة التاريخ وفولكلوريات البشرية – معلومات مزيفة وتخريفية مرتّلة تعبيديا وواجبة التقديس والتصديق الأعمى بالرعب المطلق لدى كل بقايا رهبوت الإبادة . ومن هذه المعلومات " التاريخية " المزيفة لكن غير القابلة للتفكير ، يمكن أن نشير على سبيل المثال إلى قولهم إن أصلهم " آرامى " أى سورى أو شامى ! ومنها أن المصريين اضطهدوهم لأنهم أجانب ، بينما المصريون صنعوهم وروّضوهم وقاموا بتهجيرهم كجيوش سرية لاطفاء شعلة برومثيوس فى كل مكان ، ومن ثم لقهر وتعبيد العالم ! ومنها أن " المعجزات " التى يذكرونها كانت تحدث من أجلهم " ضد " الفرعونية ، ومن ثم لم تكن من صنع كهنة مصر بهدف تدمير وإبادة أعدائهم البحراويين وصناعة الأمراض والأوبئة والكوارث ضد الشعوب المستنيرة ! وهذا يعنى أن أبناء إسرائيل أو مصرائيل كانوا أعداءً وخصوماً لأبناء مصر أو مصرائيل النيل !!
(هذا رغم أن أسفارهم الكهنوتية تشير إلى أن رب الكهنة الذى كان يحب " صبيه " أو " ابنه إسرائيل " ، أطلق عليه هذا الاسم من اسم مصر !! هذا مايمكن أن نلاحظه وراء الكلمات المحرّفة التالية فى سفر هوشع ١١ / ١ : " من مصر دعوت appelé / called ابنى إسرائيل " !! (١)) .

● ثم منها أيضا " (**وهذا فى الحقيقة أهمها وأخطرها**) أن عمليات فرار أو خروج أو هجرات الشعوب البحراوية الأولى من شمال مصر ثم من الشام ثم من اليونان وغيرها ، لم تكن جزءاً من حملات أو طوفانات إبادة وتصفية شاملة قادها الكهنة ضد شعوب مستنيره ترفع شعار الفكر والمعرفة والنظر / حور ، ولكن كانت هجرات دينية إسرائيلية بقيادة كهنة دينيين وفى ظل " معجزات " كهنوتية ! ومعنى ذلك أن الإسرائيليين ألصقوا اسمهم المصنوع منذ القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد كعلامة / ماركة مزيفة على كل الهجرات والتهجيرات السابقة من مصر منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد – وأقدمها وأهمها طبعا **هجرات البحراويين الحوريين أو الهوديين الحقيقيين الذين نشروا شعلة اللغة المعرفة**

(١) لاحظ أن " إنجيل متّى " كرر عبارة هوشع هذه فى سياق آخر ضاعف تحويرها ، محاولا بذلك تغطية بقايا معناها القديم المذكور .

(**بروميثيوس) في أرجاء العالم** !! وبهذا الاسم المزيف أو الماركة المزيفة ، جعلوا أيضا تاريخهم المزيف وتراثهم المصنوع كهنوتيا (= توراتهم) بل وأيضا لغتهم المصنوعة كهنوتيا (عبرية القرون الأخيرة قبل الميلاد) ، هي تاريخ وتراث ولغة البحراويين الدلتاويين الأوائل الذين أفلتوا أو أُبيدوا أو أُخصوا واستُعبدوا في مصر القديمة منذ نارمر ومينا !!!

هذا هو الفرق الرئيسي أو الأكبر بين النجمة الماسونية الغجرية وبين نجمة داود !! (كلتاهما تتكونان من هرمين أو دلتاوين متعاكسين ، أولاهما مثقوبة / مفتوحة الطرفين !) . **وأنا أقصد بهذا التعبير الرمزي ، أن الفرق الرئيسي أو الأكبر بين تهجيرات الغجر / الجبسي (من مصر ثم من مخازنها التالية في الهند وغيرها) ، وبين تهجيرات الإسرائيليين (من مصر ثم من فروعها الكهنوتية الأخرى) ، هو أن أول المهام التي كانت تُستخدم فيها قطعان الغجر وأشباههم هي الإفساد الأخلاقي والتخريب الشخصي مع أعمال الحفر والبناء العلنية أو السرية ، إلخ بينما كانت أول المهام التي نفذها الإسرائيليون وأشباههم هي مهام الغزو والإبادة المرتبطة بفرض العبادات المطلوبة والترتيلات التعبيدية التقديسية التي تستخدم التخريف والتجهيل وتزييف التاريخ وتزييف الواقع ضد بقايا العقل البشري والتفكير !!**

☆ ☆ ☆ ☆

فقرات:

☆☆ من الفصل الثاني المذكور من قبل ، ثم من الفصل الثالث " **أسرار لعنة الفراعنة والصليب المعقوف** "

✧ **البلبلات والتخليطات اللغوية المخططة**

حكاية " برج بابل " ليست أسطورة بالمعنى الخرافي كما يتصور كثيرون ، ولكنها أسطورة بمعنى أنها مأثورة مسطورة عن ميكانيزم أو أسلوب تاريخي كان يستخدمه " أرباب الكهنة " ضد الشعوب المستنيرة في العصور القديمة ، فسجل بعض الحكماء فكرته وتناقلها الناس بالكتابة والحفظ . ثم جاءت أسفار " العهد القديم " (في " التوراة " الإسرائيلية ثم في الكتاب المسيحي) فالتقطتها واستخدمتها . فالنصوص الدينية القديمة كانت تلتقط وتستوعب مثل هذه الفولكلوريات التي كانت واسعة الانتشار ، وذلك للتمويه والخداع بطريقة إضافة بعض العسل العقلاني الجذاب إلى السم اللاعقلي المهلك ، أو لتحوير وتشويه وتعكيس معانيها

بواسطة التربيطات الدينية المخالفة وبواسطة اتجاهات السياق الديني - مع استخدامها فى كل الأحوال وسيلة فرز واستطلاع ذهنى لمن يقرأها .

يقول سفر التكوين (عن النسخة البيروتية مع النسخة المصرية) :

" كانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة . . . ارتحلوا شرقا / من الشرق (١) . . . وقالوا تعالوا نبنى لنا مدينةً وبرجاً رأسه بالسماء ، ونصنع لأنفسنا اسماً لكى لانتبدد على وجه الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها . وقال الرب : هو ذا شعب واحد ولهم جميعا لسان واحد . وهذا ابتداؤهم فى العمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ماينوون عمله . هلم ننزل ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها ومن هناك بددهم / شتتهم الرب على وجه الأرض كلها . " !! (تكوين ١١ / ١ - ٩) . (ولهذا سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها)

والحقيقة أن اسم "بابل " فى فارس واسم " بيبلوس " فى الشام (= جبيل اللبنانية حاليا) ، وغيرها من أسماء ومرادفات فى هذه المنطقة القديمة ، هى مثل كلمة " أبابيل " فى العربية القديمة تعبر عن معنى الكتاب أو الكتب - كما هو واضح ومعروف فى اليونانية واللاتينية القديمة . وهذا أقرب إلى مضمون الحكاية التى تتعلق بتبادل ونشر المكتوبات فى العالم . ومع ذلك ، فالحكاية تعبر فعلا عن حقيقة تاريخية هامه خطيرة ، هى أن تفريق وبلبلة الشعوب واللغات المتقاربة أو ذات الأصل الواحد وتوسيع اختلافاتها ودفع المباعدة بينهاإلى درجة الانفصال وانقطاع التواصل ، تشكل عملية مخططة ومرسومة عمداً ومنفَّذة بالتحكم الشامل منذ العصور القديمة . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن هذه العملية المخططة والمحكومة مستمرة حتى اليوم - رغم أنها أصبحت تركز أكثر على صناعة الاختلافات والمباعدات والانفصالات بين الأجيال فى اللغة الواحدة ، لأن انفصال الشعوب واللغات لم يعد يحتاج إلى المزيد !

. . . .

---

(١) المقصود فى الحقيقة الخروج من مصر - التى كانت تسمى أيضا إست / ست ، بمعنى الشيطان ، وبمعنى الجنوب ، وبمعان أخرى كثيرة تعبر عن الإدانة والتنفير .

الأمثلة المذكورة عن الاكتشافات التاريخية المعطلة أو المؤخرة ، أى المكشوفة مسبقا ولم تعلن إلا متأخرا (على غرار القارة الأمريكية التى كانت معروفة منذ العصور القديمة ومذكورة حتى فى كتاب " الجغرافيا " لبطليموس السكندرى ، لكن لم يُعلن اكتشافها إلا على يد كولمبوس !) – هذه الأمثلة تؤكد أن **إخفاء وتغطية تسعة أعشار الجبل الجليدى للتاريخ هو عملية محكومة ومخططة ، ومن ثم فلم يكن يسمح بأى اكتشافات يمكن أن تؤدى إلى تكوين تصور شامل متكامل للجبل التاريخى المجهول** : سواء فى جانبه اللغوى الذهنى ، أو فى جانبة الدينى ، أو فى جانبه الطاغوتى السرى .

وسنناقش فى مختلف فصول الكتاب بعض المعالم الحقيقية للجبل التاريخى غير المكشوف . لكن يكفى أن نختم هذا الموضوع الذى ناقشنا فيه " **توزيع اللغات والشعوب على أبناء نوح !** " ، باشارة سريعة إلى التقسيم المقترح للأصول الشعوبية (الأثنولوجية) واللغوية الرئيسية التى ارتبطت بصناعة التاريخ البشرى . ذلك أن تقسيمة السامية والحامية واليافثية – التى تحولت إلى الآرية ثم إلى الهندوآرية أو الهندو أوروبية – هى حكاية مطبوخة كهنوتيا ثم إنجليكيا ونازيًا !!

ففى رأى كاتب هذه السطور ، أن الشعوب البحراوية البيضاء التى كانت متفوقة على الشعوب المحيطة بها (وخصوصا الشعوب الأفريقية السوداء أو المخلّطة) ، هى التى نجحت فى الاستقرار فى شمال مصر الذى كان أنسب وأسهل مكان جغرافى ومناخى وبيئى فى عصور ماقبل التاريخ ، يتيح الارتقاء البشرى من المراحل الابتدائية السابقة على العقل والمنطق. . ومن ثم كانت هذه أول شعوب استطاعت أن تتقدم فى درجة العقل والمنطق ، وفى تطوير وترقية اللغة / الكلمة / لوجوس ، وفى توسيع شعلة المعرفة . وبهذه القدرات العقلية ، نجحت فى أن تستصلح مستنقعات وأخوار الوجه البحرى وأن تستزرعه وتنظم الرى فيه وتحوله إلى مزارع (جنّات بالتعبير القديم) ، وأن تنظم تقنيات صيد واستئناس وتدريب الحيوانات ، وترويض وتدريب الآدميين المتخلفين أيضا ، وأن تطور وسائل المعيشة والنظام الأخلاقى والاجتماعى والثقافى ، بل وأن تطور أيضا البحث والتفكير والاكتشاف فى كثير من الميادين

النظرية والعملية والتقنية – بما فى ذلك الفلك والكيمياء والطب والهندسة والميكانيكا . وازدهرت هذه الإنجازات فى الألف الرابع قبل الميلاد .

لكن القطاعات المنخفضة الذكاء من سكان شمال مصر – وخصوصا جماعات الكهنة والمخلّطين – تمردت على ذلك الاتجاه الذى لا يرضى أوهامها وأهواءها ولا يحقق لها السيطرة اللاعقلية وركوب الآخرين ، ومن ثم استخدمت تلك الإنجازات النظرية والعملية والتقنية فى السيطرة على الجنوب المصرى الأسود وفى تعبيد وترويض وركوب قطعان الجنوب كقطعان شبه حيوانية ، بالوسائل التى سميت بعد ذلك باسم الغيبية (= التحكم من الخفاء) أو باسم السحر (= التحكم السرى : الذهنى أو البدنى أو المادى) ، أو ما إلى ذلك من أسماء تعبر عن تقنية وسرية قوى التحكم والإخضاع . وبتكوين مملكة فى الجنوب ذات جيش جنوبى مروض ومدرب ، استطاعت أن تزحف على شمال مصر وتكتسحها وتدمرها جزءًا بعد جزء ، وترفع على بقاياها راية العبادة والتنكيس والتخريف منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد . واستكمل الفرعون مينا اكتساح وتصفية دويلات المدن الباقية خصوصا فى موانى البحر الأبيض ، وأكبرها سكندار / دار السكن / دار السلام (التى أعاد الاسكندر بناءها بعد ٢٧ قرنا !) .

وهكذا بدأ التاريخ المدوّن أو المعروف بكانتصار لأتباع اللاعقل على قادة وجماعات العقل . وأثبتت هذه الواقعة التاريخية الكبرى التى قلبت إتجاه التطور البشرى وقلبت مسار التاريخ ، أنه إذا كان الإنسان قد انفصل أصلا عن ملكوت الحيوان بقدرات العقل ، وإذا كان قد تطور وارتقى إلى الحضارة واللغة والعلم بقدرات العقل ، فقد استمر تاريخ الإنسان قبل وبعد الفرعونية (أى قبل وبعد التأريخ) صراع حياة أو موت بين العقل واللاعقل ، ومن ثم بين أنصار وأتباع العقل وأنصار أتباع اللاعقل .

وأدى ذلك الصراع الأزلى الأبدى ، إلى انطلاق موجات الفرار أو الخروج أو الهجرة للجماعات البحراوية المستنيرة المتفوقة ذهنيا من شمال مصر فى أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، إلى سيناء ثم إلى الشام صعودًا إلى إيونيا ثم اليونان ، إلخ . ومع زيادة وتضاعف فظائع الكهنة والسادة الجنوبيين السود أو المخلّطين ، واتجاههم إلى ذبح أو استعباد بعض الجماعات البحراوية وإخصاء ذكورها واسترقاق إناثها ، اتسعت موجات

الهجرة لتشمل بقية الجماعات البيضاء غير المتفوقة ، التى اتجهت إلى شرق الدلتا ثم إلى سيناء ثم مابعدها (وكانت منطقة سيناء وماحولها أول منطقة تسمي عرب / هرب Arabia) وذلك خصوصا منذ عصر الأهرامات (= الآرام والأرمن) وأبو الهول (= بونيكس / فينيق).

وهكذا تدافعت وتلاطمت موجات الهجرة البيضاء المتفوقة ، ثم البيضاء المتوسطة ، ثم المتخلّفة والمخلّطة . وكانت الموجات المتأخرة تاريخيا تتكون من الجماعات المتأخرة ذهنيا التي اكتسحت فى الشام وما بعدها جماعات المهاجرين الأسبق منها ومن ثم الأكثر تفوقا منها . وهذا الميكانيزم التدهورى لهجرات التدافع والتلاطم السكانى التى تتجه إلي اكتساح المواقع الأكثر تفوقا (أو الأقل تدهورا) لأنها تكون بالضرورة ناجحة معيشيا تدر " لبناً وعسلاً " كان ميكانيزماً مدفوعاً أو موجّهاً فقط لكنه تلقائي ، ثم انقلب منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد إلي ميكانيزم مصنوع ومحكوم بدقة ، يقوم بتصنيع و " تعليم " جماعات المهجرين ، ثم تهجيرهم فى تشكيلات عسكرية كهنوتية مقسمه إلى قبائل مزعومة (أشهرها القبائل الاسرائيلية / المسرائيلية المزعومة) ، أو فى أسراب من القرود البشريين (= المجانين المعلّمين).

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنواعا أخرى من الهجرات أو التهجيرات المحدودة اللاحقة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، التى كانت تتكون من مجموعات خاصة (مثلا كهنة متمردون أو كهنة مهجّرون ، وكوادر متخصصون فى التحكم السرى والتآمر ، إلخ ، ومجموعات متخصصة فى الأعمال السرية كالسحر والتطبيب وأسرار الجنس ، ومتخصصون فى تشغيل التقنيات الإشعاعية أو فى صناعة الأوبئة ووسائل التخريب ، وطوائف حرفية كالنجارين الذين صنعوا للهكسوس العربات الحربية ، إلخ) ، وكذلك تهجيرات وترحيلات عمال الحفر والبناء (الماسون) وغيرهم من جماعات الغجر ، فضلا عن أسراب الجيوش السرية المذكورة من القردة البشريين المدربين حيوانيا (الذين كانوا يودعون فى الأوكار والأنفاق والسراديب التحت أرضية ليقوموا تحت التحكم الدقيق بالعمليات الخفية المرتبطة باسم الجن والعفاريت) ، إلخ إلخ .

وفى ضوء ذلك ، يمكن تقسيم الهجرات المصرية أو المدفوعة من سكان مصر منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، كما يلي :

١ - الهجرات الأولى المستنيرة حاملة شعلة المعرفة ، والهاربة من مكان إلى آخر .

٢ - هجرات أو تهجيرات الاكتساح الاستيطاني . وهذه من نوعين : أ - نوع تلقائي موجه بطريقة كرات البلياردو (استمرحتى الألف الثاني قبل الميلاد) . ب - نوع قطعاني مصنوع ومحكوم بدقة (للاستخدام فوق الأرض أو من تحت الأرض) .

٣ - تهجيرات المجموعات المتخصصة ، التي تستخدم في السيطرة على مفاتيح الحياة في الجماعة وفي الحكم ، وعلى مفاتيح الذهن الاجتماعي والفولكلوريات واللغويات .

وهذا يعني أن التحكم الكهنوتي المصري في شعوب العالم ، لم يكن يتخذ في كل الأحوال شكل الغزو السري أو العلني أو الاستيطان ، ولكن كان يمكن أن يتخذأيضا شكل الاستيلاء من أعلى على مفاتيح التحكم الاجتماعي بدون تغيير سكاني . وإن ما تحكيه بعض قصص الاستكشافات الجغرافية الأوروبية عن الأوروبيين الذين كانوا ينجحون في حكم بعض القبائل البدائية السوداء بواسطة استخدام واستعراض مايملكون من أسلحة وتقنيات ومعلومات ترغم هؤلاء على السجود ، هي عمليات كانت تحدث فعلا في العصور القديمة والوسطى بواسطة بعض الكهنة أو السحرة الذين كانوا يُرغَمون على اللجوء إلى مجاهل البدائيين في مختلف الجهات فيتحكمون فيها بالسحر والابتزاز ! كل مافي الأمر أن التحكم مثلا في جماعات قبلية أوروبية أو آسيوية أقل تخلفا ، كان يحتاج إلى المزيد من الامكانيات والوسائل!

وعلى أرضية هذه الاعتبارات كلها ، يجب تقسيم الأصول اللغوية القديمة (بما في ذلك انتقال أصول لغوية مفتاحية فقط إلى بعض الشعوب بدون تغيير سكاني لغوي فيها) ، وذلك وفق التقسيمات المذكورة للهجرات والتهجيرات المصرية أو المدفوعة من مصر ، وعلى أساس تقسيمات العصور الرئيسية لمصر حتى ظهور المسيحية .

أما هذه العصور ، فتتلخص فيما يلي :

١ - عصر الازدهار البحراوي قبل الفرعونية (حتى أواخر الألف الرابع ق . م) .

٢ - عصر الاكتساح الكهنوتي الفرعوني للشمال (واستكمل بدايته في حوالي ٣١٠٠ ق . م)

٣ - عصر بناء الأهرامات ثم سقوط الدولة القديمة (من القرن ٢٦ - ٢٢ ق . م إلى حوالي القرن ١٨ ق . م) .

٤ – عصر استيراد واحتواء وتصفية الهكسوس وتصفية غيرهم من شعوب الهجرات المصرية السابقة فى شرق البحر الأبيض ، وذلك حتى تصفية حركة اخناتون التى صنعها الميتانيون والعموريون وأمثالهم من شعوب شرق البحر الأبيض (= من القرن ١٨ إلى القرن ١٤ ق . م)

٥ – عصر الكهانة العسكرية والعسكريين الدينيين (وأشهرهم الرعامسة – حيث اسم « رعمسيس" يعنى مسيح رع / ممسوس أومجنوب رع) ، والتركيز على إطلاق التهجيرات الاسرائية المروّضة ومكملاتها (منذ القرن ١٤ ق . م) .

٦ – عصر استيراد الامبراطوريات الأجنبية ، لاستخدامها بطريقة حصان طروادة المجوّف ، أى التصرف من جوفها المفرغ فى أرجاء العالم ! (منذ القرن ٧ ق . م) .

● **وبناء على ذلك كله ، يمكن تقسيم " تيارات " أو " مصادر " الأصول اللغوية القديمة التى أثّرت – إيجابا أوسلبا – فى الحضارة البشرية وفى تطور العقل والتاريخ البشرى ، خروجاً من مصر ، أو مدفوعة من مصر ، أو مصنوعة تحت التحكم المصرى (فى الداخل ثم فى الفروع الكهنوتية المصرية فى الخارج) ، إلى مايلى من " تيارات " أو " مصادر " متعددة التفرعات ومتنوعة التوليدات اللاحقة والتفاعلات مع اللغويات الأصلية أو السابقة فى مختلف المهاجر المتتالية فى أوروبا وآسيا وسواحل البحر الأبيض :**

أولا – تيار اللغات أو الفروع اللغوية البحراوية الأقدم : وهذا هو تيار شعلة برومثيوس الحقيقية الصانعة الأولى للتفكير والكتابة والمعرفة المستنيرة . وهو تيار انتقل بعد الشام واليونان غربا وشرقا فى أرجاء العالم . وكانت اللغات اللاحقة التي يصنعها أو يؤثر فيها ، تستأنف نشر إشعاعاته وتأثيراته تحت رايات لاحقة كلما سقطت رايات سابقة . وبعد حوالى ثلاثة آلاف عام من تدهورات المعارك والهزائم حتى عصر الميلاد ، بقيت أكبر كمية من رواسبه فى أصول اللغات اليونانية القديمة ، وفى أصول اللغات اللاتينية الكلتية الغاللية / الجائيلية القديمة فى أوروبا ، وفى السنسكريتية الأقدم فى آسيا . وقد ارتبط فى الظروف القديمة بالهجرات البحرية والسفن (وهذا أصل معانى كلمات يونيا / يونان / يافا / جاوا / يابت أو يابان ، إلخ) . ولأن رواسب ذلك التيار الأقدم فى اللغات القديمة التالية كانت تزيد وتستمر فى تناسب عكسى مع ماتتعرض له شعوبها من قهر وتدهور ذهنى وتحطيم لاعقلى ، لذلك نجد

أن الرواسب الأقدم فى اللغات الشامية والشرق أوسطية الايرانية تناقصت كثيرا بعد ذلك فى القرون التالية من العصور القديمة . بل ونجد أن تاثيراته أو رواسبه التى تركها متأخرا فى بعض اللغات الاسكندناوية مثلا ، كانت أوضح وأبقى من تلك التى تركها مبكرا وبطريقة أوسع فى لغات أقرب إليه ! ومن ناحية أخرى ، نجد له الكثير من الرواسب التعكيسية التى تجمدت بالتقديس والتقليد الأعمى فى الكتابات المصرية القديمة الباقية (وحتى فى الرسومات الهيروغليفية البذئية جدا !)

<u>ثانيا - تيار اللغات المصرية العبرانية الأهرامية / الفينكسنية</u> : وهذا تيار هجرات عبور برى أساساً (وترمز إليه عربة / عجلة جلجامش من مخرج سيناء وليس سفينة نوح / يونس / يونان من البحر الأبيض) . وترك بصماته فى مصر فيما يسمى اللغة البروتوسينائية / السينائية الأولى . وقد أدت تأثيراته وتغييراته وتحويراته إلى تكوين كثير من اللغات الشرقية التى ظهرت فى الألف الثانى قبل الميلاد . وأحدث بذلك تأثيرات سالبة على فولكلوريات ولغويات التيار البحراوى الأقدم فى المهاجر التى سبقه هذا إليها (بما فى ذلك اليونان وما حولها) ، رغم تأثيراته الموجبة على المهاجر الجديدة .

<u>ثالثا - تيار اللغات المصرية العبرانية الاسرائيلية (وأشهرها بدايات العبرية الاسرائيلية الأولى وبدايات العربية البائدة)</u> : وقد بدأ هذا التيار " يفرض " تأثيراته اللغوية والفولكلورية منذ القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد . وهو الذى ترك أعمق تأثيرات التزييف والتحوير والتعكيس والطمس أو التعمية والتخريف فى لغويات الشام وشرق البحر الأبيض ، ثم البلقان وإيطاليا ، ثم شرق آسيا وغرب وشمال أوروبا ، إلخ - فى مطاردات وملاحقات شاملة للتيارين الأول والثانى ! وكانت قوالب وغرابيل هذا التيار الاسرائى المحكوم ذهنيا وتلقينيا وترتيليا ، هى القوالب والغرابيل التى مرت من خلالها بقايا البقايا من اللغويات والفولكلوريات الأقدم ، التى لم يبدأ تدوينها إلا فى العصور التالية (!!) - مما يعنى أن ماوصل عنها إلى ذاكرة التاريخ هو رواسب أشد تدهورا لبقايا البقايا هذه !!

<u>رابعا - تيار اللغات الدينية الارتجاعية المختلطة</u> : وقد بدأ هذا التيار يتبلور منذ القرن السابع قبل الميلاد ، مع الاكتساحات الأشورية والبابلية للشام ، وسبى شعب إسرائيل ثم شعب يهوذا (ووصول كهنتهم بعد ذلك إلى مراكز السيطرة فى أشور و بابل !!) ، ثم

الغزوات الفارسية واليونانية والرومانية الواسعة . وهذا التيار تبلور من خلال الغربال الكبير المعروف لنا في سلسلة غرابيل المطحن والمعجن الآلي للبقايا السليمة من رواسب الفولكلوريات واللغويات الأقدم ، باعتباره الغربال الذى سجلته بعض التدوينات الباقية من التاريخ المعروف وفى الأديان القائمة . وكل الأرصدة القديمة الفولكلورية واللغوية والنصوصية التى عرفناها أو عرفنا عنها بدرجة أو بأخرى - سواء باليونانية أو بالفارسية القديمة أو بالسنسكريتية ، ثم باللغات الشامية القديمة ، ثم أخيرا باللغة العبرية الاسرائيلية - تكونت أو كتبت في ذلك العصر ، ومعظمها في القرون الأخيرة قبل الميلاد ! بل وفى تلك القرون الأخيرة أيضا ، بدأ تكوين اللغة اللاتينية القديمة التى وصلت إلينا ، ثم اللغة القبطية ، ثم الأثيوبية والنوبية ، إلخ . ولم تتبلور العربية القديمة التى عرفنا عنها ، إلا قبيل ظهور الإسلام فى القرن السابع بعد الميلاد !!



الغجر بين مصر والهند والرومان!!

من أبرز الأمثلة الأخرى على التطورات التخريفية والجغرافية التى تطمس التاريخ ، موضوع الغجر .

وأصل المشكلة واضح ذاتيا فى نفس اسم الغجر (= الهجر) فى مختلف اللغات gypsy (من اليونانى اللاتينى egyptius)/ gitan /gitano (من egyptano) / gyphtoı، الخ . واسمهم التركى القديم farawni/ فرعونى ، واسمهم القديم فى المجر والدانوب pharao nepe أى شعب فرعون . وهذه التحديدات اللغوية القديمة منذ عصور اليونان والرومان ، تكشف الأصل المصرى لهذا النوع من قطعان التهجير بطريقة لا تحتمل التأويل ـــــ إلا إذا أمكن تفسير اصطناعها القديم وتطيل الادعاء باستهدافها تشويه مصر بالذات ، بينما كل الفولكلوريات اللغوية والأسطورية المزيفة منذ العصور القديمة تستهدف على العكس طمس وتغطية إن لم يكن تجميل اسم ودور مصر الرهيوتى فى التاريخ القديم !!

والأسماء الأخرى للغجر التى لاتنسبهم إلى مصر ، تعبر فى اللغات الأوروبية عن معانى الهمجية أو البهيمية bohemian (ولاحظ أن كلمة بهيموت كلمة مصرية شرقية قديمة ،

وموجودة أيضا فى الكتاب المقدس ، بمعنى الحيوان المتوحش المفترس - رمز الجحيم) . وفى شمال أوروبا أطلقوا عليهم اسم " التتار" (والأرجح أن هذا يعبر أيضا عن معنى زبانية الجحيم فى اليونانية القديمة ، وليس فقط عن قطعان الغزو) . وفى لغات أخرى ، تعبر أسماؤهم عن الحشرات الأرضية التى تختفى فى الشقوق . ولاحظ أن الخنفسة أو الصرصار رمز مصرى قديم ، كما أن كلمات القمل والنمل والبق كانت تقال فى الفولكلورات اليونانية القديمة على الشعوب المسحوقة المستعبدة . ومن ناحية أخرى ، فمن الجائز أن معانى الجحيم والشقوق الأرضية تعبر عن انتمائهم إلى الحياة السرية تحت الأرض .

أما الاسم الذى يقولونه هم عن أنفسهم ، فهو طبعا اسم تزييفى تعكيسى ، كالمعتاد لدى كثير من الشعوب والجماعات البربرية والبدوية التى تتخذ شعارات خادعة منفوخة - بهدف التظاهر إن لم يكن بهدف تزوير التاريخ . فهم يصفون أ نفسهم بأنهم روم !! Rom و Romany !! وهذا يعنى فى الحقيقة الانتساب إلى شعلة برومثيوس / السيد بروم / رب العقل والتفكير ، أو الانتساب إلى اليونان والرومان معاً لأن كلمة " الروم " فى الشرق كانت تعبر عن الاثنين !! ويبدو أنه كان المطلوب أساسا الانتساب إلى المعنى الأصلى لهذه الكلمة - وهو العقل والمعرفة - على غرار استخدام السحرة والمشعوذين لمختلف كلمات المعرفة والحكمة ألقابا لهم !! (انظر مثلا موسا وماجوس وبراهما وصوفى وغنوصى - وأيضا العرّاف !!) . وهذا يؤكد أن أى ارتباط مزعوم بين اسمهم التعكيسى المذكور وبين اسم الإله الهندى راما ، إنما يعبر عن الخلفيات التعكيسية المشتركة وراء هذين الاسمين وغيرهما من الأسماء الكهنوتية المزيفة . وإذا كان يمكن أن يكون لهم دور فى الأساطير الهندية ، فهو دور " القرود " التى تقول الأسطورة إن راما اعتمد عليهم ليهزم أعداءه !!

لكن رغم ذلك كله ، فمن المؤكد أن محركيهم كانوا يخططون لتكريس وتبرير اسمهم " الرومى " المزيف تبريرا جغرافيا بالفعل ! وهذا واضح فى أنهم دفعوا كثيرا من جماعاتهم وقبائلهم التى كانت متمركزة فى مخازنها فى الهند منذ ماقبل الميلاد ، إلى الزحف شمالا وغربيا منذ انهيار امبراطورية روما فى حوالى القرن الخامس الميلادى ، ثم دفعوا الجزء الأكبر منهم إلى المناطق المتكلمة باليونانية فى جنوب شرق أوروبا ، فاستقروا فيها حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى (لتهيئة الأرض إفساديا وتخريبيا للزحف العثمانى) .

ومنذ حوالى ١٤١٧ ميلادية ، بدأ هؤلاء زحف الانتشار من تلك المنطقة " الرومية " فى شرق أوروبا إلى مختلف أنحاء العالم !! ولاحظ أن عمليات رفعهم إلى الانتقال أو الاستقرار كانت عمليات محكومة تماما وبدقة ، لأنهم جماعات أو قبائل خاضعة تماما للخرافة أو السحر ، لا يتحركون ولا يتوقفون إلا وفق توجيهات سحرية تعارفوا عليها (يستخدمون فيها أحيانا ثوراً مقدساً !) .

ومن ناحية أخرى ، فالاسم المصرى القديم للغجر يرتبط أيضا بالاسم اليونانى اللاتينى القديم للجبس gypsum / gypsos المستخدم فى أقدم تقنيات البناء التى بدأت من مصر ، كما أنه فى نفس الوقت اسم مشتق من معنى الأرض أو باطن الأرض : جِب / جِبْت . (مع ملاحظة أن كلمة " جبس " تعنى " أيضا فى العربية القديمة " الجبان اللئيم " - انظر كيف وصف بذلك بعض أهل طيبة / يثرب فى " سيرة ابن هشام " الجزء الرابع ص ١٤٩٣) . وهذا يعبر لغويا عن ارتباط جماعات الغجر القدماء بأشغال الحفروالبناء ، مما يعنى ارتباطهم بالتشكيلات الماسونية القديمة . ومثل اليونانية القديمة ، اشتق فى الفارسية والعربية من أصل اسمهم اسم طوب البناء " آجرّ " . (وفى القواميس العربية القديمة أن اسم هاجر المصرية ينطق أيضا " آجر ") .

وكانت النوعية الأصلية لأسراب الغجر - الذين ارتبط اسمهم باسم مصر وبمعنى الأرض جِبّ وبمعنى جبس البناء وآجرّ الطوب - هى نوعية عمال الحفر والبناء غير الفنيين الذين يقومون بالجهود المرهقة فى هذه الأشغال ، وخصوصا فى الأعمال السرية المرتبطة بها . ولأنهم كانوا حثالات من نوعيات سفلى ، فقد رُوِّضوا ولُقِّنوا أيضا على المغريات التى تربطهم بالجماعة وبالعمل الشاق ، ومنها المشاعية الجنسية (= نسبة الأبناء إلى الأم) والتلذذ الغذائى المثير و " الطرب " المصرى الذى يشمل الرقص الجنسى والايقاعات الاثارية والتغييب الذهنى - مع مكملات ذلك من السحر والتنجيم والمواد المخدرة ، الخ . وعندما انفصلوا عن بعض أعمال الحفر والبناء والأعمال السرية التحت أرضية التى كانوا يمارسونها ، اتجة تركيزهم على ممارسة أعمال الافساد الأخلاقى والشخصى المذكورة ، بما فى ذلك السرقة والنشل وخطف الأطفال والبغاء ونشر الأمراض التناسلية والأوبئة ، الخ .

ولهذا كان الجميع فى أوروبا بالذات يقاومونهم (الدولة والكنيسة والاقطاعيون

والفلاحون !) عندما بدأوا الزحف والانتشار الواسع فى فترة محاولات إجهاض ومكافحة جنين النهضة والانبعاث العقلاني . وكانت الكوارث والحروب والأهوال الواسعة قد أجهضت محاولات الانبعاث الأوروبى فى القرن الحادى عشر ، ولكن إمكانيات النهضة استرجعت زخمها مرة أخرى بعد الطاعون المهول في القرن الرابع عشر ، واستنفرت طاقاتها لوقف الزحف العثمانى الاسلامى على أوروبا .

ولأن تاريخ الفجر وفولكلوريات ولغويات الفجر تعتبر من الأسرار التى تستنزل " لعنة الفراعنة " على من يحاول بحثها عقلانيا وفك شفرتها ، فقد أقامت وزارة الداخلية الألمانية النازية فى عهد هتلر ما يسمى " معهد القضية الفجرية " لمطاردة وإبادة الفجر وليس لاستكشاف خفايا تاريخهم ومجهولاتهم التاريخية !! - تماما كما فعلوا مع الاسرائيليين / اليهود !! ولم يكن معنى ذلك فقط إتلاف أو إخفاء " مواد " البحث و " جسم " الجريمة ، بل كان معنى ذلك أيضا تصفية أو خفض العداء القديم ضدهم بطريقة رد الفعل العكسى.

وعلى كل حال ، فقد جمعهم النازيون عند اندلاع الحرب العالمية الثانية فى معسكرات الإبادة. وتقول بعض الأرقام إن من قتل من هؤلاء الفجر يتراوح بين نصف مليون وثلاثة ملايين !! وحدث رد الفعل العكسى كالمعتاد ، حيث ارتفعت الشعارات وصدرت التشريعات فى البلدان الأخرى من أجل إلغاء " التحيز " ضد الفجر ، مما يعنى إغلاق ملف المشكلة الفجرية وإحكام الغطاء على أسرارها التاريخية القديمة التى تدين الفجر !!

وفى هذا الجو الانفعالى اللاعقلى المعادى لحقائق التاريخ ، تزايد وإ تسع الاتجاة المناصر للفجر والمناصر للفرعونية ، والذى يستخدم أغرب أنواع السفسطة والجعجعة " الأكاديمية " لنفى أصلهم المصرى الأقدم ، ومن ثم لتبرئة تاريخهم القديم واعتبارهم مجرد ذريات لقبائل هندية متخلّفة هاجرت وزحفت مثل غيرها من الجماعات الشرقية الغازية . وهم بذلك لايعبرون فقط عن جهلهم بأن غزوات واكتساحات البرابرة / الهمج المعروفين كانت محكومة وموجهة وفق مخططات واضحة وفى توقيتات واضحة (كان البعض ينسبونها صراحة إلى الغضب الإلهى بسبب التحرر الدينى أوتغيير العبادات) ، لكنهم يعبرون أيضا وأساسا عن جهلهم بالاختلاف النوعى بين جيوش الغزو والاكتساح ، وبين جيوش التخريب والتحكم السرى ، أو جيوش الافساد الأخلاقى والشخصى

، الخ.

ثم إن مزيفي التاريخ (بما فيهم كاتب مقال " الغجر " في الطبعات الحديثة للانسيكلوبيديا بريتانيكا) يهتمون خاليا اهتماماً كبيرا بتأكيد المصدر الهندى المزعوم للغجر ، وذلك كجزءٍ من تزييفات التغطية على الأسرار الفرعونية ، ومن ثم التغطية على الحقيقة المبدئية والمفتاحية الكبرى للتاريخ، وهي : **جريمة الفرعونية المصرية في صناعة الطفولة اللاعقلية الفاسدة والشريرة للبشرية** . وهذا يعني طبعا جرائم الاستمرار في فرض التخلف والعشوائية والاتجاه اللاعقلي على علوم التاريخ ، وبالتالي الاستمرار في إهدار تجارب ودروس آلاف السنين من عمر البشرية المتدهورة ، وإهدار الحقائق والقوانين الموضوعية الصحيحة للظواهر الاجتماعية والوجود الاجتماعي . وواضح أن هذا يعنى أيضا الاستمرار فى إهدار مستقبل البشرية ، ودفعها بالميكانيزمات التلقائية لعجلة التدهور الفرعونية القديمة إلي الخراب والضياع .

إن جزءاً كبيرا – وربما الجزء الأكبر – من الغجر الذين رُصدت حركاتهم فى العالم الأوروبى الأمريكى بالذات منذ القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، زحفوا من مناطق رومية أو يونانية رومانية فى جنوب شرق أوروبا ، وكانوا ولازالوا ينسبون أنفسهم إلى الرومان . لكن واضح أنه لا يوجد باحث شريف يستطيع أن يستنتج من ذلك أن أصلهم أو مصدرهم أو منبعهم يرجع إلى شرق أوروبا – رغم أن من المؤكد ومن المحتوم أنهم خالطوا أفرادا من شعوب تلك المناطق تزاوجوا وتناكحوا أو تناسلوا معهم (سرا أو علنا) ، واستوعبوا الآلاف من أطفالهم الذكور والاناث (بتقاليد خطف الأطفال المعروفة عنهم وعن غيرهم من الجماعات المغلقة ذات النشاط السرى وأسراب التشكيلات التحت أرضية ، الخ) ، ومن ثم اكتسبوا بدرجة أو بأخرى الكثير من دمائهم ولغاتهم وعاداتهم . وأضعاف أضعاف هذا ، حدث خلال القرون العديدة التى قضاها أجدادهم فى مناطق الهند بدون حواجز بشرية مثل حواجز أوروبا العلنية لهم . فلماذا لا تُبحث المشكلة علميا بهذا المنهج عند التصدى لمحطتهم الكبيرة الأسبق وهى الهند (بما فى ذلك أفغانستان وأجزاء من إيران) التى يقال إنهم بدأوا منها الزحف نحو شرق أوروبا وغيرها منذ القرن الخامس الميلادى ؟ !

إننا هنا لسنا بصدد البحث عن الموطن الأصلى لشعب " نقيّ الدم والسلالة " (على غرار

التصورات التخريفية الإسرائيلية !!) ، حتى نكتفى بأبحاث فصائل الدم كما يزعمون ! ثم إننا لسنا بصدد البحث عن بداية أولى ليس لها بدايات أسبق ، على غرار قصة آدم الأب الأول الذى لم يسبقه أب آخر ، أو بطريقة أسطورة الأصل الأول للكون الذى انبثق من العدم اللا منطقى واللا وجود الذى كان موجودا قبل الوجود !! ولكننا بصدد البحث فى أصول ومصادر تراث فولكلورى معين وعادات وموروثات سحرية وتخريفية معينة ، ووظائف اجتماعية وأخلاقية وشخصية فاسدة وإفسادية موروثة عبر الأجيال وعبر البلدان . فماذا يجدى البحث فى فصائل الدم ، إلا أن يدلنا - فى أفضل الأحوال - على المحطات السكانية والجغرافية التى عاش فيها أجداد هؤلاء فى مراحل معينة ؟ !!

إن أهم فكرة فى فلسفة التاريخ أشار إليها روبين كولنجوود فى أبحاثه التى لم يتمكن من استكمالها ولم يتمكن من تجهيزها للنشر فى كتاب متكامل بالطريقة التى يريدها ، هى فكرة تشبيه البحث أو التحقيق التاريخى بالبحث أو التحقيق القضائى الجنائى . وعلى أساس هذه الملاحظة ، يمكن أن نقول إن هذه الفكرة كانت - من بين ركام أفكاره الأخرى - أهم سبب لما لاقاه من اضطهاد وتنفير وحصار شخصى ، مع الضربات التكنولوجية السرية فى خلايا مخه وفى قدراته على التوسع والتركيز والاستمرار فى الكتابة ! والموقف التجهيلى اللاعقلى الشامل ضد هذا النوع من التفكير ، واضح فى الشعارات الببغاوية الانجليزية والأمريكية التى ترددت ضد ما يسمى " النظرية التآمرية عن التاريخ " - وهذا اسم سطحى إثارى التقطه وطرحه فى مصر صحفى غير متخصص فى الفكر ولا فى التاريخ وغير متعمق فى الثقافة ، هو محمد هيكل ، المسئول الصحفى الأول عن نظام العسكرى الأسود المصرى وبوق المراكز العليا الأنجلوأمريكية ، التى كانت تسيطر على المسرح الصحفى والثقافى العالمى فى مرحلة الحرب العالمية الثانية والتحضير للحرب العالمية الثالثة .

● وكما قلت فى كتاب سابق ، فهذه العبارة الكاريكاتيرية تختزل الحقيقة ولا تكتفى برفضها وإنكارها . ذلك أن المؤامرة عملية جزئية مؤقتة تبدأ وتنتهى ، بينما التاريخ الرسمى للدول يعتبر فى الحقيقة مثل حركات الجيوش التى تقودها وتتحكم فى أعمالها قيادات تخضع لعلاقات وتوازنات القوى فيما بينها ، وتوجهها فى مجموعها المراكز الأقوى والأقدر على التحكم فى غيرها أو على التصرف والتأثير . فهذه إذن أكبر كثيرا جدا من أن تكون مجرد مؤامرة تبدأ وتنتهى !

إنما هي قيادة دائمة وتحكم مستمر في مختلف المعارك والتحركات والانتصارات أو الهزائم منذ فرعونية مينا . وبهذا المعنى ، نجد أن التاريخ البشرى المسجل أو المعترف به رسميا هو سقوط وتدهور دائم الانحدار ، يجرى فى معظم الأحوال بعجلات لاعقلية تلقائية صنعتها وبدأتها أصلا " **الخطيئة الأولى** " أو " **الجريمة الأولى** " ، أى جريمة قيام وانتصار الفرعونية الجنوبية التي صنعت الطفولة اللاعقلية الفاسدة الشريرة للبشرية ، والتى توارثتها وتسلسلت عنها الفرعونيات التالية حتى اليوم.

والمهم هنا أنه بعقلية أومنهجية البحث والتحقيق القضائى – حتى إذا كنا نحقق فى مشكلة أو قضية مدنية تتعلق باختلاف المصالح ولا تتعلق بجريمة جنائية مستغلقة الأسرار – يجب أن نبحث ونحقق فى أصول المشكلة الفجرية . . .

. . . . . . وإذا كان من الواضح أن بقاياهم البشرية القبلية فى الهند منفصلة ومتميزة عقائديا وفولكلوريا ولغويا عن الشعوب الأخرى فى الهند وما حولها (بغض النظر عن نتائج التخليط الجنسى والمشاعية الجنسية الفجرية فى فصائل الدم البزرميط !!) ، فماذا يكون مصدرهم السابق أو حتى محطتهم الكبيرة السابقة ؟ ! ومن الذى وجه هؤلاء من الهند إلى مخزن جديد يعبر عن اسمهم " الرومى " المزيف الذى ظهر بعد ذلك فى رومانيا وغيرها ؟ !

وإذا كان من الواضح أيضا أنهم يتقنون الكثير من الفنون والتقنيات وأنواع الطرب والفساد والسحر والتخريف المنظم والخدع والألاعيب الاجرامية الخبيثة ، رغم تخلفهم الشديد إلى درجة بدائية أو شبه بدائية فى التفكير وفى المعتقدات ، فما تفسير هذه المفارقة ومامصدرها ؟ ! وإذا كانت لغتهم التى يسميها الباحثون الضلّلون أو المضلّلون (بالفتح ثم بالكسر) باسم اللغة الرومانوية Romany Language ، هى لغة متطورة وليست بدائية أو شبه بدائية ، بل إنهم ينسبونها إلى مايسمى باسم " اللغات الهندوآرية " كفرع شرقى لما يسمى خطأً وتضليلاً باسم " اللغات الهندوأوروبية " ، فكيف يمكن تفسير هذه المفارقة أيضا بالنسبة لشعب لا تزال بعض قبائله تستخير الثور المقدس وتسير وتتوقف خلفه ليحدد لها تنقلاتها ، ولا تزال بعض مجموعاته تسكن الكهوف (حتى فى إسبانيا حيث تستخدم الكهرباء والوسائل المعيشية العصرية !) ، بينما يتفوق معظم هؤلاء وأولئك فى فنون وألاعيب الفساد والاجرام والسحر ؟ !

قرن الأفعى القديمة الهندو – مصرية !

المشكلة الفجرية تثير أمام أعيننا مرة أخرى قضية ما يسمى " اللغات الهندو أوروبية " ، الذى قلت إنه اسم علمانى مضلل لمسمى كهنوتى قديم يوزع اللغات على مايسمى أبناء نوح (سواء بالتسميات الاسرائيلية المنسوبة إلى كلمات موسى ، أو بالتسميات الايرانية الواردة على لسان زرادشت !) . ذلك أنهم يخترعون جداً واحداً مزعوماً ، ومن ثم أصلا لغويا واحدا ، للايرانيين والهنود والأوروبيين !! وهذه هى نفس القصة التى تدعى أن الغجر زحفوا من الهند ومكملاتها الايرانية إلى أوروبا !! **وبذلك يخرج المجرم الفرعونى العريق من هذه اللعبة كلها** !!

ومثلا قاموس ويبستر الكبير .Webster Int الذى تصدره أيضا دائرة المعارف البريطانية، يذكر جدولا هائلا لما يسمى اللغات الهندو – أوروبية القديمة والجديدة ، يقسمها إلى فروع وإلى لغات ذات درجات قرابة مختلفة قديمة ووسطى وحديثة ، تشمل حوالى ١٤٠ لغة !! ويقسم هذه الشجرة المزعومة للغات الهندو أوروبية إلى مجموعات جرمانية وكلتية وإيطالية ويونانية وبلطيقية وسلافية وألبانية ، فضلا عن الهندية والأناضولية ، الخ ، الخ !! وهى تشمل اللغات الحثيّة والسنسكريتية والفارسية القديمة وغيرها شرقا ، والانجليزية والألمانية والفرنسية وغيرها غربا ، والاسكندناوية والروسية شمالا ، واللغات الهندية والأفغانية والسيلانية جنوبا ، والكثير غير ذلك بين هذه وتلك !!

فما الذى يتبقى إذن من لغات لاتنتمى إلى تلك الشجرة الشاملة ؟ !

يتبقى فقط اللغات المعدودة التى تكشف **الخطيئة الأولى أو الجريمة الأولى** للبلبلات اللغوية والتخليطات اللغوية كما يصورها مخطط " برج بابل " المذكور : مجموعة اللغات المصرية العربية العبرية وفروعها !! .

لكن لماذا افترضوا أن هذه الشجرة زحفت من الهند وملحقاتها إلى أوروبا ولم يحدث العكس؟ ! واضح أن السبب هو أن الآثار الحضارية فى الشرق الآسيوى أقدم منها فى أوروبـــا (رغم أن النقوش والآثار اللغوية الحثية والأناضولية المذكورة فى شجرتهم أقدم من الهندية !) ولهذا ، لو كانوا قد أضافوا مصر وامتدادها الشامى الحجازى العراقى إلى هذه الشجرة ، لكان من الضرورى أن يضعوها موضع الجذر والأصل !

ومع ذلك ، فلا يمكن أن نتجنب السؤال التالي : **لماذا لم تزحف تلك الشجرة الشاملة - التي وصلت إلى أقصى الغرب وأقصى الشمال - إلى المنطقة المصرية العبرية أيضا ؟!! لاجواب ! .**

لكن هذه الأسئلة وغيرها تجد الجواب الواضح ، إذا أدركنا أن أصل الاستنارة والمعرفة واللغة المنطقية / لوجوس ، هو الحضارة البحراوية في شمال مصر فى الألف الرابع قبل الميلاد ، وأنه منذ حوالى الألف الثالث قبل الميلاد بدأت هذه المجموعات البحراوية المستنيرة تهاجر من طوفان الهلاك والخراب ، وتفر وتنتقل من المواقع الأقرب إلى المواقع الأبعد المتاحة لها شرقا وغربا ، تنشر في كل مكان قبسات شعلة بروميثيوس ، بينما أجهزة وشبكات الكهنوت المصرى المعادية للعقل تطاردها وتكافح تأثيراتها وتحاول إبادة واستئصال بقاياها في كل مكان . ومن صراع وتفاعل قوى العقل واللا عقل فى هذه المواقع - أى صراع وتفاعل تأثيرات اللغة الفكرية المستنيرة واكتساحات اللغة الكهنوتية المختلطة اللامنطقية - تكونت شجرة اللغات في العالم كله .

بذلك ، يتضح لنا المصدر الأقدم للغات الأوروبية الأرقى نسبيا (وأقدمها اليونانية اللاتينية الكلتية) ، والذى تسلسلت عنه أيضا تدهوراتها النسبية اللاحقه فى إيران والهند وغيرها فى آسيا .

وغنى عن البيان أن هذا التصور الذى يشمل الجانبين ، يختلف رغم ذلك عن التصور الهندى الأوروبى المخلوط واللا معقول ! والفرق بينهما يشبه الفرق بين أن تخترع قصة عن ولادة توأمين أبيض وزنجى من أب واحد وأم واحدة زانية (كما ادعت وسائل الاعلام التجهيلية الغوغائية الأمريكية فى قضية مشهورة فى أمريكا عن هذا الموضوع الخرافى المطبوخ !!) ، وبين أن تكشف بالتحقيق القضائى عن ولادة ابن أبيض ثم ولادة ابن أسود من أبوين مختلفين أو من أمين مختلفتين لا يكونان ويستحيل أن يكونا توأمين (حتى لو وضعت بينهما شرطة بطريقة الشرطة المستعملة فى عبارة الهندو - أوروبية!) . فهذا تخليط سفسطائى ، ومحاولة للجمع بين النقيضين (بالطريقة الكهنوتية أو بالطريقة الهيجلية الماركسية) ، ومن ثم فهو يتنافى مع مبادئ المنطق وليس فقط مع وقائع التاريخ والوقائع الاجتماعية والفكرية .

فلا يوجد زنجى أبيض ولا أبيض زنجى ، ولا توجد لغة هندية أوروبية ولا أوروبية هندية .

ولكن يوجد شخص من أم زنجية وأب أبيض أو العكس بالعكس ، أوتوجد لغة من أب هندى وأم أوروبية أو العكس بالعكس ، أويوجد مصدر ثالث لا هو هندى ولا هو أوروبى أنجب لغة جديدة من أم أو من أب فى أوروبا ، وأنجب لغة أخرى من أم أو من أب فى الهند .

ثم إن ماسبق ، يوضح لنا أيضا لماذا كانت مصر هى المنبع الأول لحملات " **اللغات المضادة** " أو الاكتساحات اللاعقلية فى مجال اللغات ، كجزء من مخططات الهدم والتدمير والتجهيل واللاعقل والافساد والتعبيد التى كانت تمارسها أجهزة وشبكات الكهنة فى العالم كله ، إلى درجة أن أسفار الكتاب المقدس أشارت إلى اعتبارها **المخزن القديم للحشرات والأوبئة وموطن الأفعى القديمة أو إبليس / الشيطان الذى يضل المسكونة كلها !** (لكن للأسف أن تلك الأسفار لم تشر إلى الموطن المصرى للرب الكهنوتى الذى اعترفت بأنه صانع بلبلة وتخليطات اللغات لمنع البشر الموّحدين لغويا من بناء مدينة وبرج موحَّد فى بابل كما ذكرنا فى النص !!) .

وقد انتشرت هذه الادانات المرعوبة فى كل الفولكلوريات القديمة والوسطى – رغم أنهاتعرضت كالمعتاد للتحوير التخريفى أو لتغيير الأسماء والترجمات ، ومن ثم طمس وتحوير المعانى والمسميات . وحتى فى الفولكلوريات العربية القديمة التى بقيت حتى ظهور الاسلام ، نجد فى صحيح الأحاديث للبخارى تأكيدا على أن " الشرق أو " المشرق " هو مصدر الفساد والخراب ، حيث الشرق / إست / ست أوسيت (ومنها شيت / شيطان) / سراكينو ، كان يعنى أصلا مصر التى رمزها الأفعى وقرص الشمس وفرعونها ابن الشمس وموقعها جنوب وشرق البحر الأبيض . ذلك أن الأجهزة والشبكات الكهنوتية المصرية ، استطاعت أن تنقل معنى الشرق والمشرق من مصر ، ثم من شرق البحر الأبيض ، إلى الهند !! (ولأن كلمة هند /endi / end تعنى الآخر أو الأقصى فقد استمر زحف هذا التحوير حتى وصل إلى إندونيسيا / هندونيسيا ثم الهند الصينية !) . وحتى أفعى الكوبرا – الرمز المسجل للفرعونية المصرية منذ بدايتها – تناقصت فى مصر بينما زادت وانتشرت فى الهند وكادت تصبح رمزاً هنديا لا رمزا مصريا فرعونيا !! ولهذا ، كان التراث الاسكندناوى أكثر صوابا حين أطلق على رمز " الأفعى القديمة " اسم " الأفعى الكونية " ! (ميد جارد سورمر) ! وهكذااسم ورمز التنين (الذى كان أصلا من أسماء مصر وكان يعنى أصلا أفعى الوجهين أو القطرين ، وأوردته الأسفار القديمة كاسم لمصر ولفرعون مصر المرعب الرهيب !) ، استمر يزحف شرقا حتى وصل إلى شرق آسيا وإلى الصين

التى أصبحت ترتبط أكثر من غيرها باسم التنين !!

وعلى كل حال ، ففى متن الأحاديث التى أوردها البخارى : " الفتنة ها هنا من قبل المشرق " ، و " الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قرن الشمس [١] " وفى فولكلوريات الاسكندر المقدونى ، وفى القرآن ، نجد أن الشرق / المشرق يتخذ معنىً مطلقاً يعبر عن " مشرق الشمس " الحقيقية (!!) ، أو عن المخبأ الذى تظهر منه الشمس ، ومن ثم يعتبر " موطن الشيطان " ! وموطن " الشروق " هو الاسم المحلى السابق لليابان : نيبّون Nippon (بينما اسم " اليابان " كان يعنى اليونان !) ومع ذلك ، جعل المسيحيون قبلتهم هى الشرق ، مفسرين ذلك بأنه كان يعنى الاتجاه إلى بيت المقدس ! (= جنوب شرق أوروبا) .

وقد اندفع الأوروبيون بعد انطلاق النهضة / الانبعاث العقلانى يبحثون عن أسرار وسحر الشرق (بمعنى الخداع والفتنة أى التخريب والافساد !) وعن شياطين الشرق ! فاتجهوا أولا إلى الهند ، وأقاموا فيها شركة " الهند الشرقية " ! ولم يجد الفرنسيون فيها مفاتيح الأسرار التى يريدونها ، فهاجموا روما والفاتيكان يبحثون عن موطن الأفعى الشرقية القديمة التى أشار إليها الكتاب المقدس ، فدلّوهم على مصر !! وحمل نابليون مطبعة الحروف العربية من الفاتيكان ومعها بعض الايطاليين وفريق من العلماء والمفكرين الفرنسيين ، وجاء إلى مصر !! ولم يستطيع طبعا أن يقبض على الأفعى الشرقية القديمة ، التى لدغته برأس بريطانى جديد كانت قد استنبتته مع أجهزة الكنيسة الرومانية فى أقصى الغرب الأوروبى منذ القرن السابع عشر !! ومع ذلك ، استطاع الفرنسيون أن يحطموا أسوار الأفعى القديمة ، وأن يساهموا بذلك فى انتقال حكم البشرية من أنياب الأفعى ذات الرأسين (المصرية الشرقية والرومانية) إلى أنياب أفعى بريطانية أوروبية ذات سموم أبطأ مفعولا وأقل فى شدة الفتك – الأمر الذى أتاح للبشرية ثغرات استثنائية نادرة ، وصلت فى روسيا القيصرية ثم الاتحاد السوفييتى إلى ظهور قوة عقلانية جديدة ، ستنجح بعد شرارة البريسترويكا فى تغيير تاريخ العالم .

✧✧ ومن الفصل الثالث " **لعنة الفراعنة ورمز الصليب المعقوف** " نذكر أيضا

---

(١) المجلد الثانى الجزء الرابع ، ص ٢٢٧ .

الفقرات التالية :

✧ شباب ألمانيا في شيخوخة بريطانيا وفرنسا

إن معظم الأسلحة التي تُستخدم في مخططات وعمليات صناعة التجهيل واللاعقل ، هي أسلحة ذات حدّين . وهذا جزء ضروري من نظام النفاق والتمويه وخداع الحاضر والتاريخ ، وجزء أساسي من وسائل الفرز والاستطلاع الذهني - خصوصا أن الأجهزة العليا للتحكم الشامل كانت تملك الامكانيات الحاسمة لاستخدام الحد المطلوب من هذين الحدين في الظروف المطلوبة .

وهنا أرجو أن يسمح لي القارئ بأن أقف مرة أخرى عند ظاهرة أو ميكانيزم استنبات بذور الأخطاء الثقافية والمغالطات والانحرافات الفكرية والمنهجية في التربة المتخلفة فلسفيا ، وكيف استُخدم هذا الميكانيزم في ألمانيا بالذات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضد خبرات الثقافة والفكر في غرب أوروبا ، وخصوصا ضد العقلانية التنويرية الفرنسية (١) ، ثم كيف استُخدم نفس الميكانيزم في روسيا بعد أن بدأت الخبرات الثقافية والفكرية والفلسفية تتراكم في ألمانيا أيضا ، ثم انتقل إلى العالم الثالث ومفكري العالم الثالث بعد أن بدأ الاتحاد السوفييتي يدخل في عداد الدول ذات الخبرات الثقافية والفكرية !

والحقيقة أن هذه الظاهرة تلفت النظر إلى عدة ميكانيزمات وليس إلى مكانيزم واحد . فاذا كان الميكانيزم الذي أشرنا إليه يصنع بذور أوشتلات وزريعات المغالطات والانحرافات الفكرية المطلوبة في صوبات محكومة بدقة وبشكل مباشر ، وذلك في العواصم والبلدان المحكومة بدقة وبشكل مباشر ، إلا أنه لا يستطيع استنباتها واستزراعها وتنميتها في الهواء الطلق وفي المزارع الواسعة إلا في البلدان التي تسمح ظروفها المناخية ونوعية تربتها بذلك !

وقد ذكرت قبل ذلك كيف كان هيجل مثلا ثمرة استنبات متضخم وذي اتجاه لاهوتي لمغالطات وسفسطات دافيد هيوم ، الذي لم يلق الترحيب من مفكري بريطانيا وفرنسا (رغم أنه كان يحتل

(١) أشرت في كتاب " المبادئ الفلسفية الجديدة " إلى ملاحظات واقعية مباشرة ذكرها المفكر الفلسفي الروسي تشيرنيشفسكي ، عن اهتمام أجهزة التجهيل القيصرية بترويج الثقافة الألمانية وتقديم فلسفة اللاهوتي التخليطي هيجل ، كبديل وكوسيلة طرد للثقافة الفرنسية والفلسفة العقلانية الفرنسية بالذات ، التي كانت القيصرة كاترينا الكبرى قد ساعدت على نشرها في روسيا عندما استقدمت ديدرو . انظر "المقالات الفلسفية المختارة " لتشيرنيشفسكي ، الترجمة الانجليزية ص ص ٤٦٩ و ٤٧١ وغيرها .

مركزا فعالا فى الخارجية البريطانية وتبع القصر الملكى) ، بحيث لم يشتهر اسم هيوم إلا عن طريق من دافعوا عنه أو تشبهوا به من الفلاسفة والمفكرين الألمان ! كذلك نجد أن ماركس وإنجلز الألمانيين الهجيليين اللذين كانا يتمتعان بالدعم السرى وبامكانيات النشر والترجمة والرواج فى أوروبا وخصوصا فى لندن (التى أقام فيها ماركس ٣٤ سنة) – رغم التعتيم الفعال والتصرفات العملية المعروفة التى كانت تتخذها الأجهزة السرية العليا البريطانية والأوروبية ضد أعدائها الفكريين بل وضد غير المرغوب فيهم عموما – لم يجدا الدرجة المطلوبة من الترحيب والتشجيع فى ألمانيا فى القرن التالى على هيجل لأنها كانت قد تقدمت نسبيا بحيث تخطت مستوى التغليط الماركسى بعد هيجل بقرن ونصف ! فقامت الأجهزة العليا البريطانية للتحكم السرى الشامل وفروعها الأوروبية باستنبات واستزراع مغالطات الماركسية وانحرافاتها فى روسيا القيصرية ، لترتجع ثمارها بعد ذلك إلى بقية أوروبا !

وبالاضافة إلى هذا الميكانيزم الخاص باختيار البيئة والتربة المناسبة لاستزراع المغالطات والانحرافات نجد أن هناك جانبا آخر لهذه الظاهرة يكشف عن مكانيزم آخر . **هذا هو جانب خصوبة وشباب التربة التى تسمح بالاستزراع الواسع للأفكار الجديدة حتى لو كانت مغالطات وانحرافات** . فخصوبة وشباب التربة الألمانية ثم بعدها التربة الروسية ، هى التى أتاحت عملية الاستزراع الواسع فيهما لنظريات تعتمد على درجة ما من التفكير والمنطق ، وليس على سلطان التقليد اللا عقلى المتوارث أو قوة التخريف وقصص المعجزات . وهذا يرتبط فى الحقيقة بثلاثة ميكانيزمات أخرى تستحق التأمل والدراسة .

ذلك أنه يوجد **ميكانيزم ثان يمكن أن نسميه ميكانيزم هجرة بقايا البذور أو الشتلات العقلانية** إلى أراض جديدة . وهذا يعنى الاستنبات أيضا لكن فى اتجاه طبيعى عكس اتجاه النوع السابق ، ومن ثم لاتصنعه بل ولاتريده الأجهزة الدولية للتحكم السرى الشامل ، ولكن تصنعه التلقائيات الطبيعية السليمة للبشر . إنه الاستنبات والنمو الطبيعى لبذور وشتلات العقلانية التنويرية والبحث العلمى الجذرى والانسانية الأممية ، التى تكون كل أو معظم أشجاره قد تعرضت للاجتثاث وكل أو معظم جذورها قد تعرضت للاستئصال فى البلدان التى سبقت إلى الانطلاق العقلانى ثم أخمدت وكُتمت شعلاتها العقلانية. **هذا إذن ميكانيزم قبسة**

أوشعلةبروميثيوس .

ففى فرنسا مثلا ، عندما انكسرت ثورتها العقلانية بالثورة الدهمائية الفوضوية المعروفة ثم بعسكرية نابليون بونابرت وحروبه الفاشلة وهزائمه المدمرة ، هاجر بقايا حاملى شعلة بروميثيوس الفرنسيون منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى البلدان التى كان يمكن أن تتسع لاهتماماتهم ، خصوصا ألمانيا . فلما زاد القهر وعمليات مكافحة العقلانية والفكر المتحرر فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت موجات هجرة شعلة بروميثيوس الفرنسية والألمانية والبريطانية إلى روسيا القيصرية وغيرها ، فضلا عن المستعمرات وأشباه المستعمرات خارج أوروبا . وفى مصر مثلا ، ظهرت البذور والشجيرات المؤقتة للفكر المتحرر وشبه العقلانى على أيدى أساتذة ومفكرين فرنسيين وأوروبيين كان لهم تلاميذ وقراء رواد صنعوا محاولات التنوير الفكرى فى العالم العربى . ولهذا ، ولمقاومة ذلك الميكانيزم وضد إنجازاته ، كانت تزيد وتتكثف عمليات التدخل المباشر والتحطيم المباشر وصناعة الظروف اللاعقلية والجهلية والتدهورية فى تلك المهاجر أكثر مما يحدث فى **مصادرها الطاردة للعقلانية** . فالصراع هنا ضد العقلانية والفكر ، يشبه نمطيا أى حرب تشتد ضد عدو معين ، ثم تنخفض أو تنتهى عند هزيمة وتصفية ذلك العدو – مع مطاردة بقاياه فى الجهات الأخرى ، ورصد ومراقبة أى محاولات استرجاعية له فى المواطن التى هزم فيها .

ثم نجد أيضا فى هذا الصدد ميكانيزماً ثالثا ، يمكن أن نسميه ميكانيزم ازدواج خصائص الشباب ، أو ازدواج نتائج نقص الخبرة فى التعامل مع الأجهزة والعمليات المعادية للعقلانية والتفكير . وقد أوضحت فى البند السابق كيف تكون طاقات العنفوان والاندفاع الفكرى لدى الشباب مفيدة فى تحقيق الانجازات والتقدمات ، لكنها فى نفس الوقت تكون مصابة بنقطة ضعف هى نقص الخبرة التاريخية والفلسفية والمنهجية ، مما يجعلها معرضة لزيادة الأخطاء والعثرات والانحرافات – ولو تلقائيا إن لم يكن بالتورط فى مصايد ومساقط التغليط والتخليط والتحريف المصنوعة والمخططة من أجهزة مكافحة العقلانية والفكر العلمى . وبديهى أنه يجب فى هذه الحالة الجمع بين طاقات الشباب الفكرية فى البلدان الجديدة ، وخبرات وأرصدة الفكر المضروب فى البلدان التى هزمتها الشيخوخة الفكرية المصنوعة . لكن بديهى أيضا أن أجهزة مكافحة العقلانية والفكر العلمى لا تسمح بتحقيق التكامل السليم المطلوب ، بل إنها تحقن الشباب بأخبث الأمراض والتدهورات التى تضاعف مايعانيه من عشوائية وسذاجة ، تحرمه بالتحديد من الخبرات والأرصدة

التاريخية والمنهجية المفيدة التي ترشده وتوجهه فى الاتجاه الصحيح .

ومع ذلك ، فان عملية الاندفاع الفكرى تحقق فى حد ذاتها ورغم أخطائها وعثراتها وانحرافاتها فوائد كثيرة ، يمكن أن يستفيد منها فى المستقبل القادرون على التمييز بين التبر والتراب أو بين الأشياء الثمينة وبين النفايات المتراكمة عليها ، أى السموم والأمراض التى تُفرض فرضا محكوماً لتلويث إنجازات البحث العلمى والفكر العلمى . وهذا الجانب يتضح بشكل خاص فيما يمكن أن نسميه نقص الترويض أو الإخضاع اللاعقلى لدى الشباب .

وللتبسيط التوضيحى ، يمكن أن نشير مثلا إلى الفرق بين موقف شخص من أهل البلد التلقائيين غير المتعلمين وموقف شخص اجتماعى متعلم وذى خبرة بالجرائم السرية ، إزاء عملية تهديد وابتزاز إجرامى يبدو ظاهريا أنها تسمح بمحاولة الاستغاثة أو الفرار أو ماإلى ذلك . إن الشخص الأول سيحاول أن يصرخ أو أن يجرى أو أن يقاوم بطريقة أو بأخرى ، بينما الشخص الثانى سيختار الموقف الأضمن وهو الاستسلام الفورى — حتى لو كان هناك احتمال ضعيف لامكانية التصرف . بل إنه سيتخذ هذا الموقف ، حتى لو حدث الابتزاز من بعيد لكن بطريقة تضعف احتمال الافلات ! هذا هو الفرق بين مواقف المفكرين والمثقفين العقلانيين فى بلد لم تتحطم بعد انطلاقته العقلانيه ، وبين أمثالهم — إن وجدوا — فى بلد تعرّض للتأديب اللاعقلى الرادع من قبل .

وخذ مثلا نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣ — ١٥٤٣).لقد كان كاهنا بولنديا فى كتدرائية، ، وكان عمه أسقفا . وعندما أصدر كتابه عن دوران الأرض حول الشمس ، أهدى نسخته الأولى إلى البابا بولس الثالث ! ولم يكن يتصور أن الخلاف حول مثل هذه المسألة ، يمكن أن يؤدى إلى إدانته وإعدامه حرقاً ! وقد كان رجال وشبكات الكنيسة يستطيعون أن يمنعوه بطريقة أو بأخرى من استكمال الكتاب أو من إصداره وإهدائه إلى رئيس الكنيسة ! لكنهم لم يفعلوا ، لانهم كانوا قد لاحظوا أن الباحثين فى الفلك عموما بدأوا يتجهون إلى تلك النظرية ذات الأصول اليونانية القديمة (مثلا عند أرستارخوس الساموسى فى القرن ٤ — ٣ ق . م)، ، والتى كانت قد طمستها أجهزة التجهيل الفرعونية باستخدام اليونانى الصعيدى بطليموس فى مدرسة الإسكندرية ، ثم اعتمدها وروّجها الفلكيون اليهود والاسلاميون فى العصور الوسطى ، بحيث جعلتها أجهزة التحكم اللا عقلى الشامل إحدى الفرازات الهامة التى تفرز بها قوة

الابصار عندما تزيد عن اللازم فتستلزم القمع والتصفية . وفى هذه العملية ، استخدموا كوبرنيوكوس " أمثولة "أو " أرنب قرداتى " ، لترهيب وتركيع المتمردين على المغالطات القديمة، ولهذا ، نجد أن جاليليو جاليلي (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عندما وقع فى نفس المشكلة مع الكنيسة بعد قرن من الزمان ، استوعب درس كوبرنيكوس جيدا فركع وكتب تعهداً ضد تلك النظرية ، وعانى السجن والعمى بدلا من الأعدام حرقا!!

بل إن الإشارة المذكورة إلى القرداتى وأرنب القرد خانه ، تعبر عن نفس الميكانيزم.فالحيوانات الأخرى الأقل ذكاءً من القردة (التى تتبع المرحلة السابقة على المرحلة البشرية) ، **لاتستطيع أن تفهم الابتزاز ،ومن ثم لابد من استخدام وسائل تربيطية فسيولوجية ذهنية أخرى لترويضها !** أما القرد ، فان ذكاءه يتيح له أن يخضع وينفذ المطلوب بمجرد أن يذبح القرداتى أمامه كلباً أو أرنباً لاينفذ المطلوب ! وبديهى أن إخضاع الشخص البشرى بالابتزاز داخل سجن أو مخبأ رهائن يكون أسهل من إخضاع القرد . فيكفى أن يرى السكين فى يد سجانه ، بل تكفى عملية احتجازه القهرى فى حد ذاتها ، للتعبير عن ضرورة الخضوع ! وفى الأمثال : " العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الاشارة "" . وهذا يوضح لنا أبعاد الظاهرة التى ذكرتها عن دواعى تكـ ف التدخل المباشر والتحطيم المباشر فى البلدان الجديدة ، أوبالأحرى **ضرورة أن تُستخدم أيضا وسائل ظاهرة جدا وصارخة أحيانا لتحدث تأثيرها المطلوب فى تلك البلدان !**

وقد أشرت قبل ذلك إلى وقائع تكرار استخدام مايسمى **البولترجايست Poltergeist Phenomenon / ظاهرة « الأشباح المزعجة أو الصاخبة » المزعومة Disturbing ghosts** ، وذلك فى ألمانيا(التى اخترعوا فيها هذا الاسم « الاصطلاحى» المستفز للعلم والعقلانية ثم انتشر منها فى بقية أوروبا !) ، وكذلك ظاهرة « **الحوادث » غير العادية للتحطيم** الصحى والشخصى والذهنى (= التجنين المباشر) للعديدين من المفكرين الألمان ، مع زيادة المشاكل والكوارث التدميرية الداخلية والخارجية ضد مصالح ألمانيا .

✧طاقات الفكر الحديث واجهت التحجيز والتعجيز

بعد الميكانيزمات الثلاثة التى ذكرناها ، نأتى إلى **الميكانيزم الرابع** الذى يرتبط بها أو يترتب عليها . هذا هو ما يمكن تسميته **ميكانيزم تحجيز ثم تعجيز الاندفاع الفكرى** ، أو ميكانيزم الارتقاء الفكرى الناقص . وهذا يعنى أنه نتيجة الحواجز والمقاومات اللاعقلية القديمة والدهمائية ،

ونتيجة التحجيزات والاجهاضات أو التعويقات التي تصنعها الأجهزة العليا لمكافحة العقلانية والفكر العلمي ، فان الاندفاع الفكرى لايستطيع أن يتقدم إلا فى المجالات أو عبر الفتحات التى تظهر فى سور الحواجز القديمة أو الجديدة . ويكون ذلك عادة بتشجيع وتنشيط بعض الأجهزة والكوادر غير الاستراتيجية التى تملك رغم ذلك قدرات مباشرة وتستهدف تحقيق إنجازات وانتصارات داخلية أو خارجية معينة ، والتى تسمح لها الأجهزة العليا الاستراتيجية الدولية وفروعها المحلية بالتصرف فى هذا الاتجاه لأسباب مؤقتة أو لأسباب اضطرارية تمويهية . ثم لا تلبث تلك الأجهزة العليا الاستراتيجية الدولية والمحلية أن تضطر إلى مواجهة تداعيات وتطورات وتوسعات تلك المرحلة المؤقتة ، ألا وهى زيادة زخم وضغوط هذه الموجة العقلانية فى الأجيال التالية إلى درجة تهدد قواعد وأركان ملكوت اللا عقل القديم وكيان التحكم اللاعقلي السرى الشامل ! وهنا تنتقل إلى وسائل مضاعفة وسائل تحجيز محاولات الفكر العقلانى ومقاومتها ، وتبدأ فى عمليات ضربها وتحطيمها بمختلف الوسائل والتبريرات ، حتى تنجح فى تحجيمها وإضعافها إلى الدرجة المطلوبة أو إطفائها نهائيا .

وبذلك نجد فى الميكانيزم المذكور للتحجيز وقطع الارتقاء الفكرى ، أربع خطوات هى :

١ - اضطرار المفكرين إلى إنجاز الارتقاء أو التفوق الفكرى فى مجال معين أو مجالات معينة فقط بسبب انسداد المجالات الأخرى . ٢ - زيادة واتساع زخم وضغوط وتداعيات الفكر العلمى ، بدرجة تهدد الحواجز والسدود الأخرى والمغالطات المقدسة . ٣ - التعرض للمقاومة ومحاولات القطع ، ومن ثم اضطرار المفكرين إلى التركيز على الاستيعاب والاجترار والتقدم الجزئى البطئ . ٤ - زيادة المقاومة والهجوم المضاد ، ومن ثم حدوث التدهور وربما الانطفاء (وقد يرتبط هذا بهجرات تؤدى إلى انتقال الانجازات الجديـــــدة إلى بلدان أخرى كما أوضحت) .

وإذا نظرنا على سبيل المثال إلى تطبيقات هذا الميكانيزم على تقدم العلوم والفكر العقلانى فى أوروبا منذ النهضة/ الاحياء الحديث بعد ظلام العصور الوسطى ، يمكن أن نجد ما يلى :

١ - حدوث بداية عمليات الانبعاث الفكرى فى إيطاليا ، لأن مفكريها كانوا أقرب المفكرين الأوروبيين إلى كنوز التراث الفكرى والعلمى القديم ، بل وكانت بلادهم ملجأ اللاجئين

البيزنطيين الذين هربوا من الغزوات الصليبية ثم من الاكتساح العثمانى . لكن التحجيزات الاجتماعية والكنسية القديمة فى هذا الوكر العريق للكهنوت ، مع عدم وجود سلطات أو أجهزة محلية تملك الرغبة فى والقدرة على تشجيع التقدم الفكرى المخطط ، أدى إلى نجاح بعض الايطاليين فى زرع أو نشر بعض البذور فقط ، ثم أُجهضت محاولاتهم فى القرن السادس عشر أو السابع عشر .

٢ – تقدم عمليات الانبعاث الفكرى فى بريطانيا (التى شجعتها أجهزة الفاتيكان وكذلك أجهزتها المحلية لمواجهة قوى العقلانية الفرنسية ومنع فرنسا من إحراز السبق والتفوق الفكرى) . وقد حققت بريطانيا التفوق فى بعض العلوم الطبيعية والطبية بسبب فوائدها التقنية المباشرة ، مع بعض الانجازات الفلسفية المنهجية اللازمة للتقدم العلمى . واستمر الاندفاع الفكرى والعلمى البريطانى من حوالى القرن السادس عشر إلى حوالى القرن الثامن عشر ، ثم اقتصر الموقف فى بريطانيا بعد ذلك على عمليات سرقة الريادة الفكرية أو السبق الفكرى من فرنسا فى مختلف مجالات العلم التى تنبت فيها بذور إنجازات جديدة ، مع محاولة ركوب وتحريف أو ابتسار الاتجاهات الصحيحة فى تلك المجالات (مثلا داروين بعد لامارك بسبعين عاما) .

٣ – استمرار عمليات الانبعاث الفكرى فى فرنسا منذ حوالى القرن الخامس عشر إلى حوالى القرن التاسع عشر ، رغم استمرار تفاقم مشاكل فرنسا كما يتضح فى انفجار ثورتها الدهمائية المعروفة ثم حروب نابليون ، إلخ . ومن حيث القدرات الذاتية والبدايات ، كان الفكر الفرنسى أسبق من الفكر البريطانى – لولا نجاح الأجهزة البريطانية فى عرقلة الانطلاقات الفرنسية وفى سرقة الريادة من فرنسا فى عدة مجالات بالطريقة المذكورة . والمهم أن فرنسا استوعبت وطورت إنجازات بريطانيا فى العلوم الطبيعية ، لكنها تفوقت عليها طبعا فى الفلسفة والعقلانيات وبدايات العلوم الاجتماعية أو الانسانية – لأن أجهزة البريطانية كانت تحاول إجهاض ومكافحة تلك العقلانيات الفلسفية والاجتماعية وتقديم بدائل مزيفة لها وليس إحراز السبق فيها !.

٤ – انطلاق عمليات الانبعاث الفكرى فى ألمانيا منذ حوالى القرن الثامن عشر حتى ثلاثينات هذا القرن الحالى العشرين ، بعد أن استوعب الألمان وطوروا إنجازات العلوم الطبيعية فى بريطانيا وفرنسا . وبسبب تاريخها الدينى الأثقل مدى من بريطانيا وفرنسا ، وخصوصا بعد نمو وتضخم سلطان الكنيسة القومية الألمانية نتيجة ما يسمى « الاصلاح الدينى » أو الأصولية

البروتستانتية التى حاول بها مارتن لوثر تجديد روح الدين و اللاعقل القديم ذى الأصل الشرقى علم تسمح الأجهزة الألمانية بـ أو تشجع على العقلانيات ، ومن ثم لم يستطع الفكر الألمانى أن يهضم جيدا أو يطور إنجازات فرنسا فى العقلانيات الفلسفية والاجتماعية ، ولا حتى فى اتجاه العقلانيات الانجليزية المتحفظة لدى فرنسيس بيكون وتوماس هوبز وجون لوك!

وكانت النتيجة : ليس فقط عدم تحقيق إنجازات متفوقة فى مجال العلوم الفلسفية والاجتماعية والتاريخية ، بل وأيضا التورط فى كثير من المغالطات والانحرافات فى تلك المجالات – رغم الانجازات الألمانية فى علوم البحث والتنقيب التقريرى فيها . ولهذا ، كانت إنجازاتهم المتفوقة فى العلوم الطبيعية وشبه الطبيعية (مثل العلوم الطبية والنفسية) ، مقصورة على المجالات الخاضعة للتحقيق العلمى التجريبى والتصحيح المنطقى التجريبى . أما الجوانب النظرية التصورية (= شبه الفلسفية) فى العلوم الطبيعية نفسها ، فقد تعرضت طبعا للتخليط والتغليط الناتج عن التخلف فى الفلسفة العقلانية . وهذا واضح مثلا فى تخليطات ألبرت أينشتين عن المكان والزمان وما إلى ذلك ، رغم اعتماده على الانجازات العلمية الهائلة التى وصل إليها ماكس بلانك وأمثاله من عباقرة علم الطبيعة الألمان الذين لم يحصلوا على معشار الشهرة التى حصل عليها أينشتين !

٥ – آخر الدول الكبيرة التى التجأت إليها شعلة بروميثيوس الحديثة ، هى روسيا القيصرية . وقد استوعبت هذه إنجازات بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، وحققت إنجازات هامة حاسمة فى العلوم الطبيعية وفى العلوم الفسيولوجية النفسية . وكانت مرشحة لتحقيق إضافات متفوقة في العقلانيات التاريخية والاجتماعية التى بدأ الاهتمام بها فعلا فى روسيا القيصرية ، لولا أن داهمها كابوس الماركسية البريطانية الألمانية ، بسفسطاتها وتعكيساتها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية المضللة .

هذه توضيحات كان من الضرورى تناولها هنا ، ليس فقط لتأكيد وتفسير المغالطات والتخليطات الألمانية الخطيرة الخبيثة التى تخللت أبحاث الألمان فى الفلسفة اللغويات والفولكلوريات القديمة وما يسمى علم الأديان ، إلخ ، ولكن أيضا للتمهيد لما سنذكره بعد ذلك عن الخلفيات التاريخية والاستراتيجية لرمز الصليب المعقوف ، الذى أعلنت به النازية فى جهالة لاعقلية دموية رعناء كدمغ الشعب الألمانى باللعنة والدمار عقاباً على جريمة البحث

والتفكير !!

.... كوخ الألماني (بعد باستير الفرنسي) وإخراج الميكروبات من الغيب إلى الشهادة ... الانسيكلوبيديا إسلاميكا (بعد انسيكلوبيديا ديدرو وأمثاله) ... إرنست فيشر صاحب فكرة المجمع اللغوي المصري ومصنف أول قاموس تاريخي للمفردات العربية (رفضوا نشره حتى الآن !!) ... الاكتشافات الجديدة الخطيرة لعلماء الآثار الألمان في التاريخ القديم لليونان وطروادة وفي تاريخ مصر القديمة ......

* * * * *

في نهاية هذه الصفحات من مخطوطة كتاب « نظرية في فلسفة التاريخ » ، سأضيف تلخيصا سريعا لكتاباتي عن الخلفية الفولكلورية واللغوية القديمة لرمز الصليب المعقوف ، ومعانيه ودلالاته المرعبة التي تكشف عنها الأبحاث التاريخية وتعرفها الأجهزة المتخصصة في مختلف البلاد ، رغم أن المثقفين العاديين قد لا يعرفونها بل وقد لا يتصورون مدى ما تعبر عنه !!

لمحات عن رمز الصليب المعقوف

❊ قلت إن رمز فاسك / فاش / فاس الذي اشتق منه اسم الفاشية ، والذي يتكون من بلطة قتل « معصوبة » بقضبان / عيدان من النوع المستخدم في الضرب ، يعني رسميا (بعد تجميل معناه !) « بلطة أو قوة السلطة » ! — لكن معناه الأصلي والفولكلوري في اللغة القديمة الشائعة هو عصابة « البلطجية » الذين يمنعون الغرباء من الوصول إلى الملك أو غيره من رجال القمة ، مما يعني أنه يرمز عموما إلى شبكة زبانية الاجرام المنتشرين في مراكز الدولة والمجتمع لقطع أي محاولة للتبصير أو التنوير أو نقل الأسرار غير المرغوبة إلى الكبار المعصوبي العيون . فرمز البلطة الفاشية يعني إذن : سنقطع رأس من يحاول أن يقول ما لا تريد ! وهذا هو تقريبا — لكن بدرجة أشد وأبشع فولكلوريا — المعنى التاريخي القديم لرمز الصليب المعقوف الذي يعني اسمه القديم حرفيا : صليب المشنقة !!

ولأن هذين الرمزين اللذين ارتفعا على رايات الجزارين في مجزرة الحرب العالمية الثانية يرجعان إلى التاريخ القديم ، وأيضا يعبران عن جوانب معينة من التاريخ القديم (حيث تعبر البلطة

الفاشية من دور الاتروسك في تصفية الأسرار التنويرية اللاتينية اليونانية الكلتية قبل قيام الامبراطورية الرومانية بينما يعبر صليب المشنقة القديم من أسرار الدلتا والجاما وعذاب الهون في الأبجديات القديمة) . فمعنى ذلك أنهما كانا يركزان على التحذير بشكل خاص من تناول محظورات التاريخ القديم وحقيقة دور الفرعونية في تحطيم الطفولة العقلانية البشرية وفي تنكيسها بالتعبيد والتخويف واللاعقل منذ خمسة آلاف عام الكل ما في الأمر، أن الصليب المعقوف يعتبر أشد ارتباطا بأسرار لعنة الفراعنة، لأنه كان يتكون من حرف دالت العبرى الذى ارتبط بما يسمى حرف جاما اليونانى، مما يجعله رمزاً لأسرار حرب الكهنوت الفرعونى ضد دلتا النيل، ثم حربهم ضد أخبار وتراث ولغات وأبجديات مهاجرى دلتا النيل وحاملى شعلة بروميثيوس في مهاجرهم المتتالية في أرجاء العالم. وهذا هو السبب في أن السفاح المخبول هتلر، كان يجمع بين شعار الصليب المعقوف وما يسمى صليب مالطه (الذى يتكون من أربع دلتات أو أربعة أهرامات!) ، وشعار الفصلة الفرعونية Troddel ، ويضع على مكتبه رأس نفرتيتي وغير ذلك من آثار فرعونية ذات معان خاصة!

وقد أوضحت الكثير في بنود اللغات والأبجديات القديمة ، عن أسباب ومعالم التخليطات والتبديلات المتكررة في الحرفين المذكورين وما يرتبط بهما من حروف في مختلف الأبجديات القديمة والوسطى . ولهذا سأكتفى هنا بالاشارات الخاطفة إلى ذلك ، خلال توضيح معانى وخلفيات هذا الموضوع .

الاسم القديم للصليب المعقوف crux gammata يعنى صليب المشنقة ، لأن حرف جاما اليونانى Γ (مثل حرف دالت العبرى ⅂) كان يعنى المشنقة . وهذا نجده أيضا فى معنى « إف » ، حيث كان الحرف الذى يحمل هذا الاسم يسمى فى الأبجديات القديمة « دياجاما » أى الجاما المضاعفة (= المشنقة المضاعفة) بحجة أنه يتكون من حرفى جاما فوق بعضهما F . ولهذا كانت الأبجديات حتى العصور الوسطى تعبر عن هذه المضاعفة برسم كرباج فوق ذلك الحرف ، بينما كانت بعض الأبجديات القديمة ترسمه فى صورة كرباج فقط أو منشال / شوكة لحم ضخمة (مثلا فى الليدية والكريتية والكورنثية) ، وفى إحدى الأبجديات اليونانية الأخرى مشنقتين متعاكستين (= قوس معقوف !) ، وفى الفينيقية وغيرها Y . وكان الصوت « فى » أو « إف » يسمى فى اليونانية الأقدم Koppa كبة / قبة ، ويرسم هكذا Q،

، ويسمى شكل هذا الحرف : « **ثقب المسلة أو الابرة** » (١) !! ومن ناحية أخرى ، كان اسم الجاما المضاعفة أو المشنقة المضاعفة يقال أيضا على حرف W (الذى يعبر في معظم اللغات عن الألم والويل (٢)) ، وذلك بحجة أنه يتكون من اثنين V التى كانوا يخلطون في بعض الابجديات بينها وبين F . (ويلاحظ أن V كانت تعبر رمزيا عن الشمال أو الدلتا أيضا !) .

والحقيقة أن الصليب عموما كان يرمز إلى المشنقة أو الاعدام أو عذاب الهون (= المنية الجنسية) ، إلخ . ولهذا ظهرت طوائف متمردة على المسيحية تقول : « إن أحدا لا يعبد المشنقة التى شنقت أباه !» . لكن معانى الاعدام والعذاب والآلام تلاشت أو انخفضت فى رمز الصليب العادى مع مرور الزمن ، فأصبح يرمز عموما إلى الديانة المسيحية . ومن ثم كان لابد من تجديد رموز الرعب والتهديد ، بالتنويع فى أشكال الصلبان القديمة !

وأصل اسم ومعنى الصليب في اللغات البحراوية ورواسبها الشرقية العربية واليونانية اللاتينية وأشباهها ، هو التحديد المستقيم أو الاتجاه المستقيم ، ومنه مربع الجهات الأصلية أى تحديد الاتجاهات الجغرافية الأربعة . (وهذا ما بقى حتى اليوم فيما يسمى « الصليب اليونانى المربع » quadrata ، وأيضا فيما يسمى الصليب الكلتى ، الخ) . لكن هؤلاء الذين قلبوا مثلا كلمة نتر / نتشر من معنى الطبيعة natura إلى معنى الرب الكهنوتى كما هو مسجل فى الهيروغليفية ، والذين قلبوا كلمة m .t / موتوس من معنى لغة الورق أو القضيب الاسطوانى الكتاب المسطور إلى المعنى الجنسى البذىء (كما هو مسجل بالرسم فى الهيروغليفية أيضـــــا)!

(١) انظر فى ذلك مثلا رسومات مادة Alphabet فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا .

(٢) صوت الويل أو الواه vei / woe ، يعبر عنه فى الهيروغليفية وغيرها من الأبجديات القديمة رسم الخية أو العقدة والشنيطة (التى تشبه عقدة المشنقة أو عقدة حبل القنص) . وينطق بالمصرية : وا . وشكله ، أما في العبرية ، فيعبر عنه حرف يشبه أيضا الدالت أو الجاما المعكوسه الاتجاه . ثم لاحظ أن صوت الواه هذا كان يكتب فى الأبجدية الكريتية بطريقة تشبه ما هو معروف عن الدلتا اليونانى السمول أو التاء المربوطة فى الكتابة العربية ، هكذا 6 . (انظر كتب اللغات والأبجديات القديمة ، وكذلك البريتانيكا) . أما فى الرسم الديموطيقى ، فكان يوجد رسم يشبه الواو العربية المعروفة ، لكنه أكثر التفافا للتعبير عن حبل القنص أيضا هكذا : و أو ى . وفى الأبجدية الرونية ، كان شكل حرف الواى أو منشال اللحم يعبر عن نطق الكبة أو الكابا ، الذى يكتب فى اليونانية القديمة المعروفة على شكل **الاكس اللاتينى** ، X .

ومن ثم إلى معنى عذاب الهون أو الموت الأكبر ، قلبوا أيضا صليب الجهات الجغرافية أو الفلكية الأصلية إلى معنى صليب الاعدام والشنق والعذاب والهون ، الخ !! (١)

وكانت بداية ذلك فيما يسمى صليب عنخ (الذى استمر الأقباط قبل العصر الحديث يعتبرونه الرسم الأصلى للصليب !!) . واسمه اللاتينى crux ansata ، وفى اللغات التالية ankh cross . والشكل الأجنبى لهذه الكلمة ، يوضح أنها أصل كلمة ancor / anchor التى تعبر عن الهلب أو الخطاف / المخطاف المعقوف (وهذا يعتبر أيضا أحد أسماء الصليب المعقوف في الألمانية والانجليزية hakenkreuz !!) . كما أنه أصل كلمة الأنكى والإنك وما إلى ذلك من كلمات العذاب المرعب فى العربية . والأدعياء أو السذج أو المنافقون من أساتذة المصريات ، ومن الأقباط المتعصبين للفرعونية (مثل لويس عوض) ، يترجمون صليب عنخ باسم : صليب الحياة ! لكن حتى هذا المعنى المنافق المضلل يترجم خطأ ، لأن ترجمة هذا المعنى التمويهى هى : صليب الاستحياء . والمعنى الواقعى الصريح للاستحياء فى اللغات الشرقية القديمة – ومنها العربية – معروف ، وهو : الاستعباد الجنسى (مثلا يقتلون ذكورهم ويستحيون نساءهم) . وبالتعبير الفولكلورى القديم : « الموت بالحياة » !

أما من حيث أصل اسم الصليب المذكور ، فواضح أيضا حتى فى كتب مهرجى الزفة الهيروغليفية ! (٢) ذلك أن الكلمة المصرية القديمة المتضخمة « عنخ » ، هى « عنا » ، بينما المعنى التعذيبى للصليب معروف ! وهذا الذى سمى باسم « صليب عنخ » ، كان رسمه الشائع فى الهيروغليفية يعبر أيضا عن « ربطة النعل » ، أى فيونكة رباط الحذاء (= العقدة المشنوطة

---

(١) من رواسب معنى التحديد المستقيم لجذر الصل / السل فى اليونانية اللاتينية مثلا : sol (= شمس) و - syl و - sole و - solid و silk و sillon و salus (= سليم) ، إلخ . وفى العربية القديمة مثلا : صلب ، صلح ، صلج (عربية فارسية) ، سلم ، سل السيف ، سلس وسلسال ، الخ ، ولاحظ أن نفس كلمة « المستقيم » وكلمة « الصلب » وغيرهما انقلبت معانيها ، بينما ظهرت معانى منفرة ومرعبة مثل : صلو ، يصلى النار ، مسلة العذاب / أو بليسكوس ، الصلب والترائب ، صليب الموت والعذاب ، الخ .

(٢) انظر مثلا كتاب عبد المحسن بكير عن « قواعد اللغة المصرية » / الهيروغليفية ، الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة ١٩٨٢ .

للرياط) ، بينما كان يعبر عن استمرار الحياة إذا رسم معه « كعب / عقب بقرة » هكذا : [illegible] انظر الكتاب المذكور ص ١١٥ ، ١١٦) . وهكذا يتضح لنا أن كلمة عنخ هى أحد أشكال أصل الكلمات التالية : عنين ، عانة ، عنت ، تعنية (فى حالة الدسنطاريا مثلا) ، معاناة ، الخ ~~~~ كما أن « كعب عنخ » أو « كعب الاستحياء » ، ليس إلا « كعب أخيل » المعروف عند اليونان ، أى كعب الهون أو الموت بالحياة !!(٢) وواضح أن صليب عنخ كان يعبر أصلا عن ربطة الاخصاء (ولهذا كان يرمز إلى الرهبان المخصيين فى عصور إخصاء الرهبان) . ثم بعد القليل من التستر والتمويه ، وبعد توسيع رأسه العليا لترمز إلى ربطة أو حزام الحقوة ، أصبح يعبر عما يسمى " حزام العانة / حزام العوره " loincloth (أى ما يسمى ورقة التوت فى التعبيرات المتوارثة). ثم تقدم فى التمويه بعد ذلك ، فأصبح يعنى صليب / الاستحياء / الحياة !

وحتى اسمه اللاتينى لم يسلم من التأويل والتحوير كالمعتاد . فقد استعملوا كلمة ansa بمعنى حلقة أو مقبض ، ومن ثم جعلوا ترجمته : صليب بحلقة – مع أن هذه ليست حلقة ولكنها رأس الصليب نفسه ، فضلا عن أن كل الصلبان التى تعلق على الصدر تكون مثقوبة !! لكن الحقيقة أن صفة ansata مشتقة من anus – وهذه هى العانة (بالمعنى القديم) رغم أنها تعنى أيضا حلقة ring (وقد اشتق منها اسم الحمار فى بعض اللغات ، مثل اشتقاق اسمه من كلمة dung / donk حيث ينطق الحمار بالمصرية القديمة « عا » / عان ، ويرسم هيروغليفيا برسم شومة مع قضيب تناسلى !! انظر كتاب الهيروغليفية ص ٢٠ مثلا) .

● وعلى غرار صليب أو ربطة أو شنقة عنخ ، ظهرت أنواع كثيرة من رموز الصلب والشنق والتعذيب ! منها مثلا ما يسمى : صليب العرض أو الذنب أو الجريمة crux commissa ، والذى يسمى أيضا صليب تاو T . ولاحظ أن الكثير من الأبجديات المصرية والشامية القديمة كانت تخلط بين التاء والدال (مثلا الحرف القبطى T ينطق t و d . وفى الكتابات المسمارية فى رسائل تل العمارنة مثلا كانت التاء تكتب دالا ، مثلا حوتيب / حوديب / أوديب) . فصليب التاو كان يعنى إذن صليب الدلتا / الدال . ومن رواسب ذلك فى اللغة العربية ، كتابة « التاء المربوطة » فى خط اليد (أى ربطة أو شنقة التاو / دال) على شكل الدلتا اليونانية السمول والتاء القبطية هكذا : δ (عربى) / δ (يونانى) / ϭ (قبطى) . ومن ناحية أخرى ، فحرف « تـــاو » أو

(٢) لاحظ أن أصل الكعب والكاعب والكعباء ، يعبر عن الارتفاع البارز أو القنبرة عموما .

«تواء» العبرى – وهو الحرف الأخير عندهم – كان يكتب فى عصور أقدم على شكل إكس أو إخ أو فواس X . (١) ثم أصبح شكله المعروف ، يشبه حرف بى اليونانى Π – Ti . هذا مع ملاحظة أن حرف پى فى الأبجدية الرونى الكهنوتية القديمة فى أوروبا ، كان يكتب بطريقة تشبه قوس السهام وتجمع بين رسم « دى » ورسم « بى » هكذا ᚦ . وفى تلك الأبجدية الرونى ، نجد حرف دى المصلوب الذى استمر بعد ذلك فى الأبجديات الاسكندناوية والايرلندية ð_ð . وفى أبجدية رونى أقدم ، نجد حرف الدال الذى يتكون من دلتاتين أفقيتين : ⋈ (وهى تشبه أيضا الفيونكه أو جزءًا من ربطة عنخ !) . وقد أشرت أيضا إلى أصل رمز الهرمين أو الدلتاتين المعكوستين فى الفولكلوريات الاسرائيلية (فيما يسمى شعار ماسونية سليمان ، وفيما يسمى نجمة داود – وأصلها : إنيجما / سرالدلتاتين ، حيث رسم النجمة فى الهيروغليفية ينطق دوا .d.w (٢)) . ومن ناحية أخرى ، نجد إلى جانب ما يسمى صليب تاو أو صليب الذنب والجريمة كما ذكرنا ، صليبا آخر يعبر عن حرف « تاو » أو « تواء » العبرى الأقدم المشار إليه ، والذى يسمى فى اللغات الحديثة حرف إكس . وهذا يسمى crux decussata ، أى صليب الإكس أو العشرة (انظر عشتر ومشتقاتها) !! وبالاضافة إلى وضوح المشتقات المعروفة للاسم الشرقى لهذا الصليب ، نجد أن الشكل اليونانى اللاتينى الأوروبى القديم لهذا الحرف X (= KS أو KH ، ويسمى falci / falx ويرتبط باسم الصقر المعقوف المنقار falco وباسم المنجلة المعقوفة falci والقضيب fallo !!) وهو الذى اشتق منه اسم أخيل وكلمة بلطة ax وكلمة محور axis ، وغير ذلك من كلمات تعبر عن أهوال الويل والعذاب التي يهددون بها أصحاب النظر العقلانى (= حور أو الصقر) !!

● وللتأكيد على الربط القديم بين وعيدورهبوت الصلب أو الشنق أو التعذيب والتنكيس وبين حرف الدلتا الذى ربطوه وخلطوه لهذا السبب نفسه بحروف التاو والجاما والإف والإكس / الاخ . الخ ، يجب ألا ننسى أن الكلمة اليونانية جاما تدخل أيضا فى معانـــــى الزواج أو

(١) انظر مثلا حواشى العهد القديم فى الكتاب المقدس البيروتى ، ص ٦٧ حواشى سفر حزقيال / الفصل التاسع .

(٢) انظر كتاب الهيروغليفية ص ١١٥ .

الجماع (gamos ومشتقاتها) (١) . وفى العربية القديمة ، أن « الاستجمار يعنى الاستنجاء بالجمار / الحجارة » ، وأن « تجمير فرعون للجنود » يعنى إرسالهم إلى البلاد الأخرى وحبسهم فيها ، و « تجمير الشعر » جمعه وعقده فى القفا ، بينما " جمر النار " معروف شائع . والربط والخلط بين الدال والجيم بشكل خاص ، نجده حتى اليوم فى الحروف الروسية والسلافية التى صنعها القديس سيريل فى القرن التاسع (وهو من كهنة بيزنطه الذين تربوا على تراث الأسرار الأورثودوكسية المصنوعة بالطريقة القبطية البطليموسية فى مصر قبل الفتح الاسلامى ، وقام فى روسيا هو وشقيقه بترجمة الكتاب المقدس إلى الروسية) .

من ذلك مثلا أنهم فى الأبجدية الروسية ، يستعملون للتعبير عن الدال : حرف دلتا اليونانى فى الطباعة △ ، وحرف دى اللاتينى فى الكتابة الكابتال D ، وحرف جى اللاتينى فى الكتابة السمول g !! (وقد ذكرنا أن حرفا يشبه الدلتا اليونانى ، يستعمل فى الأبجدية القبطية لينطق g/ج ، بينما نجد فى العبرية أيضا أن حرفا مشتقا من الدالت ويشبه الدال العربية تقريبا ــ ينطق ج ، كما أن رسم الدال العربية ينطق عندهم كاف !) . وفى الأبجدية السلافية والروسية أيضا ، يستعمل حرف الجاما اليونانى كما هو : Γ .

ومن ناحية أخرى ، فالأبجدية القبطية (التى تجمع بين اليونانية والمصرية القديمة) تستخدم شكل منشال / شوكه اللحم أو النخلة أو دلتا النيل من منظور الجنوب Y ، للتعبير عن دال أو عن تاء كليهما (وقد قلت إن مثل هذا الشكل يعبر فى الرونى عن الكاف / الكبة التى تكتب في اليونانى القديم المعروف مثل الإكس) . وهذا يجب أن يذكرنا بأنه فى إحدى الأبجديات اليونانية الأقدم ، كانوا يستخدمون شكل الإكس أو الصليب المربع للتعبير عن حرف تاو !! (انظر المادة المذكورة فى البريتانيكا) .

● هذه إذن متاهة يتوه فيها الباحث وليس فقط المثقف المتأمل ! بل إن أبجديات ولغويات أسرار الدلتا وشعوب الدلتا تعتبر متاهة بالمعنى الحرفى للكلمة ، بدليل أن كلمة متاهة فى لغات كثيرة اشتقت من اسم الدال أو الدلتا وبدائلها !! من ذلك مثلا كلمة « تيه » فى العربية ، وهى مشتقة من التاء / دال ! ومن ذلك أيضا الكلمة الفرنسية dédale (بغض النظر عن اسم العلم

(٢١) لاحظ هنا الأصل الأبجدى والمعنى الفيلولوجى لرقم ٦ العربى الشرقى (= دالت + واو عبرى) ، ورقم 6 الأوروبى (= تاء أو دلتا) – وينطق باللاتينية sex ويستخدم أيضا للتعبير عن حرف المشنقة المضاعفة F .

المصنوع لتبريرها !) . وحتى الكلمة الأخرى للمتاهة وهى labyrinth – تعبر بشكل التفافى عن نفس الأصل ، لأن بعض قطعان الاكتساحات الاسرائية التعبيدية كانوا يستخدمون طريقه الدالاى لاما فى تعكيس الدلتا إلى لامبا (دال / لام) ، ويفرضون ذلك بالقهر الدموى أو بالرعب السحرى ! من هؤلاء مثلا بعض الشعوب الاسرائية المكملة للاتروسك الذين انتشروا معهم فى إيطاليا لافساد وتشويه وبرمجة أذهان وماداحو سلالات الرومان لاحقا قبل إقامة امبراطوريتهم (ومنهم ما يسمى Sabini أو Sabilli أو Samni أو Safini – وكلها تنويعات أو توزيعات لغوية لنفس الأسماء الاسرائية / الاسرائيلية القديمة التى كانت تتسمى بها جماعات الاتجاه التعبيدى الاتروسكى أو شبه الاتروسكى !) . والمهم أن التاريخ يسجل عن جماعة منهم ، أنها كانت تقلب الدال إلى لام ! مثلا : تقلب dacrima / دمع إلى larme / lacrima !! (١)

ومع ذلك ، فهذه ليست طبعا كل الأسرار الرئيسية لثالوث رمز « الصليب المعقوف » ورمز « بلطة الفاشية » ورمز « المحور » (أى الإكسات أو الصلبان الثلاثة كما ذكرت) . ذلك أن الدال التى كانت تكتب مثلا فى السريانية وغيرها على شكل الهمزة العربية ء (والهمز يعنى النخس أو الغز) ، كانت تكتب فى أبجديات أقدم فى اليونان وفى كريت ينطق السين الذى يعبر عنه شكلها الأصلى (حيث يقال إنه مأخوذ من شكل الأسنان – لكن الصواب أنه مأخوذ من شكل سن السنارة الذى تعبر عنه أيضا كلمة croc ومشتقاتها ذات الصليب السنارى !). ولهذا كانت تسمى فى الأبجدية الكريتية وبعض الأبجديات اليونانية الأقدم باسم sigma أو san (= سين / S) . وهكذا كان الخلط الذى يشمل الدال يشمل أيضا السين !! وهذا واضح فى أن السيجما اليونانية القديمة المعروفة ، تكتب فى السمول بطريقتين : الأولى ، تشبه التاء القبطية والتاء العربية المربوطة التى ذكرتها ، حيث تكتب هكذا : 6 . والثانية تكتب هكذا : S بما يشبه علامة الاستفهام ، أى بما يشبه حرف « فى » (إف) المسمى بالجاما أو المشنقة المضاعفة فى الأبجدية الاتيكية وغيرها ! (٢)

---

(١) لاحظ أنه فى المنغولية الأولى ، يكتب حرف الدال بطريقة تجمع تقريبا بين اللام اليونانية والهاء العربية المربوطة والشين / المشنقة الهيروغليفية ، هكذا Ձ. (انظر الأبجدية المنغولية فى البريتانيكا) .

(٢) انظر مادة F فى البريتانيكا .

● وبهذا الربط أو الاقتران ، نفهم كيف يمكن أن يعبر أيضا رمز الصليب المعقوف أو صليب جاما عن صليب الإس إس ، أى عما يسمى وردة الرياح أو الفريرة أو الإس الدوارة – التى كانت ترمز أصلا مثل الصليب المربع إلى البوصلة القديمة المطموسة تاريخيا (حيث تحدد وردة الجهات الفرعية المحيطة بصليب الجهات الأصلية) (١) . ولهذا سميت أيضا باسم الصليب الوردى Rosea crucis / Rosenkreuz . (ولاحظ أن S.S. هو اسم زبانية البوليس النازى المرعب الذين كانوا يمارسون القبض على الضحايا واعتقالهم وتعذيبهم أو إبادتهم فى معتقلات النازية !!) .

ويجب ألا ننسى هنا ، أنهم كالمعتاد اخترعوا تأويلا تضليليا مزيفا لطمس وتحوير وتزوير المعنى الأصلى لاسم صليب البوصلة أو الجهات الأصلية وفروعه التى كانت تسمى الصليب الوردى أو صحيفة وردة الرياح ، حيث استخدموا بعض مجاذيب التخريف فى أواخر العصور الوسطى وبداية النهضة والتنوير لتحويل هذه الكلمة إلى اسم زعموا أنه لأحد أوليائهم المجاذيب كريستيان روزنكرويس (الذى لم تتضح حقيقته التاريخية بعد !) ، وقالوا إنه كان يجمع بين كرامات الصوفية والغنوصية الهرمسية الفرعونية والمسيحية والاسرائيلية وبين السيمياء الشرقية ، وأنه تجول فى القرن الرابع عشر فى مصر ودمشق والحجاز وفاس المغربية ، وجمع منها أسرار حكمته الخرافية المزعومة الصادرة من الشرق !! ومن ثم أعلنوا فى القرن السابع عشر مايسمى حركة كريستيان روزنكرويس / حامل الصليب الوردى !! وهذا المعنى الفريرى أو الدوار ، هو الذى يعبر عنه اختيار مخططى النازية لشعار الصليب المعقوف الرسمى عندهم مائلا داخل دائرة ، بطريقة توحى بالدوران ، هكذا : (卐) أى صليب التدوير المعقوف !

وأعتقد أن كلمة swash التى تعبر عن الارتداد الدورى أو عن الحركة الدوارة ، مشتقة من هذا المعنى فى اسم السواستيكا . وهذا التكرار الدورى التدهورى ، هو الذى تعبر عنه أيضا كلمة revolution / ثورة (والكلمة العربية مشتقة من هياج الثور !) – بخلاف معنى الدورات التوالدية أو الانبعاثية التى تقول الفولكلوريات الاسكندناوية إنها تأتى بعد الطوفان أو الدمار الشامل الذى تسببه « الأفعى الكونية » Mid gardsormer ومن معها من قوى الشر والخراب،

(١) بالتعبير الشائع فى عهد ابن خلدون ، كانت تسمى « الكنباص » (= compass)أو « صحيفة الكنباص » . انظر مقدمة ابن خلدون ، طبعة الشعب ، ص ٥٠ .

فاتجاه الدورات هنا هو العكس طبعا . وهى تسمى عندهم volva (ومعناها الأصلى الرحم أو دورة الولادة) . وأعتقد أن أحد أسماء الصليب المعقوف أو الصليب الدوار – وهو فولفوت lfot fy (لاحظ أن y تنطق باليونانية u) – ربما يكون مشتقا من هذا المعنى قبل تشويهه وتحويره وتدويره عكسيا . (قارن مثلا كلمة volvulus التى تعبر عن التلفيفات المعوية وما شابهها !) .

● وقبل أن نرجع إلى المعنى الدوار للصليب المعقوف ، يمكن أن نشير هنا إلى أن البقايا العقلانية فى الفولكلوريات الاسكندناوية تذكرنا بحضارة أوروبية قديمة ملموسة ، عثر على بعض آثارها في النمسا ووسط وغرب أوروبا ، كانت قد بدأت من حوالى القرن ١١ ق . م واستمرت حتى القرن ٨ ق . م . وتسمى « حضارة هالشتات » Hallstatt . وهذه لم تكن تمثل دولة أو شعبا معينا أو قطرا ، ولكنها كانت آثارًا متواضعة لجماعات كانت تعيش حياة متعقلة بدون معابد أو كهنة (وتشبه آثار جماعة الاندوس التى أبيدت فى الشرق فى حوالى ١٤٠٠ ق . م) . ومن المؤكد أن هذه كانت أيضا جماعات تتعرض للابادة والطمس التام ، وأن بقاياها من المجموعات العائلية القيادية هم الذين صنعوا الدورات التوالدية الجديدة فى البلاد الاسكندناوية وإيرلندا وغيرها ، قبل أن يكتسحها الكهنة وقطعانهم .(وقد وردت بالفعل فلتات من الاشارات التاريخية عن أفراد يسمون الزّهّاد أو المتوحدين ermites كانوا يعيشون فى تلك البلدان فى مراحل أسبق (١)) . والمهم أنه من أهم آثار « هالشتات » هذه ، رمز الصليب المعقوف ، وأيضا رمز آخر ثلاثى الأطراف وليس رباعيا – يسمى triskele . وهذا الترسكيل يتكون من حرفين S يشكلان ثلاثة أطراف هكذا ، أو يتكون من ثلاثة أرجل حتى الفخذ مشتركة العانة وفى وضع الجرى هكذا . وواضح أن هذه الأشكال لا تعبر فقط عن دورات المطاردة والهجرة بسبب اكتساحات زبانية الكهنة وفرار حاملى شعلة بروميثيوس ، لكنها تعبر أيضا عن التثليث الجنسى المعروف عن الكهنة القدماء (ويعنى أيضا وبشكل خاص الاستعباد الجنسى للأسرى بطريقة صليب الاستحياء / عنخ) . ذلك أن الرسم

(١) هؤلاء يشبهون فى الشرق بدرجة ما ، مجموعات الأفراد الذين كانوا يسمون « الحنفاء » ولكن بالمعنى غير الدينى – أى قبل التحوير الدينى لمعنى هذه الكلمة فى ظل المسيحية (وهو التحوير الذى عرفناه فى عهد ظهور الاسلام عند أمثال ورقة بن نوفل فى مكة وأبى عامر بن صيفى الراهب فى يثرب) .

الهروغليفى للكاهن هو رسم « الساقى » ، أو الذى يتكون من ساق أو رِجل (حتى الركبة) تحمل جرة خمر – وينطق الرسم الهيروغليفى : ويب أو وعب .

وعلى كل حال ، نرجع الآن إلى المعنى الدَوّار للصليب المعقوف . فهذا المعنى يعبر عن جانبين: جانب الملاحقة والمطاردة الدوّارة ، وجانب آخر يرتبط بذلك بالضرورة ، هو ميكانيزم التحوير التزييفى المستمر والتبديل التضليلى المستمر ، ومن ثم الانزلاق والسقوط التدريجى ، الذى تغطيه وتستكمله دورات التدهور ودورات الطوفان والتدمير الشامل . ولهذا كانوا يرسمون فى ذيل « الصليب السريانى » سمكة ملوية : ليس فقط لأن السمكة تعبر كنسيا عما يسمى أسرار الصليب ، لكن أيضا لأن السمكة تعبر شكلاً عن الانزلاق والالتواء / التلوى ، بينما اسمها فى اللغات المصرية العبرية العربية واليونانية اللاتينية (١) يعبر موضوعاً عن الغواية والقنص وشباك الايقاع والتوريط والتحكم السحرى (= المسمرة أو التصليب السحرى) . وقد أوضحت قبل ذلك أن هذا هو المعنى الأصلى لكلمة فتنة أو سحر الشرق / مصر . وهو ينطبق طبعا على أى نوع من التحكم السرى القهرى الشامل . وفى هذا ، نلاحظ أن الكلمة اليونانية اللاتينية التى تعبر عما يسمى « اليد أو العصا السحرية » أو « خاتم الجن » (= خاتم سليمان) rhabdomanus ، مشتقة من اسم مصر Rahab . وكذلك كلمة arrhabo / rahabo (رهبو أو أرهابو ، وباليونانية هرابو) التى تعنى الرهن أو الوضع تحت الفدية (مما يعبر أصلا عن الابتزاز أو عن الأسر / السجن) . أما التحوير والتحريف والتصحيف والتلفيق الذى يقلب ويغير المعانى ، فقد اشتق اسمه أيضا من تقاليد الاجرام الفرعونى rhabsodia . (٢)

(١) انظر مثلا : سيك / شبك ، وتعنى أيضا تمساح (من المسح أو المس التصليبى – وفى الاسم الأوروبى أيضا crocodile من croc) وسميك / كمب . ثم إخثوس (وتشكلاتها تعبر عن الخزى والخزق والخصى – ولاحظ أن العبرية القديمة تسمى حرف كسى / خى فى اليونانية باسم samek أو samk !!) . ثم بسك / فسك (= فاش) / fish / fiche / fix / fissus، الخ .

(٢) المعنى الأصلى لهذه الكلمة فيما تقول القواميس ، هو : حياكة تلفيقات الأشعار القديمة أو الأساطير والملاحم القديمة (ومنها فى رأيهم الأغانى الهومرية) . لكن واضح أن أصلها كان يعنى التلفيق والانتحال التحويرى المزيف تحت قهر الرهبوت الفرعونى أو على الطريقة الفرعونية . ورغم أن الكلمة لاتزال تعني فى اللغات الحديثة الكلام الملفق المخلوط المشوش ، إلا أنها تعرضت كالمعتاد للمزيد من التحوير ، ولكن تجميليا ، فأصبحت تعنى تجميع المقتطفات وخصوصا الموسيقية !!

ومن ناحية أخرى ، يجب ألا ننسى أنه فى العربية القديمة وأصولها المصرية الشامية ، اشتقت كلمة « تحوير » وكلمة « محور » وكلمة « حرباء » من كلمة « حور » أى عين أو صقر النظر العقلى البحراوى ! فظاهرة دوران وتكرار دورات التحوير والحربائية والتدمير ، اشتق اسمها من أصل هذا المعنى العقلانى القديم نفسه ، للتعبير عما يرتبط به من عمليات مضادة ! ذلك أنه رغم الرواسب العقلانية التمجيدية التى بقيت لهذا الأصل ومرادفاته أو لمشتقاتها ، فقد صنعت منها ومن مشتقاتها الكثير من التحويرات التشويهية المنفرة والمرعبة والتسفيلات البينية ، الخ . (١)

● وبذلك نجد أن الصليب المعقوف يعبر عن الأنواع التالية من محظورات الأسرار التى يرمى اللعنات الشاملة المهولة بسببها :

(١) – التحذير بأنكى الأهوال من زيادة النظر أو التفكير العقلانى عموما ، والنظر أو التفكير العقلانى فى وقائع وأسرار التاريخ القديم خصوصا . وتشترك فى التعبير عن ذلك أيضا إكس البلطة الفاشية ، وإكس المحور . فإذا كان الشاعر الشيوعى الفرنسى إيلوار قد عبر عن جرائم الاحتلال النازى وزبانيته قائلا : « إنهم يبحثون عن العيون التى تبصر فى الظلام لكى يفقأوها » ، فقد كان هذا يحدث فعلا فى الجحيم الفرعونى منذ آلاف السنين ، حيث يصف « كتاب الموتى » أحد أنواع التعذيب بأنهم كانوا يقيمون « فى » عين المغضوب عليه محورا أو سيخا متحركا يدور داخل محجر عينه بعد سملها وفقئها !!

(٢) – التحذير بأنكى الأهوال من النظر أو التفكير العقلانى فى أسرار أصول اللغات والأبجديات القديمة التى يعبر عنها رمز صليب جاما ، أو فى أسرار أصول العبادات والأديان القديمة التى كانت تستعمل هذا الرمز (قبل الاسرائيلية المعروفة ثم في عهد الاسرائيلية والمسيحية) ، أو التى كانت تستعمل مرموز أو مسمى الصليب بمختلف أنواعه وأشكالـــــه

---

(١) على سبيل المثال السريع ، نجد أن كلمة « حور » التى هى أصل « حر » ، لم تقتصر على التحويرات النسائية مثل كلمة « الحور العين » لكن اشتق منها أيضا « التحريم » (بمعنى الابادة ، وبمعنى العزل المطلق ، وأيضا بمعنى اللامساس المقدس) ، وكذلك النحر والحرب والحرق والحرامى ، الخ ! أما كلمة « سام » (= شمال) ، فاشتق منها السامى والسمو وأيضا السم وسوم العذاب . ومرادفتها « شام » (بنفس المعنى) ، اشتقت منها الشمالة والشمائل أى الفضائل ، وشامة الحسن ، وأيضا الشؤم والشومة !!

وأسمائه ، ابتداء من صليب عنخ / العانة الفرعونى الأقدم حتى صلبان العصور الوسطى !
ومن ثم ، **التحذير بأنكى الأهوال** من النظر أو التفكير العقلانى فى أسرار صناعة الرعب والرهبوت وأنواع التعذيب السرى والتحطيم السحرى croc ، الخ .

(٣) – **التحذير بأنكى الأهوال** من النظر أو التفكير العقلانى فى ميكانيزم التحوير والدحدرة / الدحرجة فى منحدر التدهور الذهنى والتسفيل الذهنى أو الثقافى العام ، وفى تدويرات/ دورات الطوفان واكتساحات التدمير الدورى المتكرر والمستمر منذ فرعونية مينا .

(٤) – استخدام هذا الصليب الذى يعبر عموما عن الهول والرعب والحرب الانتحارية ، لتحذير أى قوى سياسية أو اجتماعية متمردة أو ميالة إلى عدم الخضوع للقيادة الأنجلو أمريكية للسلطة الدولية .

وواضح طبعا أن هذه التحذيرات الشفرية والفولكلورية المهولة ، كانت موجهة أساسا إلى مراكز وأجهزة عليا فى مختلف الدول التى تستشعر منها تلك القيادة العليا الأنجلو أمريكية احتمالات التحرر أو التمرد بدرجة أو بأخرى ، لأن هذه هى المختصة بشكل مباشر بتشجيع أو تحطيم إمكانيات البحث والتفكير فى بلادها . وقد كان هذا يتعلق أساسا أو خصوصا ، بالمفكرين والعلماء المتخصصين المتحررين فكريا (أى اللادينيين أو الذين من أصل يهودى أو يتهمون بذلك ، الخ) ، الذين تدعمهم أجهزة الحكم فى الاتحاد السوفيتى وفى ألمانيا ، فضلا عن أمثال هؤلاء المنتشرين بالضرورة فى بقية أوروبا . وقد اكتسح طوفان النازية الأجهزة الألمانية التى كانت قائمة قبل الثلاثينات ، وقام بإخضاعها وتصفية أجزائها غير المرغوب فيها ، ومن ثم أمكن تصفية اتجاهات التحرر الفكرى والبحث العقلانى فى المجتمع الألمانى ، وسوقه كالقطيع إلى المجزرة والمحرقة الشاملة فى أوروبا وخصوصا ضد الاتحاد السوفييتى . واستكمالا لذلك ، غرق الاتحاد السوفييتى فى ظروف الحرب والتناحر على البقاء والطوارئ العسكرية الخانقة ، فأغلق ملفات البحث والتفكير !!

ولننظر الآن نظرة سريعة إلى المدلولات التاريخية القديمة لأسماء الصليب المعقوف .

● تحدثنا كثيرا عن اسم صليب جاما أو الجمعاوى gammadion . أما اسمه المأخوذ من السنسكريتية الهندية ، فهو السواستيكا svastika / swastika . وهم يفسرونها فى تراثهم السنسكريتى المحوّر (الذى لم يبدأ تسجيله إلا بعد مراحل تدهور ملموسة ثم تحويرات

البوذية وغيرها فى القرن السادس ق . م) ، قائلين إن سو ، وسفاستى / سواستى تعنى طيب أو خير أو ما إلى ذلك ، ومن ثم يعبر الاسم عن باروكة للفأل الحسن !! لكن الصواب هو أن الكلمة المقصودة هى سوا / سواء / صفاء ، الخ ، التى كانت تعبر فعلا عن صحة وسلامة العقل ، ومنها فى اليونانية سوفيا / صوفيا أى حكمة . إلا أن هذا هو فقط الأصل العقلانى للمعنى الأقدم للكلمة التى اكتسبت كالمعتاد جانبا آخر من المعانى اللاعقلية أو التدهورية أو المرعبة ، الخ ، وفق تقاليد «المثانى » والالتباسات المشتركة فى التخليطات اللغوية الكهنوتية المقدسة ! (= بلبلات برج بابل المذكور !) . وذلك الجانب الآخر معروف فى اللغات المصرية ومكملاتها الشرق أوسطية التى تجمع أقدم وأكبر رصيد لغوى كهنوتى فى التاريخ ! فكلمة التسوية / السوا فى العربية الشائعة لاتعنى فقط تسوية المساواة أو التصفية ، ولكن تعنى أيضا مايسمى فولكلوريا «تسوية الهوايل » و« التسوية بالنار » (مثلا بالطبخ أو الغليان) ، وكذلك السوّء / السوءة أى العورة ، الخ !

ولهذا ، فإن صليب السواستيكا يعبر هنا عن « تسوية » الهول والعذاب والدم والنار – حتى لو كانت بعض الطوائف الساذجة فى الهند أو غيرها قد استخدمته كباروكة فأل حسن. وإذا كان يقال إن بعض الجماعات الشعبية فى أوروبا قبل القرون الحديثة قد استخدمته شعاراً على رايات الحرب لايمانها بقدراته السرية ، فالسبب الحقيقى هو أنه رمز مرعب للأعداء ، تماما مثل رمز الأفعى الفرعونية الذى كانت تحمله بعض الجيوش الاسرائيلية قبل داود ، ومثل رمز التنين المرعب الذى كانت تحمله جيوش أخرى حتى العصور الوسطى والعصر الحديث !

يبقى بعد ذلك الاسم الألمانى المستعمل فى الانجليزية أيضا ، وهو hakenkreuz . وهذا الاسم يعبر تقريبا عن معنى الوصف المستعمل فى الاسم العربى ، وهو : المعقوف أو الملوى . فكلمة haken هى شكل ألمانى لكلمة hook ، وهى – تقريبا مثل crook و croc ومشتقاتها – تعنى الخطاف أو الهلب أو الشنكل أو السنارة أو ما إلى ذلك من أدوات معقوفة ، كما تعنى الخابور أو السيخ أو الوتد أو ما إلى ذلك من آلات حادة (ومنها المسلة أو الابرة الكبيرة التى أصبحت تسمى عند « فرعون ذى الأوتاد » بالاسم اليونانى أوبليسكوس أى سيخ الشوى أو السفود) . وهذه المعانى تعبر عنها أيضا بالتقريب ، كلمات الصليب والهلال ومشتقاتهما فى

العربية والافرنجية . ففي العربية نجد الصلب والتصليب والصلى / السلى ، وكذلك أهل على الذبيحة ، وأهل أى تزوج ، وأكل الإهالة أى دهن الذبيحة ، إلخ . وفي الانجليزية والفرنسية الحالية، ، نجد : cross ، و croissant (بمعنى crescent هلال ، وبمعنى pruning - hook منجل) ، و crosse (ومعناها عصا الأسقفية أو العصا المعقوفة hockey – stick) ، وكلمة هوكى (المشتقة من كلمة الصقر ذى المنقار المعقوف) ، وكذلك الكلمة العامية حكشه هي الأقرب كثيرا إلى الأصل الأقدم لكلمة haken / hook – وهو كما سجلته الهيروغليفية : « حقا » ، أى عصا الراعى (المعقوفة اليد بالطريقة التى قلدتها عصا الأسقفية الكنسية !) ، و« حقا » أو« حقان » ، أى حاكم . (وعلى غرار ذلك نجد فى العبرية الكهنوتية مثلا كلمة حاخام التى أصلها حاكام / حاكم) . وواضح أن الأصل فى معانى هذه الكلمات هو : الحق وتحقيق العدل والمساواة . لكن تشويه المعانى وتحويرها تسفيليا أو تعكيسيا فى اتجاه الرعب والتنفير ، حوّل عصا الحق إلى عصا الظلم والتعذيب (إلى درجة أنك تجد فى الهيروغليفية مثلا أن حبل الربط ش 𓍢 يرمز إلى العقاب / شنت ، أو إلى اسم الشرطة / شنعو ، من نفس جذر شنق !) . وقد صنع لنا هذا التحوير ، المشتقات التالية من ذلك الأصل : حقا – خاسو (أو خازو) ، أى عصا النخس أو سيخ الخازوق أو الخابور ، الذى نسبوه إلى الغزاة والحكام الأجانب ، وأُطلق بشكل خاص على الهكسوس (= حقسو / هكسو) . ومن المشتقات أيضا ، الحقن بعصا الحقوة (بدلا من استخدام عصا الحق) . والحقو / الحقوة ، أى الخصر أعلى العانة . وهو فى العربية القديمة أيضا إزار العورة ، مما يعنى أننا نصل هنا أيضا إلى حزام العورة / صليب عنخ ! وأظن أن هذا يكفى لتوضيح المعنى القديم للهاكن كرويس / hook-cross / صليب الحقوة / الصليب المعقوف .

● لكن لماذا كلمة المعقوف أو الملوى فى مختلف اللغات ؟!

السبب التاريخى الأصلى واضح ، رغم أكوام التمويهات والتتويهات خلال القرون . لكن للأسف أن وضوحه لايلفت النظر ، لأنه يتعلق بموضوع فقد معناه الدقيق وضاعت تحديداته المميزة ، بل وربما تكون قيمته وجدارته الموضوعية قد تبددت مع الزمن ، هو موضوع : العقل واللاعقل ! فالمعقوف hook / hawk / faucon ، هو الصقر رمز النظر العقلى الدقيق : حور . ومنه اشتقت كلمات وأسماء كثيرة تعبر عن أهل حور / البحراويين (= ب + حر) ناشرى شعلة

الكتابة والتفكير والمعرفة . لكن كما اشتقوا تعكيسيا من الجذر « حر » معانى التحريم والحرق، ، استخدموا صفة المعقوف تعكيسيا فى معان أخرى !!

من ذلك مثلا ، استخدام أبو قردان آكل الديدان ذى المنقار المعقوف ، رمزا للعلم ومخترعا الكتابة التى وضع أتباع حور أصولها الصحيحة !! ومن ذلك أيضا ، أنهم اخترعوا شكلا غريبا للمعبود سيت / شيت / شيطان ، يجمع بين سمات الكلب والخنزير والحمار وآكل النمل ، لكنه يتميز بشىء غريب ، هو خطمه / بوزه الحيوانى الطويل المعقوف ! (وأعتقد أن صفة المعقوف هذه هى التى أتاحت للكهنة المصريين أن يفرضوا على الهكسوس عبادته !!) . ثم الأهم من ذلك كله ، أنهم حوّروا صفة أهل النظر والتفكير / الحوريين أو الأحرار الذين ينظرون بعيون الصقر ، فجعلوا صفتهم هى الأنوف المعقوفة !! وهذا هو الوصف الذى أطلقوه مثلا على اليهود الاسرائيليين الذين صنعوهم كبدائل مزيفة للهوديين المتفكرين ، ثم أطلقوه بعد ذلك حتى على الرومان المتعقلين ، بحيث أصبحت كلمة roman nose تعنى حتى اليوم الأنف المعقوفة ! وهى تقال بالفرنسية nez aquilin (وتعنى باللاتينية أنف النسر الرومانى !!) . وعلى غرار ذلك ، يقال أيضا فى الانجليزية hawk or hook nose . وهكذا انتقل وجه التشبيه من دقة النظر إلى شكل الأنف والمنقار !! لكن حتى من حيث شكل الأنف ، فقد كان الأنف الحورى الأبيض المستقيم يقال فى العصور القديمة فى مقابل الأنف الأفطس أو المكسور snub - nose الذى يوصف به الزنوج والمصريون والجنوبيون وأمثالهم (والذى نجده فى تمثال طينى قديم لعبد إتروسكى قبل الامبراطورية الرومانية)!

ومن ناحية أخرى ، كانت كلمة « المستقيم » تعبر عن الصواب ودقة التحديد والأخلاق الفاضلة ، فى مقابل التعويج/الاعوجاج والانحراف أو التلويح / الالتواء ، الخ . (وهذا ما تعبر عنه فى اللغات الأخرى كلمات حنيف ، وأورتو / أورتودوكس ، الخ) . لكن المطببين الكهنوتيين اخترعوا للمستقيم معانٍ سفلية أخرى ، بينما ربطوا التعويج أو الانحراف والالتواء بصفة المعقوف (عقف / عقب / كعب) ، فاختلط العالى بالسافل ، والتواء المنقار بالتواء اللية / الإلية ! وقد رأينا ذلك فى كلمة الحق والحقوة ! (كما يمكن ملاحظته أيضا فى اختلاط كلمات شنق الرقبة أو القفا بشنق المؤخرة punic / henchen / nakke / snek ، الخ) . وبذلك أصبحت اليد المعقوفة أو الملوية لعصا الكاهن أو الحاكم ، لاتعبر فقط عن الويل والثبور ضد

المعقوفين / الحوريين (أى ذوى النظر العقلى أو الهوديين وأمثالهم) ، ولا تعبر فقط عن إعدام الرقاب ، لكن تعبر أيضا عن كل أنواع العذاب البشع الذى يستخدم ضد المغضوب عليهم عموما : ابتداء من مسلة أو سيخ الشوى والخابور أو الخازوق ، إلى الهون، فضلا عن ضرب أو شنق الرقاب .

هذه الخلفيات الفولكلورية التاريخية ، هى بعض ما يرمز إليه أبشع أنواع الصلبان المرعبة : الصليب المعقوف .

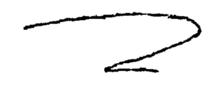
وكما قلب زبانية الاجرام الكهنوتى المعنى الجغرافى العقلانى القديم للصليب إلى معنى التعبيد والتعذيب والرعب ، وكما قلبوا معنى عيون الصقر إلى منقار أبو قردان وخطم الخنزير وإلى آلة التعذيب أو السيخ الملوى أو كعب أخيل ، فقد قلبوا حتى رمز الشمس الكبرى التى تضىء كل شىء ، والتى كان أتباع حور يعتبرونها رمز الطبيعة والعقل الطبيعى ، فجعلوا جعران أو خنفسة الروث رمزا للشمس نور العقل الطبيعى !!

لماذا ؟!

ليس لأن الكهنة اكتشفوا أنها باعتبارها من أدنى وأقدم الحشرات تستطيع أن تبقى حية فى فى المقابر وأوكار المعابد التى تودع فيها مواد إشعاعية تبيد أنواع الحياة الأخرى ، لكن أساسا لأن خنفسة الروث / البراز dung beetle حين تحمل فى الصباح « كرة » الروث الصغيرة ، تعبر بذلك عن أنها تحمل كرة أو قرص الشمس !! فكلاهما كرة أو قرص !!

وفى رسالة شاول / بولس الأولى إلى أهل كورنثوس يقول :

« الله كتب : سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء / عقل العقلاء . فأين الحكيم وأين الكاتب وأين باحث / فاحص هذا الدهر man of learning ؟! ... اختار الله جهّال العالم ليخزى الحكماء ... واختار الله أدنياء العالم ، الخسيس من العالم والحقير ... لكى لا يفتخر كل ذى جسم أمامه » !!(كورنثوس أولى ١ / ١٨ - ٢٣) .



البند الرابع عشر - الجمعية الفلسفية والغيبية

أشرت فى فصول الكتاب إلى «الغيبية» بالمعنى الفلسفى mysticism، أى بالمعنى اللامنطقى فى المعرفة، وأنها تختلف عن غيبية الشعوذة والتخريف السحرى occultism (تأمل فى ذلك مثلا عنوان كتاب برتراندرسل المعروف MYsticism and Logic).

لكننى لا أقصد فى هذا البند إلى أحد المعنيين. كما أننى لن أتعرض طبعاً لموقف «الجمعية الفلسفية المصرية» من رجال التصوف ورجال الدين (وكيف أنها جعلت رئيسها الجديد هو أبو الوفا التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر، بعد أن كان رئيسها الأسبق هو الاستاذ الإسلامى إبراهيم بيومى مدكور). ولن أتعرض طبعاً لارتباطها والتحامها الوثيق بكلية أصول الدين وبالأزهر، اللذين تعقد اجتماعاتها الكبيرة وأعمالها العامة تحت إشرافهما. فهذه كلها أمور لا تدخل فى موضوع هذا المقال، فضلاً عن أن موضوع الاكتساح الإسلامى لكافة المرافق فى مصر والعالم العربى، ليس موضع نقاش على الورق عموماً، ولا فى هذا الكتاب خصوصاً (مهما برز بشكل صارخ تركيزه على اكتساح مرافق وأفكار الفلسفة التى كانت تعتبر منذ مولدها المنافس «الملعون»، ومن ثم كان من الضرورى إخضاعها على الأقل إلى أن يتسنى تصفيتها وفق الفتاوى القديمة المعروفة!!).

أقول إن هذه المعانى الواسعة للغيبية لا تدخل فى موضوعنا هنا، إلا من حيث دلالاتها الفكرية الخلفية التى تشكل حواشى المعنى المباشر المقصود. أما المعنى المقصود، فهو غيبية المعلومات أو تغييب المعلومات، أى طمسها ومحوها أو حجبها وتغطيتها، أو حتى إسقاطها بالتجاهل والإهمال والصمت!! فإذا كان أصل معنى «السحر» هو التصرف فى «السر» والخفاء، أى التحايل السرى غير الظاهر (وفى العصور الوسطى كانوا يسمون الميكانيكا التى اعتمدت عليها أجهزة الكهنة فى الملاعيب السرية باسم «علم الحِيَل»)، فإن الكثير من الغيب أو الغيبة يعتبر عكس الظهور أو الشهادة/المشاهدة، أى عكس العلن والمعاينة.

وكنت قد أسست فى أواخر عام ١٩٥٧ أول جمعية فلسفية بعد اختفاء جمعيات العشرينات والثلاثينات، وذلك باسم «الجمعية الفلسفية المصرية». وقمت بنفسى مع الصديق عيسى جبران

وزوجته مريم جرجس باجراءات تسجيل الجمعية والاتفاق مع نادى المعلمين بميدان الأوبرا على استخدامه مقراً لها (وكنا نحن الثلاثة من نفس دفعة ١٩٥٣). واعتمدنا فى تشكيل الجمعية على زملائنا فى الدفعة، مع بعض اللاحقين بنا من الدفعات التالية (مثل نبيل زكى وأمير اسكندر وشوقى جلال). ولأننا فى فترة الشباب كنا نؤمن بجدوى حركات «الشطارة» السياسية، فقد نفذنا نصائح الناصحين، فأبرزنا فى مجلس إدارة الجمعية أسماء زجاجية غير سياسية (مثل عزمى إسلام الذى أصبح بعد ذلك مدرساً جامعياً فى الكويت وفى مصر)، واتفقنا مع كبير مفتشى الفلسفة إذ ذاك (وكان اسمه حسن ظاظا) على أن يتولى رئاسة الجمعية. واحتفظت لنفسى بمسئولية النشاط الثقافى الذى كان ينقسم إلى فرعين : ١ - تنظيم المحاضرات (وبالفعل بدأنا ذلك بمحاضرة ألقاها فتحى خليل عن سلامة موسى). ٢ - تنظيم مطبوعات الجمعية، وهى إصدار سلسلة كتب كان أكثرها مترجماً، وإصدار مجلة فلسفية فصلية (وبالفعل اتفقت على ذلك مع الناشر لطف الله سليمان).

لكن بعد شهور معدودة من تأسيس الجمعية، حدثت حركة أو هوجة عبدالكريم قاسم فى العراق، وضاعف عملاء الغرب تلويحاتهم بالرايات الحمراء المزيفة لاستفزاز الثور الناصرى وأشباهه وتهييجهم ضد الشيوعية! ورغم أن الثور الناصرى حافظ على علاقاته بالاتحاد السوفييتى (فلم يتعجل نهايته التى كان من الممكن أن تقترن بنهاية قاسم)، إلا أنه ركز هياجه وانسعاره على الشيوعية والعقلانية والفلسفة فى مصر والعالم العربى. فلم تلبث سجون ومعتقلات القتل والتعذيب أن فغرت أفواهها، فانتهت جمعيتنا الفلسفية!

ولم نخرج من سجون ومعتقلات تلك الفترة إلا في ١٩٦٤. وجرفتنا مشاغل الصحافة والكتب عن جمعيتنا الفلسفية، التى لم يرتفع صوت يفيدنا بخبر عنها أو حتى يذكرنا بها! وقبل أن أفكر فى بحث الموضوع والتفكير فى التصرف، لاحقتنى شخصياً عمليات الاضطهاد والتخفيض الصحفى عام ١٩٦٧، ثم الحرمان من النشر بعد يناير ١٩٦٨، ثم الفصل التعسفى فى نفس العام! وبديهى أن ذلك الصراع المميت مع زبانية العسكرى الأسود، لم يسمح لى بالتصرف فى هذا الموضوع، أو حتى مقابلة صديق أو زميل قد يفيدنى عنه!! ولم تلبث هذه التعمية الغيبية الشاملة، أن اكتملت بالتغييب فى مستشفى المجانين سبعة عشر عاماً وثلاثة شهور! (ولاحظ أن كلمة «التغييب» تعنى

فى لغة المستشفيات التخدير الذهنى الذى يختلف عن التخدير الجراحى!).

وفى عام ١٩٧٩، قرأت فى الأهرام خبراً عن «الجمعية الفلسفية المصرية» وسكرتيرها العام عزمى إسلام (الذى كنت قد عينته بنفسى فى مجلس الإدارة عام ١٩٥٧). فكتبت إليه من العباسية خطاباً (أرسلت منسوخاته إلى كثيرين، ثم نشرته فى كتاب «معنى الديمقراطية» ص١٩٣). لكنه لم يهتم بإبداء أى رد أو تعليق، حتى لأحد أفراد أسرتى الذين يعرفهم فى مصر والكويت! ثم مات عزمى إسلام فجأة! وجاءت بعد ذلك شهور الإفراج، فزارنى فى المستشفى الصديق عيسى جبران. وكلمته طبعاً عن جمعيتنا الفلسفية التى كنت أعتز بتأسيسها. لكنه كان قد نسى كل شئ عنها، بينما كانت زوجته مريم التى تولت إجراءات إشهار الجمعية قد توفيت أيضاً! وحاولنا بعد ذلك أن نبحث عمن يفيدنا بخبر، لكن الجميع كانوا قد تباعدوا، أو تناسوا هذا الموضوع على الأقل!

ولم يكن يساورنا شك فى أن «الجمعية الفلسفية المصرية» التئ تنشر الصحف عنها منذ ١٩٧٨، هى جمعيتنا. لكن لم نستطع أن نصل إلى أحد من مسئوليها أو إلى بيانات مفيدة عنها. وعندما قرأت أن الجمعية ستعقد مؤتمرها فى آداب القاهرة فى يوليه ١٩٩٠، أسرعت إلى هناك! وقابلت الدكتور حسن حنفى وغيره من مسئولى الجمعية، وحاولت أن أناقشهم فى «العلاقة القانونية» بين الجمعية الحالية وجمعيتنا السابقة اللتين تحملان نفس الاسم، وهل يستخدمون نفس رقم التسجيل أم أنهم أعادوا تسجيلها، إلخ. لكنهم كانوا جميعاً يرفضون رفضاً مطلقاً وتعسفياً غريباً مناقشة هذا الموضوع أصلاً، مكررين فى كل مرة : «لأ! احنا مش عايزين إثارة الموضوع ده! لأ! ما فيش داعى لإثارة الموضوع ده!». غيابة وتغييب، وعماية وعماء، تتلخص فى كلمة واحدة هى: : لا كلام!!

واضطررت أثناء تعليق سريع من منصة المؤتمر أن أستأذن فى إثارة هذا الموضوع، باعتباره جزءاً من تاريخ النشاط الفلسفى فى مصر. ففوجئت بأحد الإسلاميين من المستمعين ينتفض ويوقفنى عن الكلام. (وكان واضحاً أنه من أحد نجوع القرى وأن مؤهلاته الريفية جعلته مدرساً فى إحدى جامعات الأقاليم أو بأحد الكراسى المهدرة فى جامعات القاهرة!!). وطلبت حماية المشرف على المنصة (وهو أستاذ قديم من أسرة وزير المخابرات الناصرى هويدى الذى يحمل وصمة إلقائى فى غيابة مستشفى المجانين عام ١٩٧٠). لكن الأستاذ المخابراتى طلبهنى هو أيضاً التوقف عن الكلام! فامتثلت!

وقررت أن أتخذ الإجراءات القانونية التى تضطر «الجمعية الفلسفية المصرية» الحالية إلى تحديد علاقتها بجمعيتنا التى تحمل هذا الاسم، والتى كان عزمى إسلام قبل موته سكرتيرها أيضاً. وبدأت مع أحد المحامين البحث المضنى عن ذلك فى مكاتب وزارة الشئون الاجتماعية، الذين وجهونا إلى قانون الجمعيات الجديد (واتضح أن اسمه القانون ٢٨ لسنة ١٩٦٤). وبذلك عرفنا حقيقة بسيطة جداً، تنقل المشكلة جزئياً من الخفاء أو الغيب إلى الشهادة أو العلانية! ذلك أن قانون ١٩٦٤ (الذى صدر أثناء وجودى فى سجن الواحات) كان قد ألغى كل الجمعيات السابقة عليه، واشترط مدة محدودة لإعادة إشهار ما يُسمح له بالبقاء منها كجمعيات جديدة! ومعنى ذلك أن جمعيتنا نحن تعتبر لاغية قانوناً، بينما الجمعية التى تحمل نفس الاسم تعتبر جمعية جديدة قانوناً!! لكن لم نعرف حتى الآن ما إذا كانت مجرد إعادة تسجيل خلال المدة القانونية، أم أن عزمى إسلام سجلها فى السبعينات بعد موافقة ذوى النفوذ (كما سمعت من الدكتور عاطف العراقى).

فما ضر لو كانوا قد أوضحوا لنا ذلك؟! وما ضر لو كانوا قد أعلنوا فى أوراقهم بيانات تسجيل الجمعية؟! وما ضر لو كانوا قد قدموا للمشتغلين بالفلسفة نبذة عن نشاطات وعن جمعيات الفلسفة فى مصر؟!

إن موقفهم يذكرنى بموضوع تعرضت له فى مستشفى المجانين. فقد كنت سمعت من بعض الدبلوماسيين الأجانب عام ١٩٦٩ أن «شيئاً ما» جرى تزويره لتبرير العزل العام ضدى قبل إيداعى فى مستشفى المجانين، ثم سمعت فى المستشفى من بعض العملاء المزيفين أن التزوير الذى لفق ضدى كان تزويراً لقضية قتل!! وطبعاً حاولت كثيراً أن أصل إلى معلومات عن ذلك، لكن الجميع كانوا يرفضون أى مناقشة أو تعليق حول هذا الموضوع(!!)، الذى اتضح أخيراً أنه موضوع وهمى تضليلى لا أساس له، وأن التزويرات أو التلفيقات التى أفادنى عنها بعض الدبلوماسيين الأجانب الذين أثق فيهم كانت مصنوعة سياسياً ومن نوعية أخرى تماماً!!

وفى هذه الأمثلة، تظهر تقاليد الرهبوت الكهنوتى البوليسى بقبضته القديمة، وراء نزعات الغيبية والتغييب والتعتيم والتعمية والصمت والتجهيل والتزام السرية والخفاء!!

فهرس الكتاب

الصفحة

عناوين فصول كتاب الفلسفة الذى صدر فى أول يوليه ١٩٨٩

"المبادئ الفلسفية الجديدة"

✧ تقديم عام

هيجل والفلسفة الماركسية (خمسة بنود)

✧ هذا الكتاب

✧ القسم الأول - فلسفة التناقض

أولا - موضوع التناقض والطريق الثالث : ١ - توضيح عن معنى التناقض

٢-أساليب إهدار التحديد التناقضى ٣ - الثالث اللامنطقى والثالث الممكن ٤ - تدرجات الكم

وانفصالات الكيف ٥ - لاثالث بين الارتقاء والتدهور .

✧ القسم الثانى - المبادئ الفلسفية الأخرى :

أولا - المادة والمادية

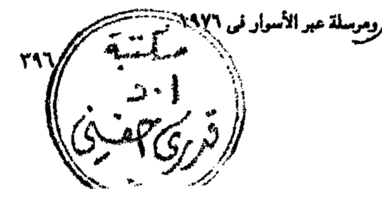
ثانيا - مبادئ الأساس الفلسفى للعلوم (تسعة مبادئ)

✧ خاتمة عامة

الفلسفة هى جوهر الثقافة (ثمانية بنود)

● التقديم العام والخاتمة العامة مضافان فى ١٩٨٩ ، بينما الأصول الأولى لبقية الكتاب مكتوبة ومرسلة عبر الأسوار فى ١٩٧٦

١٦٠ صفحة - ٤ جنيهات



عناوين أهم فصول كتاب الديمقراطية الذى صدر فى يناير ١٩٩٠

" معنى الديمقراطية "

✻ مقدمة عامة عن الايديولوجية الجديدة

✪ الفصول التقديمية للكتاب ، بعنوان : الديمقراطية والديماجوجية :

١ - الديمقراطية واللاعقل الدهمائى ٢ - صفقة الليبرالية القاصرة فى مصر ٣ - تجربة شخصية وراء الأسوار الصغيرة والأسوار الكبيرة

✪ الفصول الأصلية للكتاب (١٩٧٦) :

١ - ديمقراطية أثينا وأرستقراطية اسبرطة ٢ - التناقض بين المساواة والارتقاء ٣ - العقل صانع التاريخ والاقتصاد مادة التاريخ ٤ - الديمقراطية وحرية الفرد ٥ - الديمقراطية والأرستقراطية وتطور المجتمع ٦ - الليبرالية البرجوازية وتمزيق الديمقراطية ٧ - الشمولية والدولة ٨ - الديمقراطية والطبقية والصراع الطبقى ٩ - ملاحظات عامة .

✪ ملحقات عن شمول الاهدار والعداء للثقافة :

أولا - مقالات وموضوعات تشبه المقالات (أهمها : ابن خلدون واكتشاف أمريكا قبل كولمبوس - الحركة الماركسية المصرية حركة ديدانية - أوهام أصدقاء الغرب - ماذا يحدث فى المعسكر الاشتراكى - الخ).

ثانيا - خطابات ووقائع شخصية (أهمها : أمر الايداع فى مستشفى المجانين - نقيب المحامين وجمعيات حقوق الانسان وجعجعاتهم - أراجوزات الوفد والتجمع ، الخ - مظالم المجلس الأعلى للصحافة ونقابة الصحفيين الصفراء ودار الجمهورية - عملية الاستيلاء على مخطوطة الكتاب ومحاولات منع طبعه) .

٢٢٤ صفحة - ٥ جنيهات

أهم فصول كتاب الاشتراكية الذى صدر فى يونيه ١٩٩٠

" اشتراكية الاستثمارات الخاصة "

✪ خلاصة المقدمة العامة عن الايديولوجية الجديدة

✪ الفصول التقديمية للكتاب ، بعنوان : علم الاقتصاد والاشتراكية

١ - علم الاقتصاد ٢ - الاتجاهات التى أسست علم الاقتصاد ٣ - الاقتصاد الرأسمالى والاقتصاد الاشتراكى .

✪ الفصول الأصلية للكتاب (١٩٧٦) :

١ - صناعة الحتميات الاقتصادية ٢- " فائض القيمة " بدون " قيمة " ٣ - تصور جديد للقيمة الاقتصادية ٤ - الاستغلال الرأسمالى والانسلاخ الاقتصادى ٥ - لا اقتصاد بدون سوق ٦ - الميكانيزمات الاشتراكية للمصلحة الخاصة ٧ - الانفاق الانتاجى والانفاق غير الانتاجى ٨ - نوعان من الملكية الخاصة للأموال ٩ - النظم الاقتصادية .

✪ تذييل اقتصادى

عن معالم خط التدهور البشرى (إمساكية أرقام ووقائع نمطية) :

١ - أحجام القيمة الاقتصادية تاريخيا ٢ - المعالم البارزة للتدهور البشرى الحديث ٣ - مصر المحروسة / المنكوبة !

✪ ملحقات ديمقراطية أخرى عن شمول الاهدار والعداء للثقافة :

(١١ موضوعا : تبدأ بوقائع معادية للثقافة فى هيئة الكتاب واتحاد الكتاب ، وتنتهى بمقال كبير بعنوان دفاع عن الفلسفة والتخصص الفكرى)

٢٧٢ صفحة - ٥ جنيهات

عن المؤلف

✪ كتابات مطبوعة

أولا – فى المرحلة الماركسية فى ظل التفوق الأنجلو أمريكى :

كتب مترجمة عن الانجليزية والفرنسية ، مع تعليقات ودراسات تقديمية ، صدرت طبعاتها الأولى كما يلى:

المبادئ الأساسية للفلسفة (١٩٥٧) . كارل ماركس (١٩٥٧) . المادية والمثالية (١٩٥٨) المجانين لدستويفسكى / كامى (١٩٦٧) الاخوة الأعداء لكازانتزاكى (١٩٦٧) . جرائم الحرب الأمريكية فى فيتنام لبرتراند رسل (١٩٦٧) .

– دراسة فلسفية مع آخرين بعنوان : " سارتر مفكرا " (١٩٦٧) . وهذا فضلا عن عدد كبير من المقالات الثقافية والفكرية والدراسات فى الفلسفة وعلم النفس والفكر الاسلامى ، الخ ، فى صحف ومجلات المساء والجمهورية والكاتب والمجلة والفكر المعاصر والآداب البيروتية وغيرها (فى فترتى الخروج من وراء الأسوار وقبل الحرمان من العمل والنشر ، أى فى ١٩٥٦ – ١٩٥٨ و ١٩٦٤ – ١٩٦٨)

ثانيا – فى مرحلة القدرة السوفييتية الحقيقية المتحررة ، والاتجاه نحو البديل العقلانى الاشتراكى العلمى الصحيح للماركسية المصنوعة فى لندن (والتى كانت تدعمها أجهزة الغرب بوسائل مباشرة أو غير مباشرة):

✪ كتاب " المبادئ الفلسفية الجديدة (فلسفة التناقض والأساس الفلسفى للعلوم) " : صدر فى يوليو ١٩٨٩ .

✪ كتاب «معاناة الديمقراطية» : صدر فى يناير ١٩٩٠.

✪ كتاب " اشتراكية الاستثمارات الخاصة " : صدر فى يونيه ١٩٩٠.

✪ أما الكتاب " العقلانية الشاملة " : استلمت المطبعة مخطوطاته فى قاريونس منذ أربعة شهور.

✪ كتابات لم تطبع بعد

*كتاب ينتظر الطبع (كاملا أو ناقصا) - نشرت مقتطفات منه هنا فى حوالى ٨٠ صفحة ، بعنوان :

" نظرية فى فلسفة التاريخ "

*تحت التجهيز : الأصول الأولى لكتاب كتبت فصوله وأرسلتها على دفعات متوالية إلى رجال الثقافة عبر أسوار مستشفى العباسية فى الفترة من سبتمبر ١٩٨٥ إلى مارس ١٩٨٦ ، بعنوان : " دراسات نصوصية فى مقدمة ابن خلدون " .

*دراسات مخطوطة فى عدة آلاف من الصفحات ، فى اتجاه عقلانى جذرى فى فلسفة اللغة والأديان ، كتبت وأرسلت مقالاتها المتوالية من مستشفى العباسية منذ عام ١٩٧٨ وتتكون من الموضوعات التالية : المشكلة اليهودية فى تاريخ الأديان . دراسات فلسفية وفيلولوجية " حرة " فى النصوص الفرنسية والانجليزية والعربية (المصرية والبيروتية) الكاملة لأسفار العهد القديم ثم لأسفار العهد الجديد . ثم دراسات فلسفية وفيلولوجية " حرة " فى النصوص الكاملة للقرآن والحديث (البخارى) ، والسيرة (ابن هشام) . هذا فضلا عن الدراسات النصوصية لكتاب " تهافت الفلاسفة " للغزالى مع كتاب " تهافت التهافت " لابن رشد ، الخ .

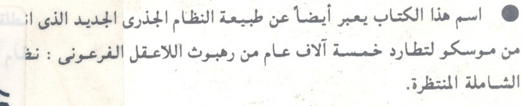
*دراسات ومقالات ومناقشات لمختلف الموضوعات المفتاحية الأخرى ، نشرت بعضها فى الكتب الأربعة الجديدة التى أصدرتها بعد الافراج عنى . وأهم مجالاتها كما يلى : السياسة والفكر والفلسفة والعلم ، وعن حقائق وجرائم الطب النفسى ومستشفيات المجانين . وأهم هذه الموضوعات ، بدأت كتابتها وإرسالها كل شهر بانتظام – منذ عام ١٩٨٢ – فى خطابات دورية ضخمة بعنوان " دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين " . ومنها دراسات نقدية لعديد من الكتب (مثل كتاب هونكه عن الحضارة الاسلامية) ، ودراسات نصوصية مقارنة لكتاب " كليلة ودمنة " وكتاب " الأسفار الخمسة " الهندى (مع تقديم عن الأصل اليونانى القديم للفولكلوريات العقلانية فى آسيا) .

موسوعة مصغرة عن العقلانية في مختلف فروع المعرفة

● القسم الأول من الكتاب يتناول الجانب المنطقى للعقلانية، التى جوهرها وقاعدتها مبادئ التحديد وعدم التناقض. أما القسم الثانى الذى يتكون من بنود كثيرة، فيتناول معالم العقلانية فى المنهج وفى العلوم والتاريخ والثقافة.

● فى منطق العقلانية، يتناول الكتاب : وظيفة الفلسفة، والفرق بين العقل والذهن والنفس، ومعنى التحديد واللاتحديد، والفرق بين التناقض الموضوعى الصحيح والتناقض الذاتى الذى يعنى التخليط، وأسباب العداء المنافق المزدوج للعقلانية والمنطق.

● فى فروع العقلانية، يناقش الكتاب معالم العقيدة العقلانية والاتجاه العقلانى : فى الفلسفة، وفى موضوع العلمانية والفرق بين العلمانية واللادين، وفى موضوع الزيادة السكانية الهابطة، وفى فلسفة اللغة والأصول اللغوية، وفى الفن والجمال وفى أسباب الإجرام والشر والرذيلة، وفى المشاكل والعلوم الذهنية والنفسية، وفى منطق المصادفات وحساب الاحتمالات، وفى تاريخ الفولكلوريات وتاريخ الأديان وفلسفة التاريخ.



● اسم هذا الكتاب يعبر أيضاً عن طبيعة النظام الجذرى الجديد الذى انطلقت شرارته من موسكو لتطارد خمسة آلاف عام من رهبوت اللاعقل الفرعونى : نظام العقلانية الشاملة المنتظرة.

الثمن ٧ جنيهات

